

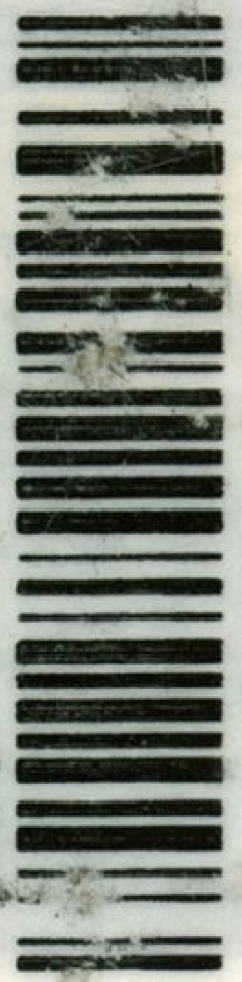
الحضارات البشرية ومنجزاتها

د. محمد سعيد حمدان
د. محمود عواد

الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات

هذا الكتاب

يعرف أولاً بمفهوم الحضارة بشكل إجمالى ، ونشأتها ومظاهرها وأدوارها وتفرعاتها ، إلى غير ذلك مما يتصل بموضوعات فلسفة الحضارة ، ثم النظر فى الحضارات التى عرفتها البشرية واحدة بعد الأخرى والوقوف من كل واحده منها على أبرز أفكارها وتصوراتها وممثليها، وذلك بدءاً من حضارات الشرق القديم إلى حضارة التكنولوجيا المعاصرة.





الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات

P.O Box: 203 Heliopolis 11757 Cairo - Egypt
Mobile: 002-010-1763677 Mobile: 002 - 010 - 3401184
E-mail: info@uarab.net u_arab@yahoo.com Web : www.uarab.net


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الحضارات البشرية ومنجزاتها

تأليف

د.محمد سعيد حمدان
د. محمود عواد

الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات
2010

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية؟ إدارة الشئون الإدارية

حمدان، محمد سعيد .
الحضارات البشرية ومنجزاتها / محمد سعيد حمدان، محمود عواد.
- ط - 1 القاهرة، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، 2009
- ط - 2 القاهرة، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، 2010
530ص، 17*24 سم.
تدمك 978 977 627 4631
1 - الحضارة - التاريخ.
أ - عواد، محمود (مؤلف مشارك)
ب- العنوان 909

رقم الإيداع : 2008/15639

دار النشر: الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات
عنوان الكتاب: الحضارات البشرية ومنجزاتها
اسم المؤلف: د.محمد سعيد حمدان، د.محمود عواد
رقم الطبعة: الثانية
تاريخ الطبعة: 2010

الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات
ص.ب: 203 هليوبوليس- القاهرة - جمهورية مصر العربية
موبايل/ 0101763677 (002) / 0103401184 (002)
www.uarab.net E-mail : u_arab@yahoo.com

مقدمة الكتاب

يتضمن هــذا الكتاب التعريف بالحضارات البشرية ومنجزاتها وكل ما يســتطيع المرء- عزيــزي القــارئ- للاطلاع على مثل هذا الموضوع الهام هو عنــاء تقليب صفحات كثيرة من كتــب التاريخ والفلســفة والإجتماع والأدب والسياســة والجغرافيا والعلــوم وما إلى ذلك.ولا عجب في هذا فالحضارة هي حصاد هذه المؤلفات جميعها.

ولعل المقصود بمثل هذا النوع من التأليف هو معرفة أو محاولة معرفة القوى المســيرة للتاريخ أو معرفة أســباب قيام الحضارات وتدهورها. وهاجســنا في هذا أن نصل أو نحاول الوصول إلي الطريق الصحيح الذي ينبغي على البشر سلوكه ليصلوا إلى بناء مجتمع إنساني أكثر أمنا وإستقراراً وأقدر على توفير أسباب الرضا والسعادة للبشرية.

إن مفهــوم الحضــارة يتجــلى في الاكتشــافات التي توصــل إليها البشر وأعنــي بذلك أن الاكتشــافات النافعة، والأكثر نفعاً هي الأســمى في قاموس الحضارة. وعلى هذا فربما يكون إكتشــاف القنبلــة النووية أو غيرها من وســائل تدمير الحضارة وتدمير صانعها الانســان. وســأذهب إلى أبعد من هذا فأقول:ما هو النفع الذي جنته البشرية من الصواريخ والمركبات الفضائية التي حطت علي سطح القمر؟ وماهي الدلالة المعنوية المعنى لاهرامات الفراعنة أو قصور فرساي مثلا؟

الأهداف العامة للكتاب:

ينتظــر منــك عزيزي القــارئ، بعدقراءة هــذا الكتــاب وتنفيذ جميع الأنشــطة والتدريبات الواردة فيه أن تحقق الأهداف التالية:

1- تتعــرف من خلال قراءتك لهــذه المادة على التطورات الحضارية التــي مر بها العالم في المشرق والمغرب خلال جميع العصور القديمة والمتوسطة والحديثة.

2- تتدرب على البحث عن مراكز الحضارة، وبعض مواقعها الجغرافية على الأطلس التاريخي ثم تعيين المواقع الحضارية على الخرائط الصماء.

3- تعــرف المفاهيم والمصطلحات والتعميمات وتبــين القيم والاتجاهات المتعلقة بالحضارة البشرية.

4- توضح أسباب نشوء حضارات الشرق القديم.

5- تبين أبرز الإنجازات الأدبية والفكرية للحضارات اليونانية.

6- تتعرف على السمات الإنسانية والقيم الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية.

7- توضح أسباب حركة الإصلاح في أوروبا في عصر النهضة.

8- تبين أسباب التطورات العلمية الكبرى في الحضارة الحديثة.

محتوى الكتاب:

يحتوي هذا الكتاب علي سبع وحدات هي كما يلي:

الوحدة الأولى : بعنوان(في الحضارة)تناول الحديث فيها عن مفهوم الحضارة وبيان شأنها ومظاهرها وتطورها وأسباب أفولها.

الوحدة الثانية : بعنوان(حضارات الشرق القديم)والتعرف على مناحي الفكر والثقافة والتدين في حضارة الشرق القديم.

الوحدة الثالثة : بعنوان(الحضارة اليونانية)حيث تناول الحديث فيها أبرز الأبحاث الأدبية والفكرية للحضارة اليونانية.

الوحدة الرابعة : بعنوان(حضارة العصور الوسطى)يتعرف من خلالها القارئ على ملامح العصور الوسطى ونظمها التربوية والاجتماعية والسياسية.

الوحدة الخامسة : بعنوان(الحضارة العربية الإسلامية)يطلع فيها القارئ على السمات الإنسانية والقيم الإبداعية التي تحققت في الحضارة العربية الإسلامية.

الوحدة السادسة : بعنوان(عصر النهضة)فيها يطلع القارئ على حركة الإصلاح في أوروبا ونشوء البروتستاتين.

الوحدة السابعة : بعنوان(الحضارة الحديثة)والقصد منها إطلاع القارئ علي التطورات العلمية الكبرى في العصر الحديث.

نرجو عزيزي القارئ أن نكون قد وفقنا في تقديم ما يحقق لك الفائدة المرجوة والمتعة العلمية.

والله ولي التوفيق

فهرس محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الوحدة الاولى

في الحضارة

الوحدة الثانية

حضارات الشرق القديم

الوحدة الثالثة

الحضارة اليونانية

الوحدة الرابعة

حضارة أوروبا في العصور الوسطى

الوحدة الخامسة

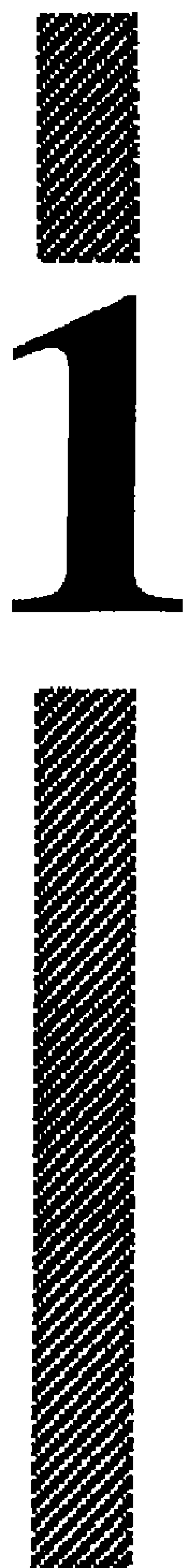
الحضارة العربية الإسلامية

الوحدة السادسة

عصر النهضة1350-1650م

الوحدة السابعة

الحضارة الحديثة



الوحدة الأولى

فـــــي الحضـــــارة

محتويات الوحدة

1.1 تمهيد

نرحب بك عـزيزي الدارس، في الوحدة الأولـى من مقـرر «الحضـارة البشـرية ومنجزاتها» وهي بعنوان «في الحضارة» والتي تشكل مدخلاً أساسيا لدراسة الموضوع، إذ فيها تتعرف على معنى الحضارة ونشأتها وأطوارها. كما نناقش فيها الحضارة بين الوحدة والتعدد، وبهذا نحاول الإجابة عن إمكانية قيام فلسفة للحضارة أو للحضارات المتنوعة.

إن مادة هذه الوحـدة وموضوعـاتها واسعة جـداً كتب فيـها الكثيـر، وسنحاول جاهديـن التعرض لأبرز مـا كتب. ونأمل منـك عزيزي الدارس الرجوع إلـى القراءات المساعدة المشار إليها للاسـتزادة، كما نتمنى عليك الاستعانة بالوسائل التـعليمية المساعدة قدر الامكان لإتمام الفائدة. وننبهك كذلك إلى طرق القيام بالأنشطة وحل أسئلة التقويم الذاتي والتدريبات الخاصة بالوحـدة. نرحـب بك مرة أخرى في وحدة الحضارة، راجين أن تستمتع بدراستها وأن تفيد منها. متمنين لك التوفيق والخير.

2.1 أهداف الوحدة

عزيزي الدارس، يتوقع منك بعد أن تدرس هذه الوحـدة، وتحلّ تدريباتها وتقوم بأنشطتها أن تصبح قادرا على:

1- أن تعرف مـعنى الحضـارة، وأن تتبين نشـأتها ومظاهرها وتطورها وأسـاليب أفولها.

2- أن تعي شجرة الحضارات الإنسانية والمعارف العامة والمتميزة لكل منها.

3- أن تعقد مقارنات ومقابلات بين خصائص الحضارات المختلفة.

4- أن تتبـع منجزات الإنسـان في المكان والزمان والحـدود والمجالات الطبـيعـية للابداع البشري.

3.1 أقسام الوحدة

تتكون الوحـدة التي بين يديك من ثمانيـة أقسـام رئيسـة ترتبط بقائمـة الأهداف السابقة فالأقسام الخمسة الأولـي والتي تضم: معنى الحضارة، ونشأتها وعوامل تكونها، ومظاهرها وأدوارها وأطوارها، وأفولها ترتبط بالهدف الأول.

أما الأقسام السادس والسابع والثامن والتي تضم: "الحضارة بين الوحدة والتعدد، وشجرة الحضارة: وحضارات الشرق القديم، اليونان والرومان، والعصور الوسطى، والحضارة العربية الاسلامية، وعصر النهضة، والحضارة الأوروبية الحديثة، كما تضم الإجابة عن السؤال التالي: هل يمكن بناء فلسفة للحضارة أو للحضارات؟ فهذه كلها ترتبط بالأهداف الثلاثة المتبقية الثاني والثالث والرابع المشار إليها آنفا.



4.1 القراءات المساعدة

عزيزي الدارس، ولمزيد من المعلومات عما تدور حوله الوحدة الأولى، حاول الانتفاع بالقراءات التالية، وذلك لاتصالها القوي المباشر بموضوع الوحدة، ومما لا شك فيه أن انتفاعك بها سيجعلك أكثر قدرة على استيعاب ما فيها من معلومات: كما سيعمق عندك القدرة على التصور والتحليل والاستنتاج:

1- حسين مؤنس، الحضارة، عالم المعرفة، الكويت، 1398هـ-1987م.

2- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1965.

3- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات، بيروت، عام 1973.

4- موسوعة تاريخ الحضارات العام، باشراف موريس كروزديه، منشورات عويدات، 7 ج، ط 3، بيروت، لبنا، 1413هـ-1993م.

5- قسطنطين زريق في معركة الحضارة، بيروت، ط 4، دار العلم للملايين، 1981م.

6- ق. شايلد، ماذا حدث في التاريخ، سلسلة بنجوين، 1942.

5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة

عزيزي الدارس، وقبل أن تبدأ في دراسة الوحدة أنصحك بأن تهيئ لنفسك مكاناً هادئاً ومريحاً، وأن يكون لديك خارطة للعالم القديم.

حاول أن تربط أثناء دراستك بين معلومات الوحدة ومكانها على الخارطة. إن قيامك بالأنشطة والتدريبات وحل أسئلة التقويم الذاتي يساعد على فهم المادة، وتحليل المعلومات التي تضمنتها الوحدة وتعليلها. ولا تتردد - عزيزي الدارس - في الاتصال

بمشرفك الأكاديمي كلما اقتضت الحاجة إلى مناقشة ما يعرض لك من صعوبات أو معضلات أو مسائل مثيرة للاهتمام.

2. معنى الحضارة

عزيزي الدارس، وكأني بك وأنت تقلب صفحات هذا المقرر، استعدادا للدرس والتحليل، تحاول أن تجمع أفكارك لتعطي تعريفا لمفهوم: (حضارة). إن هذا - في تقديري - يتطلب منك أن تحدد كذلك مصطلحي: مدنية، وثقافة. أنا لا أريد أن أضعك في متاهة المصطلحات كما لا أود أن يتشعب فكرك، بل أريد مساعدتك فيما أنت ذاهب إليه. لأن ارتباط هذه المصطلحات الثلاثة وتداخلها معاً في أذهان الكثيرين يؤدي إلى اختلاط الأمر.

إن المفاهيم المختلفة لكلمتي (Culture، و Civilization) في التفكير العالمي بين المشتغلين بالدراسات الحضارية قد انعكس أثرها على الدراسات التي تتناول هذا الموضوع في اللغة العربية، لذا بات من المستحسن تلمس مصطلحات ثابتة لترجمة هذه الأفكار حتى تستقر في الاستعمال العلمي. (محيي الدين صابر، ص 39-47) فكلمة Culture ترجع في أصلها إلى الفعل اللاتيني Colere والذي يعني فعل الزراعة، أو التمجيد والتعظيم. ومن الاستعمالات القديمة للكلمة، في اللاتينية، استعمالها في الدرس والتحصيل العلمي (عبد الله زاهي الرشدان، ص 144). أما كلمة (Civilization) فقد انحدرت من كلمة Civis اللاتينية، والتي تدل على المواطن المدني، في صورة سلوكية معينة، وهي ما تتميز به طبقة علية القوم في التقاليد الرومانية (عبد الله زاهي الرشدان، ص 144). وقد بدأت هذه الكلمة تظهر في العصور الحديثة منذ عصر النهضة مع ظهور المحاولات الأولى للدراسات الاجتماعية على يد المغامرين والرحالة والتجار والهواة، ثم تناولها فلاسفة القرن الثامن عشر وعلماء القرن التاسع عشر بالدرس والتحليل والتقويم.

عزيزي الدارس، لقد كان المصطلحان الأجنبيان يقوم أحدهما مقام الآخر سابقا؛ إذ أن العلماء الألمان، خاصة في العهد الرماني مثل راتناو (Ratnau)، وكيسرلنج (key-serling)، وتوماس مان (Tomas man)، والفرد ويبر (Alfred Weber) نزعوا إلى الفصل بينهما وأطلقوا على كل واحد منهما اسما، ورسموا له حدا، فهم يذهبون إلى أن (Culture) الحضارة هي صورة التعبير عن الروح العميقة للمجتمع. وأن مظاهر التقدم التكنولوجي والآلي هي المدنية (Civilization).

أما المدرسة الانجلوسكسونية فلم تكد تفرق بين المعنيين، على أن هناك بعضاً من علمائها مثل ماكيفر (Makiver) صاحب كتاب المجتمع يفصل بين الحضارة والمدنية في عبارات واضحة قائلا: «إن الحضارة هي ما نحن، أما المدنية فهي ما نستعمل. والحضارة تتمثل في الفنون والآداب والديانات والاخلاقيات بينما تتمثل المدنية في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا». ويسير في هذا الاتجاه من المدرسة نفسها أودوم (H.W. Odum) فيعرف المدنية بأنها نمو متخصص للمجتمع، يتميز عن الحضارات القديمة أو عن مجموعات الحضارات. ومعنى هذا أن كل مدنية هي حضارة وليست كل حضارة مدنية. ويرى أودوم أن للمدنية خصائص وسمات هي:

أولا: أن المدنية ظاهرة تنشأ في المدن التي تتميز بالتخصص في العمل والتجمع والانشاءات المادية.

ثانيا: الفنون الصناعية والتي يصوغ بها العلم والآلية والتنظيم الاجتماعي نسيج الحياة الحديثة وخصائصها.

ثالثا: اتخاذ الحياة العقلية، في معناها الثقافي والعلمي والانساني مقاييس عليا للقيمة والمكانة.

رابعا: الميل إلى التجمع وإلى الحكم.

خامسا: الحكم المطلق نتيجة التجمع، والحكم المؤيد بالفنون الصناعية.

أما عند الفرنسيين فإن كلمة مدنية (Civilization) أكثر دوراناً في كتبهم ولا يكاد ينعقد بحث للفصل بين الكلمتين الحضارة والمدنية.

عزيزي الدارس، وعن تحديد المصطلحات المقابلة لهذه الكلمات الأجنبية باللغة العربية، فنحن نستعمل في العربية كلمتي الحضارة والثقافة ترجمة لكلمة (Culture). والنفسيون عامة يستعملون كلمة ثقافة ويؤثرونها. أما الاجتماعيون فمنهم من يفصل بين الطرفين، فيرى أن تكون كلمة الثقافة دالة على الجانب الفكري من التقدم البشري، والحضارة على الجانب المادي (حامد عمار، ص 41؛ أحمد الخشاب، ص 41). ومنهم من يذهب إلى أن كلمة حضارة، ينبغي أن تكون ترجمة لكلمة (Civilization) والثقافة ترجمة لكلمة Culture (حسن سعفان، ص 11). والحضارة في اللغة هي الأقامة في الحضر، والحضر والحضرة والحاضرة، والحضارة بكسر الحاء أو فتحها أحيانا، هي خلاف البادية. (انظر عبد الله زاهي الرشدان، ص 146)

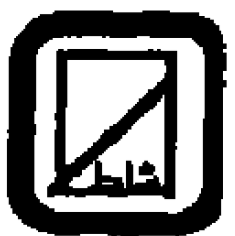
أما الثقافة فهي في اللغة مصدر الفعل الثلاثي ثقف، فالثقافة بكسر الثاء تعني الحذق والفطنة والنشاط، والصفات من الفعل ثقف هي: ثقف وثقف وثقيف، وثقف الرمح تثقيفا ساواه وعدله، والصفة من الفعل مثقف وهي ما نستعمله نحن. (عبد الله زاهي الرشدان، ص 146)

أما المدنية فهي في العربية مصدر صناعي من المدينة، ومدن المدائن مصرها، والنسبة للانسان مدني وللطائر والحيوان مديني، والمدنية تستعمل ترجمة لكلمة Civilization التي تدل على مرتبة من مراتب الحضارة، أو على صورة من صورها، فهي تعني مظاهر التقدم التكنولوجي والآلي والتي تتميز بأنها ذات طبيعة عقلية عامة لا تحدد بصفة محلية. وبمعنى آخر نستطيع أن نقول إن المدنية هي تلك الظواهر القائمة على أسس موضوعية من المعرفة اليقينية، فالحضارة تعتبر إلى حد كبير ظاهرة نسبية، أما المدنية فهي ظاهرة مطلقة، وهكذا - عزيزي الدارس - يمكن أن نقرر أن كل مدنية حضارة وليست كل حضارة مدنية.

لقد دخلت كلمة (حضارة) مصطلح العلوم المتأخرة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وأن مدلولها الكامل لم يتضح على الوجه الأمثل ولم يستقر مشتملة الأوفى الا بعد ذلك بكثير. (موريس كرزويه، ص 17)

وعلى نقيض البربرية، عنى المصطلح الجديد، على لسان فلاسفة القرن الثامن عشر العقليين، وكتابة الشعوبيين ومن لف لفهم، مجموعة من الخطط، والنظم القمينة باشاعة النظام والسلام والسعادة، وبتطوير البشرية الفكري والأدبي، وبتأمين انتصار الأنوار.

فالحضارة والحالة هذه: «وضع مثالي وحقيقي في آن واحد، عقلي وطبيعي .. سببي وغائي» (موريس كرزويه، ص 17). وهي ثمرة كل جهد يقوم به الانسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية. (حسين مؤنس، ص 13)



نشاط (1)

إرجع إلى لسان العرب لابن منظور وتعرّف إلى معنى كلمة كلٍ من: ثقف، مدن، حضر.



تدريب (1)

عرّف الحضارة؟



أسئلة التقويم الذاتي (1)

ما خصائص المدنية من وجهة نظر أودوم؟

3. نشأة الحضارة وعوامل تكونها

عزيزي الدارس، إن الحضارة بمفهومها السابق وثيقة الارتباط بعنصر الزمن أو التاريخ، فالثمار الحضارية تحتاج إلى زمن كي تؤتي أكلها ويجربها الانسان ويعرف فوائدها. والعقل عنصر أساس في صنع الحضارة، وهو أمر جعله الله في الانسان وليس في أي مخلوق آخر. وكأني بك يدور في خلدك سؤال نصه: هل نستطيع التحدث عن حضارة عند كل الكائنات الحية التي خلقها الله سبحانه وتعإلى؟. وللاجابة أقول: ان الحضارة ظاهرة انسانية عامة، فالانسان هو المخلوق الوحيد الذي يرتقي ويعمل علي تحسين أحوال نفسه بفضل ما وهبه الله من عقل يمكنه من التفكير واختزان المعلومات والربط بينها والافادة منها. وبذلك فإن كل أجناس البشر متحضرة، والفرق بينها في المستويات (انظر حسين مؤنس، ص 49). وهذا ناتج عن الظروف المواتية لقيام الحضارة وتطورها.

وبفضل ذهن الانسان استطاع أن يحقق اكتشافاته الأولى التي أدخلته ميدان الحضارة. وغالباً ما كانت هذه الاكتشافات تتم عن طريق المصادفة وبعد أن ينتبه إليها الانسان يقوم بها قصدا ويكررها بعد ذلك وتصبح جزءا من حياته. فعلى سبيل المثال افترض أن الانسان اكتشف الزراعة مصادفة؛ وذلك أنه سقطت بعض الحبوب على الأرض وغاصت فيها، وبعد أيام بدأ النبات في الظهور ثم نما وأصبح نباتا كاملا، ثم أخرج حبوبا من نفس النوع، ولا شك أن مثل هذا قد حدث الاف المرات حتى تنبه إليه الانسان، فأخذ يكرر هذا العمل وانتقل بهذا من طور جمع الغذاء إلى طور الزراعة. ومثل هذا يقال عن أمور كثيرة مشابهة. (انظر حسين مؤنس، ص 73/72)

عزيزي الدارس، يبدو أن إنسان الحقب المتهالكة في القدم كان هو الانسان الحيوان، أو بالأحرى الانسان الشبيه بالبشر، أما الانسان المنتصب القوام، ولا سيما

الانسان العاقل، المدرك، فلم يظهر الا بعد ذلك بوقت طويل: فالانسان الذي استعمل الادوات وتحسسها اكتشفت بعض مصنوعاته دون العثور على بقاياه أو أن بعض هذه البقايا كان نادر الوجود مبعثرا. كما يبدو أن ما وجده علماء الآثار من بقايا الانسان الصيني في (تشوكوتيان) على بعد 100 كم إلى الجنوب من مدينة بكين، وكذا الانسان القرد الذي اكتشفت بقاياه في بلدة تربنيل على مقربة من جاوه هو ما يجعل العلماء قادرين على تتبع بعض معالم التطور الذي بلغ معه الانسان منزلة الانسان العاقل في هذين المكانين. أما الحديث عن مكتشفات في أماكن أخرى كأوروبا مثلا ففيها فجوات محيرة تماما. ولعل هذا ما يجعلنا نميل إلى القول بأن جنسا ادميا جديدا أو بشرية جديدة طلعت أصولها من أقاصي اسيا لم تلبث أن انقضت على "البشرية القديمة" ومحقتها.

اصطلح المؤرخون على تسمية الانسان الأول بانسان العصر الحجري القديم، الذي عاش في العراء كلما سمح له الجو بذلك، واختبأ في الكهوف ومغاور الأرض أحيانا أخرى. اعتمد في معيشته على الصيد والقنص، وعالج استعمال حجر الصوان واتخذ منه سلاحا بعد صقله، ودبب منه الرأس، وحدد الأطراف، كما اتخذ له أدوات من عظام الحيوان وقرونه، وعرف النقش والحفر والرسم، كما توصل إلى افراغ بعض الأدوات في قوالب وأشكال معينة.

عزيزي الدارس، لقد حفظت لنا جدران المغاور والكهوف التي سكنها إنسان العصر الحجري القديم بعض معالم الفنون البدائية التي زاولها على شيء من الذوق والصنعة الفنية. فقد صوروا بعض الحيوانات التي دجنوها، وبعد ذلك بكثير صوروا الجسم البشري، محاولين جهدهم في كل ما عالجوه أن يتركوا مسحة من جمال ترسموه.

اتخذ الانسان آنذاك سلاحا ليدفع عنه ترصد الاعداء، وأدوات تعينه على العيش. كما اتخذ لاحقا من الأصداف والأساور زينة له وحلية، ومن بعضها تعاويذ ورقى، كما توصل إلى صنع بعض دمى بشرية الصورة انثية الشكل ليرمز فيها إلى الخصب والانسال. كما شارك في احتفالات ومناسك دينية، وكان السحر والفكرة الدينية يصطبغان كلاهما بمسحة من الفن البدائي. كما اهتم الانسان منذ العصر الحجري القديم بموتاه، وتأمين دفنهم وأدى به السحر إلى عبادتهم.

وفي مطلع العصر الحجري الحديث، صار الانسان راعيا وتمكن من تدجين بعض الحيوانات، وأقبل على الأرض يحرثها ويستنبتها، وأخذ في بناء الأكواخ والمنازل. وخاط ملابسه من صوف الحيوانات ومن بعض الألياف النباتية مستبدلا بها جلود

الحيوانات التي كان يعول عليها في لباسه من قبل. ثم تعلم كيف يستخدم خامات المعادن كالنحاس والذهب والقصدير، وخلط بين بعضها لاصطناع البرونز، وبعد ذلك بفترة زمنية عرف (الحصان) والعجلة، والحديد وسخرهما في خدمته وذلك في فترة العصر الحجري المعدني.

عزيزي الدارس، تلك هي خطوات تصعيدية في سلم الحضارة تدعو إلى الاعجاب وكأني بك تطلب المزيد عن هذا.

أود - ولا شك - لو أستطيع تحديد هذه المعالم في مدارج الرقي والتطور والتأريخ لها، واقتفاء أثرها. ولعل أكثر هذه الكشوف وأقدمها كلها هي التي طلعت علينا بها مدنيات الشرق الأوسط، ولا سيما مدنية مصر وبلاد ما بين النهرين (انظر بول ماسون - أورسيل، ص 16، 19). أما الحصان فقد وصل إلينا من مناطق أبعد. وأما الحديد فإن كان صنعه التقني يعود أصلا للشرق، إلا أن ندرته في مناطق البحر المتوسط تجعل من العسير جدا تطور هذه الصناعة هناك. والحصان والحديد كلاهما سجلا معا تطورا جديدا في دفتر الحضارة. وتجدر الاشارة إلى غزوات جاءت من الشمال: من التركستان، والقوقاس، والبلقان أخضعت الهند وايران وآسيا الصغرى واليونان. وقد أخذ الشرق الأوسط بوطأة هذه الغزوات منذ عام 1400 حتى أواخر الألف الثانية قبل الميلاد فزعزعت أركان الحضارات التي كانت مزدهرة منذ عهد بعيد. أما في الغرب الأوروبي فقد وصلت اليه صناعة النحاس والبرونز من الجنوب والجنوب الشرقي، وعرف معهما أن ينشيء له حضارات مستقلة قامت على هذه الصنائع. ولم يكن أثر حضارات الشرق الكبرى قد بلغ الغرب باستثناء بعض المهارات التقنية؛ فمن الشرق دخلت الغزوات والحضارات أوروبا مارة بوسط القارة، وذلك ابتداء من الألف الأولى قبل الميلاد.

عزيزي الدارس، وإذا ما أردنا أن نتقصى بالتفصيل معالم التطوّر الذي رسمنا بايجاز مراحله الكبرى كان لا بد من ملاحظة هذا العدد من الغزوات التي انقضت على أوروبا من أقاصي اسيا أو من سهول أوروبا الشرقية. وكان أكثر هذه الغزوات نجاحا تلك التي حدثت في أواخر الدور الحجري الوسيط وأوائل العصر الحجري الحديث، علما بأن هناك غزوات أخرى انطلقت فيما بعد متبعة طرقا أخرى، فبلغت مشارف البحر المتوسط والمحيط الأطلسي معا. ولا شك أنها وجدت نفسها وجها لوجه مع حضارات أكثر تطورا، وأقوى على المقاومة، الا أن تزعزع أركان الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث للميلاد، وانهيارها في القرن الخامس الميلادي يشيران إلى أن ليس ثمة صعوبة لا يمكن التغلب عليها. (انظر تاريخ الحضارات العام، ج 1، ص 27 فما قبل)

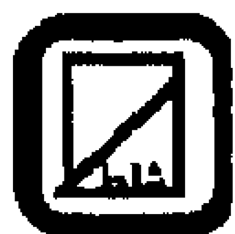
إن عوامل تكون حضارة من الحضارات يتطلب توافر أربعة عناصر هي:

1- موارد اقتصادية يتحقق بها المزيد على ما هو ضروري للحياة.

2- نظم سياسية من أي نوع كانت، يطمئن الناس فيها على الأنفس والأموال.

3- تقاليد خلقية يرعاها الجميع لِيطرِدْ سلوك الناس وينتظم، متخذا طريقه إلى هدف يسعى الجميع إلى تحقيقه.

4- متابعة للعلوم والفنون. (انظر: خلقي خنفر، ص 19)



نشاط (2)

إرجع إلى كتاب ول ديورانت، قصة الحضارة، واكتب تقريرا عن نشأة الحضارة البشرية.



تدريب (2)

متى تمكن الانسان من تدجين بعض الحيوانات؟



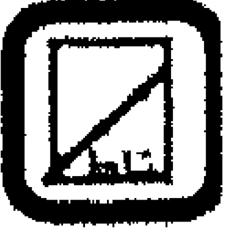
أسئلة التقويم الذاتي (2)

هلي يمكن أن نتحدث عن حضارة لدى كل الكائنات الحية؟

4. مظاهر الحضارة وتجلياتها

تعلم - عزيزي الدارس - بأن الحضارات تشترك بظواهر معا، لكونها منبثقة عن طبائع انسانية واحدة، وتتجلى هذه الظواهر في آثار الانسان العقلية والمادية؛ كاللغة والكتابة والدين، والعلوم، والآداب، والفنون، والنظم التي يقيمها الانسان لحماية الأفراد والجماعات. وتبدو هذه الظواهر واضحة في مخلفات الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة، ممثلة في المؤلفات واللوحات والعادات والتقاليد، والمباني والمؤسسات، ومن ثم الاشخاص ودورهم في البناء الحضاري.

ان التاريخ البشري هو تاريخ الحضارات وإنه من المستحيل ان تفكر في أي شكل آخر من تطور البشرية. دون الوقوف على حضارات امتدت عبر الأجيال ابتداءً من حضارات السومريين والمصريين القدماء والإغريق والرومان وانتهاء بالحضارتين المسيحية والاسلامية مروراً ببروز حضارات متعاقبة صينية وهندوسية وعبر التاريخ زودت الحضارات باوسع نظام لهوية الشعوب وكنتيجة لذلك فان أسباب انبثاق وصعود وتفاعلات والمجازات وضعف وسقوط الحضارات كان موضوع دراسات استكشافية مستفيضة من قبل مؤرخين وعلماء اجتماع وانتروبولوجيين بارزين: (انظر صموئيل هننغتون ص151).



نشاط (3)

قم بزيارة أحد المتاحف وتحدث عن نقش رأيته على لوحة فيه.



تدريب (3)

وضح فيم تتجلى مظاهر الحضارة؟



أسئلة التقويم الذاتي (3)

ما السبب في اشتراك الحضارات في ظواهر ثابتة؟

5. أدوار الحضارة وتطورها

عزيزي الدارس، وقبل أن أتحدث إليك عن أدوار الحضارة، أو أن تتعلم أن مقياس الحضارة هو مدى ذلك التحسن الذي يحاوله الانسان على ظروف حياته على وجه الأرض معنويا وماديا. (انظر حسين مؤنس، ص 53-57). هذا وسأستعرض واياك آراء ثلاثة مفكرين درسوا أدوار الحضارة وتطورها ومن ثم أفولها هم: دانيلفسكي، وشبنجلر، وتوينبي: يرى نيكولاي دانيلفسكي أن الحضارات الانسانية تمر عادة في ثلاث مراحل هي:

1- المرحلة القديمة (مرحلة المادة السلالية "الشعوبية")

وقد تستمر هذه المرحلة مدة طويلة تصل في بعض الأحيان إلى آلاف السنين. وتكون الشعوب خلال هذه المرحلة في حالة ركود تام لا تقدم للبشرية شيئا.

2- المرحلة المتوسطة:

وهي مرحلة تخرج فيها الشعوب من حالة الركود، تبني فيها قوتها الذاتية في المجالات الثقافية والسياسية وتستجمع جميع قواها لكي تستعد للمرحلة التالية التي يبدأ فيها الانتاج والعطاء.

3- مرحلة الحضارة:

وهي مرحلة يكتمل فيها نضج الشعوب فتصل إلى ذروة الانتاج والعطاء على الصعيدين الفردي والجماعي. غير أن دانيلفسكي يرى أن هذه المرحلة قصيرة نسبيا قد لا تتجاوز الأربعة قرون أو الستة.

ويرى شبنجلر في كتابه (انهيار الغرب) أن الحضارات تمر في أربع مراحل هي:

1- المرحلة الابتدائية:

وهي مرحلة شبيهة بالمرحلة التي تحدث عنها دانيلفسكي فالشعوب تكون فيها خاملة راكدة غير منتجة لأيّ من المظاهر الحضارية، فهي مرحلة (لا تاريخ لها) عنده.

2- مرحلة الثقافة المبكرة:

وهي مرحلة يسود فيها نظام الاقطاع، حيث المجتمع الزراعي، الذي يحتم نشوء صراعات بين الأرقاء وملاك الأرض فيبدأ النظام بالانهيار حيث تحل محله المدن والدول الارستقراطية.

3- مرحلة الثقافة المتأخرة:

وفيها تزدهر المدن وتنشأ الطبقة البرجوازية التي تتسلم مقاليد الأمور وتبدأ في كنفها مرحلة الإنتاج والعطاء في شتى المجالات وخاصة الفكر والفن والموسيقى. وفي هذه المرحلة يتحول الاقتصاد من اقتصاد إقطاعي زراعي إلى اقتصاد رأسمالي صناعي ويفقد الريف أهميته لصالح المدينة.

4- مرحلة الحضارة:

وتبدأ هذه المرحلة - في رأي شبنجلر - بعد قيام حروب عظمى تنتهي بقيام (الدولة الكبرى) التي تمد سيطرتها على العالم المتحضر، ويتولى الحكم فيها شخص

واحد. ولدى ظهور هذه الدولة تنتهي الحروب بين ما كان يطلق عليها دول، وتتخذ الحروب شكل صراع داخلي ومنافسات شخصية فقط، وبهذا يطلق شبنجلر على هذه الفترة اسم "سلام روماني" (Pax Romana).

أما الفيلسوف والمؤرخ الانجليزي (آرنولد توينبي) فيري أن نشوء الحضارة لا يعزى إلى تفوق جنسٍ بشـريٍ معين أو إلى ظروف جغرافية ملائمة، بل يعزى إلى مشاركة أجناس مختلفة ضمن ظروف قاسية جدا، بحيث تشكل هذه الظروف تحديا لمجتمع ما، فيحاول هذا المجتمع أن يواجه هذا التحدي ويرد عليه من أجل البقاء أو المحافظة على مستوي وجوده. فإذا ما واجه التحدي بنجاح وتغلب عليه ازدادت قوته الداخلية وقدرته الخلاقة إلى درجة كبيرة بحيث يؤدي ذلك إلى مولد ما يطلق عليه عادة اسم (الحضارة). ويستشهد توينبي بأمثلة على هذا بالحضارتين المصرية والسومرية، فيعزو نشأة كلٍ منها إلى تغير المناخ الذي حوّل الأرض العشبية في جنوب آسيا وشمال افريقيا إلى صحراء مجدبة يتعذر على سكانها الاستمرار في حالة الصيد. أما من بقي هناك من الناس وتكيّف مع الجفاف فقد عرفوا بالبدو، أما اولئك الذين واجهوا ذلك التحدي برحيلهم إلى وادي النيل وبلاد الرافدين حيث كافحوا عوائق البيئة الطبيعية وتغلبوا عليها وسخروها لأغراضهم فقد نجحوا في تكوين الحضارتين المصرية والسومرية. كما استشهد توينبي كذلك بمثال آخر للتدليل على صحة نظريته موجود في الحضارة الصينية التي لم تنشأ أصلا في وادي يانغ تشي الخصيب بل نشأت في وادي النهر الأصفر بمستنقعاته وفيضاناته.

عزيزي الدارس، ويذهب المؤرخون إلى أن كلا من الحضارات التي قُدّر لها أن تستمر زمنا طويلا وكان لها دور فعال في تاريخ البشر، قد سبق نجاحها محاولات كثيرة لم يكتب لها النجاح، فقد حاول الناس إقامة حضارة مرة بعد مرة حتى ثبتت دعائم الحضارة ونجحت التجربة وسارت القافلة.

ومن هذه الحضارات التي قامت ونجحت واستمرت عدد يمكن حصر مداها الزمني والجغرافي لاستمرارها طويلا مثل حضارة الفراعنة في وادي النيل وحضارة الحثيين في اسيا الصغرى زمنها ما اتسع مجاله وطال مداه في التقدم والقوة حتى مد رواقه على بقاع واسعة وابتلع حضارات صغيرة كثيرة وتحول بذلك إلى دولة واسعة أو دولة عالمية، ثم أخذت في الضعف والتدهور كما في الحضارة المصرية والسومرية، والاغريقية والرومانية وغيرها. (انظر: حسين مؤنس، الحضارة، ص 244)

نشاط (4)



ابحث عن كتـاب شبنجلر، نهاية الغـرب، واكتب تقريرا عنه ناقشـه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

تدريب (4)



اشرح وجهة نظر توينبي في نشوء الحضارة؟

أسئلة التقويم الذاتي (4)



اذكر مراحل الحضارة عند دانيلفسكي؟

6. أفول الحضارات

تخضع الحضارات في تطورها لقانون واحد ثابت، فالحضارة تنقسم إلى أدوار هي كالفصول الأربعة بالنسبـة للسنة: فهي تبدأ بربيع، وتعلو وتصل إلى القمة في وقت هو صيفـها، ثم تبدأ في الانحلال ويكون لها عـصر اضمحلال يناظر الخـريف بالنسبة إلى السنة، ثم يأتي الشتاء بمعنى أن الحـضارة يفنى كل ما فيها فتمـوت. (انظر عبد الرحمن بدوي، ص 31)

عزيزي الدارس، ويسـير شبنجلر في هذا الاتجـاه فيرى أنه ولدى بلوغ الحـضارة شكلها النهائي يختفي روح الخلق والابتكار وينصرف الناس إلى الاهتمامات المادية حيث يكون هذا بداية انحلال وانهيـار الحضارة. أما ارنولد توينبي فيشـير إلى أن لب التدهور هو الفشل المطرّد في الرد على التـحدي الخارجي. فاذا مـا ضعفت القوة الخـلاقة والتي تتمثل عادة في الأقلية الموجهة التي تقود المجتمع فإن هذه الأقلية تفقد جاذبيتها وسحرها على الجماهير ومن ثم فإما أن تتحول إلى سلطة تعسفية أو إلى سلطة ضعيفة مقلدة غير مبتكرة. وعلى كـلا الحالتين فإن الجماهير تتـخلى عن تلك الأقلية وتأخذ موقفـا معاديا لها. وهكذا تحدث ثغرة في الوضع السياسي وتصـدع في الوحدة الاجتماعية، وهذا هو بداية الانهيـار الحضاري الذي يقـترن بالعقم الذهني وعـدم القدرة على الخلق والابتكار والذي يؤدي إلى انحلال الحضارة بعد ازدهارها فإما أن تفني تماما - كما ذكر دانيلفسكي وشبنجلر - وإما أن تتوقف حتى تعاود دمدمتها الحضارية من جديد كما ذكر توينبي.

عزيزي الدارس، وفي أحيان كثيرة كانت الامكانات لنمو الحضارة محدودة، فلم يتسع المجال للنمو المطرد، فوقف عند مستوى معين، وفي كل نواحي الأرض نجد بقايا حضارات قامت وسارت شوطا ثم توقفت. وإذا توقف سير الحضارة فلا بد من أن تتقهقر وقد تتلاشى. ومن الحضارات التي وصلت إلى مستوى معين ثم توقفت وتدهورت: الحضارة القحصبية في الشمال الافريقي في اقليم الجريد جنوبي تونس، فهذه حضارة وصلت إلى مستوى الزراعة المنظمة وبناء البيوت وصنع الفخار وما إلى ذلك، ثم تدهورت وتوقفت وضاعت. وتسمى مثل هذه الحضارات بالحضارات المجهضة Aborted Civilization. ولا نعرف على وجه التحديد سبب إجهاض هذه الحضارات. فالحطام الذي تخلف عنها لا يعين على الوصول إلى هذه الأسباب. (انظر: حسين مؤنس، الحضارة، ص 244)

وتجدر الاشارة - عزيزي الدارس - إلى رأي آرنولد توينبي في أن كل دولة عالمية Universal State (أعني بذلك الجانب السياسي لحضارة ما عندما يتسع مداها ويمتد سلطانها) تتحول إلى حضارة عالمية لأن الكيان السياسي لدولة واسعة لا بد أن يتفكك وتبقى الحضارة التي تنشأ داخل حدودها وتجاوز تلك الحدود. وهنا يبدأ تدهور الحضارة كما في الحضارة الغربية اليوم؛ فالغرب المسيحي قد قطع دور الدولة العالمية ودخل في دور الحضارة العالمية وذلك ايذانا بضعفه وتدهوره ثم زواله. (حسين مؤنس، الحضارة، ص 245)

إن هذا التدهور - عندما تصل الحضارة إلى حضارة عالمية يأخذ زمنا طويلا يمتد قرونا لأن أهل الحضارة تضعف قواهم ويفقدون القوة على المحافظة على ما وصلوا إليه، ولكنهم يحاولون مرة بعد أخرى إعادة الماضي دون جدوى، وشيئا فشيئا تجهد حضارتهم أو جماعاتهم وتتحول إلى حضارة متحجرة ثم تنتشر حضارة عالمية أخرى تمد سلطانها على بلاد الحضارة الراكدة أو المتحجرة وتفيد من تراثها ولا يبقى من الأولى الا ما يبقى من الحيوان الميت وهي الاحفورة ولهذا تسمى هذه الحضارات حفريات. هذا، وليس من الضروري أن يكون ضعف الحضارات نتيجة لفساد الناس أو لهبوط هممهم، غير أن القوة الدافعة للأمة تتراخى وتضعف. ويشير ابن خلدون ت(808هـ) إلى أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها الفناء. وفي هذا يقول: "والسبب في ذلك - والله أعلم- ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها ... فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليها تناقص عمرانها وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم". (ابن خلدون، ج1، (المقدمة)، ص 185)

وعندما تنحل وحدة الحضارة فانها تسرع في خُطى التفكك ايذانا بالأفول والزوال، حيث يهاجمها الاعداء بالجملة وعلى الغالب يكون هؤلاء الأعداء أقل منها حضارة ولكنهم أقوى عسكريا، فتقوم على أرضها حضارة جديدة هي مزيج من حضارة الغزاة الجدد مع بقايا الحضارة المندثرة تماما كما حدث في حضارة الرومان عندما انحلت وذهب أمرها، ثم قامت على أساسها حضارة الغرب الاوروبي. كما فعل الرومان بالنسبة للحضارة اليونانية قبلهم.

إن الحضارات عندما تزول لا تزول في الحقيقة، وانما تتحلل مثل أوراق الشجر وتهضمها الأرض لكي تبني بها نباتا جديدا، فاذا بد لنا أن حضارة قد بادت فلتذكر أن الحضارات لا تفنى، وانما تموت وتتحلل ويرثها غيرها من الأمم، ويظل الأمر على ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. (حسين مؤنس، الحضارة، ص 274)



تدريب (5)

متى بدأت حضارة الغرب في التدهور والانحلال من وجهة نظر دانيلفسكي؟



أسئلة التقويم الذاتي (5)

وضح نظرة آرنولد توينبي نحو تدهور الحضارة؟

7. الحضارة بين الوحدة والتعدد

ان من المسلم به أن تكون حضارات متعددة لا حضارة واحدة، إذ من الواضح أن تحرك البشر في طريق التحضر قد تم في جهات كثيرة وفي ان واحد، وهذا يعني أن هناك أكثر من مهد لحضارة البشر فمسيرة الحضارة ابتدأت وفي وادي النيل، وبلاد الرافدين، وحول اليانغ - تشي؛ وحوض نهر السند وغيرها من أوقات متقاربة وسيرة متنوعة، فمنها ما زاد في سرعة تقدمه، ومنها ما توقف مؤقتا، ومنها ما توقف نهائيا، ومنها ما تراجع القهقرى.

ويبدو أن الجماعات البشرية متباعدة المنازل توصلت إلى الاكتشافات الحضارية الأولي في أوقات متقاربة، دون أن يكون بينها اتصال يؤدي إلى النقل والاقتباس، وبمرور الزمن وتكاثر البشر وتقدمهم في طريق الحضارة اتصلت الحضارات ببعض واخذ بعضها عن بعض فازداد التقدم الحضاري واتسع مجاله ومداه. (انظر حسين مؤنس، ص 76)

وليس ثمة ما يدعو إلى رفض رئاسة هذه التعددية وقيادتها. ان النظرة نحو تطور الوحدة الحضارية والمستوحاة جذورها وبخاصة من الغرب في مدلوله الواسع، لم يتبين الا منذ عهد قريب. الا أنه من الضروري عدم الأخذ بالنظرية الضيقة التي تقول بتاريخ واحد للحضارة؛ فمن المسلم به اليوم بين علماء الأجناس البشرية والمؤرخين والعلماء الاجتماعيين أن كل جماعة بشرية تقوم على شيء من النظام، لها مدنيتها الخاصة؛ حتى أن للأقوام المتوحشة حضارتها الخاصة بها؛ ففي ماضي البشرية وتاريخها السحيق، حضارات عديدة لكل منها مجموعة من الأفكار، والنظم السياسية، ومستوى من العيش المادي والتقني، وطاقات على الانتاج وقدرة على تأمين العلائق الاجتماعية على اختلاف مظاهرها: الدينية، والفكرية، والفنية.

عزيزي الدارس، إن جل الحضارات ودونما استثناء قد عولت على مصنوعات ومحاصيل جاءتها من الخارج. وقد تعتريك الدهشة عندما تفكر في المسافات الطويلة التي كان يقتضيها وصول بعض المواد الأولية، صحيح أن معظم هذه المواد المستوردة كانت خفيفة الحمل يستعملها الانسان في حلية وزينته لندرتها وغلاء ثمنها، مثل أصداف مقاطعة التورين - في العصر الحجري القديم - والكهرمان المستورد بعد ذلك بكثير من شواطئ بحر البلطيق، والحديد الذي اتخذت منه أدوات الصياغة في مصر وبلاد ما بين النهرين. وصناعة البرونز التي اقتضت كميات وافرة من القصدير جرى شحنها إلى بلدان الشرق الأدنى وأقطاره. فالتبادل التجاري إذاً كان سببا في إقامة الاتصالات المباشرة. والمهم في هذا كله أن هذه الاتصالات والمبادلات التجارية تمت دون أن تمس بشكل محسوس أصالة كل هذه الحضارات (تاريخ الحضارات العام، ج1، ص 29). ولعل التاجر والبحار الذي نقل تلك السلع كان لا يعير انتباها لنقل المهارات الفنية والتقنية والتعاطي بالأمور الفكرية والروحية.

عزيزي الدارس، وكأني بالناس الذين عاشوا في ظل الامبراطوريات القديمة قد راودهم الشعور بأن حضارة ما مشتركة تتحقق تساعد الجميع على العيش معا بسلام، ولعل المحاولة القصيرة الأمد والتي تمت على يدي الفاتح المقدوني والتي لم يقم من

يمارسها من جديد سوى الامبراطورية الرومانيـة في القرن الثاني للميلاد كانتا أمثلة على ذلك.

ان التاريخ القديم يعج بالامبراطوريات، كما يعجّ بأخـبارها ومصائرها وارتفاعها وهبـوطهـا إلى غيـر ذلك مما يدخل في صـمـيم التطورات السـياسـيـة. وكل من هذه الامبراطوريات التي طلـعت عبر التاريخ: من مصـرية، وآشورية، وفارسية، ومـقدونية وأخيـرا الرومانيـة كان يبز الـلاحق منها السابـق، ويدخل في روع المستقـريء أن نقطة الانطلاق كانت منه، وأن الاندفاع كان في كل مرة يقترب أكثر فأكثر من الهدف المشترك الذي وضعـه الفاتحون نصب أعـينهم، ألا وهو الامبراطورية الشـاملة وكان بهذا الجـهد الموصول لتحـقيق هذا الهدف السامي تعـبير عن نزعة جاش بـهـا قلب الانسان الا وهو تحقيق وحدة شاملة لـيست جغرافية فحسب بل بشرية أيـضا. (تاريخ الحضارات العام، ج1، ص 29)

عزيزي الدارس، ويجدر بك ملاحظة أن المنتصر دوما يشعر أن حضارته هي التي أدت به إلى النصر المبين وأنها خـير الحضارات وأمثلهـا، ويري فيها سر تفوقـه وتعاليه، فهو دائم الحرص عليها يصونها من كل عبث وانفعال ويحتفظ لنفسه بالمنافع الجزيلة التي أمنتها له، غـير أنه لم يحاول يوما أن يصطنع المغلوب على أمره أو أن يتمـثله أو يتقرب منه، وعلى الرغم من ذلك فلا يخلو الأمر من مساكنة الغالب للمغلوب وتعايشهما معا زمنا طويلا من تفاعلهما مـعا وانفعالهما بمؤثرات وعوامل مشتـركة؛ فبالرغم من تمسك المصريين مـثلا وتشبثـهم بعناء بتقاليدهم المـوروثة إلا أنه كانت تظهر عليهم مـعالم هذا التفـاعل المتبادل. الا أن الحـصول على نتائج ملـموسة جراء هـذا التفاعل يتطلب وقـتا طويلا الأمر الذي لم يتـوفر لكثيـر من هذه الامبراطـوريات التي كانت تتهـاوى وتنهار سريعا.

لقد فكر الاسكندر المقـدوني بهذا مما جعله متـفردا بين كبار الفاتحـين ومن المفيد ملاحظة أن هذه الفكرة لم تخـطر على باله في بدء حملته على الفُـرس بل نشأت عنده إبان الفتح والحـملة العسكرية. لذا جـاز لنا أن نعتـقد دون أدنى شك باخـلاصه في أن الفكرة تبدت له كوسيلة من وسائل التغلب على المقاومة العنيدة التي لقيها عند خصمه. الا أن حنق رفاقه وتململهم من صعوبة المطلب، وموته فـجأة، حدّ من التجربة وانتقص من امكانيات تنفـيذها بالزخم المرتجي والمدى المرغوب، وقد قام بـين خلفائه، من عاود الفكرة ورأوا فيهـا وسيلة مثلى لترسيخ مـا أقاموه من سلطان سياسي وعـسكري فعملوا على تدعيمه في نطاق الوحدة الروحية.

ومثال آخر نراه في روما التي أطلت علينا بامبراطورية تمتد أطرافها من الشرق إلى الغرب وكانت من أقوى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ القديم وأطولها مدى. وقد أوشكت أن تتحقق من ضمنها وحدة الحضارة. غير أن روما لم تسع إلى ذلك، بل فرضتها عليها عوامل عديدة ودوافع متنوعة: ادارية وسياسية وعسكرية واقتصادية، حتى ودينية فالمسؤولون في الامبراطورية الرومانية لم يعتنقوا الفكرة، ولم يماشوها الا متأخرين جدا بعد أن اتضح لهم فشل فكرة الامبراطورية. الا أن انهيار دولتهم حطم هذا الأمل.

ان هذا كله قد أسهم في نماء التراث البشري المشترك، وهكذا بدا العالم القديم، وكأن قوة خفية تحركه وتدفعه من حيث لا يدري نحو وحدة تتجدد دهرا بعد دهر. فالحضارات تتعاقب وتتهاوي بعد أن تحاول كل منها أن ترفع درجة أعلي من سابقتها، صخرة الوحدة التي آل اليها أمرها فترة من الدهر، ولكن لا تلبث أن تهوي الصخرة إلى الأرض محطمة كل شيء في انهيارها المدمر. (انظر تاريخ الحضارات العام، ج1، ص 31)

عزيزي الدارس، وكما تتصارع الأمم في ميادين الحرب والسياسة وما إلى ذلك تتصارع في ميادين الثقافة والحضارة كذلك؛ صراعات مستمرة وعنيفة ذلك أن ثمرات الحضارات والثقافات تميل بطبعها إلى الانتشار؛ لأن الناس إذا وجدوا مبتكرا جديدا سواءاً في ميدان الماديات أم في ميدان المعنويات مالوا إلى الحصول عليه ثم تقليده ومحاكاته، وبذلك يدور صراع في أذهان الناس ومجالسهم يفوز فيه الأحسن أو الأقرب إلى العقول والقلوب. واضرب لك مثلا حضاريا ماديا عن ورق البردي المصري الذي ظل قرونا طويلة مظهرا من مظاهر التفوق المصري الحضاري في الدنيا حتى جلب العرب الكاغد من الصين، فأخذ البردى المصري يختفي من الأسواق، وحل محله الورق الذي جود العرب صناعته، وصار الورق ينتشر في الدنيا كلها كمظهر لغزو حضاري لامة العرب في العصور الوسطى. (انظر حسين مؤنس، ص 59)

عزيزي الدارس، وأعززُ ما ذهبتُ إليه بمثال آخر يتحدث عن الغزو الثقافي الفكري كما حدث عند قيام دولة الإسلام وخروج العرب من جزيرتهم لنشره في نواحي الأرض، فقد قامت الدعوة له على أساس القران، والقرآن مكتوب بلسان عربي مبين، فانتشر الاسلام وانتشرت اللغة الغربية معه حتى أن هذه اللغة - وقرب نهاية العصر الأموي - كادت أن تقضي تماما على كل اللغات التي كان الناس يتكلمونها (انظر حسين مؤنس، ص 60). ومع الاسلام واللغة العربية أخذت الشعوب التي استعربت تقاليد

العرب وأخلاقهم وعاداتهم وأمثالهم وأساليب تفكيرهم، فأصبحوا مسلمين وعربا في ان واحد. (انظر حسين مؤنس، ص 60)

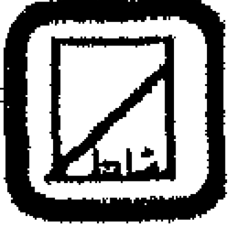
هذا، ويجب أن تدرك - عزيزي الدارس - أن العرب لم يضعوا أي سياسة لنشر العربيـة، بل كان القـرآن الكريم هو دافع الناس الأكبـر إلى تعلمها، ثم تكفـلت اللغة العربية ببقية التحويل اللغوي بفضل ما امتازت به من فضائل داخلة في صلبها وتركيبها؛ أي أن الغزو الثقـافي هنا كان في الحقيقة عـملية انتشار ثقافي ديني متـمثل في الاسلام والقرآن، ولغوي وفكري مـتمثل في انتشـار اللغة العربية وكتـابتها وآدابها شـعرا ونثرا. (انظر حسين مؤنس، ص 61)

ومنذ بدايات الاستعمار تحول الانتشار الثـقافي إلى عملية فرض فكري متفرع عن الغزو السياسي وملازم له. فانتشرت لغات الدول المسـتعمِرة بين شعوب الدول المستعمَرة ومع الغـزو اللغوي سـارت عمليـة الغـزو الفكري فاتخـذت هذه الشعـوب آراء الدول المستعمـرة وآدابها إلى جانب لغتهم، وأصبح من يريد التـعلم من أهل هذه البلاد ملزما بدراسة لغة الغـالبين اذ لا لغة تصلح للكتابة أو التعـبير عن الأفكار غيـر لغتهم. (انظر حسين مؤنس، ص 62)

وهكذا - عزيزي الدارس - فان اللغات هي أكبر وسـائل الانتشار أو أكبر وسائل التفرد الثقافي. وكلما كـانت اللغة أصلح للتقبل كان مجال انتشار الثقافـة خاصتها أوفر حظا، فالألمان وعلى الرغـم من كـونهم أوفر شعوب الأرض علمـا وثقافة وتقنيـة، غير أنهم لم يوفقوا في توسيع مجال غزوهم الثقافي بسبب صعوبة تعلم لغتهم. ولذلك فإن الأمر الحضـاري الألماني كان محدودا، وكذلك كان الأثر الـروسي والياباني. بعكس ما صاحب اللغة العربية والفرنسية والانجليزية من نشر واسع في ثقافات هذه الشعوب.

وبعد، فان الصـراع الثقافي الحضاري مسـتمر، وهو في عصرنا صراع اقـتصادي صناعي في الغالب، ولكن الاقـتصاد والتجـارة والصناعة مظاهر حضـارية ومن ثم فان صراعا صراع ثقافي في النهاية، ويكفي أن نشيـر إلى ما أحدثه التطور التقني في عصرنا هذا من تفوق للغرب وحـضارته ولغاته. ومع أن السياسة تسـتطيع أن تحصل على نتائج باهرة في مـيدان الصراع الحـضاري فان الـعبرة سـتكون في النهاية بصـلاحية الـعنصر الحضاري الـوافد وقبول الناس له. فـان الناس لا يتحضرون بالقـوة ولا يأخذون مظاهر الحضارة بالقهر، بل يكون ذلك بنسبة مـا يلقى الأمر من قبول في نفوسهم وبما ينتظرون من فوائد من ورائه. (انظر حسين مؤنس، ص 64)

نشاط (5)



ارجع إلى إحدى كتب التراجم، واكتب تقريرا عن حياة الاسكندر المقدوني.

تدريب (6)



بين كيف انتشرت اللغة العربية كثمرة للحضارة الاسلامية؟

أسئلة التقويم الذاتي (6)



كيف تفسر محاولة الاسكندر المقدوني الحضارية؟

8. شجرة الحضارة: حضارات الشرق القديم، اليونان والرومان، العصور الوسطى، الحضارة العربية الإسلامية، عصر النهضة الأوروبية الحديثة

إن كل حضارة من الحضارات الكبرى والصغرى طبقات يلي بعضها بعضها، فكلٌ منها يخفي تحته حضارة سابقة له، ثم أخرى وهكذا حتى بداية قصة الحضارة في مكان ما. ومن العسير أن نصل إلى هذه البداية، ذلك أن البدايات صراع طويل يسبق استقرار جماعةٍ ما في مكان ما واتخاذها إياه وطنا.

واعلم - عزيزي الدارس - أن الحضارة العالمية، أشبه ما تكون بأسرة لها آباء، وللآباء أجداد وكذلك لهم أبناء وحفدة، وكأن كل حضارة أسرة حضارات يترابط بعضها مع بعض بروابط البيئة الجغرافية والتراث الفكري والروحي والمادي الذي تتلقاه كل منها من سابقتها. ومن الجدير ذكره أن الحضارات التي تتوالى على جماعة واحدة تأخذ كل منها في النهاية طابع هذه الجماعة الحضاري.

واعلم - عزيزي الدارس - أن القول بأن البشر لم يعرفوا غير حضارة واحدة بدأت منذ فجر التاريخ واتصلت إلى يومنا هذا، وأن كل شعب حمل مشعلها في فترة

من الزمن قول غير سليم؛ ذلك لأن الحضارات نشأت في نواح عديدة من هذه الأرض في أزمنة متقاربة أو متباعدة دون أن تكون هناك صلات وتأثيرات متبادلة بينها بالضرورة. (انظر حسين مؤنس، الحضارة، ص 215)

وسنعرض في هذا المقرر ستة فروع لشجرة الحضارة الكونية هي: حضارات الشرق القديم، وحضارة اليونان والرومان، وحضارة العصور الوسطى، والحضارة العربية الاسلامية، وحضارة عصر النهضة، ثم الحضارة الاوروبية الحديثة. وستبين لك فصول الكتاب القادمة معالم هذه الحضارات من حيث الانجازات الفكرية والثقافية، والتدين، والقيم والخصائص المميزة العقلية والميتافيزيقية والعلمية، والنظم التربوية والاجتماعية والسياسية، والأطر التاريخية لتلك الحضارات وعلاقاتها ببعضها بعضاً.

عزيزي الدارس، نشأت أقدم الحضارات ونمت فيما يطلق عليه بلاد الشرق القديم. وأن أهله هم أول من وضع أسس المدنية الانسانية. إن فضل مدنيات الشرق القديم لم يقف عند تقدم أهله في مضمار العلوم فحسب، بل كانوا النبع الذي استقى منه غيرهم من الأمم القديمة وكانت هذه المنطقة كذلك مهد الديانات السماوية الثلاثة، وفيها عاش الأنبياء: موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام حيث بشروا بين أقوامهم بالحق، ولا تزال كتبهم السماوية وأقوالهم وأفعالهم خير ما يحرص عليه مئات الملايين في جميع بقاع الأرض.

عزيزي الدارس، وحتي تعرف قيمة ما قدمه الشرق يكفي أن تطلع على تاريخ أي دين وفلسفة، أو علم أو فن لترى أن أصول أكثرها يرجع إلى تلك المنطقة بالذات. وتضم حضارة الشرق القديم: الحضارات الناشئة على ضفاف النيل، وكذلك التي نشأت فيما بين النهرين، وحضارة الفنيقيين والحضارات التي نشأت في الشرق الأقصى وبخاصة في الهند. إن أهم حضارتين في العالم هما حضارة ما بين النهرين، وحضارة مصر، وأن جميع ما ظهر من حضارات وبخاصة في أوروبا وغربي آسيا وشمال افريقيا استمد من واحد منها أو من كليهما.

إن الحضارة الأوروبية الغربية هي الصورة الأخيرة لنبات حضاري طويل العمق بعيد الجذور ولد ونشأ في حوض البحر الأبيض المتوسط بادئا بالحضارة المصرية القديمة ثم انتقل إلى اليونان حيث نشأت الحضارة الهيلينية (الاغريقية)، وعلى أساسها قامت الحضارة الرومانية التي عممت هذه الحضارة ووسعت نطاقها حتى شملت ايطاليا وحوض البحر الأبيض الشمالي وامتدت إلى حوض نهر الراين وحوض نهر البو وبريطانيا، وفي هذه المرحلة أصبحت حضارة عالمية Universal Civilization قامت

في ظل دولة عالمية Universal State هي الدولة الرومانية، وتـلك هي المرحلة الأخيرة في تطور حـضارة البحـر الأبيض المتوسط، حـيث بدأت عندما وصلت إلـى هذا الحد بالتفكك والانهيار، ولعل هذا ما جعل «شـبنجلر» يقول إن الحضارة الغربية وصلت إلى أوجها ولم يعد لها مناص من الانحدار.

لقد تمكن الجرمان من اختراق حـدود الدولة الرومانية من الشمال. وهناك وجدوا فيها مرتزقة أتت بهم الدولة من الشرق (وكانوا يـحملون معهم دياناتهم الشرقية وأخذوا ينشرونها - ولقيت هذه الديانات مع المسيحيـة بشتى مذاهبها قبولا من أهل الحدود ومن جاورهم من الجيـرمان). أقول أتت بهم الدولة وجـعلتهم هناك عبيـدا يعمرون الأرض على أثر خرابها نتيجة غزو هانيبال والحروب من الجيرمان.

اختلط الجـرمان مع هؤلاء المرتزقة ومع أهل الحـدود الشمالية وكـونوا جميعـا ما يسمى بطبقة البـرولتياري الكادحة (الداخلية). وعلى الحدود الشماليـة حيث الجيرمان. وكذا مع الحـدود الشرقيـة حيث الصقاليـة. كان يتوغل المبـشرون حيث شكلوا مـعهم البرولتياريا الخارجية. وتلك (البرولتيـاريتين) لقيتا تأييدا من الكنيسة. فتشكلت من ذلك كله القوة الجديدة التي ستـسود بلاد الدولة الرمانية وترث حضارتها لتبنى عـليها حضارة جديدة رومانية جيرمانية مسيـحية شكلت ما يسمى بحضارة العصور الوسطى. (انظر: حسين مؤنس، ص 220/219)

واذن فـالحضـارة الغربيـة الراهنة هي الصـورة الأخيـرة، التي وصل اليهـا تطور حضاري بعيد؛ فتحت حضارة الغرب الراهنة نجد حضارة العصور الوسطى، وتحت هذه نجد الرومانية، وتحتهـا الحضارة الأغريقية، وتحتها حضارة مصر القـديمة: طبقات بعضها فوق بعض.

وإلى جانب تكـوّن هذه الحضارة من طبـقات، نجد أن لهـا فروعـا امتدت اليـها وروافد اغتذت منها. ولكل فرع وروافد حضارته الخاصة به داخل النطاق الغربي العام، وتتجلى هذه الفروع والروافد في الدول العديدة التي قامت في نطاق كلٍ منها شخصيتها وطرازها المتميز. فالفروق جسيمة بين حضارة الفرنجة في فرنسا وحضارة الانجلوسكسون في انجلترا، وحضـارة التيوتون في المانيا مـثلا، ولكنها تدخل كلها تحـت نطاق الحضارة الغربية. (انظر: حسين مؤنس، الحضارة، ص 222)

عزيزي الدارس، وينسحب كلامنا عن الحضارة الغربية على الحضارة الشرقية التي تتمثل في الصقـالية، وهم الروس، ومن ينتمي إلى الشجرة الصقـلبية من أجناس شرق أوروبا من اليوغسـلاف، والبلغار والصرب ومن اليهم وأجناس غـرب اسيا وهم الكرج

(أهل جمهورية جورجيا السوفيتية) والأرمن وأهل القوقاز، فهذه الحضارة كانت في الأصل شقيقة للحضارة الغربية الكاثوليكية (فكلتاهما بنت المسيحية والحضارة اليونانية والرومانية) ثم اتسعت الهوة بينهما وسارت كل منهما في طريق ديني لغوي ثقافي.

لقد كانت نقط الخلاف بينهما في أول الأمر دينية أو مذهبية، بدأت باختلاف الرأي حول طبيعة السيد المسيح، وظهر الخلاف بشكل واضح وحاسم في اتجاه الكنيسة الشرقية والأرثوذكسية إلى التخلي عن تقديس الصور والتماثيل الدينية على اعتبار انها رموز للعقيدة، في حين كانت الكنيسة الكاثوليكية ترى أن ذلك أساسا من أسس العقيدة. وقد حدث ذلك في القرن التاسع الميلادي ثم استمر الانشقاق المذهبي بينهما حتى أصبحت كل كنيسة منهما مذهباً قائماً بذاته، وتم الانفصال الكامل بين الكنيستين ي عام 1054م، ومع ذلك الانفصال ساد كل من الشرق المسيحي والغرب المسيحي في طريقه وتحول إلى حضارة قائمة بذاتها.

لقد نشأ عن هذا الانفصال أن تحول الشرق المسيحي إلى عالم مسيحي حضاري له شخصيته وطريقته في الحياة ونظمه في الحكم وهو ما نراه في روسيا وفي بلاد شرق اوروبا. وهذه الحضارة المسيحية الشرقية قامت على أساس من حضارات أخرى قامت في المنطقة قبلها، كالحضارة الاغريقية، وقبلها حضارة الحثيين، وهذه الحضارات هي التي أعطتها طابعاً خاصاً مختلفاً عن شقيقتها الغربية مع أن كلتيهما مسيحية.

عزيزي الدارس، انتقل وإياك - الآن - للحديث عن حضارة الهند، تلك الحضارة التي يبدو أنها لم تكن أصيلة، أي أنها في أصولها البعيدة لم تنشأ على ضفاف أنهار الهند الشمالية، بل قامت على أساس من عناصر من الحضارة السومرية نقلت إلى هناك، ونمت في البيئة الهندية، ثم تأصلت هناك وازدهرت المرّة تِلْوَ الأخرى، وصارت من حضارات التاريخ الكبرى.

لقد قامت حضارة الجوبتا (ازدهرت في الفترة ما بين 375-475 ق.م.) على عبادة هندية أصيلة تدور حول آلهة اسطورية وتدعو الي مبادئ اخلاقية قريبة من تلك المبادئ التي كانت تدعو اليها الديانة البوذية. فحلت بذلك محلها. ولعلها تود - عزيزي الدارس - أن أحدثك عن الديانة البوذية.

لقد كانت البوذية - في الأصل - ديانة هندية، لأن بوذا نشأ في شمال الهند (563-483 ق.م). غير أن هذه الديانة انتشرت في كل وسط آسيا وشرقها، وأخذت مذاهب شتى في كل ناحية وصلت إليها. وقد كانت البوذية في أول أمرها ثورة على الكهان الذين اتجهوا إلى السيطرة على عقول الناس، فذهب بوذا إلى الدعوة إلى

الفضائل والتخلي عن الدنيا والوصول إلى الكماليات، ثم إلى عالم السعادة الروحية والنفسية عن طريق السلوك الحسن وتصفية القلوب: تصاحب ذلك عبادات وطقوس يقوم بها ناس مختارون من اتباع بوذا ثم من خلفائهم، وما لبثت البوذية نفسها أن وقعت تحت سيطرة الكهان وما ابتدعوه من عبادات تقام في معابدهم، فقامت دعوة جوبتا للقضاء على ذلك كله وأقامت ديانتها التي عرفت باسم الهندوسية وتحولت إلى رابطة اجتماعية وحضارة وقوة سياسية أي أن الجماعة، أو الحضارة الهندوسية، قامت على أنقاض الجماعة أو الحضارة البوذية الهندية.

وهذه الحضارة الهندوسية - أو حضارة الجوبتا - قضت عليها بدورها قبائل الهون التي اجتاحت الهند ووسط اسيا كما اجتاحت اوروبا. وقد كان عنف غارة الهون على الهند بالغ الشدة حتى زعزت كيان المجتمع فيها وعمتها الفوضى أواخر القرن الخامس الميلادي، وظلت هذه الفوضى تضرب اطنابها على الهند حتى أوائل القرن الثامن الميلادي. وفي ذلك الحين دعا «شانكارا» إلى مذهبه الديني الفلسفي الذي قامت عليه الديانة الهندية التي لا تزال سائدة إلى اليوم. وقد عاش «شانكارا» وعمل وبلغ أوج نشاطه أوائل القرن الثامن الميلادي. (انظر: حسين مؤنس، الحضارة، ص 225)

عزيزي الدارس، إن معنى ذلك كله أن الحضارة الهندية قامت على حضارات أقدم فأقدم، تتوإلى الواحدة منها فوق الأخرى. ومن الملاحظ أنها (حضارات الهند) المتوالية أخذت في النهاية طابع حضارة الفيدا Vedaالأولى وهي أول ما عرف في الهند من حضارات، وهي القاعدة التحتية التي قامت عليها الحضارة البوذية والجوينية والهندية بعد ذلك.

ويبدو أن اتساع شبه الجزيرة الهندية، وتباين البيئات الطبيعية والجغرافية قد فرض أسساً متشركة على جميع حضارات الهند. فكلها لم تكن حضارات عمل بقدر ما كانت حضارات تأمل وسكون؛ وقد كان هذا التفكير التأملي يتناقض مع نفسه، فالتفكير التأملي في الهند يتجه مثلا إلى الزهد في الدنيا ويهون من شأنها، لكن هذا التفكير ذاته يكاد يخلو من العنصر الانساني؛ فهو لا ينكر قيام فوارق شاسعة بين الطبقات؛ فهناك ناس متميزون على غيرهم يتمتعون بخيرات البلاد، وهم متبطلون يخدمهم الناس كأنهم فوق مستوى البشر، وتلي هذه الطبقة العالية طبقة أخرى من الناس كل منها أقل مقاما من التي فوقها حتى نصل إلى المنبوذين وهم في مرتبة أدني من مراتب البشر، وهذه الطبقات متحاجزة تحاجزا بالغا؛ فالبرهمي مثلا لا يجوز له أن يصاحب من هم في طبقة دون طبقته، فضلا عن المصاهرة أو الاشتراك في العمل، ويبلغ الأمر أن المنبوذ إذا مر ظله على ملابس البرهمي كان على البرهمي أن يغير ثيابه وينزل ما يشاء من العقوبة

بالمنبوذ، ومع هذا فالبقرة المقدسة لا تؤذى أو تهان أو أن تذاد عن موضع. (انظر: حسين مؤنس، الحضارة، ص 227)

عزيزي الدارس، وانتقل وإياك - الآن - للحديث عن الحضارات الصينية، فالتمهيد لهذه الحضارات كان طويلا جدا، فعمر الحضارة الصينية يرجع إلى نحو ألفي سنة، ولكن الصين لم تتوحد في دولة واحدة يحكمها ملك واحد إلا في عصر اسرة شانج أدين (1786-1223 ق.م) أي في نفس الوقت تقريبا، الذي قامت فيه الدولة المصرية الوسطى التي بدأت بالأسرة الثانية عشرة (1991-1786 ق.م) وهنا، نجد كما هو حال الهند، أن الواعد الحضارية المادية والمعنوية التي ستقوم عليها كل حضارات الصين قد استقرت على نحوٍ ما في هذا التاريخ، فنجد الصينيين في هذا العصر - ورغم اختلاف أصولهم - ينظرون إلى أنفسهم على أنهم الشعب الوحيد الجدير بالاحتام والتقدير على وجه الأرض. وكل من عداهم همج لا قيمة لهم ولا ينبغي أن يطأوا أرض الصين إلا بإذنٍ وحراسة، وإلى أمد وجيز وغرض محدد. والامبراطور هو رأس كل شيء في الدولة: رئيس المقاتلين ورئيس الكهنة يعاونه في الحكم كهان ونبلاء وحكام اقليميون هم في الحقيقة سادة عسكريون ونبلاء اقطاعيون في ولاياتهم، ولهم على الناس حق الحياة والموت، فكأنهم سادة الحرب الذين ظلوا يسودون الصين في ظل الاباطرة إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى. ووظيفة الدولة الرئيسة هي جمع الضرائب، وكل سيد حرب حرٌ في التصرف فيمن يحكمهم شريطة أن يقدم القدر المتفق عليه من المال للامبراطور في العاصمة تشنج تشاو في مقاطعة هونان.

كانت الديانة في عصر «ال شانج» في مدينة «ين وثنية» تقوم على عبادة آلهة تسمى «تي» والهة أخرى أقل منها أهمية. وكان الناس يعبدون أجدادهم على اعتبار أنهم وسطاء بينهم وبين الآلهة. وكانت الأسرة الصينية متماسكة يحكمها الأب، والعمل الرئيس للناس هو الزراعة والتقويم القمري، والصناعة الرئيسة هي الفخار والخزف. واشتهر الصينيون بالمهارة في التجارة والمهارة في صناعة الأدوات الدقيقة. وكان الصينيون محافظين جدا معتزلين بأنفسهم عن غيرهم من الشعوب، وكانوا على الجملة قوما على خلق كريم وأمانة وسجايا طيبة، فيما عدا استبداد سادة الحرب والنبلاء بالناس. وفي ذلك الوقت كان الصيني يتزوج من كثيرات، غير أن واحدة منهن كانت تعتبر السيدة الأولى، والباقي في مراتب المحظيات والخادمات، وأولاد الزوجة الأولى لهم الرياسة على من عداهم من الاخوة ولهم معظم الميراث. (انظر حسين مؤنس، الحضارة، ص 229)

عزيزي الدارس، تلك هي الخصائص التي عرف بها أهل الصين في كل مراحل تاريخهم حتى قيام الحركة الشيوعية والانقلاب الفكري والسياسي والاجتماعي الذي يرمي إلى إزالة الصين القديمة وإقامة صين أخرى. والصين من البلاد القليلة في التاريخ التي لم تتعرض لغزو فكري أو ديني. أو بشري شامل يغير الأوضاع فيها في أي ناحية من نواحيها أو فيها كلها، حتي غزوة المغول الكبرى أيام جنكيز خان لم تخرج عن هذه القاعدة، لقد أحدثت تغيرا شاملا في كل نظم الحكم في الصين، ولكنها لم تغير أي شيء في التنظيم الاجتماعي أو التفكير الديني أو نظرة الصينيين إلى الحياة. وبعد قرنين من تلك الغزوة وسقوط دولة "قوبلاي خان" عاد كل شيء في الصين إلى ما كان عليه الحال.

إن الدولة التي ثبتت تلك الخصائص التي عرت بها الصين واشتهر بها الصينيون كانت اسرة شي (شيئين) التي حكمت ابتداء من عام 221 ق.م. فمنشيء هذه الأسرة هو الذي وحّد الصين في دولة واحدة بعد أن كانت مجموعة من ست دول يرأسها كلها ملك واحد، فقد وحّد الصين بالفعل وسمي نفسه (شيه - هوانج - تي) أي أول الاباطرة، واتخذ عاصمته في (باي - شنج) أي العاصمة الشمالية، وهي التي تكتب بكين ويسميها المسلمون خان بالق. (انظر: حسين مؤنس، الحضارة، ص 230)

ومن اسم هذه الاسرة (شين) اشتق الاسم الذي يطلق على الصين، وأباطرتها هم الذين أكملوا انشاء سور الصين وثبتوا قواعد المجتمع والادارة التي عرفت بها الصين من ذلك الحين، وفي أيامها ازدهرت واكتملت الفنون والصناعات التي عرفت بها الصين على مر العصور، مثل الخزف الصيني وصناعة الزجاج الطبيعي الذي يمكن نحته في صور شتى، وازدهر كذلك الرسم الصيني المشهور، وفن النحت في الحجر والبرونز والزجاج والعاج والخشب. وهم أول من عرف تربية دود القزّ واستخراج الحرير ونسجه، والطباعة بواسطة لوحات يحفر بها ما يراد طباعته معكوسا ثم يستعمل للطبع، وصناعة الورق وهو الكاغد، وقد عرف الصينيون منه النوع الذي يصنع في شكل عجيني ثم يبسط باردا على ألواح ليجف ويصير ورقا. كما عرف الصينيون فن نسج البسط والسجاد، وصنعوا السفن الكبيرة ذات الصواري وأشرعة الحصر وما إلى ذلك من الصناعات التي اشتهر بها أهل الصين منذ ذلك الحين.

وأعقبت حضارة عصر "شين" حضارات أخرى مثل عصر اسرة هان (202 ق.م - 221م)، وسوى وتانج (618-906 م) وفي عهد الأخيرة عرف المسلمون الصين ودخلها الاسلام، وكان بين ملوكها وبين خلفاء بني العباس سفارات وعلاقات. وسونج (960-1270م) ويوان (1280-1368م) وهي الاسرة التي ازدهر في عهدها الاسلام في

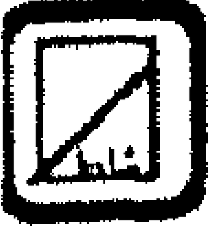
الصين. وفي زمن هذه الاسرة زار الصين ووصفها ماركو بولو وأبوه (دعاة للمسيحيين). وكذلك زارها ابن بطوطة. ثم دولة مينج (1368-1644)م وهي التي اضطهد ملوكها الاسلام وأزالوه من على السواحل الشرقية، ولكنه بقي في الجنوب وغربي البلاد، ثم دولة شينج أو المانشو (1644-1913م) وهي آخر الأسر التقليدية التي حكمت الصين، وفي زمن هذه الأسرة دخلت الصين في صراع مع الحضارة الغربية، وكانت التحولات بعيدة المدى التي أعقبت ذلك في عصرنا. (حسين مؤنس، الحضارة، ص 231)

عزيزي الدارس، وتتميز حضارة الصين على غيرها بانها حضارة صينية خالصة لم تتلق من المؤثرات الأجنبية الا القليل، ذلك لأن الصين لم تخضع لسلطان أجنبي يحدث تغيرا أساسيا في تكوينها الحضاري الا مرتين: الأولى عندما حكمها المغول، والثانية في العصر الحديث. أما الأولى (الغزو المغولي) فقد تركت آثارا عميقة في التكوين الحضاري غير أن هذه الآثار تلاشت مع مرور الزمن. وأما في العصر الحديث فقد كان الغزو الغربي عنيفا وعميقا، فزعزع الأسس التقليدية التي قام عليها بناء المجتمع الصيني التقليدي، ثم انتهى بهدمه كله عندما انتقلت الصين إلى النظام الشيوعي جملة على يد ماوتسي تونغ وأصحابه خلال الخمسينيات.

عزيزي الدارس، أما الحضارة الاسلامية والتي قامت على أساس رسالة الاسلام السماوية واستمدت اسس تعاليمها من القرآن الكريم ومن أقوال الرسول (عليه السلام) وأعماله، وكانت حصيلة تاريخ المسلمين على أرضهم. فقد تأثرت بروافد عدة كالثقافة العربية، والهندية، والفارسية، واليونانية وغيرها. وكانت بهذا كيانا انسانيا عاما وشخصية معنوية فيها جانب التراث إلى جانب الحياة القائمة لخير الاسرة البشرية جمعاء.

وعليه فان هذه الحضارة تختلف عن الحضارات التي أسلفنا القول عنها؛ ذلك لأن أساسها ليس عنصرا بشريا يناله الضعف والبلى، ولكن أساسها العقيدة التي لا تزال تتجدد وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال، وأداتها اللغة العربية، لغة القرآن، وبفضله عاشت وقدر لها أن تنجو من الأفول والضياع. فبفضل الاسلام والعربية ظلت حضارة الاسلام حية؛ لأن العقيدة لا تبلى ما دام هناك من يؤمنون بها، وما دامت العقيدة حية في عالم الاسلام فاللغة العربية حية، أي أن عنصري الحضارة الاسلامية الاساسيين باقيان لا ينال منهما شيء.

نشاط (6)



ارجع إلى كتاب ارنولد توينبي، دراسة في التاريخ واكتب تقريرا عن رأي توينبي في شجرة الحضارة.

تدريب (7)



إن القول بأن البشر لم يعرفوا سوى حضارة واحدة، وأن كل شعب حمل مشعلها فترة من الزمن قول غير سليم. ناقش ذلك.

أسئلة التقويم الذاتي (7)



تحدث عن الديانة البوذية؟

9. فلسفة الحضارة

والسؤال المطروح - عزيزي الدارس - هل يمكن قيام فلسفة للحضارة أو للحضارات؟ وما هي فائدة قيام مثل هذه الفلسفة؟

لقد نشأت الحضارات في بقاع شتى من الأرض، وكان لكل حضارة عوامل ساعدت في تكوينها، وكان لكل منها عوامل أدت إلى أفولها وانهيارها. ومما لا شك فيه أن الحروب كانت عاملا متميزا لها أثرها الواضح في تدمير الحضارة، لكنها لم تكن السبب الوحيد في انهيار الحضارات.

فلو نظرنا وبترو كاف لكامل أحداث التاريخ (بما فيها نشوء الحضارات) لوجدنا أنها جميعا - باستثناء تلك التي تحدث دون مشاركة انسانية - تتم نتيجة فلسفة وعقيدة معينة، منفعلة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بموقف صايغها. وبما أنه كتب لجل الحضارات التي تكونت على مر سنين التاريخ بالانهيار، فهذا يعني فشل التجربة الفلسفية التي صنعت هذه الظواهر. فلو عدنا لاستعراض أقدم المجتمعات لوجدنا أنها لم تبتعد عن وعي منهج فلسفي لأحداثها؛ فنحن نجد عند الانبياء، والشعراء، والعرافين

ورجال السياسة نزعة لايجاد تعليل لاتحاد المجتمعات وتطورها، ومن خلال المنهج الذي يعللون به حدوث هذه الأحداث يسلكون لبناء المستقبل والتخطيط المجتمعي العملي له وبذلك تكون ذات قيمة واضحة في حركة الحضارة التي تتكون. (انظر: يوسف الحوراني، الانسان والحضارة، ص 217)

اننا حين نتناول قصة اندحار أي شعب من الشعوب، سواءً أفي الحرب، أم نتيجة لعوامل الطبيعة نجد أن ذلك الاندحار كان سببه النظريات التي بنيت عليها خطوطه في الأصل؛ فليست نبوءات عاموس وهزقيال في العهد القديم الا بناء على نظرية تاريخية يقينية، هي عينها التي فسرت الحروب وحركات التاريخ السابقة لها، كما فسرت خراب سدوم وعمورة، وتنبأت بخراب صور وبابل نتيجة لقضية الهية على المدن المسرفة في الترف والرفاه. وما نظرية اليهود في التاريخ وشعب (يهوه) المختار الا الدافع الذي جعلهم يقضون بوحشية ضارية على كل الأحياء في البلاد التي احتلوها. وكذا وحشيتهم التي نشاهدها اليوم.

كما أن الفكرة النازية التي انبثقت عنها الحرب العالمية الثانية، والفظائع التي ارتكبتها الجيوش الألمانية في عصر العقل والمنطق الحديث لم تخرج عن كونها عقيدة تفسيرية للتاريخ توازي بعنجهيتها النظرة اليهودية.

وكذلك الحال عند الأغريق، فصناعة المستقبل لديهم كان يتم وفق فكرة عقائدية تصل إلى قداسة المنطق اليقيني من خلال المفاهيم الغيبية التي يدخل فيها الحظ والرؤى والأحلام أو الاحساسيس الساذجة فكاهنة «دلفي» كانت تستطيع الكلمة منها أن تغير مجرى التاريخ الاغريقي. وكذا تغير وجه القداح في جزيرة العرب كان يبدل بسهولة اتجاه غزوة من الغزوات. ورؤيا الملك الاشوري نبوخذ نصر كان بامكانها أن تقضي على كل حملة الأفكار العلمية التي وصل اليها العالم البابلي، ولو لم يكن النبي دانيال موجودا لما أنقذ حكماء بابل وعلماءها من القتل، لفشلهم في كشف الرؤيا وتفسيرها للملك كما يريد.

كان حلم الفرعون المصري الذي بعث أكبر أزمة اقتصادية في العالم القديم ليس الا حلم انسان متخوم، لو لم يفسره له يوسف (عليه السلام) لما تولّى بموجب تفسيره له السيادة على مخازن غلاله والتحكم باقتصاد مصر لفترة من الزمن في ذلك التاريخ.

وكانت الثقة الالهية التي وضعها المسلمون بالخليفة ثقة مطلقة حتى أنهم اعتقدوا بكسوف الشمس وسقوط النجوم وانتهاء الكون إن هو مات، لم تخرج كذلك عن نظرية تفسيرية تخطيطية لماضي التاريخ ومستقبله.

ولو كان بين عرافي هولاكـو وتيمورلنك من يحذره من مهاجـمة بغداد، لسلمت كتب كثيرة ونادرة من منجزات الحضارة العـربية ولكان التاريخ غير ما هو عليه الآن في الشرق العربي.

كان العالم المسيحي هكذا برمته قبل نهاية الألف الأول من التاريخ الميلادي. وكذا حدث عنـد نهاية الألفـية الثانـية الميلادية. كـان الكل يعمـل بانتظار القيـامة وانبـعاث الأموات. وكانت حروب الفتح الاسلامية، وكذا الحروب الصليبية جميعها لا تخرج عن مخططات نظرة صنع التـاريخ، بعد عقيـدة سابقة تفسـيرية له. عقيدة هي مـن الوثوقية بحيث تدفع للتضحية بالنفس في سبيلهـا. وتحمل مئات الألوف لترك أوروبا مشيا على الأقدام لحماية الأرض المقدسة.

ونجد أن روما في أوج ازدهارها، ورغم جبروتها وعظمـتها، كانت تخضع قوتها للاستخـارة بأمعاء شاة، تقرر بعدها مـصيرها، كما أنها كـانت تسود فيها عقـيدة تجعل بقاءها مرتبطا برضي تمثال من حـجر، وأقرب طرقها للانتصار على العـدو كانت تدمير معـبد مدينتـه، أو سرقة آلهتـه، أو دعوته باسمـه بالحاح كي يجيب دعـوتنا ومثل هذه العقائد تبدو لنا اسطورية، غير انها كانت تتحول إلى شحنة ايمانية جبارة في نفس جنود روما فتضمن لهم النصر، وتذلّ عند أقدامهم الأعداء.

عـزيزي الدارس، ومن هذا كله نرى أن كل الانجـازات الحضـارية التي تمت لدى شعب من الشـعوب كانت وفق مـعتقـداتهم. ومن هذا المنطلق لا بد من وجود فلسـفة أخلاقية للحضـارة كي تستمر مسيرتها. وإذا جاز لنا أن نبـحث عن قانون عام للحضارة فهذا القانون هو بعد قانون الولادة والموت الذي يـشمل جميع الناس على السواء ويوحد بين كل اختـلافاتهم، هو قانون التـجمع الانساني الطبيـعي والباعث إلى هذه الشرعـية بالتجمع عند الفرد، والرابطة العـاطفية التي تجمع المجتمع وتشده إلى بعضـه كمجتمع. هذه الرابطة قد تختلف تشكلاتها بين كل أمة وأخرى، وبين كل عصر وآخر، ولكنها لا تختلف في كل أمـة وأخرى، وبين كل عصـر واخر، ولكنها لا تخـتلف في جوهرها، كما لا تخـتلف في انجازاتها الاخلاقـية والسلوكية، الا عند اخـتلاف اشتدادها، وفـيها يدخل كل نزوع انساني، إنشـائي أو ميتافـيزيقي، سلبي أو ايجابي، وحركـات التاريخ جميعـها تتأتي عنها كتعبيـر من تعابير وجه يكون مؤتمنا واثقا حيـناً وقلقا مضطربا حيناً آخر.

إن المجتمـع لا يكون الا عندما تلتقي أحاسـيس أفراده في هدفية مـا. أي عندما تتلاقى النوازع الطبيعيـة وتنسجم معا متطلقة إلى مثال أعلي يجذبهـا نحوه، ويجسد لها

استمرارها في متطلباته. وليس هناك من فارق بين نوعية هذه الهدفية وقيمتها الانسانية والتاريخية ما دامت تؤدي وظيفتها في لأم المجتمع ومراقبة أخلاقياته. كما لا فرق بين أن يكون المجتمع بدويا أو ريفيا، زراعيا أو مدنيا معاصرا. ومع هذه النظرة يكون التحدي في المجتمع، أو الاستجابة للتحدي، أو النقمة الثورية على الاقتصاد، أو أية فكرة تعم المجتمع لتدفع به ككل للعمل، كالحس القوي أو الديني أو العنصري، يكون ذلك مظهرا تشكلت به الهدفية، وتحكمت بالمجتمع عن طريقه.

وهكذا تكون نقطة البدء في دراسة المجتمع هي الفكرة العامة التي تجمعه وتوحد أمانيه ودوافعه، وهي التي توجد له اليقين الذي يهب الفكرة شرعيتها ويكون رغبة التضحية في سبيلها، بطريق حملة الائتمان اليها والثقة بمنهجها، وجزيئات طقوسها. فالتاريخ بأكمله وفق المنهج الدراسي هذا يكون وحده إذا تناولناه من ناحية تطور اليقين في نظرة الانسان للعالم حوله. وتجزيء التاريخ إلى حضارات ومجتمعات، أنما هو تجزئية إلى ذاتيات أمم وتطلعات انسانية وفق التطور الذي يسير مصطحبا معه الاخلاق والسلوك وانماط العلاقات في داخل المجتمع وبين المجتمع والمجتمعات الاخرى المعاصرة له أو السابقة عليه.

والحركة الاجتماعية العامة انما تعتبر هكذا طاقة غفلا أخذت هذا الشكل، أو ذاك بعد تجمعها بدافع أو بآخر قد يختلف بين أمة وأخرى. (انظر يوسف الحوراني، الانسان والحضارة، ص 215 فما بعد)

إن قيام فلسفة حقيقية للحضارة من شأنه المساعدة في بقائها، وتجنيبها دور الأفول والانهيار. إن الكتابة في تاريخ الحضارة فقط لا يساعد على هذه الفكرة. بل إن التفكير الجدي في معنى الحضارة ووصف مضمون حياتنا الروحية واستقصائه، وامتحان قيمة الحضارة من ناحية نبل أفكارها وقدرتها على ايجاد تقدم حقيقي هي الأمور المطلوبة. (انظر: البرت شفيتسر، فلسفة الحضارة، ص 12)

إن حضارة الغرب - الآن - في دور الانهيار، لأنها كغيرها بنيت على شفا جرف هاو، وسيجرفها أي انهيار جديد. ولعل انصراف الفلسفة عن القيام بواجبها كان السبب لما وصلت اليه فقد كانت الفلسفة هي التي تقود الأفكار وترشدها خلال القرن الثامن عشر والشطر الأول من القرن التاسع عشر، وكانت هذه الفلسفة تتضمن داخلها تفلسفا أوليا عن الانسان والمجتمع والجنس والانسانية والحضارة، أنتج بطريقة طبيعية تماما نوعا ما الفلسفة الشعبية الحية تهيمن على التفكير العام وتحافظ على الحماسة للحضارة. غير أن هذه النظرة كانت عاجزة مع مضي الزمن، إذ كانت تعبر عن فلسفة شعبية وليست

فلسفة حضارة حقيقية. فلم تتوافق فلسفتهم في الميتافيزيقيا مع التقدم العلمي المضطرد، فانتفضت الأخيرة على الأولى ودمرت ذلك الخيال. وبقيت الأفكار الأخلاقية التي تقوم عليها الحضارة لا مأوى لها، ولم يكن من الممكن المزج بين المثل الاخلاقية والحقيقية العلمية الواقعية.

عزيزي الدارس، لم تدرك الفلسفة أن قوة الأفكار المتعلقة بالحضارة والتي وكل اليها أمرها قد أصبحت أمرا مشكوكا فيه. ولقد عرفت الفلسفة بأنها العملية: "التي يكتمل بها، خطوة فخطوة، وبوعي أوضح وأكبر، الاعتقاد المتعلق بقيمة الحضارة، وأن مهمة الفلسفة هي توكيد صدقها الكلي". والملاحظ عزيزي الدارس على هذا التعريف أنه تناسى حقيقة أن قد أتى حين من الدهر لم تقتصر الفلسفة فيه على اقناع نفسها بقيمة الحضارة، بل أرسلت اعتقاداتها على أنها أفكار مفيدة قصد بها إلى التأثير في التفكير العام. بينما حدث منذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعدا أن استحالت هذه المعتقدات شيئا فشيئا إلى نوع من رأس المال غير المنتج. (انظر: البرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة، ص 16)

لقد كانت الفلسفة ذات يوم عاملا فعالا في انتاج معتقدات عامة عن الحضارة، الا أنه وبعد الانهيار الذي حدث في منتصف القرن التاسع عشر، أصبحت الفلسفة مجرد علم يستخلص النتائج التي وصلت اليها العلوم الطبيعية والعلوم التاريخية ويستمد منها المادة اللازمة لوضع نظرية مقبلة عن الكون. كما أنها استغرقت شيئا فشيئا في دراسة ما فيها حتى صارت وكأنها هي نفسها تاريخ الفلسفة، مضت قدما لاقامة نظرية في الكون، ولم تدرك أن هذه النظرية، حتى ولو أقيمت وكانت كاملة، سنين خارج التاريخ، وستكون نظرية أخلاقية، وستظل بهذا عاجزة ولن تقوى على بعث القوى الضرورية لوضع مثل الحضارة وتمكينها.



نشاط (7)

اقرأ في كتاب شبنجلر: سقوط الحضارة الغربية. وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (8)

كيف تفسر انهيار الحضارة الغربية؟

أسئلة التقويم الذاتي (8)

ما نوع الفلسفة التي تحتاج للحضارة؟

10. الخلاصة

لقد تناولنا في هذه الوحدة عزيزي الدارس، الحضارة: نشأتها، وعامل تكوينها ومظاهرها وتجلياتها والخطوات التصعيدية التي قام بها الانسان في سلم الحضارة. وكيف صار الانسان راعياً وتمكن من تدجسين بعض الحيوانات وكيف خاط ملابسه من أصوافها ومن ثم تعلم كيف يستخرج خامات المعادن كالنحاس والذهب والقصدير من باطن الارض وطبقاتها. ثم تناولنا أدوار الحضارة وتطورها وان بعض المفكرين رأى ان الحضارة الانسانية تمر بمراحل ثلاث ومنهم من قسمها إلى أربع مراحل أو أدوار كالفصول الأربعة بالنسبة للسنة، وان الحضارة تزدهر ثم يصيبها الافول وقد اطلقوا على مثل هذه الحضارة (الحضارة المجهضة) ومثل ذلك (الحضارة الكعصبية) في الشمال الافريقي حيث وصلت إلى مستوى معين ثم تدهورت وتوقفت وضاعت.

ثم ذكرنا، عزيزي الدارس، ان هناك حضارات متعددة لا حضارة واحدة في هذا العالم وان مسيرة هذه الحضارات ابتدأت من وادي النيل وبلاد الرافدين وحوض نهر اليانتج تشي في الصين وحوض نهر السند وغيرها. وان بعض هذه الحضارات سارعت في تقدمها ومنها توقفت مؤقتا ومنها ما توقف نهائياً ومنها ما تراجع إلى الوراء. وعلينا ان نقر ان هذه الحضارات توصلت إلى اكتشافات حضارية في أوقات متقاربة ودون ان يكون اتصالها أدى إلى النقل والاقتباس.

وتناولنا أيضاً شجرة الحضارة فان الحضارة العالمية أشبه من تكون بشجرة. ومن الخطأ القول ان البشر لم يعرفوا سوى حضارة واحدة بدأت منذ فجر التاريخ لأن الحضارات نشأت في أماكن عديدة وأزمان مختلفة، وذكرنا ستة فروع منها حضارة الشرق القديم، وحضارة اليونان والرومان، وحضارة العصور الوسطى، والحضارة العربية الاسلامية، وحضارة عصر النهضة، ثم الحضارة الغربية الحديثة وهي الصورة الأخيرة التي توصل إليها التطور الحضاري.. هذا عدا عن حضارة الشرق ومن أهمها الحضارتان الهندية والصينية.

وقد ختمنا الوحدة بالحديث عن فلسفة الحضارة وذكرنا أنه لا بدّ من وجود فلسفة اخلاقية لأي حضارة من شأنها المساعدة في بقاء هذه الحضارة وتجنبها دور الأفول والانهيار.

11. لمحة مسبقة عن الوحدة الدراسية التالية

في الوحدة الدراسية التالية «حضارة الشرق الأدنى القديم» تعريف بهذه الحضارة وبخاصة حضارة وادي النيل وبلاد ما بين النهرين، وأدوار وسمات هذه الحضارة، كما نركز على القيم الكبرى التي كانت للفراعنة والكنعانيين والفنيقيين والسومريين والاكاديين والبابليين وحضارة الشرق الأقصى التي تمثلت في اختراع الكتابة والتشريع والزراعة والري ونشر الحروف الهجائية في ارجاء العالم القديم والتي ما تزال اثارها الحضارية ماثلة إلى اليوم.

12. إجابات التدريبات

تدريب (1)

الحضارة: هي وضع مثالي وحقيقي في آن واحد، عقلي وطبيعي، سببي وغائي، وهي ثمرة كل جهد يقوم به الانسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية.

تدريب (2)

تمكن الانسان من تدجين بعض الحيوانات في العصر الحجري.

تدريب (3)

تتجلى ظواهر الحضارة في آثار الانسان العقلية والمادية، كاللغة والكتابة والدين والعلوم والآداب، والفنون، والنظم التي يقيمها الانسان لحماية الأفراد والجماعات.

تدريب (4)

يرى توينبي أن الحضارة تنشأ نتيجة لمشاركة أجناس مختلفة ضمن ظروف قاسية تشكل تحديا لمجتمع ما، فيحاول ذلك المجتمع الرد على هذا التحدي من أجل البقاء، فاذا واجهه بنجاح وتغلب عليه زادت قدرته وتولد عن ذلك حضارة.

تدريب (5)

بدأ ذلك منذ بداية القرن السابع عشر، وظهر هذا بوضوح في القرن التاسع عشر حينما بدأ الأوروبيون يتسارعون في التوسع والسيطرة على العالم، فالسرعة في استعمار الشعوب في نظره تتزايد حدتها كلما يتزايد ضعف قوى العطاء والانتاج عند الدول الاستعمارية. ومن مظاهر التدهور الحضاري عند الاوروبيين الانحلال الخلقي وضعف الابداع وتدهور الدين.

تدريب (6)

لقد قامت الدعوة الاسلامية على أساس القرآن، والقرآن مكتوب بلسان عربي مبين، فانتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية معه، حتى أن هذه اللغة - وقرب نهاية العصر الأموي كادت أن تقضي تماما على كل اللغات التي كان الناس يتكلمونها ومع الاسلام واللغة العربية أخذت الشعوب التي استعربت تقاليد العرب واخلاقهم وعاداتهم وأمثالهم وأساليب تفكيرهم، فأصبحوا مسلمين وعربا في ان واحد.

ان العرب لم يضعوا أي سياسة لنشر العربية، بل كان القران الكريم هو دافع الناس الأكبر لتعلمها، ثم تكفّلت اللغة العربية ببقية التحويل اللغوي بفضل ما امتازت به من فضائل داخلة في صلبها وتركيبها. أي أن التفرد الثقافي هنا كان في الحقيقة عملية انتشار ثقافي ديني متمثل في الاسلام والقران، ولغوي فكري متمثل في انتشار اللغة العربية وكتابتها وادابها شعرا ونثرا.

تدريب (7)

السبب في عدم سلامة هذا القول أن الحضارات نشأت في نواح عديدة من هذه الأرض في أزمنة متقاربة أو متباعدة دون أن تكون هناك صلات وتأثيرت متبادلة بينها بالضرورة.

تدريب (8)

إن السبب في انهيار الحضارة الغربية الان انصراف الفلسفة عن القيام بواجبها، فلم تتوافق فلسفتهم في الميتافيزيقيا مع التقدم العلمي المضطرد، فانتقضت الأخيرة على الأولى ودمرت ذلك الخيال. وبقيت الأفكار الأخلاقية التي تقوم عليها الحضارة لا مأوى لها، ولم يكن من الممكن المزج بين المثل الاخلاقية والحقيقة العلمية الواقعة.

13. مسرد المصطلحات

- **الثقافة** Culture: أسلوب خاص في الحياة يميز أمة معينة عن أمم أخرى انطلاقا من الجانب الروحي والمعنوي للأمم كالدين واللغة والآداب والتاريخ وكل ما هو اجتماعي وخلقي.
- **الحضارة** Civilization: هي نمط من الحياة المستقرة، ينشئ القرى والامصار، ويضفي على حياة أصحابه تفوقا منتظماً من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وادارة شؤون الحياة والحكم وترتيب وسائل الراحة وأسباب الرفاهية.
- **الحضارات المجهضة** Aborted Civilization: هي حضارات وصلت إلى مستوى معين ثم توقفت وتدهورت مثل الحضارة القعصبية في الشمال الافريقي.
- **حفريات** Excavations: بقايا حضارات اندثرت وبقيت منها بقايا متحجرة.
- **سلام روماني** Pax Romana: مرحلة حضارية أطلقها شبنجلر على الفترة الزمنية بعد قيام حروب عظمى تنتهي بقيام الدولة الكبرى التي تمد سيطرتها على العالم المتحضر، ويتولى الحكم فيها شخص واحد. ولدى ظهور هذه الدولة تنتهي الحروب بين ما كان يطلق عليها دول، وتتخذ الحروب شكل صراع داخلي ومنافسات شخصية فقط.
- **المدنية** Civilization: هي الحالة الراقية التي وجدت عليها الأمم تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع.



14. المراجع

أ- المراجع العربية:

1- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (-808هـ)، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، 8ج، ط2، بيروت، لبنان، 1408هـ/ 1988م.

2- أحمد الخشاب، دراسات انثروبولوجية واتنوجرافية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1959م.

3- أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الانجلو المصرية، ط 2، 1963م.

4- ألبرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د. ت.

5- بول ماسون - اورسيل، الفلسفة في الشرق، ترجمة: محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر، د. ت.

6- حامد عمار، بعض مفاهيم علم الاجتماع، ط 2، دار المعرفة، القاهرة، 1962م.

7- حسن سعفان، الموجز في تاريخ الحضارة والثقافة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959م.

8- حسين مؤنس، الحضارة، عالم المعرفة، الكويت، 1398هـ/ 1978م.

9- خلقي خنفر، تاريخ الحضارة الاسلامية، ط1، 1412هـ/ 1991م.

10- صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات واعادة بناء النظام العالمي، نقلة إلى العربية مالك عبيد، ومحمود خلف، دار الجماهيرية للنشر، الجماهيرية العربية الليبية، ط1، 1999.

11- عبد الرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، ط8، القاهرة، 1979م.

12- عبد الله زاهي الرشدان، المدخل إلى التربية، دار الفرقان، عمان، الاردن، 1407هـ/ 1987م.

13- محيي الدين صابر، التغير الحضاري وتنمية المجتمع، سري اللبان، 1962م.
14- موسوعة تاريخ الحضارات العام، باشراف موريس كرزويه، منشورات عويدات، 7ج، ط3، بيروت، لبنان، 1413هـ/ 1993م.

ب- المراجع الأجنبية:

1- Toynbee A.J. - Astudy of History, Vol. 1, Abridged Edition by somer-vell, (4thimp. 1951).

2

الوحدة الثانية

حضارات الشرق القديم

محتويات الوحدة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

عـزيزي الدارس، أرحب بك في الوحدة الثـانيـة من مقـرر "الحضـارة البشـرية ومنجزاتها"، وهي بعنوان "حضارات الشرق القديم".

تعرض هذه الوحدة لمناحي الفكـر والثقافة والتدين في حضـارات الشرق القديم. ويتمحور البحث فيـها حول المعتقدات الدينية لكل حضارة منها. ويـستشهد بنماذج من أساطيـرها وآدابها في الكون والـطبيعـة والإنسان والدولة والحـاكم الإله والموت والخلود وينتهي بنظرة في هاجس الفكر البدائي وخصائصه العامة.

ولعل دراسـتك لموضوع الوحـدة الأولى، والذي اعـتبـره بحق مـدخلاً لدراسـة موضوعات المقرر كلها ما يساعدك في فهم مادة هذه الوحدة. وعليك - عزيزي الدارس - أن تلاحظ ابتداء أن الحـضارة ولدت ونمت في الشرق وأن اليونان والرومـان وشعوب أوروبا في العصور الوسطى والحديثة مدينون لغيرهم من الأمم التي سبقتهم. ولعل مثل هذا امتداد لما درسته في الوحدة الأولى "الحضارة بين الوحدة والتعدد".

عزيزي الدارس، سـترد في ثنايا هذه الوحدة مـجموعة من التـدريبات والأنشطة وأسئلة التقويم الذاتي بالإضافة إلى أسئلة التعيينات الخاصة بالوحدة، وهي تعينك - إذا ما تفاعلت معها - على فهم الوحدة وتحقيق الأهداف من دراستها.

مرحبا بك مـرة أخرى في وحدة "حضارات الشرق القـديم"، وأتمنى أن تستمتع في دراستها. وفقك الله إلى ما فيه الخير.

2.1 أهداف الوحدة

يتوقع منك، عـزيزي الدارس، وبعد دراستك هذه الوحدة أن تصـبح قادرا على أن:

1- تعرف مناحي الفكر والثقافة والدين في حضارة الشرق القديم.

2- تصف السمـة الأسطورية لبعض وجوه ثـقافات الشرق الـقديم، وتبين الطابع التخيّلي والحسي والبدائي لها.

3- تقارن بين السمات الأسطورية وبين الخصائص المميزة؛ العقلية منها والميتافيزيقية والعلمية لثقافات الحضارات الشرقية القديمة.

4- تدرك العلاقة بين تطور الديانة العبرية والصهيونية المعاصرة.

3.1 أقسام الوحدة

تنقسم هذه الوحدة إلى خمسة أقسام ترتبط بقائمة الأهداف السابقة، وهي:

القسم الأول: حضارة الفراعنة وتوحيد أخناتون.

القسم الثاني: الديانة العبرية وتطوراتها (وعلاقة الصهيونية المعاصرة بها).

القسم الثالث: حضارة ما بين النهرين والفنيقيين.

القسم الرابع: حكمة الشرق الأقصى: زرادشت والألوهية، بوذا والنرفانا، وكونفوشيوس "الإنسان النبيل" الطاوية.

القسم الخامس: نصوص مختارة.

4.1 القراءات المساعدة

عزيزي الدارس، حاول الانتفاع بالقراءات التالية لاتصالها القوي المباشر بموضوع هذه الوحدة، ومما لا شك فيه أن انتفاعك بها سيجعلك أكثر قدرة على استيعاب ما فيها من معلومات، كما سيعمق فيك القدرة على التصور والتحليل والاستنتاج:

1- موسوعة تاريخ الحضارات العام، بإشراف موريس كروزويه، منشورات عويدات، 7ج، ط 3، بيروت، لبنان، 1413هـ-1993م.

2- فرانكفورت وآخرون، ما قبل الفلسفة - الإنسان في مغامرته الفكرية الاولى، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا وآخرون - مراجعة: محمود الأمين، بيروت، 1982م.

3- طه باقر، ملحمة جلجامش، وزارة الارشاد، مديرية الفنون والثقافة الشعبية، (سلسلة الثقافة الشعبية، 54)، بغداد، 1962م.

4- أورسل، بول ماسون، الفلسفة في الشرق، ترجمة: محمد يوسف موسى، القاهرة، دار المعارف، 1974م.

5- أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الإنجلو المصرية، ط 2، 1963م.

6- Breasted (J.H) Development of Relision and Thought in Ancient Egypt. New - York 1912.

7- PH.K. Hitti, History of Syria, London, 1951.

5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة

عزيزي الدارس، وقبل أن تبدأ بدراسة هذه الوحدة التي بين يديك عليك أن تهيئ لنفسك جواً هادئاً ومريحاً، مستعيناً بخريطة للعالم القديم، وبعض صور عن منجزات الحضارات التي تمر بك وعليك أن لا تتردد في الاتصال بمشرفك الأكاديمي كلما اقتضت الحاجة لمناقشة ما يعرض لك من صعوبات أو معضلات أو مسائل مثيرة للاهتمام.

2. حضارة الفراعنة وتوحيد أخناتون

عزيزي الدارس، لقد لعب وادي النيل دورا هاما في قيام الحضارة المزدهرة في مصر منذ القدم فمصر، - هبة النيل- مرت منذ الألف الرابع قبل الميلاد بمراحل تاريخية متتابعة. ففي البدء تكونت في مصر دولتان إحداهما في مصر العليا، والأخرى في مصر السفلى، وفي حوالي عام 3200 ق.م. تمكن ملك مصر العليا - الملك مينا - من توحيد الدولتين في مملكة واحدة. ومنذ ذلك الوقت وحتى احتلال الاسكندر المكدوني لمصر عام 332 ق.م. حكمت مصر ثلاثون أسرة مصرية على مدى عدة عصور قسمها المؤرخون إلى:

1- عصر الدولة القديمة ويمتد من 3200 ق.م إلى 2300 ق.م

وتميز هذا العصر بتوحيد مصر واختيار مدينة ممفيس الواقعة عند تفرع نهر النيل عاصمة لها. وببناء الأهرامات، وتبلور سلطة فرعون ملكا وكاهنا أعظم والهاً. وبانتشار الأمن والسلامة، والنشاط الزراعي.

2- عصر الدولة الوسطى ويمتد من 2300 ق.م - 1570 ق.م

وفي هذا العصر ضعفت سلطة الفراعنة وزادت سلطة أمراء الإقطاع واختل الأمن

والاستقرار، ولم يعد الفراعنة يدفنون في أهرامات بل أصبحوا يدفنون في مقابر منحوتة في الصخور. وفي حوالي عام 1750 ق.م. تعرّضت مصر لغزو الهكسوس الذين حكموها وأقاموا فيها حوالي 150 عاماً، حين تمكن الأمير المصري أحمس من طردهم حوالي عام 1600 ق.م.

3- عصر الإمبراطورية أو الدولة الحديثة ويمتد من 1580 ق.م - 1085 ق.م

وتميز هذا العصر بظهور الامبراطورية المصرية التي توسعت في اسيا وشرق أفريقيا فضمت بلاد الشام، وأعالي الفرات، وأجزاء من السودان، وسواحل البحر الأحمر، وشواطئ ليبيا، كما تميز باتساع تجارة مصر الخارجية، وازدياد ثروتها، وبناء أقدم أسطول حربي. كما ظهرت في هذا العصر ديانة التوحيد على يد أخناتون، وكان من أبرز فراعنة هذا العصر وحشبسوت وتحتمس الثالث ورمسيس الثاني.

4- العصر المتأخر ويمتد من 1090 ق.م - 332 ق.م

وتميز هذا العصر بضعف سلطة الفراعنة وازدياد نفوذ الكهنة، وكثرة الاضطرابات الداخلية، والهجمات الخارجية، كغزوات الليبيين والأشوريين والفرس، وسقوط مصر بيد الاسكندر المكدوني 332 ق.م. وخضوعها لخلفائه البطالسة من بعده، وأخيرا سقطت مصر بيد الرومان عام 30 ق.م. فحكموها وخلفاؤهم البيزنطيون حتى الفتح الاسلامي عام 640م.

عزيزي الدارس، تعلم أن الحضارة في مصر قديمة، فمنذ عام 2241 ق.م. شرع هناك في إصلاح التقويم، مما يدل على سبق التجارب والتفكير لعدة قرون خلت وفي عهد الأسر الأولي، أي في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، بلغت طرق العمل الفنية شأنا كبيرا يدعو إلى الإعجاب. ولا شك أن النيل كان مصدر الهام عند الانسان المصري، فهو تارة يغدق على واديه النعيم، وطوراً يصب عليه النقمات، مما أوحى الحكمة إلى إنسان مصر، وجعل منه مساحاً ومهندساً وفنيا عندما اقتضت الضرورة إلى إعادة مساحة أراضيه لتحديدها بعد انحسار مياهه عنها. (انظر بول ماسون - أورسيل، ص 51/50؛ أحمد فخري، ص 26)

والسوال المطروح: من أكثر قدماً على سلم الحضارة: حضارة مصر، أم حضارة ما بين النهرين؟

ولعلك - عزيزي الدارس - تشاركني الرأي في أن كلا الحضارتين قد نشأ في

الألف الرابع قبل الميلاد، وأخذ كل منهما يتقدم على انفراد، ويبدو أن سكان العراق القدماء قد وصلوا إلى ما لم يصل إليه سكان مصر في العصر الذي يسمى عصر ما قبل الأسرات. غير أنه يجب أن لا يغيب عن البال أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة ببعضها بعضاً، وكانت التجارة قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب كما أخذت الهجرات تتوإلى بين بعضها بعضاً، فاتصلت الحضارتان، وكانت مصر انذاك تجتاز فترة انتقال فأثمرت هذه الصلة وأخذت مصر من العراق شيئا من مظاهر حضارته مثل الأختام الأسطوانية التي عثر عليها في مقابر ما قبل الأسرات وبعض مقابر الأسرة الأولى المصرية. وكذلك أخذ المصريون عنهم بناء الجدران ذات الفجوات الرأسية الطويلة، كما بدأت تظهر في الفن المصري تأثيرات أخرى مثل رسم السفن العراقية التي يرتفع كل من مؤخرتها ومقدمتها ارتفاعا عمودياً، ورسم الحيوانات ذات الأجنحة، أو الحيوانات ذات الأعناق الطويلة التي تتقاطع مع بعضها بعضاً أو الرسم السومري المشهور الذي يمثل محارباً بين أسدين. ولعل استمرار هذه المظاهر في العراق واختفاء بعضها من مصر يشير بوضوح إلى أن مصر أخذت هذه الأشياء عن العراق. (انظر أحمد فخري، ص 25، 26)

عزيزي الدارس، وليس ثمة شك في أن حضارة مصر آنذاك لم تكن أقل منها عن مثيلتها العراقية، بل ربما كانت تفوقها في نواح كثيرة؛ بل إن في إقبال المصريين على اقتباس أساليب الفنون الأجنبية يدل بوضوح على نضوج فني بينهم جعلهم يتطلعون إلى آفاق أبعد من الآفاق المحلية؛ كما يدل أيضا على المرونة التي يجب أن يتحلى بها كل شعب يبدأ فترة تقدم حقيقي في تاريخه (أحمد فخري، ص 27).

إن أية ثقافة مهما كانت تتطلب نظاماً اجتماعياً واسع المدى والمدة، وهذا لا يتأتى إلا بالتخلّص تدريجياً من تاريخ العقائد. لقد كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات، يحكم كل منها معبود يرتفع قدره ونفوذه عندما تستولي مقاطعته على غيرها وتفرض سيادتها عليها. وبالاضافة إلى ذلك كانت النيل والشمس موضع إجلال الجميع. لقد كان هنالك نوعان من الآلهة: المعبودات المحلية: كالحيوانات والأشجار والجبال. والآلهة الكونية: كالسماء والأرض والكواكب والنيل. ويبدو أن لهذا التقسيم أهميته الاجتماعية وصبغته الطبيعية، بل ودلالته على بعض الصلات، ومثال ذلك أن مقاطعة هليوبوليس ترمز إلى الشمس بالذات.

عزيزي الدارس، لقد كانت دولة مصر موحدة منذ عهد المملكة القديمة (الأسرة

الثـالثة إلى الأسـرة الثامنة). وكـان فرعـون تلك الأسر رب السـلطة الدينية والزمنيـة، والمالك الوحـيد للأرض، والعاهل الذي هو مـصدر حـياة الناس والآلهـة. ولما كان هو كذلك - مرجـعاً للوجود والرفاهيـة، كان الشعب بأسره يعـمل من أجله، ويضحي في سبيله حتى بالحـياة. فهنالك نفس واحدة لها قيمتهـا هي نفس فرعون، وله وحدهُ روح دون سائر الكائنات الحـية الأخرى وكان مـصير الأمـوات تحت رحمته، وكـذلك شوون الأحيـاء الاقتصـادية تحت سيطرته. ولا مـراء إن قلنا بضرورة وجـود هذا الإيمان القوي الغريب لتشييد الأهرام.

إن هذا الفهم لشخصـية الفرعون لم يتحمل الصدمـات التي هزت المجتمع بأسره في المدة من عام 2360ق.م إلى عام 2160ق.م. حيث اعتبـر المحتمع انذاك من الظلم البين أن يكون الخلاص الروحي امتيازا مقصورا عى عظيم، وصار الدين منذ ذلك الوقت يسير في طريق الديمقراطية، وما أن حلّت الدولة الوسطى حتى أقامت مقام الحكم المطلق حكما مـؤسسا على العـدالة، ووضعت السلطة العليـا في خدمة الجـميع. أما الشـعائر الدينية، فقد أصبحت مفهومة وفي متناول كل فرد من أفراد الشعب، بعد أن كانت سرية خاصة بطبقة الكهنة.

عـزيزي الدارس، دعني أدرس وإياك الحيـاة الدينيـة عند المصريين القـدماء قـبل محاولتي التعليق على معبوداتهم:

لقد عبد المصريون آلهة متعددة مـحلية وعامة. أذكر لك منها الآلهة (رع) أي آلهة الشـمس. و (أوزوريس)، و (آمـون دع) الذي أصـبح إله مـصر الأعظـم بعد انتـقـال العاصمـة من ممفيس إلى طيبة. وعندما اعـتلى الفرعون. أمنحوتب الرابع عـشر عرش مصر، أقفل مـعابد آمون رع وطرد كهنتها، ونادى بدين جديد سـماه "أتون" ورمز إليه بقرص الشمس وسمى نفسه بأخناتون أي روح أتون. وبهذا اقترب المصريون القدماء من فكرة التوحيد، غير أنهم ما لبثوا أن ارتدوا عن ذلك بعد موت أخناتون.

اعتـقد المصريون بـالبعث، واعتـقدوا أن أرواح الموتى تذهب إلى العـالم الآخر، حيث يوزن قلب الميت، فـمن كانت أعماله صـالحة وحفظ التعاليم والإرشـادات الدينية التي نص عليها كتاب الموتى، نجـا من العذاب، ووهب له الإله أوزوريس الحياة والخلود ففي الاخرة. ولأنهم اعتقدوا بهذا، ولأن عودة الروح إلى الجسد الميت لإحيائه تستوجب بقاء الجسد سليما، فقد اخترع المصريون فن التحنيط؛ فكانوا يحنطون موتاهم بأن يضعوا الجسد الميت في صندوق خـشبي بعد نزع أحشائه، ثم يغطونه بمادة النيـترون التي تجفف

الجسد وتنزع الرطوبة منه، وبعد تجفيف الجسد كانوا يضيفون إليه مواد أخرى حافظة ويلفونه بلفائف طويلة من الكتان ثم يدفنونه.

اهتم المصريون القدماء ببناء المقابر فكانوا في بادئ الأمر يدفنون موتاهم في حفر عميقة، ثم أخذوا منذ عصر الدولة القديمة يدفنونهم في أهرامات ضخمة بنيت من حجارة الجرانيت. بنى أول هرم في مصر في عهد الملك زوسر على شكل مصاطب مدرجة بعضها فوق بعض - كما هي في هرم سقارة ثم تطورت الفكرة إلى بناء الأهرامات التي تميزت بضخامتها ودقتها الهندسية، فكان منها هرم خوفو/أو الهرم الكبير، وهرم خفرع، وغيرها. وبانتقال عاصمة مصر إلى طيبة أخذ الفراعنة يدفنون موتاهم في قبور محصنة محفورة في الصخر، كما هو الحال في مقابر وادي الملوك، ومن أشهر تلك المقابر: قبر توت عنخ أمون.

أما المعابد، فكانت جنائزية تقام فيها الصلوات على الفرعون الميت، مثل معبد الملك خفرع ومعبد الملكة حتشبسوت، أو معابد كبرى مخصصة للالهة العظام مثل معبد الكرنك المخصص للإله أمون رع ومعبد أبي سمبل الذي تم نقله قبل أن تغمر بحيرة السد العالي المكان.

لقد كان لعقيدة الحق الإلهي، التي كانت مؤسسة لصالح المملكة المنفية (الأسرتان الثالثة والرابعة) علماء نظريون في أشخاص كهنة هليوبوليس من عبدة (رع) أي الشمس. وقد تخيلوا فرعون، لا على شكل الصقر حوريس، بل اعتبروه متحدا بالشمس اتحادا جوهريا. ومن جهة أخرى يتدخل عامل اخر من عوامل الدين المصري. وهو عبادة أوزريس - إله الزراعة والماء الذي مثل تارة بالنيل وطورا بالقمح، وقد احترمت الأساطير في شخصه ملكا عاملا في سبيل المدينة؛ إذ كشف النقاب عن الزراعة، ووحد البلاد، غير أنه كان موضع حقد أخيه "سيت" إله الشر. وكان أن قتل أوزريس وقطع إربا؛ لكن "إزيس" زوجته نموذج الوفاء جمعت أشلاءه، وأعادت إليه الحياة، وجعلته من الخالدين بفضل ما تملك من قوة سحرية، وبذلك - عزيزي الدارس - صار أوزريس رمزا للملوك الذين يحاولون الدفاع عن أنفسهمْ ضد الموت، وصار مثلا يحتذى من قبل الفراعنة حتى الأسرة الثامنة؛ إذ كانوا موضع تقديس بعد موتهم أسوة بالملوك الأول الذين ذهبوا عن الوجود.

وفي عهد الدولة الحديثة (الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة العشرين (1580-1100 ق.م) صارت طيبة عاصمة العالم، وقامت دليلا على قوة الأنظمة المصرية وتشعبها حتى

بلغت آسيا. غير أن هيئة كهنة آمون، وهي التي كانت تمثل رع (إله الشمس) في طيبة، حاولت الاستئثار بسلطة الملك وإحلال نظام الحكم الإلهي محل الحكم الفردي (بول ماسون، أورسيل، ص 53)

لقد لاقى الفراعنة غير الأصليين صعوبات جمة في مقاومة هذا التيار المحافظ بوضوح، وحاولوا مواجهة التقاليد الدينية الخاصة بهيلوبوليس بالأنظمة التي أقامها كهنة آمون؛ ومثال ذلك أن "أمونوفيس الرابع" ليعارض أشياع آمون، وَهَبَ نفسه لقرص الشمس آتون؛ وفرّ من طيبه وأنشأ مركزا لعبادة جديدة في المنطقة التي أصبحت بعدئذ تلّ العمارنة، واتخذ اسم أخناتون، أي مجد آتون. وهذا حادث يشير إلى صعوبات التي لاقتها مملكة طيبة في طريق السير إلى التوحيد.

عزيزي الدارس، ومنذ القرن الحادي عشر بدأ نفوذ الفراعنة يجتاز المحنة تلو المحنة، إذ أخذ أنبياء امون الأول، ومرتزقة لوبيا يتنازعون فيما بينهم للاستئثار بالسلطة دون الفراعنة. ووقعت مصر في أيدي الأشوريين في الأعوام 671، 668، 661 ق.م. ثم في أيدي الفرس عام 525 ق.م. ثم في يد الاسكندر عام 332 ق.م. وأخيرا في يد الرومان عام 30 ق.م. وحلت اللغة والتقاليد الإغريقية محل لغة البلاد الأصلية وتقاليدها، وسادت الوثنية فأزالت استعمال الهيروغليفية في القرن الرابع الميلادي، توطئة لإحلال الكتابة العربية محل الكتابة اليونانية وقد أصبحت مصر منذ الغزو المقدوني مركزا اجتمعت فيه جميع حضارات الإنسانية، والتقت فيه كل التأثيرات من أفريقية وأوروبية وآسيوية. (بول ماسون - أورسيل، ص 54)



نشاط (1)

ارجع إلى كتاب بريستد؛ تطور الدين والفكر في مصر القديمة، واكتب ملخصا عن تاريخ حكم سلالات وأسر مصر؟



تدريب (1)

وضح أثر النيل في الإنسان المصري؟



أسئلة التقويم الذاتي (1)

وضح كيف سارت مملكة طيبة في طريق التوحيد؟

تعال بنا، عزيزي الدارس، ننظر إلى تأثر الديانة اليهودية بغيرها من الديانات التي سبقتها لنبين خصوصية هذه الديانة.

ابتداء أود أن أقول لك أن حمية اليهود الدينيـة امتازت بصبغة القلق الخاصة بها. وأنه كان هناك تشابه مـؤكد بين دين الكنعانيين أو الفنيقيـين الذي اضطر اليهود إلى تمثله لغزو أرض الميعاد. "فالبعل" و "الاستارتية" المحلية التي كان يقابلها في الديانة اليهودية "يهوه" سـيد الرحل الآرامـيين كانت ذات مميـزات ايجية سـومرية. «وأشـيرات» رأس شمرة، إلهة البحر الفنيقية، اختلطت "بأتارجاتيس" بعد انهيار شعب الملاحين الذي كان يقدسها، وليس "أتارجاتيس" الا اسما آخر «لـعشتار» البابلية؛ و "حداد" ابنها، الذي هو بعل الصاعـقة، يرجع في أصله إلى بلاد ما بين النهـرين، ثم اتضح ان "عاليين بن حـداد"، وهو روح الانبات، لـيس إلا «موت» إله الموت، وقـد أدى ذلك إلى إيجـاد وحدة "أودينس أشـمون" الذي أطلق عليـه اسم تموز السومـري، كمـا أن إله الخصب (الإنبات) الـذي كان يموت ويحـيا كل سنة، قـد لعب نفس دور كل من "لأتيس" في الاناضول، و«اوزوريـس» في مصر. (انـظر: بول ماسـون - أورسيل، ص 40). أما الآلهة الكثيرون الذين كانوا ينتظرون منهم الخبر المحسوس، فقد اعتبر المتظهرون من أهل الصحراء عبادتهم وثنية وفحشاً.

عزيزي الدارس، ومنذ أن شـعر اليـهود بوجودهم كـجنس وشعب صـار الههم الحقيقي هو ألوهيم "الله؛ وذلك بعد أن عقد ميـثاقا معهم (مع سيدنا موسى) في طور سيناء. وعلى الرغم من أن هذا الميثاق كان ذا صبغة تاريخية الا أن اتصاله بهم كان يبدو ذا قوة مطلقة.

وتستطيع - عزيزي الدارس - أن تبيين الطابع الاستثنائي الذي اصطبغ به التفكير الالهي عند الاسرائيلين من التطور الذي طرأ على أحوالهم الاجـتماعية؛ ذلك بأنه حين استقر الشعب التائه، فـأصبح مقيما وزراعيا، تولى "يهوه" اختـصاصات البعل فأصبح إله الطبيعة وإله القبيلة.

ولما قام وحي الأنبيـاء وتفجر بين القرن الثامن والسادس ق.م، أصـبح "ليهوه" دور أخلاقي عظيم جدا، وبعـد تأسيس نظام الملكية، واتخاذ الزراعة والتـجارة وسيلتين للحياة المنظمة وازدياد طبقة الفقراء وإحـلال نظام الملكية الفردية محل الشيوعية الفطرية، زالت جميع القيم الأخلاقية التي كانت أولا (انظر بول ماسون - أورسيل، ص 40).

أما من كـان يتكلم من اليهود باسم " يـهوه" فقد أخـذ يحارب حالة الحـضارة الجديدة ويعتبر مظاهرها جـرائم لا تغتفر، بل نعتوها بالسياسة النفعـية والزندقة الجسورة والاثراء في الأعمال وسيادة الشهوات وعبادة العجل الذهب، كما هاجموا ارتشاء الكهنة بحجة أن مثل هذه الجرائم حرية بأن يمحو "يهوه؛ لأجلها شعب اسرائيل. (بول ماسون - أورسيل، ص 41)

عزيزي الدارس، ومن هنا نستطيع القول بأن "يهـوه" كان أكثر من إله اسرائيل، بل أكثر مـن إله الطبيعة؛ فـالله يطالب بالعدل العالمي، وهو لا يرجو قـرابين، بل نقاء السرائر وخضوع القلوب. لـذا نرى أن الأنبياء: عموس وهوشع وأشعيـا وأرميا يطالبون بقوة لا تعرف الهوادة وأن تسود الأخلاق سيادة مطلقة في هذا العالم، فالمعجزة اليهودية هي تفوق المثـل الأعلى على الواقع، وليس هو المثل الأعلى الذي هو الحقـيقـة المجردة للأشياء والتي يتـأمل فيها افلاطون، بل هـو مثل أعلى مدرك ومقصـود بقوة مثل أعلى تكذبه الوقائع لكنه يحكم عليها ويـنتهي أحيانا بالانتصار. إن الانبياء قـد خلقوا العقيدة والايمان؛ بل هم يرون ويجـعلون غيـرهم يرى، يشـعرون ويجـعلون غيـرهم يشعـر. ويتخيلـون ويجعلون غيرهم يتـخيل. وهم ينقلون الأوامر الالهيـة التي يوحي بها على ألسنتهم. وعليه فان شعب اسرائيل المحطم المشتت سيجد عزاءه في المستقبل المنتظر، بل هناك ما هو أكـثر من ذلك، وهو أن "يهـوه" يعرف كيف ينتـقم، وعندئذ يفتح عـهد التجلي والبشرى بيوم الحساب. (بول ماسون، اورسيل، ص 41)

ان العقيدة السائدة عن نهاية العالم قد أنجبت المسيحية التي تعد نوعا من الإصلاح اليهودي، وبهذا سيعمل يسوع على جعل الأولوية للصفح والحب على الغضب حتى لو كـان الغضب عـادلا، وهكذا - عزيزي الدارس - تـغلب روح المغفـرة على قوة شـدة الأنبيـاء اليهود وصـلابتهم. غيـر أن الكنيسة المسـيحيـة، كما مـثلتها الأجـيال الأولى للمسـيحـيين، قد جمـعت بين الله في نظر السامـيين والله في نظر الايجيين فـاذا كان "يهوه" أقـرب شبه لله الأب، فـإن الالهة الذين عُذبـوا وتألموا لإنقاذ الانسانيـة، سواء أكانوا افـروجيين أم سوريين، أم مـصريين قد مـهدوا لفكرة الله الابن. (بول مـاسون، أورسيل، ص 42)

كان الدين اليـهودي مـوزعا بين فكرة العزلة وفكرة الانـتـشار العـالمي. حيث أن الفكرة الاولي سادت عند اليهـود أسرى بابل عندما نفوا هناك. أما الفكرة الأخـرى فقد وضعهـا النبي أشعيا، واليـهود لم يتنازلوا عن هذه الفكرة أو تلك. إضافـة إلى أنه كان لهم تصـوف مبني على العقـل والمنطق، يشهد علـى هذا مؤلفات مـوسى بن ميـمون، وسبنوزا.

عزيزي الدارس، ومما لا ريب فيه أن التوراة والانجيل يعتبران من أقوى المؤثرات الحاسمة التي أثرت في أوروبا من اسيا. ولا تَنْسَ أن أثر كليهما لم يكن أقل في اسيا ذاتها، وأنهما سبقا الديانة الاسلامية ومذاهب أخرى انتشرت في ايران والهند والسند؛ فالتشريع اليهودي والتلموذ كانا أشد تأثرا في القرون الوسطى بالبابلية من المذاهب السامية الأولى؛ وكذلك القابلاه (كتب التصوف العبرية) التي تعد أساسا للتعاليم السرية الغربية كانت كلدانية أكثر منها يهودية. (بول ماسون - اورسيل، ص 43)

عزيزي الدارس، وتعلن الديانة اليهودية عن نفسها باعتبارها ديانة تنزيه فهي تقرر أن ثمة موجوداً واحداً هو خالق الكون وأنه بالاضافة إلى هذا يتصف بصفات شخصية وأن إحدى هذه الصفات الأساسية هي العناية الإلهية.

إن الديانة اليهودية، - وعلى الرغم من تقرير بعض المؤرخين-، تأثرت بنزعة توحيد فرعونية، إلا أنها تقر بالتوحيد وبإله واحد يتحكم في الكون فضلا عن كونه خالقاً له. وعلى الرغم من هذا فإن فكرة التوحيد عندهم ضيقة؛ بمعنى أن هذا الإله (يهوه) - كما يسمى بالعبرية - معني بالعالم، لكنه معني بجزء من الانسانية أكثر بكثير من عنايته بأجزاء أخرى؛ أي أن بني اسرائيل يضعون بينهم وبين الله (يهوه) علاقة وثيقة للغاية؛ فهو يقودهم في الحروب، ولا يعني بهم كشعب بصورة كلية فقط، وانما يُعنَى بكل واحد منهم بحيث أنه ينتصر للشعب وللفرد على حد سواء، ويقف موقف عداء بالنسبة للآخرين كلهم، وهذا مما يجعل من اله بني اسرائيل إلهاً قومياً إلى حد بعيد على الرغم من أن المفكرين اليهود المحدثين يريدون أن يؤكدوا تأكيدا مطلقا على النزعة الانسانية المطلقة في اليهودية. وحتى في واقع الأمر حين يؤكدون هذه النزعة فانهم يجعلون من شعب بني اسرائيل المركز والمحور. إذن نقول إن التوحيد اليهودي محدود والههم إله شعب أكثر من كونه إله بشر.

صفة أخرى يتصف بها التفكير الديني اليهودي وهي النزعة العملية القومية، والواقع أن الديانة اليهودية تتجه نحو الأمور العملية أو الأمور القانونية أي الأمور التي تتصل بالمعاملات والعقود والزواج والطلاق وما أشبه ذلك، وهناك تركيز قوي على الجانب العملي في اليهودية بحيث تطبع الطابع الديني بطابع حسي وعملي ومادي، وبالفعل حين يريد مؤرخو الفكر الديني أن يؤرخوا للسمات الرئيسة، يقولون عادة إنّ اليهودية ديانة مادية فقهية، أو دنيوية. بينما المسيحية ديانة روحانية تأملية، في حين أن الإسلام دين دنيوي وأخروي في وقت واحد.

نشاط (2)



ارجع إلى كتب التراجم وتعرّف على سيرة: موسى بن ميمون، سبنوزا.

تدريب (2)



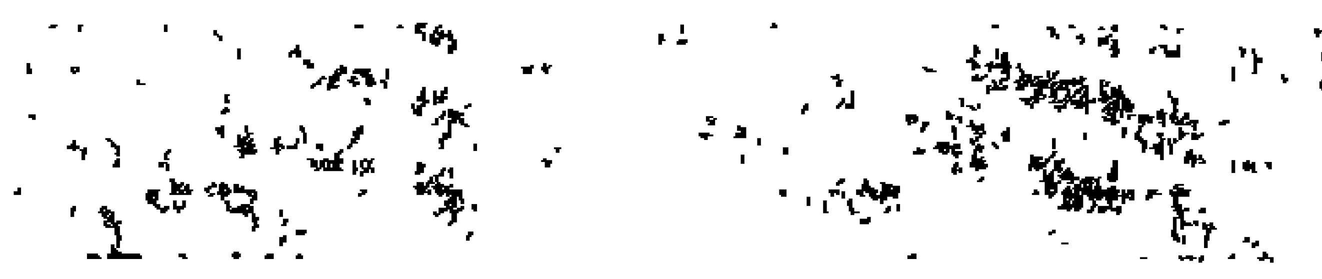
"كان الدين اليهـودي موزعا بين فكرة العزلة وفكرة الانتـشار العالمي" وضح هذا القول؟

أسئلة التقويم الذاتي (2)



وضح الطابع الاستثنائي الذي اصطبغ به التفكير الالهي عند الاسرائيليين؟

4. حضارة ما بين النهرين والفنيقيين



أن تعلم، عزيزي الدارس، ابتداء أن المقصـود بالنهرين: دجلة والفرات وأن بلاد ما بين النهـرين اسم قديم أطلق على الأراضي الواقعة بين نهـري دجلة والفرات. وعلى هذه الأرض نشأت حضارة من أقدم الحضارات وأكـثرها ازدهارا، أسهم فيها إلى جانب السومريين (وهم شعب غير سامي) شعوب سـامية كونت امبراطوريات واسعة، كان لها السبق في اختراع الكتابة، والتشريع، والزراعة ونظم الري وغيرها.

إن الحـديث عن حـضارة مـا بين النهـرين يعني الحـديث عن أقـدم الحضـارات والمنجزات البشرية والتي تؤكد على وجود ارتباطات عميقة دائمة مع باقي العالم القديم؛ فحضارة هذه المـنطقة في بلاد عيلام وبلاد سومر، وعند السـاميين والأكاديين في بابل، وفي آشـور، وغيرها كـانت كخـط من القمم والتي كـانت تسطع وتتوزع على الـقرب الكائن على شواطئ الأبيض المتـوسط، وعلى اسيا الجنوبيـة والشرقية القـصوى، وتؤثر فيها جمـيعا تأثيرا عميقا؛ وهناك تطورت الأنظمة الأولى المتـعلقة بتركيب الكون وبنظام الإنسانية.

1.4 السومريون

ولعلك تسأل - صـديقي الدارس - عن أصل هذا الشعب. وتـختلف الآراء في

هذا: ففي الأساطير السومرية أنهم جاؤوا من الجنوب عن طريق البحر، وفي رأي بعض الباحثين أنهم جاؤوا مهاجرين من آسيا الصغرى في موجتين، ويرى آخرون أنهم جاؤوا من جهة التركستان وجبال اورال، وهناك من يقول أنهم جاؤوا من واد السند؛ بعضهم بطريق البر واخر بطريق البحر. كما يذكر البعض أنهم وفدوا من هضبة إيران، ويحاول البعض الآخر تحديد أصلهم عن طريق مقارنة اللغة السومرية باللغات التي يمكن القول بأنها تشترك معها في أصلها وأهمها اللغات المجرية والتركية والفنلندية. في حين يحاول بعض الباحثين العراقيين إثبات أن الحضارة السومرية أصيلة في البلاد ولم تأت من أي مكان آخر. (انظر أحمد فخري، ص 28)

وكأني بك - عزيزي الدارس - في دوامة هذه الآراء، والتي لا تزيد عن كونها فروضا؛ إذ ما زال موضوع أصل السومريين ونشأة حضارتهم ولغتهم من المواضيع التي تنتظر الحل، وظهور أدلة جديدة.

تعلّم - عزيزي الدارس - أن من أقدم حضارات التاريخ تلك الحضارة المشتركة بين العيلاميين (الذين سبقوا السومرين) وأصلهم من سوس في الطرف الغربي من الهضبة الايرانية، وبين الحضارة التي كانت بمنطقة مرو. والتي عرفت منها بلاد ما بين النهرين وآسيا عملية تدجين الحيوانات. لقد غزا العيلاميون بلاد ما بين النهرين، وفي تلك المنطقة تكونت الحضارة السومرية التي تعتبر أساسا لعدة حضارات آسيوية؛ فعلى الضفاف الجنوبية للنهرين، وفي الألف الرابع قبل الميلاد بنى السومريون مدنهم مثل: اور، واريدو، ولكش وغيرها. لقد نشأت مدينتا لاجش (تيلو)، "وأما" بالقرب من الخليج العربي حيث ازدهرتا منذ عام 3355 ق.م. وبعد هذا التاريخ وبالقرب من مصب نهر الفرات نشأت مدن اوروك، واور، وايريدو. وقد اضطر ملوك لاجش أن يخضعوا لملوك (أما)، فأصبحت بلادُ السومريين أكبر امبراطورية في آسيا الغربية وذلك في عهد الملك "لوجال لاجيسي" في حوالي 2897 ق.م. (انظر بول ماسون، اورسيل، ص 6)

عزيزي الدارس، يبدو أن هناك توافق غريب بين العمل المادي والمعارف الاسطورية الخاصة بالسومريين فبعد أن كانوا رعاة في الأدغال التركستانية، أو في الجبال العيلامية، ثم نزلوا إلى الشواطيء واضطروا إلى استغلال الأرض المتيبسة حديثا رغبة في علاج مشكلتين متضاريتين: الأولي مشكلة المستنقعات الرطبة، والأخرى الصحراء الحارة. فحفرواالترع وتوصلوا بذلك إلى نتيجتين عكسيتين غير أنهما تكملان بعضهما بعضاً: وهما تجفيف الأرض وريها وبذلك حصلوا على الخصب. وبذلك أصبحوا شعباً

زراعياً حصدوا بعملهم هذا الغلال من قمح وشعير وشوفان وغيرها من المحصولات الطبيعية حيث انتقلت زراعة هذه المحاصيل منهم إلى سائر العالم. إضافة إلى ذلك فقد ربى السومريون المواشي، وتوصلوا إلى صناعة الخزف الذي استعملوه في المباني والكتابة. وصناعته لديهم تفسير إلى حدٍ كبير روح ما وراد الطبيعة التي كانت تشملها الأساطير لديهم.

إن صناعة الصلصال مثلا تؤدي إلى عمل صورة إله لمصنوعاته، وإلى تعيين اسم لكل نوع ولكل عمل منه. وتحديد مصير لكل وجود، واعتبار هذا المصير قانونا ثابتا. كما نلاحظ كذلك استمرار تمثيل الالهة الغاضبة (تيامات) وهي في قبضة (ماردوك). والملاحظة الأخرى في الديانة السومرية هي أمر وجود السحر، والجسد الانساني - شأن كل شيء حي - في صلة مباشرة مع بعض الالهة، شريطة ألا توقف هذه الصلة بعامل ما، وهنا نجد تكوينا تمهيديا صوفياً لفكرة المكان الطبيعي والعمل الخاص؛ فالآلهة تقي واقية للناس؛ إذ هم جميعا متحدو الذوات ومتساوون في ذلك؛ وذلك إما لأن الانسان ناتج عن صور أزلية، وإما لأن الالهة نشأوا عن تسامي الملوك والأبطال. فليس على المؤمن أن يستجلب فاعلية الآلهة، بقدر ما عليه أن يحافظ على انسجامه مع هذه الكائنات العالية. (انظر بول ماسون، اورسيل، ص 68، 69)

عزيزي الدارس، وإذا تركنا التنجيم والسحر جانبا، تبين لنا أن الآداب الدينية تشمل بنوع خاص أناشيد تمجد آلهة كل شعب، فليس الالهة محليين وشخصيين فقط، بل هم طبيعيون، كما يستدل من طابعهم الذي هو إلى حد ما على شكل حيوانات، والموروث عن الطوطم في العصور الفطرية. ولتقريب ذلك إلى فهمك نرى أن (نسرنن - جيرسو) حامي لاجاش، وهو النموذج السابق لكثير من الشعائر الغريبة والرموز الشرقية التي تشمل صورا لبعض الحيوانات الضارية الشرهة، وتشير - بمعنى أعم - إلى قوة العاصفة نار الحرب، كذلك فإن عبادة النور قد انتشرت إلى ايجة وسوس، وأخذها أيضا الساميون السوريون والفلسطينيون، والملاحظ أن السومريين والاسيانيين، رأوا أن في الإنسانية حظا من الحيوان، على اعتبار أن الانسان له هوية حيوانية الشكل. (انظر بول ماسون، اورسيل، ص 69)

أما الآلهة أو المعبودات السومرية مع الملوك الذين كانوا يعتبرون أبناءاً لها، فكان عليهم تحقيق خصب الطبيعة كل حسب طابعه المحلي. ذلك بأن يهيمنوا على الفيضان، ويديروا شوون الانبات وينظموا الأحداث السكونية. وكان لأغلب هذه الالهة زوجات منها: (تيامات): إلهة المحيط وأم الالهة وهي زوجة أبسو الأول إله المياه الغذبة.

وهناك: اشتار ابنة زنو إله السماء: وهي نموذج أول للزهرة وسيدة الحب وإلهة حربية أيضا. (انظر بول ماسون، اورسيل، ص 70)

وخلاصة القول، عزيزي الدارس، أن السومريين قدموا للحضارة الانسانية إنجازات عظيمة عديدة: فهم أول من ابتكر نظاماً متطوراً للري يقوم على شبكة من السدود والقنوات والمصارف، وأول من ابتكر الكتابة التي عرفت بالكتابة المسمارية، وأول من أنشأ المدارس النظامية. وشرّع القوانين وأوجد المؤسسات الاجتماعية لحماية المجتمع والنظام الاجتماعي. كما ابتكر السومريون العربة ذات العجلات الأربع وبنوا السفن الشراعية لحماية تجارتهم.

وعلى الرغم من هذه الانجازات لم يتمكن السومريون من الصمود في وجه جيرانهم الأكاديين؛ فمدنهم لم تمتد فيما بينها، بل بقيت كلٌ منها مدينة مستقلة، لها ملكها وحكومتها وآلهتها. إن السيادة السياسية للسومريين لم تدم طويلا، فقد جاءت اسرة "كيش" السامية بقيادة "سرجون"، فغلبت تلك الامبراطورية وتأسس السلطان الأكادي البابلي.



نشاط (3)

ارجع إلى كتاب تاريخ الحضارات العام لبريستد، واكتب تقريرا عن مدينة أور.



تدريب (3)

أ- من أين وصلت عملية تدجين الحيوانات؟

ب- ما هي أقدم حضارة عرفها التاريخ؟



أسئلة التقويم الذاتي (3)

وضح كيف تكونت الحضارة السومرية؟

2.4 الأكاديون 2371 - 2230 ق.م

استقر الأكاديون - وهم شعب سامي نزح من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات - إلى شمال موطن السومرين-، فبنوا عاصمتهم "أكاد" وعاشوا قرونا عديدة قبل أن يفرض ملكهم سرجون الأول سلطانه على المدن السومرية ويوحدها مع بلاده في عام

2350 ق.م. (انظر: أحمد فخري، ص 29) ويكون من ذلك أقدم وأعظم امبراطورية في تاريخ الحضارة الانسانية.

وكأني بك - عزيزي الدارس - وأنت يدفعك الفضول لمعرفة من هو سرجون هذا؟

واستجابة لإرضاء فضولك أرى أن أقرأ وإياك سوية نقشاً لسرجون كتبه في أواخر أيام حكمه يقول فيه: "كانت أمي امرأة متقلبة (إشارة إلى عدم الاستقامة)، ولا أعرف من كان أبي. وكان أعمامي يحبون الجبل. أما مدينتي "ازوبيرانو" فكانت على شاطئ الفرات، لقد حملت بي أمي المتقلبة وولدتني سرا. ثم وضعتني في سلة وأحكمت غلق غطائها ثم ألقت بها في النهر فلم أغرق. وحملني الماء الي "أكي" الفلاح (في الأصل ناقل الماء)، فرباني "أكي" الفلاح وصرت كابن له وعملت بستانيا عنده. وأثناء عملي كبستاني أحبتني عشتار فصار الملك لي مدى أربع وخمسين سنة". (انظر أحمد فخري، ص 29)

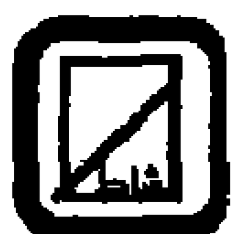
ظهر سرجون حوالي عام 2350 ق.م. والتحق بخدمة ملك يسمى "ادزربابا" كان حاكما لمدينة "كيش"، وكان يعمل عنده ساقيا ثم قام ضده بثورة واستولى على الملك، وأخذ يستولي على مدينة بعد أخرى حتى خضعت له مدن العراق الشمالية ودمر (الجوتيين) في جبال زاغروس، ثم أخضع مدن الجنوب إلى ان استولى على المدن السومرية كلها. ثم ذهب مرة أخرى نحو الشمال حتى وصل إلى الاناضول. ثم استولى بعد ذلك على عيلام وهي الآن في الجنوب الغربي لايران، ثم اتجهت جيوشه إلى قلب آسيا الصغرى عندما استعان به تجار من بلاد ما بين النهرين من اضطهاد حاكم تلك البلاد، بل أن إحدى الأساطير المتأخرة تنسب إليه أنه استولى على جزيرة قبرص. ووصل إلى جزيرة كريت.

نشر سرجون الأول اللغة الأكادية السامية في البلاد التي فتحها، وشهد عصره انتعاشا اقتصاديا بسبب عنايته بالأمن والزراعة والري والتجارة.

وكانت مملكته أولى امبراطوريات بلاد الرافدين، ومن الجدير ذكره أن مملكة سرجون كانت أولى الامبراطوريات التي حققتها الشعوب السامية، لأن سرجون لم يكن سومريا بل كان ساميا. أما الإكادي فهي نسبة إلى مدينة أكاد التي جعل منها عاصمة ملكه وإليها تُنسب اللغة الأكادية وهي إحدى اللغات السامية.

عزيزي الدارس، لم تستمر امبراطورية سرجون طويلا 2371-2316 ق.م بل سرعان ما قامت بها الثورات. وانتهت عائلة سرجون، ثم حدثت نكسة أخرى وانهار

صرح الحكم السامي تحت ضربات نزلت على العراق من شعب هندو - اوروبي كان يقطن في جبال زاغروس، وهم الجوتيون. فانتهت أيام الامبراطورية الأكادية - وكان ذلك في منتصف القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد.



نشاط (4)

ارسم خريطة لبلاد الرافدين وعين عليها أكاد، بلاد عيلام، شط العرب، دجلة والفرات.



تدريب (4)

شهد عصر سرجون الأول انتعاشا اقتصاديا. علق على ذلك.



أسئلة التقويم الذاتي (4)

فسر سبب سقوط المدن السومرية في يد سرجون الأول؟

3.4 البابليون 1894-1594 ق.م

كان العموريون -عزيزي الدارس- وهم فرع الساميين الذين هاجروا من جزيرة العرب. وتوغلوا فيما بين النهرين في النصف الأول من القرن الثالث ق.م. حوالي عام 2500 ق.م. وقد أخضع أول ملوكهم (سموايوم) بلاد سومر بما فيها عيلام. وتمكن حمورابي - سادس ملوك الاسرة البابلية - والذي حكم 42 سنة (1792-1750 ق.م). أن يجمع بين السومريين والساميين ويدمجهم معا في شعب واحد عرف باسم البابليين (انظر بول ماسون، اورسيل، ص 70-71) نسبة إلى عاصمتهم بابل. واستطاع هذا الملك ان يخضع له كل الدويلات الأخرى مثل دولة ماري ولارسيا وعيلام. ووصل جنوبا إلى الخليج العربي ولكنه لم يستطع بعد ذلك أن يصل إلى البحر الأبيض المتوسط ولم يستطع الاستيلاد على مدن الشاطيء لأنها كانت إذ ذاك تدور في فلك النفوذ المصري. (انظر أحمد فخري، ص 34)

وكأني بك - عزيزي الدارس - تود التعرف إلى شخصية حمورابي مؤسس الامبراطورية البابلية القديمة وصاحب الشريعة البابلية الشهيرة واستجابة لذلك أقول: كان حمورابي من أعظم شخصيات التاريخ القديم وكان يعتبر نفسه فوق مستوى البشر؛ إذ

كان يسمى نفسه "إله الملوك"، وتعتبر فترة حكمه أزهى فترة في تاريخ المملكة البابلية القديمة، وقد ورث الملك عن أبيه، وحارب وانتصر على كل من ناوأه، ولم يكن ظالما عاتيا أو متجبرا على من يهزمهم، كما كان قلبه ممتلئا بالتقوى، وكان يعزو كل شيء إلى الإله "مردوك" الذي كان يرى فيه حاميا شخصيا له.

إن خير مصدر لدراسة شخصية حمورابي وأعماله وحالة البلاد في عهده هو قانونه الشهير الذي شرع في كتابته في أوائل أيام حكمه. ومن الجديرذكره أن هذا القانون قد عملت نسخ كثيرة منه كانت احداها تلك التي نقلها أهل عيلام إلى سوسا في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد كغنيمة حرب، وعثرت عليها بعثة فرنسية عام 1902م فنقلتها إلى متحف اللوفر كغنيمة من الغنائم الأثرية (انظر أحمد فخري، ص 35).

وقبل أن أعلق على هذا القانون دعني أقرأ وإياك بعض مواده:

مادة 3 : إذا أدلى سيد بشهادة كاذبة في دعوى ما، ولم يثبت صحة الكلمات التي نطقها، فإن كانت تلك الدعوى تتعلق بدعوى حياة فإن ذلك السيد يعدم.

مادة 5 : إذا أعطى قاضٍ حكما وأصدر قرارا وحدث التصديق على رقيم مختوم ثم غير حكمه بعد ذلك فعليهم أن يثبتوا أن ذلك القاضي قد غير الحكم الذي أصدره، وعليه أن يدفع اثنتي عشرة مرة قيمة الشكوى التي رفعت في تلك الدعوى، وزيادة على ذلك عليهم أن يطردوه أمام الجمع من فوق كرسيه للقضاء، وعليه أن لا يجلس ثانية أبدا مع القضاة في دعوى.

مادة 22: إذا قام سيد بالسرقة وقبض عليه فإنه يعدم.

مادة 109: إذا اجتمع خارجون على القانون في حانة إحدى بائعات الخمر، ولم تعتقل أولئك المتآمرين، ولم تأخذهم إلى القصر فان بائعة الخمر هذه تعدم.

مادة 127: إذا أشار سيد بسوء إلى كاهنة معبد أو إلى زوجة سيد آخر، ولكنه لم يستطع إثبات شيء ضدها فإن هذا السيد يؤخذ إلى حضرة القضاة، ويقصون أيضا نصف شعره.

مادة 129: إذا قبض على زوجة سيد مضطجعة مع رجل آخر فيجب عليهم أن يوثقوا الاثنين ويلقوهما في الماء، وإذا رغب الزوج في الابقاء على حياة زوجته، ففي هذه الحالة يستطيع الملك أن يبقي على حياة أحد رعاياه.

...

مادة 195 : إذا ضرب ولد أباه فعليهم أن يقطعوا يده.

مادة 196 : إذا فقأ سيد عين ابن أحد السادة فعليهم أن يفقأوا عينه.

مادة 204 : إذا صفع أحد العامة شخصا من طبقته فعليه أن يدفع 10 شقلات من الفضة (المنيا = 60 شقل).

مادة 218 : إذا أجرى طبيب عملية كبيرة لسيد بآلة برونزية وسبب وفاة السيد، أو فتح محجر عين سيد وسبب فقد بصره، فانهم يقطعون يده.

مادة 223: إذا كان رقيقا لسيد فعلى صاحب الرقيق أن يدفع شقلين من الفضة للطبيب.

مادة 224 : إذا قام طبيب بيطري باجراء عملية كبيرة لثور أو حمار وأنقذ حياته، فإن صاحب الثور أو الحمار يعطي للبيطري سدس ثمنه من الفضة.

مادة 229 : إذا قام بنّاء بتشييد منزل لسيد ولكنه لم يقم بعمله جيدا أو كانت نتيجة ذلك انهيار المنزل الذي بناه ونشأ عن ذلك وفاة صاحب المنزل فإن هذا البنّاء يعدم.

مادة 230 : إذا تسبب ذلك في وفاة ابن صاحب المنزل فإنهم يعدمون ابن ذلك البنّاء.

عزيزي الدارس، إن المتطلع إلى تلك اللوحة الاسطوانية الشكل والبالغ ارتفاعها 2,25م والمصنوعة من حجر الديوريت، والتي سجلت عليها مواد ذلك القانون يرى أن تلك المواد القانونية تناولت أكثر مشاكل الناس، وفي أعلي اللوحة يرى حمورابي رافعا يده إلى مستوي فمه علامة التعبد لإله الشمس "شمش" الذي يجلس على العرش وكان حمورابي يتلقى منه هذا القانون.

ويبدو أن قانون حمورابي لم يكن جله من مستخدمات حمورابي أو عصره. بل هي مجموعة من قوانين المدن السومرية القديمة التي أصبحت لها مع الزمن قداسة خاصة. وأبرزها قوانين مدينة أور الشهيرة من السلطة المالية أمام الملك أورنامو -1297

1213 ق.م والتي نشرت عام 1952م. ولعل حمورابي جمع هذه القوانين وحذف منها ما لم يتفق مع روح العصر الذي عاش فيه وأضاف إليها تشريعات أخرى ثم بوب هذا كله وعممه.

إن عدد مواد القانون كانت 300 على الأقل، ولكن لم يحفظ على الحجر الا 282؛ إذ أن الملك العيلامي (شترك ناخونتي) الذي غزا بابل ونقل هذا القانون محا الجزء الأسفل منه ليكتب عليه تسجيل انتصاره، ولكن ذلك لم يتم. (انظر: أحمد فخري، ص 36)

وللقانون مقدمة طويلة شعرية الاسلوب تتحدث عن شرعية حكم حمورابي، وتأييد الهة البلاد له، مع رفع الشكر إلى هؤلاء الآلهة وتمجيدهم لمساعدتهم له في توطيد العدالة وهداية الحكام، ثم يذكر بعد ذلك ما قام به هو نفسه من أعمال جليلة. ويختم مقدمته برجاء الآلهة أن تُفني وتزيل كل من لا يعمل بهذه التشريعات أو يحاول القضاء عليها.

ولو دققنا في هذه المواد نجدها مقسمة إلى اثني عشر قسما أو بابا تختلف كل منها في عدد المواد حسب أهميتها، وهذه الأقسام يمكننا تلخيصها بأن أولها يتعلق بالقضاء والشهود، وثانيها بالسرقة، وثالثها بالجيش ورابعها بالحقل والبيت، وخامسها بحوانيت التجار والتعامل معهم، وسادسها يتعلق بالحانات، أما السابع فهو خاص بشوون البيع، وثامنها بشؤون العائلة وعلاقة أفرادها ببعضهم بعضا. ويختص القسم التاسع بالتعويض والغرامات عند نقض التعهدات أو الاتفاقات، أما القسم العاشر فيختص بتحديد الأسعار وأجور تشييد البيوت والسفن، والحادي عشر يتعلق بأجور الحيوانات والأشخاص، أما القسم الأخير فيختص بتحديد وضع الأرقاء وما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات. (انظر: احمد فخري، ص 37/36)

عزيزي الدارس، ومن ناحية إجرائية نجد أن قانون حمورابي لم يضع قانوناً ليطبق على جميع أفراد الشعب على السواء، بل ينقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام أو قل ثلاث طبقات هي:

أ- طبقة الـ (أويلم) Awilum

وهي طبقة الأحرار أو الأفاضل بين الناس أو قل طبقة السادة.

ب- طبقة الـ (مشكينوم) Mushkinum

وهي طبقة لا نعرف على وجه الدقة صفة أفرادها ويبدو أنهم كانوا على صلة

بالمعابد وهي على أي حال طبقة ليست من الأرقاء أو من السادة، بل من عامة الشعب الأحرار.

ج- طبقة الأرقاء Slaves

وقد تسأل - عزيزي الدارس - عن تأثير كل من الشعبين أعني الساميين والسومريين على الآخر نتيجة هذا الادماج؟ ولاجابتك عن ذلك أقول: إن أهم ما جاء به الساميون في هذا الاندماج لغتهم: وهي أغنى وأكثر مرونة وأقوى على التعبير من المجردات من لهجة السومريين؛ وقد مكنت السامية شعوب ما بين النهرين من التأثير في آسيا الغربية بقوة أشدّ وأوثق من أثر السلاح فخدمت أغراضهم بقدر ما دلت على انهزام السومرية، ومع ذلك فقد اتخذ الغزاة اللغة السومرية لغة مقدسة، فتمثلت لغتهم بعض ألفاظها وتعابيرها. وبالاضافة إلى هذا فقد أسهم الساميون في تحويل الكتابة المسمارية السومرية إلى الشكل البابلي والآشوري. هذا ومن الواضح أن البابليين عرفوا فصل الكلمات إلى مقاطع، وتوصلوا إلى الأصوات البسيطة للحروف المتحركة المعروفة. (انظر بول ماسون، اورسيل، ص 71)

أما المواهب الروحية السامية فقد كانت قوية بهذا الصدد، وما جاء به العموريون إلى ما بين النهرين من التراث الديني فكان قليلا غير مدرك. ولقد أدخل سادة سومر الجدد معهم عند غزو البلاد عبقريتهم السياسية، وهذا كل ما كان لازما لإحداث انقلاب لم يؤثر في العقائد المحلية فحسب، بل كان على نقيض ذلك اذ وصعها ونظمها. وكان أغلب الآلهة السومريين لم يتمتعوا الا بنفوذ محلي. هذا، وقد حاول الكهنة تقسيم الآلهة إلى طبقات ثلاث: مثل آنو، بيل، اير، أو مثل سين، وشماس، وأداد، غير أن ماردوك - اله بابل - ظل صاحب النفوذ الأعلي وفوق كل الآلهة.

لقد كون السومريون والساميون (الأكاديون والبابليون) نظرية القربان التي قُدر لها أن تشغل مكانا رئيساً في العقائد الانسانية، ذلك أن الغذاء القرباني لا يحيي الإله فحسب، بل يحيي المؤمن به أيضا، ولما كان القربان يؤدي إلى افناء الشيء المضحي به، فهو يهدم اللعنات ويزيل الأدناس ويحل محل المضحي، أو محل الشخص الذي تمت الأضحية الشعائرية لصالحه، فكان الكهنة الأكاديون يقدمون " رأس حَمل قربانا عن رأس انسان، ورقبة حَمل عن رقبة انسان" ، ليحصل هذا على الصحة. ولعل تفسير ذلك أن المؤمن يعتبر أن العلاقات الطبيعية بين الانسان وآلهته قد انفصمت بتدخل الشياطين، ولذا جاءت تلك الطقوس فمنعت عمل القوى الشريرة، وأعادت التقى إلى حالته الطبيعية. (انظر بول ماسون، اورسيل، ص 74)

عزيزي الدارس، لا أعتقد، - وأظنك ستشاركني الرأي - أن البابليين عملوا بهذه الشرائع دون أن يراعوا سير الوقائع المنتظمة؛ بل هم على النقيض من ذلك امتازوا بالقدرية الكونية المستندة إلى الاعتقاد الدقيق؛ ومنطقهم يتلخص في الاعتراف بوجود صلات بين الحوادث والظواهر، وسحرهم لا يسير الا على هذه الطريقة في تبرير أعماله استنادا إلى نتيجة معينة جاءت من علة معينة؛ إنهم لم يحاولوا فهم هذه الأمور، بل خضعوا لها خضوعا مجردا عنيدا، إما لعدم مقدرتهم حقيقة، وإما لاعتقادهم أنها فوق مستواهم. لقد كان من جراء اعتقاد البابليين بالضرورة، مضافا إلى دقة الملاحظة، أن أصبحوا سادة في علم السحر، ومبتكري علم التنجيم والعرافة والنبوءة. (انظر بول ماسون، اورسيل، ص 75)

لقد كان إخلاص الأطباء البابليين تمهيدا لا بد منه لعلم الحياة، وكانوا إذا ما سردوا وقائع، -حتي ولو كانت مزعومة-، قاموا بخدمة للمعرفة غير المتميزة كما لو وضعوا نظريات مبسطة، فضلا عن أن فلسفتهم النفعية (البراجماتية)، مضافة إلى اعتقادهم بالقضاء والقدر، قد وضعت بطريقة موفقة مسألة العمل الانساني دون التظاهر بالتناقض الجالب لليأس، ودون أن يخفوا الصعوبة النظرية التي يتطلبها التوفيق بين الاختيار والجبر؛ فالأقدار معينة، لكن هذا لا يفرض عدم ضرورة الأعمال.

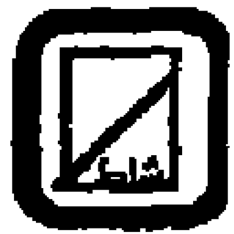
عزيزي الدارس، أعلم أن البابليين لم يضعوا نظرية للأخلاق، غير أنهم اتخذوا قوانين منذ أقدم الأزمنة تدل على أخلاق مستقلة؛ ففي مدينة سوس نجد أن الخصومات القانونية كان يفصل فيها في المعابد، وأن الآلهة كانوا يصدرون أوامرهم بالعقاب. وانظر - عزيزي الدارس - أيضا إلى الشريعة العيلامية التي كانت قد أسندت السلطات القضائية إلى السلطات المدنية ومنحت دورا هاما للتصرفات الفردية. أما القوانين البابلية - كما وضعها حمورابي - فقد تخلصت أكثر من ذلك من العادات الشعائرية؛ إذ أسست نظاما قابلا للتطبيق على شعوب وبيئات مختلفة متباينة، من تجار أو مزارعين، وضعوا تحت سيطرة هيئة نظامية قوية، وجُعلوا خاضعين في القضاء للأوامر الملكية.

لقد جاءت مرحلة الحضارة البابلية بقيام عهد الأخلاق الذي قام مقام مذهب المنفعة السحري، فصاروا يحاكمون مَن عمل الشر باعتباره مخطئا، بدلا من إدخال روح الشيطان فيه، أو معاملة صورته بما يراد به من شر، ولذلك صار الأمر يتطلب ضربا من السحر العقلي يكمل السحر المادي. وقد أصبحت المواد الطبيعية مهما استعملت في شكلها النقي لا تكفي لدفع الخطيئة، سواء أكانت تلك المواد ماء أم حبا أم ملحا، بل كان يجب اتخاذ تدابير روحية كالقسم والصلاة، وترتب على ذلك موقف جديد في

النظام الديني. فبدلا من أن يضطر المؤمن الآلهة إلى تحقيق غرضه، صار يقبل ارادته مهما كانت قضيته مسلّماً بها.

عزيزي الدارس، إن تطور الأفكار الاخلاقية لم يؤثر في علم الآخرة، وظل الموتى باقين دون أن يكونوا خالدين؛ فالخلود صفة خاصة بالالهة. ولعلك تسأل عن معنى هذه المفارقة بين الخلود والبقاء وأنا أقول لك: إن البابليين اعتقدوا أن الحياة غير الدائمة في الآخرة لا تترك أصلا في الغبطة ولا مجالا للعودة إلى العالم. لذلك بقي موتاهم باقين، لكن الخلود صفة خاصة بالآلهة دون سواهم. (انظر: نصوص مختارة في آخر الوحدة التي بين يديك)

عزيزي الدارس، وبعد، فقد هاجم الحثيون - وهم شعب جبلي غير سامي - مدينة بابل عام 1595 ق.م. فدمروها تدميرا كاملا، ونهبوا كنوزها ونفائسها، ثم هاجمها الكاشيون - وهم أيضا شعب غير سامي واحتلوا مدينة بابل وأقاموا فيها حتى عام 1175 ق.م.



نشاط (5)

ارجع إلى ملحمة جلجامش واكتب تقريرا موجزا عنها، وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (5)

من هم العموريون؟



أسئلة التقويم الذاتي (5)

1- وضح تأثير كل من الحضارة السومرية والسامية على بعضها البعض؟

2- تحدث عن الأخلاق عند البابليين.

4.4 الأشوريون 3000-612 ق.م

الأشوريون شعب سامي هاجر من الجزيرة العربية في الألف الثالث قبل الميلاد،

واستقر في شمال العراق. ينتسب الأشوريون إلى عاصمتهم آشور التي كانت موطن إلههم العظيم أشور قبل أن ينقلوا عاصمتهم إلى مدينة نينوى.

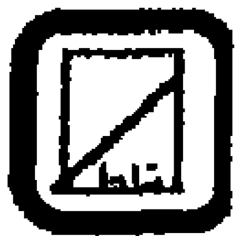
نشأ الأشوريون على الحرب بسبب طبيعة بلادهم القاسية، وتعرضهم لهجمات الشعوب الأخرى فكانوا مضطرين إلى الغزو للدفاع عن أنفسهم فحصنوا مدنهم وبقوا على حالة استعداد دائم للقتال وأسسوا أشد القوات العسكرية بأسا فيما عرفها التاريخ القديم قبل الأنظمة الرومانية واستخدموا تلك القوات ضد البابليين وكذلك من أجل السيطرة على آسيا القديمة بأسرها. حقق الأشوريون انتصارات عسكرية كبيرة بفضل ادخالهم نظام الخيالة وصنع أسلحتهم من الحديد بدلا من النحاس، ومهارتهم في استخدام أدوات الحصار لاقتحام القلاع والحصون. وقد تمكن الملك (تغلات بلاسر) عام 1100 ق.م. من إعلان نفسه " ملكا للعالم كله وملك الملوك القادر". وهو بإعلانه هذا وضع ادعاء سيادة عالمية. وتجدر الاشارة إلى أن الأشوريون تميزوا بوحشيتهم إزاء أعدائهم. ولم يضيفوا شيئا إلى الحضارة البابلية، التي تلقوها بقبول واضح، وحفظوا شواهدها في حولياتهم ومكتباتهم، ونشروا نورها حتى الحدود الاغريقية والمصرية.

أما الفكر الديني لديهم فقد تأسس على مبادئ الاخلاق والخوف؛ فإلههم آشور الذي أسقط (ماردوك) عن عرشه، لم يطلق عليه اسم (العاطف) إلا بقصد استمالته وتخفيف ظلمه. (انظر بول ماسون، مارسيل، ص 81)

عزيزي الدارس، معلوم أن الآشوري اختلف عن مثيله الكلداني بطبعه الغليظ وقسوته الشديدة، وقد عاد بقوانينه إلى الوراء كثيرا، وهبط إلى ما دون المستوى الاخلاقي والانساني الذي كان في تشريعات حمورابي.

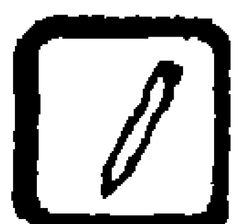
ضعفت الدولة الاشورية بعد وفاة اشور بانيبال فثارت الشعوب التي خضعت لها وتمكن الكلدانيون أو دولة بابل الحديثة بزعامة نبوخذ نصر من احتلال نينوي عام 612 ق.م. وبسقوط نينوى كانت نهاية الدولة الاشورية.

نشاط (6)



هات أسماء ثلاثة شعوب حاكوا الأشوريين في مبدأ السيادة العالمية.

تدريب (6)



وضح موقف الأشوريين من حضارة البابليين.



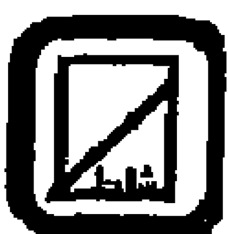
أسئلة التقويم الذاتي (6)

تحدث عن الفكر الديني لدى الأشوريين.

5.4 الكلدانيون 612-539 ق.م

عزيزي الدارس، وقبل أن يتمكن الكلدانيون من الاستيلاء على بابل كانوا يقطنون شواطئ الخليج العربي حيث أسسوا هناك منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد او ربما قبل ذلك سلالة الامراء التي عرفت عند المؤرخين بسلالة القطر البحري او سلالة «بابل الثانية» التي كانت بالدرجة الاولى من بقايا السومريين وقد تمكن ملوك هذه السلالة من بسط سيطرتهم ونفوذهم على سواحل الخليج العربي. والكلدانيون هم من الفصائل البدوية السامية وقد اشتق اسمهم من قبيلة «كلدي» (احمد سوسة: ص 204) وكان أول ملوكهم «ايلسوما إيلو». ومن أشهر ملوكهم نبوخذ نصر الثاني 605-562 ق.م. الذي أعاد إلى بابل مجدها القديم فجدد شبكة الري وشق الطرق، وبنى الكثير من القصور والمعابد، كبرج بابل الشهير، والجنائن المعلقة التي عدت من عجائب الدنيا السبع.

اتسعت الدولة الكلدانية فشملت بلاد ما بين النهرين وفلسطين، وسوريا، وعيلام. ويذكر أن نبوخذ نصر قام بإخماد ثورة الأقلية اليهودية في فلسطين وسباهم إلى بابل عام 586 ق.م. خلف نبوخذ نصر ملوك ضعاف، لم يحافظوا على حدود الدولة، مما شجع القائد الفارسي كورش على احتلال بابل عام 539 ق.م. منهيا بذلك حكم الكلدانيين.



نشاط (7)

اكتب تقريرا عن السبي البابلي وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (7)

ما هو أقصى اتساع بلغَتهُ الدولة الكلدانية؟



أسئلة التقويم الذاتي (7).

لماذا قام نبوخذ نصر ببناء برج بابل والحدائق المعلقة؟

6.4 الكنعانيون

عزيزي الدارس، وقبل أن أتحدث لك عن حضارة الكنعانيين لا بد لي أن أطلعك على أصلهم: إنهم ينحدرون من قبيلة سامية كبيرة نزحت من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب على الأرجح خلال الهجرة السامية الكبرى، وكان منها الأموريون الذين استوطنوا في داخل سوريا، وتأثرت ثقافتهم تأثرا كبيرا ببلاد الرافدين. ومنها أولئك الكنعانيون الذين استوطنوا الشاطيء وتأثرت ثقافتهم تأثرا واضحا وكبيرا بحضارة مصر.

عزيزي الدارس، حاول بعض أساتذة الساميات تفسير اسم كنعان بأنه مشتق من أصل سامي "خنع، قنع، كنع" إشارة إلى الأرض الواطئة لسكناهم علي الساحل. ولكن الرأي المقبول من أكثر المشتغلين بهذه الدراسات هو أن أصل كلمة: كنعان غير سامي، ويرجحون اشتقاقه من كلمة هندو - اوروبية تعني الصبغة القرمزية؛ إذ كانت هذه المنطقة تشتهر بهذه الصبغة عندما اتصل الحوريون بتلك البلاد في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد. وفي اللغة البابلية كتبوا اسمها: "كنغي" ووردت في اللغة الفنيقية نفسها تحت اسم "كينع". ووردت في اللغة العبرانية "كنعان". ومنذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد أصبحت كلمة "كنعاني" مرادفة لكلمة "فنيقي".

إن أصل "فنيقيا" Phoinix مشتق على الأرجح من كلمة يونانية تعني القرمز أو اللون الارجواني، وذلك لشهرة هذا الساحل بصناعة الأصباغ القرمزية والملابس الأرجوانية اللون. (لمزيد من التفصيل أنصحك عزيزي الدارس بمراجعة كتاب PH.K. (Hitti, History of Syria, London, 1951, p. 79-81

أقام الكنعانيون العديد من المدن (الدويلات) في الساحل والداخل، كان من أهمها أوغاريت، وجبيل وصور على الساحل، وحماه، ودمشق، وأريحا في الداخل. ويبدو أن تفرق هذه الدويلات، وعدم وحدتها في دولة كبيرة قوية، أوقعت بلاد كنعان تحت هجوم من البر والبحر. فقد وقعت المناطق الداخلية تحت سيطرة الارامين والعبرانيين القادمين من بادية الشام. كما وقعت بعض المناطق الساحلية تحت غزو شعوب البحر مثل قبائل بلستي أو فلستي الذين ربما قدموا من منطقة بحر إيجه. الأمر الذي دعا الكنعانيون إلى الهجرة عبر البحر المتوسط، فهاجر بعضهم إلى سواحل وجزر البحر المتوسط، وأقام مستوطنات عديدة في حوضه خاصة على سواحل بلاد المغرب (شمال افريقية) حيث سماهم الاغريق بالفونيين أو البونيين، وكانت أهم مدينة ودولة لهم في بلاد المهجر قرطاجة التي أقامت امبراطورية بحرية منذ القرن التاسع قبل الميلاد (814 ق.م).

عزيزي الدارس، لن يتسع مجال هذه الدراسة لذكـر كامل التفاصيل عن مختلف مظاهر الحياة الاجتـماعية والحضارية عند الفنيقـيين، ولكنني لا أستطيع الوقوف عند هذا الحد دون أن أعـرفك على نقطتين اعـتبرهمـا رئيسـتين في هذا المجال وهمـا: الحروف الهجائية الفنيقـية، ثم أثر الفنيقيين في نشر الحضارة، وبخاصـة الحضارة المصرية القديمة في مختلف ارجاء العالم.

لقد كـان للفنيقـيين مآثر كبـيرة على التـقدم الانساني، ولا شـك في أن نشرهم للحروف الهجـائية في أرجاء العالم القـديم هو أهم ما قاموا به. كان قـدماء المصريين، وكذلك قـدماء سكان بلاد الرافـدين، يكتبـون وثائقهم بكتـابات مكوّنة من مـئات من العلامات والمقاطع وكل علامة منها صورة لشيء في الطبيعة سواء أكان نباتا أم حيوانا أم جمادا .. الـخ. ولهذا كان الالمام بها يحـتاج الي تخصص ودراسة، وقـد حالت هذه الصعوبات دون انتـشار الكتابة، وبالمناسبة كـان اليوم الذي اهتدى فيه الانسـان إلى مبدأ استخدام الحروف الهجائية؛ أي الذي يمثل كل منها صوتا معينا دون النظر إلى موقعه في الكلمة أو أصله أو معناه، إن كـان له معنى، يوما من الأيام العظيمـة في تاريخ البشرية لأن هذا الاختراع كان من أعظم ما عرفه الانسان في تاريخه الطويل. وتجدر الاشارة إلى أنه وفي عام 1905 م عثر الأثري البريطاني (فلندرز بتري) في منطقة (سرابه الخادم) في سيناء على كتابات غريبة على جـوانب بعض مناجم الفيروز وعلى بعض النصب المقامة في المعابد. وكانت هذه الكتابـات مكتوبة بحروف يشبه بعضهـا الكتابة المصرية القديمة، وبعضها الاخر لا يشبهها. وقـد جرت محاولات كثيرة لفك رموزها. ولكن منذ البداية أطلق عيها علماء الدراسات اللغوية اسم الكتابة السينائية وأدركوا الصلة بينها وبين بعض ما كان معروفا من الكتابات الفنيقية واليونانية القديمة.

عزيزي الدارس، إن تاريخ هذه النقـوش السينائية هو منتصف الخامس عـشر قبل الميلاد أي حـوالي عام 1500-1400 ق.م. وأن الذين اسـتخدمـوها هم بعض العـمال والأسرى السـوريين الذين كانوا يعـملون مع المصريين في تلك المنـاجم، ولا يوجد أي دليل على الاطلاق بأن الفنيقيين بالذات هم الذين حقـقوا هذا الاختراع دون غيرهم من الشعوب (انظر: أحمد فخري، ص 117) بل الأرجح هو أن هذه الخطوة قام بها شعب أو أكثر من الشعوب الـسامية في داخل سوريا في أوقات متقاربة؛ إذ عـثر على كتابات مخـتلفة في مناطق متـعددة؛ من أهمهـا ما عثـر عليه في اوجاريب (رأس شـمرة) من كتابات بالطريقة المسمارية ولكنها حروف هجائية عددها 29 حرفا، ويرجع تاريخها إلى عام 1400 ق.م. على وجه التقريب. (انظر: أحمد فخري، ص 118)

وهناك أيضا كتابات أبجدية أخرى كتبت بها نقوش (أحيرام) ملك مدينة جبيل (بيبلوس)، وكانت مكونة من 22 حرفا هجائيا ويرجع تاريخها إلى حوالي عام 1080 ق.م. وكانت أنجح الطرق، ويرجح أنها كانت الأصل الذي اشتقت منه الكتابات السابقة الهجائية الأخرى وأهمها الفنيقية والعبرية القديمة والآرامية والسبأية (العربية الجنوبية). وكان للفنيقيين الفضل الأول في نشر هذه الطريقة في الكتابة في العالم القديم.

عزيزي الدارس، ومن المعروف أن الكتابات السامية بوجه عام تُسقط حروف العلة ولا تكتب الا الحروف الصحيحة، وقد أدخل الاغريق تحسينا كبيرا علي الكتابة الفنيقية فأخذوا بعض الحروف السامية المعروفة باسم الحروف الصحيحة، الضعيفة وجعلوها حروفا للعلة واستخدموا ذلك منذ القرن التاسع قبل الميلاد؛ أي منذ انتقال الكتابة الفنيقية اليهم كما اعترفوا هم بذلك. هذا بالنسبة إلى الحروف الهجائية أما النقطة الاخرى التي أودك - عزيزي الدارس - الاطلاع عليها فتختص بالحديث عن فضل الفنيقيين في نشر الحضارة.

لقد أحب الفنيقيون البحر والتجارة الخارجية، واقامة المستعمرات البعيدة، وسرعان ما صاروا من أقدر الشعوب الملاحية التي عرفها العالم القديم، بل ربما كانوا أقدرهم جميعا. لم يهمل الفنيقيون الزراعة بل استغلوا كل شبر يمكن زراعته في بلادهم، كما أحدثوا تطورا غير قليل في بعض الصناعات، وأتقنوا صناعة بعض المعادن؛ اذ عرفوا تعدين النحاس والبرونز منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد، وبدأوا يستخدمون الحديد منذ الألف الأول للميلاد، كما تعرف أيضا أنهم كانوا يحصلون على الذهب والفضة والقصدير من أسفارهم البعيدة، وأنهم تقدموا تقدما غير قليل في صناعة الحلي وفي صناعة أدوات الزينة وصنع القطع الفنية من العاج، كما تفوقوا تفوقا كبيرا في صناعة الزجاج. (انظر: أحمد فخري، ص 119)

وبرع الفنيقيون في صناعة النسيج، وكانوا يصنعون الأقمشة الصوفية منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وعرفوا المنسوجات القطنية بعد ذلك بوقت طويل، ربما في القرن السابع أو السادس قبل الميلاد، كما يرجح بعض المشتغلين بتاريخ الصناعات ان مدينة صور كانت تعرف صناعة الحرير في القرن السادس قبل الميلاد. ومما ساعد على رواج النسيج الفنيقي اتقانهم لصبغه بالألوان الزاهية، وبخاصة اللون الأرجواني. (انظر: أحمد فخري، ص 119)

عزيزي الدارس، ويرد سؤال فـي هذا المجال مفاده: من أين تعلم الفنيـقيون هذه الصناعات؟ وللاجابة أقـول: إن الفنيقيين لم يكتفوا ابتـداء بحمل السلع والحلى المصرية وأدوات الزينة من مصر لبيعها والكسب منها في مختلف أنحاء العالم، بل كانوا يقلدون الكثير من الأشياء المصرية ويكتبون عليها ما يشبه اللغة الهيروغليفية، ويبيعون ذلك على أنه سلع مصرية. وتجدر الاشارة إلى وجود كثـير من الأدوات في متاحف العالم الكبيرة من صنع الفنيقيين تـقليدا للصناعة المصرية (انظر: أحمـد فخري، ص 120). وأن مثل هذه الأشيـاء كانت مرتبطة تماما بنشـاطهم البحري؛ فـأينما وصلت سفنهم للمتـاجرة، وصلت الأشياء المصرية الحـقيقية أو المقلدة، وكانت سـبباً مباشراً في كثـير من الأحيان لإدخال بعض مظاهر الفن المصري على فنـون تلك البلاد. ويكفي القول بأن هذه الآثار الصغيـرة الحجم عثر عليـها في جميع بلاد البـحر الأبيض المتوسط وفي كثـير من بلاد البلقان، وفي جنوبي روسيا الاتحادية، وفي انجلترا، وعلى السـاحل الغربي لافريقيا.

عزيزي الدارس، وخلاصة القول في هذا أن الفنيقيين ركـبوا البحر ونشروا الثقافة والتجارة في جميع أرجاء البحر المتوسط وأسـسوا لهم مستعمرات تجارية على الشواطيء في شمـاله وجنوبه، ولم يكونوا حـملة تجارة فـحسب، بل كانـوا حملة ثقافـة وعلم، وبخاصة ثقافة ما بين النهرين إلى جمـيع الأرجاء. وكانت أكبر خدمة أدوها هي نشرهم الحروف الهجائية والتي كانت سببـا مباشرا لنشر العلم في اوروبا الجنوبية، وكان لهم أثر مباشر على نهضة بلاد اليونان فيما بعد.

نشاط (8)



ابحث في أصل الكنعانيين وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

تدريب (8)



لماذا سمي كنعانيو الشمال بالفنيقيين. ومن سماهم بذلك؟

أسئلة التقويم الذاتي (8)



اذكر اسم الدولة الكنعانية التي قامت في بلاد المغرب العربي؟

عزيزي الدارس، ومنذ القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادي انتقل تراث ما بين النهرين إلى المملكة الفارسية التي اثرت في حضارات الشرق والغرب على حد سواء.

1.5 زرادشت والالوهية

زرادشت مصلح أقدم الأديان الايرانية في القرن السادس ق.م. وقد اختلف في مكان ولادته. غير أن من المؤكد ظهوره في ايران. وابتداء أستطيع أن أؤكد لك - عزيزي الدارس - بأن زرادشت كان من الناحية اللاهوتية (العقائدية) موحدا، غير أنه من الناحية الفلسفية كان ثنويا.

تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر، وبدا له أن هذا الصراع قائم بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الشر، واعتقد أن الخير ليس الا كائنا الهيا أطلق عيه اسم مازدا (Mazda) أو أهورا مازدا (Ahura Mazda) ومعناه رب الحكمة ورأى أنه هو "الله". ويقف أمام أهورا وأعوانه، جماعة شريرة ترئسها روح شريرة قوية أطلق عليها أسم أهريمان "Ahriman" وهو الذي يعرف باسم الشيطان عند أصحاب الأديان السماوية.

كانت هذه الديانة من أنبل الديانات التي ظهرت في العالم. وقد دعت هذه الديانة كل انسان وأهابت به أن يختار أحد الطريقين: "إما أن يملأ قلبه بالخير والنور وإما أن ينغمس في الشر والظلمة، وسواء اتخذ الانسان هذا السبيل أم ذاك، فانه سيلاقي جزاءه ويحاسب، بعد البعث، على ما أتاه. (انظر بريستد، انتصار الحضارة، 249).



نشاط (9)

اكتب تقريرا عن الديانة الزرادشتية بالرجوع إلى المصادر.



تدريب (9)

متى وأين ظهر زرادشت؟

أسئلة التقويم الذاتي (9)

وضح جوهر الفكر الديني عند زرادشت.

2.5 بوذا والنرفانا

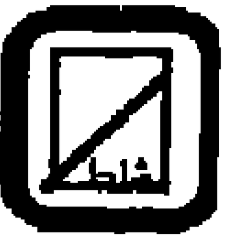
عزيزي الدارس، أعلم أن جماعات مختلفة الأصول كانت قد استوطنت الهند، وكان أغلب هذه الجماعات من القبائل الاندو أوروبية (الارية)، ويبدو أن هذه الجماعات هي التي أعطت اسمها "India" للهند.

عرف الهنود معتقدات متعددة؛ كقوى الطبيعة، والديانة البراهمية، البوذية والجانية وغيرها. أما البوذية فتنسب إلى المعلم الهندي جوتاما Goutama المولود حوالي عام 560 ق.م. وهو الذي حمل فيما بعد اسم "بوذا" وتعني المستنير، وأصبح أعظم معلم ديني في آسيا، كرس حياته لمعرفة الحقيقة الخالدة.

اشتملت تعاليم بوذا على خمس قواعد خلقية للهداية وتأمين الحياة السليمة وهي:

1- لا تقتل كائنا حيا. 2- لا تأخذ مما ليس لك. 3- لا تكذب.
4- لا تشرب المسكرات. 5- لا تقم على دنس.

حارب بوذا تقسيم المجتمع إلى طبقات، كما حارب القول بتناسخ الأرواح، ودعا إلى حالة التفحص والتأمل للوصول الي حالة: "النيرفانا" أي اتحاد الفرد بالله سبحانه وتعالى، والحصول على السعادة الكلية بعد الموت.



نشاط (10)

ابحث في الديانة البراهمية.



تدريب (10)

أذكر تعاليم بوذا؟

أسئلة التقويم الذاتي (10) ؟

أذكر رأي بوذا في التقسيم الطبقي للمجتمع.

3.5 كونفوشيوس "الانسان النبيل (والطاوية)"

سأنتقل، عـزيزي الدارس، وإياك للحديث عن ديانة المجتمع الـصيني وكأني بك تسأل عن أصـل هذا المجتمع، وللاجـابة عن تساؤلك أقـول بأن الصينيين ظـهروا على شكل مجموعات في أحواض الأنهار، ومارسوا الزراعة بشكل بدائي بسيط، ثم ظهرت العائلات الاقطاعـية التي ملكت الأراضي الواسـعة، واستخـدمت الفلاحين بزراعتـها، وبذلك ساد نظم الاقطاع في الصين فترة من الوقت.

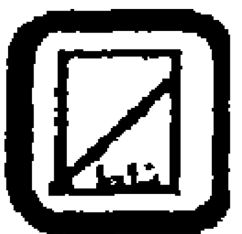
كانت معتـقدات المجتمع الصيني خليطا من الدين، والأخـلاق، والفلسفة، وقد مـرت هذه المعـتقـدات بعـبادة مـظاهر الطبـيعـة والاسـلاف، ثم سادت بـينهم الديانة الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية وديانات أخرى.

تنسب الكونفوشـيوسية إلى المعلم والفـيلسوف الصيني كونفـوشيوس (557-477 ق.م). الذي نادى بمبادئ الحرية والمساواة، وتعتبر أقواله المحرك الأساسي للعقل الصيني طوال الفي سنة تقريبا.

نادى كونفوشـيوس بتنظيم الاسرة (وبنظرية سيادة الشعب). ويعـزى اليه القول: "ان السـماء ترى، ولكنهـا ترى بعيـون الشعب، والسـماء تـسمع ولكنها تـسمع بآذان الشعب".

- أما الطاوية فهي إحدى ديانات الصين، ومعـتنقها يسمى طاوي، وتنسب الي علم معاصر لكونفوشيوس. وكان الطاويون يمارسون الفضيلة المعروفة باسم (تي Te) ، الذي يقوم مبدؤه على العزلة وعدم الاعتداد بالنفس.

نشاط (11)



اكتب تقـريرا عن تعاليم الكونفـوشيوسـية، وناقش ذلك مع زملائك ومـشرفك الأكاديمي.

تدريب (11)



ما هي أهم العناصر المشتركة بين معتقدات المجتمع الصيني؟

أسئلة التقويم الذاتي (11)



ما هو مبدأ الطاوية؟

6. نصوص مختارة

عزيـزي الدارس، دعني أقرأ وإياك نصـوصا من ملحـمتين سـومريتين بابليـتين. تشيران إلى بيانات وشروح عن حقيقة الحياة والموت.

الأولى من ملحمة جلجاميش: والتي تقدم لنا بطلا مثل (ناسكتاس) من (كانا أو بانيشـاد) يبحث عن أسـرار الحياة والموت، لـكنه يعلم أولا من الآلهة اشـتار ثم (أوتانا بيشتـيم) الذي هو النموذج السابق لنوح (عليه السـلام). أنه لا يمكن تجنب تلك الإقامة المحزنة.

الأولى من ملحمـة جلجاميش، والتي تصـور جلجاميش هائما على وجـهه في طريقه ليسأل أوتنبـتشيم الذي هو النموذج السابق لنوح (عليه السلام) عن حقـيقة الحياة والموت، بعد أن مات صديقه أنكيدو.

تقول الملحمة:

...

أريد جدي أوتنبتشيم،

الرجل الذي بلغ مقام الآلهة

جئت أسأله عن الحياة، عن الموت.

غير أن من يسأله عن جده يجيبه بأنه لا بد من الموت، وهنا يُصرّ جلجاميش على الفرار من الموت كما في النص التالي:

جلجاميش: أين تهيم على وجهك

الحياة التي تنشدها لن تجدها

أجابه جلجاميش: أجاب شمس العظيم قائلا:

بعدما مشيت وهمت على وجهي في البراري

أأضع رأسي في باطن الأرض

لأنام عبر كل السنين؟!

ومع هذا يعترف جلجاميش بمصير البشر المحتوم: الموت. أنه رأى تلك التجربة في صديقه أنكيدو، إلا أنه يأمل أن يحيا صديقه مرة أخرى. تقول سطور الملحمة:

أنكيدو الذي أحببت أعظم الحب

الذي رافقني في الصعاب

صار إلى ما يصير إليه البشر

وهنا أنا أبكيه، أرثيه، أهيم على وجهي في العراء

لم أسلمه للدفن

لعله ينهض استجابة لدعائي

كما يطلب جلجاميش صراحة أن يكون خالدا، إلا أن ذلك مطلبٌ عسير فالموت للبشر والخلود للآلهة، وهنا تأتي الدعوة إلى التمتع التام بالحياة. تقول الملحمة:

...

دعيني أن لا أرى الموت الذي أخشاه إلى الأبد

أجابت سابيتم، صاحبة الحانة المقدسة:

إلى أين أنت ذاهب يا جلجاميش؟

الحياة التي تنشدها لن تجدها.

عندما خلقت الآلهة قدرت للناس الموت

واستأثرت هي بالحياة الخالدة

فاملأ بطنك بأطايب الطعام

ابتهج ليل نهار

اجعل كل يوم من أيامك عيد فرح وسرور

ارقص، ليل نهار، واستسلم للهو

البس الفاخر النظيف من الثياب

اغسل وجهك، استحم، اسبح في الماء

دلل الولد الذي يمسك بيدك

فرح قلب الزوجة، الزوجة التي في حضنك

هذا هو نصيب البشر من الحياة.

مرة أخرى تقرأ في سطور الملحمة تخوف جلجاميش من الموت وأنه ينشد الحياة الأبدية. يقول:

...

وخوفا من الموت، رحت أجوب القفار

في الدروب البعيدة أجوب القفار

فمصير صديقي يجثم ثقيلا علي

كيف الزم الصمت كيف أخلد إلى السكينة

صديقي الذي أحببت صار طينا

أأضطجع أنا مثله هكذا.

فلا أنهض الي الأبد؟

وفي سطور الملحمة نرى فكرة تفاهة الحياة على لسان اوتنبتشيم: إذ يقول:

...

من يبني بيوتا تدوم إلى الأبد؟

من يقطع عهدا يدوم إلى الأبد؟

الناس يرثون، يقتسمون، فأي إرث يدوم إلى الأبد؟

البغضاء، حتى البغضاء، أتبقي إلى الأبد؟

النهر يطوف، يسبب الفيضان المخرب

لكن، أيطوف النهر إلى الأبد؟

هل نظل نشاهد نور الشمس؟

لا، يا جلجاميش، لم يكن الخلود منذ القدم،

وما أشبه النائم بالميت!

وعندما يصل - عزيزي الدارس - جلجاميش إلى حيث أوتنبتشيم. يخبره عن مكان نبتة إن وقعت يداه عليها ينل الحياة الأبدية.

فيذهب جلجاميش ويحضرها، غير أن الحية تسرقها منه

وهكذا تأكيد أخير على أن الموت هو نهاية البشر. ويموت جلجاميش ويثوي في قبره إلى الأبد.

تقول الملحمة:

....

سأفضي اليك، يا جلجاميش، بشيء خفي

فأخبرك عن نبتة ...

أشواكها تخز يديك كما تفعل الوردة

ان وقعت يداك عليها نلت الحياة الأبدية فما أن سمع جلجاميش هذا الكلام

حتى فتح أنبوب المياه

وربط رجله بحجارة ثقيلة

شدت به إلى القاع. وإذ رأى النبتة اقتلعها، مع أنها وخزت يديه

ثم نزع الحجارة عن قدمه

فقذفته الأمواج إلى الشاطيء

وقال جلجامش له، لأورشنبي الملاح

هذه النبتة هي هبة عجيبة

بها يعيد الانسان اليه نسمة الحياة

سآخذها إلى "آرك" المحصنة

. . .

سأدعوها: "الانسان يعود إلى الشباب في الشيخوخة".

وآكلها أنا

فأعود إلى زمان شبابي

بعد عشرين ميلا تناول بعض الزاد ..

بعد ثلاثين ميلا آخر تهيأ الليل

واذ رأى جلجاميش بئرا ماؤها باردة

نزل يغتسل بمائها

وشمت حية عبير النبتة

فطلعت من الماء واختطفتها

وفي طريق عودتها نزعت جلدها القديم

عزيزي الدارس، وتتحدث الأسطورة الأخرى عن نزول عشتار، ملكة السماء، إلى عالم الأموات، العالم الذي لا رجعة منه، العالم الذي لا يعرف النور، حيث يلبس الأموات ثيابا من ريش، ويطيرون بأجنحة كالخفافيش، ويأكلون الطين ويشربون الوحل.

وملكة العالم السفلي (ارشكيجال) هي اخت عشتار، وهي التي حبست الفتى الجميل (تموز) في عالم الأموات. وقبل أن تنزل عشتار إلى العالم السفلي أخبرت وزيرها بذلك، وحددت معه مدة ثلاثة أيام وثلاث ليال فان لم تعد، عليه أن يسير إلى (نفور) ويتوسل إلى الاله انليل أن يردها إلى وجه الأرض، وإن أبى أنليل ذلك فعليه (الوزير) أن يتوجه إلى اور (مدينة اله القمر) ويتوسل اليه أن يردها إلى عالم النور، وإن أبى فعليه (على الوزير) أن يسير إلى (اريدو) حيث الاله (انكي) - اله الحكمة، فعنده خبز الحياة، وماء الحياة. فان أكلت خبز الحياة قمت من الموت، وان رشت علي ماء الحياة. عادت إليّ الروح.

وتتابع الاسطورة الى أن عشتار هبطت إلى العالم السفلي وقد لبست أفخر ثيابها: على رأسها التاج، وفي عنقها عقود وقلائد من لازورد، وعقيق ودر، وفيروز، وفي أصابعها خواتم من حجارة كريمة، وعلى وسطها حزام عليه رقى وتعاويذ.

طرقت الباب، ونادت: افتح أيها البواب،

البواب: من الطارق؟

عشتار: عشتار

البواب: ما تريدين .. لماذا جئت إلى هنا؟

عشتار: جئت لاحضار جنازة زوج اختي ارشكيجال الذي قتل، لم تدعني اختي ارشكيجال إلى جنازته.

جئت لاكل الطين مع الأموات

جئت لأشرب الماء الكدر مع الأموات بدل الخمرة

جئت لأندب الرجال الذين تركوا زوجاتهم ينحن عليهم

جئبت لأبكي العذاري اللواتي اختطفن قسرا من أحضان عشاقهن

جئت لأبكي الأطفال الذين اختطفهم الموت من أحضان الامهات

افتح أيها البواب، افتح! والا فتحت أنا، وأقمت الأموات من قبورهم فيكثر عدد الأحياء.

ذهب البواب وأخبر ملكة العالم السفلي، ارشكيجال، قائلا: اختك بالباب. فامتقع وجهها وارتجفت شفتاها وقالت: ما الذي جاء بها! ما تريد! اذهب وافتح الباب واحضرها صاغرة!

وعند البوابة الأولى: نزعوا التاج عن رأسها، وحين سألت: لماذا؟ أجابوها: هذه ارادة ملكة العالم السفلي.

وعند البوابة الثانية: نزعوا الأقراط من أذنيها وعند عتبة البوابة الثالثة: نزعوا العقود من جيدها.

وعند عتبة البوابة الرابعة: نزعوا ما على صدرها من قلائد وحلي، وعند الخامسة: نزعوا الحزام من وسطها، وحزام الرقي والتعاويذ، وعند السادسة: نزعوا من معصميها أساور الذهب، وعند السابعة: نزعوا كل ملابسها فوقفت عارية.

وهكذا: مثلت عشتار أمام أختها عارية، فاستشاطت غضبا وحاولت الانقضاض عليها، غير أنها أمرت وزيرها "نمطار" أن يأخذ عشتار ويسجنها في الأعماق ويسلط عليها ستين نوعا من الأمراض الخبيثة، فيصيب كل مرض عضوا من أعضائها، ثم يسلط عليها عفاريت العالم السفلي جميعا.

وبعد ثلاثة أيام وثلاث ليـال أصاب وزير عشـتار خوف وغم. ماذا جـرى؟ تبدل وجه الأرض، فذبل الزهر، وزالت الخضرة ورونقها، واختفى الحب.

فمـا كان من الوزير الا أن أخـبر «ايآ»؛ مـا حلّ بالأرض، الزهر ذبل، الحـقول جفت، الحب اخـتفى عن وجه الأرض. فخلق ايا "آصـوشو - نامر" وجعله خـصيا، لكنه كان على كثير من الجمال. وأمـر «أيا» مخلوقه الجديد بالنزول إلى العالم السفلي. وهناك أغرى ملكة العـالم السفلي، وأخذ منها عـهدا. ثم حاول (آصوشـو - نامر) أن يفوز بزق فيه "ماء الحياة" متظاهرا بأنه عطشان. غير أن الحيلة لم تنطل على أرشكيجال فلعنته، لكنها تذكرت عـهدها له فنادت وزيرها "نمطار". وقالت له: انزل إلى الأسفل دركات العالم السفلي وأحضـر عشتار ثم جمعت قضاتها السبـعة من جماعة الانوناكي فرشوا على عشتار ماء الحياة. وهكذا عادت اليها الحياة فلبست ثيابها وكانت كلما مرت ببوابة أعادوا اليها شيئا من حلاها وجواهرها التي نزعوها عنها، وفي اخر الأمر وصلت إلى عالم النور، فعاد إلى الأرض رونقها وإلى الناس الحب.

أما الإله تموز فأعـيد إلى عالم النور بعدمـا ألبسوه أزهى الثياب وعطروا جـسمه بأثمن العطور، ومسحوه بالزيت المقدس، وهناك التقى زوجته عشتار.

عزيزي الدارس، لعلك تدرك أن هناك بعض التـوافق بين الاسطورتين؛ اذ حصل الزوج على ماء الحياة، وهي حالة وحيدة استثنائية. أما "اوتنبتشيم" فتدل اسطورته على أنه قد عاش حتى بعد الطوفان، وجد نفسه فيما وراء البحر أي فيما وراء مياه الموت.

7. الخلاصة

عزيزي الـدارس، وهكذا فقد مـرت مصـر - هبة النيل ومنذ الألف الرابـع قبل الميلاد بمراحل تاريخية متتابعة، ولعب وادي النيل بها دورا هاما في قيام الحضارة المزدهرة هناك. ومنذ القرن الحادي عشر بدأ نفوذ الفـراعنة يجتاز المحنة تلو المحنة، ووقعت مصر في أيدي الأشـوريين ثم في أيدي الفرس ثم في يد الاسكندر وأخـيرا في يد الـرومان. واحتلت اللغة والتـقاليد الاغريقيـة محلا رفيعـا بجانب لغة البلاد الاصيلة وتقاليدها. وأصبحـت مصر منذ الغزو المقـدوني مركزا اجتـمعت فيه جـميع حضارات الانسـانية، والتقت فيه كل التأثيرات من افريقية واوروبية وآسيوية.

إن الديانة العبرية ديانة توحيد، غير أن فهـمهم للتوحيد أمر مختلف عن أي فهم اخر. فالله عندهم يهتم بهم أكثر من غيرهم، وإذا حاولنا تبسيط الفكرة هذه لديهم وأن

نتخيل الخلق كله ضمن محيط دائرة مركزها (الله سبحانه)، فان بني اسرائيل يرون أنفسهم أقرب إلى هذا المركز. وعليه فانهم ينظرون إلى بقية الخلق كخدم وأتباع لهم (غوبيم)، ولعل في هذه النظرة ما جعل الصهيونية المعاصرة تنهج النهج نفسه.

لقدْ قامت في بلاد ما بين النهرين حضارات من أقدم الحضارات وأكثرها ازدهارا، ساهمت فيها الي جانب السومريين شعوب أخرى كونت امبراطوريات واسعة، كان لها السبق في اختراع الكتابة والتشريع والزراعة ونظم الري وغيرها. إن الحديث عن حضارة ما بين النهرين يعني الحديث عن أقدم الحضارات والمنجزات البشرية والتي تؤكد على وجود ارتباطات عميقة دائمة مع باقي العالم القديم، فحضارة هذه المنطقة في بلاد عيلام وبلاد سومر، وعند الساميين والاكاديميين في بابل، وفي آشور، وغيرها كانت كخط من القمم والتي كانت تسطع وتتوزع على الغرب الكائن على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وعلى آسية الجنوبية والشرقية، وتؤثر فيها جميعا تأثيرا عميقا.

وإلى جانب هذه الحضارات في تلك البقاع من الأرض كانت حضارة الكنعانيين الذين كونوا أهم مدنية ودولة لهم (قرطاجة) التي أقامت امبراطورية بحرية منذ القرن التاسع قبل الميلاد. التي أسسها الفينيقيون في مدينة صور وقد اشتهرت تجارتها ونفوذها. وانتهت على يد الرومان في الحرب البدنية المعروفة، على أثر المعركة الحاسمة في (زاما) 202 ق.م.

ومنذ القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادي انتقل تراث ما بين النهرين إلى المملكة الفارسية التي مزجته بالتراث الآري وقد أثرت هذه الحضارة بالشرق والغرب على حد سواء.

وفي الهند استوطنت قبائل أندو اوروبية (آرية)، ويبدو أن هذه القبائل أعطت اسمها India للهند الذين شكلوا حضارة لعبت دورها علي مسرح التاريخ.

وفي الصين ظهرت مجموعات في أحواض الأنهار مارست الزراعة بشكل بدائي بسيط، ثم ظهرت العائلات الاقطاعية التي ملكت الأراضي الواسعة واستخدمت الفلاحين لزراعتها، وبذلك ساد نظام الاقطاع في الصين فترة من الوقت. وأنشأوا هناك حضارة مزدهرة أثرت في الانسانية.

8. لمحة مسبقة عن الوحدة الدراسية التالية

وفي الوحدة الدراسية التالية حضارة اليونان) تعريف بهذه الحضارة، وبأبرز الانجازات الأدبية والفكرية لها. كما تركز هذه الوحدة على المفاهيم والقيم الكبرى التي كان للاغريق الفضل الأكبر في تجليتها وتعزيزها في تاريخ الحضارة الانسانية.

9. إجابات التدريبات

تدريب (1)

كان النيل مصدر إلهام عند الانسان المصري، فهو تارة يغدق على واديه النعيم، وطورا يصب عليه النقمات، مما أوحى الحكمة إلى الانسان المصري، وجعل منه مساحا ومهندسا وفنيا وعندما اقتضت الضرورة الي اعادة مساحة أراضيه لتحديدها بعد انحسار مياهه عنها.

تدريب (2)

لقد سادت الفكرة الأولى (العزلة) عند اليهود أسارى بابل الذين نفوا هناك. أما الفكرة الأخرى فقد وضعها النبي أشعيا الثاني. واليهود لم يتنزلوا عن هذه الفكرة أو تلك. إضافة إلى أنه كان لهم تصوف مبني على العقل والمنطق، يشهد بذلك مؤلفات، موسى بن ميمون وسبنوزا.

تدريب (3)

أ- من مرو.

ب- الحضارة المشتركة بين العيلاميين في سوس وتلك في مرو.

تدريب (4)

كان ذلك بسبب عنايته بالأمن، والزراعة، والري، والتجارة.

تدريب (5)

هم فرع من الساميين الذين هاجروا من جزيرة العرب وتوغلوا فيما بين النهرين في النصف الأول من القرن الثالث ق.م. وقد أخضع أول ملوكهم بلاد سومر بما فيها عيلام.

تدريب (6)

لم يضف الأشوريون شيئا إلى الحضارة البابلية، لكنهم اشتركوا فيها. وتلقوها بقبول، وحفظوا شواهدها في حولياتهم ومكتباتهم، ونشروا نورها حتى الحدود الاغريقية والمصرية.

تدريب (7)

شملت الدولة الكلدانية في أقصى اتساعها: بلاد ما بين النهرين، وفلسطين، وسوريا وعيلام.

تدريب (8)

سمي الأغريق الكنعانين بالفنيقيين في الألف الأول قبل الميلاد نسبة إلى الصبغة الارجوانية الحمراء التي اشتهروا بتصنيعها بعد استخراجها من أصداف البحر.

تدريب (9)

ظهر زرادشت في القرن السادس قبل الميلاد في بلاد ايران.

تدريب (10)

اشتملت تعاليم بوذا على خمس قواعد خلقية للهداية وتأمين الحياة السليمة وهي:

1- لا تقتل كائنا حيا.

2- لا تأخذ مما ليس لك.

3- لا تكذب.

4- لا تشرب المسكرات.

5- لا تقم على دنس.

تدريب (11)

أهم العناصر المشتركة بين معتقدات المجتمع الصيني:

1- الدين.

2- الأخلاق.

3- الفلسفة.

10. مسرد المصطلحات

- **أهريمان** Ahriman: رمز لقوى الشر عند الفرس وهو الذي يعرف باسم الشيطان عند أصحاب الأديان السماوية.
- **العاطف** Al-Atef: لقد أطلقه الأشوريون على إلههم اشور بقصد استمالته وتخفيف ظلمه.
- **العموريون** Amorites: هم فرع الساميين الذين هاجروا من جزيرة العرب، وتوغلوا بين النهرين في النصف الأول من القرن 3 ق.م.
- **العيلاميون** Alimites: شعب معظمهم من سوس في الطرف الفراتي من الهضية الايرانية سبق السومريين في بلاد ما بين النهرين.
- **القابلاه** Jewish Script: كتب التصوف العبرية وتعد أساسا للتعاليم السرية الغربية والتي كانت كلدانية أكثر منها يهودية.
- **النيرفانا** Nirvana: هي عند البوذيين حالة اتحاد الفرد بالله سبحانه وتعإلى والحصول عى السعادة الكلية بعد الموت.
- **الهيروغليفية** Heroglo Riphics: كتابة مصرية قديمة استعملها المصريون القدماء وتشمل لغة أهل كريت وآسيا الصغرى وسورية، وأمريكا الوسطى والمكسيك وربما كانت أساسا للأبجدية الفنيقية وغيرها من نماذج الكتابة التي استخدمت في آسيا.

- بلاد مـا بين النهـرين Mesepotemia: اسم قـديم أطلق على الأراضي الواقعـة بين نهري دجلة والرات. وعلى هذه الأرض نشأت حضارة من أقـدم الحضارات وأكثرها ازدهارا، ساهمت فـيها إلى جانب السـومريين شعوب سـامية كونت امـبراطوريات واسعة، كان لها السبق في اختراع الكتابة، والتشريع والزراعة ونظم الري وغيرها.

- مازدا Mazda: رب الحكمة وهو رمز لقوى الخير عند الايرانيين.

- ورق بردي Papyrus Paper: ورق مصنوع من نبـات البردي الذي عرفـه المصريون منذ أقدم العصور.



11. المراجع

أ- المراجع العربية:

1- أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الانجلو المصرية، ط 2، 1963م.

2- أحمد سوسه، مفصل العرب واليهود في التاريخ، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981م.

3- أنيس فريحه، ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار للنشر، ط 2، بيروت، 1979م.

4- اورسل، بول ماسون، الفلسفة في الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، القاهرة، دار المعارف، 1974م.

5- بريستد، العصور القديمة، تعريب داوود قربان، بغداد، د.ت.

6- سامي سعيد الأحمد، ملحمة جلجامس، دار الجيل، دار التربية، بيروت، بغداد، 1404هـ - 1984م.

7- طه باقر، ملحمة جلجامش، وزارة الارشاد، مديرية الفنون والثقافة الشعبية، (سلسلة الثقافة الشعبية 54)، بغداد، 1962م.

8- فرانكفورت واخرون، ما قبل الفلسفة، الانسان في مغامرته الفكرية الاولى، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا وآخرون، مراجعة محمود الأمين، بيروت، 1982م.

9- موسوعة تاريخ الحضارات العام، باشراف موريس كروزويه، منشورات عويدات، ج7، ط3، بيروت، لبنان، 1413هـ/ 1993م.

10- نبيلة محمد عبد الحليم، معالم العصر التاريخي في العراق القديم، دار المعارف، مصر، 1983م.

ب- المراجع الأجنبية:

1- Breasted (J.H) Development of Relision and Thought in Ancient Egypt, New York 1919.

3

الوحدة الثالثة

الحضارة اليونانية

محتويات الوحدة

الموضوع	الصفحة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

أهلا بك، عزيزي الدارس، في الوحدة الثالثة من مقرر "الحضارات البشرية ومنجزاتها" وهي بعنوان "الحضارة اليونانية".

تتطرق هذه الوحدة إلى التعريف بحضارة اليونان وثقافتهم، وبأبرز الإنجازات الأدبية والفكرية التي أثرت عند الاغريق، وتركز الوحدة على المفاهيم والقيم الكبرى التي كان للإغريق الفضل الأكبر في تجلياتها، وتعزيزها في تاريخ الحضارة الانسانية مثل: الانسان والحكمة، والحرية، والمواطنة، والقدر، والعقل، والطبيعة.

عزيزي الدارس، سترد في ثنايا هذه الوحدة مجموعة من التدريبات والأنشطة وأسئلة التقويم الذاتي، إضافة إلى أسئلة التعيينات الخاصة بالوحدة. إن كل ذلك سيعينك - إنْ تفاعلت معه - على فهم الوحدة وتحقيق الأهداف المرجوة من دراستها.

أهلا بك مرة أخرى في وحدة "الحضارة اليونانية" وأتمنى لك أن تستمتع بما فيها.

2.1 أهداف الوحدة

عزيزي الدارس، يتوقع منك، وبعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادرا على أن:

1- تعرف أبرز الانجازات الأدبية والفكرية للحضارة اليونانية وثقافتها.

2- تعي القيم الإنسانية الكبرى التي كان للإغريق فضل التركيز عليها وتعزيز ما في تاريخ الحضارة الإنسانية. كالحكمة، والخير، والعدالة، والمواطنة، والقدرة، والقدر والعقل والطبيعة.

3- تدرك أهمية الروح والعقل كسمة غالبة في الثقافة اليونانية.

4- تبصر العلاقة بين الفكر اليونانيْ والفكر الشرقي.

5- تطّلع على ملامح من فكر الحضارة الرومانية.

3.1 أقسام الوحدة

تنقسم هذه الوحدة إلى تسعة أقسام ترتبط بقائمة الأهداف السابقة، وهي:

القسم الأول : علم الأغريق الأول، الميثولوجيا وشعر الملاحم.

القسم الثاني : المسرح اليوناني ويرتبط القسمان بالهدف الأول.

القسم الثالث : علماء الطبيعة الأوائل.

القسم الرابع: الديمقراطية الأثينية وفكر القرن الخامس ق.م. الانتقادي ويرتبط القسمان بالهدف الثاني.

القسم الخامس : المنظومات الفلسفية الكبرى ويرتبط ذلك بالهدف الثالث.

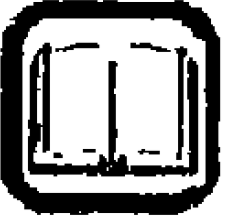
القسم السادس : الفكر اليوناني وعلاقته بالفكر الشرقي.

القسم السابع : من اليونان إلى الرومان ويرتبط ذلك بالهدف الرابع.

القسم الثامن : الهلنستية والافلاطونية المحدثة ونهاية العالم القديم ويرتبط بالهدف الثاني.

القسم التاسع : نصوص مختارة من: هوميروس، سوفوكلس، أفلاطون، أرسطو، ويرتبط ذلك بالهدف الخامس.

4.1 القراءات المساعدة



عزيزي الدارس، ولمزيد من المعلومات عما تدور حوله الوحدة الثالثة، حاول الانتفاع بالقراءات التالية، وذلك لاتصالها القوي المباشر بموضوع الوحدة، ومما لا شك فيه أن انتفاعك بها سيجعلك أكثر قدرة على استيعاب ما فيها من معلومات، كما سيعمق عندك القدرة على التصور والتحليل والاستنتاج:

1- شارل فرنر، الفلسفة اليونانية، ترجمة تيسير شيخ الأرض، بيروت، 1968م.

2- عبد الرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة، القاهرة، 1956م.

3- عبد الرحمن بدوي، خريف الفكر اليوناني، وكالة المطبوعات، الكويت، 1979م.

4- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي عيسى محمود وآخرون، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1965م، الجزأين السابع والثامن.

5- موسوعة تاريخ الحضارات العام، بإشراف موريس كروزية، منشورات عويدات، 7ج، ط 3، بيروت، لبنان، 1413هـ-1993م، الجزء الأول.

5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة

وقبل أن تبدأ، عزيزي الدارس، في دراسة الوحدة أنصحك بأن تهيء لنفسك مكانا هادئاً ومريحاً، وأن تقوم بحل الأنشطة والتدريبات وأسئلة التقويم الذاتي لأن كل ذلك يساعدك عل استيعاب ما في الوحدة من مادة.

حاول عزيزي الدارس أن تربط بين الأماكن التي تتعرض لها في دراستك وبين مكانها على الخارطة. كما أنصحك بأن تقرأ المراجع المشار إليها آنفا لتوسع اطلاعك مع امنياتي لك بالاستمتاع فيما تقرأ.

2. علم الأغريق الأول: الميثولوجيا وشعر الملاحم

عزيزي الدارس، كانت الملاحم الهوميرية أقدم ما وصل إلينا من شواهد الفكر اليوناني. وهي تؤلف ملحمتين كبيرتين هما الالياذة والاوديسا؛ وتنسبان إلى هوميروس، غير أن الشك قديم في حقيقة هوميروس، وفي نسبة الملحمتين اليه. وقد ذهب بعض النقاد المتأخرين إلى أن الملحمتين هما لطبقتين من الشعراء، بحيث ترجع الالياذة إلى القرن التاسع، وترجع الاوديسا إلى أواخره والنصف الأول من القرن الثامن - وأن هوميروس أشهر أولئك الشعراء أو أنه أحدثهم عهدا، حفظ الملاحم وأنشدها فنسبت اليه باعتباره الجامع لها. فان اسمه يعني "المنسق". ويذهب فريق اخر من النقاد إلى أن هوميرس هو ناظم الملاحم. ان الذي يَعْنينا - عزيزي الدارس - في هذا السياق هو التعرف إلى أفكار اليونان في تلك الحقبة من الزمن. والملاحظ أن في الملحمتين أفكارا في الطبيعة والآلهة والانسان والأخلاق.

أما الطبيعة فهي عند - هوميروس - حية مريدة. وقد يكون هذا متابعة منه للتصور المعبر عنه بالبدائي، وهذا التصور مألوف في الشعر في أيامنا هذه؛ -ولا غرابة- في قول هوميروس مثلا أن "نهر زونتوس" استشاط غضبا لأن (أخيل) ملأه بالجثث، ولا غرابة كذلك في تشخيصه الليل والظلمات والموت والنوم والحب والشهوة، بل لا غرابة في تأليهه الأرض وقوله انها ولدت الجبال الشاهقة، والسماء المزدانة بالكواكب، ثم تزوجت من السماء المحيطة بها من كل جانب، فولدت أقيانوس، والأنهار، وأن أقيانوس المصدر الأول للأشياء، ذلك أن الأساطير القديمة في جملتها رموز تخفي وراءها

مقاصد، وإذا ترجمناها إلى لغتنا المعهودة بات واضحة مقبولة. (انظر يوسف كرم، ص 3)

والآلهة في قمة الاولمب يؤلفون حكومة ملكية على رأسها زيوس Zeus وكلهم في صورة بشرية، الا أن سائلا عجيبا يجري في عروقهم فيكفل لهم الخلود، وهم أقوى من الأبطال وأسرع حركة. يظهرون للناس أو يختفون كما يشاؤون، يسكنون قصورا في السماء فخمة، يقضون فيها حياة ناعمة في ربيع مقيم، يأكلون ويشربون ويتزاوجون، تجرحهم السهام والرماح يتألمون وينتحبون. وهم حادثون وجدوا في الزمان، وما يزالون خاضعين لتعاقب الأيام، وهم على مثل هذا النقص من الناحية الخلقية لهم شهواتهم وعصبياتهم؛ يتفرقون أحزابا ويتدخلون في منازعات البشر، يؤيد بعضهم اليونان، ويناصر البعض الآخر أهل طروادة؛ يتشاتمون ويتضاربون، يخونون ويغدرون، لا يرعون من البشر الا من يتقرب اليهم كيفما كانت أخلاقه، ويذهبون في رعايتهم لمختاريهم إلى حد أن يهبوهم التوفيق في الخديعة، أو المهارة في السرقة، لا يحفلون بعدل أو بظلم الا فيما ندر. (انظر يوسف كرم، ص 3)

أما الانسان، عند هوميروس، فهو مركب من نفس وجسد، والجسد مكون من ماء وتراب ينحل اليها بعد الموت، والنفس هواء لطيف متحد بالجسد متشكل بشكله، ينطلق بالموت شبحا دقيقا لا يحسه الأحياء، فينزل إلى مملكة الموت في جوف الأرض، وقد احتفظ بالشعور وفقد القدرة على الحركة، فهو يألم لذلك، ويقضي هناك حياة باهتة تافهة خير منها الف مرة الحياة على وجه الأرض في ضوء النهار مهما تبلغ من البساطة والفقر، وليس في هذا العالم الآخر ثواب ولا عقاب الا في النادر، يوزعهما الآلهة بمثل ما يوزعون في الحياة الفانية من عدل معكوس، فيحبون أصدقاءهم وينكلون بأعدائهم، وليس صداقتهم عطفا على الخير أو عداوتهم نقمة على الشر. (أنظر يوسف كرم، ص 3). والملاحظ عزيزي الدارس أن الاليادة في هذا التصور في أحط دركات التشبيه. وأوقح أشكال الاستهتار. نرى العاطفة الدينية ضعيفة إلى حد العدم، والمباديء الخلقية مقلوبة رأسا على عقب.

أما الاوديسا فهي أكثر احتراما للآلهة، لا تصورهم منقسمين على أنفسهم، بل انها تتحدث عن عدالة زيوس، وهي أكثر تقديرا للفضيلة، تمجد الرجل الحكيم الشجاع الصبور، والزوجة الوفية، والابن البار، والخادم الأمين، ومع ذلك فهي تصور الآلهة يقضون بالقدر على البشر دون اعتبار لقيمة أفعالهم، والقدر يسخر من الفضيلة، ويعبث بالارادة الصالحة.

لم يكن اليونان يجهلون الأخلاق القويمة، أو يستهترون بالآلهة. فقد كانوا، وكانت الأسر العريقة منهم بنوع خاص، على جانب عظيم من التمسك بالشرف. يشيدون بتحكيم العقل وقمع الشهوة، والتجلد للمصائب. وضبط اللسان، ومقت الكذب، ومراعاة العدل بين الجميع لخير الجميع، واحترام الوالدين والعناية بهم في شيخوختهم والثأر لهم اذا لزم الأمر، وحسن اختيار الصديق ثم الوفاء له. وكانوا يرون تكريم الآلهة واجبا تقضي به العدالة عرفانا لجميلهم، وتدفع اليه المصلحة استمدادا لعونهم، ويوحي به الخوف دفعا لغضبهم، وكانوا يحترمون القسم لوجوب احترام الآلهة.

إن الشعر الهوميري لا يعد مرآة للموازين الأخلاقية والعواطف الدينية عند اليونان، ولكنه شعر كان ينشد في بلاد أمراء "أيونية" الذين كانوا على حظ وافر من الغنى والترف، فلم يكن الشاعر يتغني بغير ما يروق له، فيصور الحياة سهلة جميلة، والشهوة غلابة لا يوقفها وازع، والقوة ممدوحة لذاتها لا يحدها حدّ. ولما كان اليونان قد درجوا على تدارس هذا الشعر جيلا بعد جيل، وكان شعراؤهم قد نهلوا منه ونَحْوا نحوه، فقد تأثروا به تأثرا قويا في الدين والأخلاق. وسنجد الفلاسفة يعارضونه حتي تبلغ المعارضة أشدها عند أفلاطون. (انظر: يوسف كرم، ص 4)

ونقرأ - عزيزي الدارس - فيما يلي عن "هزيود" Hoziod ، ذلك الشاعر اليوناني، الذي يتكلم عن الدين والأخلاق في جد ووقار. نشأ "هزيود" في مقاطعة "يوتيبا؛ فلاحا بعيدا عن بهرج الحضارة، ونَظّم للفلاحين ديوانا أسماه "الأعمال والأيام" ، ملأه حكمة وأمثالا تسودها فكرة العدالة. وينقسم الديوان إلى أربعة أقسام رئيسة: الأول درس أخلاقي في العمل والحث عليه، يتخلل ذلك حكم متنوعة. أما الثاني فنصائح في الزراعة، يليها ارشادات في الملاحة. والقسم الثالث: مجموعة من الوصايا في الزواج والعلاقات الاجتماعية والشعائر الدينية، أما القسم الأخير فتقويم يدل على أيام السعد وأيام النحس، ويحوي الشيء الكثير من الخرافات الشعبية. وسأنقل لك - عزيزي الدارس - بعضاً من أقواله في العدالة عند الآلهة والبشر. يقول: "السمك والوحش والطير يفترس بعضها بعضا لأن العدالة معدومة بينها. أما الناس فقد منحهم زيوس العدالة وهي خير وأبقى" . ويقول كذلك: "من يضر الغير يجلب الشر على نفسه. عين زيوس تبصر كل شيء، اذا كان الذي يربح الدعوة هو الأكثر طلاحا فمن الضار أن يكون الانسان صالحا، ولكني لا اعتقد أن يكون زيوس الحكيم جدا قد صنع

مثل هذا. ان ساعة العقاب آتية لا محالة. وان زيوس يهب القوة، ويذل الأقوياء، يضع الذي يطلب الظهور، ويرفع الذي يقعد في الخفاء". (انظر: يوسف كرم، ص 5). وخلاصة هذا أن الحق فوق القوة، والانسانية فوق الحيوانية.

وينسب لهزيود ديوان آخر بعنوان (أصل الآلهة)، حاول فيه الشاعر أن يؤلف مجموعة معقولة من الأساطير والمعارف القديمة. افتتحه بالضراعة إلى آلهات الشعر أن توحي اليه ما كان وما هو كائن وما سيكون وأن تعلن قوانين الاشياء جميعا. ثم مضى يسلسل الأشياء والآلهة: فوضع في البدء ثلاثة أصول: "كاوس، أي الهاوية أو الخلاء الذي ستحل فيه الموجودات؛ و "جايا" أي الأرض الحقيقية، و "ايروس" أي الحب أو قوة التوليد والانتاج. ثم تنتظم الكتلة الارضية، وينبثق النور من الظلمات، وترتفع السماء فوق الجبال ويتهاوى البحر في مجراه العميق. ويدل ترتيب ظهور الاشياء على أن الشاعر راعى ما بينها من علاقات عالية، وتمشى في تدرجه إلى النظام على مبدأ أن الاصغر يخرج من الأكبر؛ فأخرج الجبال من الأرض، والانهار من أقيانوس، وهكذا إلى آلهة الأولمب، وهم آخر المواليد على اعتبار أن القوى الطبيعية سابقة على الآلهة المكلفين بتدبيرها. فهذا الديوان يعد أول محاولة في العلم الطبيعي بالرغم من أن نصيب المخيلة فيه أكبر من نصيب العقل، وأن الشاعر يروي ولا يفسر، فإن القصص الرمزي كان سهلا مألوفا عند الأقدمين. وهذا نبغ في عهده وبعده بقليل غير واحد من الشعراء والكتّاب الذين يدعوهم أرسطو باللاهوتيين لمعالجتهم العلم في صورة الاسطورة والذين كانوا حلقة بين هوميروس وأوائل الفلاسفة (انظر يوسف كرم، ص 5)

نشاط (1)



ارجع إلى الألياذة والاوديسا، اقرأهما وناقشهما مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

تدريب (1)



لمن ملحمتا الألياذة والاوديسا؟

أسئلة التقويم الذاتي (1)



كيف نظر هوميروس إلى الطبيعة في ملاحمه؟

عزيزي الدارس،

كان اليونان يصدرون في علاقتهم بالآلهة عن ثلاث عواطف هي: العرفان بالجميل، والمصلحة الخاصة، والخوف من العقاب؛ فالآلهة كانوا يعتبرون بناة المدن وحماتها، فتكريمهم واجب وطني، والالحاد في حقهم خيانة للوطن، - أي جريمة يعاقب عليها القانون - غير أن تيارات دينية أخرى ظهرت وقصدت إلى تجاوز حدود المدينة ودعوة الناس جميعا حتي الأجانب والأرقاء، إلى حياة روحية أسمى وأقوى، ذلك أن فريقا من اليونان لحظوا الفارق بين سيرة الانسان وما يعتقده من مثل أعلى في الأخلاق، واستوقف نظرهم التعارض البارز بين شقاء الانسان وسعادة الآلهة، فبدا لهم أنه قد يكون بالامكان ايجاد علاقة بالآلهة غير علاقة العبد بالسيد؛ علاقة تقرب تكفل للانسان المشاركة في السعادة الالهية. ووجدوا غير الشرقيين غذاء لهذه النزعة. فنشأت "أسرار" أي نِحَلٌ سرية تعلل مريديها بالنجاة من مصائب هذه الحياة وبالسعادة في الأخرى، فيأمنون شر المرض والغرق والخراب والحرب وما إليها، ويضمنون لأنفسهم النجاح والتوفيق، وبعد الموت النجاة من "الحمأة" واللحاق بالآلهة، فيخلصون من الكابوس الذي كان جاثما على الصدور والذي يلخص في هذه العبارة: "ان حياة الانسان ظل زائل، ووجوده بعد الموت ظل الظل". (انظر يوسف كرم، ص 6)

وأشهر هذه النحل: أسرار "إلوسيس"، والأسرار الاورفية. أما نحلة "إلوسيس" فتعبد "ديمتير" التي كانت الهة الحرب عند هوميروس فصارت عندها الهة العمل. كانت الوسيس مدينة مستقلة، ثم دخلت في سيطرة اثينا أثناء القرن السابع، أي في الوقت الذي نشط فيه الاقبال على معبد الالهة، وما أن جاء القرن الخامس حتى كانت هذه النحلة قد غزت العالم، فصارت المدينة طوال العصر القديم مزارا يتقاطر اليه اليونان والرومان بل ويحج اليه بعض أباطرة روما. وكانت تقام فيها أعياد فخمة تأخذ بمجامع القلوب. وتقوم العبادة في هذه النحلة على اسطورة غامضة ومفاهيم ظلت سرا مكتوما مدى ألف عام، وكان المريدون يمثلون قصة ميثولوجية لكي يبعثوا في نفوسهم العواطف التي انفعل بها الاله أو الالهة، ويتلون عبارات مبهمة، ويرقصون ويصيحون على صوت موسيقى صاخبة، لكي يحققوا حالة الجذب أو الاتحاد بالالهة.

أما الاورفية فتعبد "ديونيسيوس" الذي كان عند هوميروس اله الاشراف، فصار عندها اله التضحية، وعبادة "ديونيسيوس" معروفة منذ عهد قديم، و "الاورفية" احدى

صورها. ويقال انها ترجع إلى شاعر من أهل "تراقيا" اسمه "اورفيوس"، وهو شخص يستحيل معرفة حياته وآرائه. ومنشأ نحلته لكثرة ما روي عنه من الأخبار المتضاربة، وأضيف اليه من الكتب المتعارضة. ولكن عرفت "الاورفية" منذ القرن السادس بشكل واضح، وبخاصة في ايطاليا الجنوبية وصقلية. وهي قائمة على أسطورة مؤداها أن زيوس وهب طفلة "ديونيسيوس" (ابنه من ابنته برسفون) السلطان على العالم. فغارت منه "هيرا" زوجة زيوس، وألبت عليه طائفة من الالهة الأشداء (الطيطان)، وكان "ديونيسيوس" يستحيل صورا مختلفة ويردهم عنه، إلى أن انقلب ثورا فقتلوه وقطعوه وأكلوه. غير أن الإلهة بلاس (منيرفا) استطاعت ان تختطف قلبه، فبعث من هذا القلب ديونيسيوس الجديد. وصعق زيوس الطيطان. وخرج البشر من رمادهم. فالانسان بهذا مركب من عنصرين متعارضين: من العنصر الطيطاني وهو مبدأ الشر. ومن دم "ديونيسيوس" وهو مبدأ الخير، فالجسد بمثابة القبر للنفس، وهو عدوها اللدود يجري معها على خصام دائم. (انظر يوسف كرم، ص 7)

إن واجب الانسان أن يتطهر من الشر، وهذا أمر عسير لا تكفي له حياة أرضية واحدة، بل لا بد له من سلسلة ولادات تطيل مدة التطهير. والتكفير إلى آلاف السنين. ورتبوا على هذه العقيدة طقوسا كانوا يقيمونها ليلا: ومنها التطهير بالاستحمام باللبن أو الماء المضاف اليه مادة تلونه بلون اللبن، وتقدمه القرابين غير الدموية، وتمثيل قصة "ديونيسيوس" بما في ذلك تقطيع ثور وأكل لحمه نيئا، وتلاوة صلوات كالتي وردت في كتاب الموتى المعروف عن المصريين. فقد اكتشفت مقابر في ايطاليا الجنوبية وجدت بها صفائح ذهبية عليها ارشادات للنفس عما يجب أن تسلك بعد الموت من طرق، وتتلو من صلوات. فكانت هذه الصفائح دليلا قاطعا على أنهم عرفوا كتاب الموتى وأخذوا عنه، كما أنهم أخذوا فكرة الولادات المتعاقبة عن الهنود مباشرة أو بوساطة الفرس. وكانوا يقولون إن الأرض للبشر كالحظيرة للماشية، فلا يحق للنفس أن تهرب من هذه الحظيرة، وانما واجبها ان تنتظر الأجل المحدد من الآلهة، فالانتحار كفر، إنه عدول عن الامتحان، ومن ثمة عن الثواب وسيأتي اليوم الذي تنجو فيه من "دولاب الولادات" وتستعيد طبيعتها الالهية فتحيا حياة روحية في العالم غير المنظور. ومن مبادئهم أيضا احترام الحياة حيثما وجدت؛ في الانسان والحيوان والنبات.

ان "الاورفية" تمتاز بالايمان الراسخ بالعدالة الالهية، وبالعلم الروحاني، وبالطهارة الباطنية، في حين أن باقي "الاسرار" كانت تعتقد أن الطقوس وحدها كفيلة بتحقيق أغراضها دون الاكتمال خلقيا، بل كانت تستبيح بعض المخازي وتدمجها في شعائرها. وتتصور العالم الآخر تصور ماديا وتمتاز الاورفية بان الههم عديم النظر بين

آلهة اليونان، فهم يمجدون فيه الضحـية المظلومة والفوز النهائي للضعيف صاحب الحق، وتمتاز ايضا بأنها كانت شيـعة الطبقة الوسطى المثقفة. وفيها نبغ شعـراء وكتاب اعتمدوا على التفكير الشخصـي في معالجة مسألة نشوء العالم، فهـذبوا الأساطير القديمة وكانوا طليعـة العالم الطبيـعي. وقد كان للاورفيـة أثر فعال في الشـعراء والمفكرين، بل يمكن القول إنها هي التي وجهت الفلسفة وجهتها العقلية الروحية علي أيدي "فيثاغوراس" و "سقراط" و "أفلاطون"، فسنجد عندهم عقائدها وتعـابيرها كأصول يحاولون ترجمتها إلى قضايا عقلية ثم البرهنة عليها. ولما اشتدّ اختلاط اليونان بالشرقيين، شعر فلاسفتهم بالحاجة إلى الدين، فعادوا إلى "الأسرار" يشرحـون أقوالها، بل يصطنعون شعراءَها أو ينسجون على منوالها. (انظر يوسف كرم، ص 8/7)



نشاط (2)

ارجع إلى كتـاب ول ديورانت واكتب تقـريرا عن الاورفيـة. ناقشـه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (2)

عرف: ديمتير، ديونيسيوس، الاورفية؟



أسئلة التقويم الذاتي (2)

تحدث عن الأسباب التي أدت باليونان إلى النزوع نحو الفكر الشرقي.

4. علماء الطبيعة الأوائل

عزيزي الدارس، ان أول اتجاه الفكر انما يكون إلى الخارج يطلب حقيقة الاشياء. فاما أن يستوقفه التغيير، وهو أهم ظاهرة في الطبيعة؛ وأخطرها سواء أكان عرضيا: اي انقلاب الشيء من حال إلى حال، أم جوهريا: اي تحول الشيء إلى شيء آخر: كتحول الغـذاء إلى جسم الحي، والخـشب إلى الرمـاد، فيـدرك أن الأجسـام على اختـلافهـا مصنوعـة من مادة أولى هي محل التـغيرات. فـيبحث عن هذه المادة التـي تتكون منها الاجسام، ثم تعود اليـها. وإما أن يعني بما في تركيب الأجسام من نـظام، وفي أفعالها

من اطراد، ويعلم أن النظام في العدد، فيصور العـالم تصورا رياضيا. وإما أن يرى في ذات فكرة التغـير تناقـضا، اذ يبدو لـه التغـير صيـرورة من لا شيء ومن شيء إلى لا شيء، فينكره ويقول بالوجود الثابت. وتلك هي الوجـهات الثلاث التي يمكن تبينها في الوجود: وهي الوجهة الطبيعية، والوجهة الرياضية، والوجهة الميتافيزيقية.

لقد وفق اليـونان في الكشف عن هذه الوجهـات الثلاث فظهـرت ثلاث مدارس متعـاصرة لكل منها مزاج ومذهب. ظهـرت مدرسة في أيونية عالجت الـعلم الطبيعي: ثلاثة من رجالها نشأوا في ملطية، وهم: طاليس، أنكسيمندريس، وأنكسيمانس، ورابع نشأ في أفـسوس: هو "هرقليطس"، ولكـن الفرس أغاروا على أيونيـة وأخضـعوها، فانتـقلت الحياة العـقلية إلى ايطاليا الجنوبيـة وصقلية فنبغ هنـاك "فيثاغـورس" صاحب الوجهة الرياضية، وظهرت المدرسة "الايلية" القائلة بالوجود الثابت، ثم فلاسفة أخذوا من كل وجـهة بـطرف وحاولوا التـوفـيق بينهـا، وهم: أبنادوقليس 493-433 ق.م.، وديموقريطس 460–370 ق.م، وأنكساغوراس 500–428 ق.م.

ويذكر لكل هؤلاء أو لمعظمـهم كتاب بعنوان في الطبيـعة "أي في الجوهر الأول الثابت تحت التغير والتحول"، وليس يعني هذا أن أصحابها كانوا يسمونها بهذا الأسم، وقد ضاع جـل هذه الكتب، وظلت أخبار أولئك الفلاسـفة ناقصة. هـذا وسأحاول – عزيزي الدارس – أن أطلعك على بعض أخبارهم:

أ- طاليس (624-546) ق.م

أحد الحكماء السـبعة، انفرد بالعناية بالـعلم، في حين كان غيره يُعنى بالسـياسة والأخلاق. جـال أنحاء الشرق، وتبحـر في العلوم، ومما يذكر عنه أنه عمل كـمهندس حربي فـي خدمة قـارون (آخر ملوك ليـديا في آسيـا الصغـرى) وبرهن على أن الزوايا المرسومة في نصف الدائرة قـائمة، وكان يحسب من فوق برج أبعاد السـفن في البحر، وأنبأ بكسوف الشمس الكلي الذي وقع في 28 مايو/ ايار عام 585 ق.م. ووضع تقويما للملاحـين من أهل وطنه ضمنه ارشـادات فلكية وجـوية. منها أن الدب الأصـغر أدق الكواكب دلالة على الشمال. وجاء الي مصر فأخـذ علم المساحة، وشغل بمسألة فيضان النيل، ودل أساتذته المصريين على طريقة لقيـاس ارتفاع الأهرام؛ حيث يفهمهم أن ظل الشيء يساوي ارتفاعه في وقت النهار، وأن النسبة تبقى محفوظة بين طول الظل وارتفاع الشيء في أي وقت.

وعن أثره في الفلسفة فقد وصف المسألة الطبيعية وصفا نظريا بعد محاولا. الشعراء واللاهوتيين، فشق للفلسفة طريقها، فبدأت باسمه، قال: "ان الماء هو الما. الأولى والجوهر الأوحد الذي تتكون منه الأشياء"، وكان هذا القول مألوفا عند الأقدمين. غير أن طاليس دعم رأيه هذا بالدليل فقال: "ان النبات والحيوان يتغذيان بالرطوبة. ومبدأ الرطوبة الماء، فالشيء الذي تتغذى منه يتكون منه بالضرورة. وهذا ينطبق على الأرض بالاجمال. فقد خرجت من الماء وصارت قرصا طافيا على وجهه، وتستمد منه العناصر الغازية التي تفتقر اليها: فالماء اذن أصل الأشياء".

وثمة قول آخر يذكره له أرسطو مفاده: "أن العالم حافل بالآلهة". ويغلب أن معنى هذا أن العالم حافل بالنفوس، أي أن كل فعل انما هو من النفس، وأن النفس منبثة في العالم أجمع، فتكون المادة حية، ويكون الماء المؤلفة منه الأشياء حاصلا على قوة حيوية حاضرة فيه دائما وإن لم تظهر دائما. ويشترك في هذا الرأي الأيونيون ولهذا دعوا "هيلوزويست" أي أصحاب المادة الحية. ومما يؤيد التأويل هذا عبارة منسوبة لطاليس يوردها أرسطو بتحفظ مؤداها أن للحجر المغناطيس نفسا لأنه يحرك الحديد، وهذا يدل على أن مبدأ الفعل الحركة عند طاليس هي النفس، ولما كانت الحركة كلية كانت النفس كذلك.

وخلاصة القول - عزيزي الدارس - أن "طاليس" تمثل العلم البابلي والمصري وعمل على تقدمه، غير أنه استبقاه تجريبيا، حتى أنباؤه بالكسوف لم يكن صادرا عن أساس نظري؛ من حيث أنه كان يعتقد أن الأرض قرص مسطح، وأنه علي ما يذكر "هيرودوت" انما أنبأ بكسوف تلك السنة فقط، ومن غير أن يعلم إن كان هذا الكسوف يُرى في بقعة من الأرض معينة، فقد يكون "طاليس" قد اهتدى إلى هذا اتفاقا، وقد يكون قد اعتمد على جداول البابليين.

أما فلسفة طاليس فهي على العكس: شيء جديد، فبدل أن يفسر تنوع الكائنات بتشخيص القوى الطبيعية والرواية عن الآلهة، نظر اليها على أنها أشياء معروفة محسوسة، وحول الاستقرار والبرهنة، فهذه النظرة وهذا المنهج هما الربح الذي عاد على الفلسفة. أما قوله بالماء فقد كان آخر صدى للتقليد القديم، ولم يتابعه عنه خلفاؤ. ولكنهم فهموا أن وجهته ومنهجه أمران لهما قيمتهما الخاصة، وأنهما مستقلان عن ك' قول معين. (أنظر يوسف كرم، ص 14/13)

ب- انكسيمندريس Anaximonder (610-547) ق.م

تلميذ طاليس فيما يرجح، وخليفته في ملطيـة، يذكر عن مشاركته الشخصية في تقدم العلوم أمورا لم يثبت منهـا الكثير، فيقولون مثـلا أنه مخترع المزولة، والأرجح أنه أخذهـا عن البابليين حـيث هي معـروفة عندهم، ويقـال أنه صنع كرة فلكيـة، ووضع خريطة أرضية استنادا الي المعلومات التي كان يأتي بها اليونان إلى ملطية من أنحاء العالم المعروف وقتذاك، فرسم اليابسة يحيط ببحر ويحيط به بحر.

رأي "انكسيمندريس" ان الماء لا يصلح أن يكون مبـدأ أولاً، وذلك لأن استحالة الماء الجامد الي مـاء سائل بالحرارة تعني أن الحرارة والبرودة سابقـان عليه. وكذلك لأن المبدأ الأول لا يمكن أن يكون معـينا، وإن لم نفهم أن أشياء متمايزة تـتركب منه. فدعا المادة الأولى باللامتناهي، وقال بأنها لا متناهـية بمعنيين: من حيث الكيف أي لا معينة. ومن حيث الكم أي لا معدودة: هي مزيج من الاضداد جمـيعا، كالحار والبارد واليابس والرطب وغيرها. الا أن هذه الاضداد جميعا، كالحار والبارد واليابس والرطب وغيرها. كانت في البدء مخـتلفة غير موجودة بالفعل من حيث هي كـذلك، ثم انفصلت بحركة المادة، ولا تزال الحركـة تفصل بعضـها من بعض، وتجمـع بعضهـا من بعض ، بمقادير متفاوتة، حتى تألفت بهذا الاجتماع وانفصال الأجـسام الطبيعية علي اختلافها. وأول ما انفصل الحار والبـارد، فتصاعد البخـار، بفعل الحار، وكان من هذا البخـار الهواء، أما الراسب فـيبس بالتـدريج، فكان منه البـحر ثم الأرض. وتكون الحـار كرة نارية حـول الهواء كـما تتكون القـشرة حول الشـجرة، وتمزقت هذه الكرة النارية فـتناثرت أجزاؤها ودخلت اسطوانات هوائية مبططة هي الكواكب تشتعل فـيها النار وتبدو لنا من فوهاتها: فكل ما نراه من وجوه القـمر، ومن كسوف وخسوف، ناشيء إمـا من انسداد الفوهات انسداداً كليا أو جـزئيا، أو مما للاسطوانات من حركة تجعل الفوهات تبـدو حينا وتغيب حينا آخر، والأرض جسم اسطواني كذلك، نسبة ارتفاعه إلى عرضه كنسبة 3:1، ونحن نشغل قـسمـها الأعلى وهو متـفخ قليلا. وليـست تقوم على شيء بخـلاف ما ارتأى طاليس؛ إذ لا بد من سماء سـفلى تجتازها الشمس والكواكب من الغرب لتعـود فتظهر في الشرق، كـما أنها تجتـاز السماء العليـا من الشرق إلى الغرب، فالأرض مـعلقة في وسط السماء، ثابتة في مكانهـا، لأنها واقعة على مسافة واحـدة من الأجرام السماوية، فليس هناك ما يجعلها تـتحرك إلى جهة دون أخرى، ولأن النسبة المذكـورة بين ارتفاعها وعرضها تكفل لها الاستقرار بذاتها.

أما الأحياء فقد تولدت في الرطوبة بعد التبخر، أي في طين البحر وهو مزاج من التراب والماء والهـواء، فكانت في الأصل سمكا مغطى بقـشر شائك، حـتى اذا ما بلغ بعضها أشده نزح الي اليابسة وعاش عليها ونفض عنه القشر، والانسان لم يوجد أول ما وجد على ما نراه اليوم طفلا عاجزا عن توفير أسباب معاشه، والا لكان انقرض. ولكنه منحدر هو أيضا من حيوانات مائية مـختلفة عنه بالنوع حملته في بطنها زمنا طويلا إلى أن نمت قواه وتم تكوينه، فاستطاع أن يقف على اليابسة وأن يحفظ حياته بنفسه.

والتطور قانون عام: تخرج الاشيـاء من اللامتناهي ثم تنحل وتعود اليه، ويتكرر الدور، وهكذا دواليك. منهـا ما يشـرق ويغرب في آجال بـعيدة وهي العـوالم التي لا تحصى؛ ومنها ما يتكون ويفسد في أوقات قصيرة ويعوض بعضها البعض على مر الزمان وهي الجزيئات. مـثل الحرارة تشرب ماء الأرض فيـرد البخار هذا الماء للأرض مطرا .. وهكذا الي نهاية الدور. فالحركة دائمة، والموجودات متغيرة. والمادة اللامتناهية باقية غير حادثة ولا مندثرة.

والملاحظ مما سبق، عـزيزي الدارس، أن "انكسيمندريس" يفسـر تكوين الأشياء تفسيـرا آليا، أي بمجرد اجتـماع عناصر مادية وافـتراقها بتـأثير الحركة دون علة فـاعلية متمايزة ودون غائية. وهو في تصوره لهذا التكوين يكاد يقترب من تصور غير واحد من العلماء المحدثين (لابـلاس مثلا)، ويكاد يقول بمذهب التطور في عـالم الحياة، بل يكاد يقول بقانون الجاذبية لولا أن رأيه يرجع - على تعـبير أرسطو - إلى أن الأرض المستقرة في مركز العالم تشـبه رجلا يهلك جوعا لأنه لا يجد سبـبا يحمله على الأكل من طبق دون آخر من أطباق تحيط به على مسافة واحدة! و "أنكسيمندريس" يمد الوجود إلى غير واحد فـي المكان وفي الزمان. فـيقـول بعوالم لا تحـصى، وبدور عام يتكرر الـي ما لا نهاية. والقـول الأول وليد المخـيلة تأبى أن تتمـثل حدا للمادة وخـلاء ليس في شيء، والقول الثاني قديم لعله نشأ من ملاحظة أطراد حركات الأفلاك، وتأييد بتحول الأجسام بعضـها إلى بعض، وتداول الفصـول، وهو على كل حال يعني ضرورة مطلقـة وقانونا كليا يسيطر على الوجود ويفسر كيف أن الوجود لم يبدأ ولن ينتهي، وهذه عقيدة شائعة بين فلاسفـة اليونان يسميـها الاسلاميون بالدهرية لقـولها: أن الدهر دائر لا أوّل له ولا آخر. غير أن انكسيمندريس مع إن إنكاره على طاليس ان يكون المبدأ الأول شيئا معينا، فقد وضع مـبادىء عديدة معينة هي هذه الأضـداد الموجودة في اللامتناهي دون أن يبين أصلها. أليست هي المبادىء الحـقيقية؟ أوليس اللامتناهي في حالة اختـلاطها وتعادلها؟

فلا يصح أن يسمى مبدأ بالمعنى الذي فهمه طاليس أي ما منه تتكون الأشياء، لكنه مبدأ باعتباره نقطة بداية التطور العام. وهذه نظرية علمية، أما المسألة الفلسفية فلا تزال قائمة. (انظر يوسف كرم، ص 15-16)

ج- انكسيمانس Anaximance (588-524) ق.م

تلميذ أنكسيمندريس، وقد كان أقل منه توفيقا في العلوم وأضيق خيالا. عاد إلى رأي طاليس في الأرض فاعتقد أنها قرص مسطح قائم على قاعدة، وأنكر حركة الشمس ليلا من تحتها. واستبدل بها حركة جانبية حولها، وعلل اختفاء الشمس من المساء إلى الصباح بأن جبالا شاهقة تحجبها عن الأنظار من جهة الشمال، أو بأنها أبعد عن الأرض في الليل منها في النهار - وقد كان مثل هذا القول معروفا عند المصريين. واشتغل بالظواهر الجوية، ولا يلوح أنه أفاد من هذه الناحية.

وعاد أنكسيمانس إلى طاليس في مسألة المادة الأولى: فقال أنها شيء محسوس متجانس، ولكن هذا الشيء هو الهواء، وأن الهواء لا متناه يحيط بالعالم ويحمل الأرض. ولسنا ندري على وجه التحقيق السبب الذي حداه إلى ايثار الهواء. فقد يكون الهواء ألطف من الماء وأن مثله لا يفتقر إلى قاعدة وأنه أسرع حركة وأوسع انتشارا، ومن ثمة أكثر تحقيقاً للامتناهي. وقد يكون أن علة وحدة الحي النفس، والنفس هواء، فالهواء نفس العالم وعلة وحدته. ومهما يكن السبب فالمحقق أن المبدأ الأول عنده هو الهواء، وأن الموجودات تحدث منه بالتكاثف والتخلخل، فإن تخلخل الهواء ينتج النار وما يتصل بها من الظواهر الجوية النارية والكواكب وتكاثفه ينتج الرياح فالسحاب فالمطر، وتكاثف الماء ينتج التراب (الطمي في الأنهر) فالصخر.

ان أنكسيمانس يستعيض عن اللامتناهي الذي هو مزاج من الأشياء جميعا، بشيء واحد هو الهواء؛ وعن الحركة وما تحدثه من اجتماع وافتراق عارضين لأجزاء المادة، بخاصتين ملازمتين للهواء اذ يتكاثف ويتخلخل بذاته فيحدث الأشياء بانواعها، وعلى ذلك هو يفسر العالم بعلة واحدة تعمل علي نحو آلي. وفي هذا التفسير تقدم كبير بالمذهب الآلي إلى الوحدة والبساطة.

ان المدرسة الملطية اذ توجهت إلى العالم المحسوس تحاول معرفته بالملاحظة والاستدلال، تكون قد وضعت العلم الطبيعي. وهي اذ اعتبرت المادة قديمة حية أو متحركة بذاتها، وتخيلتها تتحول الي صور الوجود المختلفة بموجب ضرورة طبيعية تكون بذلك قد وضعت الاحادية المادية المعروفة في الفلسفة الحديثة والتي ترد الاشياء إلى

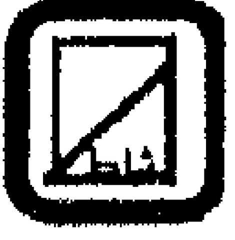
جوهر مادي واحد وتفسرها بتطور هذا الجوهر في الشكل والكم ليس غير. وبهذه النظرية سيقول أيضا هرقليطس.

د- هرقليطس Heraclitus (475-540) ق.م

ولد في "أفسوس" من أسرة عريقة في الحسب، ولكنه زهد كل جاه وتوفر على التفكير، الا أنه ظل ارستقراطيا بكل معنى الكلمة يعتد بنفسه، ويباعد بينه وبين الناس، يحتقر العامة ومعتقداتها الدينية، وعباداتها السخيفة، ومعارفها التقليدية، ويتهم كل من هوميروس، وهزيود انهما بثا فيهما الخرافات والأضاليل، ويستخرج من حكم العامة السياسي الشواهد على جهلها وعبثها، فشبهها تارة بالأطفال، وأخرى بالكلاب، وثالثة بالحمير، بل ان كبرياءه تعدى العامة إلى العلماء، فكان يزدري العلم الجزئي "الذي لا يثقف العقل" وينعي على فيثاغورس واكسونوفان اشتغالهما به، فلم يحسب، ولم يرسم ولم يجر التجارب، ولكنه كان يعتبر العلم الجدير به التفكير العميق في المعاني الكلية، يخلع عليها اسلوبا فخما مبهما كثير الرمز والتشبيه حتى لقب بالغامض، وقد قال هو نفسه في اسلوبه: "انه لا يفصح عن الفكر ولا يخاطبه، ولكنه يشير اليه". وان الشذرات المائة والثلاثين التي بقيت لنا من كتابه لتدل على ذلك دلالة كافية. غير أن العلم الجزئي تركه جاهلا بالطبيعة جهلا فاضحا، وهبط به إلى صف العامة، فقد اعتقد مثلا ان غروب الشمس انطفاؤها في الماء، وأنها تتجدد كل يوم، وأن قطرها قدم واحدة كما يبدو للبصر، وغير ذلك من الأوهام.

وملخص مذهبه أن الأشياء في تغير متصل، وهو يمثل له في صورتين: الاولى جريان الماء فيقول: "أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين، فإن مياهاً جديدة تجري من حولك أبدا. والصورة الأخرى: اضرام النار، وهي أحب لديه من الاولى لأن النار أسرع حركة وأدل على التغير، ولأنه يرى في النار المبدأ الأول الذي تصدر عنه الأشياء وترجع اليه. ولولا التغير لم يكن شيء فان الاستقرار موت وعدم. والتغير صراع بين الاضداد ليحل بعضها محل بعض "والشقاق أبو الأشياء وملكها". فلولا المرض لما اشتهينا الصحة، ولولا العمل لما نعمنا بالراحة، ولولا الخطر لما كانت الشجاعة، ولولا الشر لما كان الخير". فالوجود موت يتلاشى، والموت وجود يزول. فالخير والشر، والكون والفساد، أمور تتلازم وتنسجم في النظام العام، بحيث يمتنع تعيين خصائص ثابتة للأشياء: "ماء البحر أنقى وأكدر ماء، يشربه السمك ولا يستسيغه الانسان، هو نافع للأول، ضار بالثاني، ونحن ننزل النهر ولا ننزل (من حيث أن مياهه تتجدد بلا انقطاع)، ونحن موجودون وغير موجودين (من حيث أن الفناء يدب فينا في كل

لحظة)، كل شيء كذا وليس كذا، موجود وغير موجود. ويعتبر هرقليطس الجد الاول للشك في الفلسفة اليونانية. (يوسف، كرم، ص 19)



نشاط (3)

أكتب مقالا عن السفسطائيين، ناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (3)

من هم علماء الطبيعة الأوائل؟



أسئلة التقويم الذاتي (3)

1- كيف تقيّم نظرية طاليس في العلم الطبيعي؟

2- يعتبر هرقليطس الجد الأول للشك في الفلسفة اليونانية، ناقش هذا القول.

5. الديمقراطية الأثينية وفكر القرن 5 (ق.م) الإنتقادي

1.5 المناقشات

سأدرس واياك (عزيزي الدارس) أربعة مواضيع في الديمقراطية هي: المناقشات، القوانين، القضاء، والنظام الاداري.

ابتداء أود أن أشير إلى أن الديمقراطية الاثينية كان يحد منها أولا أن أقلية صغيرة من الأهلين كانت هي التي تستطيع القراءة. ويحد منها من الوجهة الطبيعية صعوبة الوصول إلى أثينا من المدن القاصية في أتكا؛ هذا إلى أن حق الانتخاب كان مقصورا على من ولد من أبوين أثينين حرين، وبلغ الحادية والعشرين من العمر، وكان هؤلاء وأسرهم دون غيرهم هم الذين يستمتعون بالحقوق المدنية أو يتحملون مباشرة أعباء الدولة الحربية والمالية. (انظر: ول ديورانت ج 7 ص 21)

كان عدد سكان أثينا في عهد بركليز 43,000 مواطنا وكانت السلطة السياسية في عصره موزعة من الناحية الشكلية توزيعا متكافئا، فكان كل مواطن يستمتع، ويصر على

أن يستمتع، بكل ما يستمتع به غيره من حقوق أمام القانون وفي الجمعية الوطنية، ولم يكن المواطن في نظر الأثيني هو الذي يقترع فحسب، بل كان هو الذي يشغل بالقرعة اذا جاء دوره منصب الحاكم أو القاضي، وبالطبع ليس في مقدور انسان خاضع لغيره، أو مضطر إلى الكدح ليحصل على قوته، أن يجد له من الوقت أو يكون لديه من المقدرة ما يمكنه من أداء هذه الخدمات. ومن هنا كان يبدو لمعظم الأثينيين أن الذي يعمل بيديه غير صالح لأن يكون مواطنا أثينيا. (أنظر: ول ديورانت، ح 7، ص 22)

عزيزي الدارس، إن الناظر إلى الفكرة السابقة يجد مفارقة عجيبة في وجهة النظر تلك. فهي تعترف بهذا الحق للفلاح الذي يزرع أرضه. في حين كان الأرقاء وجميع النساء، وجميع العمال، وجميع المستوطنين الغرباء، وعدد كبير من طبقة التجار محرومين من الحقوق السياسية.

أما من كان لهم هذا الحق فلم يكونوا يجتمعون في أحزاب سياسية، بل كانوا يقسمون تقسيما غير دقيق إلى أنصار الاجركية أو أنصار الديمقراطية على أساس ميلهم إلى توسيع الحقوق السياسية أو تضييقها. ونظرتهم إلى سيطرة الجمعية، واعانة الحكومة للفقراء من أموال الأغنياء. وكان أنشط الأعضاء في تلك الجماعتين ينتظمون في نواد تسمى مجتمعات الرفقاء. وبالمناسبة كان في أثينا نواد من جميع الأنواع: سياسية، عسكرية ودينية وللأقرباء وللصناع والممثلين، وأخري تجهر بأن همها هو الأكل والشرب.

كان أقوى هذه النوادي على الاطلاق النوادي الأجركية والتي يتعهد أعضاؤها بأن يساعد بعضهم بعضا في الشؤون السياسية والقانونية. وكانت تربطهم معا رابطة العداوة المشتركة الشديدة للطبقات الدنيا التي نالت حقوقها السياسية، والتي أخذت تنافس طبقتي الاشراف، ملاك الأراضي والتجار أصحاب المال.

وفي وجه هذا الحزب (أعني الأجركية) كان يقف حزب الديمقراطية (حزب صغار رجال الأعمال)، والمواطنين العاديين، والبحارة من رجال الاسطول أو تجار السفن، وكان هؤلاء جميعا يبغضون ترف الأغنياء وامتيازاتهم، ويرفعون إلى مصاف الزعامة في أثينا، رجالا أمثال كليون (دابغ الجلود)، ولسكليز (بائع الأغنام)، ويكراثيز (بائع حبال السفن)، وكليوفون (صانع القيثارات)، وهيروبولس (صانع المصابيح). (انظر ول ديورانت، ج7، ص 23)

عزيزي الدارس، لقد أفلح "بركليز" مدى جيل كامل في إبعاد هذا الحزب عن الحكم بسياسته التي كانت مزيجا من الديمقراطية والارستقراطية فلما مات ورث الحزب

(الأجركية) الحكم، وظل النزاع المرير قائما بين الأجركيين والديمقراطيين من أيام صولون إلى أيام الفتح الروماني عن طريق الخطابة والاقتراع والنفي والاغتيال والحرب الأهلية الداخلية. (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 23)

وكان كل ناخب يعد بهذا الوصف عضوا في الهيئة الحاكمة الأساسية وهي "الاكليزيا" أو الجمعية. وعند هذا الحد من الحكم لم تكن هناك حكومة نيابية، غير أنه لم يكن يحضر الاجتماعات الا عدد قليل من الأعضاء قلما يزيد على ألفين أو ثلاثة. وكان المواطنون الذين يعيشون في أثينة أو في ثغر "بيريه" يحضرون وكأنهم مصممون على أن يكون موطنهم هو المسيطر على الجمعية، وكان الديمقراطيون بهذه الطريقة يتفوقون على المحافظين لأن كثرة هؤلاء كانت مشتتة في مزارع أتيكا وضياعها. وكانت الجمعية تعقد جلساتها أربع مرات في الشهر. تعقدها في المناسبات الهامة في السوق العامة، أو في ملهى ديونيسس، أو في ثغر "بيريه". أما الجلسات العادية فكانت تعقد في مكان نصف دائري يدعى "البنيكس" Pnyx على منحدر تل غرب "الايجوس"، وكان الأعضاء في هذه الحالات كلها يجلسون على مقاعد مكشوفة للسماء وتبدأ الجلسات عند مطلع الفجر، ويفتتح كل دور اجتماع بالتضحية بخنزير إلى زيوس. وقد جرت العادة أن تؤجل الجلسات على الفور اذا ثارت عاصفة أو حدث زلزال أو خسوف أو كسوف، لأن هذه الظواهر كانت - في رأيهم - أدلة على غضب الآلهة. ولم يكن يصح عرض تشريعات جديدة الا في الجلسة الاولي من كل شهر، وكان العضو الذي يقترحها هو الذي يعمل على قبولها. فاذا تبين بعدئذ أن هذه الشرائع شديدة الضرر كان من حق أي عضو آخر أن يلجأ خلال عام من قبولها إلى ما يسمى عدم الشرعية، فيطلب أن يفرض على صاحب التشريع غرامة أو أن يحرم من حقوقه السياسية أو يعدم. وكانت هذه الطريقة التي تتبعها أثينا لمنع العجلة في التشريع. وكان لقرار عدم الشرعية هذا صيغة أخرى تجعل من حق الجمعية أن تعرض أي تشريع جديد قبل البت فيه على إحدى المحاكم لبحثه من الناحية الدستورية؛ أي من ناحية اتفاقه مع القوانين القائمة المعمول بها في البلاد. هذا إلى أنه كان على الجمعية قبل النظر في مشروع قانون أن تعرضه على مجلس الخمسمائة ليبحثه. ولم يكن من حق مجلس الخمسمائة أن يرفض الاقتراع رفضا باتا، بل كان كل ما يستطيعه أن يقدم تقريرا عنه مصحوبا بتوصية بقبوله أو غير مصحوب بها. (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 24)

وكان المعتاد، عزيزي الدارس، أن يفتتح رئيس الجمعية دور انعقادها بعرض تقرير عن مشروع مقدم لها. وكانت الجمعية تستمع إلى من يطلبون الكلام حسب سنهم، ولكن كان يجوز حرمان أي عضو من مخاطبة الجمعية اذا ثبت أنه لا يملك أرضا، أو

أنه غير متزوج زواجا شرعيا، أو أهمل في القيام بواجبه نحو أبويه، أو أساء إلى الأخلاق العامة، أو تهرب من القيام بالواجبات العسكرية، أو القى درعه في احدى المعارك الحربية، أو أنه مدين للدولة بضريبة أو غيرها من المال. غير أن الخطباء المدربين وحدهم هم الذين كانوا يستخدمون حق الكلام لأنه لم يكن من السهل جمل الجمعية على الاصغاء للمتكلمين. فقد كانت تضحك من الخطأ في نطق الألفاظ، وتحتج بصوت عال على الخروج عن موضوع النقاش؛ وتعبر عن مواقفها بالصراخ الشديد والصفير، والتصفيق باليدين، وعن عدم موافقتها التامة وإحداث جلبة شديدة تضطر المتكلم النزول عن المنصة. وكان يحدد لكل متكلم وقت معين لا يتجاوزه يقاس مداه بساعة مائية. وكانت طريقة الاقتراع هي رفع الأيدي، الا إذا كان للاقتراح المعروض أثر خاص مباشر في شخص ما، وفي هذه الحال يكون الاقتراع سريا. وكان من حق المقترع أن يؤيد تقرير المجلس على المشروع المعروض أو يعارضه أو يطلب تعديله، وكان قرار الجمعية هذا نهائيا. وكانت القرارات التي توجب العمل العاجل، وهي التي تختلف عن القوانين، تمر أسرع من القوانين الجديدة، ولكن هذه القرارات كان يمكن أيضا إلغاؤها بمثل هذه السرعة نفسها، فلا تتضمنها كتب القوانين الأثينية.

كان هناك، عزيزي الدارس، هيئة أعظم من الجمعية منزلة ولكنها أقل منها سلطانا، وهي هيئة المجلس المعروف باسم البول Boule. وكان البول في أصله مجلسا أعلي شبيها بمجالس الشيوخ في الحكومات النيابية. ولكن منزلته انحطت قبل عصر "بركليز" حتى أصبح لجنة تشريعية تابعة "للاكليزيا". وكان أعضاؤه يختارون بالقرعة وبالدور من سجل المواطنين، على أن يختار خمسون منهم عن كل قبيلة من القبائل العشر، وألا تطول مدة خدمتهم أكثر من سنة واحدة، وكان العضو في القرن الرابع يتقاضى خمس "أبولات" في كل يوم من أيام انعقاد المجلس. وكان من المقرر الا يعاد انتخاب أي عضو الا بعد أن تتاح لكل عضو اخر صالح للانتخاب فرصة العمل في المجلس، حيث أن كل مواطن في الظروف العادية، كان يجلس في البول دورة على الأقل في أثناء حياته. وكان يعقد جلساته في قاعة المجلس (البولتريون Bouleterion) في الجهة الجنوبية من ساحة المدينة، وكانت جلساته العادية علنية واختصاصاته تشريعية، وتنفيذية، واستشارية: فكان يفحص عن مشروعات القوانين المعروضة على الجمعية ويعد صياغتها، ويشرف على أعمال موظفي المدينة الدينيين والاداريين، ويراقب حساباتهم، ويشرف على الأموال والمشروعات والمباني العامة، ويصدر مراسيم تنفيذية حين يتطلب العمل اصدارها وتكون الجمعية غير منعقدة، ويسيطر على شؤون الدولة

الخارجية وعلى أن تراجع الجمعية أعماله من هذه الناحية فيما بعد. (انظر: ول ديورانت، ج 7، ص 25-26)

عزيزي الدارس، ولكي يؤدي المجلس هذه الواجبات المختلفة كان يقسم نفسه إلى عشر لجان تتألف كل منها من خمسين عضوا، وترأس كل لجنة المجلس والجمعية شهرا طوله ستة وثلاثون يوما. وكانت هذه اللجنة صاحبة الرياسة تختار في كل صباح عضوا من أعضائها ليكون رئيسا لها وللمجلس في ذلك اليوم، ومن ثم كان هذا المنصب وهو أعلى منصب في الدولة مفتوحا أمام كل مواطن حين يأتي دوره في القرعة، وكان لأثينة ثلثمائة من هؤلاء الرؤساء في العام. وكانت القرعة هي التي تحدد في آخر لحظة أية لجنة ترأس المجلس في أثناء الشهر، وأي عضو في اللجنة يرأسه في أثناء اليوم. وكان الأثينيون الفاسدون المرتشون يرجون أن يستطيعوا بهذه الطريقة أن يقللوا تطرق الفساد إلى العدالة إلى أصغر حد تستطيع الأخلاق البشرية أن تصل اليه. وكانت اللجنة ذات الرياسة تعد جدول الأعمال، وتدعو المجلس إلى الانعقاد، وتصوغ القرارات التي يصدرها المجلس في أثناء اليوم. وعلى هذا النحو كانت الديمقراطية الأثينية تؤدي وظائفها التشريعية عن طريق الجمعية والمجلس واللجنة. أما الاريويجوس فكانت اختصاصاته في القرن الخامس مقصورة علي النظر في قضايا الحريق العمد، والاغتصاب المتعمد، والتسميم والقتل مع سبق الاصرار. (انظر: ول ديورانت، ج 7، ص 26)

نشاط (4)



ارجع إلى كتاب ول ديورانت، قصة الحضارة الجزء السابع واقرأ منه حول موضوع المناقشات في الديمقراطية الأثينية، وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

تدريب (4)



ما هي الشروط الواجب توافرها في الناخب الأثيني؟

أسئلة التقويم الذاتي (4)



اكتب تقريرا تصف فيه الصراع المرير بين طبقتي الأجركية، والديمقراطية.

2.5 القوانين

عزيزي الدارس، كانت القوانين في نظر اليونان الأقدمين عـادات مقدسة ارتضتها الآلهـة وأوحت بها؛ فـالقوانين عندهم جـزء من الدين. ويبـدو أن المرحلة الثانيـة من مراحل تاريخ التـشريع اليوناني هي جمـع العادات المقدسة وتنسـيقها على يد مـشرعين أمثال زلوسوس Zaleucus وكروندداس Chronodas ودراكون Drakon وصولون So-loon وما أن دوّن مثل هؤلاء الرجـال قوانينهم الجديدة حتى أصبحت العـادات المقدسة قـوانين من وضع الانسان. وفي هذه الكتب الـقانونيـة تحرر القـانون من سيطرة دينيـة وازدادت على توالي الأيام صبغته الدنيوية.

أما الخطوة الثالثة في التشريع فكانت تتمثل بنمو الشرائع المضطرد وتجمعها. وهذا يستلزم وجود لجنة من مقرري القوانين لتقرر أي القوانين يجب الابقاء عليها وأيها يجب الغاؤه. وكان يعـيّن في مثل هذه الحال محـامون يدافعون عن القوانـين القديمة ضد من يقترحون الغاءها. وبعد؛ فقد نقشت شرائع اثينية باشراف اولئك المقررين على الواح من الحجارة في "باب الملك" بعد أن صيغت في عبارات بسيطة سهلة الفهم، وبهذا لم يكن يسمح لأي حاكم أن يفـصل في مسألة ما بالاستناد إلى قانون غـير مكتوب. (انظر ول ديورانت ج 7، ص 28)

عـزيزي الدارس، لم يكن التـشريع الاثينـي يفرق بين القـانون المدني والقـانون الجنائي الا انه كان يحـتفظ للأريوبجوس بـحق الفصل في جرائم القـتل، وفي أن نترك للمدعي في القضايا المدنية أن يتولى بنفسه تنفـيذ قرار المحكمة. فلا تتقدم الدولة لمعونته الا اذا لقي في هذا التنفيذ مقاومة. (انظر ول ديورانت ج 7، ص 28)

كان القتل قليل الحدوث لأنه خطيئة دينيـة وجريمة قانونية في آن واحد. وقد بقي القصاص المبـاشر حتى القرن الخامس قـبل الميلاد مباحا في احـوال خاصة؛ فكان يحق للرجل اذا وجد أمه أو زوجتـه أو محظيته، أو أخته، أو ابنته ترتكب الفـحشاء ان يقتل ذلك الرجل الذي معها فورا.

أما التكفيـر عن جريمة القتل سواء أكانت بقـصد أم بغير قصـد فكان ذلك واجباً لأنها تدنيس لأرض المدينة، أما مراسم التطهير فكانت مـعقدة صارمة. واذا ما عفي عن القاتل فـلا يجوز تقديمه لـلمحاكـمة. وللنظر في جرائم القـتل ثلاث محـاكم تختلف باختلاف طبيعة القـتيل وأصله، واختلاف نوع الجريمة: أمتعمدة كانت أم غـير متعمدة، وهل هي مما يجوز التسـامح فيه ام لا. وكانت هناك محكمة رابعة تـنعقد في "فريتس"

على الساحل لتحاكم الذين نفوا من قبل لارتكابهم جريمة القتل الخطأ، ثم اتهموا بعد ذلك بجريمة القتل المتعمد؛ ذلك أنهم وقد دُنِسوا بارتكاب الجريمة الأولى لا يسمح لهم بأن تطأ أقدامهم أرض "اتكا"، ولهذا يدافع عنهم المدافعون وهم في قارب بجوار شاطيء البحر. (انظر: ول ديورانت، ج 7، ص 29)

عزيزي الدارس، أما قانون الملكية لدى الاثينيين فكان صارما لا هواده فيه، وكان كبير الاركونين حين يتولى منصبه في كل عام يكلف مناديا بأن يؤذن في الناس أن «كل مالك سيبقي له ما يملك وسيظل صاحبه هو المتصرف المطلق فيه». وكان حق الوصية مقيدٌ بقيود شديدة. فالفكرة الدينية تحتم انتقال الأملاك إلى أبناء المالك الذكور بعد وفاته. حيث ينال أكبرهم سنا نصيبا أكبر بعض الشيء من سائر الورثة. ولم يكن للأرملة أن ترث ملك زوجها، بل كان جل ما تناله أن تسترد بائنتها. (انظر ول ديورانت ج 7، ص 30)



نشاط (5)

ارجع إلى كتاب ول ديورانت قصة الحضارة ج 7 واكتب تقريرا عن القانون الاثيني.



تدريب (5)

تحدث عن مراحل تشريع القانون الأثيني؟



أسئلة التقويم الذاتي (5)

تحدث عن وضع جريمة القتل في القانون الأثيني.

3.5 القضاء

كانت «الهيله» القاعة (المكان الذي تجتمع فيه المحاكم) تتألف من ستة آلاف محلف يُختارون بالقرعة من سجل المواطنين، وكان هؤلاء يوزعون على عشرة سجلات يحتوي كل سجل منها على خمسمائة اسم تقريبا، ويترك الباقون للمناصب التي تخلو أو للظروف العاجلة الطارئة. وكانت القضايا الصغرى أو المحلية يفصل يها ثلاثون محلفا

يزورون مقاطعات "أتيكا" في مواسم معينة. والملاحظ - عزيزي الدارس - انه اذا كان كل محلف لا يبقي في منصبه أكثر من عام واحد في كل مرة، وكان الانتخاب لهذه المناصب بالدور، فقد كان كل مواطن تتاح له الفرصة في الغالب لان يكون محلفا مرة في كل ثلاث سنين. ولم يكن مفروضا عليه أن يؤدي هذا العمل، وكان الاجر المقرر له وهو "اوبلتان" ثم ثلاث "اوبلات" فيما بعد كل يوم، يجتذب له نحو مائتي محلف أو ثلاثمائة في كل دور. أما القضايا الكبرى كقضية سقراط مثلا فكانت تنظر فيها محاكم ضخمة مؤلفة من الف ومائتي رجل. ومن أجل محاربة الرشوة والفساد في القضاء كان اعضاء المحكمة الذين يوكل اليهم النظر في قضية ما يختارون بطريقة القرعة في آخر لحظة، وإذا لاحظنا ان معظم القضايا لا يطول النظر فيها لاكثر من يوم واحد، وجدنا اننا لا نسمع كثيرا عن الرشوة في المحاكم، ذلك انه من الصعب رشوة ثلاثمائة رجل في لحظة واحدة. (انظر ول ديورانت، ص 30-31)

عزيزي الدارس، وشأن المحاكم الاثينية شأن بقيتها في جميع انحاء العالم، اذ كانت تتراكم القضايا لديهم، ويبدو أن سبب ذلك ان الاثينيين كانوا كثيري التقاضي. ومن أجل الحد من هذا كان يختار محكمين بطريق القرعة من بين سجلات اسماء المواطنين الذين بلغوا سن الستين، وكان كل طرف من الاطراف المتنازعة يؤدي إلى هؤلاء المحكمين أجرا قليلا، وان استعصى حل القضية من قبل هؤلاء المحكمين فصل في النزاع بعد حلف اليمين، وكان لكلا الطرفين بعدئذ الحقّ ان يستأنف الحكم إلى المحاكم، وفي هذه الحالة يكتب كلا الطرفين حجته ويقسم اليمين على صحة ذلك، وكذلك الشهود يتوجب عليهم كتابة شهاداتهم ويقسموا بأنهم صادقون، ثم تقدم كل هذه الاقوال مكتوبة إلى المحكمة. وكانت توضع في صندوق خاص وتُختم، ويفتح الصندوق بعد وقت ما وتبحث القضية، وتصدر الحكم فيها هيئة تُختار بالقرعة. ولم يكن لدى الاثيني مدع عام؛ اذ كانت الحكومة تعتمد على المواطنين أن يتهموا أمام المحاكم كل من يرتكب جريمة خطيرة ضد الأخلاق العامة أو الدولة. ومن هنا نشأت طائفة من "النمامين" ديدينهم اتهام الناس، وقد تطورت مهنتهم هذه على ايديهم حتى اصبحت فنا من فنون اغتصاب اموال الناس لكفٍّ الاذى عنهم وبخاصة الاغنياء منهم انظر عزيزي الدارس إلى قول كريتو Crito أحد اصدقاء سقراط الاغنياء.

«يوجد في هذا الوقت بالذات أناس يرفعون قضايا علي، وليس ذلك لاني ظلمتهم، بل لانهم يظنون اني أفضل أداء مبلغ من المال لهم عن تحمل الاجراءات القانونية». (انظر ول ديورانت ج 7، ص 32)

عزيزي الدارس، وكانت نفقات المحاكم تغطيها في الغالب الغرامات التي تفرض على من يدانون من المتقاضين، كذلك كان يحكم بالغرامة على من يعجزون من المدعين عن اثبات ما يوجهون من التهم إلى خصومهم، فإن لم ينالوا صوت خمسة على الاقل من أصوات القضاة كانوا عرضة لان يُحكم عليهم بالضرب بالسياط أو بغرامة كبيرة تبلغ الف دراخمة وكان كل طرف من المتقاضين يدافع بنفسه عن قضيته، وعليه ان يعرض بنفسه قضيته للمرة الأولى. وبعد أن تعقدت الاجراءات القضائية، وتبين المتقاضون تأثير القضاة بعض الشيء ببلاغة الالفاظ، نشأت عادة استخدام خطيب أو رجل بليغ متضلع بالقانون، يؤيد المدعي أو المدعى عليه، ويبدو أنه من هنا نشأ المحامون. واليك عزيزي الدارس عبارة في اقوال ديوجين ليريتوس Diogenes Laerttius نتبين فيها قدم المحاماه في بلاد اليونان مفادها:

«ان باياس Bias، حكيم بريني Priene كان محاميا بليغا في القضايا، وانه كان على الدوام يحتفظ بمواهبه لمن كان الحق في جانبه، وكانت المحاكم تستخدم بعض هؤلاء المحامين ليشرحوا لها القانون. وذلك ان الكثيرين من القضاة لم يكونوا اكثر علما بالقانون من المتقاضين انفسهم». (انظر ول ديورانت ج 7، ص 32)

وكانت الادلة تقدم عادة مكتوبة، ولكن كان على الشاهد أن يحضر بنفسه ويقسم بأن ما يشهد به صحيح دقيق حين يتلو كاتب الجلسة شهادته على القضاة. ولم يكن الشهود يناقشون، وكانت شهادات الزور كثيرة إلى الحد الذي يجعل المحكمة في بعض الاحيان تقضي بما يناقض الشهادة التي أقسم الشاهد على صدقها. ولم تكن شهادة القاصرين والنساء تُقبل الا في قضايا القتل، اما الأرقاء فلم تكن تقبل شهادتهم الا اذا انتزعت منهم بالتعذيب. ولعلك تسأل - عزيزي الدارس - عن سبب ذلك، وللاجابة اقول إن الأثينيين كانوا يسلّمون بأن الارقاء سيكذبون اذا نَجوا من التعذيب، وتلك وصمة عار في جبين الشرائع اليونانية.

أما العقوبات المقررة فهي: الضرب، والغرامة، والحرمان من الحقوق السياسية، والكي بالنار، ومصاردة الاموال، والنفي، والاعدام وقلما كان المذنبون يعاقبون بالسجن. وكان من المباديء المقررة في القانون اليوناني ان يعاقب العبد في جسمه، وان يعاقب الحر في ماله (انظر ول ديورانت ج 7، ص 33). وكانت الغرامات هي العقوبة التي تفرض عادة على المواطنين. وكان القتل، وانتهاك حرمة المعابد وخيانة الوطن مثلا يعاقب عليها بمصادرة الاموال والاعدام معا، غير ان بالامكان تجنب الحكم بالاعدام قبل صدوره، بالنفي الاختياري وترك الاملاك.

ولعلك تود - عـزيزي الدارس - معـرفة طرق الاعدام لـديهم، لقد كـان يقدم عصير "الشوكران" إلى المحكوم عليه بالاعـدام، وهذا عقار يخدّر الجسم تدريجياً ابتداء من القدمين إلى اعلى اجزاء الجسم، ثم يقضي على من يتعاطاه حين يصل إلى قلبه. اما الارقاء فقـد كانت عقوبة الاعـدام تنفذ فيهم احـيانا بالضرب الوحشـي، وكان يحدث احيانا ان يلقى المحكوم عليه قـبل اعدامه او بعد ذلك من فوق صخرة عـالية إلى حفرة تعرف عندهم باسم "البرثرون" Barathron واذا ما صدر حكم باعدام قاتل نفذ الحكمُ بحضور اقارب المقتول وذلك استجابة لعادة الانتقام.

عزيزي الدارس، ان الشرائع الاثنينة لا تسمو كثيـرا عن شرائع حمورابي، وعيبها الاساسي انهـا تقصر الحـقوق القانونيـة على الاحرار الذين لا يكادون يتجـاوزون سبع السكان، وحتي النسـاء والاطفال كانوا خـارجين عن نطاق المواطنين اصحاب الحـقوق. ولم يكن في وسع النزلاء، او الاجانب، او الارقاء ان يرفـعوا الدعاوي إلى المحاكم الا عن طريق مواطن يأخذهم في كنفه.

لقد كان ابتزاز المال بطريق الارهاب، وتعـذيب الذكور المتكرر، والحكم بالاعدام في كثير من الجرائم الصغرى، والشتائم الشخصية في المناقشات القضائية، وتشتت التبعة القضائية واضعافها بسبب هـذا التشتت، وتأثر المحلفين بالبلاغة الخطابية، وعجزهم عن الحد من انفعال الساعة بعلمهم بما في القضية وتقديرهم الحكيم لنتائجها المقبلة، كان هذا كله وصمة لنظام أثنية القضاء، الذي كانت تحـسدها عليه سائر بلاد اليونان للينه وعدالته اذا قيس بغيره من النظم القضائية، والذي كـان نظاما عمليا موثوقا به إلى حد أمكنة أن يبـسط حمايـته على الحـياة وعلي الامـلاك، وهي الحمـاية التي لا غنى عنها للنـشاط الاقتـصادي والرقي الاخلاقـي، وفي وُسْعِنا ان نقدر مـا كان للقانـون الاثيني من شأن عظيم اذ عرفنا ما كان يشعر به كل اثيني تقـريبا من احترام عظيم له، اذ كان القانون في اعتقادهم هو روح المدينة، ومصدر سعادتها وقوتها، وخير ما تحكم به على شرائع اثينية هو تهـافت غيرهـا من دول اليونان على اسـتعـارة الجزء الاكبـر منها وفي ذلـك يقول ايسقراط Iscorates "ليس ثمة من ينكر ان شـرائعنا مصدر كـثير من الخـير العظيم في حياة البشرية".

ويجدر بك - عزيزي الدارس - أن تسأل عن طبيـعة القانون الذي كان يحكم به خارج حـدود المدينة الأولى؛ أي من شأن الـتجارة والتـجار حـيث يتطلب ذلك بعض الانظمة القانونية. ان هذا يمكن أن نجيب عنه من قـول «دمستين» بان المعاهدات التجارية قد بلغت في أيامـه درجة من الكثرة أصبحت مـعها القوانين التي تخـضع لها المنازعات

التجارية "واحدة في كل مكان". وكانت هذه المعـاهدات تنص على التمثيل القنصلي، وتضمن تنفيذ العقود، وتجعل الاحكام الصادرة في احدى الدول الموقعة على المعاهدة في سائر الدول الموقعة عليها. على أن هذا لم يقض على القـرصنة، فقد كانت تنتشر اذا ما ضعف الاسطول المسـيطر على البحار، او حصل تَراخٍ في مـراقبتها، ولـقد كانت هذه اليقظة الخارجيـة الثمن الذي يشتري به الاهلون الامن والنظام والحرية جميـعها. وكانت بعض الدول اليونانية ترى أن من حق المدينة ان توجه الحمـلات لتنتهب املاك غيرها من المدن واهليها، اذا لم تكن ثمـة معاهدة تنص صراحة على تحـريم هذه الحملات. (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 35)

أما عن وضع القوانين الحربية، فكانت الأسلحة المسمومة لا تستعمل بحكم العادة المألوفة، وكان الاسـري عادة يتبادلون أو يفـتدون، وكان الفداء المعتـرف به مينائين، ثم اصبح ميناء واحداً (مـبلغاً من النقود) لكل اسير، وكانت المعاهدات كثـيرة العدد، وكان المتعـاهدون يقسمون الايمان المغـلظة على احترام نصوصـها، ولكنها كـانت تخرق على الدوام تقريبا، وكانت المخـالفات كثيرة، وكانت تؤدي احيـانا إلى ايجاد أحلاف دائمة. ولـم يكن اليوناني يشـعر باي التزام أدبي نحو الاجانب أو بأي التـزام قانوني الا اذا كان بلداهما مرتبطين بمعـاهدة، وكان هؤلاء في عرفه برابرة أي أجانب يتكلمـون لغة غريبه عنه. (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 36)



نشاط (6)

اكتب تقريرا عن حياة سقراط وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (6)

ماذا كان يفعل الاثينون لمحاربة الرشوة في القضاء؟



أسئلة التقويم الذاتي (6)

اكتب تقريرا عن التحكيم في المحاكم الأثينية.

4.5 النظام الاداري

الاركون، عـزيزي الدارس، واحد فـي هيئة الاركـونون تشتـرك مع غيـرها في

تصـريف شـوون المدينة الادارية ويبـدو أنه ومنذ عـام 487 ق.م حلت القـرعة مـحل الانتـخاب في اخـتيار الاركـونين، ذلك في مـحاولة من "الاثينيين" لمنع الاغنيـاء من الوصـول بأموالهم إلى هذا المنصب، وكـذلك منع السـفلة من الوصول اليـه عن طريق التملق. ومع ذلك كـان يفرض على جمـيع من تقع عليهم القرعـة ان يجتازوا امتـحانا صارما في الاخلاق امام المجلـس أو المحاكم، وكان على الطالب ان يثبت أنه من أبوين اثينيين، وانه سليم من الـعيـوب الجسـميـة والخلقيـة، يكرم اسـلافه ويقـوم بواجبـاته العسكرية، ويؤدي الضرائب كـاملة. وكانت حياته كلها في هذه المناسبـة عرضة للاتهام من أي مواطن. ان هذا كله كان يرهب ادنياء الناس غير الجديرين بهذا المنصب.

واذا اجتاز الاركون هذا الاخـتبار كان عليه أن يقسم بانه سيضطلع بأعـباء منصبه على خير وجه، وبأنه سـيقدم للآلهة تمثالا من الذهب بالحجم الطـبيعي اذا قبل هدية أو رشوة من احد، وكـان اذا انتهت مدة توليـه منصبه بحثت أعـماله الرسمية، وحـساباته ووثائقه لجنة من المحاسبين مسؤولة أمام المجلس، وكان معرضا لأشد العقاب، الذي كان يصل احيانا إلى الاعدام، اذا تبين انه اساء العمـل أيام توليه منصبه، اما إذا نجا من ذلك فانه يصبح بعد انتهاء العام الذي تولي فيه منصبه عضوا في "الاريوبجوس".

كان يقـوم على تصـريف شؤون المدينة الادارية هيـئات كـثيـرة إلى جانب هيـئة الاركونون، ويذكر ارسطاليـس خمسا وعشريـن من هذه الهيئات المختلفـة، ويقدر عدد الموظفين الاداريين في المدينة بسبعـمائة موظف، يختار كل منهم بطريقـة القرعة في كل عام، ولم يكن في وسع أي انسان أن يكون عضوا في لجنة بعـينها أكثر من مرة واحدة. (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 38)

أما المناصب العـسكرية فكانت أكثر اهـمية في نظرهم من المناصب المدنيـة وكان القواد Strategoi العشرة يختارون بالانتخاب العلنـي في الجمعية مع انهم لا يبقون في عملهم اكثر من عام واحد، وكانوا عرضة لان يفحص عن اعمالهم ويعزلو من مناصبهم في أي وقت من الاوقـات. والملاحظ - عزيزي الدارس - ان مـهام القـواد قد ازدادت بازدياد العلاقات الدولية، حتى اصبحوا في اوائل القرن الخامس لا يشرفون على شوون الجيش والاسطول فحسب، بل صاروا هم الذين يفاوضون الدول الاجنبية ويشرفون على ايرادات المدينة ونفـقـاتها. ومن هـنا كان القـائد الاعلى المعـروف باسم الاسـترتجـوس اوتوكراتور Strategos Autokrator أقوى رجال الحكومة.

وكانت الخدمة في الجيش ملازمـة لحق الانتخاب، حيث كان على كل مواطن ان يعمل في الجيش، ومعرضا - وحتى السـتين من عمره - لان يجند للقتال في أية حرب

تحدث. غير أنه لا يمكن القول ان الحياة الاثينية كانت حياة عسكرية؛ فلم يكن هناك تدريب عسكري يستحق الذكر بعد فترة التدريب الاولى ولم يكن الجيش يتدخل في اعمال السكان المدنيين، وكان الجيش في المدينة يتألف من فرق المشاه الخفيفة، وكانت أكثريتهم من المواطنين الفقراء الذين يحملون الرماح والمقاليع. اما فرق المشاه الثقيلة فكانت تتألف من المواطنين الاغنياء الذين تمكنهم مواردهم من شراء الدروع والتروس والحراب، ومن فرق الفرسان وتتألف من كبار الأغنياء ذوي الدروع والخوذ، حملة الرماح والسيوف.

عزيزي الدارس، وما دمنا في معرض الحديث عن العسكرية الاثينية، اود أن أعرض لك ان الحرب والقتال لحظة جنون في تاريخ البشرية مصيره القضاء على أنظمة الحضارة، غير أننا لا نستطيع القول أن لدى أثينا انذاك ما يسمى بعلم الحرب أو معرفة بفنونها وحركاتها العسكرية. ولعل ما أحرزوه من انتصارات عسكرية مجيدة راجع إلى انهم جمعوا إلى الطاعة في الميدان المحافظة الشديدة على الاستقلال في الشؤون المدنية. وكان الدفاع عندهم اعظم اثر من الهجوم، ولولا هذا لما كان لهم حضارة يسجلونها.

أما الاسطول لديهم، فكانت طريقة الاحتفاظ به ان يختار في كل عام اربعمائة من الاغنياء امتيازهم الخاص ان يجندوا بحارة السفن، ويهيئوا السفينة ذات ثلاثة الصفوف من المجاديف بما يلزمها من أدوات تقدمها لهم الدولة، على أن يؤدوا هم نفقات بنائها وانزالها في البحر والمحافظة عليها من العطب، وبهذه الطريقة كانت تحتفظ اثينا وقت السلم بأسطول مؤلف من نحو ستين سفينة. (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 40)

لقد كانت نفقات الجيش والأسطول تستنفد الجزء الأكبر من مصروفات الدولة، أما مصادر الايرادات فكانت هي المكوس، وعوائد المرافيء، وضريبة مقدارها اثنان في المائة على الواردات والصادرات، وضريبة الفرضة ومقدارها اثنتا عشرة درخمة على كل فرد من الاجانب، ونصف درخمة على كل معتوق ورقيق، وضريبة العاهرات، وضريبة البيوع، والرخص، والغرامات، والاملاك المصادرة، والجزية التي تؤديها الولايات، وقد الغت الديمقراطية الضريبة التي كانت مفروضة من قبل على الحاصلات الزراعية. وكانت جباية معظم الضرائب يناط بها الملتزمون يجمعونها لحساب الدولة ويحتفظون لانفسهم بنصيب منها وكانت الدولة تحصل على ايراد كبير من استغلال موارد البلاد المعدنية. وكانت في أثناء الازمات تجبي ضريبة على رؤوس الأموال تختلف نسبتها باختلاف الاملاك. كذلك كان الاغنياء يدعون لأداء بعض الخدمات العامة كتقديم ما يلزم من

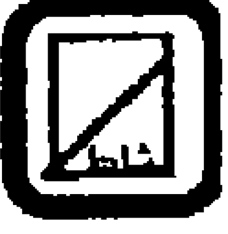
المعدات للسفراء الذاهبين في مهام إلى خارج البلاد، واعداد بعض السفن للاسطول، أو اداء نفقات المسرحيات، أو المباريات الموسيقية، والالعاب، وكان بعض الاغنياء يتطوعون لاداء هذه الخدمات ويلزم الرأي العام غيرهم بأدائها. وكان مما يضاعف متاعب الاغنياء أنه كان في وسع أي مواطن يطلب اليه اداء احدى هذه الخدمات العامة ان يفرضها هو نفسه على أي مواطن آخر أو أن يستبدل بها فريضته اذا اثبت ان هذا المواطن الآخر أغنى منه.

وبمقابلة الايرادات بالمصروفات يظهر ان احتياطيا من المال كانت المدن تودعه عادة في هيكل المدينة، حيث أودعت اثينا هذا الاحتياطي بعد عام 434 ق.م. في "البارثينون" وكان للدولة حق الانتفاع بهذا الاحتياطي. ويذهب التماثيل التي لا تقيمها لآلهتها. وكانت المدينة تحتفظ في الهيكل ايضا بالمال الذي تؤديه للمواطنين ليشاهدوا المسرحيات والالعاب المقدسة.

عزيزي الدارس، ان خلاصة ما يقال في الديمقراطية الاثينية: أنها أضيق الديمقراطيات وأكملها في التاريخ. أضيقها لقلة عدد من يشتركون في امتيازاتها، وأكملها لانها تتيح لجميع المواطنين على قدم المساواة فرصة السيطرة بأنفسهم على التشريع وتصريف الشؤون الادارية. غير أن في هذه الديمقراطية عيوبا، منها قصر السلطة التشريعية على الذين يستطيعون حضور الاكليزيا، وتشجيع الزعماء المهرجين، ونفي القادرين من الرجال نفيا أفقد المدينة عددا كبيرا من خيرة كبرائها، وملء المناصب العامة بالقرعة والدور، وتغيير الموظفين في كل عام، واشاعة الفوضى في الادارة الحكومية، ومنها نزاع الاحزاب الذي لم ينفك يحدث الارتباك في توجيه أعمال الدولة وشؤونها الادارية.

وليس هناك، عزيزي الدارس، شيء كامل، ولعل هذه الديمقراطية بما فيها استطاعت ان تطلق تلك الطاقة التي رفعت الامة الاثينية إلى أسمى مقام بلغته أمة أخرى في التاريخ، ذلك أن الحياة السياسية، داخل نطاق المواطنين، لم تبلغ قبل ذلك العهد أو بعده، ما بلغته فيه من القوة والابتكار، وأقل ما يقال في هذه الديمقراطية انها كانت مدرسة: لقد كان المقترع في الجمعية يستمع إلى أقدر الرجال في أثينا، وكان ذهن القاضي في المحكمة يشحذ باطلاعه على الادلة ووزنها واستخراج سمينها من غثها، وكان يشكل الموظف بما يُلقى عليه من تبعة وما يكسبه من تجارب. فينضج عقله وفهمه وقدرته على الحكمة. وفي هذا يقول سمنيدس: "ان المدينة معلمة الرجال". (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 43)

ولم تكن هذه الديمقراطية الارستقراطية نظامـا يفسح الطريق لكل انسان ليفعل ما يحلو له، كما انها لم تكن رقيبا عتـيدا على الاملاك والنظام فحسب، بل كانت تشجع بالمال المسرحيات اليـونانية وتشيد البارثنون، وتعمل لرفاهيـة الشعب وتقدمه، وتهيء له الفرص التي لا تمكنه من أن يعيش فحسب، بل تمكنه من أن يعيش على خير وجه.



نشاط (7)

ارجع إلى كتاب ول ديورانت قصة الحـضارة، واكتب تقريرا عن ايرادات اثينا في القرن 5 ق.م.



تدريب (7)

من كان يقوم بتصريف شؤون المدينة في النظام الاداري الاثيني؟



أسئلة التقويم الذاتي (7)

تحدث عن الحياة العسكرية في أثينا في القرن 5 ق.م.

6. المسرح اليوناني

عرف الشعر المسـرحي، عزيزي الدارس، أروع روائعه في أثينا، تلك المدينة التي أعطت المثل في الديمقـراطية والتي لم تتفـوق عليها ايـة مدينة اخرى في رونق الاعـياد الدينية. والتي من بينها أعياد "ديونيسوس"، التي تميزت بالتمثيل المسرحي حيث المسرح الذي ترتاده الجماهير بما فيهم الفقراء الذين كانت الدولة تدفع لهم رسوم الدخول.

والسـؤال المطروح هـنا لماذا كل هذا الاهتـمـام من جـانب الـدولة في المسـرح؟ وللاجابة أقـول أن الدولة - ربما - أرادت بهذا تجمـيل الحياة عن طريق السـمو بالافكار وفاقـا لحلم رجال الدولة الديمقـراطيين أنئذ؛ فـهي تريد جمع الشـعب بأكمله وتحـريكه بمشهد واحـد يثير فيه الضـحك أو القشعريرة من هول المأساة، ووضـعه، بشكل جذاب حي، أمام مشاكل هو مدعو للتفكير بها في مكان آخر غير الجمعية السياسية. ولعل هذا كله ما يفسـر لنا ضخامة التحديات الماليـة التي فرضتها هذه الاعياد على الخـزينة العامة

وعلى المواطنين الاغنياء والمنوط بهم انتقاء الجوقات واكساؤها، وتدريبها، وهذا ما يفسر كذلك تزايد نجاح عدد التمثيليات. وهو بالتالي يفسر لنا مجد المسرح الاثيني الذي بقي زمنا طويلا دون منافس، يشكل إشعاعا حضاريا، ينطلق من مركز الحضارة، مدينة الالهة (اثينا).

عزيزي الدارس، ومما لا شك فيه أن المسرح نتاج أدبي، غير انه يستلزم موجبات فنية مادية ايضا تتعقد يوما بعد يوم. فقد كان المسرح في القرن الخامس ق.م مجرد صقالة خشبية تقام لأيام معدودة، ثم اتخذ في القرن الرابع ق.م وفي كل مكان، شكل البناء الحجري الثابت، وحتى الرخامي في بعض اجزائه، واعد لاستقبال الوف المشاهدين وكان يجهز لهذه الغاية منحدر احدى التلال، ويجري التمثيل في الهواء الطلق. غير أن الملاحظ في المسرح انه لم يكن مجهزا بوسائل الراحة التي كان من الضروري توفيرها، اذ ان الجلوس على دكات «غير مريحة»، دون وقاية من الحر والمطر، سحابة عشر ساعات في اليوم لمدة ثلاثة أيام كان يقتضي جلدا عظيما.

لقد حاول المخرجون، في مكان التمثيل، ايجاد الصورة الخادعة بالتزيين المصور الجزئي وبتحسين الادوات المبتكرة التي كانت بدائية جدا. وكانت الجوقة التي تجول في القسم المستدير من المسرح امام الدكات، موزنة المقاطع الايقاعية، اكبر عناصر الفرقة عددا 12، ثم 15 للمأساة، و 24 للمهزلة. ولكن اهميتها تتدنى، لان عدد الممثلين يرتفع بسرعة، منذ اواسط القرن الخامس، من واحد إلى ثلاثة: وبعد أن كان الممثل مجرد "مجيب" على الجوقة، اصبح بذلك شخصا يقابل اشخاصا سواه، كما ان الرواية دبت فيها الحياة بفعل التمثيل المباشر وتصادم الآراء وتعاقب الاسئلة والاجوبة السريعة. (انظر تاريخ الحضارات العام، المجلد العام، ص 394)

ان هذه التغيرات لم تحل دور استمرار مصطلحات مرتبطة بنشأة المسرح وظروفه المادية على السواء، فنحن لا نعلم لماذا توجب على كل مؤلف، في مباراة المآسي، تقديم ثلاث روايات فاجعة كان من الضروري، لمدة قصيرة، ان تؤلف كلا واحدا، ولكن الرغبة في ان يكون "لديونيسوس" نصيبه من التمثيليات المعدة لاعياد فرضت على المؤلف ان يرفق هذه الروايات الثلاث ب (مأساة - مهزلة) مكرسة لاحد احداث اسطورة الآلهة. ولنضف إلى ذلك مثلا آخر هو تقنع الممثلين. فعند الشعوب المختلفة، وحتى في ايامنا، (عند الشعوب البدائية)، درج استعمال القناع في الاعياد الدينية او استعيض عنه باعتماد الملونات المختلفة على الوجه. ان القناع ينزع من الممثل شخصيته وفرديته وينتزعه من الواقع اليومي ويرفعه إلى مرتبة المثال العام، ويسهل الأيهام الذي يتيح له لعب أدوار مختلفة في التمثيلية الواحدة، أو لعب دور ليس هو بفطرته مُعَداً له

كـدور الاله أو البطل أو المرأة، اذ أن العـادات لا تجيـز للمـرأة مثـل هذا العرض أمـام الجماهير. أضف إلى ذلك ان القناع يضخم الصوت ويجعله أكثر جلاء لجمهور غفير.

عزيزي الدارس، إن المسرح اليـوناني لا يتجلى بكل معانيه الا إذا أعـيد إلى جوه الديني والاخلاقي وحتى السياسي، ووضع في اطاره المادي، غير انه يرتفع، اذ ذاك، لا سيما المأساة إلى مستوى القيم الجامعة والخالدة.

ويعود الفضل في ذلك إلى مؤلفي المآسي في القرن الخامس قبل الميلاد، فبفضلهم ادى المسرح قسطـه الرئيس في مهمة التـربية الفكرية والاخلاقيـة التي استلزمها مـفهوم الديمقراطية. لقد اقـتبس هؤلاء مواضيعهم، على العموم، من الاسطـورة الخرافية، وقد نلمس عند بعضهم، لا سيما في البداية، ميلا إلى مـعالجة الاحداث قريبة العهد، فعلى سبيل المثال نجد ان الشاعر المسرحي "اسشـيل" في روايته "الفرس" يستعيد، بعد ثماني سنوات، معركة "سلامين" التي اشترك فيها كما اشترك في معركة "ماراثون" حيث قتل اخوه.

ان هذا الميل، والذي كان من العـسير جدا ان يأتلف مع مـيزة التمثـيل المسرحي والفكرة الدينيـة فيـه، لم يحرز الغـلبة، ولم يلبث ان انتـهى إلى الزوال. وقد وفـرت العقيدة الخـرافية، على كل حال، بما يتخللها من فـوارق كثيرة يختار الشاعـر فيها بملء حريته، ينابيع حـية لا تحصى للالهام الشخـصي وللتسيير الشخـصي ايضا. فالاسطورة الواحدة. كاسطورة "اورستس" مثلا، تتناولها على التـوالي المعالجات الكثيرة المختلفة، فتثار حولها مناقشات هي أبعد من ان تنتهـي بتوحيد وجهات النظر المختلفة. وتعبر هذه الخوارق، شأن ميزة الشعـراء الفردية، عن التطور الفكري والاخلاقي السريع الذي طبع الاجيال اللاحقة. (انظر تاريخ الحضارات العام، المجلد الأول، ص 395)

وبالمقابل نجد ان الأمـور تتبدل مع "سوفوكليـز"؛ فهو لا يهمل شيـئا من التدين التقليـدي، ولكنه لا يحتفـظ في مآسيه بـالمركز الاول للالهة. فـالقدر عنده يبقى سـيد الانسان ويفـرض عليه الانقيـاد الدائم، لا بل الذل نفيه امـام فساداته القـصوى. ولكن القدر يصبح اقل ظهورا وتضيـيقا، واكثر انفتاحا في الوقت نفـسه، على مفاهيم العدل والمسؤوليـة. اضف إلى ذلك ان ما اورده "سوفلكيـز" في مأساة "انتيـغون" لم يورده عبثا: "هنالك اشياء مدهشة كثيرة، ولكن واحدا منها لا يوازي الانسان".

اذ ان سيكولوجيـته تتعمق في الاستـقصاء وتتنوع متدرجـة من العنف الحاد حتى ارفع العواطف رقة. وبدلا من ان يتـصلب الاشخاص عنده في مخالفة بعـضهم بعضا، شأنهم عند "اسشيل"، فانهم قد اخذوا شيئا فشيئا بتقديم البراهين والحجج، رغبة منهم

في التعريف عن انفسهم تعريفا أكثر مرونة وفي إبعاد التهم الملصقة بهم. ومن حيث أن "اسشتيل" عاصر "بريكليس" فـانه يدخل على لاهوته خبرة اوسع تنوعا وارفع انسانية وينقل في الوقت نفسه إلى الشعر فن "فيدياس" المتميز بالجلال والبساطة معا.

ثم يبرز، "اوريبيـد" الذي يفصله عن "سوفـوكليز" فَرْق خمس عـشرة سنة في السن فقط، الذي مـثلت أعماله ثورة فكرية، فـهو أي اوريبدس لا يتردد في الانتـقاض بصراحـة على الاعتقـادات القديمة وفي انتـقاد التقـاليد المستـجدة أو المنافيـة للاخلاق. فليست الاسطورة في نظره سوى حجـة فقط وتقتصر الرواية المستندة اليهـا على مستوى الحياة العائلية. لقد تمتع ادريبدس بمَخيِّلَة خصـيبة وبإحياء فائق ا لحدة ففي اشد الظروف عنفا ادهش وهز مشاهدي هذه المآسي الّتي أصبحت مآسي بروجوازية أو أوريفيه أحيانا، فقد يحدث في مسرحياته ان يسمو أحقر الناس، ويصبح أكثر نبلا وفضيلة، من الابطال والبطلات الذين تحركهم بالمـقابلة الاهواء البشرية والضعف البـشري. فالملاحظ ان اطار رواية "اليكترا" ليس قصر ارغوي الملكي، بل قرية وضيـعة في "الارغوليد" تكون فيها ابنة اغامنون زوجة لفـلاح غفل (بسيط) هو نفســه الذي يتجه اليه عطف الشاعـر. كما ذهب اورميـدوس إلى ابعد من هذا، فهـو يسلم بالمناقشات الفلسـفية الكبـرى، وحتى بعض المعاضل السيـاسية الراهنة، مضطرا احـيانا لايقاف سير احـداث الرواية، ومبرهناً على الدوام عن بصيرة دقيقة اخذت بمجامـع قلوب الهواة انفسهم، ويقال ان سقراط قد داوم على حـضور كـافة تمثـيليات اوريـيدوس. (انظر تاريخ الحـضارات العـام، المجلد الأول، ص 396)

عزيزي الدارس، أما ان سألتني عن المهزلة (الكـوميديا) عند الأثينيين، فأقول لك ان شأنها كشأن المأسـاة ولدت من ظرف اعياد "ديونيسيوس" نفسها غيـر انها استهدفت اثارة الضحك، ولذلك نرى انها نعمت بحرية اوسع. كما انهـا كانت مفتحة على غير اثنيا مما ادخل عليها تنوعا واضحا.

لقد كان ومنذ النصف الأول من القـرن الخامس ق.م مهزلة "دورية" Dorirnne في سيراكوزا، اشتهر "ابيخارموس" كممثل رئـيس فيها، استوحت مواضيعها من الحياة الشعبية والملاحظة اليومية ثم استمرت في التمثيل الايمائي.

ومن المهـازل القديمة كـذلك مهـزلة "ارسطوفانوس"، ذلك الهـزلي الذي غطى نشـــاطه شطرا مـن القـرن الخـــامس واخـــر من القــــرن الرابع ق.م. والمـلاحظ في "ارسطوفانوس" ان هواه ومـداعبته وغـلاظته كانت لا تعـرف حدا. فهو يلجـأ بصورة طبيـعية جدا إلى المداعـبات البذيئة وحـتى إلى القذارات نفسهـا، ويزدري بالالهة الذين

يصورهم في اوضـاع مضحكة احيـانا. ويتناول، شأنه في ذلك شأن الهـزليين الاخرين الذي تهكموا تهكما لاذعـا من "بريكليس" نقسه، الرجال الاحياء المعـروفين المشهورين الذين يصورهم صورا هزلية تعجز قوة الخيال فيها عن ان تنسى ما فيها من تظلم فظيع.

ويعارض " ارسطو فانوس" النظام الديمقـراطي، وينادي بالسلام حتى في خضم الحرب القـوميـة، وينتقد اوربيـدوس وجرأته الالحاديـة، ولكنه لا يمتنع عن تقليد رقـته المجددة، ولا يهتم للتناقض ولا للشطـط، ولكن هذه الغرابة المتفلته يرافقهـا شعور بالغ الرقة، وإحساس فـائق اللطف بجمالات الطبيعة التي يعبـر عنها بمهارة نادرة في السبك والايقاع، ان مؤلفات ارسطو فانوس المدهشة تشير إلى مرونة الفكر اليوناني، وفي القرن 4 ق.م بلغ تذوق المسرح ذروته، فـتعددت الأبنية والأعـياد، ونمت شعبيـة الممثلين نمواً بالغاً، وزاد الانتاج زيادة كبيرة لا سيما وأن شعراء كثيرين قد برزوا في غير اثينا.

لقـد هبطت المأساة في هذا القـرن الرابع ق.م هبـوطا كبـيرا. وصـار الجمـهور يستطيب التكرار فيها ولا سيما تكرار تمثيليات اوربيدوس من القرن السالف. في حين أن المهزلة احتفظت بحيويتها على الرغم مما طرأ عليها من تحولات عميقة.

نشاط (8)



ارجع إلى كتاب ول ديورانت، قصـة الحضارة واقرأ فيه عن مسـرحيات ديونيوس وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

تدريب (8)



فسر سبب إقدام الدولة في اثينا على الانفاق على المسرح؟

أسئلة التقويم الذاتي (8)



لخص فكر "ارسطوفانوس" في مسرحياته.

1.7 الافلاطونية

وقبل أن نمضي، عـزيزي الدارس، سوية في بحث الفلسـفة الافـلاطونية، دعني اعرفك على شخصية صاحبها:

كان "أفلاطون" ينتمي إلى أسرة عريقة يرجع أصلها إلى ملوك أثينا الاولين، برع في جميع نواحي الحياة آنذاك؛ حيث نبغ في الموسيقى والرياضيات، والبلاغة، والشعر، وافتتن بجمال طلعته، وصارع في الألعـاب البرزخية. سمي "ارستقليس" Aridtocles ولقبـوه فلاطون Platon أي العـريض لامتـلاء جسمـه وقوة بنيـته. حـارب في ثلاث معـارك، ونال جائزة في الشجـاعة، وكتب فـكاهات شعرية، وغـزلا، ومأساة رباعـية تكونت من اربع مسرحيـات؛ ثلاث منها مآسٍ ورابعة هجائية، كانت تمثل مـجتمعه في عيد ديونيسوس في اثينا.

أعجب أفلاطون وهو في سن العشرين بالشيخ سقراط، وفهم تعاليمه. وكأني به - عزيزي الدارس - وقـد استـمتع بمنظر الرجل الشـيخ وهو يقذف بافكـاره في الهواء كالبهلوان، مرتكزا على أسنة أسئلته، فما كـان منه الا ان تبعه وكأنه قد سحره أو نومه تنويما مغناطيسيا.

ولما بلغ أفلاطون سن الثـالثة والعشريـن من عمره شبت ثورة المحـافظين في اثنيا عام 404 ق.م. وشهد ايام الارهاب الاجركي الرهيبة، وشهـد محاكمة سقراط وموته، فبـدا العالم كله وكأنه يتصـدع ويتهدم من حولـه، ففر من اثينا، ويظهر انه سـافر إلى مصر، حـيث درس على الكهنة هناك العلوم الرياضية والمعـارف التاريخية الشعـبية. ثم عـاد إلى اثينا مـرة أخـرى. حـيث حـارب دفاعـا عن "كـورنثـه" ثم درس فلسـفـة "فيثاغورس"، ثم انتقل إلى "صـقلية"، وبيع بيع الرقيق. ثم عاد سالما إلى اثينا وهناك انشأ "الأكاديمية" التي قدر لها أن تكون فيما بعد مركز بلاد اليونان العقلي تسعمائة عام كاملة.

لم يتبع افـلاطون، عزيزي الدارس، فـيما خـلفه من أفكار خطة منظمـة، وكان أفلاطون شاعراً مـغرقا في شاعريته إلى حد يمنعه ان يقـيد أفكاره وبحدها بحدود، واذا كان أفلاطون شاعرا فقد كان المنطق اكثر ما يعترض سبيله من الصعاب، فهو يجول هنا وهناك يبحث عن التعاريف ويـضل السبيل في التشبيهـات التي تعرضه لأشد الاخطار.

انظر إلى قوله مثلا: "ثم دخلنا في تيه، ولما حسبنا اننا قد وصلنا إلى آخره، رأينا انفسنا مرة أخرى في بدايته، وكان علينا أن نعود إلى البحث عن مخرج" ويختتم حديثه هذا بقوله: "ولست واثقا قط من انه بوجد من بين العلوم علم كالمنطق". ولكنه مع هذا يخطو فيه الخطوة الاولى، فهو يفحص عن طبيعة اللغة ويقول أنها مشتقة من محاكاة الاصوات، ويبحث في التحليل والتركيب، والتشبيهات، والمغالطات، ويقبل الاستقراء، ولكنه يفضل الاستدلال، ويضع في هذه المحاورات الشعبية نفسها مصطلحات متينة، كالجوهر، والطاقة، والعقل، والانفعال، والتوليد، وهي المصطلحات التي استخدمتها الفلسفة فيما بعد. وهو يضع أسماءً لخمس من المقولات العشر التي أذاعت شهرة أرسطو طاليس. وهو يرفض قول "السوفسطائيين" ان الحواس خير وسيلة لمعرفة الحقيقة وان الفرد هو مقياس الاشياء جميعها. ويقول انه لو صح هذا لكان ما يقوله أي انسان عن العالم مساويا في قيمته لما يقوله أي نائم، وأي مخبول، أو أي فرد. (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 477)

ويرى أفلاطون اننا لسنا نستمد من فوضى الحواس الا فيضا من التغيرات الهرقليطية، ولو لم تكن الا احساسات، لما كانت لدينا قط معلومات أو حقائق؛ ذلك ان المعلومات لا تأتي الا عن طريق الأفكار، وعن طريق الصور المعممة، والاشكال التي تصوغ فوضى الاحساسات وتكون منها التفكير المنظم. ولو كنا لا ندرك الا الاشياء المفردة لكان التفكير مستحيلا، ذلك اننا نتعلم التفكير بجمع الاشياء وتصنيفها حسب ما فيها من اوجه الشبه، ثم نعبر عن الصنف باجمعه باسم عام له، فلفظ رجل يمكننا من ان نفكر في جميع الرجال، ولفظ منضدة يمكننا من التفكير في جميع المناضد، ولفظ ضوء في جميع الاضواء التي سطعت في البر أو البحر. وليست هذه الآراء بأشياء تدركها الحواس، ولكنها حقائق تعرف بالتفكير، لأنها تبقى، ولا تتغير، ولو انعدمت جميع الموجودات الحسّيّة المقابلة لها. فالرجال يولدون ويموتون، ولكن الرجل يبقى، وليس كل مثلث بمفرده الا مثلثا ناقصا، يفني عاجلا أو أجلا، ومن أجل هذا فهو غير حقيقي نسبيا، ولكن (مثلث) أي الشكل والقانون اللذين ينطبقان على جميع المثلثات - كامل سرمدي، وكل الاشكال الرياضية افكار سرمدية كاملة. وكل ما تقوله الهندسة عن المثلثات، والدوائر، والمربعات والمكعبات، والكرات ... يبقى صحيحا، ومن ثم فهو حقيقي، ولو لم توجد هذه الاشكال في العالم المادي في الماضي او في المستقبل. والمعاني المجردة هي الاخرى حقيقية بهذا المعنى، فالاعمال الفردية الفاضلة قصيرة الاجل، ولكن الفضيلة تبقى حقيقية خالدة في التفكير، وأداة التفكير. وهذا ايضا شأن الجمال، والكبر، والمشابهة، وما اليها. فالأعمال والأشياء الفردية اشياء وأعمال بالصورة

التي نعرفهـا بها، لكنها تشترك في هذه الاشكال الـكاملة، أو الافكار، وتحقق وجودها بدرجة قليلة أو كثيرة. وعالم العلم والفلسـفة لا يكون من اشياء مفردة، بل يتكون من افكار، والتاريخ المتمـيز عن السير هو قصة الانسان وليس علم الاحـياء هو علم كائنات عضويـة معينة بل هو علم الحيـاة نفسها، وليـست العلوم الرياضية هي دراسـة الاشياء المجسمة بل هي دراسة العدد، والعلاقة، والشكل، مسـتقلة عن الاشياء نفسها، ولكنها تصدق على جميع الاشياء، والفلسفة هي علم الأفكار.

عزيزي الدارس، ان كل شيء في ميتافيزيقية أفلاطون يدور حول نظرية الأفكار. فالله هو المحرك الأول الذي لا يتحرك، او روح العالم، يحرك كل شيء وينظمه حسب القوانين والاشـكال الازلية، وهي الافكار التي لا تتـبدل والتي تكون - على حـد قول أصحاب الافلاطونـية الحديثة - الكلمة أو الحكمة الالهـية او عقل الله. وأرقى الأفكار هو الخير، ويرى أفلاطون في بعض الاحيان ان هذا الخير هو الله نفسه، ولكنه في أكثر الاحيان هو أداة الخلق الهادية المرشدة. والشكـل الاعلى الذي تنجذب اليه كل الاشياء. وادراك هذا الخيـر، ورؤية هذا المثل الأعلى الذي يشكل عملية الخلق، هو أسـمى غاية تبتغيها المعرفة، وليس الحكمة وعملية الخلق عمليتين آليتين، بل هما تحتاجان في العالم، كما نحتاج نحن إلى روح أو مبدأ حيوي يكون هو قوتهما المنشئة المبدعة.

ويرى أفلاطون ان الشيء الحقيقي هو الشيء الذي يمتلك قوة، ومن أجل هذا فإن المادة ليست حقـيقية أساسيـة بل هي مجرد مبدأ من القـصور الذاتي، وامكانية تنتظر ان يعطيهـا الله أو الروح شكلا خاصا وكـيانا حسب فكـرة من الأفكار، والروح هي القوة المتحركة بنفسها الموجودة في الانسان، وهي جزء من الروح المتحركة بنفسها الموجودة في الاشياء جمبـعها، وهي قوة حيوية خالصة، مجـردة من الجسم، وخالدة، وقد وجدت قبل الجسم، وجاءت معها من حلولها في اجسام سابقة بذكريات كثيرة إذا ايقظتها الحياة الجديدة حسبناها خطأ معلومـات جديدة. ولأضرب لك مثلا - عزيزي الدارس - على ذلك: ان الحقائق فطرية بأجـمعها، وكل ما يفعله التعليـم هو ان يوقظ ذكريات الاشياء التي عرفتـها الروح في حياتها الماضيـة. واذا مات الانسان انتقلت روحه او مبـدأ الحياة الذي منه إلى كائنات عضوية اخـرى أرقى أو احط منه حسب ما استحقتـه في تجسداتها السابقة، وربمـا ذهبت الروح المذنبة إلى المطهر أو الجحـيم، وذهبت الروح الفاضلة إلى جزائر المباركين. فـاذا ما تطهرت الروح في خلال الحـيوات المختلفة من جمـيع اثامها، تحررت من التـجسد وصعـدت إلى الفردوس تتمتع فـيه بالسعادة السـرمدية. (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 480)

إن افلاطون، عـزيزي الدارس، كان يعـرف أن كثـيرين من قرائه سـيكونون من المتشككين، والدليل على ذلك أنه قـضى بعض الوقت يحاول فيه وضـع قانون أخلاقي طبيعي يبعث في نفـوس الناس الرغبة في الاستقامة والصلاح من غـير أن يعتمدوا على السموات والمطهـر والجحيم. إن المحاورات التي كتبـها في حياته الوسطى تتحـول شيئا فشيئا من الميـتافيزيقيا إلى الاخلاق والسياسـة. يقول: "إن أعظم أنواع الحكمة وأجملها هي الحكمة المتصلة بتنظيم الدول والأسر". (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 480)

إن المشكلة الرئيسة في علم الاخلاق تدور حول النزاع الظاهر بين ملاذ الفرد وبين الخيـر الاجتماعي. ويعـترف ان كثيـرا من الملاذ لا عيب فيـه ولا اثم، وان الانسان في حاجة إلى الذكاء للتمييز بين اللذات الطيبة واللذات الضارة.

وتتكون الـنفس أو أصل الحـيـــاة - عند أفـلاطون - من ثـلاث درجـات هي: الشـهـوة، والارادة، والفكر. ولكل جـزء من هذه الاجـزاء فـضيلـته الخـاصـة هي: الاعتدال، والشجاعة، والحكمة ويضاف اليها التقوى والعدالة وأداء واجب الانسان نحو والديه وآلهته. ويمكن تعريف العدالة بأنـها هي تعاون الاجزاء في الكل، أو العناصر في الاخلاق، أو الاهلين في الدولـة، بحيث يقوم كل جـزء بواجبه اللائـق به على الوجه الاكمل. وليس الخير هو الفعل وحده او اللذه وحدها، بل هو امتزاجهما بنسب ومقادير تنتج منهـا حياة الـفعل. والخيـر الاسمى كـائن في العلم الخالص بالاشكال والـقوانين السرمدية، و (أسمى الخير) من الناحية الأخلاقية هو: "... ما في النفس من قدرة أو موهبة، اذا كـان ثمة شيء من هذا النوع تستطيع به أن تعـرف الحقيقـة، وان تفعل كل الاشياء من اجل الحقيقة؛ ومن يحب الحقـيقة لا يهمه ان يجزي الاساءة بالاساءة". بل يفضل أن يتحمل على أن يرتكب هو الظلم يقول: "...ويضرب في الأرض برا وبحرا يبحث عن الناس الذين لا يجد الفساد سبيـلا اليهم، والذين لا تقوم صحبتهم بالمال أيا كان ... والذين يهبون أنفـسهم للفلسفة بحق يمتنعون عن الشهوات الجـسمية، واذا ما عرضت عليهم الفلسفة ان تطهرهم من الشـر وتحررهم منه، أحسوا بأن من واجبهم ألا يقاومـوا تأثيرها فيـهم؛ ومن أجل ذلك يميلون نحوها، ويسـيرون خلفهـا للهدف الذي تقودهم اليه". (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 481)

وكان أفلاطون قد أحرق قصائده وفـقد عقائده الدينية ولكنه ظل مع ذلك شاعراً وعابداً، يغمر فكرته عن الخـير احساس قوي بالجمال وتقوى ممتـزجة بالزهد والتقشف؛ توحدت فيه الفلسفة والدين وامتزجت فيه الاخلاق بحاسة الجمال. ولما تقدمت به السن عجز عن أن يرى الجـمال منفصلا عن الخـير والحقيـقة. وكان في دولته المثـالية يفرض الرقابة على جميع الفن والشعر اللذين قد ترى الحكومـة ان فيهما نزعة مغايرة للأخلاق

الفاضلة أو الوطنية، وهو يمنع فيها جميع الخطب وجميع المسرحيات المضادة للدين؛ وحتى شعر هومر نفسه - الذي يصور الدين المغاير للأخلاق تصويرا مغريا - يجب ان يضحي به. وكان يجيز في هذه الدولة المثالية أساليب الموسيقى الدورية، ولكنه يشترط ألا تضر بها آلات معقدة التركيب أو يعزفها فنانون يحدثون (أصواتا وحشية) في أثناء عرضهم الفني، أو يدخلون فيها بدعا متطرفة. وفي هذا يقول: "يجب الابتعاد عن اضافة أي نوع جديد لأنواع الموسيقى، لأن هذا يعرض الدولة كلها للخطر؛ وسبب ذلك أن الانماط الموسيقية اذا اضطربت أثرت حتما في أهم الانظمة السياسية .. ذلك أن النمط الجديد يتأصل في الدولة تدريجيا، ويتطرق شيئا فشيئا إلى أخلاق الناس وعاداتهم، ومن هذه الأخلاق والعادات يهاجم الشرائع والدساتير، ويظهر في هذا الهجوم منتهى السفالة، وينتهي الأمر بقلب كل شيء في الدولة رأسا على عقب". (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 482)

والجمال عند أفلاطون كالفضيلة انما يكون في اللياقة، والتناسب، والنظام. والعمل الفني يجب أن يكون مخلوقا حيا، ذا رأس، وجذع، وأطراف، توحدها وتبعث فيها الحياة. ويظن هذا المتزمت المتحمس أن الجمال الحق هو جمال العقل لا جمال الجسم، وأن الاشكال الهندسية ذات جمال سرمدي مطلق، وأن القوانين التي تقوم عليها السموات تفوق النجوم في جمالها، والحب هو طلب الجمال ويتألف من ثلاث مراحل اولاها حب الجسم، والثانية حب الروح، والثالثة حب الحقيقة. وحب الجسم بين الرجل والمرأة مشروع لا اثم فيه لانه وسيلة التناسل الذي هو نوع من أنواع الخلود، ولكنه مع ذلك صورة بدائية من الحب غير جديرة بالفيلسوف. والحب الجسمي بين الرجل والرجل، أو بين المرأة والمرأة مناف للطبيعة ويجب قمعه لانه يعطل التناسل. وقمعه مستطاع بالسمو به إلى المرحلة الثانية أعني المرحلة الروحية من مراحل الحب: ففي هذه المرحلة يحب الرجل الكبير السن الشاب لأن وسامته رمز للجمال الطاهر السرمدي، والشاب يحب الشيخ لان حكمته تيسر له سبيل الفهم والشرف. ولكن اسمى أنواع الحب هو (حب الاستحواذ على الخير الابدي)، وهو الحب الذي يسعى وراء الجمال المطلق للافكار أو الاشكال الكاملة السرمدية. وهذا النوع لا العاطفة غير الجسمية بين الرجل والمرأة هو "الحب الافلاطوني"، وهو النقطة التي يتحدث عنها افلاطون الشاعر مع أفلاطون الفيلسوف في الرغبة القوية في الفهم، وتكاد هذه الرغبة ان تكون شغفا صوفيا بما في القانون وما في بناء العالم وحياته وغايته من نور النعيم الباهر. (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 483)

وكان افلاطون يحلم بوجود مجتمع خال من الفساد والفقر والظلم والحروب، اذ كان يروعه ما يسود اثينا من انقسامات حزبية مريرة (وشقاق، وعداء، وحقد، وريبة، لا تكاد تخبو نارها حتى تعود إلى الاشتعال). وكان يحتقر ألجركية المال كما يحتقرها جميع النبلاء ابناء الاسر الشريفة ذات المجد التليد، ويقول عن رجالها انهم: "رجال الاعمال . . . الذين لا تطاوعهم نفوسهم إلى رؤية من قضوا عليهم بجشعهم ويدفنون سمومهم - أي ما لهم - في جسم كل من لا يحذرهم، ثم يستردون ما أخذوا منهم أضعافا مضاعفة: وتلك هي الطريقة التي يملأون بها الدولة بالكسالى والمعدمين".

ويتابع قائلا: "ثم تنشأ الديمقراطية، بعد أن يتغلب الفقراء على معارضيهم، فيقتلون بعضهم، وينفون من البلاد البعض الاخر، ثم يمنحون الباقين أقساطا متساوية من الحرية والسلطة". (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 484)

ويتضح اخر الأمر ان الديمقراطيين لا يقلون فسادا عن الحكام الاثرياء، فهم يستخدمون القوة التي تؤول اليهم لكثرة عددهم ليوزعوا الأموال العامة على الفقراء، ومناصب الدولة عليهم أنفسهم، وهم يتملقون العامة ويداهنون حتى تنقلب الحرية فوضى، وتنحط المعايير بعد أن تؤول السلطة العليا إلى أراذل الناس، وتغلظ الطباع بسبب انتشار الوقاحة والسباب، ويقضي على الديمقراطية التطرف في الحرية.

وفي هذه الدولة تسود الفوضى، وتتخذ سبيلها إلى بيوت الأفراد، وينتهي الأمر بانتقال عدواها إلى الحيوانات . . فيتعود الاب النزول إلى مستوى ابنائه . . ويتعود الابن ان يضع نفسه في مستوى ابيه، فلا يخشى ابويه، ولا يستحي منهما. . . ويخاف الاستاذ طلابه ويتملقهم، ويحتقر الطلاب اساتذتهم ومعلميهم. . ويصبح الكبار والصغار سواسية، فيضع الشاب نفسه في مستوى الشيخ، ولا يستنكف ان يعارضه بالقول والفعل، ولا يتحرج الشيوخ من تقليد الشبان. ومن الواجب أن لا ننسى حرية الجنسين؛ الذكور والاناث ومساواة كليهما بالاخر في علاقتهما بعضهما ببعض. . . والحق أن الخيل والحمير، لن تعدم وقتئذ سبيلا للسير مع الناس جنبا إلى جنب، والاستمتاع بكل ما لاحرار الناس من حقوق وكرامات . . . وقصارى القول ان الاشياء توشك ان تنفجر لكثرة ما اتخمت بالحرية . .

واذا ما صارت الحرية تطرفا من كل القيود، فقد اقتربت الدكتاتورية، ذلك ان الاغنياء يخشون وقتئذ ان تجردهم الديمقراطية من الحكم فيأتمرون بها ليقضوا عليها. وقد يغتصب السلطة احد الأفراد المغامرين، ويعد الفقراء بكل ما برغبون فيه ويحيط نفسه في

جيش خاص به، ويقتل اولا اعداءه ثم يتبعهم باصدقائه " حتى يطهر الدولة" من هؤلاء واولئك، ويقيم حكومة دكتاتورية.

عزيزي الدارس، وازاء ذلك الوضع، ينشغل بعض العلماء بكتابة التاريخ، في حين أن أفلاطون لجأ إلى المستقبل، حيث وضع نظام المدينة الفاضلة ويرى أن من أول ما يجب عمله هو البحث عن ملك صالح يسمح لنا بأن تجري التجارب على شعبه. والواجب الاخر في هذه المدينة ان تبعد عنها جميع الكبار فلا يستبقي منهم الا ما لا غنى عنهم لحفظ النظام وتعليم الشبان، وذلك لأن أساليب الكبار تفسد الشباب وتطبعهم بطابع الماضي. ثم يعد للشباب رجالا كانوا ام نساء منهجا تعليميا يمتد إلى عشرين عاما، ويشمل تعليم الاساطير، والمقصود بها أساطير جديدة تعود النفس طاعة الاباء والدولة. فاذا قضوا في التعاليم هذه المدة وضعت لهم اختبارات جسمية وعقلية واخلاقية. فمن يخفق في هذه الاختبارات يصبح من رجال الاقتصاد في الدولة (رجال الاعمال، والصناع، والزراع) ويسمح لهؤلاء بأن تكون لهم أملاك خاصة، وأن يكونوا على درجات مختلفة في الثراء حسب كفاياتهم، على أن لا يسمح بوجود العبيد. أما من بجتازون الاختبار الأول فيتلقون منهاجا آخر من التعليم والتدريب يمتد إلى عشرة أعوام أخرى.

ثم يختبرون من جديد بعد الاعوام الثلاثين، فالساقطون يصبحون جنودا، لا يسمح لهم بالاملاك الخاصة ولا يشتغلون بالاعمال التجارية والمالية، بل يعيشون في شيوعية عسكرية. ومن يجتاز الاختبار الثاني منهم يبدأ في ذلك الوقت دراسة الفلسفة الالهية - مدة خمس سنين. وتشمل الدراسة جميع فروع هذه الفلسفة من رياضيات إلى منطق إلى سياسة إلى قانون .. وبعد اتمامهم هذه الدراسة يلقون في الحياة العملية ليكسبوا قوتهم ويشقوا طريقهم، وبعد خمسين عاماً يصبح الباقون منهم على قيد الحياة الطبقة المهيمنة على المدينة أو حكامها من غير حاجة إلى انتخاب.

ويمنح هؤلاء السلطة كلها، ولكن لا تكون لهم أملاك، ولن تكون للمدينة قوانين، بل تعرض كل القضايا والمنازعات على الملوك - الفلاسفة - ليفصلوا فيها بحكمتهم التي لم تفسدها السوابق ولن يكون لهؤلاء الملوك - الفلاسفة - ملك ولا مال، ولا أسر، ولا زوجات يختصون بهن على الدوام، وذلك لكيلا يسيئون استخدام سلطتهم، ويتولى الشعب التصرف في أموال المدينة، كما يتولى الجند السلطة العسكرية. وليست الشيوعية عند أفلاطون نوعا من الديمقراطية، بل هي أرستقراطية، يعجز عن بلوغها عامة الشعب، ولا يحتملها الا الجنود والفلاسفة.

أما الزواج – في هذه المدينة – فيجب ان ينظمه الحراس لجميع الطبقات تنظيماً دقيقا يهدف إلى غرض مقدس، وهو تحسين النسل، يقول: "فيجب ان يجتمع أفضل الجنسين بعضهما ببعض أكثر ما يستطيعون، وأن يجتمع المنحطون من الرجال بالمنحطات من النساء، ثم يربى أبناء الأولين، ولا يربى أبناء الآخرين، لأن هذه هي السبيل الوحيد للاحتفاظ بالشعب في حالة صالحة". (ول ديورانت، ج 7، ص 487/486)

وعلى الدولة أن تتولى تربية الأطفال جميعهم وتقدم لهم فرصاً للتعليم متكافئة. ويجب أن لا تكون الطبقات وراثية، وأن يكون للبنات من الفرص مثل ما للأولاد، وألا تمنع النساء من تولي المناصب في الدولة لأنهن نساء. ويعتقد أفلاطون أنه بهذا المزيج من الفردية والشيوعية، وبالعمل على تحسين النساء، ومساواة المرأة بالرجل في الحقوق، يستطيع أن يوجد مجتمعا يسر الفيلسوف أن يعيش فيه. ويختتم حديثه بالعبارة التالية: "وإلى أن يكون الفلاسفة ملوكاً، أو أن يتشبع ملوك هذا العالم وامراؤه بروح الفلسفة وقوتها . . . لن تنجو المدن ولن ينجو الجنس البشري من الشر" (ول ديورانت، ج 7، ص 487)

وكان افلاطون يرى أنه ولإنشاء دولة صالحة فما: "عليك إلا أن تضع على رأسها حاكما بأمره، شابا معتدلا، سريع التعلم، قوي الذاكرة شجاعا، كريم الطبع . . حسن الحظ؛ ويكون حسن حظه في أنه معاصر لمُشرِّع عظيم، وأن الظروف الموفقة تجمع أحدها بالآخر" (ول ديورانت، ج 7، ص 487)

كان أفلاطون، وفي أواخر سنين حياته لا يزال يتوق إلى أن يكون مُشَرِّعاً، ولذلك عوض على الناس دولة تلي الدولتين السابقتين في الحسن، وهو يتحدث عن هذه الدولة الثالثة في كتاب: (القانون)، ويرى ان هذه الدولة ينبغي أن تكون في داخل الأرض، بعيدة عن البحر حتى لا تفسد الاراء الاجنبية ايمانها، والتجارة الأجنبية أمنها، والترف الأجنبي بساطتها وانطواءَها على نفسها. ويجب ان يقتصر عدد مواطنيها الأفراد على العدد السهل الانقسام وهو (5040) يضاف اليهم أفراد أسرهم. ويختار المواطنون من بينهم (360) حارسا يقسمون إلى مجموعات تتألف كل واحدة منها من ثلاثين شخصاً يتولون تصريف أعمال الدولة شهراً واحدا، ويختار الحراس الثلثمائة والستون مجلسا ليلياً مؤلفا من ستة وعشرين عضوا يجتمع في الليل ويشرع لكل شئون المدينة الحيوية. ويجب على هؤلاء الاعضاء أن يقسم الارض بين اسر المواطنين أقساما متساوية على الا يسمح لهؤلاء الملوك بتقسيمها بعدئذ ولا بالتنازل عنها لغيرهم. وعلى الحراس "أن يتخذوا ما يجب اتخاذه من الاحتياطات حيث لا يضر المطر بالارض بدل أن ينفعها

وأن يمنعوا المطر عنها بالجسور والخنادق، ويجعلوا قنوات الري توصل الكثير من الماء لجميع الاراضي حتى الاراضي الجافة" ويجب أن لا تزيد التجارة على الحد الأدنى حتى لا ينشأ من هذا عدم المساواة الاقتصادية. ويجب الا يحتفظ الناس بشيء من الذهب أو الفضة، وأن لا يتعاملوا بالربا. وأن لا يشجع أي انسان على أن يعيش باستثمار امواله. بل يشجع على ان يعيش بالاشتغال بزرع الارض بجد ونشاط. ويجب على كل من يحصل من ريع الارض على اربعة امثال قيمته أن يرد الباقي إلى الدولة. وقد قيد حق التوريث والوصية بأشد القيود، وجعل للنساء فرصا تعليمية وسياسية متكافئة مع الرجال. وفرض على الرجال ان يتزوجوا بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، والا الزموا بدفع غرامات سنوية باهظة. وعليهم الا يلدوا اطفالا الا في خلال عشر سنين. ومن الواجب تنظيم الشراب وغيره من وسائل اللهو للمحافظة على اخلاق الشعب.

وللوصول إلى هذا كله في هدوء وسلام يجب أن تشرف الدولة اشرافا تاما على شؤون التعليم، والنشر، وغيرها من وسائل تكوين الرأي العام، وأخلاق الافراد، ويجب أن يكون أكبر موظف في الدولة هو وزير المعارف، ويجب أن تحل السلطة محل الحرية في شؤون التعليم، وذلك لأن ذكاء الأطفال أقل من ان يجيز لنا ان نتركهم يخططون لنفسهم حياتهم، ويجب الا تفرض الرقابة على الاداب، والعلوم والفنون، فلا يجوز ان يعبر عن اراء يرى اعضاء المجلس انها ضارة بالاداب العامة أو الخلق القويم. واذا كانت طاعة الوالدين والقوانين لا بد ان تستند إلى قوة اعلى من قوة البشر وتؤيدها فان الدولة هي التي تقرر أي الآلهة تعبد وكيف تعبد ومتى تعبد. وكل من يتردد في الخضوع لهذا الدين الرسمي يسجن، فان أصر على عدم الخضوع له وجب أن يقتل.

وليست الحياة الطويلة نعمة لصاحبها على الدوام. ولقد كان من الخير لافلاطون ان يموت قبل ان يوجه هذه التهمة لسقراط، وأن يمهد هذا لجميع محاكم التفتيش المستقبلية. ولعل دفاعه عن نفسه هو انه يحب العدالة اكثر من حبه للحقيقة، وأن هدفه هو ان يمحو الفقر والحرب. وأنه لا يستطيع أن يمحوها الا بسيطرة الدولة على الأفراد سيطرة تامة وأن هذه السيطرة لا تكون الا بواحدة من اثنتين القوة أو الدين. وكان يظن أن ما أصاب الاثينيين من انحلال ايوني في الاخلاق والسياسة لا علاج له الا بالقوانين الاسبارطية المشتقة من النظام الدوري. والنزعة السارية في تفكير افلاطون كله هي خوفه من ان يساء استخدام الحرية، وان يفهم الناس الفلسفة على أنها الرقيب على شؤون الناس والمنظمة للفنون، ويعرض أفلاطون في كتابه "القوانين" تسليم اثينا المحتضرة التي استوفت حياتها لإسبارطة التي قضت عليها نحبها من ايام "ليقورغ". واذا لم يكن في

وسع اشهر فلاسفة اثينا ان يقول اكثر مما قال دفاعا عن الحرية. فمعنى هذا ان بلاد اليونان كانت على اتم استعداد لان يتولى أمورها ملك.

عزيزي الدارس، وإذا ما القينا نظرة شاملة على جميع هذه الآراء اعترتنا الدهشة اذ نرى ان افلاطون قد جاء في هذا الوقت القديم بكل ما جاءت به في العصور الوسطى للفلسفة والدين والأنظمة المسيحية، وبالشيء الكثير مما جاءت به الفاشية في العصر الحديث.

لقد صارت نظرية الافكار هي (واقعية) المدرسين - واقعية العموميات الموضوعية، ولم يكن افلاطون مسيحيا قبل وجود المسيحية، بل كان فوق ذلك متزمتا مسيحيا قبل وجود عصر التزمت المسيحي، فهو يرتاب في الطبيعة البشرية ويراها شرا، ويعتقد أنها هي الخطيئة الاولى التي لوثت النفس. وهو يعمد إلى تلك الوحدة القائمة بين الجسم والروح والتي كانت هي الفكرة الرئيسة في القرنين السادس والخامس ق.م. فيقسمها إلى جسم خبيث وروح قدسية، وهو بستمد من فيثاغورس والاورفية اعتقاد الشرق في تناسخ الارواح والخطيئة والتطهير، والانطلاق ويضرب في كتبه الاخيرة على نغمة اخروية شبيهة بنغمة "اوغسطين" أي نغمة الرجل الذي تاب وأناب وعاد إلى الدين الصحيح.

عزيزي الدارس، لقد بقي أفلاطون أحب المفكرين اليونان إلى الناس لانه يتصف بعيوبهم الجذابة المحبوبة. وكان مرهف الحس إلى الحد الذي يستطيع معه ان يرى الجمال الكامل السرمدي وراء الاشكال الدنيوية غير الكاملة، وكان زاهدا لانه كان مضطرا في كل لحظة إلى أن يكبح جماح مزاجه القوي الضيق. وكان شاعرا يسيطر عليه الخيال ويسير وراء كل فكرة شاذة غريبة. وتستحوذ عليه مآسي الافكار ومباهجها ويُهيجهُ التحمس الذهني المنبعث من الحياة العقلية الحرة التي كانت تستمتع بها اثينا. ولكن كان من سوء حظه انه رجل منطق وشاعر معا، وأنه كان أقوى مجادل في العصر القديم؛ فقد كان أدق في جدله من "زينون" و "أرسطو"، وأنه كان يشغف بالفلسفة أكثر من أي شيء. ويلاحظ انه انتهى إلى قمع كل تفكير حر، وصار يعتقد بان الفلسفة يجب ان يقضي عليها لكي يعيش الانسان. ولو أن مدينته الفاضلة تحققت فعلا لكان هو أول ضحاياها.

2.7 الأرسطية

منظومة فلسفية كبيرة، تعود إلى أرسطوطاليس، ذلك الفيلسوف الذي كان يعجب

بأفلاطون. مسقط رأسه في "اسطاغيرا" (مستعمرة يونانية صغيرة في تراقيه) استمع إلى افلاطون مدة عشرين عاما، وعلى الرغم من ذلك كان يلاحظ في اجتماعهما نزعتان متعارضتان في تاريخ الفكر: النزعة الصوفية، والنزعة الطبيعية، ولم تتغلب احدى النزعتين على الاخرى. لقد نقض ارسطو حجج افلاطون في كل مرحلة من مراحل تفكيره.

لقد كان ارسطو مجدا، لاحظ فيه معلمه افلاطون هذا الجد، وعندما قرأ افلاطون رسالته عن الروح في المجتمع العلمي كان ارسطو الشخص الوحيد الذي يستمع اليها من أولها إلى اخرها. في حين انفض غيره من حوله. فر ارسطو من اثينا حينما اغتال الفرس "هرمياس" ظنا منهم انه يدير الخطط لمعارضة "فيليب" في غزوة المرتقب لبلاد اسيا. واستقر ارسطو في "لسبوس" القريبة وقضى فيها بعض الوقت يدرس تاريخ الجزيرة الطبيعي.

دعي ارسطوطاليس من قبل فيليب ليتولى تعليم ولده الاسكندر، ولبى الدعوة وظل يقوم بهذا الواجب اربع سنين، ثم كلفه باعادة بناء "اسطرخوس" وأن يضع لها شرائعها ففعل بشكل أرضى أهل المدينة، وجعلهم يحبون ذكرى هذا التعمير في عيد يقيمونه في كل عام. (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 493)

عاد ارسطو إلى اثينا وافتتح فيها مدرسه لتعليم البلاغة والفلسفة سماها ليتسيوم Lyceum (التجهيز) وذلك عام 335 ق.م. والظن ان الاسكندر أمده بالدعم المادي لهذا. حيث أختار مكانها اجمل دار للتدريب. الرياضي في اثينا. (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 493)

عزيزي الدارس، والملاحظ أن ارسطو حين ينتقل إلى دراسة الانسان يصبح ميتافيزيقيا اكثر منه عالما طبيعيا. ويعرّف ارسطو النفس أو العنصر الحيوي بأنه "الدافع الداخلي الاول في الكائن العضوي" بمعنى الصورة الفطرية المقدرة لهذا الكائن والتي تدفع نماءه وتحدد اتجاهه فليس النفس شيئا يأتي إلى الجسم من خارجه بل هي موجودة معه في كل جزء من أجزائه؛ أي انها هي الجسم نفسه من حيث: قدرته على تغذية نفسه وتنميته وانحلاله؛ فهي جماع وظائف الكائن العضوي، وهي للجسم كقوة الابصار للعين. بيد أن هذه الناحية الوظيفية ناحية أساسية، فالوظائف هي التي توجد التراكيب، والرغبات هي التي تشكل الاعضاء، والنفس هي التي تكون الجسم "فالاجسام الطبيعية كلها أعضاء للنفس، وأن النفس هي بمعنى ما جميع الموجودات، لان الاشياء كلها أما احساسات أو أفكار".

والنفس عند ارسطو ثلاث درجات: نامية، وحاسة، وناطقة. فالنبات يشترك مع الانسان والحيوان في النفس النامية، أعني في قدرته على تغذية نفسه، وعلى النماء الداخلي، وللحيوان والانسان فضلا عن أن هذه النفس نفس حاسة - أي قادرة على الاحساس، وللحيوانات الراقية والانسان نفس منفصلة عاقلة اعني قدرة على الاشكال البسيطة البدائية الذكاء، والانسان وحده هو الذي له نفس (فاعلة عاقلة) - أعني قدرة على التعميم والابتكار، وهذه النفس الاخيرة جزء او انبعاث من قوة الكون الخالقة العاقلة وهي الله، وهي بهذا الوصف لا تموت (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 505). ولكن هذا الخلود غير شخصي؛ بمعنى ان الذي يبقى هو القوة لا الشخصية. والفرد لا يصل إلى الخلود الا نسبيا، وذلك عن طريق التوالد.

والله هو "صورة" العالم أو "حقيقته الفعلية" - طبيعته الفطرية، ووظائفه، وأغراضه، كما أن الروح هي صورة الجسم. ويبحث افلاطون في كيف يجعل الناس اخيارا، أو كيف يجعلهم سعداء. والسعادة في نظره تطلب لذاتها. وأن هناك بعض الاشياء التي لا بد منها للحصول على السعادة الباقية وهي: المولد الطيب، والصحة الجيدة، والوجه الجميل، والحظ الطيب، والسمعة الحسنة، والأصدقاء الاوفياء، والمال الوفير، والصلاح. فليس في وسع انسان ان يكون سعيدا اذا كان دميم الخلقة ويضيف: "اما الذين يقولون ان الذي يعذب عن العذراء او تحل به كارثة شديدة، يكون سعيدا بشرط ان يكون صالحا فقولهم هراء؟ (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 5-8)

وينقل ارسطو بصراحة يندر وجودها في الفلاسفة، جواب "سمنيدس" لزوجه "هيرن" اذ سألته ايهما افضل الحكمة او الغنى فقال: "الغنى، لاننا نرى الحكماء يقضون أوقاتهم على أبواب الاغنياء" (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 508). غير أنه يرى أن الثروة وسيلة لا أكثر، فهي في حد ذاتها لا تُرضي غير البخيل، واذا كانت الثروة نسبية فانها لا ترضى انسانا زمنا طويلا، وسر السعادة هو العمل، اي بذل الجهد بطريقة تتفق مع طبيعة الانسان وظروفه. والفضيلة حكمة عملية، وهي تقدير الانسان بعقله لما فيه من خير، وهي في العادة وسط بين نقيضين، والانسان بحاجة إلى الذكاء لمعرفة هذا الوسط، وإلى ضبط النفس لممارستها، ويقول ارسطو في جملة من جمله النموذجية: "ان الذي يغضب مما وممن ينبغي أن يغضب منه، ويغضب فوق ذلك بالطريقة الحقة وفي الوقت المناسب للغضب، وبطول غضبه الزمن الملائم، إن هذا الرجل خليق بالثناء". (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 508)

وليست الفضيلة - في نظر ارسطو - عملا، بل هي تعود عمل الصواب، ولا بد أن تفرض في أول الأمر بالتدريب والتهذيب، لأن الشبان لا يستطيعون في مثل هذه

الأمور أن يصدروا حكما صادقا حكيما، فاذا مضى بعض الوقت فان ما كان من قبل نتيجة الارغام يصبح عادة أي "طبيعة ثانية"، ويكاد يبعث من اللذة ما تبعثه الشهوة.

ويختتم أرسطو هذا البحث خاتمة تناقض أشد التناقض ما بدأه به وهو قوله ان السعادة في العمل، وإن أحسن حياة هي حياة الفكر. ذلك أن الفكر في رأيه هو الدليل على ما انفرد به الانسان من تفوق وامتيار وأن: العمل الخليق بالانسان هو ان تعمل نفسه بالاتفاق مع عقله" وأسعد الناس حظا هو الذي يجمع بين قدر من الرخاء وقدر من العلم أو البحث أو التفكير فهذا الرجل هو أقرب الناس إلى الاله "والذين يرغبون في اللذة المستقلة بجب ان يطلبوها في الفلسفة لأن غيرها من اللذات يحتاج إلى معونة الانسان". (انظر ول ديورانت، ج 7، ص 509)

3.7 الرواقية

وقبل أن ادخل واياك - عزيزي الدارس - في هذه المنظومة الفلسفية تعال بنا نتعرف على واضعها. الفيلسوف - زينون -.

كان زينون من اهل "سيتيوم" احدى مدائن قبرص. وكانت سيتيوم فنيقية في بعض احيائها، يونانية في اكثرها. وكثيرا ما قيل ان زينون فينيقي، وقيل ايضا انه مصري. والثابت في ذلك ان ابويه يختلط فيهما الدم الهيليني والدم السامي. وصل زينون إلى اثينا عام 314 ق.م. وافتتن باخلاق "سقراط"، فانضم إلى مدرسة "اقراطيس"، واثرت في نفسه حياة الكلبيين البسيطة الصارمة، واخذ عنهم المبادئ الاولية لنظامه الاخلاقي، وقد تأثر بهم في اول كتاب له وهو كتاب "الجمهورية" تأثرا جعله يعتنق شيوعيتهم الفوضوية. وما من شك انه قرأ كتب "هرقليطس" بعمق لتأثره بها. غير انه كان يعترف بانه مدين لسقراط اكثر من غيره. وان سقراط هو مَعين الفلسفة الرواقية ومثلها الاعلى. (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 178)

انشأ زينون مدرسته الفلسفية الخاصة به عام 301 ق.م. ذلك أنه أخذ يتحدث إلى الطلاب. وكان يرحب بالفقراء والاغنياء على السواء، ولكنه لم يكن يشجع انضمام الشباب إلى تلاميذه، لأنه كان يشعر بأن الفلسفة لا يفهمها الا الرجال ناضجو العقل. وحدث ان اطال أحد الشبان في الكلام فقال له زينون: "لقد خلق لنا أذنان وفم واحد لكي ننصت كثيرا ونتكلم قليلا". (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 179)

ظل زينون اربعين عاما يعلم في سيتيوم ويعيش عيشة تتفق وتعاليمه اتفاقا اصبحت معه عبارة "أكثر اعتدالا من زينون" مثلا سائرا في بلاد اليونان. وأسلمته

الجمعية الاثينية مفاتيح الاسرار، ووافقت على المال الذي حصل لاقامة تمثال له واهدائه تاجا بقرار نصه: "لما كان زينون الستيومي قد قضى سنين كثيرة في مدينتنا يُدرس الفلسفة، ولما كان في كل ما عدا هذا رجلا طيبا، يحض جميع الشبان الذين يسعون لصحبته علي الاعتدال في حياتهم ويجعل حياته انموذجا لاعظم ما تسمو إليه الحياة .. فقد صحت عزيمة الشعب على تكريم زينون ... على ان يهديه تاجا من الذهب .. وان يبني له قبرا في حي "الرمكس" من الأموال العامة. (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 179)

مات زينون في سن التسعين ويروى انه مات بالطريقة التالية: "بينا هو خارج من مدرسته زلت قدمه وكسر اصبع من أصابعها، فضرب الارض بيده، وأعاد بيتا من الشعر: لقد جئت فَلِمَ تناديني على هذا النحو ثم خنق نفسه من فوره". (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 179)

وواصل عمل زينون من بعده في سبتيوم رجلان من يونان آسية هما أقلانيتوس الاسوسي Cleanthes of Assus ومن بعده أقريسيوس الصولي Chrysippus of Soli وكان "أقلانيتوس" ملاكما محترفا قدم إلى اثينا واشتغل عاملا عاديا، ودرس على زينون تسعة عشر عاما، وعاش مجدا فقيرا زاهدا، أما "أقريسيوس" فكان أكثر تلاميذ المدرسة علما وانتاجا، وهو الذي اكسب العقيدة الرواقية صورتها التاريخية بأن شرحها في 270 كتابا، جعلت ديونيشيوش الهلكرنسيس Dionysius of Halicarnassus يعدها أنموذجا لغزارة العلم المملة. وانتشرت الرواقية من بعده في جميع انحاء "هلاس"، وكان أعظم دعاتها في آسيا: بانيتيوس الرودسي Panaetius of Rhodes وزينون الترسوسي، وبؤثيوس الصيداوي Boethus of Sidon، وديجين السلوقي.

عزيزي الدارس، وأكبر الظن أن "اقريسيوس" هو الذي قسم الفلسفة الرواقية إلى منطق، وعلوم طبيعية، واخلاق، وكان زينون ومن جاء بعده يفخرون بما كتبوه في النظريات المنطقية، غير أن ما كتبوه لم يترك اثرا ملحوظا في عقول الناس. لقد كان الرواقيون يتفقون مع "الابيقوريين" في ان المعرفة لا تنشأ الا من الحواس، وكان المقياس النهائي للحقيقة في رأيهم هو المدركات الحسية التي تضطر العقل إلى قبولها بما فيها من وضوح او ثبات، على أنه ليس من الضروري ان تؤدي التجارب إلى المعرفة، لأن بين الحواس والعقل توجد العواطف او الانفعالات، وهذه قد تشوه التجارب فتجعلها اخطاء، كما تشوه الرغبات فتجعلها رذائل، والعقل هو أسمى ما احرزه الانسان، وهو بذرة من بذور العقل الكلي الذي وضع قواعده العالم. (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 180)

وينظر الرواقيون إلى العالم بأنه كالانسان مادي بأكمله والهي بفطرته، فكل ما تنقله لنا الحواس مادي، والأشياء المادية دون غيرها هي التي تحدث الافعال او تستقبلها. والصفات والكميات، والفضائل، والانفعالات والنفس والجسم .. كلها صور مادية أو عمليات، تختلف في درجة رقتها، ولكنها واحدة في جوهرها. غير أن المادة كلها حركية، مملوءة بالتوتر والقوى، لا تنقطع عن العمل على الانتشار او التركيز، يبعث فيها الحياة من داخلها وخارجها النشاط والحرارة او النار، والعالم يعيش بوساطة عدد لا يحصى من دورات التمدد والانكماش، والتطور والانحلال يحترق من آن إلى آن في لهب عظيم، ثم يتشكل على مهل من جديد. ثم يعود في تاريخه القديم كله بأدق تفاصيله، لأن تسلسل العلل والمعلولات يسير في دائرة مفرغة ويتكرر إلى غير نهاية. وكل الحوادث وكل أعمال الارادة مقررة معينة، ومن المستحيل على شيء ما ان يحدث على نحو يخالف ما حدث عليه، كما أنه يستحيل علي شيء ان ينشأ من لا شيء؛ ولو حدثت اية ثغرة في السلسلة لتمزق العالم.

والله في هذا النظام هو البداية والوسط والنهاية، وكأن الرواقيون يعترفون بضرورة وجود الدين ليكون أساسا للأخلاق الفاضلة؛ فكانوا ينظرون نظرة التسامح اللطيفة لعقائد الشعب الدينية وما فيها من شياطين، ومن تنبؤ بالغيب، وكانوا يجدون لهذه تفسيرات مصوغة في تشبيهات ومجازات يسدون بها الثغرة الفاصلة بين الخرافة والفلسفة. وكانوا يقبلون على التنجيم الكلداني ويعتقدون بصحته في جوهره، ويرون ان شئون الارض تنطبق انطباقا خطيا مستمرا على حركات النجوم. فكان ذلك لديهم صورة من صور التعاطف العالمي الذي يجعل كل ما يحدث في جزء فيه يؤثر في سائر الاجزاء. وكانهم ارادوا الا يكتفوا بوضع نظام اخلاقي للمسيحية، بل شاؤوا ان يضعوا لها ايضا نظامها الديني، ففكروا في العالم والشرائع، والحياة، والنفس، والاقدار من حيث صلتها بالله، وعرّفوا الاخلاق الفاضلة بأنها الاستسلام عن رضا واختيار لارادة الله. والله عندهم كالانسان، مادة حية، فالعلم كله جسمه، ونظام العالم وقانونه عقله وارادته؛ والكون كائن حي ضخم، الله روحه ونسمته المنعشة، وعقله المخصب، وناره المحركة المنشطة.

عزيزي الدارس، انك ترى الرواقيين احيانا يفكرون في الله تفكيرا مجردا غير مجسد ولكنهم يصورونه في الاكثر الاعم على انه قوة مدبرة تضع للكون خطته وترشده بعقلها الاعلى، وتنظم اجزاءه كلها لتؤدي اغراضا تنطبق على العقل، وتجعل كل شيء فيه يعود يالنفع على الافاضل من الناس. ويوحد "اقلاينتوس" بين الله وزيوس في ترنيمة توحيدية يقول: "حمدا لك يازيوس، حمدا يفوق حمد جميع الالهة ان اسماءك

لكثيرة، وإن قوتك لاعظم القـوى إلى أبد الدهر. منك بدأ العالم، وانت تحكم الاشياء كلها بقوة القانون، واليك تتحدث كل الاجسام لاننا نحن جميعا ابناؤك. ومن أجل هذا أرفع اليك نشيـدا أتغنى فيه بقـوتك: ان نظام الكون بأجمعـه يطيع كلمتك في تحركـها حول الارض، حيث تخـتلط الاضواء الصغيرة والكبيـرة: ألا ما أجَلّ شأنك لك الملك إلى ابد الدهـر! لا شيء يحـدث على الأرض الا بـعلمك، ولا في السـمـاء ولا في البحار: الا ما يفعله الاشرار: مدفوعين اليه بجمعتهم؛ ولكن لك ومن الحذق ما يصلح المعوج نفسه، وما لا صورة له يصور، والبعيد أمامك قريب وهكذا نظمتَ الاشياء كلها فجعلتها وحدة: خـيرها وشرها، حتى تكون كلمتك واحدة في الاشياء جمـيعها: باقية إلى الابد. طهـر نفوسنا من الحـماقـة حتى نرد اليك الـفضل الذي تفـضلت علينا به: "فنغني بمدح أعمالـك إلى أبد الابدين غناء يليق ببني الانسان". (ول ديورانت، ج 8، ص 183)

ويشبـه الرواقيون الانسان والعـالم بالكون الصغيـر في الكون الكبير، فهـو ايضا كائن حي ذو جـسم مادي والنفس مادية، ذلك بأن كل مـا يحرك الجسم أو يؤثر فـيه، وكل ما يحركه الجسم او يؤثر فيه، لا بد ان يكون ذا جسم، والنفس نسيم ناري (نيوما) Pneuma منبثة في جمـيع اجزاء الجسم، كما ان النفس العالمية منبثـة في جميع العالم. وهي تبقى بعـد الجسم اذا مات، ولكنهـا تبقى على هيـئة طاقة غيـر شخصـية، وحين يحدث اللهب الاخير تمتص الروح مرة اخرى في محيط الطاقة. (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 183)

عزيزي الدارس، ويرى الرواقيون انه اذا كان الانسان جزءا من الله او الطبيعة فانه من اليسير ان نحل المشكلة الاخلاقية علـى النحو التالي: "الخير هو التعاون مع الله أي مع الطبيعة ونعني بها قانون العالم. وليس الخـير هو الجري وراء الاستمتاع او اللذة لأن هذا الجري يخضع العقل للـشهوة، وكثيرا ما يؤذي الجسم او العـقل، وقلما يرضينا في آخر الأمـر. ولا يمكن أن تتحقق السعـادة الا بالمواءمة بين أغراضنا وسلوكنا من جـهة، وبين أغـراض العالم وقـوانينه من جهـة أخـرى، وليس ثمة تعـارض بين صالح الفـرد وصالح الكون، لأن قانون الخير في حالة الفرد يـتفق مع قانون الطبيعة، واذا لحق الشر بالرجل الطـيب فـان هذا لا يكون إلى أجل وليس هو فـي واقع الأمـر شـرا، ولو أننا استطعنـا ان نفهم الامر كله لرأينا مـا وراءه من خيـر مهمـا يظهر في أجـزائه من شر. والرجل العاقل لا يدرس العوم الطبيعية الا بالقـدر الذي يكفي لمعرفة قانون الطبيعة، ثم يكيف حياته وفق هذا القانون، وغـرض العلم والفلسفة والمبرر الوحيد لدراستـهما هما تمكيننا من ان نعيش وفق الطبيعة". (انظـر ول ديورانـت، ج 8، ص 184/183)

وبناء على ما تقدم، عـزيزي الدارس، كان الرواقي يتـجنب الترف والتـعقـيد، والمنازعات السياسية والاقتصاديـة، وهو يقنع بالقليل، ويقبل بلا تذمر صعاب الحياة وما يلاقي فيـها من خيبة. ولا يأبـه بشيء غير الفضـيلة والرذيلة - لا يبالي بالمرض والألم وبحسن السمعـة أو سوئها، بالحرية أو الرق، بالحياة أو الموت. ويقـمع كل شعور يقف في وجه سير الطبيعة او يبعث على الارتياب في حكمتها: فاذا مات ولده لم يحزن، بل يرضى بحكم القـدر معتـقدا انه احسن الاحكام، وإن خـفي الامر عليـه. ويسعى لان يكون مجـردا من الشعـور تجردا تامـا، حتى يكون هدوء عقـله أمنا من جميع تـقلبات الحظ، أو الرحمة، أو الحب، ومن وقعها عليـه. وعلى الرواقي ان يكون معلما قاسيا، واداريا صـارما، والجـبرية لا تـتـضمن الانطلاق من القـيود، بـل يجب علينا أن نكبح جماح انفسنا وأنفس غيرنا، وأن نتحمل من الناحية الخلقية تبعات جميع اعمالنا.

أنظر عزيزي الدارس مـعي إلى أن زينون عندما ضـرب عبده لانه سـرق، وكان العبد يعرف قليلا من العلم، قال له: "ولـكني قد قدر علي أن أسرق" فَرَدّ عليه زينون قائلا: "وَقُدِّرَ ايضا أن أضربك" (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 185)

ويرى الرواقي ان أجزاء الفـضيلة هي الفضيـلة نفسها، وانهـا واجب مطلق وأمر محتـوم، مستمد من اشتـراكه في الالوهية، واذا أصابه مكروه عزا نفـسه بأنه حين يتبع القانون الالهي يصبح هو الله مجسدا، فاذا سئم الحـياة، واستطاع ان يفارقها من غير ان يسبب الاذى لغيره، فـلا حرج عليه من ان ينتجر، ولما بلغ "اقلانيـتوس" سن السبعين شرع يـصوم صومـا طويلا، ثم قـال انه لن يعود بعـد ان قطع نصف الطريق، وواصل الصوم حتى مات.

وينظر الرواقي إلى الحياة الاجتماعية بالموافقة على الزواج وتكوين الاسرة ويراهما أمرين لازمـين، غير أنه يتـطلع إلى وجود مـدينة فاضلة تكون فـيهـا النساء شـركة بين الرجال، كما انه يقـبل بوجود الدولة، بل يقبل الملكية المطلقة نفـسها. ويتمنى ان يكون الناس كلهم فلاسـفة، حتى تمحى القـوانين. ولا يرى الرواقي حرجا في ان يشـترك في الشؤون السياسيـة، ويناصر كل حركة، مهما تكن ضعيـفة. تهدف إلى الحرية والكرامة الانسانية، وهو يرضى بأن يضحي بحيـاته في سبيل بلاده ولكنه يرفض كل وطنية تقف في سبيل ولائه للانسانية بأجمعها، فهو والحالة هذه مواطن عالمي.

كـان زينون - عزيزي الدارس - يتـوق كـما كـان الاسكندر لتـحطيم الحواجـز العنصرية والقومية، وان نزعتـه الدولية لتكشف عن فكرة الاسكندر التي كانت آخذة في الزوال، فكرة توحيـد بلاد شرق البحر الابيـض المتوسط. وكان يأمل أن يحل مجـتمع

واحد كبير محل تلك الدول والطبقات المتطاحنة، والا يكون في هذا المجتمع الجديد أغنياء وفقراء، أو سادة وعبيد، يحكمه الفلاسفة فلا يظلمون، ويكون فيه الناس جميعا اخوة لانهم ابناء اله واحد.

وخلاصة القول: أن الرواقية كانت فلسفة نبيلة، عملية إلى حد ابعد مما يتوقعه الساخر منها في الوقت الحاضر. لقد وحدت هذه الفلسفة جميع عناصر الفكر اليوناني وبذلتها في مجهود نهائي قام به العقل الوثني لوضع نظام اخلاقي ترتضيه الطبقات التي خرجت على الدين القديم.

عزيزي الدارس، واذا نظرنا إلى هذه الفلسفة من الوجهة النظرية رأيناها عقيدة شاذة مروعة تهدف إلى كمال قاسٍ يتطلب من اصحابه اعتزال المجتمع. ولكنها في واقع الأمر قد خلقت رجالا شجعانا، قديسين اطهارا، خيّرين امثال: كاتو الاصغر، ابكتتس، وماركس اورليوس. ولقد تأثر بها الفقه الروماني فوضع على هديها تشريعا للأمم غير الرومانية، وأعانت على حفظ كيان المجتمع القديم حتى ظهر له دين جديد. ولسنا ننكر ان الرواقيين قد شدوا من أزر الخرافات، وكان لهم أثر سيء في العلوم الطبيعية، غير انهم رأوا بنافذ بصيرتهم المشكلة الاساسية القائمة في عصرهم - وهي أساس الاخلاق الديني - وبذلوا مجهودا شريفا لِمَلْءِ الهوة الفاصلة بين الدين والفلسفة.

4.7 الأبيقورية

وقبل أن أدرس، عزيزي الدارس، واياك هذه المنظومة الفلسفية أحب أن أؤكد لك ان الابيقورية اشتقت من طبيعة اليونان المستوطنين شواطيء آسية وما فطروا عليه من حب اللذة. أما "ابيقور" فقد ولد في جزيرة "ساموس" عام 341 ق.م. وشغف بالفلسفة وهو في الثانية عشرة من عمره. ولما بلغ التاسعة عشرة رحل إلى اثينا وقضى عاما في مجمعها العلمي. وكان كفرنسيس بيكون يفضل دمقريطس على أفلاطون وأرسطو، وعنه اخذ بعض اللبنات التي شاد بها فلسفته، كما أخذ عن "ارسيتوس" حكمة اللذة، وعن "سقراط" لذة الحكمة، وعن "بيرون" عقيدة الهدوء واسمها الطنان الرنان "أتركسيا" Ataraxia. وما من شك في أنه كان يرقب بكثير من الاهتمام حياة معاصره "ثيودورس القوريني". الذي كان يخطب في اثينا داعيا إلى الخروج على الدين والاخلاق جهرة، وفي صراحة جعلت الجمعية توجه اليه تهمة الالحاد - وكان درسا لم ينسه أبيقور قط. ثم عاد إلى آسية، وأخذ يلقي محاضرات في الفلسفة في كلوفون Colophon وقد بلغ من تأثر سامعيه بآرائه وأخلاقه ان شعروا بوخز ضميرهم على انانيتهم اذ يحتفظون به في مدينتهم النائية فجمعوا مبلغا من المال واشتروا به بيتا وحديقة

في ضواحي اثينا، وأهدوها إلى "ابيقور" ليكونا له مدرسة ومنزلا.

ولما بلغ ابيقور الخامسة والثلاثين من عمره اتخذ هذه المدرسة مسكنا له واخذ يعلم الاثينيين فلسفة لم تكن ابيقورية الا في اسمها. وكان من ادلة تحرر النساء في ذلك الوقت انه كان يرحب بهن حين يجئن للاستماع إلى محاضراته. بل كان يرحب بهن في الجماعة القليلة العدد التي كانت تسكن معه. ولم يكن يفرق بين الناس بسبب مراكزهم او اجناسهم، فكان يقبل العاهرات والزوجات. والارقاء والاحرار، وكان احب تلاميذه اليه عبده "ميسيس" Mysis. واضحت العاهرة "ليونتيوم" Leontium عشيقته وتلميذته، ووجدت فيه رفيقا شديد الغيرة كأنه قد حصل عليها بالطريقة القانونية المرسومة. وولدت منه طفلا واحدا. وبتأثيره ألفت عدة كتب لم يتأثر فيها اسلوبها بفساد اخلاقها.

عاش ابيقور عيشة بسيطة، واتخذ له شعارا "عش معتدلا". وكان يؤدي واجبه في طقوس المدينة الدينية، ولكنه لم يلوث يديه بشئونها السياسية، وكان يقنع في غذائه بالماء وقليل من الخمر والخبز والجبن. وكان منافسوه يتهمونه بأنه يملأ معدته بالطعام حين يكون ذلك في مقدوره، وانه لم يتعفف عن الاكثار منه الا حين أتلف جهازه الهضمي بكثرة الاكل. كان ابيقور بارا بوالديه، سخيا مع اخوته. كان تلاميذه ينظرون اليه كأنه اله قائم بينهم، وكان شعارهم بعد موته "عش كأن عين ابيقور ترقبك". الف ابيقور ثلثمائة كتاب، وصلنا منها قطع متفرقة من كتابه "في الطبيعة". (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 168)

بدأ ابيقور بتقرير المبدأ القائل ان هدف الفلسفة هو أن تحرر الناس من الخوف - وخاصة من خوف الالهة - وهو يكره الدين لأن الدين في رأيه، يقوم على الجهل، ويزيده، ويظلم الحياة بما يبثه في النفس من رهبة جواسيس السماء، والاقدار الصارمة القاسية، والعقاب الذي لا يقف عند حد. ويقول ابيقور ان الالهة موجودة، وانها تستمتع في مكان بعيد بين النجوم بحياة صافية هادئة منزهة عن الموت، ولكنها اقل من أن تشغل نفسها بشؤون البشر، وهم ذلك النوع الصغير التافه من الخلائق، وليس الالهة هي التي أنشأت العالم وليست هي التي ترشده وتسيره. ويضيف ابيقور قائلا: "فان كان هذا لا يرضيكم، فلتعزوا أنفسكم بأن تفكروا في أن الآلهة بعيدة عنكم بعدا لا تستطيع معه أن تضركم او تنفعكم، ذلك انها لا تستطيع ان تراقبكم، أو أن تحكم على أعمالكم، أو أن تقذف بكم إلى الجحيم، أما الالهة الخبيثة او الشياطين فهي اوهام تعسة تصورها لنا أحلامنا". (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 169)

عزيزي الدارس، لقد رفض ابيقور الدين، ورفض كذلك الميتافزيقا، وحجته في هذا اننا عاجزون عن معرفة الشيء عن العالم الذي لا تدركه الحواس؛ ولذلك يجب ان لا نشغل عقولنا بغير التجارب التي تذكرها الحواس، وان تعد هذه التجارب اخر محك للحقيقة. فاذا لم تأت المعرفة من الحواس، فمن أي طريق آخر تأتي إذاً؟ واذا لم تكن الحواس هي الحكم الاخير في الحقائق، فكيف نجد هذا الحكم في العقل الذي لا تصل اليه المعلومات الا عن طريق الحواس؟

ومع هذا فان ابيقور يرى ان الحواس لا تمدنا بمعلومات اكيدة عن العالم الخارجي، فهي لا تمسك بالشيء الخارجي نفسه، بل تمسك بالذرات الدقيقة التي يقذف بها كل جزء من سطحه، والتي تطبع على حواسنا نسخة صغيرة من طبيعته وشكله، فاذا كان لا بد لنا والحالة هذه ان نكون لانفسنا عن العالم فخير لنا ان نأخذ برأي دمقريطس القائل بأن لا شيء موجود، أو يمكن أن يكون معروفا لنا، بل لا شيء يمكن ان نتخيله، اللهم الا الاجسام والفضاء، وبأن الاجسام كلها تتألف من ذرات لا تنقسم ولا تتغير ... وليس لهذه الذرات لون، ولا حرارة، ولا صوت، ولا رائحة. وانما تنتج كلها من الكريات المشعة من الاجسام والتي تلقي على اعضاء الحس في اجسامنا. ولكن الذرات تختلف في حجمها، ووزنها، وشكلها: لأن هذا الغرض وحده هو الذي نستطيع ان نفسر به ما بين الاشياء من اختلاف لا آخر له.

عزيزي الدارس، كان أبيقور يحب أن يفسر عمل الذرات على مباديء آلية خاصة، ولكنه لما كان مولعا بالأخلاق أكثر من ولعه بنظام الكون، ولما كان حريصا على ان يستمسك بحرية الارادة بوصفها مصدر التبعة الاخلاقية ودعامة الشخصية، فانه يترك "دمقريطس" معلقا بين السماء والارض، ويفترض نوعاً من التـقائية في الذرات: فهي تحيد قليلا عن الخط العمودي حين تهوي في الفضاء، وبهذا تدخل في التراكيب التي تتكون منها الاركان (العناصر الأربعة)، والتي تتكون منها عن طريق هذه الاركان المشاهد الخارجية. وهنالك عوالم كثيرة، ولكنه ليس من العقل في شيء ان نشغل بها أنفسنا. وفي وسعنا ان نفترض ان حجمي الشمس والقمر يقربان من حجميهما اللذين يبدوان لنا، فاذا فعلنا هذا كان في مقدورنا ان نصرف وقتنا في دراسة الانسان. (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 170)

ان الانسان عند ابيقور، نتاج طبيعي في جزيئاته ومجموعه، وأكبر الظن ان الحياة قد بدأت بالتوالد التلقائي، ثم ارتقت على غير خطة مرسومة بالانتخاب الطبيعي لأصلح الاشكال. وليس العقل الا نوعا اخر من المادة، والروح جسم مادي رقيق منبث في جميع اجزاء الجسم، وهي لا تستطيع ان تحس او تعمل الا بوساطة الجسم، وتموت

بموته. ولكن علينا بالرغم من هذا كله ان نقبل ما تدركه ادراكا مباشرا من اننا أحرار فيما نريد، والا كنا الاعيب على مسرح الحياة لا قيمة لها ولا معنى لوجودها. وخير لنا ان نكون عبيدا للالهة التي يقول بها الخلق، من ان نكون عبيدا للأقدار التي يقول بها الفلاسفة.

ان وظيفة الفلسفة الحقيقية ليس هي تفسير العالم، لأن الجزء لا يستطيع قط ان يفسر الكل. بل وظيفتها ان تهدينا في بحثنا عن السعادة، لقد كُتِبَ - عزيزي الدارس - على مدخل حديقة ابيقور تلك العبارة الجذابة: "أيها الزائر، ستكون هنا سعيدا، لأن السعادة هنا تعد أعظم خير" وليست الفضيلة في هذه الفلسفة غاية في ذاتها، بل هي وسيلة لا بد منها للوصول إلى الحياة السعيدة. وليس في وسع الانسان ان يحيا حياة سارة من غير ان يحيا حياة تتصف بالفطنة، والشرف والعدالة، وليس في وسعه ان يحيا حياة متصفة بالفطنة والشرف والعدالة من غير ان يحيا حياة سارة. وليس في الفلسفة الا قضيتان اثنتان مؤكدتان، وهما ان اللذة خير، وأن الألم شر، والملاذ الجنسية في ذاتها مشروعة، وستجد الحكمة لها مكانا فيها؛ غير انه لما كانت هذه الملاذ قد تؤدي إلى عواقب وخيمة، فانها في حاجة إلى جهاد حصيف فطين لا يستطيعه الا صاحب الذكاء. "فاذا قلنا إذاً، ان اللذة هي اعظم خير، فلسنا نقصد بذلك لذات الرجل الفاجر الداعر، او اللذات التي تقع في مجال المتعة الجنسية ... ولكننا نقصد تحرر الجسم من الالم، والروح من الانزعاج، ذلك ان الشراب والمرح الدائمين او الاستمتاع بصحبة ... النساء او ولائم السمك وغيره من الاطعمة الغالية ليست هي التي تجعل الحياة سارة لذيذة، بل الذي يجعلها كذلك هو التفكير الهادىء الرزين، الذي يفحص عن أسباب اختيار هذا الشيء وتجنب ذاك، والذي يطرد الافكار الباطلة التي ينشأ عنها معظم ما يزعج النفس من اضطراب". (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 171)

عزيزي الدارس، ونخلص من هذا إذاً إلى أن الفهم ليس هو أسمى الفضائل فحسب، بل انه ايضا اسمى انواع السعادة، لأنه يعنينا اكثر مما تعنينا اية موهبة اخرى من مواهبنا على تجنب الالم والحزن. والحكمة هي وسيلتنا الوحيدة إلى الحرية: فهي تحررنا من رق الانفعالات، ومن خوف الالهة، والفزع من الموت، وهي تعلمنا كيف نتحمل مصائب الدهر، وكيف نستمد من طيبات الحياة البسيطة ولذات العقل الهادئة لذة عميقة خالدة، وليس الموت مخيفا رهيبا كما نظنه اذا نظرنا اليه نظرة عاقلة قائمة على الذكاء والفطنة، فقد يكون ما ينطوي عليه من الالم اقصر امدا وأخف وقعا مما عانيناه المرة بعد المرة في اثناء حياتنا. والذي يخلع على الموت ما يعلق به من رهبة هو اوهامنا السخيفة عما قد يكون وراء الموت.

وينظر الابيقوريون إلى القليل الذي تحتاجه القناعة الحكيمة؛ اذ أنها لا تحتاج الا إلى الهواء الطلق، وأرخص الطعام، ومأوى متصنع، وفراش، وقليل من الكتب، وصديق. ويقولون: "وكل شيء يسهل الوصول عليه، والعديم النفع وحده هو الكثير النفقة".

ويقول الابيقوريون: ان علينا الا نقضي حياتنا في نكد مستمر نحاول ان نحقق شهوة تطوف برؤوسنا، اذ في وسعنا ان نفعل الشهوات متى كان عجزنا عن اشباعها لا يسبب لنا ألما بحق، وحتى الحب، والزواج، والابوة أمور يمكن الاستغناء عنها، فهي تعود علينا بلذائذ متقطعة، وبحزن لا ينتهي ابدا. واذا تعودنا المعيشة البسيطة، والأساليب غير المعقدة، فذلك طريق لا يكاد يخطيء يوصلنا إلى صحة الجسم. والرجل الحكيم لا يحترق قلبه بالمطامع أو شهوة الصيت؛ وهو لا يحسد اعداءه علي ما نالوا من حظ طيب، بل انه لا يحسد اصدقاءه على هذا الحظ؛ وهو يتجنب ما في المدنية من حمى المنافسات وضوضاء المنازعات السياسية، بل يطلب هدوء الريف، ويجد قمة السعادة وأعمقها في هدوء الجسم والعقل، ولما كان هو المسيطر على شهواته، فانه يعيش بعيدا عن الادعاء الكاذب، ويطرح وراءه كل المخاوف، وتجزيه: "حلاوة الحياة" الطبيعية بأعظم انواع الخير وأعلاها شأنا وهو السلم.

عزيزي الدارس، وعلى الرغم من ان الابيقورية هي التي نقلت النظرية الذرية من العهد القديم إلى العهد الحديث، كانت نقطة تحول من نزعة التشوف القوية التي أنشأت العلم اليوناني والفلسفة اليونانية. وأكبر عيب في هذه الفلاسفة هو سلبيتها: فهي تفكر في اللذة على أنها التحرر من الالم، وفي الحكمة على انها فرار من مخاطر الحياة وامتلائها؛ ان الابيقورية خطة صالحة طيبة للفردية ولكنها لا تصلح للمجتمع. وكان ابيقور يحترم الدولة لانه يراها شرا لا بد منه، يستطيع تحت حمايتها ان يعيش آمنا من الاذى في حديقته، ولكن يبدو انه لم يُعْنَ بالاستقلال القومي، بل يبدو ان مدرسته كانت في واقع الامر تفضل الملكية المطلقة على الديمقراطية، لأن الاولى اقل من الثانية ميلا إلى اضطهاد الاحاد، وكان ابيقور على استعداد لان يقبل اية حكومة لا تضع أي عقبة في سبيل طلب الحكمة والصداقة طلبا مطلقا من القيود والعوائق. وكان اخلاصه للصداقة يعدل اخلاص الاجيال التي سبقته للدولة، يقول: "الصداقة أهم الوسائل التي تهيئها الحكمة لسعادة الحياة بأجمعها". وكانت صداقات الابيقوريين مضرب المثل في دوامها، ورسائل زعيمهم مليئة بعبارات الحب الخالص القوي. وقد بادله مريدوه هذا الشعور بالقوة التي نعهدها في مشاعر اليونان، وحسبنا دليلا على هذا أن الشاب كولوتيز Colotes حين سمع ابيقور لاول مرة خر راكعا ويكى، وحياه بانه اله.

ظل ابيقور - عزيزي الدارس - ثلاثين عاما يعلم في حديقته ويفضل المدرسة عن الاسرة حتى اذا كان عام 270 ق.م قاسى اشد الالام من حصوة في المثانة، ولكنه تحمل الالم في صبر عجيب، ووجد وهو على فراش الموت متسعا من الوقت للتفكير في اصدقائه. فكتب اليهم يقول: "اكتب اليكم في هذا اليوم السعيد الذي هو آخر ايام حياتي. ان انسداد مثانتي، والامي الداخلية قد وصلا إلى غايتهما، ولكن يقف في سبيلهما ابتهاج عقلي حين افكر في حديثي معكم. اعتنوا باطفال "بتردوروس" العناية الخليقة باخلاصكم لي وللفلسفة - طوال حياتكم" وأوصى ابيقور بما يملك للمدرسة.

عزيزي الدارس، ترك ابيقور وراءه مريدين خلف بعضهم بعضا زمنا طويلا، وقد بلغ من وفائهم لذكراه ان ظلوا قرونا طوالا يأبون ان يغيروا كلمة واحدة من تعاليمه. وعلى الرغم من إساءة الجمهور لفهم الابيقورية وتنديدهم بها علنا، وسيرهم على سننها في اوساط كبيرة في جميع انحاء "هلاس". الا ان كثيرا من اليهود الهلنستيين اتبعوها، وبلغ من كثرتهم ان اضحت كلمة ابيقوري عند الاحبار مرادفة لكلمة مرتد عن الدين. وَظَلّ للمدرسة الابيقورية أتباع ينتمون اليها جهرة إلى عهد قسطنطين، ومنهم من سَوّأ اسم استاذه فجعله مرادفا للتخمة في المأكل والمشرب، ومنهم من ظل أمينا يعلم الحكم البسيطة التي لخص فيها فلسفة: "الالهة لا ينبغي ان تخاف، والموت لا يمكن الشعور به، والخير يستطاع نيله؛ وكل ما نرهبه يمكننا التغلب عليه". (انظر ول ديورانت، ج 8، ص 175)



نشاط (9)

ادرس في كتاب الروح وقارن بين نظرة الرواقيين للأمر.

اكتب تقريرا موجزا عن نظام المدينة الفاضلة لافلاطون وناقشه ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

اجمع عناوين ثلاثة كتب لارسطو.



تدريب (9)

أ- ما هي النظرة الابيقورية إلى الموت؟

ب- فيم كان يتفق الابيقوريون والرواقيون؟

أسئلة التقويم الذاتي (9)

أ- وضح نظرة ابيقور للحواس؟

ب- كيف نظر الرواقيون إلى الروح؟

8. الهلنستية والافلاطونية المحدثة ونهاية العالم القديم

عزيزي الدارس، ان السبب الرئيس الذي يسر للرومان فتح بلاد اليونان هو انحلال الحضارة اليونانية من الداخل، فقد دمرت بلاد اليونان نفسها بتقطيع غاباتها، واتلاف تربتها، واستنفاذ ما في باطن ارضها من معادن ثمينة، وبتحول طرق التجارة عنها - واضطراب الحياة الاقتصادية نتيجة لاختلال النظام السياسي، وفساد الديمقراطية وانحلال الاسر الحاكمة، وفساد الاخلاق، وانعدام الروح الوطنية، ونقص السكان وتدهور قوتهم الجسمية، واستبدال الجنود المرتزقة بالجيوش الوطنية، وما ادت اليه الحروب الاهلية من تطاحن بين الاخوة واتلاف لمواد البلاد، والقضاء على الكفايات بالفتن المتضادة الصماء.

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه هذه الامور مسرح الاحداث في اليونان كانت هناك دولة صغيرة قائمة على ضفة نهر "التيبر" تحكمها ارستقراطية صارمة بعيدة النظر، تدرب جحافلها القوية المجندة من طبقة الملاك، وتتغلب على جيرانها ومنافسيها، وتستولي على ما في البحر الابيض المتوسط من طعام ومعادن، وتزحف عاما بعد عام على المستعمرات اليونانية في جنوبي ايطاليا. ولسنا - عزيزي الدارس - في معرض الحديث عن التطورات السياسية التي ادت إلى استيلاء روما على بلاد اليونان. (ول ديورانت، ج 8، ص 196 فما بعد)

واؤكد لك - عزيزي الدارس - ان الحضارة اليونانية لم تمت حينذاك بل عاشت بعد ذلك عدة قرون. وما ان ماتت حتى اورثت امم اوروبا والشرق الادنى تراثا ليس له مثيل.

واخذت روما تراث اليونان في شكله الهلنستي: فأخذ كتاب مسرحياتها عن مناندر وفليمون، وقلد شعراؤها اساليب الادب الاسكندري واوزانه وموضوعاته، واستخدم فنها الصناع اليونان والاشكال اليونانية واندمجت في شرائعها قوانين المدن اليونانية، وصيغ نظامها الامبراطوري المتأخر على مثال الملكيات اليونانية -. وبذلك

يصح القول بأن الهلينية قد فتحت بعد الفتح الروماني؛ فكان كل امتداد لسلطان الرومان انتشارا للحضارة اليونانية. هذا وسأدرس واياك عزيزي الدارس عن شخصيتين رومانيتين كان لهما تأثيرهما على نقل الحضارة من اليونان إلى الرومان.

9. من اليونان إلى الرومان

1.9 ماركس اوريليوس Marcus Aurelius

الامبراطور الفيلسوف القديس كان خير الملوك على الاطلاق. ويقول جيبون Gibbon: "لو أن انسانا طلب اليه ان يحدد عن تاريخ العالم وقتا كان فيه الجنس البشري اعظم ما يكون سعادة ورخاء، لما تردد في ان يقول انه هو الفترة التي تمتد من جلوس نيرفا إلى موت مارقس اوريليوس. ولعل حكمهم مجتمعا هو الفترة الوحيدة في تاريخ العالم التي كانت فيها سعادة شعب عظيم هدف الحكومة الوحيد". (انظر ول ديورانت، ج 10، ص 424)

ولد مارقس اوريليوس فيرس في روما عام 121 ق.م. كان من اسرة انيناي An-nii الوافدة من سكوبا Sccuba إلى روما. ويبدو ان ما اشتهروا به في هذا البلد من شرف قد اكسبهم لقب فيرس (اي الحق).

مات والد مارقس بعد ثلاثة اشهر من مولده فكفله جده الذي كان «هدريان» يتردد على بيته. حيث اعجب هدريان بالغلام مارقوس ورأى فيه طراز الملوك فيما بعد.

التحق مارقس في شبابه بخدمة الهياكل والكهنة، وحفظ عن ظهر قلب كل كلمة من كلمات الطقوس الدينية القديمة الغامضة المتعذرة الفهم. ولم تنقص الفلسفة في مستقبل الايام من مثابرته على أداء تلك الطقوس، وان كانت هذه الفلسفة قد زعزعت عقيدته الدينية، كان مارقس يحب المباريات والالعاب الرياضية.

كان يشرف على تربية مارقس سبعة عشر «مدرسا»؛ فقد كان هناك اربعة نحاة، واربعة من علماء البلاغة، وواحد من علماء القانون، وثمانية من الفلاسفة. وكان اشهر هؤلاء الاساتذة كلهم م. كورنليوس فرنتو M. Cornelius Fronto معلم البيان. وكان مارقس يحبه. غير ان مارقس ادار ظهره إلى فن الخطابة ورآه فنا باطلا غير شريف وانهمك في دراسة الفلسفة.

وتجدر الاشارة إلى ان كبار الفلاسفة في ذلك الوقت كانوا كهنة بلا دين، ولم يكونوا ميتافيزيقيين بلا حياة. غير ان ماركوس آمن باقوالهم ايمانا جديدا انهمك على اثره في حياة الزهد والتقشف. ثم حوله عن احتراف الفلسفة والكهنوت عاملان كانا لهما اثر بالغ في حياته. أولهما: ما تولاه من المناصب السياسية الصغرى منصبا في اثر منصب فتعارضت لديه واقعية الرجل مع مثالية الشاب الغارق في التأملات. أما العامل الثاني فصلته الوثيقة بانطونيوس يبوس. وكان الاسم الذي نعرفه به وهو "اوريليوس" هو اسم القبيلة التي ينتمي اليها انطونيوس، وورث العرش بعد انطونيوس واتخذ لوسيبسوس فيروس زميلا له وابنته لوسلا Lucilla.

طلب مارقس من مجلس الشيوخ ان يخلع على يبوس مرآسم التكريم القدسية، واتم الهيكل الذي شرع يبوس في إقامته تخليدا لذكرى زوجته، ووهبه لذي انطونيوس وفوستينا معا. وحبا مجلس الشيوخ بكل انواع المجاملة، وسره ان يَجِدَ الكثيرين من اصدقائه قد شقوا طريقهم إلى عضويته، وحيته ايطاليا والولايات عن بكرة ابيها، ورأت فيه تحقيقا لحلم افلاطون: لقد اصبح الفيلسوف ملكا، غير انه لم يفكر قط في ان يجعل من الامبراطورية: مدينة فاضلة. فقد كان مثل انطونيوس محافظا متمسكا بالقديم؛ ذلك ان المتطرفين لا ينشأون في القصور، وكان ملكا فيلسوفا بالمعنى الرواقي لا الافلاطوني لهذا اللفظ. وقال يحذر نفسه: "لا تؤمل قط ان تقيم جمهورية افلاطون. وحسبك انك اصلحت أحوال البشر إلى حد ما، ولا تظن ان هذا الاصلاح أمر قليل الخطر. ومن ذا الذي يستطيع تغيير آراء الناس؟ واذا لم تستطع تغيير عواطفهم، فانك لا تستطيع ان تجعل منهم الا عبيدا متمردين ومنافقين متلونين". (انظر ول ديورانت، ج 10، ص 428)

كان مارقس قد تبين ان الناس لا يرغبون كلهم ان يكونوا قديسين، ووطّن النفس على ان يعيش في عالم مليء بالخبث والفساد، ومن اقواله في هذا: " ان الالهة المخلدين يرضون ان يصبروا آجالا طوالا على هذه الكثرة من الاشرار وعلي ما ترتكبه من آثام كثيرة، دون ان يغضبوا بل أنهم يحيطون هؤلاء الاشرار بالنعم الموفورة. فهل يليق بك على قصر اجلك ان يسرع اليك الملك؟". (انظر ول ديورانت، ج 10، ص 428)

لقد وطد مارقس العزم على ان يعتمد على القدوة الحسنة لا على سطوة القانون، فجعل نفسه بالفعل خادما للدولة، وأخذ على عاتقه جميع أعباء الادارة والقضاء، ولم يسمح لنفسه بشيء من الترف، وعامل الناس جميعا معاملة الزملاء، وأنهك نفسه بكثرة

العمل بأن يسر للناس مقابلته. ولم يكن ماركس بالسياسي العظيم، فقد انفق كثيرا من أموال الدولة في الهبات النقدية التي كان ينفح بها الشعب والجيش، ومنح كل فرد من أفراد الحرس البريتوري عشرين ألف سيسترس. وزاد عدد الذين كان من حقهم ان يطلبوا الحبوب من غير ثمن، واكثر من الالعاب باهظة النفقة، وأعفى الناس والولايات من كثير من الضرائب والجزية المتأخرة. ولكن لم يكن هذا العمل حكيما في وقت كانت الثورات والحروب تهدد الدولة تهديدا لا يخفى على عين الحاكم البصير، وكانت نيرانها مشتعلة بالفعل في كثير من الولايات وعلى أطراف الحدود عظيمة الامتداد.

عزيزي الدارس، واصل ماركس اورليوس الإصلاح القانوني الذي بدأه هدريان؛ فزاد أيام جلسات المحاكم، وقصر آجال المحاكمات، وكثيرا ما كان يجلس بنفسه في مجلس القضاء، ولا يرحم من يرتكب جريمة من الجرائم الكبرى، ولكنه كان في العادة رحيما. وقد ابتكر وسائل قانونية لحماية عديمي الاهلية من جشع الاوصياء، ولحماية المدينين من الدائنين، والولايات من الحكام، وغض الطرف عن عودة الجماعات الدينية التي كانت محرمة قبل عهده، وبسط حماية القانون على الهيئات التي كانت في حقيقة أمرها جماعات تعنى بدفن الموتى، واكسبها الشخصية المعنوية التي يحق لها بمقتضاها ان تقبل الوصايا، وأنشأ صندوقا لينفق منه على دفن الموتى من الفقراء. وبلغ عدد المستفيدين من الأموال التي خصصتها الدولة لتشجيع النسل بين الفلاحين رقماً كبيراً وأنشأ صندوقا لمساعدة الفتيات الفقيرات، وألغى الاستحمام المختلط، وحرم دفع أجور عالية للممثلين والمجالدين، وفرض على ما تنفقه المدن على الالعاب قيودا تحد من هذه النفقات وتجعلها متناسبة مع ثروتها، وأوجب أن تكون الاسلحة التي يستخدمها المجالدون غير ذات أسنة.

عزيزي الدارس، لقد أحب الشعب ماركوس، ولكنه لم يحب قوانينه، ولما جند المصارعين في جيشه الذي سيره للحروب المركمانية Marcomannic قال الناس في غضب: "انه يسلبنا أسباب سرورنا، ويريد أن يرغمنا على أن نكون فلاسفة". (ول ديورانت، ج 10، ص 429)

ان شهرة ماركس بالفلسفة، وأيام السلم الطويلة التي دامت أيام هدريان وانطونيوس. قد شجعتا الثوار في داخل البلاد، والبرابرة في خارجها على العصيان. فاندلعت نيران الثورة في بريطانيا عام 162ق.م. وغزا التشاتي Chatti ألمانيا الرومانية. وأعلن فلوجا سيز Vologases الثالث ملك بارثيا الحرب على روما. واختار ماركس اقدر القواد لتقليم اظفار الفتنة في الشمال، وعهد إلى لوسيوس فيرس لمحاربة بارثيا، غير ان بانثيا Panthea الانطاكية الشديدة الجمال أغوته فتوقف عن القتال. فعهد

مارقـوس إلى افدليوس كاسـيوس Avidius Cassius الذي يلي لوسيـسـوس في قيادة الجيش وأرسل له خـطة كانت من الإتقان بحـيث اعانتـه على صد البـارثين إلى ما بين النهرين، والى رفع الراية الرومانيـة مرة اخرى على سلوقية وطشقـونة. وعاد لوسيوس من انطاكية إلى روميه حيث أقيم له احتفال بالنصر شاركه فيه مارقوس.

والجدير بالذكر انـه وابان هذه الفترة (167/166) ق.م. فتك بالجـيش الروماني وبأهالي ايطاليا وباء عظيم وجفاف اعظم هلك فيه الكـثيرون. وابان ذلك عبرت القبائل الضاربة على ضـفاف الدانوب النهـر، وأخذت تزحف على المدن الرومـانية، وبعضـها شقت طريقهـا فوق جبال الالب، وهزمت كل الجيوش التي أرسلت لصـدها وحاصرت اكويليا Aquileia القريبة من البندقيـة وأخذت تهدد فرونا Verona. الامر الذي اضطر مارقـوس إلى قيادة الجـيوش بنفسـه بعد ان جند رجال الشـرطة، والمجالدين، والعبـيد وقطاع الطرق، ومرتزقة البـرابرة. كما أمر كهنة الاديان الاجنبيـة ان يقربوا القرابين إلى روما حسب طقوسهم المخـتلفة. ولتمويل الجيوش باع في السوق العـامة ما في القصور الامبراطورية من خـزانات الثياب والتحف الثمينة، والحلي. وحـصن المدن القائمة على الحدود من غـاله إلى بحر ايـجه، وسد الممـرات الموصلة إلى ايطاليـا، وأغرى القـبائل الالمانية والسكوفيـة بالرشوة السخية على الهـجوم على مؤخرة الغزاة. ثم درب جـيشه ونظمه أحسن تدريب وتنظيم بجد وشجاعة تثيران اعظم الاعجاب. ثم قاد الجيش بنفسه ووضع خطة الحرب واستطاع الانتصار على الغزاة وبدد شملهم عند نهر الدانوب، حتى لم يكن ينجو منهم من القتل الا من وقع في الاسر.

عاد مارقس إلى روما. وفي طريق عودته مات صديقه لوسيوس. وفي روما عانى مـارقوس من شـدة المرض. ثم أقدم التـشاتي في عـام 169 ق.م على غزو الاقـاليم الرومانية المختلـفة. وغزا المغاربة اسبانيا. وكـان البرابرة يزدادون في كل يوم قوة. ورأى مارقوس ان الحرب صارت حرب حياة أو مـوت. وفي اوج حربه المركمانية الثانية 175- 169 ق.م. اخـذ مارقـوس يكتب كتـابه (التـأملات) وهو أهم مـا يذكره العـالم به. والكتاب بكشف لنا عن قديس ضـعيف غير معصـوم من الزلل يقلب في ذهنه مشكلتي الاخلاق والاقـتدار، وهو يقود جـحفـلا عظيما في صـراع يقف على نتـيجتـه مصـير الامبراطورية.

ان هذه اللمـحـة صـورة من أدق الصـور التي حـفظهـا الزمـان لإعظم رجـاله وأصدقها. لقـد كان مارقوس يطارد السرماتيين بالنهار، ولـكنه كان في وسعه ان يكتب عنهم بالليل فيقول: "ان العنكبـوت اذا امسك بذبابة، ظن أنه أقدم على عمل عظيم،

وكذلك يظن من صاد أرنبا . . أو أسر السرماتـيين . . . أليس هؤلاء جميعا لصوصا؟"
(ول ديورانت، ج 10، ص 435)

وعلى الرغم من ذلك استمر في محاربة الغزاة مدة ست سنين استطاع في النهاية من هزيمتهم. وفي اثناء ذلك تمرد افـديوس كاسيوس واعلن نفـسه امبراطورا فـسار اليه مارقوس اوريليـوس غير ان احد الضباط اغـتال افديوس كاسيوس وخـمدت الثورة التي اشعلـها. ثم عين خليـفته عـلى العرش ابنه كـمودس وأقـدم في عام 178 ق.م. على الحـرب المركمـانية الثـالثة، واجـتاز نهـر الدانوب وهزم القـاديين واوشك ان يضـم إلى الامبـراطورية بلاد القاديين، والمركـمانيين والسـرماتيين ويجـعلها ولايات جديـدة تابعة للامبراطورية، غيـر ان المرض انتابه انئذ فأمر كمـودس ان يواصل السير على الخطة التي اوشكت ان تثمـر ثمرتهـا ويحقق حلم اغسطس، ويدفع حـدود الامبـراطورية إلى نهر الألب. ثم امتنع عن الطعام والشراب، ومرت به وهو على هذا الحال خمسة أيام، وفي اليوم السادس وقف على قـدميه وقدم كمودس للجيش على انـه الامبراطور الجديد، ثم عاد إلى فراشه واسلم الروح بعد قليل. (ول ديورانت، ج 10، ص 437)

2.9 سنكا ابيكتاتوس Cenca Abectatus

كان مولده فـي قرطبة (Corduba) حوالي العام الرابع قبل الميـلاد، وسرعان ما جيء به إلى روما حيث تلقى العلم هناك، تشرب الفلسفة من أبيه، والرواقية من أتالس (Attalus)، والفيثاغـورية من سوتيون (Sotion)، والفلسفـة العملية من زوج عمـته حاكم مصـر من قبل الرومان، وحاول مدى عام أن يكـون نباتي المأكل، لكنه عدل عن ذلك، غير أنه ظل طوال حيـاته مقلا من الطعام والشراب، عانى كـثيرا من مرض الربو وضعف الرئتين، حتى انه فكر فـي بعض الاحيان في الانتحار، ومارس مـهنة المحاماة، تزوج بمبيابولونيا Pompeia Paulina وعاش معها عيشة مستمرة عجيبة حتى مماته".

ولما ورث سنكا ثروة أبيـه، ترك مـهنة المحـاماة، واشـتـغل بالكتـابة. ولما أرغم كالجيولا، كرمتيوس كوروس Crrmutiud Cordus على أن يقتل نفسه كتب سنكا إلى ابنته مقالة تعزية، وكانت هذه المقالات من الموضوعات التي يكتبها الخطباء والفلاسفة في تلك الأيام، واراد "كالجيولا" ان يقتله عقابـا له على وقاحته، ولكن اصدقاءه أنجوه من القتل بـقولهم انه لن يلبث ان يموت من السل اذا مـا ترك وشأنه، وبعـد قليل من ذلك الوقت إتهـمه "كلوديوس"، بوجـود علاقـات غـير شـريفـة بينه وبين "يوليـا" ابنة

جرمنكوس، فحكم عليه مجلس الشيوخ بالاعدام، ولكن "كلوديوس" استبدل هذا الحكم بنفيه إلى جزيرة كورسيكا.

عزيزي الدارس، قضى سنكا في هذه الجزيرة الصخرية الوعرة ثماني سنين (41-49 ق.م) بين سكانها البدائيين وصبر على هذا العيش، كاتبا إلى أمه يواسيها يه، ولما أن توالت عليه أعوام الشقاء، ضعفت نفسيته واستولى عليها اليأس، فكتب إلى أمين سر كلوديوس مقالة يرجوه فيها متذللا ان يعفو عنه، ولما لم يفده هذا الرجاء حاول ان يخفف عن آلامه بكتابة المآسي. غير ان ما كتبه سنكا لم يمثل على خشبة المسرح، فسنكا لم ينجح في مسرحياته لانصرافه فيها إلى التفكير اكثر من انصرافه الى الاخراج المسرحي، غير اننا لا ننكر ان في مسرحياته ابياتا جميلة. ويجعله "اسكلجر" Scagli-ger سيد النقاد جميعا في عصر النهضة. (ول ديورانت، ج 10، ص 175)

عزيزي الدارس، ولما عادت الاداب القديمة إلى الحياة، كانت مسرحيات "سنكا" هي النموذج لما كتب باللغات الحديثة، وعنه اخذت الصيغ الفصيحة، ووحدة الزمان والمكان. فكتب المسرحيات الحديثة بهذا الطابع وظلت مسيطرة على المسرح الفرنسي حتى القرن التاسع عشر. ولقد كانت ترجمة هاي وود Hey Wood عام 1559 م لمسرحيات سنكا في انكلترا، التي كانت اقل البلاد تأثرا بنفوذه، المثال الذي نسجت على منواله مأساة جوربودك Gorboduc اولى المآسي الانجليزية، وكان لهذه المآسي أثرها في مسرحيات شكسبير.

ولما رأت "أجريبينا" ان تجعل من ابنها نيرون اسكندرا ثانيا استدعت سنكا واعادته إلى مكانه في مجلس الشيوخ، وظل خمس سنين يعلم تلميذه الشاب، وخمس سنوات اخرى يرشد فيها الامبراطور ويمسك بزمام الدولة. وكان طوال هذه العشر السنوات يدبج الرسائل لاصلاح شأن نيرون، كما كتب عدة رسائل مختلفة يعرض فيها الفلسفة الرواقية عرضا ظريفا. ومن هذه الرسائل رسائله في الغضب. وفي قصر الحياة، وفي هدوء الروح، وفي الرحمة، وفي الحياة السعيدة، وفي ثبات المسرح، وفي الفوائد، وفي حسن التدبير. وهذه الرسائل ملأى بالنكات.

ورث سنكا عن أبيه ثروة كبيرة كانت مأخذاً عليه أمام ناقديه وأعدائه، غير انه رد عليه في مقاله "عن الحياة السعيدة" قال: "ان الحكيم لا يتحتم عليه ان يكون فقيرا، فاذا جاءه المال من طريق شريف كان في وسعه ان يقبله، ولكن يجب ان يكون في مقدوره أن يتخلى عنه متى شاء دون ان يندم عليه". (ول ديورانت، ج 10، ص 177)

كان سنكا - وعلى الرغم من ثروته يعيش عيشة الزهد والتقشف بين اثاثه

الجميل، ينام علي خشبة صلبة خشة، ولا يشرب الا الماء القراح، ولا يتناول الا القليل من الطعام، حتى ضمر جسمه من قلة التغذية قبل وفاته. وكتب في ذلك يقول: "إن كثرة الطعام تذهب الذكاء، والافراط فيه يختق الروح". (ول ديورانت، ج 10، ص 177)

أما ما اتهم به من الشذوذ الجنسي فلعله كان يصدق عليه أيام شبابه، ولكنه اشتهر بعطفه الدائم على زوجته. والحق انه لم يقرر في حياته ايها احب اليه الفلسفة او السلطة، الحكمة او السعادة، ولم يقتنع في يوم من الايام بتعارض الفلسفة مع السلطة، أو الحكمة مع السعادة، وكان يعترف بانه حكيم جد ناقص، ويقول في هذا: "إني لا امتدح الحياة التي احياها، بل الحياة التي يجب ان احياها، وهي الحياة التي أحبو اليها حبوا، وهي بعيدة عني كل البعد". (ول ديورانت، ج 10، ص 178)

عزيزي الدارس، لقد حكم سنكا الامبراطورية حكما صالحا، غير انه أساء إلى سمعته بالتغاضي عن شر ما ارتكبه نيرون من الجرائم، وفلسفته في ذلك تتضح من قوله: السماح بارتكاب الكثير من الشر حتى يكون في مقدوره ان يفعل القليل من الخير". كان سنكا يحس بما في منصبه الرسمي من ذل ومهانة، وكان يتوق إلى التحرر من عبوديته هذه، فوصف قصر الامبراطور بانه "سجن يشقى فيه العبيد"، وكان يتمنى ان لو قضى حياته كلها في دراسة الحكمة، وتجنب دياجير السلطان، وكان يسره ان يتخلى من حين إلى حين عن مشاغله السياسية، وطلب وهو في سن السادسة والستين من عمره، ان يؤذن له باعتزال منصبه في القصر، غير ان نيرون لم يجبه إلى طلبه.

وعندما طلب نيرون إلى جميع من في الامبراطورية ان يكتتبوا في اعادة بناء روما بعد ان دمرها الحريق العظيم في عام 64 م، تبرع بالجزء الاكبر من ثروته لهذا الغرض. واستطاع فيما بعد ان ينسحب شيئا فشيئا من بلاد الامبراطور، وأن يقضي جزءا متزايدا من وقته في بيوته في "كمبانيا"، لعله يستطيع بعزلته الشبيهة بعزلة النساك ان يفر من الامبراطور ومن جواسيسه. وظل وقتا ما لا يطعم الا التفاح البري ولا يشرب الا الماء الجاري خشية ان يدس له السم في الطعام.

وفي هذا الجو المليء بالرعب والفزع دوّن ما بين عامي 63، 65م دراساته في التاريخ الطبيعي، كما كتب الطف كتاباته كلها وهي رسائله الاخلاقية وهي رسائل في احاديث عارضة شخصيته موجهة إلى صديق "لوسليوس" والى صقليه المثري، الشاعر الفيلسوف والابيقوري الصريح وهي محاولات طريفة لتكييف الرواقية حسب حاجات الرجل الواسع الثراء. وان القاريء ليشعر وهو يقرأ هذه الرسائل بأنه على اتصال

بروماني مستنير، رحيم، متسامح، سما إلى الذروة وتعمق إلى ابعد حد في الادب، والسياسة، والفلسفة. ويعتذر سنكا للوسليوس عن أسلوبه المهلهل الذي لا يبدو فيه كبير اثر العناية قائلا: "وأحب ان تكون رسائلي اليك هي عين حديثي؛ اذا ما جلسنا أو سرنا ما"، ويقول: "لست أكتب هذا لجمهرة الناس، بل اكتبه اليك، فحسبي وحسبك ان يستمع كل منا للآخر". (ول ديورانت، ج 10، ص 179، 180)

عزيزي الدارس، ويرى سنكا أن البشر لا يستطيعون ان يكونوا عقلاء حكماء في كل شيء، وأنهم ليسوا في حقيقة الأمر الا قطعا متناثرة في الفضاء اللانهائي، ولحظات قصيرة في الابدية، وأن محاولة هذه الذرات المتشعبة ان تصف الكون، أو الكائن الأعلى، عمل ترتج منه الكواكب سخرية ومرحا. ومن اجل هذا لم يكن سنكا في حاجة إلى الدين او إلى علم ما وراء الطبيعة، وهو يرى ان الله قوة مدبرة شخصية تهيمن على كل شيء، "تحب الصالحين من الناس" وتستجيب إلى دعواتهم، وتعينهم بلطفها الالهي. ومرة اخرى يقول ان الله هو العلة الاولى في سلسلة متصلة الحلقات من العلل والمعلولات، وان القوة النهائية هي القدر وهو علة لا تُرَدّ ولا تنقض، تصرف شؤون البشر والالهة على السواء .. تقود الطائعين وتجر الغاضبين. ويقول: "والفلسفة هي علم الحكمة، والحكمة هي فن العيش، والسعادة هي الغرض الذي نبتغيه،ولكن الطريق اليها هو الفضيلة لا اللذة، والحكم القديمة التي يهزأ بها الناس صحيحة صادقة تُثبت التجارب صدقها في كل يوم. وسوف ننال آخر الامر. بالشرف، والعدالة، والحلم والرأفة قدرا من السعادة اكثر مما نناله بالجري وراء اللذة. وما من شك ان اللذة طيبة مستحبة. ولكنها لا تكون كذلك الا اذا اتفقت مع الفضيلة، وليس في مقدور الرجل العاقل ان يتخذها هدفا له، ومثل الذين يجعلونها غرضا في الحياة كمثل الكلب الذي يختطف كل قطعة من اللحم تلقى اليه، ويبتلعها كلها، وهو بعدئذ لا يستمتع بها، بل يقف فاغرا فاه يتلهف على قطعة اخرى. (أنظر ول ديورانت، ج 10، ص 182)

ولكي يحصل الانسان على الحكمة، عليه ان يمارسها كل يوم بقدر مهما يكن ضئيلا، وان يمتحن سلوكه في اخر كل يوم، وان يكون قاسيا على اغلاطه لينا على اغلاط غيره، وأن يصاحب من هم أعظم منه حكمة وفضيلة، وان يتخذ لنفسه رجلا لا تراه عينه مشهودا له بالحكمة ليكون له ناصحا وقاضيا يحتكم اليه في شئونه، ويساعده في الوصول اليه ان يقرأ كتب الفلاسفة. ويقول: وعلى طالب الحكمة أن يقرأ الكتب الطيبة مرارا في الاسفار، لان: "الروح لا تنضج وحدتها الا اذا كبحت جماح تشوقها وتجوالها". (ول ديورانت، ج 10، ص 183). ويقول: واولى سمات العقل المنظم ان يكون صاحبه قادرا على ان يبقى في مكان واحد، وان يطيل المكث مع أصدقائه.

ويقول: "واياك والجمـوع الكثيرة فان الناس وهم مـجتمعون اخـبث منهم وهم فرادى، فاذا اضطررت ان تكون في حشد كبير، فأنت أشد ما تكون في حاجة إلى الانطواء على نفسك". (ول ديورانت، ج 10، ص 183)

عزيزي الدارس، يقول سنكا وآخـر درس يتعلمه الرواقي هو احتقار الحـياة وايثار الموت، ذلك ان الحياة ليست على الدوام ممتعـة إلى الحد الذي يجعلها جديرة بأن يطول اجلها؛ ومن الخير للانسان بعد حمى الحياة ونوباتها ان ينام ليستريح. واذا وجد الانسان الحياة محزنة، واستطاع ان يغادرها دون ان يضر ذلك ضررا بليغا بغيره من الناس، فعليه ان يشعـر بان من حقه ان يخـتار الوقت الذي يغادرها فـيه والطريقة التي يغـادرها بها. ويحبذ سنكا للوسيليوس الانتحار كـانه سيكون هو وريثه فيقول: "من الأسباب التي لا يستطيع الانسان مـعها ان يتذمر من الحيـاة انها لا تستبقيه، فـيها رغم ارادته .. كم من مرة قطع لك وريد ليـقل بذلك وزنك! واذا ما طعنت نفسك فـي قلبك فانك لن تكون في حاجة إلـى جرح واسع حتى تموت، وان مشـرطا يشق لك الطريق إلى الحرية، وفي وسعك ان تشتري راحـتك بوخزة ابرة ... وحيثما أدرت بصـرك وجدت الوسيلة التي تقضي بها على مـتاعبك. إلى أن يقول: "اما انا يا عزيزي لوسيـليوس فقد بلغت أرذل العمر، وقـد عشت كفايتي، وها أنا ذا في انتظار الموت. وداعـاً أيها الصديق". (أنظر ول ديورانت، ج 10، ص 184/183)

لقد اسـتجابت الاقـدار، عزيزي الدارس، لدعاء سـنكا، فقد أرسل اليـه نيرون تريبونا يستجوبه فيما اتهم، من انه يتآمر على جعل بيزو امبراطورا؛ فأجاب الرسول بانه لم يعد يهـتم يالسياسة، وأنه لا ينشـد غير السلام، وأن تـتاح له الفرصة للعناية بينـيته المتهدمة الضعـيفة، ويقول التريبون: انه لم تظهر عليـه أعراض الخوف او امارات الحزن .. وان اقواله ونظراته كانت تنم عن عقل هادىء قويم ثابت" وقال نيرون للتريبون: عد اليه وقل له ان يموت"، ويقول تاستس ان: "سنكا تلقى النبأ بهدوء واطمئنان".

ثم عانق زوجـته، وطلب اليهـا ان تتخذ من حـياته الشريفـة النبيلة ومن دروس الفلسفة سببا للسلوى والاطمئنان. ولكـن زوجته يولينا ابت ان تعيش بعد مماته، فما ان فُتـحت اوردته، حتى أمـرت هي الاخرى بفتح أوردتهـا، الا ان نيرون أمـر الطبيب ان يربط معـصمي يولينا عـلى الرغم منها، ويمنع خـروج الدم من اوردتها فـفعل، وبذلك عاشت بعد زوجها بضع سنين.

عزيزي الدارس، لقد رفع الموت من قـدر سنكا وأنسى جيلاً من الاجيال مـواقفه وتذبذبه، كـان سنكا - ككل الرواقـيين، يستخـف بالسلطة، ولا يقـدر قوة الوجـدان

والعواطف حق قدرها، ويغالي في قيمة العقل ويفرط في الاعتماد عليه، ويثق فوق ما يجب بالطبيعة، وهي منبت جميع ازاهير الشر والخير على السواء. جعل سنكا من الرواقية فلسفة بشرية، وانزلها من عليائها حتى أضحت فلسفة حية في متناول بني البشر، ومهد بها للمسيحية. لقد كان تشاؤم سنكا، وتنديده بفساد الاخلاق في ايامه، ودعوته الناس ان يقابلوا الغضب بالحلم، وانشغاله بأمر الموت، كان في كل هذا ما حمل ترتليان Tertullian على ان يقول عنه إنه (منا). كما حمل اوغسطين على ان يقول فيه: "ماذا يستطيع المسيحي الصميم ان يقول اكثر مما قاله هذا الوثني؟" (أنظر ول ديورانت، ج 10، ص 185)

نعم ان سنكا لم يكن مسيحيا، ولكنه في القليل طالب بالقضاء على القتل والسلب، ودعا إلى الحياة اليسيطة المهذبة، وقلل ما كان هناك من فروق بين الرجل الحرّ والمحرر والرقيق حتى اضحت هذه الفروق لا تزيد على الالقاب التي خلقتها المطامع او الاخطاء.

كان الذي أفاد اكبر الفائدة من تعاليم سنكا عبدا في بلاد نيرون وهو "ابكتتس"، كذلك صاغت كتاباته نرفا Nerva وتراجان إلى حد ما، وكانت أعماله مثالا يحتذى في السياسة الانسانية القائمة على الاخلاص وارضاء الضمير. وقد ظل إلى آخر العهود القديمة كما ظل طوال العصور الوسطى محببا للجماهير. ولما حل عهد النهضة وضعه بترارك في المرتبة الثانية بعد فرجيل، وصاغ نثره على مثال نثر سنكا. وترجم شعر متناي في كتاباته إلى اللغة الفرنسية، وكان متناني نفسه يقتبس من اقواله كما يقتبس سنكا من أبيقور. وكان امرسن يقرأ مؤلفاته مرارا وتكرارا".

نعم ان الانسان قلما يجد في أقوال سنكا افكارا جديدة مبتكرة، ولكن هذا يغتفر له، لان كل الحقائق الفلسفية قديمة، ولا شيء فيها مبتكر الا الخطأ. ولقد كان رغم أخطائه كلها أعظم فلاسفة الرومان، كما أنه كان في كتبه على الاقل ارجحهم عقلا وأرقهم قلبا". (ول ديورانت، ج 10، ص 185)

3.9 الخطابة والقانون عند الرومان

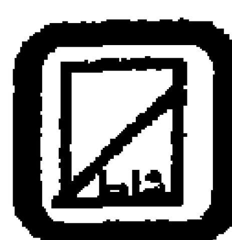
كانت روما مضرب المثل في النظام. ولم يكن الدستور الروماني طائفة من القواعد المخلدة التي يتقيد بها الناس، بل كان سلسلة متتابعة من السوابق ترشد وتوجه، ولكنها لا تمنع من التغيير، فكلما زاد الثراء وتعقدت اساليب الحياة، أصدرت الجمعيات وأصدر الحكام والزعماء، قوانين جديدة، وسايرت الشرائع الامبراطورية في نموها

واتساع نطاقـها؛ فكانت كلما امتـدت رقعة الامبراطـورية لاحقتها القـوانين إلى الحدود الجديدة. وتطلب تعاليـم رجال القانون، وارشاد القضـاة، وحماية المواطن من الاحكام الظالمة غيـر المشروعـة، تطلب هذا تنظيم الشرائع وصـياغـتها في صـورة مرتبـة يسهل معرفتها والوصول اليها.

عـزيزي الدارس، وتجـدر الاشارة ونحن في حـديث عن القـانون الرومـاني إلى فيـلبوس موسـيوس اسكـافولا Publius Mucius Scaevola وابنه كونتس Quintus اللذين بذلا جهودا لصياغة قوانين روما صياغـة يسهل فهمها. والى شيشرون الذي كتب رسائل بليغة في فلـسفة القوانين، كما وضع مشـروع قوانين مثالية يقصد بهـا الاحتفاظ بالثروة الطائلة التي جمـعها وبالدين الذي خسره. وخلقت القوانين المتناقـضة التي سنها "ماريوس"، وسلطة "بمبي" المطلقة التي لم يكن لها مثيل من قبـل، والشرائع الثوريـة التي وضعهـا قـيصـر، والدسـتور الجديد الذي وضعـه "اغسطس". خلقت هذه كلها مشاكل جديدة للعقول التي حاولـت ان تجعل الـشرائع متمشية مع المنطق السليم. واخذ المشـرّع النابه انتـسـتـيوس ليـبـو Antistius Labeo يندّد بما في القـوانين من فـوضى واضطراب، ويعلن ان المراسيم التي أصدرها اوغسطس مراسيم باطلة لانها مظهر لسلطة مغتصبـة غير شرعية. ولم يكن في مقدور عقـول الافراد او سلطة المحاكم ان تقبل هذه القوانين الجديدة، الا بعد ان وطدت الزعامة سلطتها باستخدام القوة اولا وبسلطان العادة فيما بعد.

ويعود الفضل إلى الـقرنين الثاني والثالث من التاريخ الميـلادي في صنع القوانين الرومانية في الغرب في صورتها النـهائية. ويعود الفضل إلى هادريان (عام 167م) الذي جمع حوله طائفـة من فقهاء القانون والف منـهم مجلسه الخاص، وكلفهم ان يسـتبدلوا بمراسيم البـريتوريين المتناقضة مـرسوما يلتـزمه في المستقـبل جميع القضـاة في ايطاليا. وواصل الانطونيـون - خلفاء هدريان - هذا العـمل. وكانت الشـهرة التي تـتمتع بـها الفلسفة الرواقية مما جـعل لليونان اثرا عميقا في القوانين الرومانيـة. فقد اعلن الرواقيون جهرة ان القوانين يجب ان تتفق مع المبادئ الخلقية القويمة، وان الجريمة كامنة في نية المرء لا في نتيجة عمله. وقد أمر انطونيوس، وهـو ثمرة من ثمار المدرسة الرواقية، ان يفسر الشك لمصلحة المتـهم، وان يظل الانسان بريئا حتى تثبـت ادانته (أنظر ول ديورانت، ج 10، ص 360). لقد نبغ في فلسفة القـانون عدد كبير من العباقـرة جاء بعضهم في اثر بعض، وكان من اهم العوامل في هذا النبوغ مناصـرة الاباطرة وتشجيعهم، ومن هؤلاء العباقرة سلفـيوس يوليانس Salvius Julianus وهو روماني افريقي المـولد، كان يعمل مستشارا قانونيا للامبراطور، اشتهـرت فتاواه بوضوحها وسلامة منطقها، وكان هو الذي

صاغ المرسوم البريتوري الدائم حين كان اشـهر الاعضاء البارزين في مجلس هدريان. له مجـموعة منظمة مـن القوانين المدنية عرفت ب (الخـلاصة). وهناك مشـرّع آخر يدعى جايوس Gaius تم العثـور على (انظمتـه) عام 1816 م. مكتـوبة على ورق وفوقـها مقالات لجيروم Jerome. وهي أكمل مرجع يعتمـد عليه في دراسة القوانين التي سنت قبل عهد جستنيان. وقد صدرت هذه الانظمة قبل عام 161م وكانت كتابا مدرسيا أوليا للطلاب الدارسين وفي عام 221م أوصل بابنيان بيولس Papinian Paulus وألبيان Al-pian فقـه القانون الروماني إلى ذروته. وبينمـا كان تنفيـذ القوانين يخر صـريعا للعنف والفوضى صاغه هذان العالمان صياغة منطقـية متسقة خالية من التناقض، ولـم يلبث هذا العلم ان هوى بعدهما في غمرة الخراب الشامل.



نشاط (10)

1- اكتب تقـريرا عن التطورات السيـاسيـة التي ادت إلى انتصـار روما على بلاد اليونان وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟

2- اكتب تقريرا عن سنكا وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟



تدريب (10)

1- لخص باختصار تأثير سنكا على الرواقية.

2- لخص أعمال ماركوس اوريليوس المالية؟



أسئلة التقويم الذاتي (10)

1- ما هو السبب الذي ادى إلى انتصار روما على بلاد اليونان؟

2- تكلم عن إصلاحات القانون عند مارقس اورليوس؟

1.10 هوميروس

قد تكون شخصية هوميروس، عزيزي الدارس، غير حقيقية، قيلت ملاحمه بعد عصر الآخيين (1100-1300 ق.م) بثلاثة قرون على اقل تقدير. إن المدن التي وصفت في الالياذة مثل طرواده، وميسيني، وتيرينز، وكنوسس كانت كلها مُدُناً حقيقية. كما ان علماء الاثار الذين كشفوا عن حضارة ميسينة وجدوها تشبه شبها عجيبا تلك الحضارة التي وضعت في اشعار هوميروس، ومن هنا نرى ان العلماء يتجهون إلى القول بأن بعض الناس المهمين الذين ورد ذكرهم في هذه القصص هم أشخاص حقيقيون.

انني لا استطيع القول إلى أي حد كانت ملاحم هوميروس تعكس حال العصر الذي كان يعيش فيه. وكل ما استطيع التساؤل عنه هو: ما هي الصورة التي كانت تتخيلها الرواية اليونانية كما جمعها هوميروس في اشعاره؟ ومهما تكن هذه الصورة فاننا سنحصل منها على صورة من بلاد اليونان في طور الانتقال من الثقافة الايجية إلى حضارة اليونان في العصور التاريخية.

ان الالياذة والاودسا عبارة عن ملحمتين مكرستين في الأصل لحوادث متفرقة ومختلفة ومؤلفة على حدة. ومن المفروغ منه ان هذه الملاحم قد مضى عليها زمن مديد وادخلت عليها بعض التحويرات، قبل ان تجمع في كتاب واحد، كما ادخلت عليها بعض الحواشي حتى في تاريخ نشرها في اثينا. ويجمع جُلّ العلماء على ان الملاحم قد صيغت في القرن الثامن قبل الميلاد على ان الالياذة سبقت الاوديسا بخمسين سنة تقريبا (انظر: تاريخ الحضارات العام المجلد الاول، ص 299). وفي ملحمتي الالياذة والاوديسا انتظمت الحوادث التي غلب عليها التشويش، في البدء، حول شخص وعمل، اوديس نفسه يروي اشعاره، وما مغامراته سوى تحضير لمأساة ثأره النهائية، واذا ما أضفنا إلى ذلك ان الملاحم الهوميرسية تنطوي على ديانة ومثيولوجيا اضفت عليها سحرها الشعري، وتحدد علما اخلاقيا أو اقله مثالا يطوليا للانسان ودستورا للأدب والانس والمجاملة، نرى كيف انها، حتى آخر التاريخ القديم، استطاعت توفير أساس تربوي لفتيان الاغريق. (انظر: تاريخ الحضارات العام المجلد الاول، ص 299)

عزيزي الدارس، ويصور هوميروس بلاد اليونان جنة من الحور العين، وحتى رجالها كانوا على جانب كبير من الجمال؛ كان لهم شعر مرسل طويل، ولحى كبيرة.

كان الناس يعيشون - كما يصفهم هوميروس - على حراثة الأرض يشمون وهم فرحون الأرض السوداء بعد تقليبهـا، ويتتبعون بأعينهم في فخرٍ وخيلاء الخطوط المستقيمة التي خطتها المحاريث، ويبذرون القـمح ويروون الأرض، ويقيمون الجسور ليتقـوا بها فيضان الانهار في الشتاء، ويشعرنا هوميروس بيأس الفلاح الذي قضى الشهور الطوال في كدح مستمر ثم يأتي كما يقول: "التيار الجارف السريع فيهدم الحواجز والجسور، ولا تستطيع سلسلة الاكوام الطويلة ان تكبح جـماحه، او أسوار البسـاتين المثمرة حيث يفاجـئها ان تقف في سبيله، وليست ارض البلاد مما يسهل فلحها لان الكثير منها جبال او مناقع، او تلال كثيفة الاشجار؛ وكانت الحيوانات البرية تهاجم القرى، فكان الصيد ضرورة قبل ان يصبح رياضة وهوايـة. وكان الاغنياء يعتون بتربية قطـعان كبيرة من الماشـية، والضأن، والخنازير والمعز، والخيل، ويروى ان رجلا منهم يسمى اركثونيوس Erichthonius كان له ثلاثة آلاف فرس ولـود مع امهارها. وكـان الفقـراء يأكلون لحم السمك، والبـقول، والخضر أحيانا، أما المحاربون والاغنيـاء فكان جل اعتمادهم على اللحم المشوي الكثير، وكان فطورهم اللحم والنبـيذ. وقد تغذى اديـسيوس مع راعى خنازيره بخنزير صغـير مشـوي، وتعشـيا بثلث خنزير عـمره خـمس سنوات" (أنظر ول ديورانت، ج 6، ص 100). ويتابع هوميروس عن معيشة الـناس في بلاد اليونان بانهم كانوا يستعملون عسل النحل بدل السكر، ودهن الحـيوان بدل الزبد، والكعك المصنوع من الحب بدل الخـبز، فكانوا يجعلونه رقائق ثم يخبزونه على لوح من الحديد او على حجر محمي، ولم يكن الاكلون يضطجون في اثناء تناول الطعام كما كان الاثينيـون يفعلون فيما بعد، بل كانوا يجلسون على كـراسي ممتدة على طول الجدار غـير مصـفوفه حـول مائدة وسطى. ولم يكونوا يسـتعملون الشـوك او الملاعق او الفوط الا مـا عسى ان يكون مع الضـيوف من مُدى؛ وكانوا يأكلون بأيديهم وأصـابعهم، وكان شرابهم الرئيس حتى الفـقراء والاطفال هو النبيذ المخفف.

ومع أني لست في مـعـرض الحديث عن الحـضـارة الهومـيـرية كمـا وصـفهـا هوميروس. إلا أنني اني سأحـاول ان اقتبس لك شيئا من نصوص كتـبها هوميروس في ميادين مختلفة، فهذا هوميروس يقص علينا كيف طلب "السنيوس" ملك القباشاينين ان يحيي اديسيوس بشيء من الاغاني فيقول: "ادع الينا المنشد الالهي دمدوكس Demodo-cus، لأن الله قد اخـتصه دون غـيره بالمهارة في الـغناء . . . ثم اقترب الرسـول يقود المنشد القدير الذي تحـبه الهة الشعر اكثـر من سائر الناس، فوهبته من نعمـتها وسلطت عليه من نقـمتهـا، فحرمَـته قوة البـصر ولكنهـا وهبته نعـمة الصوت الجـميل". (ول ديورانت، ج 6، ص 100)

والآن - دعني عزيزي الدارس - ان اتحدث اليك عن حصار طرواده: والذي يبدو انه حدث في عام 1194 ق.م. ولست بصدد البحث عن السبب في هذا الحصار مع اني أعزوه إلى انه نزاع للسيطرة على مضيق "الهسينت" والاواضي الغنية المحيطة بالبحر الاسود. وليس في وسعنا ان نذكر من احداث الحرب وما بعدها غير ما يقصه علينا الشعراء اليونان ومؤلفو المسرحيات منهم. وها أنا أقرأ اليك ما كتبته الالياذة عن هذا الحصار. حيث نرى اليونان في مستهل القصيدة وقد قضوا في حصار طرواده تسع سنين دون ان يظفروا بها، وقد غلبهم اليأس والحنين إلى الوطن، وفتك بهم المرض. وقد وقفوا طويلا عند اوليس Oulis لأن المرض وسكون الريح في اليحر قد حالا بينهم وبين مواصلة السير. واثار "اغاممنون" غضب "كلتمنسترا" وهيأ السبيل لسوء مصيره بأن ضحى بابنتهما "افجيينيا" لكي تهب الريح. وكان اليونان قد وقفوا في أماكن متفرقة في طريقهم ليأخذوا حاجتهم من الطعام والسراري، فأخذ اغاممنون الحسناء "كريسيس" Chryses وأخذ اخيل "بريسيس" البارعة الجمال؛ ثم يقول عراف ان "أيلو" يمنع النصر عن اليونان لأن اغاممنون قد اعتدى على عفاف ابنة كاهنه كريسيز Chryseis، فيرد اغاممنون كريسيس لابيها، ولكنه يواسي نفسه ويخلق في القصة موقفا مثيرا بأن يرغم "بريسيس" على ان تفارق اخيل وتحل محل كريسيس في الخيمة الملكية. وهنا يدعو أخيل الجمعية العامة إلى الانعقاد، ويشكو اليها اغاممنون وهو غاضب ثائر، وينطق بأول كلمة في الالياذة ويثير الموضوع الذي يتردد فيها مرارا وتكرارا، ويقسم انه لن يمد هو او جنوده يدا لمساعدة اليونان.

ثم ننتقل بعدئذ إلى استعراض سفن الجيوش المتجمعة وقبائلهم ثم نشاهد "منلوس" المتعجرف يبارز "باريس" مبارزة يراد بها وضع حد للقتال، ويتهادن الجيشان مهادنة المتحفزين، ويشترك "بريام" مع "أغاممنون" في تقديم القربان إلى الالهة، ويظفر "منلوس" بباريس ولكن "افرديني" تنقذه وتختطفه في سحابة ثم تلقيه في فراش زوجته بعد ان تعطره وتمسحه بالمساحيق الربانية. وتأمره "هلن" أن يعود إلى القتال ولكنه يعرض عليها بدلا من هذا ان "يصرفا الوقت في الفراش" وتتغلب على "هلن" شهوتها فتجيبه إلى طلبه.

ويعلن اغاممنون انتصار منلوس، ويلوح ان الحرب قد وضعت أوزارها، ولكن الالهة تعقد مجلساً علي جبل "اولمبوس" للتشاور في الأمر كما يتشاور البشر، وتقرر انها في حاجة إلى ان يسفك فوق ما سفك من الدماء. ويقترح "زيوس" لمصلحة السلم ولكنه يسحب صوته وينقلب مرتاعا حين توجه زوجته "هيرا خطابها اليه، وتقترح ان تسمح لزيوس بان يدكّ ميسيني وارجوس واسيارطه دكا اذا وافق على تدمير طرواده.

ويبدأ القتال من جديد ويهلك عدد كثير من الرجال تمزق اجسامهم السهام او الحراب او السيوف "ويخيم الظلام على اعينهم".

عزيزي الدارس، وليس من احد يشك في بشاعة الحرب، غير ان الالياذة التي صورت لنا تلك المشاهد قطعة ادبية جميلة، غير انها لم تصل إلى حد الكمال في شكلها، ولبست ابالغ إذا قلت ان تركيبها مهلهل غير رصين، وأن القصص فيها متناقضة تارة وغامضة تارة أخرى، وأن خاتمتها ليست خاتمة بالمعنى الصحيح، غير ان كمال كل جزء على حدة يعوض ما في مجموعها الكلي من اضطراب، والقصة رغم عيوبها الصغرى لا تقل في مستواها عن مسرحيات التاريخ العظمى، ولعلها لا تقل عن مستوى التاريخ نفسه.

2.10 سوفوكلس

والان تعال بنا - عزيزي الدارس - نتعرف على هذه الشخصية التي استطاعت في عام 468 ق.م. انتزاع الجائزة الاولى للمأساة من "اسكلس". ولعل اسم سوفوكلس (سوفكل) يعني العاقل، المكرم. وكان "سوفوكلس" هذا اسعد الناس حظا ويكاد يكون أشدهم تشاؤما. كان موطنه الاصلي ضاحية "كولونس" احدي ضواحي اثينا، وكان ابن صانع سيوف، ولعله ولهذا السبب كانت الحرب الفارسية والبلوبونيزية التي افقرت جل الاثينيين سببا في ثروته الطائلة.

كان "سوفوكلس" رجلا عبقريا وسيما جيد الصحة، نال جائزتي المصارعة والموسيقى، امكنته مهارته في لعب الكرة وفي العزف على القيثارة من أن يقيم حفلات عامة في "الفنين"، وكان هو الذي اختارته المدينة بعد واقعة سلاميس ليقود شبان اثينا العراة في رقصة النصر ونشيده. كان سوفوكلس صديقا لبركليز، شغل في عهده اعلى مناصب الدولة، فكان في عام 443 ق.م امين بيت المال الامبراطوري، وفي عام 440 ق.م كان احد القواد الذين تولوا قيادة قوات اثينا في الحملة التي سيرها بركليز على ساموس، وأصبح بعد الكارثة التي حلت باثينا في "سرقوصة" عضوا في لجنة الامن العام. (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 270/169)

عزيزي الدارس، كتب سوفوكلس 113 مسرحية، لم يبق منها الا سبع، ولا نعرف الترتيب الذي خرجت به، وقد نال الجائزة الاولى في الحفلات الديونيشيه ثماني عشرة مرة، ونالها مرتين في الحفلات. الليينانية Lenaran وحصل على اولى جوائزه في سن الخامسة والعشرين وعلى آخرها وهو في سن الخامسة والثمانين، وظل يسيطر على

المسرح الاثيني ثلاثين عامـا ومن مسرحياته "المرأة التـراقينية"، ومسرحـية "أجاكس"، ومســرحية "الكترا"، ومـسـرحية "أوديب تيـزانس" ومسرحيـة "أوديب في كولونس"، ومسرحيته "اوديب الملك" وغيرها.

عزيزي الدارس، وقـبل أن أنقل اليك نصا من مـسرحيـة "أوديب في كولونس" اقول لك ان هذه المسرحية كانت جزءا من مسرحيـة ثلاثية غير مقصودة؛ نرى الملك فيها طريدا، أشيب الشعر، متكئاً على ذراع ابنته يطوف بالمدن يستجدي الناس الخبز، ويصل في طوافه إلى "كولـونس" الظليلة. وينتهز سوفـوكلس هذه الفرصة فينشد لـقريته التي ولد فيها، ولزيتونها، أغنية من احسن الابيـات اليونانية يقول فيها: "أيها الغريب، انك تتـرك الان في هذه الارض، ارض الجهـاد والفرسـان، تلك الارض لا كـمثلهـا ارض سواها، ها هي ذي كولونس البيضـاء تتلألأ، كم من مرة غنى العندليب بصوته الشجي وهو عائد إلى عشه تخفيه الايك الخضر، يروى قصته الحلوة الحزينة. وترى النرجس في كل يوم يرتشف رضاب الندى فيتفتح، وتعلوه اول عناقيد من التيجان البيض".

"وهنا تخرج الارض عـشبا عجـيبا لم يتغن احـد بمثله في جزيرة "بلبس" Pe-loeps الدورية القريبة، ولم ينبت قط في أرض آسيا البعيدة، وهو نبات متجدد النضارة علي الدوام، يجدد نفـسه، ويتوالد بنفـسه، يلقي الرعب في قلوب اعـدائها المسلحين، فهو لا يبلغ في غير هذه البلدة ما يبلغه فيـها من جمال وازدهار، بأوراقه الريشية الملساء ذات الزرقة السنجابية البـراقة كالفضة، والذي يغذي البلدة بعصـير زيتونه، ولن تستطيع قوة او يد مخربة ان تخرب المدينة سواء أكانت ثوة الشباب الاهوج أم حكمة الشيخوخة المجربة لان قرص زيوس في السماء يرعاها هو والضياء الازرق فينبعث من عين اثينا".

وكانت نبوءة قد سمعت بأن "أوديب" سيموت بجوار "اليميديات"، فلما عرف انه الان في "ايكتـهن" المقدسـة بكولونس ايقن هذا الشيخ - الـذي لم يجد في الحـياة جمالا - ان الموت يحـلو في ذلك المكان، وينادي لسشيوس - ملك اثينا" بـابيات كأنه يخترق لها حجب الغيب ويجمع فيها القوى التي كانت تعمل على اضعاف بلاد اليونان وهي فقد التربة، وقلة الايمان وضعف الاخـلاق والرجال: "إن الهة السماء وحدها هي التي لا تصل اليها الشيخوخة، ولا الموت لأي سبب من الأسباب، وكل ما عداها يعدو عليه الزمان المسيطر على كل شيء فـتذهب قوة الارض، وتذبل زهرة الرجولة، وينعدم الايمان، ويزدهر الالحاد ازدهار الزهرة، ومن ذا الذي يسـتطيع ان يجد في شوارع الناس المفتوحة، او في مكنون حبّه الخفيّ ريحا تهبّ صادقة إلى أبد الدهر؟".

ثم يبـدو كأنّه أوديب يسـمع نداء اله من الالهة فـيودع انتـجوني وازميـني وداعا

رقيقا، ويسير إلى الايكة المظلمة وليس معه الا ثسيوس وحده: "وسرنا قليلا ثم التفتنا فاذا بالرجل قد اختفى ولم يبق الا الملك، وقد رفع احدى يديه ليظلل بها عينيه، كما يفعل الانسان إذا تراءت له رؤية رهيبة مروعة لا تقوى عيناه على التطلع اليها . . . وما من احد غير ثسيوس يعرف كيف قضى نحبه . . . فلعل انسانا ارسلته الالهة ليهدى خطاه، أو لعل الارض قد اشفقت عليه ففغرت فاها وابتلعته حتى لا يصيبه الم. وهكذا اختفى الرجل ولم يخلف وراءه شيئا نحزن لاجله. لم يترك العالم بعد ان ينهكه المرض والالم، بل اختتم حياته، ان كان قد اختتمها، ختاما عجيبا".

وفي المسرحية الثالثة في ترتيب الحوادث - والظاهر انها هي اول ما كتب من المسرحيات الثلاث، توارى انتجوني الوفية في قبرها، فقد سمعت ان اخويها: بولينسيز وايتكليز يتنازعان عرش المملكة، فعادت مسرعة إلى طيبة ترجو ان توفق بينهما، ولكنهما لا يصيغان اليها، ويواصلان الحرب حتى يقضي عليهما كريون - Creon حليف انكليز - ويستولي على العرش. ويأمر الا تدفن جثة بولينيسيز عقابا له على ثورته، ولكن انيتجوني تعصي هذا الامر وتدفن جثة اخيها - لانها تعتقد، كما يعتقد سائر اليونان، ان روح الميت لا تفتأ تعذب ما دامت جثته لم تدفن، وفي هذا المقام تُغَنِّي فرقة المرتلين اغنية تعد من اشهر اغاني سوفوكلس: "ما أكثر العجائب في هذا العالم، ولكن لا شيء اعجب من الانسان، فهو يشق طريقه المحفوف بالاخطار خلال المضيق ذي الماء الزبد فوق متن البحار الصاخبة، تدفعه ريح الجنوب الهوجاء. والارض اقدم الالهة التي لا يعتريها نصب ولا وهن يفلحها ويقلبها سنة بعد سنة بمحراثه ونيره المعلق على رقاب جيادة !! . . " "ويصيد بفخاخه المنسوجة طيور الهواء الحمقاء، ووحوش الغاب والفلوات، وسمك البحار المالحة. ألا ما اشد مكره. فهو يذلل بحيله التي لا آخر لها الثور الوحشي والايل الذي يمرح حرا في الجبال، ويخضع للجامه الجواد الاشعث ذا اللبد. أما الكلام وإسداء النصح العاجل والذكاء فقد عرفها كلها بنفسه، وعرف كيف يسقط المطر السريع وكيف تهب الريح العاتية الطليقة التي تتجمد تحت سماء الشتاء، وهو مستعد لكل ما يصادفه، فقد عرف كيف يتحمل الوباء الوخيم، وكيف ينجو من كل ما يصيبه، ولكنه مع هذا كله لم يجد دواء يرد عنه الموت" (أنظر: ول ديورانت، ج 7، ص 276/275)

ويحكم كريون ان تدفن انتجوني حية، ويحتج ابنها هيمون على هذا الحكم الظالم الرهيب، فلا يفيد احتجاجه فيقسم لابيه بانه لن يرى وجهه بعد الان، وهنا يحدث الحب - ولاول مرة - أثره في حياة سوفوكلس. وينشد الشاعر لاله الحب نشيدا ظل الاقدمون يذكرونه عهدا طويلا: "ايها الحب يا من لا يقوى على صدك شيء في

الكفاح - كل الناس يخضعون اذا ألقيت عليهم نظرة من عينيك. الحب يرقد طول الليل على خدّ العذراء، ويطوي الروابي والقفار، ويشق عباب البحار، أيها الحب، يا من يقع الالهة في أسـرك، هل يقوى الادميـون على النجاة من قبضـتك". ويختفي هيـمون، ويجـدّ كـريون في البـحث عنه، ويأمـر جنوده بأن يفـتحـوا الكهف الذي دفنـت فيـه انتيجـوني، فيجدها ميتـة، والى جانبها هيمـون قد وطدا العزم على الموت. "ونظرنا، وفي قبوة الكهف المظلم رأيت الفتاة مخنوقـة هناك، وقد لف حبل من التيل وعقد حول عنقها، والى جانبـها حبيبها ممسك بجـثتها الهامدة يندب عروسه الميـتة . . . فما أن رآه الملك حتـى صرخ صرخـة مروعـة واتجه نحوه وهـو يصيح: "أي ولدي، ماذا فـعلت بنفسك؟ وماذا يؤلمك؟ واية كارثة حلت بك فسلبت عقلك؟ أقبل يا ولدي اقبل، ان اباك يتوسل اليك" . ولكن ابنه حدّق فـيه بعينين كعيني النمر، وبصق فـي وجهه، ثم استل سـيفـه ذا المقبـضين دون ان ينبس ببنت شـفه وضـرب، غيـر ان اباه تراجع إلى الوراء فأخطأته الضربة، وغضب الغلام الداعر البائس من نفسـه، فسقط على حد سيفه، فنفذ السيف في جنبه، وقبل ان تخمد أنفاسه امسك الفـتاه بذراعيه المسترخيتين، وقد اصطبغ خدها المصفر بشهيقه. وهكذا قضى الاثنان نحبهما. واصبحا جثتين هامدتين وحد بينهما الموت. (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 276)

عزيزي الدارس، ان أهم ما تمتـاز به هذه المسرحيات: جمـال الأسلوب، وسمو الفن، فكما نلاحظ يستحوذ كل سطر فـيها على فكرك ويسير بك إلى تلك اللحظة التي تصل فيها الحوادث إلى غايتها ومغزاها. اما الشخصيات فهي مصورة بها تصويرا مثاليا. وفي هذا يقول سـوفوكلس: "اني اصور الرجال كـما يجب ان يكونوا. . ". (أنظر ول ديورانت، ج 7، ص 277) وكأنه يعني بهذا ان التمثيـل يجب ان يتجه إلى حد ما نحو المثل العليا، وان الفن يجب الا يكون تصويرا شمسيا.

لقد كان سوفوكلس فيلسوفا وواعظا. غير ان حساسيته الشاعرية الشديدة تمنعه ان يتلمس المعاذير لما يصـيب الناس من ضر لا يستـحقونه في اغلب الاحيـان، ويقول: ان النظام الاخلاقي في العالم ادق من ان تفهمه عقولنا، ولكنه نظام قائم بالفعل، وستكون الغلبة فيه للحق في اخر الامـر. ونرى - عزيزي الدارس - ان سوفوكلس قويا في ايمانه بالاخلاق الفاضلـة، وان كان غير واثق كل الثقـة من دينه، ويرى ان ارقى انواع الحكمة هي ان نعرف القانون المرشد الاخلاقي لهذا العـالم، وان نتبعه متى عرفناه. يقول: "الا ليت قدمي الثابتتين لا تعجزان عن السير في طريق الحق والصلاح. وليتني اقضي حياتي

مبـرأ من الخطايا في القول والفعل، مـستمسـكا بتلك القوانين الازلية التي تسـمو على الدوام إلى أبراج المساء الاثيـرية النقية التي نشأت فيـها . . . " (أنظر: ول ديورانت، ج 7، ص 279)

ويرى سوفوكـلس ان اسعد الناس هو الذي لم يولد، ويليه في هذه السعادة من يموت في طفولته. وتقرأ - عزيزي الدارس - نهاية حـياة سوفوكلس بانه كان يتسلى في شيـخوخـته مع مـحظيته ثـيوريس Theoris، وانه رزق منها بطفـل. وأن ابنه الشرعي أيوفون Iophon قد أقام دعوى عليه يتـهمه فيها بالسفه. ويبـدو ان دافعه في هذا خوفه ان يترك الشاعر ثروته لابنه من ثيوريس. غيـر ان سوفوكلس دافع عن نفسه وقدم دليلا على تمتعه بكامل قـواه العقلية ببعض مقطوعـات قرأها على المحكمة من مسرحـية كان يكتبهـا، ولعلها كانت مسرحـية "أوديب في كولونس". ولم يكتف القضاة بتـبرئته من التهمة بل ساروا يحفون به إلـى بيته. مات سوفوكلس عام 406، ودفن في مقبرة آبائه في ديسليا Deceleia. فأجلّه اليـونان وكرموه كما يكـرمون آلهتهم، وكتب لـه الشاعر سمياس Simmias عبارة عـلى قبره قال فـيها: "تسلق بلطف ايها الخلبـاب إلى حيث يرقـد سوفـوكلس في راحتـه الهـادئة، وأرسل غذائرك الصـفـراء المخضـرة على قبـره الرخامي، الذي يتـفتح حـوله الورد الارجواني. ولتتـدلى حوله عناقيـد الورد المكتنزة، وتلقى حول الحجر اعناقها الصغيرة الجميلة، جزاءً وفاقاً له على حكمته الحلوة التي هي منشؤها والتي تدعى ربات الشـعر وثالوث الجمال انها أغـانيها". (أنظر: ول ديورانت، ج 7، ص 281)

3.10 أفلاطون

أنشأ أفلاطون في اثينا جامعة قدر لها أن تكون مركز بلاد اليونان العقلي تسعمائة عام كاملة. كانت النساء يقبلن في الجامعة مع الرجال، وكانت أهم موضوعات الدرس: العلوم والرياضية والفلسفة، وقد كتب على المجمع هذا التحذير: "لن يدخل هذا المكان إنسان بلا هندسة"؛ ويبـدو ان قدرا كبيرا مـن الحساب كان شرطا للقـبول في المجمع. وكان منهاج الرياضـة يشمل الحساب (نظرية العدد)، والهندسـة، والفلك، والموسيقى، والادب، والتاريخ، والقـانون، والفلسفة، وكانت الفلـسفة الاخلاقيـة والسياسـية آخر الدراسات في هذا المنهاج وكـان افلاطون وأعوانه يُعلمون الناس بالمحـاضرات والحوار، ويعرضـون المسائل على الطلاب لحلها. ويُقـرّ أفلاطون بأنه لم يكتب في حيـاته رسالة

علمية، وفي هـذا يشير ارسطوطاليس الى ما كـان يلقى من العلوم في المجمع العلمي، بقوله "تعاليم" أفلاطون "غير المكتوبة". (أنظر: ول ديورانت، ج 7، ص 473)

عـزيزي الدارس، ولسنا نعـرف مدى اخـتلاف هـذه التعـاليم التي اشـار اليهـا ارسطوطاليس عمـا ورد في المحاورات، وأكبر الظن ان هذه المحـاورات كانت في باديء الأمر وسيلة للتـرويح عن النفس، وأنها كانت تلقى بطريقة فكهة إلى حـد ما. وكانت المحاورات كما اوردها افلاطون قطعة أدبيـة لا تاريخية؛ فهو لا يدعي انه ينقل الينا نصا دقيقا للأحاديث التي كانت تجري قبل ان يكتـبها بثلاثين عاما أو خمسين، بل ولا يدعي انه يحرص على أن يكون ما فيها من إشارات منسقا غير متناقض بعضه مع بعض. وقد كتبت هذه المحـاورات مستقلة كل منها عن الاخرى، ولعلهـا كتبت في فترات مـتباعدة تباعدا طويلا، وليس ثمة خطة موضوعة للتأليف بينها كلها وجعلها وحدة منسقة.

كانت هذه المحاورات مركبة بمهارة، تصور الأفكار تصويرا مسرحيا، صورة منسقة لسقـراط تدل على حب أفلاطون الشـديد له، ولكنها قلما تـدل على وحدة الأفكار أو تسلسلها، وكثيرا ما تنتقل من موضوع إلى آخر وتسئم القاريء في كثير من أجزائها لانه يورد الحديث بمعناه لا بلفظه - فيجعل رجلا واحدا ينقل سائر أحاديث غيره من الناس. ويقول سقراط مثلا ان ذاكرته "غاية في الضعف"، ولكنه مع ذلك يتلو على صديقه عن ظهـر قلب اربعـا واربعين صـفحـة من نقـاش جـرى في ايام شـبابـه بينه وبين "بروتا غوراس".

كان مما يضعف معظم المحاورات انه يعـوزها المتكلمون الاقوياء القادرون على ان يردوا على سقراط "بغير كلمة نعم" أو ما في مـعناها. غير ان هذه العيوب تختفي في تألق اللغة ووضوحها، وما في الموقف، والتـعبير والفكرة من فكاهة، والعالم الحي وما فيه - من مختلف الشخـصيات البشرية، الحقيقية، ومـا تفتحه هذه المحاورات من نوافذ توصل إلى العقل العميق النبيل. لقـد كانت هذه المحاورات اكمل نتاج عقلي وصل الينا من أي مؤلف يوناني.

ومن أقدم المحاورات معـرض الآراء الذي يعتبر بحق خير مـا كتب من نوعه في أدب العالم كله، وهو خـير مقدمـة لكتب أفلاطون، ومما كتب في قـول اجاثون Aga- thon لخَدمـهْ: "تصوروا أنكم أرباب المـنزل وأنني أنا وأصحـابي ضيوفكـم"، وكذلك الصورة الحَية التي رسمهـا لارسطوفان "وقد تملكه الفواق من كثرة الأكل". (أنظر: وِل ديورانت، ج 7، ص 475)

ومن المحاورات كذلك: الفيدون والذي هو أقل من معرض الآراء قوة وأكثر منه جمالا؛ فالنقاش الرئيس فيه، مهما بلغ من الضعف، نقاش امين لا التواء فيه ولا مغالطة، يبيح لصاحب الرأي المخالف فرصة مكافئة لفرصة مناظره، ويتدفق اكثر سلاسة وسط مناظر يتغلب هدوؤها على ما فيها من مآسٍ، حتى ان موت سقراط نفسه ليشبه اختفاء النهر عن العين حيث يلتف عند احد المنحنيات. ويدور بعض ما يشتمل عليه الفيدون حوار على شواطيء نهر ايليسوس Itillissus حين يبرد سقراط وتلميذه اقدامهما في ماء النهر.

عزيزي الدارس، وغني عن التعريف أن أعظم المحاورات كلها على الاطلاق: «الجمهورية» فهي أكمل عرض لفلسفة أفلاطون، وهي في أول أجزائها صراع مسرحي بين الأشخاص والآراء. أما "البارميندس" فهو أسوأ مثل للتلاعب المنطقي في الادب كله، كما انه اجرأ مثل في تاريخ الفلسفة للمفكر الذي يفند احب العقائد إلى نفسه – أعني نظرية الافكار – تفنيدا لا يقوى احد على الرد عليه، ودحض حججه، وفي المحاورات الاخيرة تضعف قدرة افلاطون الفنية، فتضمحل شخصية سقراط، وتفقد الميتافيزيقيا شعريتها، وتفقد السياسة "مثل الشباب العليا". حتى اذا ما وصلنا إلى القوانين، استسلم الرجل المتعب المنهوك القوي الذي ورث جميع ثقافة اثينا على اختلاف مناحيها إلى اغراء اسبارطه، وطلق الحرية، والشعر والفن والفلسفة نفسها. (أنظر: ول ديورانت، ج 7، ص 476)

4.10 أرسطو

تعلم صديق الدارس، أن أرسطو كان يلقي في مدرسته، دروسا في موضوعات راقية زمنها صدر النهار وطلبتها منتظمون. أما في آخر النهار فكان يلقي دروسا على جماعات من الشعب أقل انتظاما وأقل رقيا من الطلبة المنتظمين. ويبدو أن المحاضرات الاقل رقيا كانت في البلاغة، والشعر، والاخلاق، والسياسة. وقد جمع أرسطو في هذا البناء مكتبة كبيرة وأنشأ فيها حديقة للحيوان ومتحفا للتاريخ الطبيعي. وقد سميت المدرسة فيما بعد "باللوقيون" Lyceun. كما سمي الطلاب فيها «بالمشائين» وسميت فلسفتهم بالمشائية نسبة إلى المماشي المسقوفة التي كان ارسطو طاليس يحب ان يسير فيها مع طلابه وهو يحاضر بهم.

كان ارسطو يطلب إلى تلاميذه ان يجمعوا المعلومات في الميادين العلمية المختلفة وينسقوها: كعادات البرابرة، ودساتير المدن اليونانية، وتواريخ الفائزين في الالعاب الاثينية، وأعضاء الحيوانات، وعاداتها، وأوصاف النباتات وتوزيعها، وتاريخ العلوم

والفلسفة، حيث اضحت هذه البحوث ذخيرة طيبة من المعلومات يستمد منها رسائله المختلفة التي يخطئها الحصر، وكان احيانا يولي هذه المعلومات من الثقة اكثر مما تستحق.

كتب ارسطو لانصاف المتعلمين نحو سبع وعشرين محاورة، ولعل هذه المحاورات هي التي قامت عليها شهرة ارسطو قديما. غير انها ضاعت على اثر استيلاء البرابرة على روما. (أنظر: ول ديورانت، ج 7، ص 494)

وصلنا من هذه الكتب أربعون كتابا ويضيف اليها البعض 360 كتابا اخر اكبر الظن انها رسائل قصيرة كل منها في موضوع واحد. ان الافكار التي سادت تلك الكتب كانت افكارا حية في عصره ولعلها هي التي اكسبته في العصور التي تلت عصره لقب "الفيلسوف" واذا حاولنا ان ندرس هذه الكتب فسنجدها تحتوي على طائفة كبيرة من المعلومات القيمة، ومن الحكمة المتحفظة الخليقة بصديق الملوك ان يكتبها. ويمكن تقسيم ما بقي من رسائل ارسطو إلى ستة أقسام:

1- رسائل في المنطق: مقولات، شروح، تحليلات سابقة، تحليلات لاحقة، موضوعات، استدلات سوفسطانية.

2- علوم:

أ- علوم طبيعية: طبيعة، ميكانيكا، هيئة، ظواهر حيوية.

ب- أحياء: تاريخ الحيوان، أجزاء الحيوان، حركات الحيوان، انتقال الحيوان، تناسل الحيوان.

ج- علم النفس: في الروح، مقالات قصيرة في العالم.

3- ما وراء الطبيعة.

4- علم الجمال: البلاغة، الشعر.

5- علم الأخلاق: النيقوماخية، الاخلاق الاوديمية.

6- السياسة: علم السياسة، دستور اثينا.

عزيزي الدارس، ويمكن أن اقول ان أرسطو كان عالماً طبيعياً قبل أن نقول بانه كان فيلسوفا، فكان يهتم بعملية الاستدلال واصولها الفنية، ويحلل هذه العملية والاصول تحليلاً دقيقاً .. كان ارسطو يتوق إلى ان يكون واضح التفكير، قسم المظاهر الرئيسة

التي يمكن دراسة أي شيء بمقتضاها إلى عشرة أقسام هي: المادة، والكم، والكيف، والعلاقة، والمكان، والزمان، والموضع، والملك، والفاعلية، والانفعالية.

يرى ارسطو ان الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة، وأن القوانين الغامة ليست الا افكارا معجمة، وانها ليست فطرية بل تكونت من مشاهدات الاشياء المتماثلة؛ فهي مدركات وليست اشياء. وهو يقرر قرار الواثق مبدأ التناقض، بوصفه الشيء البدهي في المنطق كله، وهو ان "الصفة الواحدة لا يمكن ان تكون من صفات الشيء الواحد ومن غير صفاته في العلاقة الواحدة". ويكشف عن المغالطات التي يقع فيها السوفسطائيون او يغرون الناس بالوقوع فيها، وينتقد المتقدمين لانهم صوروا الكون او وضعوا نظرياتهم عنه من خيالهم بدل ان يمضوا الوقت الطويل في الرصد والتجارب بصبر واناة. ومثله الاعلى الاستدلال المنطقي وهو القياس المكون من ثلاث قضايا ثالثتها نتيجة محتومة للقضيتين الأوليين، ولكنه يقرر بانه اذا اريد تجنب الوقوع في خطأ المصادرة على المطلوب الاول وجب أن يسبق القياس استقرار واسع يجعل قضيته الكبرى مرجحة؛ وهو وإن كان في رسائله الفلسفية يضل في بيداء الاستدلال يمجد الاستقراء، ويجمع في كتبه العلمية ذخيرة طيبة من الملاحظات المحدودة الدقيقة، ويسجل في بعض الاحيان تجاربه هو او تجارب غيره من العلماء. وقصارى القول انه رغم اخطائه، واضع اساس الطريقة العلمية واول من نظم التعاون في البحث العلمي. (أنظر: ول ديورانت، ج 7، ص 497)

يبدأ ارسطو طاليس بحثه العلمي من حيث انتهى ديموقريطس، ولا يخشى ان يلج كل ميدان فيه، وهو أضعف ما يكون في الرياضيات والطبيعة، ويقتصر فيها على دراسة المبادىء الاساسية واضرب لك مثالا، عزيزي الدارس، من كتابه الطبيعة: فهو لا يسعى فيه وراء اكتشافات جديدة بل يهتم بوضع التعاريف الواضحة للمصطلحات المستعملة في هذا العلم: كالمادة، والحركة، والمكان، والزمان، والاستمرار، واللانهائي، والتغير، والنهاية.

عزيزي الدارس، لا اريد الخوض واياك في هذه التعاريف، واقتصر فيما يلي على اعطاء نماذج من نصوص مختارة في هذا المجال: يقول ارسطو طاليس في وصفه جنين الدجاج: "اجر اذا شئت هذه التجربة: إيت بعشرين بيضة او اكثر، واجعل دجاجتين ترقدان عليها، ثم خذ منها بيضة في كل يوم؛ ابتداء من اليوم الثاني إلى ان تفقس. واكسرها وافحص جنينها ففي حالة الدجاجة العادية تستطيع رؤية الجنين أول مرة بعد ثلاثة أيام... فيظهر القلب في صورة نقطة من الدم، ينبض ويتحرك كأنه قد وهب الحياة، ويخرج منه وعاءان بهما دم يسيران في تلافيف، وغشاء يحمل خيوطا رفيعة

دموية من انابيب الوريدين، ويحيط بجميع أجزاء المخ (الصفار) . . . وبعد عشرة أيام يرى الفرخ بجميع اجزائه واضحا كل الوضوح". (أنظر: ول ديورانت، ج 7، ص 502)

ويعتقد ارسطو ان جنين الانسان ينمو كما ينمو جنين الدجاج يقول: "ويرقد الطفل في رحم امه بهذه الطريقة عينها . . . لان طبيعة الطائر يمكن تشبيهها بطبيعة الانسان". ويستطيع ارسطو ان يرى بنظريته الخاصة بالاعضاء المتشابهة عالم الحيوان في صورة جامعة يقول: "فالظفر مماثل للمخلب، واليد شبيهة بثنية السرطان القاطعة، والريشة بقشرة السمكة"، ويضرب في بعض الاحيان من نظرية النشوء والارتقاء يقول: "تسير الطبيعة قليلا قليلا من الاشياء غير الحية إلى الحياة الحيوانية بطريقة يستحيل معها ان نحدد تحديدا دقيقا متى تنتهي هذه وتبدأ تلك . . . فجنس النبات مثلا يأتي بعد الجمادات غير الحية في سلم الرقي، وهذا النبات لا حياة فيه نسبيا اذا وازنا بينه وبينه الحيوان، ولكنه حتى اذا ووزن بالأشياء الجامدة. وفي النبات سلم تصاعدي مستمر نحو مرتبة الحيوان ففي البحر اشياء لا يستطيع الانسان ان يقول هل هي حيوان او نبات . . فالاسفنج مثلا شبيه بالنبات من جميع الوجوه . . . وبعض الحيوانات ثابتة في اماكنها لا تنتقل منها، واذا انتزعت منها هلكت . . . اما من حيث الحساسية فان بعض الحيوانات لا يظهر فيها ما يدل عليها وبعضها تظهر فيها غامضة . . . وهذا التنوع معين في سلم الرقي الحيواني". (أنظر: ول ديورانت، ج 7، ص 502)

وبعد عزيزي الدارس، فان ما ورد في هذه النصوص من آراء كان لصاحبها أخطاء شديدة. اضرب لك أمثلة عليها: يقول في كتابه تاريخ الحيوان: "ان الفئران تموت اذا شربت الماء في الصيف"، وان الفيلة لا يصيبها الا مرضان: الزكام، والانتفاخ، وان الحيوانات كلها ما عدا الانسان يصيبها السعور اذا عضها كَلْبٌ كَلِبٌ، وان ثعبان الماء ينشأ نشأة شيطانية، وان الانسان وحده هو الذي يخفق قلبه، وانه اذا رج صفار عدة بيضات اجتمع في وسط الاناء، وان البيض يطفو فوق الماء كثير الملح.

ومن أخطائه قوله ان الانسان له ثمانية أضلاع، وان اسنان المرأة اقل من اسنان الرجل، وان القلب اعلى من الرئتين، وان القلب هو مركز الاحساس، وان وظيفة المخ هي تبريد الدم ومع هذا، فان كتاب تاريخ الحيوان - عزيزي الدارس - في مجموعه هو خير مؤلفات ارسطو طاليس على الاطلاق، وانه اعظم ما اثمره العلم في بلاد اليونان اثناء القرن الرابع ق.م. وقد لبث علم الاحياء عشرين قرنا ينتظر ظهور مؤلف يضارعه.



نشاط (11)

أ- ارجع إلى كتاب ول ديورانت (قصة الحضارة)، واكتب ملخصا عن مسرحية "المرأة التراقية"، ومسرحية "اوديب تيزانس".

ب- ابحث عن نصوص غير التي قرأت لارسطو وناقشها مع زملائك ومشرفك.

ج- ارجع إلى الالياذة، وأقرأها وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الاكاديمي.



تدريب (11)

أ- اذكر ثلاث مسرحيات لسوفوكلس؟

ب- لماذا سمي طلاب ارسطو بالمشائين؟

ج- ما هو السبب الحقيقي في حرب طرواده؟



أسئلة التقويم الذاتي (11)

هل كان ارسطو فيلسوفاً بالدرجة الاولى. وضح اجابتك؟

11. الخلاصة

وخلاصة القول، عزيزي الدارس، أن قصائد هوميروس كانت أقدم ما وصلنا من شواهد الفكر اليوناني. وأن اليونان كانوا يصدرون في علاقتهم بالآلهة عن ثلاثة عواطف هي: الوفاء بالجميل، والمصلحة الخاصة، والخوف من العقاب.

كان يحد من الديمقراطية اللاتينية أن أقلية صغيرة من الأهلين تستطيع القراءة، وكذلك صعوبة الوصول إلى أثينا من أتيكا مثلا، وأن حق الانتخاب كان مقصورا على من ولد من أبوين اثينيين، وبلغ الحادية والعشرين من العمر. وكان هؤلاء وأسوهم دون غيرهم هم الذين يستمتعون بالحقوق المدنية أو يتحملون مباشرة أعباء الدولة الحربية والمالية.

كانت القوانين في نظر اليونان الأقدمين عادات مقدسة ارتضتها الآلهة وأوحت بها، فالقانون عندهم جزء من الدين. وكانت المرحلة الثانية من مراحل التشريع اليوناني

هي جميع العادات المقدسة وتنسيقها على يد مشرعين. ولما دونت هذه العادات صارت قوانين من وضع الانسان. وفي هذه الكتب القانونية تحرر القانون من سيطرة دينية وازدادات على توالي الأيام صبغته الدنيوية. ثم نمت الشرائع المضطردة وتجمعت، وانبثق عن هذا لجنة لتختار الأصلح منها.

ونقشت بذلك شرائع أثينا على ألواح من الحجارة في باب الملك. وبهذا لم يكن يسمح لأي حاكم أن يفصل في مسألة بالاستناد إلى قانون غير مكتوب.

أما المسرح الأثيني فقد عرف فيه أروع روائع الشعر. وربما اهتمت الدولة بالمسرح لأنها كانت تريد تجميل الحياة عن طريق السمو بالأفكار وفقا لحلم رجال الدولة الديمقراطيين. وقد بقي المسرح الأثيني زمنا طويلا دون منافس يشكل اشعاعا حضاريا ينطلق من مركز الحضارة: مدينة الألهة: أثينا.

12. لمحة مسبقة عن الوحدة الدراسية التالية

عزيزي الدارس، وتبحث الوحدة الرابعة - حضارة العصور الوسطى - في الملامح الأساسية لعالم العصور الوسطى، وأبرز مظاهره الحضارية وعلى وجه الخصوص: النظام الاقطاعي، والكنيسة، والبابوية، والتيارات الفلسفية واللاهوتية الرئيسية. أرجو أن تجد فيها ما تصبو إليه وفقك الله.

13. إجابات التدريبات

تدريب (1)

تنسب الألياذة والاوديسا إلى هوميروس. والشك قديم في حقيقته وفي نسبة الملحمتين له. فبعض النقاد يذهبون إلى أن الملحمتين ترجعان لطبقتين من الشعراء. بحيث ترجع الألياذة إلى القرن التاسع ق.م. وترجع الاوديسا إلى أواخر القرن التاسع والنصف الأول من القرن الثامن ق.م. وأن هوميروس أشهر أولئك الشعراء أو أنه أحدثهم عهداً، حفظ الملاحم وأنشدها فنسبت اليه باعتباره الجامع لها. في حين يذهب فريق آخر من النقاد إلى أن هوميروس هو ناظم هذه الملاحم.

تدريب (2)

ديميتير: آلهة الحرب عند هوميروس وصارت في نحلة السيس الهة العمل.

ديونيسيوس: اله ترف الاسراف عند هوميروس، وفي الاورفية اله التضحية.

الاورفية: احدى صور عبادة ديونيسيوس ولعلها ترجع إلى شاعر من أهل تراقية اسمه اورينيوس.

تدريب (3)

هم: طاليس، أنكسيمندريس، انكسيمانس، هرقليطس.

تدريب (4)

كان حق الانتخاب مقصورا على من ولد من أبوين اثينيين حرين، وبلغ الحادية والعشرين من العمر.

تدريب (5)

كانت القوانين عندهم ابتداء عادات مقدسة وجزءاً من الدين ثم كانت المرحلة الاخرى تتمثل في جمع العادات المقدسة وتنسيقها. أما المرحلة الثالثة فكانت تتمثل في نمو الشرائع المضطرد وتجميعها وكتابتها على ألواح من الحجارة في باب الملك.

تدريب (6)

ومن أجل محاربة الرشوة والفساد في القضاء كان أعضاء المحكمة الذين يوكل اليهم النظر في قضية ما يختارون بطريقة القرعة في آخر لحظة، وكانت معظم القضايا لا يطول النظر فيها لأكثر من يوم واحد، ولذلك كانت الرشوة نادرة عندهم، كما أنه كان من الصعب على الناس رشوة ثلثمائة رجل في لحظة واحدة.

تدريب (7)

كان يقوم بذلك هيئات كثيرة، يذكر أرسطو طاليس خمسا وعشرين منها، ويقدر عدد الموظفين الاداريين في المدينة بسبعمائة موظف يتم اختيارهم كل عام بطريق القرعة.

تدريب (8)

ربما أرادت الدولة بهذا تجميل الحياة عن طريق السمو بالأفكار وفقاً لحلم رجال الدولة الديمقراطيين آنئذ.

تدريب (9)

أ- أن ليس الموت مخيفا رهيبا كما نظنه اذا نظرنا اليه نظرة عاقلة قائمة على الذكاء والفطنة، فقد يكون ما ينطوي عليه من الألم اقصر أمدا وأخف وقعا مما عانيناه المرة بعد المرة في أثناء حياتنا. والذي يخلع على الموت ما يعلق به من رهبة هو أوهامنا السخيفة عما قد يكون وراء الموت.

ب- كان الرواقيون يتفقون مع الأبيقوريين في أن المعرفة لا تنشأ الا من الحواس.

تدريب (10)

1- لقد جعل سنكا من الرواقية فلسفة بشرية، وأنزلها من عليائها حتى أضحت فلسفة حية في متناول بني البشرية، ومهد بها للمسيحية.

2- أنفق مارقس اورليوس كثيرا من أموال الدولة في الهبات النقدية التي كان يوزعها على الشعب والجيش، ومنح كل فرد من أفراد الحرس البريتوري عشرين ألف سسترس، وزاد عدد الذين كان من حقهم أن يطلبوا الحبوب من غير ثمن. وأكثر من الألعاب باهظة النفقة. وأعفى الناس والولايات من كثير من الضرائب والجزية المتأخرة.

تدريب (11)

أ- مسرحية المرأة التراقينية، مسرحية اوديب تيزانس، مسرحية اوديب في كولونس.

ب- سمي طلاب ارسطو بالمشائين نسبة إلى المماشي المسقوفة التي كان يحب ارسطو السير فيها.

ج- لعله نزاع السيطرة على الأراضي الغنية المحيطة بالبحر الاسود.

- **الاركون** Arkoan: واحد في هيئة الاركونون تشترك في تصريف شئون المدينة الادارية تحت اشراف الجمعية والمجلس الحاكم.

- **الأنظمة** System of Negulat: مجموعة من القوانين مكتوبة على ورقة وضعها جايوس Gaius وفوقها مقالات جيروم.

- **البرثرون** Barathron: صخرة يلقى من عليها المحكوم عليه بالاعدام سواء أقبل تنفيذ الحكم فيه أم بعد ذلك.

- **الجبرية** Fatalism: فلسفة تعني ان الانسان مجبر على ما يفعل وهي بعكس القدرية التي تعني ان الانسان قادر على أفعاله.

- **خلاصة** Docket: هي مجموعة من القوانين المدنية المكتوبة على ورق وضعها سلفيوس يوليانوس Salvius Julianus.

- **الكرما** Karma: عقيدة بوذية تقول إن أعمال الانسان والكائنات الحية بوجه عام يحددها تتابع العلل والمعلولات السابقة بنظام لا يتبدل.

- **مجتمعات الرفقاء** Parternes Communities: هم أنشط الأعضاء في كل من الاجركية والديمقراطية والذين كانوا ينظمون في جمعيات عرفت بهذا الاسم.

- **المشاؤون** Peripatetic: هم طلاب مدرسة أرسطو، سموا بذلك نسبة إلى المماشي المسقوفة التي كان أرسطو يحب أن يسير يها مع طلابه وهو يحاضر بهم.

- **نادي الأجركية** Al-Oligarch Club: هو ذاك النادي الأثيني الذي كان يتعهد أعضاؤه بأن يساعد بعضهم بعضا في الشؤون السياسية والقانونية، وكانت تربطهم معا رابطة العداوة الشديدة للطبقات الدنيا التي نالت حقوقها السياسية والتي أخذت تنافس طبقة الاشراف: ملاك الأراضي، والتجار أصحاب المال.

- **الهيلة** Haley: اسم للمكان الذي كانت تجتمع فيه المحاكم. وقد سميت بهذا الاسم (المشتق من هيليوس أي الشمس) لأن الجلسات كانت تعقد في الهواء الطلق.



15. المراجع

1- م. تايلور، الفلسفة اليونانية، ترجمة: عبد المجيد عبد الرحمن، مكتبة النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1985م.

2- ديورانت، ول وايرل، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، دار الجليل، 42 ج، ط9، بيروت، تونس، 1408هـ / 1988م.

3- لطفي عبد الوهاب يحيى، الديمقراطية الاثينية، مركز التعاون الجامعي، مطبعة دار نشر الثقافة، الاسكندرية، مصر، ط2، 1969م.

4- عبد الرحمن بدوي، خريف الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، ط 3، القاهرة، 1959م.

5- عبد الرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، ط 8، القاهرة، 1979م.

6- عبد الرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية، وكالة المطبوعات، دار القلم، ط 4، الكويت، بيروت، 1980م.

7- موسوعة تاريخ الحضارات العام، اشراف: موريس كروزيه، منشورات عويدات، 7ج، ط3، بيروت، باريس، 1413هـ/ 1993م.

8- محمد جلال أبو الفتوح شرف، محاضرات في الفلسفة اليونانية، مكتبة كريديه اخوان، بيروت، 1988م.

9- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط5، القاهرة، 1389هـ/ 1970م.

4

الوحدة الرابعة

حضارة أوروبا في العصور الوسطى

محتويات الوحدة

الموضوع	الصفحة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

أرحب بك عزيزي الدارس، مرة أخرى في الوحدة الرابعة من مقرر «الحضارة البشرية ومنجزاتها» والتي عنوانها: «حضارة أوروبا في العصور الوسطى». والغرض من هذه الوحدة تعريفك بالملامح الأساسية لعالم العصور الوسطى وأبرز مظاهره الحضارية وعلى وجه الخصوص: النظام الإقطاعي، والكنيسة والبابوية، والتيارات الفلسفية واللاهوتية الرئيسية.

عزيزي الدارس، وكما تعودت في الوحدات السابقة سنورد لك هنا أيضا مجموعة من التدريبات والأنشطة وأسئلة التقويم الذاتي، إضافة إلى أسئلة التعيينات الخاصة بالوحدة، إن كل ذلك سيعينك إن تفاعلت معه على فهم الوحدة وتحقيق الأهداف المرجوة من دراستها.

أهلاً بك في وحدة حضارة أوروبا في العصور الوسطى متمنيا لك الاستمتاع بدراستها.

2.1 أهداف الوحدة

يتوقع منك، عزيزي الدارس، بعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادراً على أن: -

1- تعرف الملامح الأساسية لعالم العصور الوسطى ونظمه التربوية والاجتماعية والسياسية، وبعلاقة الكنيسة بالدولة على وجه الخصوص.

2- تَطّلعْ على النصوص اللاهوتية والفلسفية في العصور الوسطى، وتحددْ العلاقة بين الوحي والعقل أو الدين والفلسفة في التجربة المسيحية.

3- تقارن التجربة المسيحية في تحديد العلاقة بين الدّين والفلسفة بالتجارب الفكرية المعاصرة لها «الاسلامية» أو التالية لها «الحديثة والمعاصرة».

3.1 أقسام الوحدة

تنقسم الوحدة إلى ستة أقسام ترتبط بكافة الأهداف السابقة وهي:

1- الإمبراطورية الرومانية والتحول إلى المسيحية.

2- الكنيسة والبابوية والدولة.

3- النظم الاجتماعية والاقتصادية.

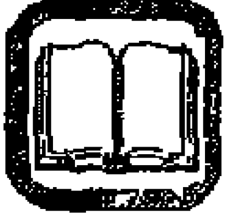
4- التعليم والجامعات.

وترتبط هذه الأقسام كلها بالهدف الأول.

5- الفلسفة واللاهوت والآداب والفنون: القديس أوغسطين، الفلسفة المدرسية «الأوغسطينية الضاربة إلى السينوية، الأرسطوطالية المسيحية، الرشدية اللاتينية».

6- نصوص مختارة من القديس أوغسطين، القديس توما الاكويني، دانتي الأليجيري وترتبط بالهدف الثاني والثالث.

4.1 القراءات المساعدة



عزيزي الدارس، من أجل التوسع في دراستك لهذه الوحدة أنصحك بالمراجع التالية، وذلك لاتصالها القوي والمباشر بموضوع الوحدة، ومما لا شك فيه أن انتفاعك بهذه المراجع سيجعلك قادراً على استيعاب ما جاء فيها من معلومات، كما سيعمق فيك القدرة على التصور والتحليل والاستنساخ:

1- سعيد عبدالفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج2، النظم والحضارة، القاهرة، ط2، 1963م.

2- ج. ج. كولستون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة: ترجمة جوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1983م.

3- ستيفن دنسمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالقادر جاريد، زكي علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1967م.

4- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى، دار المعارف، مصر، ط3.

5- ول ديورانيت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب عمرو، وآخرون، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1965م. الجزء 10-11 .

5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة

قبل أن تبدأ عزيزي الدارس، في دراسة الوحدة أنصحك أن تهيئ لنفسك مكاناً مادئاً مريحاً، وأن تقوم بحل الأنشطة والتدريبات وأسئلة التقويم الذاتي لأن ذلك يساعدك على استيعاب ما في الوحدة من مادة.

حاول، عزيزي الدارس، أن تربط بين الأماكن التي تتعرض لها في دراستك وبين مكانها على الخارطة. كما انصحك بأن تقرأ في المراجع التي أشرت بها عليك لتوسع اطلاعك. مع امنياتي لك بالاستمتاع فيما تقرأ.

2. الإمبراطورية الرومانية والتحول إلى المسيحية

تعود أصول الدولة البيزنطية عزيزي الدارس، إلى القرن الرابع الميلادي حين أصدر الإمبراطور قسطنطين مرسومه الشهير الذي اعترف فيه بالديانة المسيحية وأسس العاصمة الجديدة «القسطنطينية» على ضفاف البوسفور. ويجدر بك ان تعلم ان التاريخ البيزنطي ما هو إلا مرحلة جديدة من مراحل التاريخ الروماني، والدولة البيزنطية ما هي إلا استمرار للامبراطورية الرومانية القديمة. وكلمة «بيزنطي» هي تعبير أطلقته الأجيال اللاحقة على هذه الدولة.

عزيزي الدارس: لقد ظلت التقاليد الرومانية في الحكم هي التقاليد السائدة لدى البيزنطيين وعلى الرغم من ذلك، فإنه ومع مرور الأيام كان يبدو واضحاً أن الدولة البيزنطية الناشئة تكوّن لنفسها شخصية مستقلة لها معالمها المميزة عن الامبراطورية الرومانية. ففي الناحية الثقافية واللغوية يلاحظ أن البيزنطيين تأثروا باليونان، كما كان للنصرانية أثر كبير في مختلف مجالات حياة هذه الدولة. وكان للتطور الاقتصادي والاجتماعي أثره في خلق أطر جديدة للتنظيم الاقتصادي والاجتماعي. كما أن الظروف الجديدة دعت إلى تنظيم سياسي واداري جديدين. وهكذا فإن التطور المستمر الذي طبع مختلف مناحي الحياة في الدولة البيزنطية جعل هناك فرقاً شاسعاً في نهاية المطاف بينها

وبين الامبراطورية الرومانية. وبتعبير آخر تعتبر القرون الثلاثة الأخيرة من حياة الامبراطورية الرومانية، أو القرون الثلاثة الأولى من حياة الامبراطورية البيزنطية فترة انتقال تمت فيها عملية الانتصار على التقاليد الرومانية في الحكم. (انظر نبيه عاقل، ص 8-7).

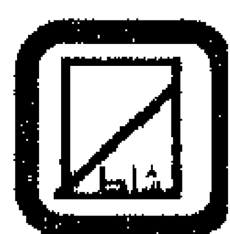
لا يمكن لك عزيزي الدارس، ان تدرك فترة التحول من الامبراطورية الرومانية الوثنية إلى المسيحية إلا بدراسة الظروف التي رافقت تلك الفترة، ومن أجل أن أعرفك بهذه الظروف لا بد لنا من العودة إلى القرن الثالث الميلادي، ذلك القرن الذي شهد أزمة تعرف في التاريخ الروماني باسم أزمة القرن الثالث.

لقد قامت في هذا القرن مصاعب اقتصادية وفوضى عسكرية كانت لها نتائج وخيمة على النصف الغربي من الامبراطورية الرومانية، حين لم يكن لهذه الأزمة نفس الأثر على الجزء الشرقي منها. وان تأثر إلى حد ما بذلك. ولعلك تود، عزيزي الدارس، أن تسأل عن سبب هذه الأزمة. فإنها نتيجة حتمية لانهيار الامبراطورية الرومانية الاقتصادي والاجتماعي، وما ترتب على هذا الانهيار من بطالة، وتعطل التجارة والصناعة وغير ذلك من مظاهر النشاط الاقتصادي. وكذلك أدى إلى ظهور إقطاعات زراعية كبيرة أخذت تبتلع أملاك الملاك الصغار وتزيد في عدد الفلاحين أجراء الأرض الذين صاروا يعيشون على الأجر الضئيل الذي يعطيهم إياه الملاكون الكبار. وهكذا سار التدهور السياسي جنبا إلى جنب مع التدهور الاقتصادي (انظر: نبيه عاقل، ص9).

ونتيجة لهذا كله ضعفت سلطة المجالس البلدية وتمركزت السلطت كلها في يد الامبراطور ومساعديه من رجال الإدارة، الأمر الذي هيأ إلى ظهور فكرة الحكم المطلق التي سادت أيام الدولة البيزنطية. فصار الامبراطور البيزنطي الحاكم المطلق الذي يستمد قوته من إرادة الله سبحانه لا من الأرض. وقد أدت هذه الأزمة إلى جعل الناس ينصرفون إلى العبادة والتفكير في الحياة الأخرى، وما قد تجلبه من راحة لم يحصلوا عليها على هذه الأرض.

عزيزي الدارس، لقد اعترف قسطنطين الكبير بالديانة النصرانية في الامبراطورية الرومانية، فما السبب في ذلك. هل كان ذلك لأنه أراد استخدام الدين لأغراضه السياسية، أو أنه كان تقياً مؤمناً يعمق بها العمل.

ومن أجل إلقاء الضوء على هذه المشكلة لابد من أن نأخذ بعين الاعتبار الأوضاع السياسية التي كانت تسود الإمبراطورية. حينذاك إن سياسة ديوقليسيان في اضطهاد النصارى كانت سياسة فاشلة لم تأت إلا بالضرر على الإمبراطورية في ظرف كانت مصالح الإمبراطورية فيه تتجه نحو الشرق الذي هو مصدر النصرانية. فمن كان يريد الشرق فعليه إما أن يكون نصرانياً أو صديقاً لها. كما أن قسطنطين كان رجلاً معروفاً بتدينه سواء أفي الفترة التي كان فيها يؤمن بالوثنية أم الفترة التي اعتنق فيها الدين المسيحي. كما أن الفترة التي عاش فيها قسطنطين كانت فترة ساد فيها حب الناس للإيمان بدين أو بآخر. وفي عام 312م أعلن قسطنطين إيمانه بالنصرانية، ومنذ ذلك التاريخ نَعِمَ هذا الدين بحمايته وأخذ يزداد قوة مع الأيام. (انظر نبيه عاقل، ص 9).



نشاط (1)

ابحث أزمة القرن الثالث الميلادي، وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟



تدريب (1)

إلى متى تعود أصول الدولة البيزنطية؟



أسئلة التقويم الذاتي (1)

اشرح معنى فكرة الحكم المطلق التي سادت أيام الدولة البيزنطية؟

3. الكنيسة والبابوية والدولة

أخذت الكنيسة تظهر كعامل روحي فعال في الإمبراطورية البيزنطية، ذلك إلى جانب السلطة الإمبراطورية المتزايدة، وأخذت قوة الكنيسة تتزايد مع مرور الأيام. لقد كان الأباطرة - في الفترة الأولى من حياة الإمبراطورية - يتمتعون بسيادة جعلتهم أصحاب اليد العليا على الكنيسة. وهذه السيادة تتفق تمام الاتفاق مع التقاليد الرومانية القديمة التي كانت تجعل من الإمبراطور الرئيس الديني الأعلى والمشرف على شؤون رعاياه الدينية. ولم تطل هذه السيادة الدينية للأباطرة، ومع مرور الزمن أخذت الكنيسة

تتحدى سلطة الأباطرة وتثبت أقدامها في الحياة العامة، وقد شهد التاريخ البيزنطي كثيراً من المنازعات بين السلطتين البيزنطية والرومية. وكان النصر في كثير من الأحيان من حظ الكنيسة. وعلى أي حال لم تكن لهذه المنازعات الطابع المميز للتاريخ البيزنطي، بل نجد على العكس أن الصلة بين الكنيسة والدولة كانت في أغلب الأحيان حسنة والتعاون تاما بينهما. وكان هذا التعاون التام بين الكنيسة والدولة يظهر في أوقات الأزمات والأخطار، سواء أكانت هذه الأزمات والأخطار داخلية أم خارجية، وبوجه عام كانت الكنيسة في خدمة الإمبراطورية وليس العكس. (انظر نبيه عاقل، ص10).

لقد كان الإمبراطور القائد الأعلى والسلطة القضائية الأولى، ومصدر القوانين، كما أنه كان حامي الكنيسة الأورثوذكسية، وكان يعتبر أن اختياره قد تم بإرادة الله تعالى، ولذلك فهو ليس فقط السيد والحاكم بل الرمز الحي للإمبراطورية المسيحية الذي اختاره الله لرئاسة هذه الإمبراطورية، وقد نتج عن هذا المعنى الديني الذي أضفاه الأباطره على أنفسهم أن أصبحوا موضع تقديس ديني وسياسي معا. وقد ظهر هذا التقديس في احتفالات، البلاط الإمبراطوري التي كان يشترك فيها رجال الكنيسة مع رجال البلاط جنبا إلى جنب. وكان أتباعه جميعا يعتبرون بمثابة خدم له، عليهم إذا حظوا برؤياه أن يسجدوا إلى الأرض مهما علت مراتبهم الاجتماعية. وغير خفي أن هذه الأبهة التي أحاط أباطرة بيزنطة أنفسهم بها تعود في أصولها إلى العالمين الهلنستي والروماني. ولكن البيزنطيين بالغوا بها وأضافوا إليها كثيرا من تقاليد بلاط الساسانيين والخلفاء المسلمين فيما بعد. (انظر: نبيه عاقل، ص11).

عزيزي الدارس، لم يكن إعلان قسطنطين يعني منح المسيحية حق وجود شرعي مماثل للوجود الوثني فحسب، بل كان يعني تثبيت دعائمها وتمهيد الارض لازدهارها وتقويتها؛ فقد منح رجال الدين النصارى نفس حقوق كهنة الديانة الوثنية وامتيازاتهم، وأعفوا من الضرائب ومن واجب العمل في وظائف الدولة حتى يتسنى لهم تأدية واجباتهم الدينية. وكان الناس يستطيعون وقف أموالهم وأملاكهم على الكنائس وتستطيع الكنائس وراثة هذه الأموال والأملاك والتصرف بها. وهكذا وفي نفس الوقت الذي أغلقت فيه الحريات الدينية، أصبحت الحماية المسيحية كيانا شرعياً قانونياً معترفاً به كل الاعتراف وقد منحت المحاكم الكنسية امتيازات هامة جدا. فأتيح للشخص الحق إذا وافق خصمه أن ينقل دعواه المدنية إلى محكمة كنسية حتى ولو كانت المحكمة المدنية قد باشرت النظر في هذه الدعوى. وفي نهاية حكم قسطنطين اتسعت سلطات المحاكم الدينية فأصبحت تتصف بما يلي:-

1- إن حكم الأسقف يجب أن يقبل كحكم نهائي في الحالات التي تخص أشخاصا من أي سن كانت.

2- يمكن نقل أي قضية مدنية إلى محكمة دينية في أي مرحلة من مراحل النظر فيها، حتى ولو لم يوافق الخصم على هذا النقل.

3- على القضاة الكنسيين أن يصدقوا أحكام المحاكم المدنية.

لقد أدت هذه الامتيازات القضائية إلى ازدياد نفوذ الأساقفة في المجتمع، ولكنها ن جهة أخرى زادت في إيمانهم وأقحمتهم في مشاكل كانوا بعيدين عنها، كما جعلت جل الدين مضطرا لأن ينغمس في قضايا دنيوية. وازداد غنى الكنيسة المادي عن طريق ا كان يصلها من هدايا وأموال وأراضٍ من الدولة والأشخاص العاديين. وقد أعفي لنصارى من واجب حضور الاحتفالات الوثنية، كما ساعدت التعاليم النصرانية على خفيف عقوبات المجرمين.

لقد أقام قسطنطين الكبير العديد من الكنائس في مختلف أصقاع الإمبراطورية، إليه يعزى بناء بازيليكا القديس بطرس، وبازيليكا لايتران في روما. وقد اهتم اهتماما خاصاً بفلسطين حيث حجت أمه هيلينا، ووجدت الصليب الحقيقي، وعلى جبل الزيتون نى كنيسة القيامة، وفي بيت لحم أقام كنيسة المهد، وفي القسطنطينية بنى كنيسة الرسل كنيسة القديسة إيرين وغيرهما (نبيه عاقل، ص 30).

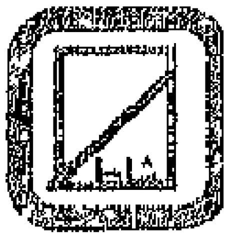
عزيزي الدارس، إن اعتناق قسطنطين للديانة المسيحية لا يعني أنه قطع صلاته التقاليد الوثنية في العبادة كما فعل من خلفه من أباطرة بيزنطة، فقد استمر في احترامه بعض تقاليد العبادة الوثنية واشترك بنفسه في بعض طقوس هذه العبادة ولا سيما عبادة له الشمس (انظر نبيه عاقل، ص 30).

لقد أصبحت النصرانية بفضل قسطنطين ذات نفوذ كبير في العالم الروماني. وقد ستدعى هذا الإمبراطور في عام 325م إلى مدينة نيقية Nicaea أول مجمع مسكوني يبحث أفراده العقيدة وشؤون الكنيسة بوجه عام، ولم يكتف بهذه الدعوة فقط بل لعب وراً كبيراً في القرارات التي اتخذها. وهكذا أصبح قسطنطين عملياً الرئيس الأعلى لكنيسة وسار على خطاه بقية الأباطرة البيزنطيين الذين اعتبروا أنفسهم سادة الكنيسة.

لقد كان لهذا التعاون بين الكنيسة والدولة الذي ابتداه قسطنطين أثرا طيباً على كلٍ ن الكنيسة والدولة ولكن في الوقت نفسه جلب الكثير من المشاكل؛ فمن جهة أعطت

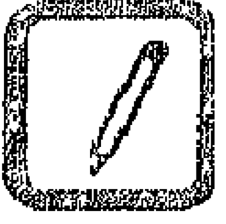
العقيدة المسيحية الدولة البيزنطية وحدة روحية قوية جداً، كما أعطت لفكرة الأباطرة في الحكم المطلق التأييد المعنوي الذي كان ينقصها. ومن جهة أخرى حظيت الكنيسة بتأييد الدولة المادي، وساعدت الدولة الكنيسة في حملاتها التبشيرية وفي الوقوف في وجه خصومها، مما أظهر الكنيسة في مظهر المعتمد على الدولة. هذا هو الأثر الطيب الذي أدى إليه هذا التعاون بين الكنيسة والدولة.

أما المشاكل التي جلبها فتتلخص في أن الدولة بربطها نفسها بالكنيسة أصبحت مجبرة على أن تكون طرفاً في كل المنازعات الكنسية التي كانت تقوم بين الفرق الدينية. فالخصومات على العقيدة لم تعد من خصوصيات الكنيسة وحدها، بل كانت تتأثر بالظروف السياسية وأصبحت جزءا لا يتجزأ من الحياة السياسية والكنسية. أضف إلى هذا أن المصالح الدينية ومصالح الدولة لم تكن متوافقة تماما في كل الظروف لهذا كثيراً ما كان يحل الخصام محل الوئام بين السلطتين.



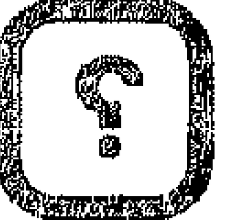
نشاط (2)

ابحث مشكلة حصلت بين الكنيسة والدولة زمن قسطنطين، وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟



تدريب (2)

ما هي سلطات المحاكم الدينية زمن قسطنطين؟



أسئلة التقويم الذاتي (2)

وضح طبيعة العلاقة بين الكنيسة والدولة؟

4. النظم الاجتماعية والاقتصادية

عزيزي الدرس، لقد كان لبيزنطة تشريعات وقوانين تنظم جميع جوانب حياتهم، وتنظيم اقتصادي واجتماعي متقدم راق. ولم يكن ينقص بيزنطة الثروة؛ بل كان غناها يفوق جميع حدود الوصف. وقد كانت الدولة تتبع نظاماً ضريبياً قاسياً يضمن لها

لموارد الكافيـة لسداد جـميع نفقـاتها. على أن جهـازها الإداري الذي كان يقـوم عليه ،وظفـون أكفيـاء في معظمهـم لم يكن يخلو من موظفين فـاسدين كان همـهم الرشوة إبتـزاز الأموال. وقـد بني غنى الأباطرة ورفاههـم ورفاه الدولة بشكل عـام على فقـر حماهيـر الشعب وبؤسهم التي كانت تعـيش العبودية والحرمان. (انظر نبـيه عاقل، ص .(1:

ومن أجل مواجـهة أزمة القرن الثـالث قام الإمبراطـوران ديقوليسيـان وقسطنطين إصلاحاتهما التي هدفت إلى تقوية السلطة المركـزية، وإقامة جهاز إداري منظم يستطيع لإشراف على شـؤون الدولة وموظفيـها، وكذلك فصل السلـطتين العسكرية والإدارية صلا كاملاً تتضح معه حدود اخـتصاصات كل منهما. وقد أدت هذه الإصلاحات إلى قوية مـركز الأباطرة وسلطتـهم، هذه السلطة التي تضعـضعت كثـيراً أيام الاضطرابات الأزمة في القرن الثالث. لذا حاول هذان الإمبـراطوران الحد من سلطة مجلس الشيوخ حدّدا اختصاصات الإدارات الحكومية المختلفة حتى لا تطغى سلطة إدارة على أخرى.

وإمعـانا في قاعدة فصل اخـتصاصـات الإدارات المختلفة وتحـديدها جاء التنظيم لجـديد فوضـع حدوداً فـاصلة بين الإدارات المدنيـة والعـسكرية وبين الإدارة المركـزية الإدارات في المقاطعات، وقام على رأس هذا التنظيم بكامله الإمبراطور الذي ترتبط به مخـصياً هذه الإدارات ويعـتبر مـوظفوها مسـؤولين تجاهه ويديرها هو ومسـاعدوه من لعاصمة.

وبسبب اتسـاع رقعة الإمـبراطورية آنذاك قسـمت إلى مقـاطعات ليسـهل عليهم لإشراف عليـها. كما أوجـد نظام المساعدين ليـساعدوا الإمبـراطور في الإدارة. وكان يوقليـسيان في إصـلاحاته متـأثراً إلى حـد بعيـد بالتنظيم الإداري في الإمبـراطوريات لشرقية، كـما ظهر هذا التأثر الشرقي في مجال آداب السلوك في القـصر الإمبراطوري غيره من المجالات (انظر نبيه عاقل، ص 14/13).

أوجد ديوقليسـيان نظام المساعدين الأربعة يقـوم بموجبه أربعة أشخـاص بمساعدة لإمبراطور في الإدارة هم: اثنـان يحملان لقب Augusti أو أغسطس، واثنان يحملان قب Caesar أو قيصر. وكان الأغسطسـان يشرفان على إدارة النصفين الشرقي والغربي ي الامبراطورية بالتناوب. ويساعـد كل أغسطس في إدارة مقاطعته قيصـر من القياصرة لاثنين تربطه بالأغـسطس رابطة القربى بالتـبني لا رابطة القرابة بالدم، وتؤهله صـفاته لشخـصية العاليـة للإدارة. وحين ينسحب الأغسطس من العـمل يخلفه عادة القيـصر

الذي يصبح أغسطساً ويعين لمساعدته قيصراً جديداً وهكذا كان الحكام الأربعة المذكورون آنفاً يعتبرون كحاكم واحد يحكم إمبراطورية واحدة، وكانت القرارات والأوامر تصدر باسمهم جميعاً. ويبدو أن هذا النظام أدى إلى اضطرابات وفوضى وحروب أهلية نتجت عن مطامع الأغسطين، الأمر الذي دعا قسطنطين الكبير إلى إلغائه، وجعل من نفسه الحاكم الوحيد للإمبراطورية في أول الأمر، ولكنه ما لبث أن عاد ليعين حكام مقاطعات يساعدونه في إدارة البلاد.

لقد أدى تنظيم ديوقليسيان إلى إنهاء الوضع الخاص والامتيازات التي كانت تتمتع بها إيطاليا بين مقاطعات الإمبراطورية، كما أنه ألغى التمييز بين المقاطعات الإمبراطورية والمقاطعات التي كانت تابعة لمجلس الشيوخ، فمنذ عهد ديوقليسيان أصبحت جميع المقاطعات تابعة رأساً إلى الإمبراطورية، كما أن المقاطعات الكبيرة، وكان عددها قبله سبعاً وخمسين مقاطعة قسمت إلى عدد من المقاطعات الصغيرة، حتى بلغ عددها في عهده حوالي مائة مقاطعة، وفي القرن الخامس بلغ عددها مائة وعشرين مقاطعة. كما قسم ديوقليسيان الإمبراطورية إلى اثنتي عشرة أبرشية Diocese . وفي نهاية القرن الرابع بلغ عدد هذه الأبرشيات أربع عشرة أبرشية. (انظر نبيه عاقل، ص 15، 16).

وفي عهد قسطنطين قسمت البلاد إلى مناطق إدارية كبيرة Prefectures تحتوي كل منها على عدد الأبرشيات، وكل أبرشية قسمت إلى عدة مقاطعات، وكان يؤلف بين هذه الأقسام وحدة تتبع الحكومة المركزية الموجودة في العاصمة. ومن الجدير ملاحظته أن المناطق الإدارية التي قسمت إليها البلاد اختلف عددها من زمن إلى زمن، ولم تثبت حدود كل منطقة إدارية حتى نهاية القرن الرابع الميلادي.

عزيزي الدارس، إن أهم ما أدخله ديوقلسيان وقسطنطين في إصلاحاتهما الإدارية هو الفصل فصلاً واضحاً بين السلطتين المدنية والعسكرية؛ فقد كانت السلطة المدنية في كل منطقة بيد حاكمها الإداري، في حين كانت السلطة العسكرية بيد القائد المعروف باسم Dux والتي كانت سلطته تمتد في بعض الأحيان إلى أكثر من منطقة.

وكان حكام المناطق الإدارية يتمتعون بسلطات واسعة جداً وكانوا يعتبرون ممثلين للإمبراطور في مقاطعاتهم وقد حاول الكثيرون منهم تحدي سلطة الأجهزة الإدارية في العاصمة، وكان هم الأباطرة الحد من نفوذ هؤلاء الحكام وتضييق رقعة سلطاتهم ولإثارة الخصومة بين مساعديهم، وبينهم وبين حكام المقاطعات التابعة لها، حتى لا يبلغ نفوذهم حد الخطر الذي يهدد نفوذ الإمبراطور نفسه.

لم تكن مدينتا روما والقسطنطينية تتبعان حاكم المنطقة، بل كان لكل منهما حاكم مستقل يأتي في المرتبة التي تلي رتبة حاكم المنطقـة مباشرة وكان حاكم المدينة «أي مدينة روما والقسطنطينية» العضو الأول في مجلس الشيوخ، وهو الموظف الكبير الوحيد الذي لا يرتدي الزي العسكري بل يرتدي الـ Toga: وهي اللباس المميز للمواطنين الرومان. وقد لعب حكام القسطنطينية دوراً كبيراً في حياة بيزنطة في مختلف مراحل حياتها، فقد كان هذا الحاكم المسؤول عن المحـاكم في المدينة واليه تعود مراقبة تنفـيذ القوانين وحفظ النظام، كما أنه كان المسؤول عن تموين المدينة بالأغذية وهو المشرف الأعلى على تجارتها وصناعتها. (انظر نبيه عاقل، ص18).

لقد كان من نتائج تعيين حكام مستقلين لمدينتي روما والقسطنطينية الحد من سلطة حكام المناطق الذين زادَ ضـعفهم كـذلك بسبب تطور وازدهار دوائر الإدارة المـركزية في زمن الإمبراطور قسطنطين الكبير، حـيث كان هناك ما يسمى برئيس الدوائر الذي كانت تناط به مـسؤوليـات كـثيـرة منهـا المسؤوليـة عن الاحـتفـالات التي تقـام في القصـر الإمبراطوري، ويقع على عاتقه أمر استقبال البـعثات والوفود الأجنبية (انظر نبيه عاقل، ص 19).

وكان يتـبع رئيس الدوائر حـارس القصـر المقدس الذي كان المـسؤول الأول عن الشؤون القضائية والـيه تعود صياغة القوانين والمراسيم الإمبـراطورية. أما الشؤون المالية فكانت من اختصاص موظفين يرأس أحدهما الدائرة المالية، ويرأس الآخر دائرة الشؤون المالية الخاصة بالإمبراطور. وكانت وظيفة حاجب القصر الإمبراطوري وظيفة هامة، وان كان الإمبراطور ضعيفاً كان الحاجب يتصرف بمقدرات البلاد.

وفي أيام الإمبراطور قسطنطين أقيم مجلس للشيوخ في مدينة القسطنطينية، وكان هذا المجلس هيئة اسـتشارية فقط، تقرأ فـيه القوانين قبل إصدارها، كـما كانت تناط به مهام أخـرى أحياناً. وكان أعضـاؤه يتم اختيارهم من بين كبـار الموظفين الإمبراطوريين من أعضاء الأرستقراطية الرومـانية القديمة الذين توارثوا هذه الوظيفة عن أجدادهم منذ أيام الرومان. وكانوا في غالبيتهم من كبار ملاك الأرض الأغنياء مما جعلهم يعتمدون في معاشهم على وارداتهم الخاصة لا على رواتبهم.

ومنذ منتصف الـقرن السادس أصـبحت عادة إطلاق الألقـاب الضخمـة جزءاً لا يتجـزأ من تقاليد القـصر الإمبراطوري، ومع مـرور الزمن بالغ الأباطرة في إطلاق هذه الألقاب (انظر نبيه عاقل، ص 21/20).

وإلى جانب مجلس الشيوخ، أنشأ الأباطرة البيزنطيون هيئة استشارية خاصة تضم كبار موظفي الإدارة المركزية ولم يشترك في هذه الهيئة حكام المناطق الذين كانوا في الماضي أهم رجالات المجلس الإمبراطوري. وكانت هذه الهيئة تدعى للانعقاد حين تقوم أزمة تهدد الدولة أو الكنيسة أو غير ذلك من المناسبات الهامة التي يحتاج فيها الإمبراطور إلى استشارة معاونيه ورجال الرأي في حكومته.

وعلى الرغم من إصلاحات الإمبراطورين: ديوقليسيان وقسطنطين إلا أن غالبية الشعب ظلوا في فقر شديد. أما الفلاحون الذين كانت حالتهم سيئة فقد زاد بؤسهم بسبب نظام الضرائب الذي أوجده ديوقليسيان. كانت الضرائب تدفع بالذهب، وحين انخفض سعره زمن هذا الإمبراطور لجأت الدولة إلى جباية الضرائب عينا من المحاصيل، وظل هذا الإجراء بشكل دائم، غير أن ذلك كان في القرى، أما سكان المدن فكانوا يدفعون ضرائبهم نقدا.

وبسبب الضرائب الباهظة على الفلاحين، صارت الهجرة من القرى إلى المدن مما تسبب في نقص عدد العمال الزراعيين من جهة، وزيادة مساحة الأرض البور من جهة أخرى. مما اضطر الدولة إلى إجبار أصحاب الأراضي على استغلال أرض البور التي تركها أصحابها. (انظر نبيه عاقل، ص 22).

وفي زمن الإمبراطور قسطنطين ضربت عملة ذهبية جديدة سميت بالسوليدوس Solidus زنة الواحدة منها 4.48 غم ذهب، ويتألف الدينار الذهبي من 72 سوليدوس. كما كان هناك عملة فضية اسمها Seliqua زنتها 2.24 غم فضة. وكل سوليدوس Sol-idus ذهبي يعادل 24 Seliqua لأن نسبة الفضة إلى الذهب كانت 1/21. وقد ظلت السوليدوس، هذه العملة التي أوجدها قسطنطين الكبير، لمدة ألف عام أي طوال حياة الإمبراطورية البيزنطية الأساس للنظام النقدي، كما ظلت لفترة طويلة عملة التجارة الدولية ولم تهبط قيمتها أو تنتزع قوتها إلا حين ضعفت الإمبراطورية في القرن الحادي عشر.

أما في الحقل العسكري، فقد قام ديوقليسيان وقسطنطين الكبير بإصلاحات جذرية، حيث بدأ ديوقليسيان إصلاحاته بتقوية الوحدات المرابطة على الحدود وشعر بأهمية إيجاد وحدات متحركة يمكن استعمالها في قمع الفتن الداخلية كما يمكن استخدامها في الدفاع عن البلاد إذا داهمتها قوى خارجية. وأما الحرس البريتوري القديم فقد أضعفه ديوقليسيان، وسار قسطنطين على نهج ديوقليسيان في هذا.

وحتى يأمن قسطنطين أطماع القواد العسكريين جعل رئاسة الجيش بيد قائدين أحدهما تتبعه فرق المشاة والآخر تتبعه فرق الخيالة، غير أن هذا التقسيم لم يدم طويلاً، حيث لجأ الأباطرة خلفه إلى تعيين قائدين للجيش لهما نفس الرتبة والامتيازات ويقيم كل منهما في عاصمة من العاصمتين (أي واحد في روما والآخر في القسطنطينية). وإلى جانب هذين القائدين كان هناك ثلاثة قواد كل منهما برتبة جنرال يقيمون في مقاطعات المنطقة الشرقية من الإمبراطورية، وكان يعود لهؤلاء الجنرالات قيادة القوات الموجودة في مقاطعاتهم والقوات المرابطة على الحدود. (انظر نبيه عاقل، ص23).

عزيزي الدارس، وباختصار يمكننا القول أن قيادة الجيش كان يتقاسمها خمسة قواد مسؤولين مباشرة أمام الإمبراطور الذي كان القائد الاعلى للجيش. وقد تطورت الأنظمة التي كان يتبعها أفراد قوة الحدود فأصبحوا يقتطعون أراضي زراعية مقابل خدماتهم العسكرية، وهكذا شكلوا طبقة من صغار الملاك العسكريين الذين يعتمدون في معاشهم على ما تنتجه أرضهم الزراعية. وسيتطور هذا النظام في المستقبل وسيلعب أفراد قوة الحدود دوراً بارزاً في التاريخ البيزنطي. هذا وقد تميز العهد الروماني بكثرة عدد البرابرة وخصوصاً الجرمان الذين دخلوا فيه ومنذ القرن الرابع الميلادي صار هؤلاء البرابرة يرتقون في المناصب العسكرية، كما يلاحظ أنه وفي هذا القرن كانت تزداد أهمية فرق الخيالة ويزداد عددها. ويبدو أن ذلك كان بسبب قوة أعدائهم الفرس الساسانيين واعتمادهم على الخيالة كذلك.



نشاط (3)

اكتب تقريراً عن النظام العسكري في عهد قسطنطين، وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (3)

ماذا أراد الإمبراطوران: ديوقليسيان وقسطنطين من وراء إصلاحاتهما؟



أسئلة التقويم الذاتي (3)

1- ما المقصود بنظام المساعدين الأربعة.

2- تكلم عن تقسيمات قسطنطين الإدارية.

لم تكن الحضارة البيزنطية، عزيزي الدرس، ارثا لحضارات الأمم التي سبقتها فحسب، بل كانت انعكاسات لطريقتها الخاصة في الحياة. وكما حدث في العالم الهلليني، فقد كانت العناصر المختلفة في بيزنطة يربطها رابط ثقافي مشترك، ولعل فضل بيزنطة الثقافي يتمثل في حقيقة كونها الدولة التي احتفظت بتراث العصور الكلاسيكية وبمنجزات الرومان في القانون، واليونان في الثقافة. وقد قيل بحق إن بيزنطة كانت الدولة التي نمت على تربتها ثمار الحضارتين اليونانية والرومانية وأعطت أكلها. يضاف إلى هذا أنه كان لبيزنطة فضل مزج نتاج هاتين الحضارتين بتعاليم الديانة المسيحية. هذه الديانة التي لم يعرفها اليونان ولا الرومان. فبيزنطة المسيحية لم ترفض الفن ولا المعرفة الوثنية، كما أنها اتخذت دوماً القانون الروماني أساساً لتشريعها، والثقافة اليونانية منبعاً ثرياً لثقافتها وحياتها العقلية، وقد ظلت الفلسفة والثقافة اليونانية مثلاً يحتذيه البيزنطيون، كما ظل مؤرخو اليونان وشعراؤهم مثلا يحتذى في القسطنطينية. حتى أن الكتب نفسها تقبلت في تعاليمها الكثير من أفكار اليونان الوثنيين، واستعملت طريقة الفلاسفة اليونان ونهجهم في صوغ دفاعها عن عقائدها.

لقد كان لوعي البيزنطيين لقيم الثقافة الكلاسيكية أثر كبير في تقوية امبراطوريتهم ودعم مركزها، فبفضل هذا الوعي ظلت بيزنطة مدة ألف عام تقريباً مركزاً هاماً من مراكز الثقافة في العالم.

1.5 التعليم

ومن الجدير ذكره أن التعليم في أوروبا في العصور الوسطى لم يقتصر على المؤسسات الأكاديمية من مدارس وجامعات فحسب، وانما امتد بحيث أصبح بلاط كل أمير اقطاعي بمثابة مدرسة لتعليم صغار النبلاء ليكونوا في المستقبل فرساناً صالحين مؤهلين خلقيا وحربياً. هذا بالإضافة إلى أن بيوت كبار الحرفيين «الاسطوات» من اصحاب الحرف والتجار صارت معاهد لتعليم الصبيان وتربيتهم وتهيئتهم للحياة العملية (انظر سعيد عاشور، ج2، ص331).

لقد ورثت العصور الوسطى النظم الرومانية، وذلك عن طريق المؤسسات الكنسية والديرية التي احتفظت بالطابع العام للتعليم القديم، وعلى الرغم من أن الكنيسة غيرت

كثيراً في افق المعرفة القديمة ومادتها الا أن الفجوة بين العصور القديمة والوسطى لم تكن متسقة في نظم التعليم مثلما كان الحال في مواد الدراسة: فظلت المدارس على وضعها دون تغيير كثير في نظمها وان اختلفت في مظهرها العام (انظر سعيد عاشور، ج2، ص331).

وكما أخذ التعليم الروماني عن اليونان أخذ التعليم في العصور الوسطى عن الرومان، وبخاصة عن مدارس البلاغة الامبراطورية. ذلك أنه كانت هناك في أوائل عصر الامبراطورية الرومانية مرحلتان من المدارس تساعدهما الدولة في المدن الكبرى، كما كان هناك نظام لمنح الدرجات العلمية وتعيين المدرسين. أما المرحلة الأولى أو الابتدائية من المدارس فكانت تلقن فيها القراءة والنحو والحساب والموسيقى. في حين اهتمت مدارس المرحلة الثانية أو العليا بالبلاغة والخطابة والأدب مع شيء من الدراسات القانونية والفلسفية. (انظر: سعيد عاشور، ج2، 332).

عزيزي الدارس، والملاحظ أن مدارس البلاغة لم تلبث أن اختفت في القرن الخامس، وان ظلت المدارس العلمانية منتشرة في أجزاء من غاليا وايطاليا حتى نهاية القرن السادس. ومهما تكن أهمية الدور الذي قامت به الكنيسة في الاحتفاظ بذلك الشعاع الخافت الذي ظل مضيئا في سماء غرب اوروبا في القرن السابع، فمن الثابت ان كتب النحو التي اعتمد عليها طلاب ذلك العصر كانت كتابات علماء من القرن الرابع الوثني، في حين ظل كتاب برسكيان عن «قواعد النحو» الذي ألفه باللاتينية حوالي سنة 500م في ثمانية عشر جزءا، ظل يمثل المرجع الأول في ذلك العلم. (انظر سعيد عاشور، ج2، ص332).

ان أهم ما يتصف به ذلك العصر أن التعليم فيه أخذ يخضع تماما لسيطرة الكنيسة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى انحلال السلطة العلمانية وازدياد نفوذ البرابرة في المجتمع الغربي من جهة، واتساع نفوذ الكنيسة تدريجياً من جهة أخرى.

لقد أقرت الكنيسة تدريس الفنون الحرة - التي كانت تلقن للتلاميذ في المدارس الوثنية - ولكن على أسس مسيحية، لان الكنيسة وجدت هذه الفنون أساسية ولا بد منها لفهم الكتاب المقدس نفسه (انظر سعيد عاشور، ج2، ص333).

وهكذا ظهر من النحويين المسيحيين «مارتيانوس كابلا» الذي كان أول من حدد الفنون السبعة الحرة بالنحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى. والملاحظ، عزيزي الدارس، إن هذه الفنون تنقسم إلى مجموعتين الأولى: دراسات

انسانيـة والثانية دراسات علمـية. ولعل الفيلسـوف بيوتوس (475-524)م قد أدرك هذا التقسـيم فقسمـها إلى مجموعـة ثلاثية: النحو، البلاغـة، والمنطق. ومجموعـة رباعية تشمل: الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. ثم كـان أن أقر كاسيدور هذا التبويب - وعن طريقه انتقل إلى المدارس الديرية مما جـعل كاسيدور هذا صاحب أهمـية كبيرة في لتعليم في أوروبا في العصور الوسطى (سعيد عاشور، ج2، ص333).

عزيزي الدارس، لقد أظهر الجرمان نفورا قوياً من التعليم، لدرجة أن ثيودريك - ملك القوط الشرقيين - حرم ارسـال أبناء القوط إلى المدارس - وحجـته في ذلك: أن الصغار الذين يشبون على الخوف من عصـا المعلم لن تكون لديهم الشجاعة في المستقبل لمواجهة السيوف والحراب. هذا ولم يكد ينتهي الـقرن السابع حتى كان التعليم في غرب اوروبا دينيا بحتا، داخل مدارس ديرية واسقفـية، واستمر الوضع على ذلك حتى القرن الثاني عشر. (سعيد عاشور، ج2، ص333).

وبعد: فان الانتقال من التعليم القـديم إلى تعليم العصور الوسطى لا يعني تغييراً كبيراً في طريقة التعليم بقدر ما كان هناك من تغيير في روح التعليم ومواد الدراسة. وقد بدأت هذه الثورة حوالي عام 600م عندما ازداد نفـوذ البابوية في توجيـه التعليم ورسم سياسـته، فأصبح التعـليم منصبا على الانجيل واللاهوت، الأمـر الذي جعل الدراسات الانسانيـة تحاول في مشـقة بالغة الاحتـفاظ بكيانهـا ضد الخط الذي أخذ يهـددها لعدة قرون. ذلك أن المدارس الأسقفية والديرية غدت لا تهتم الا بتدريب اللاهوت والموسيقى الدينية والكتـاب المقدس وسيـر القديسين المليـئة بالمعجـزات والخرافات، بحـيث أصبح التعليم لا يـستهـدف غرضا الا اعـداد النشئ ليصبـحوا من رجال الـدين. بل ان البابا جريجوري العظيم (590-604)م اشتهر بكراهيته للاسلوب البلاغي الكلاسيكي وتفضيله اللاتينية الدارجـة، بالاضافة إلى اعـتقاده الراسخ بعـدم جدوى كافـة الدراسات التي لا تساعد في فهم العقيدة المسيحية. (سعيد عاشور، ج2، ص334).

وهكذا لم يقدر البقاء للدراسات الراقـية والثقافة الانسانية - بما فيهـا معرفة اللغة اليونانية - الا في ايرلنـدا، التي انبثق نور المعرفة من اديرتها الى كـالدونيا (اسكتلندا)، ونور تمبرلاند، ثم بقـية اتحاد انجلترا. ولم يلبث أن امـتد بريق هذه الحركة العلـمية إلى صلب القارة عن طريق المؤسسات والأديرة الايرلندية التي قامت في غاليا الفرنجية والمانيا ولمبارديا، وبصفة خاصة دير سانت جال ودير يوبيو. وكان من المحتمل أن تقضي الحركة البندكتيـة على هذا الاشعاع العلمي لولا جهود القـديس بونيفيس (ت-755)م وزملائه من رجال البعثات التبشيرية التي غادرت انجلترا إلى القارة.

ان حقيقة الهدف الأساسي لرجال هذه البعثات التبشيرية كان نشر الديانة المسيحية لكاثوليكية، ولكن هذا الهدف ما كان ليتحقق دون أن يحصل رجال الدين على قسط من الثقافة اللاتينية، حيث أن اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية. وهكذا فان الفضل رجع إلى الأديرة التي أسسها القديس بونيفيس في فولدا وهرسفلد، وإلى المدارس لاسقفية والديرية التي أحياها ذلك القديس، في انقاذ الحياة العلمية في العصور لمظلمة، وفي تمهيد الطريق لما قام به شارلمان من اصلاح المدارس وانارة الحركة الفكرية لكبرى التي تعرف باسم النهضة الكارولنجية.

وكأني بك، عزيزي الدارس، تود معرفة المزيد عن شارلمان وعنايته بالتعليم. ولارضاء فضولك هذا أقول:

لقد اهتم شارلمان بنشر التعليم ورفع مستواه والاكثار من المدارس، فكتب إلى رؤساء الأديرة والأساقفة يشكو من جهل رجال الدين وكثرة الأخطاء المتواترة في المخطوطات الدينية، بل في الانجيل نفسه، وأمرهم في العناية في المدارس والتعليم لاصلاح هذه الأوضاع. كما أنه استعان برجال لامعين ذوي مواهب كبيرة وعلى رأسهم «الكوين» الذي كان أبرز أعلام النهضة الكارولنجية، وصار لدى شارلمان بمثابة وزير التعليم، زيادة على كونه المعلم الخاص لامراء القصر بل الامبراطور نفسه. ولم تلبث أن صبحت مدرسة تورز بفضل اشراف «الكوين» وتوجيهه مركز الثورة الثقافية في لامبراطورية الكارولنجية. (سعيد عاشور، ج2، ص335).

عزيزي الدارس، ويبدو أن الغرض الرئيس الذي دفع شارلمان إلى هذه الحركة كان غرضا دينياً يستهدف تصحيح الانجيل وكتب الصلوات وغيرها من الكتب الدينية المتداولة، غير أن الحركة امتدت حتى شملت أيضاً حفظ التراث اللاتيني الكلاسيكي ورعاية المخطوطات القديمة. (انظر سعيد عاشور، ج2، ص336).

اما مدرسة القصر التي عرفها بلاط الملوك الميروفنجيين من قبل، فقد نظمها شارلمان في بلاطه بمدينة «آخن» على أسس جديدة، ذلك أنه جعل منها مجمعا للعلماء والادباء، فضلا عن صنعتها الأساسية كمدرسة لاعداد جيل من الناشئين لخدمة الملوك ومعاونتهم، وخير شاهد على الروح الجديدة التي نفحها شارلمان في هذه المدرسة، تلك الأسماء التي تسمى بها أعضاؤها والتي أرادوا أن يتشبهوا فيها بالسلف من أعلام الحكمة والأدب. هذا وقد أظهر شارلمان شغفا كبيراً بجميع نواحي المعرفة لا سيما الفلك، كما كان يتكلم اللاتينية ويقرؤها على الرغم من قلة درايته بالكتابة. وهكذا، عزيزي

الدارس، انتشرت المدارس الأسقفية والديرية في جميع أنحاء امبراطورية الفرنجة، كما قدر لبعض هذه المدارس البقاء والاستمرار في تأدية رسالتها بعد سقوط هذه الامبراطورية.

كان نظام التعليم الرسمي في الامبراطورية الكارولنجية يشمل الأولاد من الأحداث دون البنات، وان وجدت بعض أمثلة لنساء متعلمات في أوروبا القرن التاسع. وهنا نلاحظ أن بعض المعاصرين حبذوا في العصور الوسطى تعليم بنات النبلاء القراءة، لما في ذلك من توسيع الافق وانارة الفكر، ولكنهم عارضوا مبدأ تعليمهن الكتابة حتى لا يستخدمنها في تحرير رسائل غرامية (انظر سعيد عاشور، ج2، ص337).

وعلى أية حال، فقد كان التعليم في ذلك العصر عاماً؛ اذ لم يقتصر على رجال الدين وحدهم. ويبدو أن الحساب والفلك كانت لهما أهمية خاصة في ذلك العصر لمعرفة تداول الأيام والأعياد الدينية. ولكن من الواضح أنه كان من العسير أن يتقدم علم الحساب بالطريقة اللازمة لاجراء العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب . . . بالأعداد الرومانية التي لم يعرف غرب اوروبا غيرها حينئذ، لأن الأعداد الهندية واستخدام الصفر في الحساب، لم تعرفهما اوروبا الا عن طريق العرب في القرن الثاني عشر.

ان تعليم رجال الدين كان هدفاً رئيساً لكي يتدرب هؤلاء ويعدوا ليكونوا قساوسة أو رهباناً صالحين. وهكذا صار لكل دير أو كتدرائية مدرستها الخاصة بتعليم صغار رجال الدين. وهنا تجب الاشارة إلى أن هذه الحركة العلمية لم تندثر بسرعة عقب وفاة شارلمان؛ اذ انعقد مجمع كنسي سنة 829م حث فيه لويس التقي على أن يحذو حذو أبيه في تشجيع المدارس والتعليم، هذا إلى أن البابا أيوجين الثاني أمر سنة 836م بضرورة وجود مدرسة على الأقل في سجل أسقفيته.

كان نظام التعليم في القرن التاسع ينقسم إلى ثلاثة مراحل: الأولى بمثابة مرحلة ابتدائية أو أولية، وفيها تدرس القراءة والكتابة ومبادئ اللاتينية الدارجة مع بعض دراسات سطحية في أصول الدين والكتاب المقدس. ويبدو أن هذه المرحلة كانت الزامية للمقبلين على الانتظام في سلك الكهنوت: كما كانت مباحة لغيرهم من العلمانيين، وان كان إقبال هؤلاء الاخيرين عليها ضعيفاً. أما المرحلة الثانية: فتشمل موادها الفنون السبعة الحرّة بمجموعتيها الثلاثية والرباعية، وكانت مواد المجموعة الثلاثية تسمى عقلية، في حين سميت مواد المجموعة الرباعية وجودية لتناولها حقائق بعيدة عن العقل. أما

المرحلة الثالثة، وهي خاصة بتعليم اللاهوت والكتب المدرسية في ضوء آراء آباء الكنيسة، ولا سيما القديس اوغسطين.

عزيزي الدارس، ولم تلبث حركة الاحياء الكارولنجية أن استنفذت قوتها عام 877م، أي عند وفاة شارل الأصلع، وان ظل اثرها باقياً. وفي وسط المحنة التي تعرضت لها الامبراطورية الكارولنجية في القرن التاسع نتيجة للأخطار الخارجية من ناحية والانحلال الداخلي من ناحية أخرى. قامت المدارس الديرية فيما بين سنتي 800-1100م برسالتها كاملة، فصارت المراكز الأساسية لحفظ الحضارة الغربية، كما تخرج من مدارسها عدد كبير من رجال المعرفة المبرزين. لذلك أطلق اسم العصر البندكتي على الفترة الواقعة بين وفاة شارلمان والقرن الحادي عشر على أساس أن هذه الفترة تمثل العصر الذي أضحى زمام التعليم في أوروبا بأيدي رهبان الأديرة.

لقد قامت مدارس الأديرة بدور أكبر أهمية من مدارس الكتدرائيات في تلك الفترة، كما أن الأديرة فتحت أبوابها لطلاب العلم - من غير الديريين لأول مرة في تاريخها. ومنذ بداية القرن التاسع أصبح لكل دير مدرستان منفصلتان: احداهما للنظاميين المنقطعين للعبادة من أهل الدير والأخرى للخارجين.

ومنذ أواخر القرن التاسع صار تيار النشاط العلمي في أوروبا يتحول من غاليا إلى المانيا وذلك في عهد حكامها من ملوك الاسرة السكسونية، ذلك النشاط الذي عرف آنذاك بالنهضة السكسونية أو النهضة الاوتية نسبة إلى الامبراطور اوتو الأول أو العظيم (936م-973م)، على أن هذه النهضة كانت أضعف أثراً وأضيق دائرة من النهضة الكارولنجية السابقة لها، هذا وان تناولت هي الأخرى النواحي الأدبية والفنية والتعليمية، فضلاً عن العناية بالنحو اللاتيني بوجه خاص، لأن معرفة قواعد النحو تتوقف عليها دراسة الكتاب المقدس دراسة صحيحة.

وخلاصة القول: أن التعليم في المدارس الديرية ظل دينياً في اسلوبه وأهدافه بحيث لم يكن هناك نظام تعليمي ثابت للعلمانيين الذين ظل معظمهم جهلة لا يعرفون القراءة والكتابة. كذلك يلاحظ أن التدريس في هذه المدارس اعتمد على الطريقة الشفوية بسبب ندرة الكتب وارتفاع أثمانها وكثرة الأخطاء في المخطوطات الرخيصة. كذلك يلاحظ أن التعليم امتاز في المدارس الديرية بالصرامة والحزم والقسوة في سبيل الحفاظ على النظام فضلا عن ضعف المستوى العلمي للمعلمين.

والآن تعال بنا، عزيزي الدارس، لنقرأ واياك فقرة من نص كتبه «جيوبرت النوجنتي» (ت-1124م) علّنا نقف سوية على ما كان يلاقيه صغار التلاميذ من متاعب وآلام: اذ يترجم لحياته فيحكي كيف أنه كان يساق كل يوم صباح كل يوم - وهو طفل في التاسعة من عمره - إلى مدرسة الدير، ليتلقى تعليمه على يد كاتب جاهل يتصف بالقسوة والعنف، لم يتعلم نفسه النحو الا في الكبر. ويستطرد ذاكراً أنه لم يتمتع بيوم واحد عطلة، حتى أيام الآحاد والأعياد كان يذهب فيها إلى المدرسة حيث يكلف بكثير من الواجبات الشاقة. أما استاذه فيصفه بعدم المقدرة في الشعر والنثر، وأنه كان لا يجيد شيئا سوى توجيه الكلمات والألفاظ القاسية اليه وإلى زملائه، في الوقت الذي كان يفرض على تلاميذه حفظ ما لا يستطيع هو تدريسه! ثم يعيب «جيوبرت» على ذلك المدرس أن يطلب من عقل التلميذ الصغير استيعاب ما لا يستطيع هو توصيله إلى ذلك العقل، لأنه لا يوجد شيء في الحياة أصعب من حفظ ما لا يستطيع الفرد أن يفهمه، وأخيراً يعلق على ذلك بأنه يجب أن لا نجبر الصغار على حفظ أشياء نعتقد نحن أنها حقائق مسلم بها دون أن نعيها ونجعلهم يفهمونها أولاً . . . وهكذا فان آراء «جيويرت» تمدنا بصورة واضحة عن فلسفة التربية في اوروبا في العصور الوسطى، وهي صورة قد لا يعرفها كثير من مؤرخي علم التربية في العصور الحديثة (انظر سعيد عاشور، ج2، ص341).

والآن تعال بنا، عزيزي الدارس، لنلقي بعض الضوء على المدارس الاسقفية أو الكتدرائية:

لقد كان الأسقف في أول الأمر يتولى رئاسة المدرسة التابعة لاسقفيته، غير أن ازدياد أعباء الأساقفة جعلتهم يتركون الشؤون التعليمية داخل اسقفياتهم لفرد خاص، ولم يسمح لأي فرد آخر أن يفتح مدرسة داخل حدود الاسقفية أو يباشر تدريس الفنون الحرة دون تصريح من هذا الموظف، والا تعرض للمحاكمة.

لقد كانت الرقابة والشدة في المدارس الأسقفية أقل منها في المدارس الديرية، ولهذا كانت المدارس الاسقفية مسرحا للطلبة المشاكسين، غير أنها بقيت وازدهرت في أوائل القرن الثاني عشر، مقابل افول المدارس الديرية لانشغالها بالمسائل المتعلقة بالاصلاح وسياسة العصر.

لقد أخذت المجامع الكنسية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي تنادي بانشاء مدارس في كل كتدرائية حتى ظهر عدد كبير من هذه المدارس. وكانت تلك

لمدارس تدور حول مركز الاسقف الذي عين للاشراف علـى تلاميذ المدرسة موظفاً لقب استـاذ المدرسة، وان كان أمين الكتـدرائية هو الذي تولى في بعض الحـالات الاشراف على المدرسة (انظر سعيد عاشور، ج2، ص343).

ولم تلبث أن تزعمت المدارس الكتدرائية - وبخاصة في فرنسا - النشاط الفكري ي غرب اوروبا عند بداية القـرن الثاني عشر المـيلادي هذا في الوقت الذي لم تبق من مدارس الأديرة ذات الشهرة سوى قلة محدودة وهنا ينبغي ملاحظة أن المدارس الكتدرائية م تختلف عن المدارس الديرية في طابعها الديني وأهدافـها الكنسية، الأمر الذي كان له عمق الأثر في تشكيل الحركة الفكرية التي جاءت مصـحوبة بظهور الجامعات الاوروبية في القرن الثاني عشـر. كذلك اهتمت المدارس الكتدرائية بدراسة النحو اهتـماماً بالغاً، واتخذت هذه الدراسة شكل تلقين للمبادئ والقواعد النحوية، ثم اعطاء تطبيقات عملية عليهـا، زيادة على دراسة نماذج من الشـعر والنثر وامـتحان الطـلاب فيهـا. أما العلوم الأخرى فقد حظيت أيضاً بقسط وافر من عناية المدارس الكتدرائية في العصور الوسطى، وفي مـقدمـة هذه العلوم اللاهوت والفلسـفة والقـانون (انظر سـعيـد عاشــور، ج2، ص343).

عزيزي الدارس، لقد شهـدت أوروبا نهضة فكرية عظيمة في القـرن الثاني عشر الميلادي، ساعد عليهـا الانتعاش الاقتصادي والاستقرار الاجـتماعي والسياسي، وازدياد اتصال الاوروبيين بالثقافة الاسلامـية عن طريق الاندلس وصقلية والشام وقد ترتب على هذه الحركـة الحضـارية اتّساع قطاع المعـرفة في غـرب اوروبا بحيث لم تـعد تتسـع لها المدارس الأسقفـية أو الديرية بنظمها التي كـانت عليها في أوائل القرن الثـاني عشر، مما تطلب قـيام نظام جديد لـلتعليم العـالي يفي باحتـياجات العلوم الجـديدة وطلاب هذه العلوم. ولم يكن ذلك الا بنشـأة الجامعـات التي تعتبـر بحق أعظم ما قـدمته العـصور الوسطى للعصور الحديثة.

12.5 الجامعات

والآن تعـال بنا، عـزيزي الدارس، لنطلع على نشـأة الجـامـعات في الـعصـور الوسطى: ان لفظ رابطة أو جامعة (Universitas) لم يعن في الأصل أكثر من مجموعة من الأساتذة أو الطلاب اجتـمعوا في صعيـد واحد لمباشرة النشاط الثـقافي. ولم يصبح هذا الاصطلاح شائعاً الا في أوائل القرن الثالث عشـر الميلادي، عندما صار يمتاز بثلاث

خصائص أساسية: أولها أنه يعبر عن البقعة أو المدرسة التي تستقبل الطلبة من جميع الجهات، وثانيها أنه كانت تلقن به دراسات عليا على أن تكون من بينها احدى مواد التخصص على الأقل كاللاهوت، أو القانون، أو الطب، وثالثها أن هذه الدراسات العليا قام بتدريسها عدد من الأساتذة الأكفياء المتخصصين. وعلى هذا الأساس وجدت عند أوائل القرن الثالث عشر جامعة في باريس اشتهرت باللاهوت، وأخرى في بولونيا اشتهرت بالقانون، وثالثة في سالرنو اشتهرت بالطب.

لقد ظهرت أولى الجامعات الاوروبية في القرن الثاني عشر الميلادي في بولونيا بإيطاليا، وفي باريس بفرنسا. وقد تفرعت عن الأولى بقية الجامعات الاوروبية في حوض البحر المتوسط، في حين تفرعت عن الثانية جامعات شمال اوروبا وغربها التي ظهرت أواخر العصور الوسطى.

لقد قام الطلاب في بولونيا بتنظيم أنفسهم في هيئة نقابة أطلقوا عليها لفظ «جامعة»، وانقسموا إلى فريقين كبيرين: الطلاب الوافدون من ايطاليا والبلاد الواقعة جنوبي جبال الألب. والطلاب الوافدون من الجامعات الواقعة شمال جبال الألب. ولم تلبث أن انقسمت كل مجموعة من هاتين المجموعتين إلى شعب صغيرة أو أروقة ضمت كل منها الطلبة الوافدين من بلد واحد أو مدينة واحدة، كطلاب لمبارديا أو تسكانيا أو البندقية أو روما أو بافاريا أو سوابيا. واختار أبناء كل بلد من هؤلاء مشيراً أو مراقباً، على أن يجتمع هؤلاء المشيرون سويا لاختيار رئيس أو مدير للجامعة من بينهم. وهكذا لم يكن الاساتذة أعضاء في جامعة بولونيا، ولم يكن لهم نصيب في ادارتها وانما ظلوا بمثابة مستخدمين تدفع لهم نقابة الطلبة اجورهم وفقاً لعدد الدروس التي يدرسها كل منهم وعدد طلبته. وعلى الرغم من أن هيئة التدريس سرعان ما الفت نقابة خاصة بها، إلا أن السيادة ظلت لنقابات الطلبة في جامعة بولونيا حتى أن هذه الأخيرة كانت تفرض على الاساتذة قيوداً وغرامات اذا خالفوا القواعد العامة التي وضعتها (انظر سعيد عاشور، ج2، ص345).

أما في باريس فقد اتخذ التنظيم اتجاها عكسياً عنه في بولونيا اذ بدأ الاساتذة بتكوين رابطة أو جامعة، في حين انقسم الطلبة إلى أربع مجموعات أو أروقة حسب الشعوب التي ينتمون اليها، لكل مجموعة وكيل أو قائم بأعمالها، وكان هؤلاء الوكلاء أو رؤساء الأروقة يختارون الرئيس أو المدير الأول للجامعة الذي كان بطريقة آلية هو رئيس اساقفة باريس لأن جامعة باريس نشأت وتدرجت من مدرستها الأسقفية (انظر سعيد عاشور، ج2، ص345).

أما ادارة جامعة باريس فقد كانت في أيدي الأساتذة لا في أيدي الطلبة، كما كان الحال في بولونيا. وربما رجع السبب في ذلك إلى الفارق العام بين مستوى أعمار الطلبة في الجامعتين؛ فمدرسة باريس الأسقفية وهي التي أصبحت جامعة باريس فيما بعد، كان يمكن أن يلتحق بها الطلبة الأحداث في سن الرابعة عشرة بل الثانية عشرة، في حين كان الطلبة في بولونيا أكبر سناً وأتم نضجاً لأن الدراسة الأساسية فيها كانت ثانوية ومن ثم أقدم عليها عدد كبير من الناضجين ورجال الأعمال (انظر سعيد عاشور، ج2، ص345).

عزيزي الدارس، كان نفوذ الكنيسة عاملاً أساسياً في التنظيم الشكلي للجامعات لأن الكنيسة كانت المنبع الوحيد للتعليم في اوروبا في العصور الوسطى. هذا إلى أن حركة التعليم الجديدة تبنت في المدارس الأسقفية، ومن ثم كان طبيعياً أن تتحكم الكنيسة - وهي أعظم قوة تحكمت في جميع طرائق الحياة في اوروبا في العصور الوسطى - في توجيه هذا التعليم الجديد والسيطرة عليه. وقد أدركت الكنيسة أن في خروج هذه الحركة التعليمية الجديدة من قبضتها، تعريضاً لسلطتها وتعاليمها للخطر والنقد - وسط الجو العلمي الجديد المشبع بحرية التفكير والتعبير، ولما كان من الصعب على الكنيسة قمع هذه الحركة الجديدة أو كبتها، فلا أقل إذاً من توجيهها وتنظيمها في الصورة التي تكفل عدم التعرض لأوضاع الكنيسة ونظمها وآرائها القائمة.

كان أول مظاهر تدخل الكنيسة في شؤون هذه الهيئات الجامعية الناشئة، هو تمسك البابوية بمبدأ موافقة الأسقف على الطلبة الذين يتقدمون للحصول على درجة الدكتوراه في القانون من بولونيا. أما في باريس فقد ظهر هذا التدخل في التوحيد بين وظيفتي رئيس الجامعة ورئيس أساقفة باريس، بمعنى أن الأخير أضحى مشرفاً على شؤون الجامعة. وعلى الرغم من ذلك فقد حظيت الجامعات الناشئة بقدر كبير من الحرية الأكاديمية.

وقد تسأل، عزيزي الدارس، عن مواد الدراسة ونظمها وحياة الطلاب. وللاجابة عن أسئلتك تلك أقول: بأن الجامعة المثالية وكان لا بد لها من أن تحوي أقساما للفنون الحرة، واللاهوت، والقانون بشطريه الروماني والكنسي والطب. والواقع أنه لم توجد جامعة في ذلك الدور الأول من تاريخ الجامعات في العصور الوسطى قد استوفت كل هذه الأقسام، والذي حدث بالضبط هو أن كل جامعة تخصصت في ميدان أو أكثر من ميادين المعرفة، فاشتهرت جامعة باريس بالفلسفة واللاهوت والقانون الكنسي

والآداب، وتخصصت جامعة بولونيا في القانون الروماني، وعرفت سالرنو بالتفوق في دراسة الطب وهكذا (انظر سعيد عاشور، ج2، ص347).

لقد امتد نفوذ أمين الكتدرائية في باريس حتى تضمن الموافقة على اختبار المرشحين لوظائف التدريس. وهكذا صار نفوذ أمين الكتدرائية من جهة، وحق حصول المدرس القدير على ترخيص بالتدريس من جهة أخرى، هما الدعامتان اللتان قام عليهما النظام الفرنسي للجامعات. على أن المتتبع لنشأة جامعة باريس، يلحظ أن هذا التطور جاء مصحوباً بصراع بين الطلبة وأمين الكتدرائية. ذلك أن الطالب الذي استكمل دراسته وتأهل للتدريس كان لا بد له من الحصول على درجة الاستاذية أو الماجستير. ولكن أمين الكتدرائية لم يكن له الحق في رفض الترخيص لأحد الأساتذة الذين يحملون الدرجة السابقة بالتدريس فحسب، بل كان له في أول الأمر حق حرمانه من هذه الدرجة التي حصل عليها، مستغلاً في ذلك سلطته الدينية ونفوذه الكنسي. والغريب أنه وعلى الرغم من هذه السلطات الواسعة التي تمتع بها أمين الكتدرائية الا أنه لم يكن عضواً في نقابة اساتذة الجامعة. هذا إلى أن اساتذة الجامعة كانوا يستطيعون رفض الاعتراف بترشيح أحد الأفراد ليكون عضواً جديداً في هيئة التدريس، وعن هذا الطريق تمتعوا بسلطة تعادل ما كان لأمين الكتدرائية من سلطة في منح الليسانس أو الترخيص بالتدريس. (سعيد عاشور، ج2، ص348).

أما عن مناهج الدراسة، عزيزي الدارس، فقد قامت ابتداء على أساس المجموعة الرباعية من الفنون السبعة الحرة. ولكنها أخذت تنمو وتتعدل بسرعة نتيجة للمعلومات الغزيرة التي تدفقت على غرب أوروبا منذ القرن الثاني عشر الميلادي. وقد ظفر القانون والطب والفلسفة واللاهوت بالقسط الأكبر من اهتمام المعاصرين، وان كانت بقية العلوم لم تحرم من ذلك الاهتمام: فالحساب الذي كان لا يزال علما غامضاً حظي بعناية كبرى، والهندسة عولجت على أنها تضم في رحابها مجموعة أخرى من العلوم أهمها الجغرافيا التي بلغت درجة كبيرة من التقدم نتيجة للحروب الصليبية واتساع التجارة. كذلك ازدادت العناية بالعلوم الطبيعية ولا سيما علم الحيوان. واذا كانت هذه العلوم قد ظلت أمداً طويلاً تشوبها الأوهام وتسيطر عليها المعتقدات الدينية، الا أن الجامعات الناشئة لم تلبث أن بثت الروح الجديدة التي ترمي إلى البحث والاستقصاء لمعرفة حقيقة الكون والكائنات. وكان منهج الدراسة في اللاهوت طويلاً وبخاصة في جامعة باريس، حيث كانت مواد هذا المنهج مستمدة من الكتاب المقدس ومن كتاب «الاحكام» الذي وضعه بطرس لمبارد في علم اللاهوت.

عـزيـزي الدارس، وكـانت الدرجـات العلمـيـة ثلاث هي: البـكالوريوس، والليسـانس، والاستاذية. فكان يكفي أن يدرس الطالب كـتابين في النحو وخمـسة في المنطق ليحـصل على درجة البكالوريوس بعد أن يؤدي امـتحانا امـام ثلاثة أو أربعة من الأساتذة، فـإذا نجح نوقش علنا برئاسة اسـتاذه ثم يمنح درجـة البكالوريوس في الفنون الحرة (Baccalalariandorum Bachelor Arts) وتعطيه هذه الـدرجة الحق لأن يكون معـيداً. وبعـد هذه المرحلة يستطيع الطالب أن يقـضي نحوا من سنتين فـي قراءة بعض المتون، حـتى اذا أتم ذلك بنجاح حصل على اجـازة التدريس (Licentia docenti, li-sence) وهي كمـا يتضح مـن اسمهـا ترخيص «ليـسانس» يعـطيه حق مـباشرة مـهنة التـدريس. أما درجـة الاستـاذية (Mgisterartium) فكانت تتطلب دراسـة تقرب من خـمس أو ست سنوات، وبعـدها يـتوجـب عليـه القـاء درس تجـريبي أمـام لجنة من الممتـحنين، وكانت درجـة الاستاذية في الآداب مـرادفة ومعـادلة لدرجة الدكـتوراة في الفـروع الاخرى. ولـم يكن من الضـروري أن يحصل الطـالب على درجة الاسـتـاذية للتحـضير لدرجة الدكـتوراه في القانون الكنسي أو المدني، ولكنهـا الأساس للتحضـير لدرجة الدكتوراه في الطب أو اللاهوت. وكانت درجـة الاستاذية أو درجة الدكتوراه لا تمنح لمن سنه دون الخـامسـة والثـلاثين، على أن يؤدي امتـحـانين للحصـول على هذه الدرجة، أحـدهما خاص، والآخر عـام علني، وبعد ذلك يمنح الدرجة في الكتـدرائية (انظر سعيد عاشور، ج2، ص349، 350).

أما طريقة التعليم فكانت شفوية، وعلى هيئة مـحاضرات يلقيها الاساتذة تتخللها مناقشـات فيما بينهم وبين الطـلاب. ولم يكن للجامعات في أول الأمـر مبان مسـتقلة خاصة بهـا، فاستخدمت في القـاء المحاضرات بعض الغرف الملحقـة بالكتدرائية، وهي غرف عارية باردة ليس فيها أثاث سـوى مكتب الاستاذ. أما الطلبة فكانوا في أول الأمر - قبل اعداد مقاعد لهم - يجلسون على الأرض، وأحـياناً فوق وسائد محشوة بالقش. وكان يتـوقف نجاح الطالب في دراسـته إلى حد كـبير على قـوة ذاكرته ومـقدرته على الاحتفاظ في ذهنه بما يلقيه الاستاذ من معلومات، ذلك أن الورق الذي عرفه الغرب بعد ذلك عن طريق العرب، لم يكن قـد عم استعماله بعد، فـي الوقت الذي كانت الرقائق الجلدية المستخـدمة في الكتابة باهظة الثمن بحيث لا يستطيـعع معظم الطلاب شراءها. وفي بعض الأحيان دفعت الضرورة بعض الطلبـة الذين يدرسون على استاذ واحد إلى الاشتراك سويـاً في شراء «ورق جلدي» لتدوين المحاضرات عليه. وفي نهـاية المحاضرة يجتمعون سوية في مكان واحـد ويدلي كل منهم بما بذاكرته مما سرده الاستاذ - وعندئذ

تنشأ بينهم مناقشات طويلة حول تحديد ما ذكره الاستاذ وما لم يذكره، وعندما تتم جموعة المحاضرات تصبح ملكا لهم جميعاً يتبادلونها للاستذكار (انظر سعيد عاشور، ج2، ص350).

عزيزي الدارس، ولم تخلِ جامعات العصور الوسطى من طلبة مستهترين مندسين ي وسط جموع المجتهدين، حتى وصف بعض المعاصرين احدى فرق الجامعة بان طلابها يصلحون لأن يكونوا خبازين لا طلاب علم! لقد كان ارتفاع تكاليف الحياة لجامعية عندئذ قد أدى بالكثيرين من الطلبة إلى العيش على القليل من الزاد في مساكن حقيرة. مقابلة بوجود عوامل اغراءات كثيرة كالحانات وأماكن الدعارة والاختلاط بقطاع لطرق، الأمر الذي أدى إلى انحراف كثير من الطلبة عن جادة الصواب. وواجهت الجامعة والكنيسة والسلطة الحاكمة في المدينة مشكلة كبيرة في هذا. ولم يظهر حل لهذه المشكلة المتباينة الا قرب منتصف القرن الثالث عشر الميلادي عندما ظهرت المجمعات أو الكليات المنزلية (Colleges). وكان المقصود بها ابتداء أن تكون منازل ينزل في كل منها عدد من الطلاب – وبخاصة الفقراء – لمساعدتهم على عيشة أفضل وحتى يكونوا تحت الرقابة المباشرة. وقد ظهرت هذه المؤسسات لأول مرة في باريس عندما أخذ بعض الخيرين يألمون لما يعانيه الطلبة الفقراء من متاعب وآلام فأسس روبرت السوربوني (Rob-ert de Sorbon) – وكان تاجراً وافر الثراء مجمعاً في باريس عام 1258م لايواء عدد من الطلبة الفقراء واطعامهم مقابل أجر رسمي زهيد، مما خلد اسمه في باريس حتى اليوم. ولم يكد ينتهي القرن الخامس عشر الميلادي حتى كان في باريس أكثر من خمسمائة مؤسسة اجتماعية من هذا النوع تتمتع بأوقاف واسعة من الأراضي والعقار. أما في انجلترا فقد أنشأ والتربوتون (Walter Of Merton) أسقف روشستر مؤسسة مرتون في اكسفورد، كما أسس حنا باليول John Balliol – أحد الامراء الأثرياء في شمال انجلترا – مؤسسة باليول (انظر سعيد عاشور، ج2، ص352).

لقد زال نظام الكليات هذا من جامعات القارة الاوروبية منذ أيام الثورة الفرنسية، ما عدا انجلترا التي لا تزال تحتفظ به حتى أن جامعة اكسفورد لها ثلاث وعشرون كلية، في حين تحتفظ جامعة كمبردج بتسع عشرة كلية معظمها يرجع أصله إلى العصور الوسطى. وكانت هذه الكليات تعتمد على المنح التي تتلقاها من أغنياء رجال الدين والنبلاء والتجار.

عزيزي الدارس، ولم تلبث أن انتشرت الجامعات في اوروبا مستمدة نظمها من

جامعة باريس في الغرب، وجامعة بولونيا في الجنوب؛ ففي انجلترا ظهرت جامعة اكسفورد في القرن الثاني عشر، وان كانت لم تتخذ صفتها الرسمية الا في عام 1200م. وكانت اكسفورد في الواقع وليدة جامعة باريس، لأن مؤسسيها كانوا من الطلبة والاساتذة الذين درسوا في باريس، والذين أمرهم هنري الثاني ملك انجلترا بالعودة إلى بلادهم عام 1167م عندما ساءت العلاقات بينهم وبين لويس السابع ملك فرنسا وتعذر على الطلبة الإنجليز الاستمرار في دراساتهم بفرنسا. أما كمبردج فقد تأسست عام 1209م عن طريق هجرة بعض طلاب وأساتذة اكسفورد الفرنسية اليها. وهكذا شهدت اوروبا في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي مولد كثير من الجامعات الجديدة، واذا كانت معظم هذه الجامعات قد اختلفت بعضها عن بعض في نواحٍ متعددة، الا أنها اتفقت في الطريق الطويل الذي سارت فيه نحو التحرر من كافة القيود، حتى حققت استقلالها عن السلطات الكنسية والعلمانية جميعاً. ولم يلبث أن أحرز مديرو الجامعات نفوذا ادارياً واسعاً، وتحايلوا في تحقيق ذلك بالثورة حينا، وبالاستعانة بالبابوية ضد الحكام العلمانيين، أو بهؤلاء الحكام ضد رجال الدين أحياناً أخرى (انظر سعيد عاشور، ج2، ص353).

وبعد، عزيزي الدارس، فقد لاحظت مما سبق أهمية نشأة الجامعات في اوروبا آنذاك. وقد ذكر أحد كتاب العصور الوسطى أن القوى الثلاث التي هيمنت على المجتمع المسيحي وهيمنة على الحياة والقوة كانت: الكنيسة، الامبراطورية، والجامعة.

لقد احتضنت تلك الجامعات العلوم والمعارف الواسعة التي أتت بها النهضة الاوروبية في القرن الثاني عشر، الأمر الذي جعل الجامعات مركزاً لثورة فكرية ضخمة ازدادت قوتها منذ القرن الثالث عشر، وصار تاريخ الجامعات في العصور الوسطى تاريخاً للحياة الفكرية بأوسع معانيها، وكانت الثورة الفكرية التي تمخضت عنها الجامعات أوضح ما تكون في الجانب الفلسفي؛ اذ أفاقت اوروبا لتجد نفسها أمام منهل فياض من فلسفة ارسطو الجديدة التي وردت عن طريق العرب.

لقد أحدث وصول فلسفة ارسطو الجديدة إلى غرب اوروبا انفجاراً ذا دوي شديد، فأقبل طلاب العلم على هذه الفلسفة بنهم بالغ غير عابئين بعدم مسايرتها لتعاليم الكنيسة. الأمر الذي أدى بالأخيرة إلى أن تهب للدفاع عن كيانها، فعقد مجمع ديني اقليمي في باريس عام 1210م حرم فيه تدريس بعض تعاليم أرسطو ومؤلفاته وهدد من يخالف هذا القرار بتوقيع الحرمان ضده. وكان هذا منسحبا بطبيعة الحال على بعض

شروح ابن رشد. غير أنه أبيح تدريس جدل أرسطو بعد ذلك بخمس سنوات أي في عام 1215م، ولكن تكرر تحريم تدريس الميتافيزيقا، زيادة إلى ما كان يمت إلى الرشدية والرشديين. وفي عام 1231م أصدر البابا جريجوري التاسع أمراً جديداً يقضي بتحريم فلسفة أرسطو في جامعة باريس حتى يتم تهذيبها من كل ما يتعارض وتعاليم الكنيسة.

عزيزي الدارس، لقد كان النصر - في آخر المطاف - للحركة الجامعية الجديدة وما أثارته من جنوح نحو حرية الفكر، ذلك أن رجال الجامعات الناشئة لم يستطيعوا أن يمتثلوا لأوامر رجال الدين، ويتخلوا عن فلسفة أرسطو بعد أن تذوقوا جانباً منها، وأدركوا أهميتها كغذاء للفكر. وهكذا استمر الطلاب وأساتذتهم يتداولون آراء أرسطو خفية فيما بينهم، حتى أن المنطق الجديد لأرسطو كان يدرس في صورة تامة وكاملة لطلبة الدراسات العليا بجامعة باريس عام 1255م (انظر سعيد عاشور، ج2، ص355).

أما اللاهوت فان أهميته بدأت تضعف تدريجياً في الجامعات الاوروبية نتيجة لاهتمام هذه الجامعات بتدريس القانون الروماني. والواقع أن النهضة القانونية التي تزعمتها جامعة بولونيا، والتي امتدت إلى كثير من جامعات اوروبا لم تترك متسعاً من الوقت والجهد للاهتمام باللاهوت، إلى درجة أن كثيراً من الجامعات ذات الأهمية أحجمت عن تدريس اللاهوت كلية واكتفت بانشاء كلية للقانون المدني، وهنا أيضاً تدخلت الكنيسة وحاولت أن تحمي اللاهوت والقانون الكنسي عن طريق الحد من سطوة القانون الروماني والاقلال من أهميته، فصدر قرار تجمع رئيسي عام 1131م بتحريم دراسة القانون المدني على رجال الدين. ثم تجدد هذا التحريم بقرار آخر أصدره البابا اسكندر الثالث سنة 1180م. وفي القرن الثالث عشر أصدر الباب هونريوس الثالث مرسوما بابوياً سنة 1219م حرم فيه تعليم القانون الروماني أو تعلمه، خاصة في باريس والمناطق المجاورة. ويعبر البابا في هذا المرسوم عن أسفه لأن كثيراً من رجال الدين أقبلوا على دراسة القانون الروماني، على أن هذه المراسيم كلها، وكذلك المرسوم الذي أصدره البابا انوسنت الرابع عام 1254م لم يكن لها أي أثر فعال في احياء دراسة اللاهوت أو اضعاف شأن القانون الروماني، حتى أن جامعات بأكملها - مثل جامعة اورليان - قامت على أساس الدراسات القانونية (انظر سعيد عاشور، ج2، ص356).

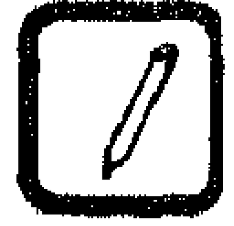


نشاط (4)

أ- اكتب في العلاقة بين شرلمان وهارون الرشيد، وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟

ب- اكتب تقريراً عن علاقة الكنيسة بنشأة الجامعات في أواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟

ج- أكتب تقريراً بأسماء الجامعات التي نشأت في أوروبا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر؟



تدريب (4)

أ- اذكر مراحل الدراسة في أوائل عصر الامبراطورية الرومانية.

ب- متى وأين ظهرت أولى الجامعات؟



أسئلة التقويم الذاتي (4)

1- اذكر تقسيمات ببوليوس للفنون السبعة؟

2- ابحث في معنى كلمة جامعة؟

6. الفلسفة واللاهوت والآداب والفنون

عزيزي الدارس، لقد نظرت المسيحية - عند ظهورها - إلى الفلسفة اليونانية نظرة ملؤها الشك وعدم الثقة لأنها اعتبرت هذه الفلسفة مظهراً من مظاهر التفكير الوثني، وتمسكت بأن المعرفة الحقيقية ينبغي أن لا تستمد إلا من الكتاب المقدس وآراء الكنيسة. إلا أن هذا الموقف العنيد كان لابد من انقلابه وتغييره بعد أن وجدت الكنيسة نفسها في حاجة إلى دعائم فلسفية تدافع بها عن كيانها ضد خصومها العديدين. وهكذا أخذ المدافعون عن كيان المسيحية في القرن الثاني - مثل جستين الشهيد Justin Martyr وتاتيان Tatian وأثينا جوارس Athenagoras يحبذون الاعتماد على آراء أفلاطون - بصفة خاصة - لإثبات آراء الكنيسة المتعلقة بوجود الله (انظر: سعيد عاشور، ج2، ص357).

ولم تلبث أن ظهرت أولى المحولات لإيجاد فلسفة مسيحية منظمة في الإسكندرية في القرن الثالث، على أيدي كليمنت (150-215م) وأوريجن (185-254م)، اللذين حاولا إثبات تعاليم المسيحية ونشر هذه التعاليم عن طريق الحوار والجدل معتمدين في هذا على أسس مستقاة من الفلسفة الأفلاطونية.

وأود فيما يلي، عزيزي الدارس، أن أدرس وإياك بعض الفلاسفة والفلسفات المسيحية كأمثلة سادت ذلك العصر.

1.6 القديس أوغسطين: (354-430م)

ولد في طاجسطا من أعمال نوميديا «سوق الأخرس - حاليا - من أعمال الجزائر» من أب وثني وأم مسيحية نشأته على محبة المسيح. افتتح أوغسطين - وهو في سن التاسعة عشرة مدرسة لتعليم البيان - في قرطاجة -. انضمّ اوغسطين إلى المانوية وهو يعتقد أنه لا يزال مسيحياً كأمه. ثم انشأ في روما مدرسة للصبيان، ثم أصبح أستاذاً للبيان في ميلانو، وهناك صار يختلف على الكنيسة الكاثوليكية مما آثر فيه وتراخى لذلك عن المانونية. ثم أصبح شاكاً بعد أن قرأ في كتب شيشرون، إلا أن شكه لم يتناول وجود الله وعنايته بالمخلوقات. غير أنه كان حائرا في أمره مع الدين الذي اقتنع بصحته، إلى أن أخذ يتفهم المسيحية على ضوء ما اهتدى اليه من فلسفة، وأخيراً ذهب إلى القديس «امبرواز» وقبل منه المعمودية وهو في سن الثالثة والثلاثين (يوسف كرم، ص23-26).

عاد اوغسطين بعدها إلى طاجسطا، وأصبح كاهنا يرعى أهل أبيونا «من أعمال نوميديا»، وهناك صار أسقفا عمل على نشر الايمان والدفاع عنه باللسان والقلم خمسا وثلاثين سنة عندما توفاه الله قبيل غارات البرابرة على مدينته.

كان القديس أوغسطين يمثل الشريان الرئيس الذي وصلت عن طريقه فلسفة أفلاطون إلى الغرب المسيحي في العصور الوسطى؛ ذلك أن أوغسطين كان قد تأثر - قبل اعتناقه المسيحية - بالمبادئ الأفلاطونية التي اطلع عليها في بعض كتابات شيشرون وأفلوطين، ومن ثم اتخذ هذه المبادئ نقطة البدء عندما شرع يفكر في وضع فلسفة دينية. ويعتبر القديس أوغسطين مصدر الفلسفة التي بلغت ذروتها فيما بعد على أيدي ديكارت، والتي تقوم على أساس الإيمان بوجود الفكر، حيث يقول: «أنا أشك إذاً أنا أفكر إذاً أنا موجود». فالعقل البشري إذاً حقيقة قائمة لا شك فيها، ويقوم هذا العقل

على أساس ثالوث من المعرفة والإدراك والإرادة، وهي الأركـان الثلاثة التي تلقي ضوءا ساطعاً على الحـقيقة. والمعـرفة بما تنطوي عليه من قوة لاسـتيعاب الماضي والتـأمل فيه والإحسـاس بالمستقـبل، تثير مشكـلة الخلود والزمن والعلاقة بين الماضي والحـاضر من جهة، والخلود والبقاء من جهة أخرى، وهي المشكلة التي شـغلت حيزا كبيراً من فلسفة أفلاطون. أما الإدراك فـيثير مشكلة أخـرى رسمها أفلاطون وهي مـشكلة التعلم. فهل الظاهرة العلمية التي ندعـوها تعلما حقيقـة جديدة؟ لأنها إذا كانت حقيـقة فلا يمكن أن تكون جديدة، بحكم أنهـا حقيقـة قبل أن يعلمها أي إنسـان، وستظل حقيقـة حتى لو نسيها كل إنسان. وقد قال القديس أوغسطين بـأن الحقيقة لها صفة الخلود، ولذلك فهي توجد وتكمن في العقل الأسمى الخالد: وعندما أتعلم حقيقة من إنسان فإن ذلك يرجع إلى وجود اتصال مباشر بين إدراكي، وبين ذلك العقل الخالد، فالمعلم الحقيقي هو الله، والمسيح - وهو كلمة اللـه - يعلم جميع العلوم والفنون، ومعرفـة العلوم الفنية لا تقل عن معرفة حقائق الدين في أن تنير عقل الفرد (سعيد عاشور، ج2، ص360).

ويقوم مبدأ أوغسطين في الإرادة على أساس حرية الإرادة الإنسانية Liberum arbitnium، وعلى أساس تمسك المسيـحية بقدر الإله العظيم، ومحـاولة التوفيق بين الله تعالى وقدرته المطلقـة من ناحية وبين الشر القائم من ناحيـة أخرى. وهنا حل أوغسطين هذه المشكلة عن طريق التفرقة بين: «الطبيعة» التي زود الله بها الفرد، وإرادة هذا الفرد. فطبيعة المخـلوقات كلهم - حتى الشيطان - طيبة وخـيرة، ولكن إرادتهم فقط هي التي يمكن أن تكون شريرة. وإذا كـان الإنسان قد خلق مزودا بالقـدرة على اختيار الـشر فإن ذلك ليس في ذاته شراً، لأن الإنسان الذي لا يستطيع عمل الشر مختاراً وبمحض إرادته لا يمكنه في الوقت نفسه أن يعمل الخير مختاراً وبمحض إرادته. ثم إن الإنسان نفسه هو الذي يختـار أن يفعل الشر متـعمداً، وليس الخـالق هو الذي يدفعه إلى هذا الاختـيار، وعلى ذلك فـإن جـميـع الشرور إمـا أن تأتي عن اخـتـيـار آثم أو اضطرار آثم، وهذا الاضطرار لا يأتي أبداً إلا نتيـجة للإثم، وهكذا وضع أوغسطين أساس مـذهب القضاء والقدر الذي ظهر في اللاهوت الغربي بعـد ذلك، ومذهب حرية الإرادة الذي ظهر في الفلسفة الخلقية في العصور التالية.

وبعـد، عزيزي الدارس، لقـد فـاق القديس اوغـسطين غـيره مـن آباء الكنيسـة الغربيين، في تأثره بالشروح الفلسفية الافلاطونية، كما فاقهم في تأثره بالعقلية الاوروبية بقية العصور الوسطى، حتى في الوقت الذي بلغ فيه نفوذ فلسفة أرسطو أشده. (انظر: سعيد عاشور ج2، ص361).

2.6 الفلسفة المدرسية

والآن تعال بنا، عزيزي الدارس، لنتعرف سوية على الفلسفة المدرسية. اذ يطلق هذا الاصطلاح على الحياة الفكرية التي سادت أوروبا منذ تتويج شارلمان عام 800م وحتى ظهور العلوم الطبيعية الحديثة في حوالي القرن السادس عشر. وبعبارة أخرى مجموعة النظريات المختلفة والآراء المتضاربة التي سادت الحياة الفكرية في أوروبا ابان هذه الفترة. والعامل المشترك بين هذه النظريات يبدو في الاتجاه الفكري الذي يحدد قالب المشكلة الفلسفية.

عزيزي الدارس، لقد اعتبر مفكرو العصور الوسطى أن واجبهم الأول هو احياء النظرة التركيبية التي نظر بها القدماء إلى العالم على أنه وحدة منظمة متجانسة. وبصرف النظر عن الترجمة اللاتينية لبعث رسائل أرسطو في المنطق، فان الفضل في احياء النظرة السابقة يرجع إلى مؤلفات اوغسطين وبيوثيوس، والترجمة اللاتينية لمؤلف أفلاطون (طيماوس Timaeus). ثم كان أن غلب نفوذ الافلاطونية الحديثة على النظرة العامة التي حاول مفكرو العصور الوسطى القاءها على الكون. ولم يكن ذلك الا في القرن الثاني عشر عندما ازداد سلطان أرسطو على الفكر الغربي، حتى حل أخيرا محل أفلاطون في القرن الثالث عشر. وبالاضافة إلى ذلك فان العصور الوسطى تقبلت النظرات المسيحية والتعاليم اللاهوتية لا سيما فيما يتعلق بالله والعلاقة بينه وبين المخلوقات. وهكذا وجد مفكرو العصور الوسطى أنفسهم أمام موقف جديد وهو نفوذ الفلسفة الارسطية إلى عالم الفكر إلى جانب تعاليم المسيحية، الأمر الذي استدعى التوفيق بين الجانبين، نظراً لما هناك من تعارض واضح بين قول أرسطو بقدم العالم وقول المسيحية بالخلق. فالفلسفة المدرسية مهما اختلفت ميادينها كانت كلها ميتافيزقية حاول أن تحمل المسائل المنطقية والاخلاقية والفلسفية على أسس من الحقائق النهائية. كذلك امتازت الفلسفة المدرسية بأنها عقلية، تبدأ دائماً بالبحث عن المبادئ أو الأسس، فإذا تم العثور على هذه المبادئ أمكن تحقيق التوافق والترابط المنطقي (انظر سعيد عاشور، ج2، ص 363، 364).

عزيزي الدارس، ويعتبر القرن الثالث عشر العصر الذهبي للفلسفة المدرسية والدراسات اللاهوتية جميعا في العصور الوسطى. ذلك أنه ظهرت حقائق أدت إلى تغيير وجه الحياة العملية في القرن الثالث عشر، أهمها احياء فلسفة أرسطو الطبيعية والميتافيزيقية، وقيام الجامعات الاوروبية وخاصة جامعة باريس، ثم اتصال الفلسفة الغربية بالفلسفة الشرقية الاسلامية واليونانية.

وفيما يتعلق باحياء تراث أرسطو الفلسفي، فالملاحظ أن العالم المسيحي الغربي لم يعرف في الشطر الأول من العصور الوسطى شيئا من أبحاث أرسطو عدا منطقة الصوري. ولعل عدم الاهتمام بالطبيعة، والذي بدا واضحاً من المفكرين الغربيين مثل القديس «أنسلم»، ليس مرجعه استغراقهم في اللاهوت فحسب، بل جهل هؤلاء المفكرين بالدراسات القديمة التي توضح لهم أهمية الميدان الطبيعي المحسوس كحقل خصب للتفكير والاستقصاء. وفي الوقت الذي أهمل فيه غرب اوروبا الدراسات الارسطية، حظيت هذه الدراسات بتشجيع مفكري المسلمين فترجموها عن السريانية، وبهذا نشأت دراسات أرسطية اسلامية يشوبها كثير من عناصر الأفلاطونية الحديثة. وتزعّم هذه الدراسات عدد كبير من فلاسفة المسلمين مثل ابن سينا (980-1037م) في المشرق، وابن رشد (1126-1193م) في الاندلس. كما أسهم في هذه الحركة بعض اليهود مثل موسى بن ميمون (1135-1204م). وسرعان ما وقفت اوروبا على الدراسات العربية وبالتالي الارسطية نتيجة للاتصالات بين المسلمين والمسيحيين في عصر الحروب الصليبية فاشتدت حركة الترجمة عن العربية إلى اللاتينية، وعن طريق هذه الحركة فضلا عن الترجمة عن اليونانية مباشرة، تعرف غرب اوروبا على دراسات أرسطو الذي علم الغرب أن الطبيعة المحسوسة تقدم حقلاً أوسع عن اللاهوت غير المحسوس. (انظر سعيد عاشور، ج2، ص373، 374)

عزيزي الدارس، ان الارسطية - كما بدت في شروح ابن سينا وابن رشد، اتخذت صورة يمكن تسميتها وحدة الطبيعة أو الوجود وهي صورة لم تترك سوى مجال ضيق لتعاليم المسيحية الخاصة بوجود الله والخلق، والحياة الاخرى والحساب. وبهذا صارت المشكلة الكبرى أمام مفكري القرن الثالث عشر في غرب اوروبا هي: هل يجوز تدريس هذه العلوم الفلسفية والاراء الجديدة جنبا إلى جنب مع الدراسات اللاهوتية في معهد واحد؟ ولم تلبث هذه المشكلة ان تبلورت في جامعة باريس، تلك الجامعة التي حظيت برعاية البابا انوسنت الثالث لتكون مركزاً عالمياً لتدريب رجال الدين وتعليمهم، وهنا أثار الاشكال السابق عدداً كبيراً من الصعوبات منها: هل يجوز تدريس الميتافيزيقية والعلوم الفلسفية في الجامعة؟ واذا جار ذلك فهل تستقل كلية الآداب بتدريس هذه الدراسات أم يتم ذلك التدريس تحت اشراف رجال اللاهوت؟ ثم هل يجوز لرجال المنظمات الدينية الكبرى في القرن الثالث عشر - وهما منظمة الدومينيكان ومنظمة الفرانسسكان - أن يقوموا بالتدريس في الجامعات؟.

والملاحظ أخي الدارس - وفيما يختص بجامعة باريس بالذات، أن صبغتها لكنسيّة الأولى وعلاقتها بالبابوية، جعلتها تخضع - إلى درجة ما - لكلمة البابوية التي أفزعتها آراء أرسطو والشروح التي وضعها فلاسفة المسلمين لهذه الآراء، فأصدر مجمع باريس الكنسي عام 1210م قراراً بتحريم كتابات أرسطو وشروحها. وقد تكرر هذا التحريم بعد ذلك عدة مرات، ولكنه لم يصرف الاحرار من المفكرين عن دراسة كتب أرسطو، فأخذت هذه الكتب تنتشر في فرنسا وانجلترا والمانيا، فضلا عن اسبانيا، حتى أن البابااوربان الخامس سمح في عام 1366م أن يمتحن طلاب ليسانس الآداب في جميع كتب أرسطو دون استثناء. أما الصراع العنيف بين رجال المنظمات الدينية والأساتذة العلمانيين حول الاستئثار بالتدريس في الجامعة «جامعة باريس»، فقد انتهى انتصار الفريق الأول، وحتى أننا نجد ابرز أساتذة القرن الثالث عشر مثل بونا فنتورا وروجربيكون والقديس توما ودوتس سكوت، ينتمون جميعاً إلى جماعة الفرانسسكان أو الدومينكان (انظر: سعيد عاشور، ج2، ص 375).

عزيزي الدارس، ويمكن التمييز بين أربعة تيارات في النشاط الفلسفي في القرن الثالث عشر. من حيث اختلافها في مسلكها تجاه الارسطية فهنالك أولاً أقلية من الرشديين أبرزهم سيجر البرابنتي، وهم الذين تقبلوا تعاليم أرسطو كما صورها العرب وشرحوها دون تحفظ، وهناك فريق الاوغسطيين الذين تشبعوا بأكبر قدر ممكن من الأرسطية مع التمسك بتعاليم اوغسطين وآرائه ومن ورائها الفلسفة الافلاطونية، وأبرز مفكري هذا الفريق القديس بونافنتورا. وفريق ثالث ظهر في اكسفورد من الاوغسطينيين الفرانسيسكان، وهؤلاء لم يعطوا الميتافيزيقيا قدرا من عنايتهم مثلما أعطوا العلوم والطبيعة التجريبية والرياضيات، وعلى رأس هذا الفريق يأتي روجر بيكون، وأخيراً يأتي فريق الارسطيين الدومنيكان، وهم الذين تمسكوا بفلسفة أرسطو الأصلية واتخذوها أساساً لتعاليمهم وهاجموا آراء الشارحين والمفسرين الذين شرحوا هذه الفلسفة وفسروها. وأبرز مفكري هذا الفريق القديس توما الاكويني. ولعلك، عزيزي الدارس، تود معرفة المزيد عن هذه المذاهب الأربعة. ولارضاء فضولك أقول:

1- ان الرشديين الذين تزعمهم سيجر البرانبتي (1235م-1284م) في القرن الثالث عشر، كانوا يرون في تعاليم أرسطو - كما شرحها ابن رشد - علما قائما بذاته وفنا مثالياً يجب أن يدرس كما هو، دون مراعاة لما بينه وبين الدين من خلاف. وهكذا يبدو أن هؤلاء الرشديين اعتمدوا على شروح ابن

رشد واعتبروها خير صورة لفلسفة أرسطو، وبذلك أثاروا حركة عرفت بالرشدية اللاتينية. وكان سيجر زعيم هذه الطائفة يتصور العلاقة بين الايمان والعقل تصوراً خاصاً جديداً، اذ أنه لم يضعهما في مستوى واحد حتى يختار بينهما. ولكنه حول التعارض بين العقل والايمان إلى تمايز بين نظام طبيعي منسوخ ونظام فائق للطبيعة كناسخ. ذلك أنه قال ان الايمان يكشف لنا عن نظام فائق للطبيعة أراده الله لنا وأعلنه علينا، فنحن نتقبله إلى جانب ما يعقله العقل. أما العقل الطبيعي فلا يعلم سوى النظام الطبيعي الذي من الممكن أن يكون حقاً لو لم يستبدل من الله النظام الفائق للطبيعة. ثم يقول أنه اذا أعلن الوحي أموراً لا تستنبط بالأدلة الطبيعية فليس للفلسفة أن تعرض للمعجزات وانما للطبيعة تبحثها بحثاً طبيعياً، وهكذا جاءت آراء سنجر خطراً على الجهود التي بذلها المدرسيون للتوفيق بين العقل والدين (انظر: سعيد عاشور، ج2، ص 376).

2- وتمسك الاوغسطيون بآراء القديس اوغسطين وبفلسفة افلاطون من خلفها. ويبدو الفارق واضحاً بين آراء هذا الفريق وفلسفة الدومنيكان في أربع نواحٍ، أولها في نظرية المعرفة اذ يقول الاوغسطيون بأن للنفس عقلين، عقل أدنى تتجه به نحو المحسوسات وعقل أعلى تتجه به نحو ذاتها ونحو الله، وثانيها قول الاوغسطيين بأن المخلوق يتركب من هيولي وصورة. وثالثها قولهم بأن المخلوق من صور متعددة بتعدد الكمالات. ورابعها اصرار الاوغسطيين على علاقة الروح والجسد ·انظر: سعيد عاشور، ج2، ص 377).

وكانت نظرة القديس بونافنتورا (1221-1274م) زعيم الاوغسطيين إلى الفلسفة تتفق مع نظرية القديس اوغسطين، اذ كان يرى أن الانسان خلق ليعرف الله ويحبه ويجد سعادته في هذا الطريق - طريق الله. وهكذا اعتبر مهمة الفلسفة مقتصرة على معاونة اللاهوت. لأن الفلسفة الحقة تدور حول الله سبحانه وتعالى، في حين يجب أن يتجه اللاهوت، اتجاهاً صوفياً بحتاً. وقد صنف بونافنتورا مؤلفات عديدة في الفلسفة واللاهوت والتصوف، وتدور موضوعاتها حول شرح أرائه السابقة، والتي يعتبر أهمها نظريته في المعرفة ووجود عقلين للنفس. (انظر سعيد عاشور، ص2، ص 377).

3- وأما فرانسسكان اكسفورد فقد وجهوا اهتمامهم نحو الرياضيات والعلوم

الطبيعية، وبذلك أدوا إلى اوروبا خدمة جليلة، اذ ترتب على اتجاههم وجهودهم مولد العلوم الطبيعية الحديثة. وأبرز فلاسفة هذا الفريق هما جروستست (1175-1253م) ثم تلميذه روجر بيكون (1210-1292م)، وكان جروستست استاذاً بجامعة اكسفورد ثم مديرا لها، كما ترجم وشرح وألف كثيراً من الكتب. أما مذهبه فكان أقرب إلى آراء القديس اوغسطين، ولكنه في الناحية العلمية اتجه اتجاها تجريبياً فاستخدم الاسلوب الرياضي في التدليل، واعتقد أن الرياضيات وحدها تفسر الظواهر الطبيعية. ويبدو أن جروستست أخذ هذا الاتجاه عن العالم العربي الحسن بن الهيثم الذي كان كتابه «المناظر» بمثابة الدستور العلمي لاساتذة اكسفورد (انظر سعيد عاشور، ج2، ص 377).

أما روجر بيكون فكان اوغسطينيا أيضاً، جعل للاهوت المقام الأول، وميز بين الدين والعلم في تفكيره وكتاباته. ويبدو أنه أفادَ كثيراً من المؤلفات الاسلامية وبخاصة مؤلفات ابن سينا والحسن بن الهيثم، على أن أهم ما أخذه بيكون من العلماء المسلمين كان الاهتمام بالمنهج التجريبي في البحث، والايمان بأهمية هذا المنهج، حتى أنه قسم رسائل المعرفة إلى ثلاث هي: النقل والاستدلال والتجربة، وقال: ان النقل والاستدلال لا يؤديان إلى معرفة حقة ما لم تثبت التجربة صحة ما يأتيانه. أما فوائد التجربة فهي تأكيد النتائج التي تصل اليها بالاستدلال، كما تؤدي التجربة إلى حقائق جديدة توصلنا إلى علم جديد قائم بذاته هو العلم التجريبي الذي يمكننا من السيطرة على الطبيعة، فإذا كان روجر بيكون هو أول من استخدم اصطلاح «العلم التجريبي» السابق فهو يوضح لنا أن التجارب العلمية التي يعتمد عليها ذلك تمتاز باعتمادها على الأجهزة والآلات المختلفة. (انظر سعيد عاشور، ج2، ص 378).

4- فريق الارسطيين الدومنيكان: وهؤلاء عملوا على اقامة دعائم فلسفة متسقة على أساس التعاليم الارسطية، ولكنها تتفق مع أحكام الدين والعقيدة. وقد قام اثنان من فلاسفة هذا الفريق باقامة ذلك البناء الفلسفي: هما البرت الكبير(1206-1280م) وتلميذه القديس توما الاكويني (1225-1274م). وبذلك يمكن القول أن البرت وتوما قد نصرا تعاليم أرسطو، مع ملاحظة أن

الفـشل يرجع اليـهمـا في التفـرقـة لأول مرة وبشكل واضـح بين الفلسفـة واللاهوت، فمن المـكن أن تكون من اتباعهـما في الفلسـفة دون أن تكون مسيحـياً، كما أنه من الممكن أن تكون مسيـحياً مثلهما دون أن تتبـعهما في آرائهمـا الفلسفيـة. وعن طريق هذه التفـرقة قدم الفـيلسوفان خـدمة جليلة للباحث العلمي اذ أعطياه براءة تحرره من سيطرة اللاهوت عليه وتحكمه فيه، وبذلك أصبح للباحث حرية تامة في التنقل خلال أرجاء العالم الطبيعية دون أن تكون للسلطة الدينية حق التدخل في عمله. (انظر سـعيد عاشور، ج2، ص 379).

3.6 دانتي الأليجيري (1265-1321م)

ولد في عام 1265م وكان من بين مـدرسيه برونتـو لاتيني الذي تعلم منه دانتي كيف يخلد الانسـان ذكره. درس دانتي فـرجيل وبشيـر بوكاشيـو إلى أن دانتي كان في بولونيا عام 1287م حيث حصل هناك على قدر من العلوم ومن فلسـفة المعجزات التي كانت منتشرة في زمـانه، ولعل هذا ما جعل قصيدته مثـقلة بعلمه الواسع الغزير. وكان مما تعلمه فضلا عن هذا: ركوب الخيل، والصيـد، والمثاقفة، والتصوير، والغناء، وكان دانتي آنذاك مقبولاً في الأوساط الثقافية. (انظر ول ديورانت، جـ17، ص 308).

وتروي قصة تأليـفة لسلسلة أغانيه وتعليـقاته المعروفة باسم «الحـياة الجديدة» من حافز عشقه لمحبوبته بياتريس حيث أخذ في الفترة بين 1283م-1292م يؤلف مقطوعاته الغنائية، ثم أضاف اليها النثر فيا بعد. والقصة الغرامية التي تحدثنا عنها هذه الأغاني من المبتكرات الأدبية إلى حد ما. (انظر مقطوعات من هذه الأغاني. في نصوص مختارة في آخر هذه الوحدة). وفي ختـام كتابة «الحياة الجديدة» صـار دانتي يتطلع إلى وضع كتاب أكبر منه وأعظم. وبعد، بياتريس أحب دانتي أكـثر من واحدة. . ثم تزوج بجمادوناتي Gemma Donati . وهي تنحـدر من سلالة أقـدم الأسر الـشريفـة في فلورنس. هذا مجمل عن حياة دانتي الاجتماعية. (انظر: ول ديورانت، جـ17، ص 312)

اما حياة دانتي السياسية فيلاحظ أنه انضم ولأسباب لا نعرفها إلى حزب: البيض Blanchi، وهو حزب الطبقة المتوسطة العليـا. ومما لا شك فيه أن دانتي كان ذا مواهب سياسـية، فقد أختـير في عام 1300م عضوا فـي المجلس البلدي. ولعل ثورات السود Neir المتكررة أدّت إلى هرب دانتي من فلورنس وبقـائه جوالاً في البلاد في فقـر مدقع

طيلة تسعة عشر عاماً، ولعل هذه الفترة قد ألقت بظلالها على مزاج دانتي النكد في الملهاة الالهية.

وفي السنوات العشر الأولى من نفيه جمع بعض قصائده التي كتبها إلى السيدة الجميلة. ويحدثنا دانتي في قصية المائدة حوالي عام 1308م كيف ولى وجهه بعد خيبته في الحب وفي الحياة نحو الفلسفة ليخفف بها من آلامه، وكيف وجد في هذه الدراسة الهاما مقدساً. ويبدو أن دانتي كان يفكر في كتابة موجز أو كنز يدعي فيه أن كل جزء من أجزائه تعليق على إحدى قصائده عن السيدة الجميلة. أراد بها أن يستعيض عن الحب الشهواني بحب آخر. والكتابة خليط من العلوم الغامضة العجيبة، والاستعارات المتكلفة، وشذرات فلسفية مستمدة من بؤيثيوس وشيشرون. ويبدو أن دانتي قد تخلى عن اتمام هذا الكتاب، وشرع في عمل آخر هو إعادة حكم أباطرة الدولة الرومانية المقدسة في ايطاليا؛ ذلك أنه قد اقتنع أن منشأ ما في المدن الايطالية من فوضى وعنف هو فهمها الخاطيء لمعنى الحرية (انظر ول ديورانت، جـ17، ص315).

كان دانتي يتوق إلى ما تاق إليه ميكافيلي بعد مائتي عام من ذلك الوقت، يتوق إلى قوة تنسق جهود الأفراد، والطبقات، والمدن فتجعل منها كلا منظما يستطيع الناس في داخله أن يعملوا ويعيشوا في سلم وأمان. وكان يرى أن هذه السلطة الموحدة إما أن تأتي من البابا أو من رئيس الدولة الرومانية الشرقية. غير أن دانتي كان قد نفي من زمن قصير بأمر حزب متحالف مع البابوية، وتقول إحدى الروايات غير المؤكدة أنه اشترك في بعثة سياسية غير موفقة ارسلت من فلورنس إلى بنيفاس الثامن، وقد ظل البابوات زمنا طويلاً يعارضون في توحيد ايطاليا لأن هذا يعرض للخطر حريتهم الروحية وسلطتهم الزمنية، ولهذا بدا أن الأمل الوحيد في عودة النظام إلى البلاد هو إعادة السلطة الامبراطورية، بالرجوع إلى السلم الروماني التي بسطت لواءه روما القديمة (انظر ول ديورانت، جـ17، ص315).

وفي هذه الظروف كتب دانتي رسالته المثيرة «في الملكية المطلقة». الذي كان دفاعاً قوياً عن قيام «عالم واحد» ذي حكومة واحدة، وشرائع واحدة. والكتاب لم ينتشر إلا بعد وفاة دانتي. ويقول بوكاشيو إن دانتي ألف كتاب الملكية حين جاء هنري السادس. ذلك أن ملك المانيا غزا ايطاليا عام 1310م. وقد رحب دانتي بهذا الغزو لأنه حسب اعتقاده سينجي إيطاليا من الفوضى ومن البابوات ويحقق وحدة ايطاليا. غير أن فلورنس لم تستجب لنداء دانتي وأوصدت أبوابها في وجه هذا الغازي. (انظر ول ديورانت،

جـ17، ص317). واثر ذلك كتب دانتي رسالة وجهها إلى الفلورنسيين «انظرها في نصوص مختارة من دانتي في آخر هذه الوحدة». غير ان هنري ملك المانيا لم يتعرض لفلورنسا وتركها وشأنها وهذا مما ساء دانتي ودفعه إلى كتابة رسالة للامبراطور يحذره فيها من مغبة ما فعله (انظر رسالته في نصوص مختارة من دانتي آخر هذه الوحدة).

وكان رد فلورنس أن اعلنت نفي دانتي، وحرمانه أبد الدهر من كل عفو يصدر عن الخائنين، هذا وكان موت هنري عام 1313م من أشد الفواجع التي حلت بدانتي. ففر إلى جبيو Gibbio ولجأ إلى دير الصليب المقدس (سانتا كروس Santa Croce) ويبدو أنه كتب في هذا الدير جزءا كبيراً من الملهاة المقدسة.

وكأنك تطلب مني، عزيزي الدارس، المزيد عن هذه الكوميديا وإرضاء لك أقول أن دانتي بدأ ملهاته بالشعر اللاتيني السداسي الأوتار «ذي الست التفاعيل» ولكنه استبدل به اللغة الايطالية، لكي تصل قصيدته إلى عدد أكبر من القراء. ويبدو أن موضوعه في هذه الكوميديا صار أسمى فلسفة من شعر الحب الذي كان يكتب فيه، فقد أراد في هذه الكوميديا افتداء البشرية عن طريق الحب.

يبدو أن دانتي لم يكن يتصور أن ملحمته ستجعل اللغة الايطالية صالحة للتعبير عن أي غرض من الأغراض الأدبية، وأنها لن تكتفي بهذا بل ستسمو بهذه اللغة إلى درجة من العذوبة والرقة قلما عرف لها العالم مثيلا.

كانت قصيدته التي فيها نزعة التثليث - الثالوث الديني المقدس - قد جعلت منها ثلاثة أناشيد، في كل نشيد ثلاث وثلاثون أغنية، تقابل سني حياة المسيح على هذه الأرض، تضاف إليها أغنية أخرى في النشيد الأول فتكون عدتها مائة بيت كاملة. وكتب كل أغنية في مجموعات كل منها ثلاث أبيات، يتفق البيت الثاني من كل مجموعة في قافيته مع البيتين الأول والثالث من المجموعة التي بعدها. وهذه القافية الثلاثية تربط كل أغنية بالتي تليها، وتؤلف منها كلها أغنية واحدة متصلة، تنساب في لغتها الأصلية انسيابا سهلا على اللسان، ولكنها إذا ترجمت تعثرت وبدت كليلة ضعيفة.

عزيزي الدارس، وكما أن أبيات القصيدة هي التي عينت صورتها، فان الاستعارات هي التي عينت قصتها. وقد شرح دانتي ما تنطوي عليه أناشيده من صوره ويقول دانتي أن موضوع القصيدة هو الأخلاق: «وموضوع هذه القصيدة حسب معانيها الحرفية ... هو حال الأرواح بعد الموت.. أما إذا نظرنا إليها نظرة مجازية فان

موضوعها هو الانسان من حيث تعرضه للثواب والعقاب العادلين الذي يستحقهما بسبب أعماله الطيّبة أو الخبيثة. . . والغرض المقصود منها في مجموعها وأجزائها هو انتشال من يحيون هذه الحياة مما يعانونه من شقاء، وارشادهم إلى طريق السعادة (ول ديورانت، جـ3، ص323).

فالجحيم عند دانتي هي مرور الانسان بالخطيئة، والعذاب، واليأس، وإن المطهر هو تطهيره عن طريق الايمان، والفردوس هو نجاته عن طريق الوحي الالهي والحب غير الأناني. ويمثل فرجيل، الذي يقود دانتي خلال الجحيم والمطهر، المعرفة والعقل والحكمة. وهي التي تستطيع أن تقودنا إلى أبواب السعادة والايمان. والحب وحده هو الذي يدخلنا فيه.

وكان النفي في ملحمة حياة دانتي هو جحيمه، كما كانت دراساته وكتاباته هي مطهرة، وكانت آماله وحبه هما نجاته وسعادته اللتين لم تكن له غيرهما نجاة أو سعادة. ولعل اتخاذ دانتي رمزيته في الفردوس مأخذ الجد الشديد هو الذي يجعل هذا النشيد أكثر أناشيده استعصاء على الفهم؛ ذلك أن بيتريس التي كانت في الحياة الجديدة رؤيا سماوية تصبح في تصويره السماء تجريداً ذا أبهة وفخامة، ومثل هذا الجمال البريء غير خليق بهذا المصير.

ويشرح دانتي سبب تسمية ملحمته Commedia وذلك في آخر رسالته «لكان جراندي» «الذي أهدى ملحمته له» فيقول: إن القصة انتقلت من الشقاء إلى السعادة، وإنها كتبت بأسلوب مهلهل وضيع، باللغة العامية التي تتحدث بها ربات المنازل أنفسهن. وأن هذه الملهاة هي التي كانت شغل دانتي وسلوته في منفاه، ولم يفرغ منها إلا قبل موته بثلاث سنين. وقد لخص فيها حياته وتعليمه، وآراءه الدينية، وفلسفته، ولو أنها احتوت على ما كان في العصور الوسطى من فكاهة ورقة، وشهوانية عارمة لجاز أن تكون من المؤلفات «الجامعة في العصور الوسطى»، ذلك أنه قد حشر في قصيدته كل ما أخذه من العلم عن برونتولاتيني، ولعله حشر فيها أيضاً ما تعلمه في بولونيا من فلك وعلم الكون، وطبقات الأرض، والتوقيت في عصر تمنعه المشاغل فيه من أن يكون عصر علم (انظر ول ديورانت، ج17، ص324).

لم يكن دانتي يؤمن بالقوى الخفية، وبالنتائج المحتومة التي يستقيها من التنجيم فحسب، بل كان يؤمن فوق ذلك بجميع الأساطير المعماة الملغزة التي كانت تغزو معاني وقوة خفية للأعداد ولحروف الهجاء. فكان يقول مثلا أن العدد 9 يميز بياتريس من غيرها

لأن جذره التكعيبي هو 3 الذي جعله الثالوث رقما مقدساً. وفي الجحيم تسع دوائر، وتسع طبقات في المطهر، وتسع طبقات في الفردوس. ويستمد دانتي في هذا قسطا كبيراً من فلسفة «تومس أكوناس» وعلومه الدينية. غير أنه ومن غير أدنى شك أن القديس توماس لم يكن يرتاح إلى الحجج الواردة في كتاب الملكية، أو إلى رؤية البابوات في الجحيم. وأن تصوير دانتي لله بأنه نور وحب «الحب الذي يحرك الشمس وسائر النجوم» لهو قول أرسطو انتقل إليه عن طريق الفلسفة العربية. وكان دانتي يعرف الشيء القليل عن الفارابي، وابن سينا، والغزالي، وابن رشد. وكان دانتي يضع ابن رشد في المحيط الخارجي للجحيم، ولكنه كان يهز مشاعر المتدينين بوصفه «سيجر البرانبتي» معتنق مذهب ابن رشد في الفردوس. ويبدو أن ذلك كان بسبب افكار سيجر لعقيدة الخلود الفردي الذي هو دعامة قصيدة دانتي. (انظر ول ديورانت، ج17، ص325)

عزيزي الدارس، وتجدر الاشارة إلى ما استمده دانتي من المصادر الشرقية وبخاصة المصادر الاسلامية كقصة «أردا فيراف» التي تصف الصعود إلى السماء، ووصف الجحيم الوارد في القرآن الكريم، وقصة المعراج، ووصف الجنة والنار في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وفتوحات ابن عربي: ففي رسالة الغفران لأبي العلاء صورة لابليس يعذب في الجحيم وهو مقيد في الاغلال. كما أنه يصور الشعراء المسيحيين وغيرهم من «الكفرة» يعذبون فيها. في حين تستقبل صاحب القصة عند باب الجنة واحدة من الحور العين، اختيرت لترشده (انظر ول ديورانت، ج17، ص325).

أما ابن عربي في الفتوحات فقد رسم الحياة الآخرة رسماً دقيقاً، ووصف الجنة والنار بأنهما فوق البيت المقدس وتحته مباشرة، وقسم النار والجنة إلى سبع طبقات، وصور مكان الملائكة المسيحين حول النور القدسي، ووصف كل ذلك كما ورد في الملهاة المقدسة لا يفترق عنه في شيء.

وبعد: فقد وردت في الآداب الدينية اليهودية والمسيحية أوصاف لرحلات في الجنة والنار. وتقول قصة ايرلندية أن القديس باتريك زار المطهر والجحيم، ورأى فيهما أثواباً وأحزمة من نار، والمدنيين معلقين فيها من أرجلهم، أو تلتهمهم الأفاعي أو يغطيهم الجليد، ووصف قس انجليزي قصاص يدعى «آدم ده رس» في قصيدة طويلة طواف القديس بولس في النار يقوده الملاك ميخائيل، حيث ينطق ميخائيل بوصف مراتب العقاب التي توقع على درجات الذنوب المختلفة. ويظهر بولس وهو يرتجف من هذه الأهوال كما يرتجف منها دانتي. وتحدّث قبل هذا «يواقيم الفلوري» عن هبوطه إلى الجحيم وصعوده إلى السماء.

عزيزي الدارس، وجملة القول أنه قد وجدت مئات من هذه الرؤى والقصص أمام هذا الحشد الكبير من الأوصاف المروعة نرى أنه لم يكن دانتي بحاجة إلى أن يتخطى الحواجز اللغوية إلى الآداب الاسلامية لكي يجد فيها نماذج لوصف الجحيم. لقد أخذ عناصر وصفه من تومس، ومن شعراء الفروسية الغزلين، ومن مواعظ بطرس، وما فيها من وصف لعذاب الجحيم، ومن تفكيره الطويل في بياتريس في حياتها وبعد موتها، ومع صراعه مع السياسيين والبابوات، ومن العلوم القليلة التي عترضت طريقه، ومن اللاهوت المسيحي، وما ورد فيه عن سقوط آدم، وعن التجسد، والخطيئة، والغفران، ويوم الحساب، ومن الفكرة الافلوطينية - الاوغسطينية عن مدارج صعود الروح حتى تتحد مع الله. ومن توكيد تومس أن الرؤى الطوباوية هي الهدف الأخير الذي يغتبط به الأبرار؛ ومن هذا كله صاغ العقيدة التي وجدت فيها روح العصور الوسطى وما يحيط بها من رعب، وأمل، واغتراب، صوتاً، ورمزاً، وصورة، نعبر بها وتصورها (انظر ول ديورانت، ج17، ص325/326).

عزيزي الدارس، لقد كانت الكوميديا الالهية من أعجب القصائد وأصعبها، وكانت لغتها من أكثر اللغات ايجازاً وإحكاماً؛ فهي تجمع في كلمة أو في بضع كلمات معاني وأفكارا دقيقة يتطلب فهمها كاملة معلومات سابقة غزيرة وعقلا مستيقظا، وحتى أن بحوثها في علوم الدين والنفس، والفلك تمتاز بدقة في اللفظ وغزارة في المادة لا يستطيع أن يجاريها فيهما أو يستمتع بهما إلا الفيلسوف المدرسي؛ ذلك أن دانتي كان يحيا في عصره حياة قوية عميقة تكاد قصيدته بسببها أن تتحطم تحت عبء الاشارات إلى الحوادث والمعاني المعاصرة التي لا يمكن فهمها إلا إذا أضيف اليها كثير من الشروح التي تعطل تتابع القصة (ول ديورانت، ج17، ص344).

كان دانتي يبغي أن يُعلّم الناس في قصيدته، ولهذا أراد أن يفرغ فيها كل ما تعلمه تقريباً، وكانت النتيجة أن البيت الحي من الشعر يرقد إلى جانبه السخافات الميتة. ومع هذا كله فان قصيدة دانتي هي أعظم كُتُب العصور الوسطى، ومن أعظم كتب التاريخ بأجمعه، ذلك أنها تجمع قوتها وغزارة مادتها تدريجياً خلال أغانيها البالغ عددها مائة أغنية تجربة لا يستطيع قارىء أكمل قراءتها أن ينساها.

نشاط (5)



اكتب تقريراً عن فلسفة ديكارت في الوجود.



تدريب (5)

أ- كيف نظرت المسيحية عند ظهورها إلى الفلسفة اليونانية؟

ب- اذكر أبرز ميزات الفلسفة المدرسية.



أسئلة التقويم الذاتي (5)

اكتب في مبدأ الارادة عند القديس اوغسطين.

7. نصوص مختارة من:

1.7 القديس أوغسطين

سأقتطف لك، عزيزي الدارس، في هذه العجالة نصوصاً من مناقشات اوغسطين للشك. إذ تنقسم مناقشته للشك إلى قسمين: قسم سلبي يبين فيه أن موقف الشك السرف متناقض، وقسم ايجابي يثبت فيه أننا ندرك إدراكاً يقينياً حقائق موضوعية.

يقول القديس اوغسطين من الوجهة الاولى: «إن الاحتجاج بتخاييل الاحلام والجنون لا ينهض الا بصدد المحسوسات، ولنا مع ذلك سبيل للاشتياق من مدركات الحواس إذا رجعنا إلى حكم العقل فيها. بالعقل نعين شرائط اليقين في المحسوسات، ونعلم أن بامكاننا أن نصدر بشأنها أحكاماً صادقة اذا حرصنا على ألا نضيف للاحساس عنصراً غريبا عنه، وحسبنا للأحوال التي تعمل فيها الحواس حسابها: ثم ان الذي يشك في وجود الحقيقة يعبر عن شكه بقضية تبدو له صادقة، وهذا الصدق ينقض دعواه.. وإذا انتقلنا من النظر إلى العمل وجدنا الشك يقضي بالجمود التام، لأن كل فعل هو دائماً عبارة عن وضع قضية موجبة هي أن كذا خير أو أن كذا شر. وليس يكفي الاحتمال كما يقولون إذ ما هي القاعدة لتمييز الاحتمال؟ اليس الاحتمال والشك انما يقالان بالقياس إلى الحقيقة» (يوسف كرم، ص 32/31).

ومن الوجهة الثانية يقول القديس اوغسطين: إن هناك حقائق مستقلة عن كل ظرف، مطلقة من كل قيد، لا يتطرق اليها الشك مهما تعسف فيه متعسف، منها القوانين المنطقية مثل ان القضية الصادقة ليست كاذبة، وان القضية المناقضة لها هي

الكاذبة. ومنها الحقائق الرياضية، مثل 3x3=9 وغيرها كثير معروف. ومنها الحقائق الفلسفية والخلقية، مثل قولنا: يجب طلب الحكمة والسعادة، فان العقل يرى بالطبع هذا الوجوب والتسليم به تسليماً بالواجب، وتعريفاً لفضيلة الحكمة؛ ومثل قولنا: يجب إخضاع الأدنى للأعلى، ومعاملة المتساويات بالمساواة، وإعطاء كل ذي حق حقه، وتلك حقائق ترجع لفضيلة العدالة؛ وكذلك يرى العقل أن الدائم خير من الزائل وأعلى منه، وفي مراعاة هذا المبدأ تقوم فضيلة العفّة؛ ومن المؤكد أيضاً أنه تجب المخاطرة بكل شيء واحتمال كل ألم في سبيل الخيرات الحقة، وتلك فضيلة الشجاعة. جميع هذه الأحكام ضرورية في العقل عند جميع الناس ولو كانوا يغطون في النوم» (يوسف كرم، ص32).

وثمة حقيقة يعرضها القديس اوغسطين على المتشككين ليشعرهم بيقين لا سبيل للارتياب فيه بحال، تلك هي حقيقة وجودنا وفكرنا، يلح فيها ويذكرها على أشكال شتى، فيقول في موضع: «انت الذي يريد أن يعرف نفسه، هل تعرف أنك موجود؟ – أعرف ذلك – من أين تعرف؟ – لا أدري. – هل تحس نفسك بسيطاً أو مركباً؟ – لا أدري – هل تعلم أنك تتحرك؟ – لا أعلم. – هل تعلم أنك تفكر؟ – أعلم». ويقول في موضع آخر: «حين تؤكد وجودك لا يمكن أن تخشى الخطأ، إذ أنك إذا كنت تخطيء فانت موجود». ويقول بنفس المعنى: «لست أخشى الأكاديميين إذ يقولون لي: وإذا كنت مخطئاً؟ إذا كنت مخطئا فأنا موجود، ومن لم يكن موجوداً فلا يمكن أن يخطيء» وأيضا: «إذا كان يشك فهو يحيا، وهو يذكر موضوع شكه، وهو يعلم أنه يشك، وهو يطلب اليقين، وهو يفكر، وهو يعلم أنه لا يعلم. وهو يحكم بأنه لا ينبغي التسليم بشيء دون روية فالذي يشك، مهما يكن موضوع شكه، لا يمكن أن يشك في تلك الأمور التي يدونها لا يمكن الشك». فالشك المطلق مستحيل فعلا، والحقيقة ماثلة في العقل بالضرورة. (يوسف كرم، ص32/33).

2.7 القديس توما الاكويني (1225-1274م)

ولد في ايطاليا عام 1225م ودرس في جامعة نابولي التي كانت تموج بالمؤثرات اليونانية والعربية والعبرية (انظر ول ديورانت، ج17، ص116/117) وكان من الرهبان الدومنيكان، تتلمذ على يد البرت الكبير (1206–1280م) ومارس الكتابة والتعليم في أكثر من مكان في باريس وروما ثم صار استاذاً بجامعة باريس. يتفق في الفلسفة

سياسية مع أرسطو بأن الانسان مخلوق اجتماعي وسياسي، وأن الهدف من الحياة في جتمع ما هو توصل الفرد إلى الله عن طريق سلوك حياة صالحة. ويجب أن تكون لحكومة الزمنية خاضعة للكنيسة إلى الحد الذي يصبح فيه الحكم على تلك الحكومة تناسباً مع هدف الحياة النهائي الذي هو خلاص الانسان من شرور الأرض. (الموسوعة لسياسة، ج7، ص813).

وقد دون كثيراً من الشروح والمؤلفات الفلسفية، حاول فيها أن يقدم فلسفة أرسطو لى معاصريه في صورة براقة مغرية (أعني بثياب مسيحية) الأمر الذي اوقعه في صراع ع الاوغسطيين من ناحية ومع الرشديين من ناحية أخرى. (انظر سعيد عاشور، ج2، ص380، وانظر أيضاً ول ديورانت، ج17، ص117) فقد كتب رسالة بعنوان «في وحدة لعقل ضد فلسفة ابن رشد» يقولك «انظروا كيف فندنا هذه الأخطاء. إنا لَمْ نبن هذا لتفنيد على أسس من وثائق مستندة إلى الايمان بالدين، بل بيناه على عِلل وأقوال نقولة عن الفلاسفة أنفسهم. فاذا وجد انسان يفخر مزهوا بحكمته المزعومة، ويرغب ي نقض ما كتبناه، فعليه ان لا يفعل هذا في ركن من الأركان، أو أمام أطفال لا قدرة هم على البت في مثل هذه المسائل الشائكة. عليه أن يجيب علناً إذا كان له من لشجاعة ما يمكنه من هذا العمل، وسيجدني مستعدا لمواجهته، ولن يجد شخصي لعاجز وحده، بل سيجد الكثيرين غيري ممن جعلوا الحقيقة موضوع دراستهم، ستحارب أخطاءه وتداوي جهله». (ول ديورانت، ج17، ص118).

امتازت فلسفة القديس توما الاكويني بالتفرقة الواضحة بين العلم واللاهوت قال: «ان الفلسفة لا يمكن أن تقدم أدلة قاطعة لاثبات مبادىء المسيحية لأن العقل لبشري يتقبل هذه المبادىء، ولاعتقاده فقط أنها من لدن الله تعالى، وأقصى ما يمكن أن تقوم به الفلسفة هو تنفيذ مزاعم صفات العقيدة والمتشككين في الدين، على أن ثمة عنصراً مشتركاً بين الفلسفة واللاهوت هو أننا لا ننتظر من العالم أن يؤمن بعقائد للاهوت التي تسندها السلطة المقدسة دون أن تقيم الادلة الفلسفية على وجود الله وماهيته وقدرته. وهنا يسرد القديس توما خمسة أدلة على وجود الله تعالى، مستمدا منطق تفكيره من فلسفة أرسطو بوجه خاص، وأول هذه الأدلة فكرة المحرك الذي لا يتحرك، فكل ما يتحرك يحركه شيء سواه يقول: «ولما كان التسلسل اللانهائي مستحيلاً، فإنا سنصل في النهاية إلى شيء يحرك بقية الأشياء دون أن يتحرك، وهذا لشيء هو الله». (انظر سعيد عاشور، ج2، ص380)

والدليل الثـاني يقـوم علـى أساس العـلة الاولى؛ اذ لا يمكن أن تكون جـمـيع الموجودات فاعلة لنفسهـا، بل لا بد أن يكون لكل شيء علّة أوجدته، يقول: «ولما كان التسلسل اللانهائي مستحيلا فلا بد من وجود علة خالقة اولى، هي الله».

أما الدليل الثـالث: فهو ضرورة وجـود مصدر أسـاس لكل الموجودات هو الله، وواضح أن هذا الدليل يكاد يكون الدليل نفـسه السابق له. ويعتـمد الدليل الرابع على تفاوت الموجودات في الصفات والكمالات، والتفاوت لا يأتي الا نتيجة للاضافة إلى ما هو غاية في صفة معينة.

وعلى ذلك لا بد من وجود شيء تام الكمال هو غاية الكمالات التي تصدر كلها عنه، وهذا الشيء هو الله. وأخيراً يعتمد الدليل الخامس على أن كل الموجودات - حتى التي لا حياة فـيها - تعمل لتـحقيق غاية مـعينة، مما يدل على أنها لا تعـمل عرضا بل قصدا مـدفوعة بقـوة كائن سواها خارج عنهـا، وهذه القوة هي قوة الله. (انظر سـعيد عاشور، ج2، ص381).

عزيزي الدارس، مـن الواضح أن الأدلة السابقـة تقوم على أسـاس الوصول إلى علة الموجودات الطبيعية، لأن القديس توما يـرى أن الايمان يتوقف على معرفة الطبيعة، الأمر الذي استـوجب إطلاق اسم: «اللاهوت الطبيعي» على هذا القسم من فلسـفته. وبعد ذلك يتعرض القـديس توما إلى ماهية الله تعالى فيرى أن الله تعـالى جوهر نفسه لأنه كائن غير مـركب لا فرق فيه بين جوهر ووجود، وهو كـامل من جميع النواحي، والأشياء التي تشـبهه في بعض النواحي لا تشبهـه في البعض الآخر، وهو ارادة وارادته هي جوهره، ويمتاز الله بالقدرة والعناية والعقل والفضائل التأملية والعملية جميعاً (انظر سعيد عاشور، ج2، ص381).

وبعد ذلك يتناول القديـس مشكلة الخلق والعلاقة بين الخالق والمخلوق، فـيقول: «ان الموجودات - خلا الله - مخلوقة لأن الله خلق العالم من العدم. وأرقى المخلوقات هم الملائكة وهي مخلوقات روحية كثيرة العدد، يبلغون كمالهم العقلي بفيضٍ الهي. أما الانسان فيلي الملائكة في المرتبة، وبعبـارة أخرى يحتل الانسان مكانة وسطى بين الملائكة والاعجـام. والانسـان مؤلف من روح وجـسد، والروح هي النفس الخـالدة التي تدرك الاشيـاء بقوة العقل، والعـقل جزء من روح كل فرد من الأفـراد (انظر سعيد عـاشور، ج2، ص382). وهنا يعرض القـديس توما لمشكلة الكليـات عندما يبـحث في العقل،

يتفق مع أرسطو في أن الكليات لا وجود لها خارج الروح، ولكن العقل حين يعقل لكليات فهو يعقل أشياء موجودة خارج الروح.

أما فلسفة توما الاخلاقية فقد حاول فيها أيضاً التوفيق بين فلسفة أرسطو وآراء لمسيحية، مما جعل الطريقة التي عالج بها المشاكل الاخلاقية فريدة في نوعها بين ايمان لفلاسفة المدرسين. وتقوم فلسفة توما الاخلاقية على أساس أن الشر غير مقصود لأن لكائنات كلها ترمي إلى التشبه بالله في الخير. كذلك يقول توما ان سعادة البشر الكاملة نقوم على التأمل في الله، لا على اللذائذ الدنيوية، لأن الله هو الغاية القصوى، والعقل الطبيعي هو مجموع القواعد الخلقية التي تقر الخير وتنبذ الشر (انظر سعيد عاشور، ج2، ص382). كان توما يرى أن لا محل في الفلسفة للبلاغة. وكان أقرب ما كتب إلى الكمال هو الترانيم والأوراد التي وضعها لعيد القربان المقدس، ومن بينها ترنيمة (Land Sion Salvatorem) التي تقول بوجود جسم المسيح ودمه وجوداً حقيقياً في العشاء الرباني. وفي التسابيح ترنيمة تبدأ بعبارة من أقوال أمبروز وتختتم بمقطوعتين تنشدان أثناء البركة التي يمنحها الكاهن وقت العشاء الرباني، وفي صلاة المساء ترنيمة هي أعظم ما وجد في الترانيم في جميع العصور، وهي مزيج من الشعر واللاهوت.

تغن، يا لسان، بسر الجسم المجيد،
وبالدم الذي لا يقدر بمال، والذي أراقه
ملك الخلائق جميعا، وثمرة أكرم الأرحام
فداء للعالمين.
أهدته الينا وولدته عذراء لم يمسسها بشر،
وأقام على هذا الكوكب ينشر بذور الكلمة التي استحالت لحما،
وأقام بيننا في تواضع، ثم اختتم مقامه اختتاما عجيبا،
وفي ليلة العشاء الأخير والرسل لا يزالون مضطجعين،
مراعين كل ما تقضي به الشريعة القديمة في شأن الطعام الذي وضعته الشريعة،
الطعام الذي يطعمه الاثنا عشر مجتمعين يقدمه لنفسه بيديه،
ان الكلمة التي تجسدت تحيل الخبز بكلمة إلى لحمة:

والنبيذ يصبح دم المسيح، وإذا عجزت الحواس أن ترى.
فليقو الطهر في القلب بالايمان وحده.
ومن أجل هذا تجل هذا العشاء الرباني العظيم ونحن سجد؛
ألا فلتخل الطقوس القديمة مكانها لهذه الشعيرة الجديدة.
ولينج ايماننا عجز حواسنا المظلمة.
سبحوا بحمد الوالد والمولود وغنوا له أبهج الأغاني.
سلام، وتكريم، وسلطان، وبركات كثيرة
وليرفع له تسبيحنا غير منتقص.
صادر عن حواسنا وقلوبنا.

(ول ديورانت، ج17، ص123/122)

3.7 دانتي الأليجيري

بدأت أشهر الحوادث الغرامية حين كان دانتي وبياتريس كلاهما في سن التاسعة. وكانت بدايتها كما يقول «بوكاشيو» في إحدى الحفلات التي أقيمت في بيت فلكوبرتناري Felco Portinari أحد كبار المواطنين في فلورنس. وكانت بيس «بياتريس» ابنة فلكو وكان كلاهما في سن التاسعة من العمر ويصف «دانتي» هذا اللقاء الأول بقوله:

«كان لباسها في ذلك اليوم من أبدع الملابس، فقد كان ذا لون قرمزي هادىء جميل، وكانت ممنطقة ومزينة بما يناسب سنها الصغيرة، وإني لأقول صادقا كل الصدق إن روح الحياة المستكنّة في أعمق خبايا القلب أخذت من تلك اللحظة ترتجف ارتجافاً عنيفاً اهتزت معه جميع أجزاد جسمي، وقالت وهي تهتز: «ها هي ذي الهة أعظم مني قوة مقبلة لتسيطر علي» وأصبحت من تلك اللحظة عبداً لهواها». (انظر ول ديورانت، ج17، ص308).

ويصف لنا دانتي كيف كان يتحين الفرص ليرى معشوقته. ويبدو أنه ظل لا يراها تسع سنين، حين بلغت الثامنة عشرة من عمرها. يقول:

واتفق أن تبدت لي هذه الفتاة الـعجيبة في أثواب ناصعة البـياض بين سيدتين من
زائم العـقائل أكبر منهـا سنا وبينما كانت تجتـاز الشارع التفتت إلى الناحـية التي كنت
إفقـا فيها يجللني الحـياء، وحيتني بطريـقة أستطيع وصفـها. . . إذ سلّمت علي وهي
شرقـة البهجة، تحيط بها هالـة من الفضيلة والروعة، خيل الي مـعها في تلك اللحظة
تلك البقعة أننـي قد نلت منتهى ما أصبو اليه من الـسعادة. . . ثم غادرت ذلك المكان
شوة من الفـرحة. . . وفي هذه اللحظة اعـتزمت أن أؤلف أغنية، فـقد كنت أنزع إلى
تد ما أن أقول الحديث المقفى». (ول ديورانت، ج17، ص309).

وعلى أثر هذا اللقاء ألف دانتـي سلسلة أغانيه ومعلـقاته المعروفة باسم: «الحـياة
لجديدة». وسأسوق لك، عزيزي الدارس، نصا منها يقول فيه:

«يقول الحب فيها: "كيف يمكن أن يكون الجسم وهو من تراب نقيا هذا النقاء؟"
م يقسم وهـو لا ينفك يحدق فيـها: "حقـا إنها لمخلوق من خلق اللـه لم يعرف من
بل". إن لهـا من الشحـوب القدرة الخليق بالمرأة الجمـيلة لا أكثـر منه ولا أقل، ولقد
سمتْ بالقدر الذي يمكن أن تسمو به الطبيعـة وابداع الخالق، بها يقاس الجمال، وكل ما
قعت عليه نظراتـها الحلوة. خرجت منه أرواح الحب ملتهبـة، فاذا نظر الناس إلى هذه
لأرواح سرت في عيونهم وأصابت سهام تلك العيون شغاف قلوبهم. وفي بسماتها ترى
لحب مجسمـا فلا يستطيع إنسان أن يطيل النظر اليها. ويـقول: «فاذا ظهرت في مكان
ا، خيل إلي وأنا اؤمل أن تحيـيني تحيتها الجمـيلة، أن لم يبق لي في العالم كله عدو،
غمرني في ذلك الوقت فيض من المحبة لا أشك معه في أنني سأعفو عن كل من أساءَ
لي مهما تكن إساءته. . . ومشت يجللها التـواضع، فلما أن غادرت المكان قال كثيرون
ن فيه: «ليست هذه امرأة، وانما هي ملك جـميل هبط من السماء»، وإني لأقول بحق
ن فيـها من الر،ة والظرف مـا يبعث في نفس كل من ينظر اليـها هدوءا وسكينة يعـجز
لبيان عن وصفهما».

والغريب، عزيزي الدارس، أن افـتتنان دانتي هذا بمعشوقته بيـاتريس لم يكن فيه
شـارة إلى فكرة الزواج منهـا. والأغـرب من هذا أن دانتي لم يهـتم بزواجـهـا عـام
1289م. بل إنه رثاها عندما ماتت بعد زواجهـا بعام أي وهي في سن الرابعة والعشرين
قول: «صعدت بيـاتريس إلى السموات العلى، إلى الملكوت الذي يتمتع فـيه الملائكة
السلام، فهي تعيش معهم، وإن فقدها الأصدقاء، ولم يدفعها إليه زمهرير الشتاء، كما
دفع غـيرها من النـاس، لا ولا حر الصـيف اللافح، وإنما اندفـعت بغيـر هذا وذاك،

بلطفها الكامل، لأن هالة عظيمة خرجت من نور جبينها الوضاء، فأثارت الدهشة في نفس الخلاق الأزلي، وسرت فيه رغبة حلوة في ذلك الجمال البارع، فأمرها أن تتوق إليه في علاه، لأنه رأى أن هذا المكان المملَ الخبيث، غير جديرٍ بكل هذا اللطف وتلك الرقة» (انظر ول ديورانت، ج17، ص311/310).

* وفي رسالة وجهها دانتي إلى شعب فلورنس الذين أوصدوا أبواب مدينتهم أمام هنري السادس حين غزا ايطاليا يقول فيها «مؤيداً هذا الغزو»:-

«ألا تعرفون أن الله قد أمر أن يخضع بنو الانسان كلهم لحاكم عاهل واحد ليدافع عن العدالة، والسلم والحضارة؟ وأن ايطاليا كانت على الدوام فريسة للحرب الأهلية كلما زال عنها سلطان الامبراطورية؟ يا من تعتدون على القوانين البشرية والالهية، ويا من يدفعكم الفهم الرهيب إلى ارتكاب كل جريمة مهما بلغت من الشناعة - ألم تردعكم رهبة الميتة الثانية فخرجتم على مجد الأمير الروماني، ملك الأرض ومبعوث الله؟ . . . يا أحمق الناس وابلدهم احساساً! سوف تخضعون صاغرين إلى النسر الامبراطوري»! (انظر ول ديورانت، ج17، ص317).

* ولما لم يتعرض هنري ملك المانيا لفلورنس غضب دانتي وكتب رسالة إلى الامبراطور يحذره فيها يقول: «لسنا ندري أي خمول يقعدك عن العمل هذا الزمن الطويل. . . أنك تضيع الربيع كما تضيع الشتاء في ميلان. . . لعلك لا تعرف أن فلورنس مصدر الشر المستطير. . . وأنها هي الأفعى. . . التي تنفث من أنفاسها الفاسدة الدخان الموبوء الذي يقضي على القطعان المجاورة لها. . . هُبّ اذاً يا ابن يسّى Jesse النبيل!» (انظر ول ديورانت، ج17، ص317).

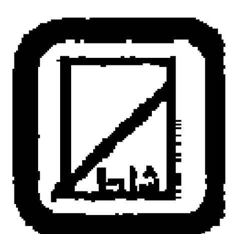
* ويرى دانتي أن الجحيم فتحة تحت الأرض تمتد إلى مركزها، ويصورها بخيال قوي يكاد يبلغ الغاية في الاكتئاب: «فهي هاوية سحيقة مظلمة مرعبة، بين صخور ضخمة قائمة، تتصاعد من منافذها الأبخرة والروائح الكريهة، وتجتاحها السيول الجارفة، وبها بحيرات ومجار، وعواصف من المطر، والثلج، والبرد، ومشاعل من لهب، وتزمجر فيها الرياح والزمهرير الذي يجمد الدم والجسد، وبها أجسام معذبة، ووجوه كالحة مغطاة، ويشقها صراخ وأنين يقف لهما الدم في العروق. وفي أعلى مكان في هذه الفتحة الجهنمية يقيم من لم يكونوا أخيارا أو أشراراً، ومن وقفوا على الحياد بين الخير والشر. اولئك يعاقبون بآلام خسيسة تلسعهم الزنابير، ويأكلهم الدود، ويحرق قلوبهم

الحسد والندم، وهؤلاء يزدريهم دانتي الذي لم يقف على الحياد في يوم من الأيام». (انظر ول ديورانت، ج17، ص327).

* وفي المطهر لا ينسى دانتي أن يوجه خطابا إلى بلده، يلخص فيه مقاله عن الحاجة إلى الحكومة الملكية يقول: «أي ايطاليا المستعبدة! يا موطن الأحزان! يا سفينة بغير دليل في مهب العاصفة الهوجاء! يا سيدة انتزعت منها ولايتها الجميلة، ولم تعد إلا ماخورا دنسا! إن هذه الروح الرقيقة قد حفزت الصوت الجميل الصادر من بلده العزيز أن يحيى رجلا من أهل وطنه مرحبا به مبتهجا بلقائه. وفيك يضم الأحياء من ابنائك يقتتلون، يأكل الواحد منهم لحم أخيه من الغل والحقد؛ نعم ما أشد الضغن الذي يملأ قلوب من يحيط بهم جدار واحد وخندق واحد. الا أيها البائس الحزين طف بشواطيء بحارك، ثم عد إلى نفسك فاسألها هل يستمتع جزء منك بالسلم المريح؟ وماذا يفيدك إذا كان جستنيان قد «أحيا القانون الروماني» من أجلك، وهل ينفعك أن يصلح العنان إذا كان السرج «بغير ملك»/ أيها الخلائق، يا من يجب عليكم أن تظلوا مخلصين أوفياء، أجلسوا قيصر في السرج إذا شئتم أن تستجيبوا لأمر الله!» (انظر ول ديورانت، ج17، ص331).

* وفي أثناء صعود دانتي إلى جنة الروض يودعه فرجيل فيقول: «إن علمي لا يصل إلى أبعد من هذا، لقد سرت بك بحذق إلى هذا الحد، فاتخذ الآن مسرتك دليلا لك... انظر! ترى الشمس التي تسطع أشعتها على جبهتك، انظر! ترى الأعشاب والشجيرات والأزهار التي تخرجها هذه الأرض موفورة من تلقاء نفسها. وإلى أن تأتيك هاتان العينان الوضاءتان «عينا بياتريس» تشع منهما البهجة، وهما اللتان جعلتاني ببكائهما أسرع إلى معونتك - أقول إلى أن تأتيك هاتان العينان فأنت مخير بين الجلوس هنا أو التجوال حيث تشاء. ولا تنتظر أن تسمع مني بعد الآن صوتا أو إشارة تحذرك. وإذا كنت الآن حرا تختار لنفسك ما تشاء حصيفا، حكيماً ... فاني أخلع عليك التاج والعمامة وأجعلك سيد نفسك». (ول ديورانت، ج17، ص336).

نشاط (6)



* ابحث في فلسفة الايمان بوجود الفكر لدى ديكارت وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

* اقرأ الكوميديا الالهية لدانتي. وناقش ما تقرأ في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري.



تدريب (6)

1- من هو واضع أساس مذهب القضاء والقدر؟

2- ما هي العناصر التي استمد منها دانتي أفكاره في الكوميديا الالهية؟



أسئلة التقويم الذاتي (6)

1- وضح كيف وفق القديس اوغسطين بين الله تعالى وقدرته المطلقة وبين الشر القائم في العالم.

2- اذكر الأدلة التي ساقها توما الاكويني للتدليل على وجود الله تعالى.

8. الخلاصة

عزيزي الدارس، وهكذا فقد شكل التاريخ البيزنطي مرحلة جديدة من مراحل التاريخ الروماني. كوّنت فيها الدولة البيزنطية الناشئة شخصية مستقلة لها معالمها المميزة. فقد تأثر البيزنطيون باليونان من الناحية الثقافية، وكان للنصرانية أثرها في مختلف مجالات حياة الدولة. وكان للتطور الاقتصادي والاجتماعي أثره في خلق أطر جديدة للتنظيم الاقتصادي والاجتماعي. كما أن الظروف الجديدة دعت إلى تنظيم سياسي واداري جديدين.

لقد نظرت المسيحية إلى الفلسفة اليونانية نظرة ملؤها الشك والريبة لأنها اعتبرت هذه الفلسفة مظهرا من مظاهر التفكير الوثني، وتمسكت في أن المعرفة الحقيقية ينبغي أن لا تستمد الا من الكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة. غير أن هذا الموقف انقلب تماما بعد أن وجدت الكنيسة نفسها في حاجة إلى دعائم فلسفية تدافع بها عن كيانها ضد خصومها العديدين ولم تلبث أن ظهرت اولى المحاولات لايجاد فلسفة مسيحية منظمة في الاسكندرية في القرن الثالث.

ويعتبر القرن الثالث عشر العصر الذهبي للفلسفة المدرسية والدراسات اللاهوتية، ذلك أنه ظهرت حقائق أدت إلى تغيير وجه الحياة العملية، كان أهمها إحياء فلسفة أرسطو الطبيعية والميتافيزيقية وقيام الجامعات الاوروبية، وخاصة جامعة باريس. ثم اتصال الفلسفة الغربية بالفلسفة الشرقية الاسلامية واليونانية. فاشتدت حركة الترجمة عن العربية إلى اللاتينية، وعن طريق هذه الحركة فضلا عن الترجمة عن اليونانية مباشرة تعرّف غرب اوروبا على دراسات ارسطو الذي علّم الغرب أن الطبيعة المحسوسة تقدم حقلا أوسع عن اللاهوت غير المحسوس.

9. لمحة مسبقة عن الوحدة الدراسية التالية

عزيزي الدارس، تبحث الوحدة الدراسية الخامسة في الحضارة الاسلامية والتجليات الفكرية لهذه الحضارة وعلاقاتها بالحضارات القديمة وتأثيرها على الحضارة المسيحية الاوروبية من جهة أخرى.

10. إجابات التدريبات

تدريب (1)

تعود أصول الدولة البيزنطية إلى القرن الرابع الميلادي حين أصدر الامبراطور قسطنطين مرسومه الشهير الذي اعترف فيه بالديانة المسيحية وأسس العاصمة الجديدة «القسطنطينية» على ضفاف البسفور.

تدريب (2)

سلطات المحاكم الدينية أيام قسطنطين تتصف بما يلي:

1- ان حكم الاسقف يجب أن يقبل كحكم نهائي في الحالات التي تخص أشخاصاً من أي شيء كانت.

2- يمكن نقل أي قضية مدنية إلى محكمة دينية في أي مرحلة من المراحل للنظر فيها، حتى ولو لم يوافق الخصم على هذا النقل.

3- على القضاة الكنسيين أن يصدقوا أحكام المحاكم المدنية.

تدريب (3)

هدفت اصلاحاتهما إلى أمور ثلاثة هي: أولاً تقوية السلطة المركزية، ثانياً: اقامة جهاز اداري منظم يستطيع الاشراف على شؤون الدولة وموظفيها، ثالثاً: فصل السلطتين العسكرية والادارية فصلاً كاملاً تتضح معه حدود اختصاصات كل منهما.

تدريب (4)

1- (أ) المرحلة الاولى «الابتدائية» وفيها تلقن القراءة، والنحو، والحساب، والموسيقى.

(ب) المرحلة الثانية «العليا» اهتمت بالبلاغة والخطابة والأدب مع شيء من الدراسات القانونية والفلسفية.

2- ظهرت أولى الجامعات في القرن الثاني عشر في بولونيا بايطاليا وفي باريس بفرنسا.

تدريب (5)

1- نظرت المسيحية - عند ظهورها - إلى الفلسفة اليونانية نظرة ملؤها الشك وعدم الثقة، لأنها اعتبرتها كلها من مظاهر التفكير الديني.

2- الفلسفة المدرسية كانت كلها ميتافيزيقية حاولت أن تحل المسائل المنطقية والاخلاقية والنفسية على أسس من الحقائق الثابتة، كذلك امتازت الفلسفة المدرسية بأنها عقلية، تبدأ دائما في البحث عن المباديء أو الأسس فإذا تم العثور عليها أمكن تحقيق التوافق والترابط المنطقي.

تدريب (6)

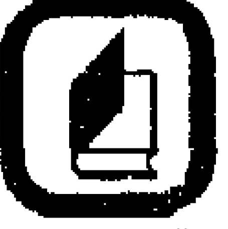
1- القديس اوغسطين.

2- يبدو أن دانتي أخذ عناصر وصفه، من توما الاكويني، ومن شعراء الفروسية الغزليين، ومن مواعظ بطرس، وما فيها من وصف لعذاب الجحيم، ومن تفكيره الطويل ببياتريس في حياتها وبعد موتها، ومن صراعه مع السياسيين والبابوات، ومن العلوم القليلة التي اعترضت طريقه ومن اللاهوت المسيحي

وما ورد فيه عن سقوط آدم، والخطيئة والغفران، ويوم الحساب، ومن الفكرة الافلوطينية - الاوغسطية عن مدارج صعود الروح حتى تتحد مع الله. ومن توكيد توما أن الرؤى الطوباوية هي الهدف الأخير الذي يغتبط به الأبرار.

11. مسرد المصطلحات

- **اوغسطين** Augustan: شخص يساعد الامبراطور البيزنطي في الاشراف على ادارة أحد النصفين الشرقي أو الغربي للامبراطورية.
- **برسكيان** Briskian: كتاب عن قواعد النحو ألف باللاتينية في حوالي عام 500 في ثمانية عشر جزءا وكان يمثل المرجع الأول في ذلك العلم.
- **العصر البندكي** Cistercian Age: اسم أطلقه بعض المؤرخين والكتاب في الفترة الواقعة بين وفاة شارلمان والقرن الحادي عشر، على أساس أن هذه الفترة تمثل العصر الذي أضحى زمام التعليم في اوروبا بأيدي رهبان الأديرة.
- **بيزنطي** Byzantine: كلمة أطلقتها الأجيال اللاحقة على الدولة المسيحية التي ورثت الدولة الرومانية.
- **التوجا** Toga: لباس من صوف كان المواطنون الرومان يرتدونه ويغطي كافة الجسم عدا الرأس والذراع الأيمن.
- **الحركة الكارولنجية** Carronical Movement: اصلاحات شارلمان في المدارس واثارة الحركة الفكرية الكبرى.
- السوليدس Solidus: عملة ذهبية جديدة ضربت زمن الامبراطور قسطنطين وهي 1/ 72 من الدينار الذهبي.
- السيليكيا Seliqua: عملة فضية بيزنطية زنتها 2.24 غم فضة، وكان كل سوليدس ذهبي = 24 سيليكيا.
- **قيصر** Caesar: شخص يساعد الاوغسطس في ادارة مقاطعته، وكانت تربطه به رابطة القربى بالتبني وتؤهله صفاته الشخصية لتبوأ المراكز العالية في الادارة.



12. المراجع

1- جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الاوروبية وحضارتها، دار المعرفة الجامعية، 1988م.

2- ج.ج. كولستون، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1983م.

3- ج. كرمب، أ. جاكوب، تراث العصور الوسطى، ج2، مؤسسة جل العرب، مصر، 1965م.

4- رأفت عبدالحميد، الدولة والكنيسة، ج2، دار المعارف، ط2، مصر، 1982م.

5- سعيد عبدالفتاح عاشور، اوروبا في العصور الوسطى، ج2، النهضات والحضارة والنظم، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1986م.

6- ستيفن رنسمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالقادر جاويد، وزكي علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1967م.

7- عبدالوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، ج7، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.ت.

8- ول ديورانت، قصة الحضارة، ج42، بيروت، تونس، 1408هـ، 1988م.

9- نبيه عاقل، الامبراطورية البيزنطية، دمشق، 1969م.

10- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصور الوسطى، دار المعارف، ط3، د.ت.

5

الوحدة الخامسة

الحضارة العربية الإسلامية

محتويات الوحدة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

أهلا بك، عزيزي الدارس، في الوحدة الخامسة من مقرر "الحضارة البشرية ومنجزاتها" وهي بعنوان "الحضارة العربية الإسلامية". إن الهدف من هذه الوحدة أن تتعرف من خلالها على الأطر التاريخية للحضارة العربية الإسلامية والتجلّيات الفكرية لهذه الحضارة وعلاقتها بالحضارات القديمة من طرف أول وتأثيرها في الحضارة المسيحية الأوروبية من طرف ثان.

عزيزي الدارس، وكما هو الحال في الوحدات السابقة، سأورد لك هنا أيضا مجموعة من التدريبات والأنشطة وأسئلة التقويم الذاتي، إضافة إلى أسئلة التعيينات الخاصة بالوحدة، إن كل ذلك سيعينك إن تفاعلت معه على فهم الوحدة وتحقيق الأهداف المرجوة من دراستها، أهلا بك في وحدة الحضارة العربية الإسلامية راجيا لك الاستمتاع والتوفيق.

2.1 أهداف الوحدة

عزيزي الدارس، ويتوقع منك، وبعد دراستك لهذه الوحدة أن تصبح قادرا على أن:

1- تتعرف على السمات الإنسانية والقيم الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية.
2- تتبصر الأطر التاريخية للحضارة العربية الإسلامية وبمنجزاتها المختلفة.
3- تتعرف على علاقة الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات القديمة كالهندية والفارسية واليونانية.
4- تعي تأثير الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة المسيحية الأوروبية في العصور الوسطى والحديثة.
5- تتعرف إلى مرتكزات النهضة العربية والإسلامية الحديثة.

3.1 أقسام الوحدة

تشتمل هذه الوحدة على خمسة أقسام هي:

القسم الأول : الأطر التاريخية للحضارة العربية الإسلامية وعلاقتها بالحضارات القديمة: الهند، فارس، اليونان، ويرتبط بالهدف الثاني.

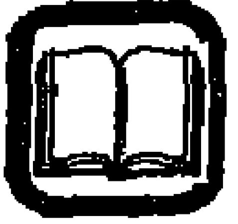
القسم الثاني : التجليات الفكرية للحضارة العربية الإسلامية: اللغة والأدب، العلوم الدينية، العلوم الوضعية.

القسم الثالث : التجليات العلمية: المؤسسات والنظم والتقنيات، ويرتبط هذان القسمان بالهدف الأول.

القسم الرابع : آثار الحضارة العربية الإسلامية في الغرب ويقظة الوعي الذاتي الأوروبي، ويرتبط بالهدف الثالث والرابع والخامس.

القسم الخامس : نصوص مختارة من: الكندي، جابر بن حيان، ابن سينا، الماوردي، البيروني، ابن خلدون.

4.1 القراءات المساعدة



عزيزي الدارس، ومن أجل التوسع في دراستك لهذه الوحدة، أنصحك بالمراجع التالية وذلك لاتصالها القوي والمباشر بموضوع الوحدة، ومما لا شك فيه أن انتفاعك بهذه المراجع سيجعلك قادرا على استيعاب ما جاء فيها من معلومات: كما سيعمق فيك القدرة على التصور والتحليل والاستنتاج:

1- آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي، 2ج، ط4، بيروت، لبنان، 1387هـ-1967م.

2- أحمد أمين، ضحى الإسلام، 3ج، القاهرة، 1953م.

3- ن. بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية، ترجمة حمزة طاهر، القاهرة، دار المعارف، 1943م.

4- حسين مؤنس، عالم الاسلام، دار المعارف بمصر، 1975م.

5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة

عزيزي الدارس، وقبل أن تبدأ في دراسة الوحدة أنصحك بأن تهيئ لنفسك مكاناً هادئاً ومريحاً، وأن تقرأ قراءة الناقد لما يقرأ، وأن تقوم بحل الأنشطة والتدريبات وأسئلة التقويم الذاتي لأن كل ذلك يساعدك على استيعاب ما في الوحدة من مادة.

حاول، عزيزي الدارس، أن تقرأ في المراجع التي أشرت بها عليك لتوسع اطلاعك، مع امنياتي لك بالاستمتاع فيما تقرأ.

2. الأطر التاريخية للحضارة العربية الإسلامية وعلاقتها بالحضارات القديمة الهند، فارس، اليونان

عزيزي الدارس، تعلم أن الحضارة العربية الإسلامية قامت على أساس رسالة سماوية خالدة هي الاسلام، ومن هنا كانت أسس تعاليمها الكبرى مأخوذة من القرآن الكريم ومن أقوال الرسول عليه السلام وأعماله. فهي والحالة هذه حصيلة تاريخ المسلمين على أرضهم، وهي كيان انساني عام وشخصية معنوية فيها جانب التراث إلى جانب الحياة القائمة لخير الاسرة البشرية جمعاء ووضعها في مقام الخلافة في الأرض.

لقد فتح العرب المسلمون خلال فترة قصيرة نسبيا بلادا واسعة الأرجاء، امتدت حدودها من الصين شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا، واختلطوا بسكان هذه البلاد اختلاطا سياسياً واجتماعيا وثقافيا، فحصل تمازج قوي بين ثقافات البلاد التي أصبحت تضمها رقعة الامبراطورية العربية، وقد أدى هذا التمازج إلى نشوء حضارة جديدة أصبح يطلق عليها: الحضارة العربية الإسلامية.

قامت الحضارة العربية الإسلامية على أصل جوهري هو الإسلام، وتأثرت بروافد شتى من الثقافات الإنسانية منها:

1- الثقافة العربية.

2- الثقافة الهندية.

3- الثقافة الفارسية.

4- الثقافة اليونانية والاغريقية.

وفيما يلي نبذة عن كل منها:

أولاً: الاسلام

وهو عقائد وأعمال: فالعقائد تدعو إلى الايمان بإله واحد لا شريك له هو رب العالمين، وبالبعث بعد الموت، وبالثواب والعقاب في الدار الآخرة، وبالجنة والنار يوم الحساب، وبكل ما ورد في كتب التوحيد. ان الأعمال منها أعمال تنزل منزلة العقائد وهي: الصلاة، والصوم، وحج بيت الله من استطاع إليه سبيلاً، ومنها أعمال تتصل بالأخلاق والآداب العامة، وهي التي تحث على التمسك بالخصال الحميدة وآداب اللياقة في معاملة الناس، والوفاء بالوعد والصبر في الشدائد واقامة العدل وعفة النفس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها أعمال هي عبارة عن تطبيق لما جاء في الشرع خاصا بتنظيم أحوال الأسرة وتوطيد دعائمها، ثم المعاملات التي تجري بين الناس في حياتهم ا لعامة سواء في زمن السلم أم في فترة الحرب. وبذلك كان للاسلام أثر بالغ في الحياة الفكرية عند العرب، وبفضله نشأت بين المسلمين من عرب وغيرهم علوم التفسير والحديث والفقه، والسير، والمغازي، وعلم التاريخ، والاسلام يحث على النظر والتفكير في الكون الذي نعيش فيه، وفي ظواهره المختلفة فأدى ذلك إلى الاشتغال بالعلوم الكونية على اختلافها، وهي الجغرافيا والكيمياء والفيزياء والفلك والطب والرياضيات، كما أن حياة المسلمين انطبعت بطابع الدين الاسلامي، سواء أفي نظمهم العامة السياسية والادارية والمالية وأحوالهم الخاصة والعامة أم في فنونهم وآدابهم.

فالاسلام هو الينبوع الأول للثقافة الاسلامية وهو الذي انطبعت عليه حياة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، سواء أفي نظمهم العامة أم في أحوالهم السياسية والادارية والمالية. بل في فنونهم وآدابهم وكل ما يتصل بحياتهم العامة والخاصة. إن فترات الضعف والانحلال التي أصابت الدولة الاسلامية ليس مرجعها إلى الدين وانما إلى ضعف المسلمين أنفسهم وخروجهم عن تعاليم القرآن الكريم والسنة المحمدية السعيدة.

ثانياً: الثقافة العربية

ومما لا شك فيه، عزيزي الدارس، أن العرب هم العنصر الفعال في الدولة الاسلامية فهم مادة الاسلام. ولهؤلاء العرب ثقافة انفردوا بها عن غيرهم من الشعوب

وتميزوا بها عن سائر الاجناس. وأضرب لك مثلا على ما ذهبت اليه فأقول: ان حرص العرب على التمسك بأنسابهم قد أدى إلى قيام علم الأنساب لمعرفة أنساب القبائل والأفراد، وظهرت بذلك طبقة من النسابين لمعرفة أنساب القبائل. كما ظهرت في الأنساب كتب كثيرة ومن أمثلة هذه الكتب: كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي (ت-456هـ)، كما اهتموا بنسب الخيل كذلك ومن أشهر كتبهم في هذا المجال: كتاب نسب الخيل لابن الكلبي (ت-204هـ).

وللعرب في الجاهلية شعراء كانوا حملة لواء الشعر العربي على العموم وهذا الشعر فوق كونه الفن العربي الممتاز كان كذلك ديوان أخبارهم وسجل أحداثهم وكنز لغتهم وبلاغتهم. كما أن للعرب حظا موفورا من الأمثال والكلم الجامعة يوردونها في المناسبات، وقد عني العلماء بجمع هذه الامثال العربية في كتب خاصة، وما زلنا نتلمس الكثير منها في كتاباتنا وأحاديثنا، ومن أشهرها كتاب الأمثال للميداني (ت- 518هـ)، كما عنيت طائفة أخرى من العلماء بأيام العرب في الجاهلية وتاريخ ممالكهم قبل الاسلام. وفتوحهم العظيمة بعد أن أضحوا مسلمين ككتاب تاريخ الرسل الملوك لمحمد بن جرير الطبري (ت- 310هـ) مثلا. أضف إلى كل هذا ما اتصف به العرب من الشجاعة والأنفة من الضيم وحفظ الجوار واحترام المرأة واكرام الضيف. كل هذه الآداب شاعت في المجتمع الاسلامي حتى بعد ذهاب نفوذالعرب السياسي. وانتقل كل ذلك إلى اوروبا في أعقاب الحروب الصليبية فيما يعرف بنظام الفروسية.

ثالثا: الثقافة الهندية

عزيزي الدارس، كان المجتمع الهندي في القرن السابع الميلادي يمر بفترة انحطاط دينية، اذ كان يدين بالوثنية ذات الآلهة المتعددة، فتفكك من الناحية الخلقية والاجتماعية. كما كان المجتمع الهندي مجتمعا طبقيا، فالطبقات العليا تتمتع بامتيازات ترفعهم إلى مرتب الآلهة، وذنوبهم مغفورة وضرائبهم مدفوعة، في حين كان الكادحون منبوذين، وهم في مرتبة الحيوانات وعليهم الخدمة والعمل الوضيع، ولا يجوز ان يملكوا مالا.

كان الأطباء الهنود يعرفون خواص الأربطة العضلية ورتق العظام والجهاز اللمفاوي والضفائر العصبية واللفائف والأنسجة الدهنية والأوعية الدموية والأغشية المخاطية والمفصلية. (انظر سلامة صالح النعيمات وآخرون، ص 13)

ويبدو أنه وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان (ر) تم أول اتصال بين المسلمين والهند، وذلك حين أصدر الخليفة أمرا إلى والي العراق ليوجه من يستطلع ثغر الهند ويتعرف عليه، وتم ذلك، ثم تجدد الاتصال زمن علي (ر) حين أرسل قائدا على رأس حملة إلى الهند في عام 40هـ، حيث ظفر في أول الأمر وأصاب مغنما ثم استشهد.

وكأني بك عزيزي الدارس، ونحن في صدد الثقافة الهندية وعلاقة حضارتنا الاسلامية بها تريد أن تسأل عن الأرقام الهندية. وللاجابة على تساؤلك أقول: إنّ الأرقام في الهند كانت تسعة تختلف أشكالها وهي: 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9 وميزة هذه الأرقام أن ليس لها قيمة عددية مطلقة، وانما تتغير قيمها حسب المنزلة التي تكون فيها. فان كان الرقم 9 في رقم الآحاد فقيمته 9 وان كانت في منزلة العشرات فقيمته 90 وهكذا. ان لهذا الاكتشاف أثره في إحداث ثورة في نظام الأعداد، وزاد العرب على هذا استخدام الصفر أي الفراغ، وكان العالم العربي الخوارزمي (-328هـ) هو أقدم من كتب الحساب بالأرقام الهندية.

امتاز الهنود بالقصص الرمزية التي كانت تقدم النصائح والحكم بطريقة جذابة ومؤثرة، فأفادَ الأدب العربي من الألفاظ الهندية التي عربت، كالزنجبيل، والكافور، وكذلك من القصص الهندية، ونقلوا كتاب كليلة ودمنة إلى الفارسية ثم إلى العربية. ويري بعض الباحثين أن قصة السندباد ذات أصل هندي، كما اقتبس المسلمون الكثير من الأمثال الهندية. (انظر: أحمد أمين، ضحى الاسلام، ص 262)

اهتم ملوك المغول من المسلمين في الهند بالفنون المختلفة مثل: فن البناء والعمارة، وغلب الطراز الإسلامي المتأثر بالفن الايراني على مبانيهم، كما تأثرت هذه المباني بطابع البيئة الهندي وبذلك كان فن العمارة أحد مجالات الصهر والمزج بين العنصرين الهندي والاسلامي. (أنظر سلام صالح النعيمات وآخرون، ص 13)

ونتيجة لتفاعل الحضارة الاسلامية مع تلك الهندية نشأت الديانة السيخية التي حاول كبار دعاتها التوفيق بين الهندوسية والاسلام في شريعة واحدة. ويرى أن تعاليم البراهمة فيها كثير من الايمان بفكرة التوحيد، كما نتج عن ذلك ظهور اللغة الأردية التي هي مزيج من ألفاظ وأفكار فارسية وتركية وسنسكريتية، وتمثل ما كان من تعاون ثقافي بين المسلمين والهنود. (انظر سلامة صالح النعيمات وآخرون، ص 13)

رابعاً: الثقافة الفارسية

عزيزي الدارس، الفرس امة عريقة منذ القدم وهي ذات حضارة عظيمة ازدهرت زمن الدولة الساسانية، ونبغت في فنون السياسة والادارة والحروب ومظاهر الترف والرفاهية. كانت ديانتها "الزرداشتية" ولغتها الفهلوية مليئة بالأدب والحكمة. وعندما فتح العرب بلاد فارس وقوضوا عرش الأكاسرة، دخلت جماعات من الفرس في دين الاسلام وصاروا موالي للفاتحين العرب، وبدخولهم الاسلام نبذوا الزرداشتية والفهلوية وأقبلوا على الاسلام يدرسونه ويتعمقون في أحكامه، وعلى اللغة العربية يتعلمونها ويتزودون من آدابها. ولم يمض وقت طويل حتى أصبحوا هم أغلب القائمين على الحركة العلمية والتأليف في مختلف العلوم. وقد أفادت الحضارة الاسلامية من ذلك فوائد جمة، فكثير من الألفاظ الفارسية التي ليس لها مقابل بالعربية نقلت ميزاتها إلى اللغة العربية ودخلت في بنيتها. وكذلك فن الغناء الذي لم يكن للعرب منه حظ يذكر قبل الاسلام انتقل من الفرس إلى العرب في صدر الدولة الاموية. ونبغ كثير من موالي الفرس، أمثال: عبد الحميد الكاتب (ت- 132هـ) وابن المقفع (ت- 142هـ) والنسائي (ت- 130هـ) وبشار بن برد (ت-167هـ). وكلهم أدخلوا على النثر والشعر العربي أساليب وتعبيرات وأمثلة لم يعرفها العرب من قبل، ثم نشطت في العصر العباسي حركة تأليف الموالي في مختلفة العلوم الاسلامية على الاطلاق، ومن أهم العلوم التي أخذها العرب عنهم علم التاريخ. هذا ويمكن القول بأن الفرس قد أدخلوا على المجتمع الاسلامي آدابا ونظما جديدة مثل الزخرف في الملبس والمسكن وغير ذلك من النواحي. أما من ناحية التأثر بالمذاهب فتجدر الاشارة إلى أن كثيرا من الفرس لم ينسوا معتقداتهم القومية. فهناك من بقي متمسكا بها، وحاول أن يدخل عناصرها في الدين الاسلامي، وهناك من حاول التوثيق بينها وبين الاسلام ومن أمثلة ذلك انتشار الزرداشتية والمانوية والمزدكية وخاصة في العصر العباسي.

خامساً: الثقافة اليونانية

واليونان، عزيزي الدارس، أمة عريقة في مدنيتها منذ القدم؛ فقد بلغت شوطا بعيدا في الفلسفة والعلوم والفنون والآداب، وظهر منها أساطين الفكر في العالم القديم (ومنهم سقراط، وافلاطون، وارسطو) وقد عرفت ثقافتهم بالهلينية وانتشرت ثقافتهم عن طريق التجارة والاستيطان في بعض مناطق البحر المتوسط منذ العصور القديمة. وفي الشرق وعندما قام الاسكندر بحملته المشهورة، عمل على مزج الثقافة اليونانية بالثقافات الشرقية وسميت الحضارة الناتجة عن هذا المزيج بالهلنستية.

لقد عُرف اليونان بحياتهم الفكرية الخصبة في نواحي الفلسفة والطب والرياضيات والكيمياء والفلك والجغرافيا، وعلقوا يها وشرحوها، ثم أنشأوا المدارس لتعليم هذه العلوم، وبذلك انتشرت الثقافة والعلوم اليونانية في البلاد العربية الاسلامية.

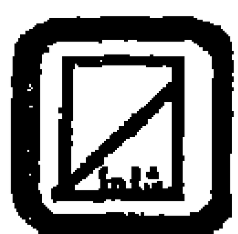
وفي القرون السابقة على مجيء الاسلام نقل السريان في الشام والعراق إلى لغتهم السريانية كثيرا من كتب اليونان في الفلسفة والطب والرياضيات والكيمياء والفلك والتقويم، وعلّقوا عليها وشرحوها، ثم أنشأوا المدارس لتعليم هذه العلوم في الحواضر الكبرى (ومنها انطاكية وقيصرية، ونصيبين والرها). كما قامت بالاسكندرية مدرسة لتعليم الطب اليوناني.

وبذلك انتشرت الثقافة والعلوم اليونانية في أقطار الشرقين الأدنى والأوسط بل جاوزتها على أيدي جماعة النساطرة إلى بلاد الهند نفسها. وفي العصر العباسي عهد الخلفاء ولا سيما المأمون إلى طائفة من السريان أن ينقلوا الكتب اليونانية المعتمدة في العلوم المذكورة إلى اللغة العربية وبذلك انتقلت الثقافة اليونانية إلى المسلمين.

ومما يجدر ذكره أن العرب لم ينقلوا شيئا من ملاحم الاغريق ومسرحياتهم العظيمة ذلك أن العرب اعتزوا بشعرهم، وربما صرفهم عن نقل هذه الآداب ايضا ما وجدوه فيها من ذكر آلهة اليونان وأساطيرهم مما ينبو عنه ذوق العربي المسلم في ذلك الزمان.

وبعد، فقد تسأل، عزيزي الدارس، عن تأثير الحضارة الرومانية في الحضارة العربية الاسلامية، إذ لم أشر إليها ابتداء. ولعلك تشاركني الرأي عندما تعلم أن تأثيرها كان ضئيلا جدا؛ ذلك أن نظرتهم للحياة، وعقائدهم الدينية لم ينبثق عنها أي علم أو فلسفة، أو أي عناصر إبداعية أو فكرية مجردة؛ لأنهم كانوا يسعون إلى هدف وغاية له قيمة مادية في نظر مواطنيهم، لذلك ينظر اليهم دائما كشعب نفعي. واقتصر تأثيرهم في الحضارة العربية الاسلامية على الناحية الفنية فقط. إذ أن العمارة في العصر الأموي تأثرت بالفن الروماني (البيزنطي)، وتذكر المصادر التاريخية، أن الخلفاء الأمويين استعانوا بالمهندسين والعمال البيزنطيين، في إنشاء المساجد والقصور، كما كانوا وسطاء في نقل الحضارة اليونانية إلى العرب.

نشاط (1)



اكتب تقريرا عن كتاب كليلة ودمنة وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (1)

ما هي الثقافات التي تأثرت بها الحضارة الاسلامية؟



أسئلة التقويم الذاتي (1)

لماذا لم ينقل العرب شيئا من ملاحم ومسرحيات الإغريق؟

3. التجليات الفكرية للحضارة العربية الإسلامية

لم يكن للعرب، عزيزي الدارس، في جاهليتهم علوم بالمعنى المفهوم، غير أنه كانت لهم معارف متنوعة اكتسبوها بالمشاهدة والتجربة أو اقتبسوها من جيرانهم: الفرس والروم والسريان. ومن هذه المعلومات البدائية عندهم: مباديء عن الطب ووسائل عن العلاج بطرق بسيطة، ومعلومات أخرى تتعلق بالظواهر الجوية وهو ما عبروا عنه بالأنواء، ومهاب الرياح، ومساقط الغيث، ثم معلومات فلكية تتصل بمواقع النجوم والكواكب السيارة وأوقات ظهورها وأفولها، كما اشتغلوا بعلوم العرافة والكهانة ومهروا في تتبع أثر الانسان والحيوان، والاستدلال بها على أصحابها، وهو ما يعرف عندهم بقيافة الأثر، وكذلك معرفة الفرق بين شخصين من النواحي الخَلْقِيّة والخُلُقِيّة. ولما جاء الاسلام انتقل العرب من هذه الحال البدائية، إلى حال جديدة، فتحت لهم آفاقا واسعة من العلم والمعرفة، وقد مهد لذلك أمران جليلان:

1- جمع القرآن من الصحف التي كتب فيها الوحي زمن الرسول (عليه السلام)، ومن صدور الرجال والحافظين لبعض آيات القرآن، ثم تدوينه في مصحف واحد أرسلت منه نسخ إلى الأمصار الكبرى. وبذلك أصبح للمسلمين نص واحد معتمد لكتابهم المبين يقرأونه ويتدبرونه دون اختلاف في نصه.

2- نمو الخط العربي:

لقد أخذ العرب، عزيزي الدارس، الخط أصلا عن الحيرة "القريبة من الكوفة" وهو ما يعرف بالخط الكوفي ثم أخذوا عن الأنباط خط النسخ، وبذلك لم يعد العرب أميين، بل أصبح كثير منهم يقرأ ويكتب وهو الأساس

لكل حركة فكرية عامة، فقد عني الدين الاسلامي بالعلم والدعوة إلى تحصيله، فالرسول الكريم (عليه السلام) فرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة ولا يستطيع أن يفدي نفسه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين (أنظر أبو عبيد، الأموال ص 170؛ ابن سعد، الطبقات، ج2، ص 18؛ محمود عواد، الجيش والقتال، ص 466). ولم يختص الرسول (عليه السلام) الرجال فحسب بالعلم والتعليم، بل انه كان يحرص على ان يكون حظ المرأة من ذلك موفورا، مصداقا لقوله عليه السلام: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة". وكان الرسول (عليه السلام) يحث الرجال أن يعلموا أهلهم وذويهم. وليس أدل على نصيب المرأة المسلمة من العلم من محاجة إحدى نساء المدينة لعمر بن الخطاب (ر) حين قام يخطب المسلمين ويحثهم على ألا يزيدوا في المهور؛ اذ قالت له تلك المرأة: وماذا تقول في قوله تعالى: «وأن آتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا» (سورة النساء/آية 20). فقال عمر: "أصابت امرأة وأخطأ عمر". وقد أفاد كثير من الصحابة من صحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنبغ منهم كثيرون صاروا من أهل العلم، وتفرقوا في الأمصار الاسلامية وقاموا بحركة علمية كبرى. كما التفّ حولهم تلاميذ أخذوا العلم عنهم وأذاعوه بين الناس، ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان بينهم كثير من الموالي.

كان من الطبيعي أن يأخذ العرب من علوم الأقطار التي امتدت اليها فتوحاتهم ما تَمَسُّ حاجتهم وان تنمو بينهم علوم اقتضاها الاسلام نفسه، فلما دخل كثير من الأعاجم في الاسلام وصاروا موالي في الدولة الاسلامية أقبلوا على الاشتغال بالعلم والتأليف. ونشأت من وراء ذلك حركة فكرية أخذت تقوى وتعظم حتى أصبحت في نهاية القرن الرابع الهجري أعظم الحركات في تاريخ الفكر الإنساني بوجه عام، وقد اتخذت لها مراكز إشعاع في الدولة الاسلامية في الأماكن التالية:

1- في الحجاز (مكة والمدينة).

2- في العراق (البصرة والكوفة بغداد).

3- في الشام (دمشق).

4- في مصر (الفسطاط والقطائع والقاهرة).

5- في شمال افريقية والأندلس (القيروان وقرطبة).

هذا، وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم والسنة، وبين العلوم التي أخذها العـرب من غيرهم من الامم (الفرس والاغـريق والرومان والهنود). وكان يطلق على العلوم الاولى الـعلوم النقلية (الشرعيـة)، وعلى الثانية العلوم العـقلية (الحكمية).

وسنعرض فيما يلي، عزيزي الدارس، إلى كل من اللغة والأدب، والعلوم النقلية (العلوم الدينية) والعلوم الوضعية (العقلية الحكمية).

1.3 علوم اللغة والأدب

1.1.3 علم النحو

لقد اختلط العـرب الفاتحون، عزيزي الدارس، بسكان البلاد المفتـوحة، وما لبث الدين الاسلامي أن غدا دين الغالبية العظمى من السكان وما لبثت اللغة العربية أن طغت على سائر اللغات المحلية وسادت عليها وأصـبحت الأداة لنشر الثقافة والحضارة بين هذه الأمم المختلفـة. ولما لم يكن في مقدور هذه الأقـوام الأعجميـة المختلفة التي أصـبحت العربية لغتـها أن تنطق بها كأهلها بالسليقـة فقد فشا اللحن والتصـحيف والتحريف في سكان المدن والموالي، وما لبث أن وصل إلى بيـوت الخلفاء والامراء، مما أدى إلى وضع علوم اللغة المختلفة، حفاظا على لغة القـرآن من الضياع والوقوف في وجه التيار العامي الذي اتجهت اليه اللغة.

وأول ما فشا اللحن كان في أهل المدينة لكثرة ما ورد اليها من أسرى الحرب، وما لبث ان انتشر في العراق وسائر البلاد المـفتوحة. ويذكر أن علي بن أبي طالب (ر) كان أول من فكر بوضع قـواعد نحويـة للغة حتى لا يخـطيء بها الأعاجم، وعـنه أخذ أبو الأسود الدؤلي (ت- 69هـ)، الذي وضع أساس مدرسة البصرة في النحو، والذي يعتبر أول من اشتغل بالنحو في العهد الاموي.

نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صـارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول الهجري، وفيـهما نشأت مدرسة النحويين واللغويين، ومن علمـاء البصرة الأفذاذ أبو عمرو بن العـلاء، والخليل بن أحمد (ت- 170هـ) واضع علم العروض وصاحب كتـاب (العين) الذي يعتـبر أول مـعجم وضع في اللغة الـعربية مـرتبا حَسْبَ الحروف الهجائية. ثم سيبويه (ت- 180هـ) الفارسي ويعرف كتابه باسم كتاب سيبويه وهو نتيجة مجهود عظيم جامع لقواعد اللغـة العربية حتى قيل في ذلك: "انه لا بد أن يكون ثمرة

جهـود متـضافـرة لكثير من الـعلماء". ومن هؤلاء العلمـاء كذلك: الاصـمعي (ت- 216هـ) والمبرد (ت- 286هـ) صاحب كتاب الكامل.

ومن أشهـر علماء الـكوفة: الكسـائي مهذب ولـدي الرشيد: الأمـين والمأمون، وكـذلك كان من علمـائها الـفراء تلمـيذ الكسـائي، والمفـضل الضبي صـاحب كتـاب المفضليات.

لقد تطـور علم اللغة في العـصر العبـاسي الثاني تطورا مـلحوظا بارتقـاء النحو وتنظيم المعاجم، وقـد ظهرت فيه مـجموعة كبـيرة من اللغويين والنحويين، فـقد نشط علماء اللغة في القرن الثالث الهجري لاستكمال ما فات من نقص في كتاب العين الذي وضعه الخليل بن أحمـد، كما وضعوا المعاجم الواسعة وساروا فـيها على طريقة ترتيب الحروف حسب المخارج الصوتية والابتـداء بحروف الحلق، وأولها حرف (العين) فنشأ ما يسمى كتـاب اللغة لابن دريد (ت- 321هـ) وكان إمـاما في اللغة وأديبا بارعـا يقرض الشعر وينظم النثـر، وهو أول من اخترع المقامات في اللغة العـربية وممن ألف في اللغة معجمـا واسعا: أبو علي القالي (ت- 356هـ) في كتابه: الأمالـي. ومن أشهر علماء اللغـة في القرن الرابع الهـجري على الاطلاق: اسـماعـيل ابن حمـاد الجوهري (ت- 393هـ) صاحب كتاب الصحاح في اللغـة وقد سار على طريقة جديدة في ترتيب المادة اللغوية تقوم عـلى أساس الحروف الهجائيـة. وآخر علماء العرب في مـيدان اللغة هو: (محـمد بن أبي بكر الرازي (ت- 666هـ) الذي لخص معجم الصـحاح للجوهري في كتاب سماه مختار الصحاح.

عزيزي الـدارس، وتجدر الاشارة إلى أن الأحـرف العربيـة كانت بلا شـكل وقد وضعت في القرن الأول الهجري، كما أنها كانت بلا تنقيط فكلمة خير مثلا تقرأ حير، جيـر، جبر، خـبر . . الخ. ويذكـر أن الحجاج بن يوسف الثـقفي هو من أمـر بتنقيط المصحف، وقام بهـذا العمل تلميذه أبو الأسـود الدؤلي وكاتبا الحجـاج وهما: نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر.

هذا وقد أخذ العلماء يفرقون بين الكلام الفصيح والبليغ وغيره ليمنعوا الناس من الاسفاف في كـلامهم، فألف أبو عبيدة مـعمر بن المثنى كتاب: (مـجاز القرآن)، وألف الجاحظ كـتاب: (اعجاز القـرآن) وكتاب (البـيان والتبـيين)، وألف أبو هلال العسكري كتاب (الصناعتين) ثم جاء عبد القادر الجرجاني ووضع كتاب: (دلائل الاعجاز) وكتاب (أسرار البلاغة)، ووضع السكاكي كتابه: (مفتاح العلوم).

كما وضع العلماء أوزاناً وبحوراً للشعر حيث بدأ الخليل بن أحمد بهذا فحصر أوزان الشعر في خمسة عشر وزناً سماها بحوراً، وأتم عمله الأخفش اذ زادها بحراً، وبقي الأمر هكذا.

2.1.3 علم الآداب

لم يهتم العرب بدراسة الأدب في صدر الاسلام لانشغالهم بالحروب الأهلية التي استنفذت كل مجهوداتهم، غير أن الروح الأدبية في هذا العهد سارت على ما كانت عليه في الجاهلية، فلم يتعد الأدب دائرة الشعر تقريبا، فكان شعراء هذا العصر لا يزالون على ما كان عليه من سبقهم في الجاهلية. فان قرأت - عزيزي الدارس - قصيدة لشاعر من أنصار الدعوة الاسلامية ألفيتها لا تكاد تخرج عما كان يمدح به الشعراء شيوخ القبائل في الجاهلية، ولو أنه زيد عليها الحديث عن الجنة والنار والحساب والبعث والنشور وما إلى ذلك من الأمور الدينية البعيدة عن العرب في جاهليتهم.

وقد اشتهر من شعراء المسلمين حسان بن ثابت (ت- 54هـ)، وكعب بن زهير (ت- 26هـ). ومن شعراء المشركين عبد الله بن الزبعري (ت- 15هـ)، وضرار بن الخطاب (ت- 13هـ)، وكعب بن الأشرف (ت- 3هـ) وغيرهم.

وفي عهد بني أمية حيث ظهرت الأحزاب المختلفة المتطاحنة واتسعت صدور الخلفاء للشعراء المادحين، وقلدهم في ذلك الحكام والولاة في الأقاليم المختلفة، وتغيرت الأحوال الاجتماعية وارتفعت الحياة العربية وارتفع مستوى الحضارة المادية نشأ اثر ذلك كله وفي بيئة العصر الأموي فنون من الشعر لم تكون معروفة من قبل لا سيما في الغناء والموسيقى. ومهما يكن من أمر فقد كانت نزعة الامويين جاهلية لا تميل إلى الفلسفة، بل يؤثر عنهم الشعر الجيد والخطبة البليغة، حتى ان بعض خلفائهم كيزيد بن معاوية (60-64هـ)، وعبد الله بن مروان (65-86هـ) قد أجادوا نظم الشعر، كما نبغ في عهد الامويين خارج الحجاز جرير (ت- 110هـ)، والفرزدق (ت- 110هـ) والأخطل (ت- 90هـ)، وكان الأخير مسيحياً، وكلهم من أهل العراق مولداً ونشأة.

وفي العصر العباسي (132هـ - 656هـ) ظهر كثير من الشعراء الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب، حتى فاقوا في كل ذلك من سبقهم من شعراء الجاهلية والإسلام، ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو نواس (ت- 198هـ)، وهو ممن أذاع القول في الغزل والخمر والصيد.

ويمثل الأدب في العصر العباسي الأول طائفة من الأدباء أشهرهم: عبد الله بن المقفع (ت- 142هـ) صاحب كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه عن الهندية القديمة، وهو أقدم كتب النثر في الأدب العربي. ومن أدباء هذا العصر عبد الحميد الكاتب (ت- 132هـ) الذي يعتبر شيخ الكتابة في عصره، والذي قيل فيه بدأت الكتابة بعبد الحميد ذلك أنه أحدث يها أموراً فنية لم تَكُنْ موجودة من قبل. ومن هؤلاء كذلك ابن قُتَيْبِيَة ت(-476هـ) وهو من خراسان ومن كتبه: عيون الأخبار، وكتاب الشعر والشعراء، وأدب الكاتب وهناك الجاحظ ت(-255هـ) ومن أشهر كتبه الحيوان، وكتاب البيان والتبيين، كما حاز الخوارزمي ت(-383) شهرة واسعة في ميدان الأدب وقصده الطلاب من كل حدب وصوب. وخلفه بديع الزمان الهمذاني (-398هـ) صاحب المقامات المعروفة والذي ذاع صيته في الأدب العربي.

أما عن شعراء العصر العباسي الثاني المشهورين فهم: أبو تمّام الطائي (ت- 231هـ) المشهور بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر، ثم تلميذه: البحتري (ت- 284هـ)، صاحب الأوصاف البديعية، وابن الرومي (ت- 283هـ) المعروف بغزارة شعره وعجيب تصوراته، وأبو العتاهية (ت- 211هـ) الذي اشتهر بالغزل الرقيق، ثم المتنبي (ت- 354هـ) شاعر أهل زمانه.

وبعد، فان من أعظم شعراء هذا العصر، المعري، والشريف الرضي، وقد قيل يوما لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر: أبو تمام، أم البحتري، أم المتنبي؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وأما الشاعر البحتري، وقال عن شعر البحتري: "هذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة، والسهل الممتنع، فلله دره، ما أسلس قياده وأعذب ألفاظه، وأحسن سبكه، وألطف مقاصده، وليس فيه من الحشو شيء بل جميعه نخب". ومعروف أن للبحتري ديوانا مشهورا وتستطيع عزيزي الدارس الرجوع اليه ان شئت لتتذوق منه أروع المعاني وتستمد منه أعذب الألفاظ.

2.3 العلوم الدينية (النقلية)

وتشمل علم القراءات، وعلم التفسير وعلم الحديث وعلم الفقه. وسأوضح لك، عزيزي الدارس، كلا من هذه:

1.2.3 علم القراءات

ويعتبر علم القراءات المرحلة الأولى لتفسير القرآن الكريم. ومن الذين اشتغلوا به: عبد الله بن عباس (ت- 68هـ)، وعائشة بنت أبي بكر (ر) (ت- 58هـ)، وعثمان

بن عفان (ر) (23-35هـ)، وعبـد الله بن مسـعود (ت- 32هـ). ومما يجـدر ذكره أن القـرآن نزل في نيف وعشـرين سنة، فكانت تنزل الآيـة أو الآيات على الرسول (عليـه السـلام) كلما دعت الحـاجة لذلك، ثم يقـوم الصحـابة بكتابتـها على سـعف النخل، والرقـاع، وقطع الأديم، وعظام الشاة والابل وأضـلاعهـا. فلمّا مـات الرسول (علـيه السلام) وقامت حروب الردة وقتل أكثر القراء مـن الصحابة (وخاصة يوم اليمامة)، هال هذا الأمـر عمـر بـن الخطـاب (13-23هـ) وأشار على أبي بكر الصديق (11-13هـ) أن يجمع القرآن، فاسـتجاب لذلك وأمر زيد بن ثابت (ت- 45هـ) وهو من كتاب الوحي بجمـعه من الرقاع ومن صـدور الرجال. وعقب الانتـهاء من تبليغ القرآن حـفظته هذه الصحف عند أبي بكر ثم انتـقلت إلى عمر بن الخطاب، ولما مـات حفظته حفـصة بنت عمر (ت- 45هـ).

وعندما ظهرت الاخـتلافات في القراءات في عـهد عثمان (ر). جـمع الصحابة وأخبرهـم بهذه الاخـتلافات ورأى أن يدون مصحفا واحـدا، ووكل أمر هذه العملية إلى زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير (ت- 73هـ)، وسعيد ابن العاص (ت- 59هـ) وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام (ت- 43هـ)، ومنها نسخت أربعـة مصاحف ارسلت إلى الأمصار الاسلامية ثم احرقت الرقـاع الاخرى، حتى لا يفتح الباب بعد ذلك للزيادة أو النقصان في كلام الله سبحانه وتعالي. خاصة بعد اختلاط العرب بأهالي البلاد المفتوحة التي اختلـفت لغاتها وتبـاينت لهجـاتهم. ولولا هذا المجهود الـذي قام به عثـمان (ر) لتعـرض القرآن الكريم إلى مـا لحق الكتب السمـاوية الاخرى من التـبديل والتـحريف ولضـاع إعـجازه وتلاشى بيـانه، وصـدق قـوله تعـالى: "انا نحن نزلنا الذكـر وانا له لحافظون" (الحجر، 9).

2.2.3 علم التفسير

عزيزي الدارس، وان كانت لغـة القرآن الكريم هي اللغة العربية فقـد كان العرب متـفاوتين في درجة استـيعابهم لمفـردات اللغة وتراكيبـها. والى جانب الايات الكثـيرة الواضحـة البينة، التي يفهمـها كل من له المام باللغة العـربية كتلك التي تتـعلق باصول الدين وأصول الأحكام، كانت توجد آيات أخرى يصعب على العامـة فهمها ويحتاجون إلى تفسـيرها. كمـا تجدر الاشارة إلى أنه بسـبب دخول الكثـيرين من غيـر العرب في الاسـلام، برزت حاجـة هؤلاء إلى من يفسـر لهم معـاني القـرآن ولهذا كله نشـأ علم التفسير.

روي عن عائشة (ر) أنها قالت: «لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يفسر شيئا من القرآن الا آيات تُعد علمهن اياه جبريل». فلما اتسعت الدولة العربية ودخل العجم الاسلام دعت الحاجة إلى فهم آيات القرآن الكريم، وأخذ بعض كبار الصحابة أمثال علي بن أبي طالب (ر)، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب يفسرون القرآن اعتمادا على ما سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم أو بحسب ما وصل اليه فهمهم، ويعتبر هؤلاء بحق مؤسسو التفسير في الاسلام، وحذا حذوهم بعض التابعين.

عزيزي الدارس، لقد اتجه المفسرون في تفسير القرآن إلى اتجاهين:

أولهما: التفسير بالمأثور (النقل): وهو ما أثر عن الرسول (عليه السلام) وكبار الصحابة. وثانيهما: التفسير بالرأي (الاجتهاد) وهو ما كان معتمدا على العمل اكثر من اعتماده على النقل. على أن النوع الأول من التفسير قد اتسع على مر الزمن بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الاسلام. كما كان المفسرون يتخذون الشعر أحيانا مرجعا للتفسير في استعمالاته اللغوية، وعن أبي العباس قوله: «إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فان الشعر عربي». وكان التفسير في صدر الاسلام عبارة عن تفسير لآيات مبعثرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات اللهم الا تفسير ابن عباس. أما الطريقة المنظمة في تفسير القران فانها لم تظهر الا في العصر العباسي، ومن أشهر مفسري هذا العصر: محمد بن اسحق (ت- 151هـ)، وغيره الا أن معظم هذه التفاسير ضاعت ولم يصل الينا شيء منها الا ما كتبه محمد بن جرير الطبري (ت- 310هـ) في تفسيره المشهور، وكذلك تفسير القرطبي (ت- 463هـ).

ويعتبر القران الكريم من أهم المصادر التاريخية ولا سيما في الحديث عن السيرة النبوية ثم تاريخ الامم القديمة كدولة سبأ في اليمن. كما ورد في سورة النحل وسورة سبأ. وتاريخ اليهود في سورة البقرة، ثم صراعهم مع الرسول (عليه السلام) في سورة الأحزاب إلى غير ذلك. فكلام الله سبحانه وتعالى هوخير تفسير لحياة البشرية في الماضي والحاضر والمستقبل والذي أرشد الناس في مختلف العصور إلى طريق الهدى والرشاد.

3.2.3 علم الحديث

وهو ما أُثِرَ عن النبي (عليه السلام) من قولٍ أو فعل أو تقرير لشيء رآه، ويأتي

في الأهمية بعد القرآن الكريم، فهو بذلك المصدر الثاني للتشريع الاسلامي وتجدر الاشارة إلى أن الصحابة الاوائل خشوا من أن يجمع الحديث في كتاب واحد، فيشتغل الناس به عن القران الكريم. وكان لعدم تدوين الحديث في عهد مبكر أن استباح قوم لانفسهم وضع الحديث ونسبته إلى الرسول (عليه السلام). وقد كان من أهم أسباب ذلك: الخصومة السياسية، والخلافات الكلامية والفقهية والتقرب من ذوي النفوذ ومتابعة هوى الامراء والخلفاء، ومغالاة البعض في تخويف الناس وترهيبهم من الحرام، أو تشجيعهم وترغيبهم بالفضائل، ومغالاة الناس في عدم قبولهم للعلم أو الدين إلا ما اتصل بالكتاب والسنة...». وقد اتبع علماء الحديث إزاء ذلك طرقا عدة للتمييز بن صحيحه وموضوعه، منها التثبت من الاسناد والتجريح والتعديل وغير ذلك، ومن أعظم رواة الحديث هؤلاء الذين كانوا أكثر اتصالا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهرهم عائشة (ر)، وعمر بن الخطاب (ر) وأبي هريرة (ت- 59هـ). ومن المعروف أنه وعند وفاة الرسول عليه السلام لم يكن السواد الأعظم من العرب يستطيعون القراءة والكتابة، حتى أن تاريخ هذه الامة لم يدون الا بعد زمن طويل. وقد روى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض وتأثرت بشيء غير قليل من التبديل والتحريف مما أدى إلى الغموض والابهام، كما شوهت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها أو قولها.

وفي القرن الثاني للهجرة أخذ العرب يدونون الأحاديث النبوية، ويعتبر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99-101هـ) ممن لهم الفضل الأول في تدوين الاحاديث الصحيحة، فقد وكل الأمر إلى نفر ممن يوثق بهم في جمع الأحاديث، ثم دونت في دفاتر وأرسلت منها نسخ إلى أنحاء الدولة الاسلامية. ومن أئمة الحديث في القرن الثالث الهجري الامام مالك بن أنس (ت- 179هـ)، والامام محمد بن اسماعيل البخاري (ت- 256هـ)، ومسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت- 261هـ) والامامان هما صاحبا الصحيحين المشهورين الذائعين في بلاد الاسلام، ويقال إن البخاري جمع ما يقرب من أربعة آلاف حديث اختارها من ثلاثمائة ألف على رأي الرواة، وهذا يدل على أمانته في نقل الأحاديث الصحيحة، وقد استغرقت رحلات البخاري ست عشرة سنة، وكان رحمة الله محدثا ممتازا وقد اشتهر بقدرته النادرة على التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة ولذا يعد كتابه (الجامع الصحيح) المصدر الأول للأحاديث النبوية.

أما مسلم فـهو من أهل نيسابور (من بلاد مـا وراء النهر)، وقد امتاز كـالبخاري بكثرة رحلاته في طلب العلم، فرحل إلى العراق والشام والحجاز، واجتمع مع البخاري في نيسابور وأفاد منه كثيرا، وعرف مصنفـه بصحيح مسلم أو المسند الصحيح وهو كثير السند بصحيح البخاري.

4.2.3 علم الفقه

والفقه لغة هو العلم بالشيء والفهم له، ثم غلبت على معنى العلم بالدين والفهم له قال تعالى: "فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليـتفقهوا في الدين" (سورة التوبة: آية 122) ثم غلبت هذه الكلمة على علم التشريع لأنه يتطلب فقها في الدين ومعرفة في الكتاب والسنة.

ان مصـادر التشريع الاسـلامي أربعة هي: الكتـاب والسنة والقياس والاجـماع. وكان أهل العراق أكثـر الناس عملا بالقياس ويبدو أن ذلك كان لكثرة مـا اعترضهم من مشاكل اجتمـاعية. وصار علماء القياس يبحثون في دقـائق الأمور وما وقع منها وما لم يقع حتى دعاهم البعض (الاراتيون) بينما كان أهل الحـجاز أكثر ما يكونون عملا بالسنة لكثرة علماء الحديث فـيهم، ولأن الرسول (عليه السلام) قضى حيـاته بينهم، ولبساطة الحياة عندهم بالنسبة لحـياة العراق المتحضرة، وكانوا كثيرا ما يـحجمون عن الفتوى في الامور التي لم يرد فيها نص في كتاب أو سنة بعكس أهل العراق.

لقد عمل كثير من العلماء المجتهدين على أن يكون لكل منهم مدرسته الخاصة في الفقـه، يتبعـه فيهـا من يثق به، ومن هؤلاء الحسن البـصري والاوزاعي والنووي وداود الظاهري والطبري، غير أن مـذاهبهم لم تنتشر كثيـرا بل اندثرت لأن غيرهم من الأئمة كانوا أكثر اجـتهادا وأكمل وضعا لأبواب الفقه وهم الذين عُـرفوا باسم الأئمة الأربعة. وأصبح السنيون جـميعا يتبعون أحد المذاهب الأربعة التي تبـلورت وتقاربت بدراسات تلاميذهم، وخلفوا لنا التراث الفقهي الاسلامي لأن للشـيعة أئمة غيرهم. وسأحاول أن ألخص لك - عزيزي الدارس - نبذة عن كل من هؤلاء الأئمة:

1- الشافعي (ت- 204هـ) عربي قرشي، درس على مالـك وأبي حنيفة، وجمع بين المذهبين بكثير من المسائل. ومن أشهر كـتبه رسالة في أصول الفقه: بيّن فيها ما يحـتاج اليه المجتهد ازاء القرآن وازاء الحديـث والاجماع وغير ذلك. وله كذلك كـتاب (الأم)، واسلوبه فيـه جدلي وفيـه كثير من الاسـتدلالات

بالحديث واستعـمال القياس. ومن تلاميذه: البـويطي والربيع المرادي وأحمد بن حنبل.

2- أحمـد بن حنبل (ت- 241هـ) فـقد عـاش في بغداد، وهو عـربي الأصل، رحل كثيرا في طلب العلم، واستكثر من الحديث. وله كتاب "المسند". وقد تعرض أيام المأمون للاضطهاد لعدم قوله بخلق القرآن.

3- مالك بن أنس (ت- 179هـ) عـربي الأصل، نشأ وتـعلم وألف في المدينة، فهو حجة في الحـديث، له كتاب (الموطأ)، ولقد انتشر مذهبـه فيما بعد في المغرب والأندلس.

4- أبو حنيفة فـقد ولد في عام 80هـ - وتوفي عام 160هـ، ومن أشهر تلامذته أبو يوسف قاضي القضـاة الرشيد وواضع كتاب الخراج، وكـذلك محمد بن الحسن الشيباني.

عزيزي الدارس، وفي كل بلد اسلامي تجد أتبـاعا للمذاهب الأربعة، الا أن أتباع المذهب الشافعي يكثرون في مصر وفي أندونيسيا وأتباع المذهب الحنبلي يكثرون في بلاد نجد والحجاز وهم أتباع المذاهب الأربعـة، في حين يكثر أتباع المذهب المالكي في الحجاز وشـمالي افـريقـية والسـودان، أما أتبـاع المذهب الحنفي فـيكثـرون في العراق والشـام والأناضول وآسيا الوسطى وشمال غرب الهند.

3.3 العلوم الوضعية

أما عن اشتغال المسلمين بهذه العلوم فيـبدو أنهم استمدوا معظم آرائهم وعلومهم من الثقافة اليـونانية التي كانت منتشرة منذ فتوحات الاسكندر في مـصر وسوريا وغربي آسيا.

ولم يكن لترجمة الكتب إلى العربية حظ كبير في عهد بني أمية - وكان خالد بن يزيد بن مـعاوية (ت- 90هـ) أول من عني بنقل علوم الطب والـكيميـاء إلى العربـية. واليك عزيزي الدارس أهم العلوم الوضعية عند العرب:

1.3.3 السير والمغازي (التاريخ)

اعــرف - عزيزي الدارس - أن العـرب تناقلوا كـثيـرا من أخـبارهم في الغـزو والحروب وأخـبار شجـعانهم وساداتهم، واطلعـوا على قليل من أخبـار الأمم المجاورة

باتصالهم بهم عن طريق التجارة. ولقد ذكر القران الكريم مادة غزيرة من أخبار السلف زادت مادتهم في معرفة التاريخ وبقي أمر التاريخ شفهيا تتناقله الألسن والروايات حتى كان عصر التدوين حيث اضطر العلماء لأن يستقصوا الأسباب التي نزل بها القرآن والمناسبات التي ذكر فيها الحديث، إلى ذكر هذه الحوادث وتسجيلها فأدى ذلك إلى نوع من تسجيل التاريخ عند المسلمين.

كان عبد الله بن شريه اليمني (ت- 67هـ) أول من سرد القصص والتاريخ. وعنه وعن زملائه روى المؤرخون المتقدمون رواياتهم التاريخية. كما اندفع العلماء إلى التفصيل في أعمال الرسول (عليه السلام) وغزواتهم وسيرته وسيرة أصحابه، ورواة الحديث وقيمتهم من حيث الأمانة في النقل فنشأ عن ذلك كتب السير والمغازي. ويروى أن عروة بن الزبير (ت- 93هـ) أقدم من ألف في السيرة النبوية. وتبعه في ذلك ابان بن عثمان (ت- 105هـ). وممن اشتغل بالمغازي محمد بن اسحاق (ت- 151هـ)، وتلميذه عبد الملك بن هشام (ت- 213هـ) والذي هذب السيرة النبوية لابن اسحاق فصارت تعرف بسيرة ابن هشام.

تطور علم التاريخ في القرن الثالث الهجري واتسعت مصادره ثم أخذ العلماء يبحثون عن البلدان المفتوحة وهل فتحت صلحا أم عنوة وذلك كي يعرفوا تقدير الخراج فيها فنشأ عن ذلك كتب الفتوح. ولعل البلاذري (ت- 279هـ) هو أول من سار في التاريخ على منهج ربط الحوادث بصورة متماسكة في كتابه فتوح البلدان. ثم حدث نزاع علمي أدبي سياسي بين العرب والموالي وظهرت الشعوبية فكان كل فريق يحاول أن يثبت أفضليته على الفريق الآخر، فعاد إلى تاريخ آبائه وأجداده فتوسعت مادة التاريخ، وتطرقت إلى ذكر الماضي بأنواع حوادثه.

وأقبل المسلمون في عصر النهضة العلمية (العصر العباسي) على العلوم جميعا اقبالا منقطع النظير، ولا غرو في ذلك فان النهضة العلمية الحقيقية قد وضعت أسسها في أواخر العصر العباسي الأول بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية. وكانت معرفة تاريخ الأمة العربية والاسلامية وغيرها من الأمم الأخري من جملة هذه المواد العلمية، فنما علم التاريخ نموا عظيما. والملاحظ - عزيزي الدارس - أن بعض المؤرخين في هذه الفترة، كانوا ينقلون الينا الروايات كما يسمعونها، دون تحقيق أو ابداء الرأي، وكان بعضهم يورد للحادثة الواحدة عدة روايات مختلفة باختلاف مصادرها. وهذا وان كان يخلق لدينا صعوبة في معرفة الحقيقة، الا أنه لا يخلو من

فائدة؛ اذ تبين من ذلك وجهات النظر المختلفة بالنسبة لاختلاف الروايات وخاصة فيما يتعلق بالفرق الاسلامية أو غيرها، كما أن كثيرا من المؤرخين، الذين كتبوا في العصر العباسي قد جاروا الخلفاء والأمراء في أهوائهم، فتعصبوا للعباسيين مثلا ضد الأمويين، وكان بعضهم يميل إلى التشيع أو إلى الشعوبية أو إلى احدى الفرق الدينية أو السياسية، وتظهر على كتاباتهم اثار التعصب لمذهبهم.

وقد زخر العصر العباسي الثاني بطائفة كبيرة من أعلام المؤرخين، ولا غرو في ذلك فان النهضة العلمية الحقيقية قد وضعت أسسها في أواخر العصر العباسي الأول بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية. ومن أشهر مؤرخي هذا العصر اليعقوبي (ت- 284هـ) والذي كان شيعيا متحمسا لعقائد الشيعة، ثم محمد بن جرير الطبري (ت- 310هـ) الذي يعتبر كتابه (تاريخ الأمم والملوك) من أمهات الكتب التاريخية منذ بدء الخليفة حتى مستهل القرن الرابع الهجري. كما يعتبر كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي) (ت- 345هـ) من أهم المصادر التاريخية في ذلك العصر. أما تجارب الأمم لمسكويه (ت- 421هـ) فهو من أهم الكتب العلمية، وتعتبر حوادثه مكملة لتاريخ الطبري، وقد عالج فيه الشؤون الاجتماعية والأحوال الاقتصادية، ولم يكتف كغيره بسرد الحوادث، وبذلك خطا التاريخ خطوة جديدة.

ومن المادة المتجمعة من الكتب السابقة وكثير غيرها استقى ابن الاثير (ت- 630هـ) كتابه المسمى: الكامل في التاريخ، وأبو الفدا (ت- 774هـ) كتابه المختصر في تاريخ البشر، وأخيرا ابن خلدون (ت- 808هـ) كتابه المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر.

عزيزي الدارس، وعلى العموم يمكننا تقسيم الكتب التاريخية العربية من حيث ترتيبها إلى قسمين:

1- الحوليات:

وتُعنى بترتيب الحوادث سنة بعد سنة.

2- التاريخ المتسلسل:

وتُعنى بسرد الحادثة أو تاريخ الدولة أو غيرها مثلا إلى النهاية ثم ينتقل إلى غيرها. أما تقسيم الكتب التاريخية بالنسبة للموضوع فهي كثيرة منها:

1- كتب السيرة:

وتعني بكتابة سير العظماء وأعمالهم وأهمها: كتاب السيرة النبوية لابن هشام والتي هذب بها سيرة ابن اسحاق. وتعتبر هذه أهم مصدر لنا عن سيرة الرسول عليه السلام.

2- كتب الطبقات:

وتعني بتقسيم الناس إلى طبقات مختلفة، وتذكر تاريخ مختلف الرجال وخاصة الذين نقلوا الحديث وذلك ليفيدهم في معرفة صحة نسبة الحديث إلى الرسول (عليه السلام) ومن هذه الكتب: كتاب الطبقات لابن سعد، وكتاب الطبقات لخليفة بن خياط، وكتاب أنساب الأشراف للبلاذري. ثم انتقلوا من طبقات علماء الحديث إلى طبقات غيرهم من الشعراء أو الادباء أو المحدثين أو الفقهاء أو النحاة أو العلماء أو الاطباء، أو المترجمين ومن أمثلة ذلك طبقات الشعراء لابن قتيبة، وطبقات الأطباء لابن أبي اصيبعة.

3- كتب التراجم:

وهي كتب تعنى بالترجمة للصحابة والخلفاء ولمشاهير العلماء المختلفين مثل وفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدباء لياقوت الحموي.

4- كتب المغازي والحروب:

وهي كتب تذكر غزوات الرسول (عليه السلام) والفتوحات الاسلامية المختلفة. ومن أمثلتها كتاب فتوح البلدان للبلاذري، وكتاب فتوح الشام المنسوب للواقدي.

5- كتب تاريخ البلدان:

وتعنى بذكر تاريخ مدينة أو قطر من أول نشأته حتى أيام كاتبه، ومن أمثلتها: كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي وكتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، وكتاب السلوك للمقريزي.

6- كتب تاريخ عام:

وهي كتب تبحث في التاريخ العام، وأكثرها يبدأ منذ الخليقة وينتهي بالعصر

الذي يعيش فيه المؤرخ. ومن أمثلتها: كتاب تاريخ الامم والملوك للطبري وهويرتب الحوادث فيه حسب السنين، وهناك كتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وكتاب العبر لابن خلدون.

2.3.3 تقويم البلدان (الجغرافيا)

عزيزي الدارس، مع أن كلمة جغرافيا غير عربية، حيث أقتبسها العرب عن اليونان في عصر الترجمة، الا أن المعلومات الجغرافية أخذت تتكون عندهم منذ خرجوا من جزيرتهم للفتح، فكان لا بد لهم من معرفة الطرق المؤدية إلى البلاد التي يقصدونها، ومعرفة طبيعة اقليمها وأرضها وخصبها وجدبها وأماكن الري فيها.

تعلم أن المسلمين بلغوا في أسفارهم للتجارة خلال القرنين الثاني والثالث من الهجرة بلاد الصين برا وبحرا وأقاصي سواحل افريقية الجنوبية ومدغشقر، وأوغلوا في روسيا شمالا، ووصلوا إلى سواحل المحيط الاطلسي غربا، وقد رجع اولئك التجار بكثير من أخبار الأقطار والشعوب التي زاروها، فأثارت هذه الاخبار رغبة واسعة في معرفة أحوال البلدان وشعوبها.

وكان لاتساع نطاق التجارة في العصر العباسي الأول، واتصال مدينة بغداد (حاضرة العباسيين) برا وبحرا بالبلاد القاصية، ثم لتعبيد الطرق وجعلها امنة، كل هذا كان له أثر كبير في تسهيل الاسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين. ومن أول هؤلاء الرواد المسلمين: سليمان التاجر، وهو من أهل الخليج العربي، اذ سافر غير مرة إلى الصين وسواحل الهند، ودَوّن وصف اسفاره في كتاب مشهور يعتبر أقدم كتاب في وصف الصين وسواحل الهند باللغة العربية، وقد وصلت رحلات المسلمين في عهد هارون الرشيد (170-193هـ) إلى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين والى كوريا.

لقد كان من نتيجة كثرة الأسفار والسعي لمعرفة أحوال البلدان، أن ظهر عند العرب المسلمين علم مسالك البلدان والأمصار، وعلم تقويم البلدان، واندمج هذان العلمان مع المعلومات الجغرافية التي عرفها العرب بعد ترجمة كتب اليونان، وأضيف الجميع إلى مجهودهم الجديد في الكشف والأبحاث الجغرافية، ونتج عن هذا كله علم الجغرافيا عند العرب.

عزيزي الدارس، ويمكننا أن نجمل الأسباب التي أدت إلى ظهور علم الجغرافيا، بالسفر لاستقاء المعلومات الأدبية والتاريخية من منابعها، وموسم الحج الذي يجذب اليه

في كل عـام آلاف المسلمين من جـميع الأقطـار، وكثـرة الطرق التـجارية، والغـزوات والحروب، والاهتمام بشبكة من الطرق الصالحة، والرحلات العلمية والبعثات الرسمية، واطلاع العرب علي كثير من الكتب اليونانية في عصر الترجمة.

لقد كانت الرحلات ظاهرة واضـحة جدا في العصور الاسلاميـة المختلفة، وكان للأسـباب الكثـيرة التـي ذكرناها، من حج وتجـارة وفتح وبـعثـات وطلب علم وطلب سياحة، أن وصلت الرحلات الاسلامية في عهد هارون الرشيد إلى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملاقا والصين والى كوريا عن طريق البحر، كما أن الباحثين عثروا على عدد كبير من النقـود العربيـة المختلفـة في حوض البلطيق، مما يـدل على أن التجـارة الاسلامـية وصلت إلى هذه البقاع، ورافقها بالطبع تجار من البلاد العربية.

ومن أشهر رجال العـرب الذين كتبوا عن رحلاتهم ووصفـوا البلاد التي مروا بها وطبيـعتها واقليـمها ومناخـها وأحوالها، فكانـت رحلاتهم عبارة عن وصف جـغرافي تاريخي اجتـماعي شامل: ابن جبـير الاندلسي (ت- 614هـ) صاحب كتاب رحلة ابن جبير الذي يصف فـيه رحلاته الثلاث خلال الحروب الصليبـية في الشرق. وابن بطوطة (ت- 779هـ) الذي خرج من شـمال افريقيـة وذهب شرقا إلى البلاد العـربية، وزارها جميعـا مع الأراضي المقدسة، ثم خرج إلى أراضي الدولة الرومانيـة وزار القسطنطينية، كما وصل برحـلاته إلى روسيا والى الهند الصيـنية وسومطرا، وكتابه "تحـفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" مشهور باسم رحلة ابن بطوطة.

ومن أشـهر جـغرافـيي العرب في العـصر العـباسي الأول: ابن خـرداذبة (ت- 280هـ) الفـارسي الأصل، وله كـتاب المسـالك والممـالك، والذي كان يعـتـبر دليـلا للمسافـرين في الاهتداء إلى الطريق البحري الذي يبدأ من مـصب نهر دجلة حتى الهند والصين. ومن جـغرافيي هذا العـصر كـذلك اليعـقوبي (ت- 284هـ) صاحب كـتاب البلدان، وقد قام برحلات طويلة إلى ارمينيا وايران الهند، ومصر وبلاد المغرب. وكذلك الهمـداني (ت- 334هـ) صـاحب كتـاب صـفة جـزيرة العـرب. وكـان أبـو الحـسـن المسعـودي (ت- 345هـ) مـن كبـار الرحالة المسلمين، ويقال أنه زار كل أرجـاء العالم المعروف في ذلك الوقت تقـريبا، وكتب معلومـات مناخية عن أحوال البـلاد والشعوب التي زارها.

عزيـزي الدارس، ومما يجدر ذكـره أن بعض المترجـمين العرب قـد نقلوا كـتاب الجغرافيا لبطليموس من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية في صدر الدولة العباسية فتأثرت

الجغرافية الاسلامية به تأثرا كبيرا وقد نسج على منوال بطليموس محمد بن موسى الخوارزمي (ت– 232هـ) والذي طلب منه المأمون (198-218هـ) أن يضع لكتابه مصورا جغرافيا، فكان هذا أول مصور جغرافي عربي للدولة الاسلامية وأقاليمها.

وقام الاصطخري (ت– 346هـ) في القرن الرابع الهجري بوضع كتابه المسالك والممالك ووضحه بالخرائط، ثم جاء ابن حوقل (ت– 380هـ) صاحب كتاب صورة الأرض، ويحتوي الكتابان على وصف دقيق لكل أجزاء العالم الاسلامي. وبعد ياقوت الحموي (ت– 626هـ) خاتمة كبار الجغرافيين الاسلاميين بالشرق العربي، وهو مؤلف كتاب معجم البلدان الذي يعتبر أعظم قاموس جغرافي في العصور الوسطى، ولا تزال قيمته العلمية والأدبية يحتفظ بها حتى وقتنا هذا. هذا وقد اعتنى أهل المغرب والأندلس عناية كبيرة بالجغرافيا والرحلات وظهر فيهم جغرافيون لا يقلون شأنا عن نظرائهم في الشرق العربي.

3.3.3 الفلسفة وعلم الكلام

عزيزي الدارس، لم يكن للعرب بل الاسلام فلسفة شبيهة بفلسفة الاغريق لأن طبيعة بلادهم كانت تدعوهم إلى الكفاح في سبيل الحياة. والانسان، كما يقول الفلاسفة، يجب أن يعيش قبل أن يتفلسف. ولكن بعد الاسلام وعندما دخل كثير من أتباع الديانات الاخرى ومن أجناس غير عربية في الاسلام وبدأوا بنقل الفلسفة الاغريقية وغيرها إلى المسلمين، أقبل المسلمون على الكتب الأعجمية يترجمونها ويدرسونها ويفسرونها ويعلقون عليها. وقد كانت الفلسفة الاغريقية وخاصة مذهب افلاطون الحديثة، أكثر ما جذبتهم إلى دراستها وتفهمها، وكان العلماء الذين بدأوا ينبغون في العصر العباسي الأول يلمون بأكثر من علم واحد، فكان أحدهم يشتغل بالرياضيات والفلك والتنجيم والكيمياء معا، كما أن كثيرا من أطبائهم كان يشتغل بالفلسفة وبالعلوم الأخرى، ولكن الرجل يعتبر عالما أو فيلسوفا أو موسيقيا اذا تغلبت هذه الناحية عنده على سائر العلوم الأخرى التي يتقنها.

وعليه فيمكننا اعتبار كثير من علماء العرب فلاسفة، وبخاصة في أول نشأة الفلسفة، ولكن المؤرخين العرب فيما بعد بدأوا يفرقون بين الفيلسوف وبين المشتغل بغيره من العلوم، مما يدلنا على أنهم حاولوا التفريق بين ذوي الاختصاص، ومهدوا السبيل للاختصاص العلمي، فتراهم مثلا لا يلقبون الغزالي بالفيلسوف، مع أنه قد اعتمد كثيرا على الفلسفة في طريقه التي اتبعها للبرهان المنطقي والاثبات العقلي لتعاليم الدين.

ومن أشهر من نبغ في الفلسفة في الاسلام:

1- الكندي (ت 256 هـ):

أبو يوسف يعقوب بن اسحاق، عربي الأصل من كنده، نشأ في الكوفة وتعلم في البصرة ثم في بغداد ونبغ في الترجمة، وأخذ في ترجمة الكتب الفلسفية اليونانية، ولم يذكر في عداد المترجمين لأنه لم يتكسّب من هذه المهنة، اطلع على آراء المعتزلة ورسائل اخوان الصفا وتأثر بها. ولم يكتف بترجمة أرسطو، بل انتقد بعضها وعلق عليها، وألف كثيرا من الكتب الفلسفية ولكنها لم تصلنا كما هي وانما اطلعنا عليها من بعض ما ترجم منها إلى اللغات الاجنبية في عصر النهضة الاوروبية، وما نقله من أتى بعده من الفلاسفة، وقد لقب بفيلسوف العرب.

2- الفارابي (ت- 339 هـ):

فارسي الأصل من خراسان، تنقل في امهات المدن الاسلامية ومكث مدة في دمشق، وأخذ الفلسفة في بغداد وحران، ويذكر ابن خلكان أنه قرأ ببغداد علوم الفلسفة، وتناول جميع كتب ارسطو، وتمهر في استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها. ويذكر أنه وجد كتابا لأرسطو وعليه مكتوب بخط أبي نصر الفارابي «اني قرأت هذا الكتاب مائة مرة». ولقب الفارابي فيلسوف الاسلام وبالمعلم الثاني، على اعتبار أن ارسطو كان يلقب بالمعلم الأول. ولقد اخترع الفارابي آله القانون في الموسيقى، وأقام فترة في بلاد سيف الدولة.

3- جماعة أخوان الصفا:

وهم جماعة سرية ذوو نزعة شيعية، وكانوا موضع عطف بني بويه في بغداد، واستطاعت هذه الجماعة أن تتم ما بدأه المعتزلة، وخاصة فيما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الاسلامية والفلسفة اليونانية وتوحيد الثقافة في صورة دائرة المعارف.

نشر اخوان الصفا عددا من الرسائل بلغت (51) رسالة، تبحث في كثير من النواحي الفلسفية، حتى أصبحت أشبه بدائرة معارف عامة، وتتعرض إلى الكلام عن الرياضيات والمنطق والطبيعيات. فترد كل شيء إلى النفس وما لها من قوى، وتنتهي أخيرا إلى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفي، ومن أشهر مؤلفي هذه الرسائل المقدسي والزنجاني والمهرجاني وزيد بن رفاعة.

4- ابن سينا (ت- 429 هـ):

وقد ذاع صيته في العصور الوسطى في الشرق والغرب في الفلسفة والطب، اشتغل بكثير من الوظائف الادارية في الدولة السامانية في بخارى، وقد اقتفى أثر الفارابي في بحث المنطق، وزاد عليه في أبحاثه في الإلهيّات، كما شرح الهيات أرسطو، وحاول ما استطاع أن يوثق بين فلسفته وعقيدة أهل السنة والجماعة، ولم يقيد نفسه بمذهب من المذاهب، بل كان يأخذ من كل مذهب بما يلائم تفكيره وميوله، ولقد أداه بحثه إلى اعتبار العقل هادي النفوس النافعة للانسانية، ومن أشهر كتبه: كتاب الشفاء الذي يعتبر موسوعة فلسفية كبرى حوت أقسام الفلسفة من منطق وطبيعيات والهيات، وقد ترجم إلى اللاتينية ومنها إلى بعض اللغات الاوروبية، وضاع أصله العربي، ويقال أنه كان في 18 مجلدا، والذي وصل الينا من هذه الكتب هو موجزه بقلمه ويسمى (النجاة)، وله كتاب: الاشارات، وفيه ينحو نحو الافلاطونية الحديثة في بحثه.

5- ابن ماجة:

وهو فيلسوف أندلسي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري في عصر دولة المرابطين، وأكثر كتبه كانت شرحا لمذاهب أرسطو، وله كتاب يسمى (تدبير المتوحد) وترجم إلى اللاتينية.

6- ابن طفيل:

عاش في عصر دولة الموحدين في النص الثاني من القرن السادس الهجري، ودرس علوم عصره من طبيعية ورياضية وأدبية، وكان طبيعيا حاذقا، أشهر كتبه: حي بن يقظان، ويفترض فيها حياة رجل وجد منذ نعومة أظفاره في جزيرة نائية، واستطاع بقوة عقله أن يكشف العالم العلوي، ويهتدي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، وخلود النفس، فشرح بذلك مذهب الافلاطونية الحديثة بصورة اسلامية.

7- ابن رشد (ت- 595 هـ):

أشهر فلاسفة الاندلس، وكان تلميذ ابن طفيل، وشرح كتب ارسطو ورد على الغزالي بكتاب (تهافت التهافت) وانتقد الفارابي ومنطقه، وقد اتهم بالزندقة لكثرة ابحاثه العقلية فأمر خليفة الموحدين باحراق كتبه الفلسفية جمعيها، واحتفظ له بكتبه الطبيعية والرياضية.

عزيزي الدارس،

لقد اعتمدت الفلسفة الاسلامية بصورة عامة على الفلسفة الاغريقية، وخاصة فلسفة أرسطو، كما اعتمدت على الافلاطونية الحديثة، وخاصة أن هذا المذهب انما نشأ وانتشر في الاسكندرية، التي أصبحت من أملاك العرب، وأخذ المسلمون منها ما يلائم واهتموا بناحية التوفيق بين الفلسفة والدين.

أما علم الكلام فالمقصود به تلك الأقوال التي تصاغ على نمط منطقي أو جدلي، وعلى الأخص المعتقدات الدينية. ويقول في ذلك الأمام الغزالي: (ت- 555هـ): "انما مقصود هذا العلم حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة". وكان من أثر ذلك أن أخذت كل فرقة تدافع عن عقيدتها وتعمل على دحض الأدلة التي وردت في عقائد المخالفين. وكانت المناظرات تعقد بين المتكلمين في قصور الخلفاء وفي المعاهد الدينية كالمساجد وبيوت الحكمة.

عزيزي الدارس،

كان المعتزلة هم مؤسسو علم الكلام، وهم الذين حملوا لواءه قرابة قرن ونصف قرن من الزمان (100-240هـ) ويرجع أصل المعتزلة إلى واصل بن عطاء (ت- 130هـ) الذي اعتزل مجلس استاذه الحسن البصري (ت- 110هـ) بمسجد البصرة لاختلافه معه في الرأي. والتف حول اتباع سموا بالمعتزلة. وقد نزل الاضطهاد بالمعتزلة أول الأمر زمن الدولة الأموية، غير أنهم أخذوا يعملون على نشر آرائهم بوسائل شتى حتى اعتنق مذهبهم الخليفتان الأمويان: يزيد بن الوليد (ت-126هـ)، ومروان بن محمد (ت- 132هـ) ثم انتشر الاعتزال من البصرة إلى سائر بلاد العراق، وصار له في العصر العباسي فرعان أحدهما بالبصرة نفسها بزعامة واصل بن عطاء، وثانيهما ببغداد بزعامة بشر بن المعتمر (ت- 210هـ). وقد استمد هؤلاء آراءهم من كتب المنطق والفلسفة اليونانية التي ترجمت في العصر العباسي الأول. وقد بلغ أولئك المتكلمون من المعتزلة قمة نفوذهم في عهد الخلفاء العباسيين: المأمون (198-218هـ) والمعتصم (227-218هـ)، والواثق (227-232هـ). ذلك أن المأمون أخذ بقولهم بخلق القرآن، أي أنه مرتبط بالحوادث التي اقتضت نزوله، وذلك ردا منهم على المحدثين والفقهاء الذين قالوا بأن القران كلام الله، وكلام الله قديم قدمه سبحانه وتعالى.

عزيزي الدارس، ونتيجة لهذا الجدل عظمت المحنة لمدة خمس عشرة سنة، ولم يضع حدا لها الا الخليفة المتوكل (232-247هـ) حيث نهى الناس عن الخوض في هذا الموضوع وأمرهم بالعودة إلى السنة والجماعة.

كان من أشهر متكلمي المعتزلة: أبو الهذيل العلاف (ت- 235هـ). الذي كان رئيس طائفة المعتزلة في زمانه. وقد ضعف مذهب المعتزلة عندما انفصل عنهم أحد كبرائهم وهو أبو الحسن الأشعري (ت- 333هـ). اذ عاد هذا إلى السنة والجماعة وحمل على المتكلمين من المعتزلة حملة شعواء فلم تقم للاعتزال أو لعلم الكلام قائمة بعد ذلك.

4.3.3 علم الكيمياء

عزيزي الدارس، ابتكر العرب في الكيمياء بعض التجارب القائمة على الملاحظة والمشاهدة والتجربة، وكان خالد بن يزيد بن معاوية (ت- 90هـ) أول من عني بنقل علوم الكيمياء إلى العربية، فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين بمصر وطلب اليهم أن ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية المنقولة إلى القبطية، والتي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية، بغية الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء. الا أن هذا لم يكن الدافع الوحيد لتقدم هذا العلم، لأن العناية بالطب وترجمة الكتب الطبية المختلفة دعت إلى العناية بتحضير الأدوية أو تجهيزها، فنشطت بذلك صناعة الكيمياء والصيدلة معا.

وقد أسس علم الكيمياء العربي جابر بن حيان (ت- 200هـ) بمدينة الكوفة في القرن الثامن الميلادي. واتضح من الكتب التي الفها بنفسه أنه أدرك قيمة التجارب في الكيمياء العملية، وأنه وصف كلا من التكليس والتحويل وصفا علميا. كما أدخل تحسينات جديدة على الطرق القديمة للتبخير والتصعيد والاذابة، والبلورة. وكذلك عرف تركيب حامض الكبريتيك، وحامض النيتريك ليخرج منها الماء الملكي. الذي يمكن أن يذاب فيه الذهب والفضة وكذلك اكتشف ماء الذهب، وهيدروكسيد الصودا وكلوريد الزئبق وغير ذلك. وقد ظلت طريقة جابر قائمة مع شيء من التعديل حتى أوائل عهد الكيمياء الحديثة في أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي. وحذا جابر حذو من سبقوه من الكيميائيين المصريين واليونانيين القدماء في افتراض أن المعادن الخسيسة يمكن تحويلها إلى ذهب أو فضة.

عزيزي الدارس، ولم يكن جابر بن حيان وحيدا في علم الكيمياء. فقد تتلمذ على جعفر الصادق (669-795هـ). الذي قرأ جميع ما ترجم خالد بن يزيد كما كان لجابر تلاميذ كثيرون أشهرهم الرازي. وينسب إلى جابر أكثر من (500) مؤلف في الكيمياء، ويرجح أن بعضها كتبه تلاميذه الكثيرون ونسبوها اليه كما يظهر أن بعض ما كتب في اللاتينية في هذا العلم نسبت اليه لتلاقي رواجا في أوروبا ذلك أن كتب جابر كانت هي الكتب الوحيدة التي تدرس في اوروبا خلال عدة قرون.

ومن أشهر مؤلفات جابر: كتاب الخالص وكتاب الوصية، وكتاب شرح المجسطي، وكتاب البيان والنور، وكتاب الشمس، وكتاب القمر، (أي كتاب الذهب والفضة)، وكتاب التراكيب، وكتاب الأسرار، وكتاب الأرض أو أرض الأحجار وكتاب السموم.

واذا أطلقنا على العصر الذي عاش فيه جابر اسم عصر جابر بن حيان، كما سماه جورج سارطون - فان عصره عرف كثيرا من الأمور الكيماوية الهامة منها:

1- تقطير الخل للحصول على حامض الخليك المركز، امكانية فصل السوائل المختلطة عن بعضها بعملية التسخين والتقطير.

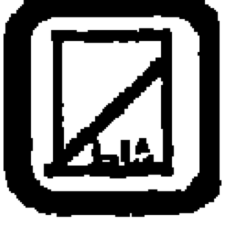
2- نظرية الكبريت والزئبق في المعادن. وهي القول بأن المعادن تتألف من كبريت وزئبق بنسب متفاوتة، فاذا زادت كمية الكبريت في معدن ما، كان ذلك المعدن أسهل كسرا أو انقساما، وأكثر قبولا للصدأ وكان أخف، واذا كانت نسبة الزئبق فيه أكثر، فان ذلك المعدن يصبح ألين ولكن غير قابل للصدأ - وهي نظرية غير علمية اليوم، ولكنها تتحدى نظرية أرسطو القائلة بوجود العناصر الأربعة، والتي بقيت مقبولة في أوروبا حتى القرن السابع عشر.

3- استعمال ثاني اكسيد المنغنيز في صنع الزجاج - لازالة اللون الأزرق أو الأخضر الذي يميل اليه لون الزجاج الطبيعي.

وعلى العموم، فقد أوجد العرب طرق التقطير والترشيح والتكليس والتحويل والتبخير والتصدير والتذويب والتبلور، وهم الذين اكتشفوا الكحول والقلويات والنشادر ونترات الفضة (حجر جهنم) والراسب الأحمر والبوريك وملح البارود، والقلي، والزرنيخ، وحامض الكبريتيك (زيت الزاج) والبوتاس وروح النشادر وغيرها.

ومن أظهر مميزات الكيمياء الاسلامية اعتمادها على الدليل العملي، فأكثر مؤلفاتهم تفيض بالوصف الدقيق للتجارب وطريقة إجرائها، والاحتياطات التي يجب اتخاذها أثناء القيام بعملها وما ينتج عن ذلك من نتائج. ولا شك أن اهتمام علماء المسلمين بالناحية العملية التجريبية كان خطوة واسعة في تقدم علم الكيمياء، وقد أفاد علماء المسلمين من تطبيق الكيمياء على الحياة العملية، فاستعانوا بها في تحضير الأملاح والأدوية والعقاقير والروائح العطرية وغيرها. وبذلك ظهر تفوق علماء العرب على اليونانيين القدامى الذين يعتبرون أنفسهم مبتدعي علم الكيمياء.

نشاط (2)



1- اكتب تقريرا في: كتاب العين وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟
2- اقرأ مقدمة كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري، واكتب تقريرا عن ذلك وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟
3- اقرأ كتاب الحيدة (عن الاعتزال) واكتب تقريرا فيه وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟

تدريب (2)



1- أذكر العوامل التي ساعدت في نقل العرب من حالتهم العلمية التي كانوا فيها إلى الوضع الجديد في العهد الاسلامي؟
2- من هم الذين أوكل إليهم عثمان (ر) عملية جمع القران الكريم؟
3- سم ثلاثة من كتب بختيشوع؟

أسئلة التقويم الذاتي (2)



تحدث عن تطور الأدب في العصر العباسي؟

5.3.3 علم الطب

عزيزي الدارس، كان الطب والدين أول ما اهتم بهما الانسان القديم عندما أخذ ينتقل من الحالة الهمجية إلى التمدن، ولقد احتكر الطب رجال الدين عند أكثر الامم القديمة، واختلط التطبيب بالشعوذة ولا يزال حتى الآن من يعتقد بأثر التمائم والتعاويذ في طرد الشياطين التي تلمس الانسان أو تخالطه.

عرف عرب ما قبل الاسلام كثيرا من أمور الصحة والتطبيب الطبيعي لحاجتهم إلى ذلك، واشتهر أمر كثير من أطبائهم، كالحارث بن كلدة، وكان بعضهم حتى في عصر الرسول (عليه السلام)، يذهب إلى مدرسة جنديسابور الطبية ومستشفاها لدراسة الطب فيها، وروي عن الرسول (عليه السلام) نفسه ما يبلغ قرابة الـ 300 حديث عرفت بالطب النبوي تحتوي في مجملها على قواعد لحفظ الصحة والاستحمام والشراب والمأكل والزواج والأمراض.

عزيزي الدارس، وترد إشارة بسيطة عن الطب في بدايات الاسلام، فقد كانت المرأة تقوم بأعمال السقاية، واغاثة الجرحي ومداواة المرضى منذ عهد الرسول (عيه السلام)؛ فقد ضمدت فاطمة (ر) جراح الرسول (عليه السلام) عندما أصيب في غزوة أحد (الواقدي، المغازي، ج1، ص 249 ؛ ابن سعد، الطبقات، ج2، ص 48: البخاري، ج12، ص 166). كما تولت النساء دفن الشهداء في تلك المعركة. وعندما كان الرسول (عليه السلام) يتجهز لغزوة خيبر أذن لأم سنان الأسلمية بالخروج معه ليكون من جملة واجباتها مداواة الجرحى. وقد ضربت لها قبة لهذه الغاية (ابن سعد، الطبقات، ج8، ص 292). وفي الغزوة ذاتها جاءت أمية بنت قيس الغفارية في نسوة من بني غفار، فقالت: «يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا، نداوي الجرحى، ونعين المسلمين ما استطعنا، فقال لها: «على بركة الله» (ابن سعد، الطبقات، ج8، ص 293). وفي غزوة الخندق كان لرفيدة الأسلمية خيمة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تداوي بها الجرحي، فلما جرح سعد بن معاذ، قال الرسول (عليه السلام): «اجعلوه في خيمة رفيدة» (ابن هشام، السيرة، ج3، ص 258؛ ابن سعد، الطبقات، ج8، ص 291؛ مسلم، ج3، ص 1398، الطبري، تاريخ، ج3، ص 55). وفي غزوة حنين خرجت النساء للقيام بعملية التمريض أيضا. وذكرت الربيع بنت معوذ (ت- 45هـ) أن من الأعمال التي قامت بها النساء عند خروجهن مع الرسول (عليه السلام) مداواة الجرحى (البخاري، صحيح، ج12، ص 154، ابن حجر، الاصابة، ج4، ص 301). وذكرت أم عطية أنها كانت تغزو مع الرسول (عليه السلام) لتقوم على المرضى، وتداوي الجرحى (الشيباني، شرح، ج1، ص 201، ابن الجوزي، صفة، ج2، ص 72/71). وذكر أنس بن مالك (ت- 93هـ) أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يغزو بأم سليم، ونسوة من الأنصار معه اذا غزا، يسقين الماء، ويداوين الجرحى. (مسلم، صحيح، ج3، ص 1443، الترمذي، سنن، ج3، ص 68)

وكانت النساء ترافق المقاتلة في العهد الراشدي، ففي معركة اليرموك قمن بمداواة الجرحي (فتوح الشام، ج1، ص 218). وكذلك فعلن بالقادسية فقد قالت همام بنت الحارث النخعي: "شهدنا مع أزواجنا القادسية مع سعد. فلما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا، وأخذنا الهراوي، ثم أتينا القتلى، فمن كان من المسلمين سقيناه، ورفعناه، ومن كان من المشركين أجهزنا عليه، وتبعنا الصبيان نوليهم استلاب قتل المشركين" (الطبري، تاريخ، ج4، ص 120 فما بعد). وذكر المسعودي (ت- 346هـ)، أن الرثيث كان ينقل إلى النساء لعلاجه. (المسعودي، مروج، ج2، ص 317)

ويذكر أن عمر بن الخطاب قد بعث الأطبة مع سعد إلى القادسية (الطبري، تاريخ، ج4، ص 88) ويستشف من هذا تهيئة وسائل الاسعاف والعلاج من خيم وأدوية وغير ذلك. غير أن طرق الاسعاف كانت يسيرة بعض الشيء فكان يتم نقل المصابين من أرض المعركة على ظهر الدواب، كما حصل في أحد. فقد ذكر ابن اسحاق (ت- 151هـ) أن سعد بن معاذ حين أصيب في الخندق تم نقله على ظهر حمار قد وطئوا له بوسائد من أدم (الطبري، تاريخ، ج3، ص 55). كما تم اخلاء القتلى في القادسية بنقلهم على ظهور الابل. (الطبري، تاريخ ج4، ص 120)

وكانت وسائل العلاج يسيرة، فعندما جرح الرسول (عليه السلام) في غزوة أحد، جاءت فاطمة (ر) بقطعة حصير مصنوع من سعف النخل، ودقتها وأخذت شرابها، ووضعته على الجرح فتماسك وجف (الواقدي، المغازي، ج1، ص 250/249؛ ابن سعد، الطبقات، ج2، ص 48). وذكر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) استعمل الكي في علاج سعد بن معاذ حين قطع أكحله في الخندق · الشيباني، ج1، ص 128). ويبدو أنهم كانوا يغطون الجرح بعد علاجه في تلك الفترة.

أما الزيت المغلي فكان يستعمل في علاج الأطراف المبتورة، بدليل قول أم عمارة أنه بعد أن قطعت يدها جاءها خالد بن الوليد بطبيب فعالجها بالزيت المغلي. وتضيف قائلة: "فقد رأيت بني مالك بن النجار بضعة عشر رجلا، لهم أنين يكمدون ليلتهم بالنار" (الكلاعي، حروب، الردة ص 148). وتتكرر مثل هذه الاشارة في نهاوند، فقد ذكر ابن زعثم الكوفي (ت- 314هـ) أن المسلمين باتوا ليلتهم تلك ولهم أنين شديد من كثرة ما بهم من الجراحات، توقد لهم النيران، يعصبون بالزيت والخراق". (ابن أعثم، ج2، ص 46)

إضافة إلى ذلك فقد اتبعت طرق للوقاية من بعض الأوبئة التي كانت تحل. فعندما هجم طاعون عمواس عام 18هـ. وأودى بحياة خمسة وعشرين ألفا (انظر: الطبري، تاريخ، ج4، ص 225). أصدرت الخلافة أمر الرحيل من المنطقة (انظر: الطبري، تاريخ، ج4، ص 202/201)، فخرج الناس ونزلوا الجابية فرفع الوباء عن الناس. (أبو عبيد، غريب، ج3، ص 399)

لقد حرص المسلمون على صحة المقاتل، وحيويته في المعركة، فقد ابيح الافطار لمن يقاتل، فهذا الرسول (عليه السلام) ينادي بمن لمن يفطر من المسلمين في بدر: «يا معشر الغزاة اني مفطر فافطروا»(الواقدي، المغازي، ج1، ص 48/47). وكذا حدث في

غزوة الفتح (الشيباني، شرح، ج1، ص 113). وكذا أمر المثنى بن حارثة الشيباني جنده في البويب. (الطبري، تاريخ، ج4، ص 71)

وفي العهد الأموي صار يرافق الجند أطباء لمعالجة الجرحى والمرضى، فعندما وجه يزيد، مسلم بن عقبة المري لقتال أهل المدينة في عام 63هـ اصطحب مسلم معه طبيبا (البلاذري، أنساب، ج4، ق 2، ص 41) واتخذ ابن الزبير فسطاطا لعلاج الجرحى من أصحابه أثناء قتاله مع الحصين بن نمير السكوني في عام 63هـ (ابن عبد ربه، العقد، ج5، 141). وترد الاشارة إلى أن زفر بن الحارث الكلابي بعث بالأطبة لمعالجة جراح التوابين عند عودتهم من معركة عين الوردة عام 65هـ. (الطبري، تاريخ، ج7، ص 80)

واتخذت محامل خاصة للأدوية والأدوات والجرحى، فقد ذكر الجاحظ (ت-255 هـ) أن الحجاج أول من اتخذ المحامل (الجاحظ، البيان، ج2، ص 161). ومن بين العلاجات المستعملة للجروح: القرطاس المحرق والذي يستخدم لقطع الدم المنبعث من الجراح الطرية الصعبة للغاية (السبق، ص 414). كما أن الجراح الطرية كانت تضمد بلحاء العيد (شجر جبيل طويل) فتلتئم (الزبيدي، تاج، ج2، ص 427؛ جواد علي، المفصل، ج8، ص 395). واذا سحقت برادة الأبنوس وصارت كالغبار وذرت على الجرح التحم ولم يقيح (السبق، ص 414). كما استعمل لهذا الغرض البلسم، والعقد (انظر: الزبيدي، تاج، ج 2، ص 427؛ جواد علي، المفصل، ج8، ص 395)، والزيت المغلي (جواد علي، المفصل، ج8، ص 396، محمود عواد، الجيش، ص 144/143). ووبر الابل المحروق (الحكيم راجي، الاسناد، ص 50). وكذلك فان حجر النار – حجر القداحة – اذا سحق كالغبار وذر على القروح الخبيثة العسرة الاندمال أبرزها. (السبق، ص 415)

وقد عالج الأطباء الجروح بوضع الخرق بعضها فوق بعض على الجراح – أي تضميده بها – ويقال لهذا: الغميل (الزبيدي، تاج، ج8، ص 336). كما وضعوا القطن فوق الجروح. واستعمل الزيت الطيب والملح المسحوق ناعما لعلاج حروق النار ٠ السبق، ص 415). أما الدهن الساخن فقد استعمل لعلاج تصلب اليدين من البرد. (انظر: الطبري، تاريخ، ج7، ص 46)

عزيزي الدارس، اعتمد العرب في العصرين الأموي والعباسي على أطباء غير عرب، وكان أكثر أطبائهم من النصارى، الذين بقوا على دينهم، ولاقوا من احترام

الخلفاء والشعب ما دفع الكثير منهم إلى هجـر بلاده والوفود إلى البلاد العربية، وأسهم هؤلاء الاطباء بأكبر نصيب في حركة النقل، فوضعوا في أيدي تلاميذهم العرب خلاصة الأبحاث الطبية اليـونانية والسريانية والهندية، وأنشأوا المستشـفيات التي تمرن بها طلاب الطب العرب.

لقد كان خالد بـن يزيد ممن عنوا بنقل الطب إلى العربية كما فعل فـي الكيمياء؛ فقد طلب إلى جماعة من اليونانيين من مدرسة الاسكندرية أن ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية والقبطية وخاصة كتب جالينوس. فوضع بذلك أساس التعاليم الطبيـة العربيـة. وقـد عنى المسلمون بنشر الثقـافة الطبية وأسسوا المعاهد العلميـة لتخريج الأطباء. وكان هناك نوعان من الكليات الطبية هما البيمارستانات (المستشفيات) ثم المدارس النظرية.

ويعتبر - عـزيزي الدارس - العصر العباسي عصـر النهضة العلمية الطبـية، فقد رأينا أبا جعفر المنصور (136-158هـ) ليستـشير أطباء العرب ويعتـمد على ارشاداتهم. ويقال أن سبب موته هو عدم اصغائه لنصائح أطبائه، اذ أنه كان يكثر من الطعام ويسرف في تعاطي الأدوية الحارة التي تضر بمعدته وأمعائه. واشتهر في عهد المعتصم من الأطباء يحيى بن موسـويه الذي كان الخليفة يعتمـد على مشورته. ولما خالف نصيحـته اعتلت صحته وتغيـر لونه. كما نبغ في عهد العباسين من الأطباء: ابن بختـيشوع وكان الخلفاء العبـاسيـون يثقون به في مـعالجـة نسائهم وأولادهم، ومن مـؤلفاته في الطب كـتاب: "المسائل في الـطب للمتعلمـين"، وكتاب "عـلاج العين"، وكتاب "الأسـنان واللثة" وكـتاب "أوجـاع المعدة وعـلاجهـا"، وكتـاب "المولودين لثـمانيـة أشهـر"، وكتـاب "الأغذية"، وكتاب "اللبن".

وممن نبغ في الطب أيضا حنين بن اسـحاق ٠ت- 260هـ) فكان امـام زمانه في هذه الصنعة. ويعتبر أبو بكر الرازي (ت- 311هـ) أشهر أطباء عصـره، فقد أقبل على دراسة الطب بعـد أن جاوز الأربعين، وألف في الطب كـتبـا كثيـرة، وكانت تشـد اليه الرحال للعلاج مـن الأسقام، ومن أشهر كـتبه كتاب: "الحـاوي في علم التداوي" في ثلاثين مجلدا، وكتابه: "الجامع"، وكتاب "الاعصاب"، وتعتبر كلها من المراجع الهامة في علم الطبب التي أفاد منها الاوروبيون كثيـرا بعد ترجمتها إلى لغاتهم. ومما أثر على الرازي قوله: "مهـما قدرت أن تعالج بالأغـذية فلا تعالج بالأدوية، ومهـما قدرت أن تعالج بدواء مفـرد فلا تعالج بدواء مركب. واذا كـان الطبيب عالما والمريض مطيعـا فما أقل لبث العلة". وقد اسندت إلى الرازي ادارة بيمارستـان الري ثم بيمارستان بغداد في

عهد الخليفة المستكفي العباسي (ت- 295هـ). ولقد قيل في الرازي: "ان الطب كان معدوما فأحياه جالينوس، وكان متفرقا فجمعه الرازي، وكان ناقصا فكمّله ابن سينا".

عزيزي الدارس، لقد نشأ من تفاعل الطب الأعجمي والعربي القديم، وتجارب الأطباء غير العرب والعرب فيما بعد، طب عرف (بالطب الاسلامي) الذي تمثل بعد نضج العلم في الكتاب (الملوكي) لأبي بكر الرازي، الملقب (غالينوس العرب)، والذي ألفه لعضد الدولة البويهي، وجمع فيه كل ما وجده متفرقا من ذكر الأمراض ومداواتها في كتب القدماء إلى زمانه في أواسط القرن الرابع الهجري. ولا يزال هذا الكتاب المعَوّلُ عليه في الطب حتى ظهر كتاب "القانون" لابن سينا، وهو موسوعة في الطب والصيدلة لأبحاث اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب، في الأمراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها.

عزيزي الدارس، اعلم أن النصارى والهنود وأطباء جنديسابور يحتكرون هذه المهنة طوال العصر الأموي والصدر الأول من العصر العباسي، حتى اذا اكتمل عصر الترجمة. واطلع عليها العرب، نبغ عدد من الأطباء العرب المسلمين، الذين أسهموا في النهضة الطبية جنبا إلى جنب مع الأطباء غير العرب، وبلغ من كثرة الأطباء من جميع الأجناس في العواصم الاسلامية المختلفة أن الحكومات المحلية كانت تجري لهم امتحانات رسمية وتمنحهم شهادات العمل، وكان للأطباء في كل مدينة كبيرة نظام، وعليهم رئيس هو الذي يمنحهم ويجيز من يرى فيه الكفاية للتطبيب، وأشهرهم سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد، ويقال مثل ذلك في الصيادلة، وتخصص الأطباء في الشرق والأندلس، فكان هناك الجراح والفاصد، والكحال والاسناني وطبيب أمراض النساء وطبيب المجانين، كما انفرد بعض الأطباء لتطبيب جماعات معينة، فللخلفاء وعائلاتهم أطباء، وللوزراء مثل ذلك، وللجيش أطباء متخصصون يرافقونهم في حلهم وترحالهم. ولم تقتصر مهنة الطب على الرجال، بل اشتهر عدد من النساء الطبيبات كأخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها، وزينب الشامية طبيبة نساء خلفاء بني أمية وغيرهما.

ومن أشهر الأطباء المسلمين:

1- ابو بكر الرازي (850-937م)

انتخب من بين مائة طبيب لرئاسة المستشفى العضدي في بغداد، ألف العشرات من الكتب وأشار إلى مصادرها اليونانية والهندية والفارسية والعربية، وهو أول من وصف الجدري والحصبة وأول من قال بالعدوى الوراثية، وكان إلى جانب ذلك كيماويا

عظيما، وهو أول من استعمل الزئبق وأملاحه على القردة ليرى مفعولها فيها. وأشهر مؤلفاته: الحاوي، ورسالة في الجدري، والحصبة، وكتاب المنصوري، وكتاب الاسرار في الأدوية وتركيبها، والكتاب الجامع، وكتاب طب الفقراء في الاسعافات الأولية في حالة غياب الطبيب.

2- ابن سينا (980-1037م)

أسطع نجم في سماء الطب العربي، جمع إلى الطب الفلسفة والرياضيات والفلك والموسيقى واللغة معا، لقب بالرئيس أو الشيخ، درس الفلسفة والطب في بخارى، وأصبح طبيبا يمارس الطب ويعلمه وهو في السادسة عشرة. قربه الأمير نوح بن منصور الساماني بعد أن شفاه وأدخله دار كتبه، فانكب على التهام ما فيها من كتب في الطب والفلسفة ومختلف العلوم، فانفتح عليه الكثير من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة، وكان ذلك كله من غير استعانة بمعلم، وقد قال عن نفسه أنه ملك جميع العلوم والمعلومات الميسورة لجيله حتى سن الواحدة والعشرين، ولم يكتب بعدها سوى خبرة ونصح، ومات في سن السابعة والخمسين في همذان، وهو أول من وصف التهاب السحايا الأولى وصفا صحيحا ووصف أسباب اليرقان وصفا واضحا مستوفيا، وفرق بين شلل الوجه الناتج عن سبب داخلي في الدماغ أو عن سبب خارجي، وفرق بين داء الجنب وألم الأعصاب ما بين الأضلاع، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، ووصف أعراض حصى اللثة.

3- ابن زهر(1094-1162 م)

أنبغ أبناء عائلة أندلسية عرف أكثر رجالها بالطب وهو آخر العلماء المسلمين القلائل الذي حصر جهده في الطب فقط، من أشهر كتبه: التيسير في المداواة والتدبير، أهداه لتلميذه الفيلسوف ابن رشد، ويحوي وصفا للأمراض واضحا وخاليا من النظرات الفلسفية، وقد كتب ابن زهر وصفا دقيقا لبعض الأمراض، وخاصة التهاب غشاء القلب، وأعراض السرطان.

4- ابن النفيس

من مواليد دمشق في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي: تعلم في مدارس دمشق، ثم رحل إلى القاهرة وتولى رئاسة المستشفي المنصوري، وجمع إلى جانب الطب علوم اللغة والفلسفة والمنطق والفقه والحديث، ومن كتبه: الموجز وهو

ملحق لقانون ابن سينا، وكتب شرح تشريح القانون، وفيه وصف ولأول مرة في تاريخ الطب للدورة الدموية الرئـوية، وبين بأن الدم ينقى في الرئتين، وهو اكتشـاف سبق أول القائلين به من الاوروبيين بثلاثة قرون.

5- الزهراوي:

ولد في الزهراء بجوار قرطبـة في النصف الثاني من القرن العاشـر، وكان طبيب الخليفـة الحكم، وكتـابه (التصـريف لمن عجـز عن التأليف)، جـعله من أكبـر جراحي العرب، وأستاذ علم الجراحة في أوروبا في العـصور الوسطى وعصر النهضة الأوروبية، حتى القـرن السابع عشر والكتـاب عبارة عن دائرة معـارف طبية، تحتوي ثـلاثين فصلا مبوبة في ثلاثة أقسام. امتاز القسم الثالث منها (الجراحة) بذكر جميع المعلومات الجراحية في زمنه بطريقة واضحة مع رسوم الاتها والات خلع الاسنان.

واعلم، عزيزي الدارس، ان الحكام المسلمين قد اهتموا اهتـماما بالغا بالرفاه العام لشعوبهم، فـقد أنفق الأمويون بسخـاء على المستشفيـات العامة المجانيـة، وكذلك فعل العباسيون وحكام الدول المنفـصلة، وظهرت في العالم الاسلامي مستشفيـات متخصصة لانواع من الأمراض منها:

1- مستشفيات الجذام:

لعزل المصابين بهذا المرض، فكان أول من نشأ مـستشفى من هذا النوع الوليد بن عبد الملك (86-96هـ) في حين أن أول مستشفى للجذام بني في أوروبا في القرن الثاني عشر، نقله اليها الصليبيون عن سوريا.

2- مستشفيات المجانين:

أقيمت منذ العصر الأموي في سوريا، حيث أفردت حجرة خاصة في المستشفيات العامة لمداواتهم.

3- المستشفيات العسكرية:

وهي مـسـتشفـيات خاصة مـتنقلة، تحمل أدواتهـا على الجمال والبـغال، ويرافق المستشفى ممرضات يتخصصن بتمريض جرحى الحرب.

4- مستشفيات السجون:

وقد أوجدت في بغداد في العصر العباسي الأول.

5- مأوى العجزة والعميان والأيتام:

وقد وجدت منذ عصر الوليد بن عبد الملك، وزادت في العصر العباسي.

6- المستشفيات المتنقلة:

وقد وجدت في العصر العباسي وتنتقل في الريف والقرى البعيدة عن المدن التي ليس فيها أطباء، وكان يكثر انتشار وعمل مثل هذه المستشفيات عند انتشار بعض الأوبئة.

7- محطات الاسعاف:

وكانت تقام بالقرب من الجوامع، وفي أوقات الصلاة، وقد أفرد ابن طولون في مسجده مكانا خاصا لاسعاف المصلين عليه أطباء متناوبون ليلا ونهارا.

8- المستشفيات العامة:

وكانت تقام في المدن الكبرى، ويتبارى الخلفاء والأمراء والأغنياء في انشائها والتبرع لها ووقف الأوقاف الواسعة عليها. وكانت بهذه المستشفيات جميعا صيدليات مجهزة بالأدوية، تقدم الدواء والغذاء بل والكساء أحيانا، مجانا دون تفريق في اللون أو الجنس أو الدين بين القادمين عليها، وكثيرا ما كانت ادارة المستشفى تدفع للمصابين الفقراء مالاً يساعدهم على كسب قوتهم بعد الشفاء.

عزيزي الدارس، أعلم أن المسلمين هم أول من استخدم البنج في الطب، حيث استخرجوه من الزوان، وهم أول من استخدم الكاويات في الجراحة، وأول من وجه الفكر إلى شكل الأظافر في المسلولين، ووصفوا علاج اليرقان والهواء الأصفر، واستعملوا الأفيون في معالجة الجنون وأشاروا إلى عملية تفتيت الحصى، وكتبوا في الجذام، وخالفوا القدماء في كثير من الأدوية والطرق العلاجية مما يقرهم عليه كما هي الطب الحديث.

6.3.3 الرياضيات

لم يكن للرياضيات وغيرها من العلوم مكان ملحوظ من بين العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الأول. ولكنها ازدهرت بعد ذلك لأنّ همتهم كانت مقصورة في الغالب على نقل الكتب.

كما أنهم تركوا أمر الجباية والدواوين للموالي والذميين ولكن ما كاد عبد الملك

بن مروان يعرب الدواوين ويستعمل العرب فيها، حتى انكب كثير منهم على تعلم الكتابة الرسمية والحساب واندفعوا وراء ذلك. وما لبثوا أن مهروا في العلوم كما مهروا في غيرها ولعل علماءَهم فاقوا في هذا المضمار جميع علماء الفروع الأخرى.

فقد وصلت الأرقام العددية والحساب من الهند في أيام الخليفة العباسي المنصور مع كتاب "السندهند". وبذا دخل علم الحساب الهندي بنظامه وأرقامه المعروفة في العربية بالأرقام الهندية". على أن هذا لا يمنعنا من القول أنه كانت هناك طائفة من علماء المسلمين أخذت تشتغل بهذه العلوم الرياضية، وقد اهتدى علماؤها إلى تقسيم الكسور واستخراج الجذور التكعيبية والتربيعية.

وسأعرض لك عزيزي الدارس بعضا ممن اشتهروا بهذا العلم، فقد كان ثابت بن قرة الحراني (ت-288هـ) من هؤلاء، ومن أشهر مؤلفاته كتاب: (حساب الأهلة)، وكتاب (الأعداد)، وكتاب (شكل القطاع)، وكتاب (استخراج المسائل الهندسية).

ومن أشهرهم كذلك: أبو الوفا محمد بن العباسي (ت- 388هـ) ومن مؤلفاته كتاب (ما يحتاج اليه العمال والكتاب من صناعة الحساب) والكتاب يقع في سبعة أقسام كل قسم منه في سبعة أبواب شملت جميع أنواع الرياضيات.

ومن أعظم علماء المسلمين في تاريخ الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمي، وهو مؤلف أقدم كتاب عربي في الحساب والجبر. ومن مؤلفاته: كتاب (استخراج ضلع المكعب)، وكتاب (معرفة الدائرة من الفلك)، ومن أشهر مؤلفاته كذلك: (الجبر والمقابلة) الذي انتقل إلى الجامعات الاوروبية بعد ترجمته إلى اللاتينية. وعن طريق مؤلفات الخوارزمي انتقلت العلوم العربية إلى اوروبا. وقد تأثر عمر الخيام (ت- 515هـ) بالخوارزمي في علم الجبر وزاد عليه حلولا كثيرة من المعادلات الهندسية والجبرية من الدرجة الثانية.

7.3.3 علم الفلك والنجوم

عني العرب، عزيزي الدارس، قبل الاسلام بعلم النجوم، حيث اهتدوا بحركات النجوم في ظلمات البحر والبر. وتنبأوا بها إلى موعد سقوط الأمطار. كما أنهم مهروا في علم الأنواء وتعرف أوقات نزول الغيث.

ويبدو أن اشتغال المسلمين بالفلك كان بعد اطلاعهم على ترجمة كتاب: "السندهند" الذي جلبه عالم هندي إلى بلاط الخليفة المنصور العباسي حيث اصبح هذا

الكتاب مرجع الباحثين في الفلك بعد ترجمته على يد محمد بن ابراهيم الفزاري (ت- 180هـ) الذي يرجع اليه الفضل في استخدام الاصطرلاب في رصد الكواكب والأجرام السماوية. ثم وصلت التقاويم الفهلوية (الفارسية) إلى المسلمين مترجمة إلى العربية في عصر الدولة السامانية المتفرعة من الدولة العباسية.

عزيزي الدارس، لقد تأثر المسلمون بالفلك اليوناني بعد ترجمة كتاب بطليموس في القرن التاسع الميلادي. وكان لعلم التنجيم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الخلفاد والأمراء الذين كانوا يعتمدون عليه في تنفيذ سياستهم فلقد اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم في تأسيس مدينة بغداد وترد الاشارة إلى أن مدينة القاهرة التي بناها جوهر الصقلي انما سميت بهذا الاسم لأن أساسها وضع عند طلوع كوكب المريخ الذي سمي بالقاهر. وكذلك اهتم الخليفة الحاكم الفاطمي بعلم النجوم اذ أنه أنشأ مرصدا بسفح جبل المقطم في مصر أطلق عليه (المرصد الحاكمي). كما أنشأ المأمون دارا للرصد في بغداد لدراسة حركات الاجرام السماوية. واستطاع المسلمون بذلك أن يحلوا بعض المسائل الفلكية كتقدير الدرجة العرضية بمسافة طولها 560 ميلا وأمكنهم بذلك معرفة محيط الكرة الارضية ونصف قطرها. وقد تعددت المراصد الفلكية في الدولة العباسية. والدليل على ذلك أن أبا عبد الله البتاني قد صحح في مرصد مدينة الرقة حساب مدارات القمر وغيره من الكواكب، وحدد طول السنة المدارية والفصول ومدار الشمس الحقيقي والظاهري.

وكان البلخي ممن نبغ في علم النجوم، وكان له تصانيف كثيرة فيه، كما اشتهر بذلك أبو الريحان البيروني (ت- 440هـ) الذي ألف كتابا في الفلك لمولاه السلطان مسعود بن محمد الغزنوي هو كتاب "القانون المسعودي في الهيئة والنجوم" وكذلك ألف كتاب: "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، وهو عبارة عن دراسة في تقاويم الشعوب القديمة. كما اهتم ببحث نظرية دوران الأرض حول محورها، وكذلك عمل بحثا دقيقا لتحديد خطوط الطول والعرض.

أما عمر الخيام فإلى جانب كونه شاعراً عظيمًا فقد كان فلكيا رياضيا من الطراز الأول، عهد اليه السلطان جلال ملكشاه السلجوقي في اصلاح التقويم الفارسي القديم في مرصده بمدينة الري في القرن الخامس الهجري. وأسفرت بحوث الخيام وأعوانه عن اخراج تقويم سماه: (التقويم الجلالي) نسبة إلى السلطان جلال الدين، وهو يفوق في وقته التقويم الجريجوري (الروماني).

4. التجليات العملية: المؤسسات والنظم

لقد عرف العـرب، عزيزي الدارس، الكتابة في العهـد الجاهلي، ولكن لا يمكننا التـأكيـد على وجـود المدارس، وإنما كان هناك مـن يعلم ومن يتعلـم القراءة والكتـابة والحسـاب بطريقة مبسطة. على أنه عندما جـاء الاسلام لم يكن عدد القـرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة كبيـراً. ولكن الاسلام حض بقوة على العلم، فهناك كثير من الآيات والأحاديث تحث علـى العلم، وتبين قيمـته كقـوله تعالى: "هل يسـتوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" (الزمر: 9)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «اطلبوا العلم ولو بالصين)، وقوله عليه السلام: «ولا خير فيمن كان من أمتي ليس بعالم ولا متعلم».

وبتأثير ذلك اندفع المـسلمون بحماسة منقطعـة النظير إلى طلب العلم، ورغم أن الطريق لذلك لم تكن ممهدة، ورغم أن الصعوبات كانت كبـيرة فقد استطاع المسلمون أن يذللوا كل العقـبات. وكان الذميـون يقومون بمهـمة تعليم القراءة والكتـابة للراغبين من المسلمين. وفي غـزوة بدر وقع كثـير مـن أهل مكة في الأسر، وفـرض الرسول عليـه السلام أن يفتـدي القارئون منهم أنفسهم بتعليم القـراءة والكتابة عددا من أبناء المسلمين (انظر، أبو عبيد، ص 170؛ ابن سعد، ج2، ص 18 ب، ابن قيم، ج2، ص 167، الأصفـهاني، ص 411). ثم ازداد عدد المتـعلمين من العرب والمسلمين حتى أصـبحت هناك مؤسسات خاصة للتعليم، وكان منها:

1.4 المؤسسات

1- المسجد:

كان التـعليم في الغالب ما يتم في المسجـد وخاصة في صدر الاسـلام إذ كانت تعقد فيه حلقات التدريس، وكان العلماء والفقهاء والأدباء يجلسون في المساجد الكبرى أيام الأمويين والعـباسيين، ومن حـولهم تلاميذهم المعـجبون بهـم، ولـم تكن حلقاتهم للوعظ الديني، بل كانت أشبه بالمدارس أو المحاضرات. وكان السـامعون يقتبسون العلم عن طريق المناقشة، وقد غدا الجامع الأزهر الذي بناه الفاطـميون جامعة علمية، وكذلك جامع الزيتونة في تونس. وكان يقوم حول المسجد أروقة فيـها كثير من الغرف يقيم فيها الطلاب.

2- الكتاتيب:

عني العرب منذ الجاهلية وصدر الاسلام بأطفالهم عناية خاصة فأبناء الخواص منهم يلقون عناية شديدة لتثقيفهم روحيا وتربيتهم جسديا، كما أن أبناء العوام لم يكن أمرهم مهملا، والتعليم في الكتاتيب كان أقدم من التعليم الذي جاء به الاسلام بحيث أن الطفل الجاهلي كان يَتَلَقّى مبادئ القراءة والكتابة، ولكن هذا كان على نطاق ضيق جدا، ولكن عندما ظهر الاسلام وشجع على طلب العلم كثر عدد هذه الكتاتيب ولا شك أن هذه المواقع كانت كالمدارس الأولية يتعلمون فيها القراءة وأصول الكتابة العربية واستظهار القرآن.

ولما سارت جيوش العرب والمسلمين في فتوحاتهم الواسعة خارج الجزيرة العربية برزت الكتاتيب القرآنية بصورة واضحة وتعددت في جميع الأرجاء التي حلوا فيها، وقد لعب أهل الحجاز والشام والعراق ومصر دوراً كبيرا في ايجاد هذه الكتاتيب حينما انتقلوا إلى الديار المفتوحة ليعلموا أولادهم القرآن.

ولما استقل بنو أمية بأمر المسلمين، ازدادت عنايتهم بالثقافة زيادة واضحة لتوسيع رقعة الملك وحاجة الدولة إلى المتعلمين، لذلك زاد عدد الكتاتيب. أما في العصر العباسي فقد انتظم أمر هذه الكتاتيب بصورة فنية فائقة لعناية الناس بأمر أولادهم من جهة، ولاهتمام الدولة بالتعليم من جهة أخرى.

ولقد كان معلمو الكتاتيب منذ العصر الأموي مقسمين إلى قسمين:

أولهما: معلمو الكتاتيب العامة الذين كانوا يهتمون بتعليم أبناء الطبقة المتوسطة وسواد الشعب.

وثانيهما: معلمو أبناء الطبقة العليا والأمراء والأثرياء. وكان لهؤلاء المعلمين اسم يمتازون به وهو اسم: (المؤدبين). كما أن الكتاتيب كانت تقسم إلى قسمين: أولهما: كتاتيب أولية كان يتعلم الاطفال فيها القراءة والكتابة، يحفظون القرآن ومبادئ الدين وأوليات الحساب. وثانيهما: كتاتيب عالية، وكانت لتعليم الشبان علوم اللغة والآداب، وكانوا يتوسعون، فها يعلمون الدين والحديث وسائر صنوف العلم الأخرى بصورة عامة.

3- المجالس الخاصة والعامة:

وهذه، عزيزي الدارس، كانت تعقد في قصور الخلفاء والأمراء وبعض العظماء والوجوه للتعليم والمناظرة، وقد تجلى ذلك في عهد المأمون. أما المجالس العامة فأمرها في التعليم أشهر من أن يذكر، وقد كان هذا الأمر معروفا في الجاهلية، وأخبار أسواق عكاظ والطائف وغيرها منشورة في كتب الأدب والتاريخ. وقد لعبت هذه الأسواق في الجاهلية وصدر الاسلام، بل وفي العصر الأموي، دورا هاما في نشر العلم وحفظ التراث الفكري والعقلي والأدبي في الجاهلية والاسلام.

4- المكتبات ومعاهد البحث:

لقد أسست عدة مكتبات عامة وخاصة في العهد العباسي قام بعضها مقام معاهد الدراسة والبحث والمناظرة قبل تأسيس المدارس النظامية. فقد كانت المكتبات من الوسائل التي استخدمها القدماء لنشر العلم، إذ كانت المكتبات عبارة عن مخطوطات نادرة غالية الثمن، ولذلك نرى الراغبين في تعليم الناس يقومون بانشاء مكتبة يجمعون فيها الكتب ويفتحون أبوابها للجميع، بل ويقومون عند القدرة بأسباب المعيشة والتي لم تقتصر على أن تكون دورا للكتب يمكن فيها المطالعة والاستنتاج والاستعارة منها فحسب، بل أنها قامت في العصر العباسي الأول بمهمة المعاهد العلمية.

عزيزي الدارس، كانت المكتبات الكبيرة لا تخلو من فهرس يرجع إليه، وهذه الفهارس كانت متقنة التنظيم تشمل الكتب الموجودة في المكتبة مرتبة على حسب موضوعاتها وكان فيها موظفون يشرفون عليها منهم: الخازن، والوكيل، والنّادلون، والناسخ، والمترجمون، والمجلدون، كما أنها كانت تقوم بإعادة الكتب، ولكن بعد أن ضاع بعض الكتب لم تترك الاستعارة مطلقة، بل وضعت لها قيوداً وأنظمة، فكانت مكتبة القاهرة لا تعير الا إلى الطلبة الساكنين في القاهرة، ثم كان في الغالب يطلب من المستفيد دفع ضمان أي تأمين، وكثيرا ما كان يكون وقت للمستعير يعيد فيه الكتب التي استعارها.

ومن أشهر المكتبات العامة التي لعبت دورا كبيرا في الحركة العلمية: بيت الحكمة التي يرجع تأسيسها إلى هارون الرشيد، ولكنها لم تبلغ ذروة النشاط الا في عهد المأمون وقد وجهت العناية في بدء عهد بيت الحكمة إلى ترجمة الكتب الفارسية، والهندية ثم في أواخر عهد الرشيد وفي عهد المأمون اتجهت العناية إلى ترجمة الكتب اليونانية.

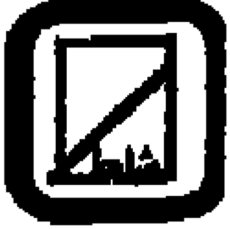
واشتهر أيضا دار العلم أو دار الحكمة في القاهرة التي أسسها الحاكم بأمر الله الفاطمي (ت- 395هـ) وجلس فيها القراء والمنجمون والنجاه وأصحاب الفقه والأطباء. وأجرى الحاكم على من فيها الأرزاق، وأباح دخولها لسائر الناس، فوفدوا عليها على اختلاف طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعليم.

5- المدارس الكبرى:

عزيزي الدارس، ويقصد بالمدارس تلك الأماكن التي بنيت خاصة لنشر نوع من أنواع المعرفة التي تنفق عليها الأموال وتوقف لها الأوقاف ويراقب فيها التعليم ويعين فيها المعلمون، وهناك اختلاف في تاريخ نشأة هذه المدارس فمنهم من يرجح أن أول من أنشاها في الاسلام نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. وهناك من يذكر أن المدرسة البيهقية قد أسست بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك، وأن المدرسة السعدية أسست في البلدة نفسها على يد الأمير نصر بن سبكتكين أخ السلطان محمود الغرنوي، قبل تأسيس مدارس نظام الملك، ويبدو أن السبب في نسبة تأسيس المدارس إلى نظام الملك هو ما اشتهر به بعد كثرة المدارس التي أسسها ودام كثير منها مدة طويلة، وكذلك الخدمة الكبيرة التي أدتها هذه المدارس إلى الدولة.

عزيزي الدارس، لقد بنى نظام الملك المدارس في بغداد والبصرة والموصل ومرو ونيسابور، وكان أشهرها المدرسة النظامية في بغداد، وكانت هذه المدارس أشبه بالجامعات. وكانت المدرسة تتكون من أبنية مختلفة كل واحد منها يخصص لغرض معين من تدريس أو اسكان أو رفاهية أو علاج، وفي قناء كل مدرسة كان يوجد مسجد للصلاة والوعظ وفي كل مدرسة مكتبة يؤمها الأساتذة والطلاب الراغبون في البحث، وهناك أبنية خاصة للمحاضرات والمناظرات، وكان عدد الطلاب يزيد عن الألوف، ومن هذه المدارس المدرسة النظامية في بغداد، أنشأها نظام الملك السلجوقي، وكذلك المدارس المستنصرية التي حوت أربع كليات تقوم كل منها بتدريس إحدى المدارس الفقهية الأربع. ولم يكن في القاهرة سوى الأزهر، ودار الحكمة التي عرفت أيضا بدار العلم. وفي الشام لا تزال كثير من المدارس إلى يومنا هذا، وخاصة في دمشق ومعظمها يعود إلى العهدين الأيوبي والمملوكي مثل المدرسة النورية، والمدرسة العادلية، وفي القدس مدرسة الناصرية التي بناها صلاح الدين الأيوبي.

أما في الاندلس فقد بلغ عدد مدارس قرطبة سبعا وعشرين مدرسة تلقي الناس فيها العلوم مجانا، كما اشتهرت جامعة قرطبة التي كان مقرها الجامع الكبير، وقد وفد إليها كثير من أساتذة الشرق للتدريس فيها بالإضافة إلى اساتذتها من الاندلسيين. ولم تكن هذه الجامعة خاصة بالمسلمين بل كان يؤمها الطلاب من جميع الأجناس والأديان.



نشاط (3)

اكتب تقريرا عن الكتاتيب في العصر الأموي، وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟



تدريب (3)

لماذا نسب تأسيس المدارس إلى نظام الملك.



أسئلة التقويم الذاتي (3)

تحدث عن دور المكتبات كمؤسسات تعليمية في صدر الاسلام.

2.4 النظم

أولاً: نظام الحكم والإدارة

أ- الخلافة:

والخلافة لغة مصدر خلفه، أي بقي بعده، وقد سمي من يخلف النبي عليه الصلاة والسلام خليفة. وفي الاصطلاح نوع من الحكم اختصت به الدولة العربية الإسلامية، وتعني الرئاسة لأمور المسلمين الدينية والدنيوية، فكان الخليفة هو الحاكم الأول في شؤون السياسة والإدارة والحرب، كما كان إمام المسلمين ورئيسهم، ولكن لم يكن له مطلق التصرف في هذه الشؤون بل كان مقيدا بأحكام الدين وحدوده.

وللخلافة شروط يجب توفرها في الخليفة منها: الحرية، والذكورة، والبلوغ، وسلامة العقل، وسلامة الحواس والأعضاء. كما أن هناك شروطا كمالية منها: العلم والعدالة والكفاية. وهناك من يضيف لهذه الشروط شرطا آخر هو النسب القرشي

بالاشارة إلى اتفاق الصحابة عليه يوم السقيفة، في حين لا يعتبر البعض توفر هذا الشرط في الخليفة (كالخوارج) مثلا، وكان هذا الشرط مرعيا كل الرعاية في سائر أحوال الدولة العربية الاسلامية حتى عام 1517م، حين تولى الخلافة الاسلامية من غير قريش السلطان سليم العثمان، وظلت الخلافة في العثمانين حتى ألغيت عام 1924 م.

عزيزي الدارس، وفي ولاية العهد والبيعة يقول ابن خلدون (ت- 808هـ): "بما أن الخليفة هو الناظر في مصالح الأمة، وهو وليها والأمين عليها، وقد منحته ثقتها، فإن من متممات مهمته أن يؤمن مصالح المسلمين بعد وفاته، وأن يعين لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها". (انظر ابن خلدون، المقدمة، ص 262)

لقد تم هذا في عهد الراشدين حيث غلبت الشورى فيه، إلا أن الخلافة أصبحت وراثية في أيام الأمويين والعباسيين، وكان الخلفاء يبايعون بولاية العهد لأولادهم أو لغيرهم من ذوي أقربائهم، وكانوا أحيانا يبايعون بولاية العهد لأكثر من واحد من أهلهم مما كان يسبب الفتن والاضطرابات، والبيعة هي عهد على الطاعة، فكان العرب إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهدهم معه جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد. وللخلافة ستة مظاهر هي:

1- البردة:

وهي بردة النبي (عليه السلام) التي خلعها على الشاعر كعب بن زهير، لما رجع إلى النبي (عليه السلام) تائبا مستغفرا، ومدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها: "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول"، وظلت البردة عند أهل كعب، حتى اشتراها منهم معاوية ابن أبي سفيان في أثناء خلافته بأربعين ألف درهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون، ثم أخذها السلطان سليم مع الخلافة حين فتح مصر، وبقيت موجودة في السراي القديمة في الأستانة.

2- الخاتم:

وقد اتخذه الخلفاء تشبّهاً بالنبي (صلى الله عليه وسلم) لما أراد أن يكتب إلى قيصر وكسرى يدعوهما إلى الاسلام، حيث قيل له إنّ العجم لا يقبلون كتابا إلا أن يكون مختوما، فاتخذ خاتما من فضة، ونقش عليه: (محمد رسول الله)، وانتقل هذا الخاتم إلى أبي بكر وعمر، ثم إلى عثمان، ووقع من يد عثمان في بئر، ولم يعثروا عليه بعد ذلك، فاصطنع عثمان خاتما مثله، وكان كل من ولي الخلافة بعده، يصطنع له خاتما يختمون به الكتب، في آخر الكتابة وفي أعلاها.

3- القضيب:

وهو عود كان يأخذه النبي (صلى الله عليه وسلم) بيده، توارثه الخلفاء أو قلدوه في حمله.

4- الخطبة:

وهي الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة، وأصلها أن الخلفاء كانوا يتولون إمامة الصلاة بأنفسهم، فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبي (عليه السلام) والرضا على الصحابة، فلما فتحوا البلاد وبعثوا إليها العمال، صار الولاة يتولون إمامة الصلاة في ولاياتهم، فكانوا إذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء، وكان الدعاء للخليفة في بلاد له سلطان عليها، ولما ضعف شأن الخلفاء في بغداد، صار المتنفذون يشاركونهم بذكر أسمائهم بعده أو يستقلون أحيانا في الدعاء لأنفسهم.

5- السكة:

وهي أن يضرب اسم الخليفة على النقود المتداولة بين الناس.

6- الطراز:

اختلف طراز ثياب الخلافة من عصر لآخر، ففي زمن الخلفاء الراشدين كانت ثياب الخلفاء لا تتميز عن ملابس أقل رعاياهم شأنا. أما معاوية فقد لبس الحلل الفاخرة، مقلدا بها ملوك الأعاجم، وصار الخلفاء من بعده يبالغون في اقتناء أغلى الثياب وأنفسها.

أما الراية وألوانها، فلم يكن فيما نعلم لكل خليفة راية مخصوصة. وإنما كان لكل أسرة لون معين، فالأمويون اتخذوا البياض شعارا، فيما اتخذ العباسيون السواد لذلك، وكان العلويون يتخذون الخضرة شعارا، وأما العثمانيون فقد اتخذوا اللون الأحمر لهذا الغرض.

عزيزي الدارس، لقد كان الخلفاء يتصرفون في أمور الدولة تصرفا يكاد يكون مطلقا في بعض الأوقات، وإن كان للخليفة مثل هذا السلطان فإنما اعطيه ليستعمله في خدمة الرعية، فهو وكيل مؤتمن، وليس سيدا مسيطرا، ونستطيع أن نجمل دور الخليفة بحفظ الدين والجهاد في سبيل الله وفي إقامة الحدود، والقضاء بين الناس، وحفظ الأمن، والدفاع عن الثغور، وجباية (الضرائب) وإنفاقها، وتسمية الموظفين، والاشراف على سياسة الدولة وأعمالها.

وكأني بك، عـزيزي الدارس، تود معرفـة شيئ عن تاريخ الخلافـة وتطورها وما حلّ بها حين زالت في عام 1924م. ولتلبية رغبتك أقول: لقد اختلف العرب المسلمون بعد وفاة الرسـول (عليه السلام) فيمن يخلفه، لأن القـرآن الكريم والسنة لم يعينا شكلا ثابتا للـحكم، فقد خـاف الانصار من حـصول فوضي إذ ظل المسلـمون بدون رئيس، فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، واتفقت كلمتهم على ترشيح واحدٍ منهم وهو سعد بن عبادة سيـد الخزرج. وعندما سمع المهاجرون بذلك أسرع إليـهم كلٌّ من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة، وجرى نقاش طويل بين الطرفين في السقيفة. وحسم عمر الخلاف بأن بادر إلى مبـايعة أبي بكر قائلا: "ألم يأمـر النبي (عليه السلام) بأن تصـلي بالمسلمين، فأنت خليفتـه ونحن نبايعك". ثم تبعـه أبو عبيدة وباقي الزعـماء. حيث عرفت هذه البـيعة بالبيعة الخاصـة. أما البيعة العامة، بيعة باقي المسلمين فكانت في مـسجد الرسول (عليه السلام) بالمدينة.

لم تجر ولاية الخلافة في عهد الراشدين على نسق واحد، فالرسول (عليه السلام) لم يوصِ بمن يخلفه، بل ترك الأمر في ذلك للمسلمين، فاختاروا أبا بكر، ولم يشأ أبو بكر أن يدع الامـر للناس ليختـاروا من يشـأؤون فأوصى لعـمر رضي الله عنه بـعد أن استشـار الصحابة في ذلك. وعندما حضـرت عمر الوفاة لم يدعها شـورى خالصة ولا انتخابية خـالصة، بل أوصى لستة من كبار الصـحابة أن يجتمعوا ويختـاروا الخليفة من بينهم، فاختـاروا عثمان، ولما قـتل عثمان رضي الله عنه دون أن يوصـي، اختار الناس عليا، ثم كان ما كان من أمر الخلاف بين علي رضي الله عنه ومعاوية.

وفي زمن الأمـويين صارت الخلافـة ملكا وراثيـا، وظهر فيـها كل مظاهـر أبهة الملوك. وعليك، عزيزي الدارس، أن لا تنسى البـيئة وأثرها في تطور شكل الحكم، إذ كانت العـاصمة في العـهد الراشدي المدينة، وكل سكانهـا من العرب. وكانت الخـلافة تتلاءم مع العادات والتقاليد العربية، ولكن بعد أن أصبحت دمشق هي العاصمة واختلط العرب بسكان البلاد المفتوحة، وتأثروا بنظم الفرس والروم وعاداتهم، كان على الأمويين أن ينسجموا مع البيئة الجديدة على أن الطبيعة العربية والنفوذ العربي ظلا سائدين.

وفي العصر العبـاسي بقيت الخلافة وراثية، ولكنها تأثرت بنـظم وتقاليد الفرس، ودخلت النظرية الإلهية في الخلافة، إذ كان الفرس يعـتقدون بأن الملك مستمد من الله، وغدا الـبلاط العـباسي أشـبه شيء ببـلاط الأكاسـرة. انظر، أخي الـدارس، إلى قـول المنصـور:

"أنا سلطان الله في أرضه"، وقارن ذلك بقول أبي بكر: "إن احسنت فأعينوني وإن اسأت فقوّموني بحد سيوفكم".

وبالجملة نستطيع القول أن الخلافة بقيت محتفظة بسلطتها وقوتها في عهد الراشدين، فالأمويين، وأول عهد العباسيين، ثم ضعف الخلفاء لتسلط الأعاجم عليهم، فكانوا ألعوبة في أيديهم، يسومونهم سوء العذاب من خلع، وقتل، وتمثيل، واقتصرت سلطة الخليفة على الأمور الدينية، كما أن الوطن العربي قد تجزأ وزالت وحدته. فالأندلس استقلت وتأسست خلافة أموية فيها، وكذلك أنشئت خلافة فاطمية في المغرب ومصر، هذا إلى جانب الخلافة العباسية في بغداد، وبذلك صار هناك ثلاثة خلفاء في وقت واحد، يضاف إلى ذلك أنه في منتصف القرن الرابع الهجري، اتخذ حاكم سجلماسة لقب أمير المؤمنين، كما اتخذ مؤسس دولة الموحدين في الغرب لقب خليفة وأمير المؤمنين. وبعد سقوط بغداد عام 656هـ استقدم الظاهر بيبرس أحد أفراد الأسرة العباسية الذين نجوا وبايعه بالخلافة، واتخذ لقب المنتصر بالله.

وحصل السلطان سليم العثماني حين فتح الشام ومصر عام 1517م على الخلافة، بعد أن تنازل له عنها المتوكل على الله أخر خلفاء بني العباس، واستمر أمر الخلافة إلى أن أعلنت الجمهورية التركية برئاسة مصطفى كمال أتاتورك فصل السلطة السياسية عن الدينية ثم ألغيت الخلافة رسميا في تركيا عام 1924م.

ب- الوزارة:

ولعلك تسأل، عزيزي الدارس، عن معنى الكلمة (الوزارة) ومفهومها. وللإجابة أقول لعل كلمة وزارة مشتقة من معناها الذي اختلف فيه على ثلاثة أوجه: فهي إما من (الوزر) وهو الثقل لأنه يحمل عن الملك أثقاله، أو من (الأزر) وهو الظهر، أو من (الوزر) وهو الملجأ. وقد وردت كلمة وزير في موضعين من القران الكريم، فلما خاطب موسى ربه قائلا: "واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري واشركه في أمري". وفي سورة الفرقان: "ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا".

ظهرت الوزارة لأول مرة في تاريخ الاسلام قبل استخلاف أبي العباس السفاح بشهرين تقريبا ولم يكن للعباسيين يدٌ في ظهورها، لأن (أبا سلمة الخلال) (ت-132هـ) أول رجل تقلدها، منح لقبها لنفسه أو منحه إياها الدعاة باسم (وزير آل محمد) تقليدا للطريقة الساسانية القديمة في الحكم، إذ رأى هو وأصحابه أنه يدير الأمور

جميعا دون صاحب الدعوة ونتج عن هذه النشأة العفوية أن نظام الوزارة وسلطات الوزير لم تكن مرتكزة ولا واضحة الحدود حتى نهاية العصر العباسي الأول. حيث تكاملت بالتدريج على حساب دماء الوزراء أنفسهم.

لقد كانت وظيفة الوزراء الأُول كأبي سلمة الخلال وغيره، كوظيفة المساعد أو الكاتب في صدر الإسلام والعصر الأموي، إذ أن العرب عرفوا الوزير بمعنى المساعد والشريك في الأمر والذي يساعد على حمل الأعباء. فقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وزيرين للرسول (عليه السلام) يستشيرهما في الملمات ويساعدانه في تسيير الأمور، وكذلك كان عمر وزيرا لأبي بكر. فلما جاء بنو أمية اختاروا مساعدين من أهل الدنيا لا من أهل الدين كعمرو بن العاص والحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه، ولم يكن يطلق على هؤلاء المساعدين والكتاب لقب وزير، وعلى هذا فإن العهد العباسي لم يحدث تغييرا إداريا بالوزارة، غير أن اشتراك الفرس بالسلطان، وظهور الوزراء والأثرياء انذاك مثل آل بَرْمك، كل هذا أدى إلى ثبوت هذا النظام الجديد في الإدارة العباسية. والوزارة - عزيزي الدارس - نوعان هما:

أ- وزارة التنفيذ:

وسلطة الوزير فيها مقصورة على تنفيذ ما يراه الخليفة، فيكون الوزير وساطة بين الخليفة والرعية، فيمضي ما يأمر به الخليفة من تقليد الولاة وتجهيز الجيوش ويعرض عليه ما ورد من عمال الولايات، وما يحدث من الأمور الهامة، كما كان في عهد أبي جعفر المنصور. هذا ويجوز للخليفة أن يستوزر وزيري تنفيذ، أحدهما للحرب مثلا والآخر للخراج، ولكنه لا يستوزر الا وزيرا واحدا تفويضيا.

ب- وزارة التفويض:

وهي أن يستوزر الخليفة رجلا يفوض اليه تدبير الأمور برأيه وامضائها على اجتهاده. فيتولى الوزير كل شيء يمضيه عن الخليفة إلا ثلاثة أشياء وهي:

1- ولاية العهد: فإن للخليفة أن يعهد إلى من يرى وليس كذلك الوزير.

2- للخليفة أن يعزل من قلده الوزير وليس للوزير أن يعزل من قلده الخليفة.

3- لا يحق للوزير إقالة الخليفة من الأمامة.

ومن وزارة التفويض آل برمك وابن الفرات وغيرهم في الدولة العباسية. وقد بلغ من تفويض بني العباس لوزرائهم أنهم كثيرا ما كانوا يسلمون إليهم خاتم الخلافة ويختمون به الكتب دونهم.

عزيزي الدارس، لقد كانت سلطة الوزير تتأثر إلى حد بعيد بقوة الخلفاء وضعفهم، ففي العصر العباسي الأول كانت سلطة الخلفاء قوية، حتى أن الخلفاء كانوا يخافون على أنفسهم من بطشهم، وبلغ نفوذ الوزير منتهاه في عهد الرشيد، فقد قال ليحيى بن خالد البرمكي (ت- 190هـ): "إني قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك ما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وامض في الأمور على ما ترى". (الطبري، تاريخ، ج4، ص 619؛ الجهشياري، ص 177؛ المسعودي، ج3، ص 412؛ ابن خلكان، ج 6، ص 221). ولكنه ما عتم أن نكب البرامكة لما ازداد سلطانهم.

وعلى كلٍ لما ضعف شأن الخلفاء، ازداد نفوذ الوزراء وقويت المنافسة على الوزارة، وتفشى الدس والرشوة، وبلغت الوزارة في مطلع القرن الرابع الهجري - أي في زمن المقتدر - (295-320هـ) وفي عهد ابن الفرات (ت-312هـ) شأوا بعيدا من حيث الأبهة والنفوذ وكثرة المال. غير أن سلطة الوزير أخذت منذ القرن الرابع تتسع أو تتقلص حسب حالة الخلافة وموقف الخليفة. وانتهى الأمر في عهد الراضي (-329 322هـ) إلى سيطرة (أمراء الأمراء) على الحكم مباشرة، ولم يبق للوزير من سلطة سوى الاسم. وفي عهد بني بويه (322-441هـ) لم يعد الخلفاء يستوزرون وإنما كانت تولية الوزراء للبويهيين. وكان أكثر الوزراء لا يعزلون وإنما يقتلون أو يسجنون، وتصادر أموالهم ويعزل معهم كتّابهم وأصحابهم. كما حدث للبرامكة أيام الرشيد، ولمحمد بن عبد الملك الزيات أيام المتوكل. (233-247هـ)

عزيزي الدارس، ولعلك تود السؤال عن الوزارة وحالها في باقي الممالك الإسلامية: وللإجابة أقول: إن باقي الدول قلدت العباسيين في اتخاذ الوزراء، كما جرى في الأندلس ومصر. وقد قسم الأمويون في الأندلس الأعمال الحكومية الرئيسة إلى أربعة أصناف، وأفردوا لكل صنف وزيرا، فجعلوا لحسبان المال وزيرا (المالية)، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا (العدلية)، وللترسيل وزيرا (الخارجية) وللنظر في أحوال الثغور وزيرا (الحربية) وافرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحدا منهم ارتفع عنهم بمقابلة السلطان في كل وقت، وأطلق عليه اسم الحاجب.

وفي مصر عرف منصب الوزير زمن الإخشيديين قبل عهد الفاطميين وكان آخر وزير لهم عندما دخل الفاطميون مصر أبو الفضل جعفر بن الفرات، ولكن جوهر أقره في منصبه دون أن يلقبه بالوزير، وكانت سياسة القائد جوهر ألا يحل الشيعيون محل السنّيين دفعة واحدة، حتى لا يقف دولاب الأعمال الحكومية، ثم عهد المعز بالوزارة إلى يعقوب بن كلس اليهودي الأصل، وكانت سلطة الوزير عندهم كسلطة وزير التنفيذ لدى العباسيين. وصار يطلق على الوزارة في عهد الحاكم اسم الوساطة. ثم ضعف شأن الوزارة والخلفاء منذ عهد المستنصر (623-640هـ)، حتى أنه تعاقب أربعون وزيرا في تسع سنوات. لذلك استدعى المستنصر بدر الجمالي والي عكا لإصلاح أمور مصر وكانت له السلطة المطلقة، تولى بعده ابنه الأفضل بن بدر الجمالي، واستبد بالحكم دون الخليفة. وازدادت سلطة الوزراء منذ ذلك الوقت وتضخمت ثروتهم وأصبح الخلفاء ألعوبة في أيديهم.

تَسَلَّمَ الوزارة في أواخر العصر الفاطمي في عهد العاضد أسد الدين شيركوه، وخلفه في هذا المنصب ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي لقب نفسه بالملك الناصر وقضى على الدولة الفاطمية، وأوجد الدولة الأيوبية، وظلت الوزارة قائمة في عهد المماليك، إلا أنه وضع جانب الوزير النائب، وهو يقوم مقام السلطان في أثناء غيابه ثم ألغى المماليك منصب الوزارة وأحدثوا وظيفة ناظر الدولة وناظر الخاصة. وكان كل منهما يقوم بمهام الوزارة، ولعلهم أرادوا بذلك ألا يتعرضوا للخلع والاضطهاد، كما كانت الحال في أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية.

ج- الولاة وإدارة الولايات:

والمراد بالولاية، عزيزي الدارس، الإمارة على البلاد. حيث يولي السلطان من يقوم مقامه في حكومة الولايات وهي الأعمال في اصطلاحهم. وكانت البلاد الخاضعة للعرب تقسم إلى ولايات وإمارات. وكان الخليفة يعين على كل ولاية عاملا أو واليا أو أميرا، يقوم مقامه في إدارة شوونها. وهذا النوع من الحكومة قديم. وكانت الشام لما فتحها العرب والمسلمون واحدة من ولايات الروم يسمونها ولاية الشرق. وتقسم إلى أحد عشر إقليما. وكان لكل إقليم حاكم أو عامل.

عزيزي الدارس، كان النبي (عليه السلام) ينيب عمالا على القبائل والمدن. فكان على كل مدينة كبيرة في الحجاز واليمن، وعلى كل قبيلة كبيرة عامل من قبله، وكانت وظيفة هؤلاء العمال هي الإمامة في الصلاة، وجمع الصدقات، إذ لم يكن هناك

خراج. وكان يحسن اختيارهم، ويفتشهم ويدقق في محاسبتهم ويسمع ما ينقل إليه من أخبارهم.

أقر أبـو بكر عمـال الرسول (عليـه السلام) على أعـماله. وجـرى أبو بكر على معرفة أحوال العمال واستقصاء أخبارهم. وكان يختار أكثرهم علما وعملا. ولما اتسعت رقعة الدولة زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قسمها إلى أقسام إدارية كبرى. يتولى كل قسم منها والي يجمع في يده كـل الأعمال الإدارية في الولاية. وأغلب الولاة كانوا من القادة العسكريين. وإلى جـانب الوالي كان يعين الخليفة عامل خـراج للشؤون المالية كما كان الوضع زمن النبي (عليـه السلام)، وقاضيا لشؤون القضـاء. وكان عمر رضي الله عنه يوصي ولاته باستـعمال اللين في غـير ضعف، والقوة في غـير عنف، وأن لا يأخذوا أنفسهم بأسباب النعيم.

أما في عهد عثمان رضي الله عنه فقد ضعفت الإدارة في أواخر حكمه، مما أدى إلى تذمر المسلمين بالولايات، فشقوا عصا الطاعة وأضرموا نار الفتنة التي انتهت بقتله. ولما ولي علي رضي الله عنه بادر إلى عزل جميع عمال عثمان قبل وصول البيعة اليه من أهل الولايات وكان ما كان بينه وبين مـعاوية. وفي عهد الأمويين (40-132هـ) قسمت الدولة إلى خمس ولايات كبرى هي:

1- الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب.

2- مصر.

3- العراقان: العربي والعجمي.

4- بلاد الجزيرة ويتبعها أرمينيا وأذربيجان وبعض أراضي آسيا الصغرى.

5- إفريقـيا الشمـالية حتى غـرب مصر وبلاد الأندلس وجـزر صقلية وسـردينيا والبليار ومركزها القيروان.

سار الأمـويون على سياسة الراشـدين في اختيـار الولاة من العرب، ومن الذين يثقون بهم، حتى أنهم كانوا يسندون هذا المنصب إلى أفراد البيت المالك، وكانوا يراقبون الولاة مراقبة شديدة ويبحثـون عن سيرتهم ورضى الناس عنهم، وإذا وثقوا بأحد منهم، أطلقوا له الحرية في العمل دون مشاورة الخليفة الا فـيما يُشْكِلُ عليه أمره، كالحجاج في العراق.

وكان نظام الحكم مركزيا في العصر العباسي الأول، وبذلك تقلص نفوذ العمال، وكان يوجد إلى جانب الوالي موظفون، كلٌ حسب اختصاصه: فهناك صاحب المال، وصاحب البريد، والقاضي. ولم تقتصر صلاحيات صاحب البريد على نقل الرسائل فحسب، بل تعدت إلى مراقبة الولاة، إذ كان صاحب هذا المنصب مرتبطا بالخليفة مباشرة، يكتب اليه يوميا بسعر القمح والحبوب وبِسعرِ كل مأكول وبكل ما يقضي به القاضي، وبما يعمل به الوالي، وبما يرد بيت المال من المال وبكل حدث. وقد أصبح تعيين القضاة من قبل الخليفة بعد أن كان تعيينهم بيد الولاة في الغالب. وهكذا حددت سلطة الولاة في العصر العباسي الأول كما كانت عليه في السابق. ولم يقتصر تعيين الولاة على العرب بل أصبح الموالي يعينون ولاة. يقول السيوطي (ت- 911هـ): "والمنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم". (انظر السيوطي، ص 269)

وبعد، عزيزي الدارس، لم تختلف التقسيمات الإدارية اختلافا كبيرا عما كانت عليه زمن الأمويين. إلا من حيث تجزؤ بعض الولايات الكبرى. ولما دب الضعف في الدولة العباسية، استبد الولاة، وجمعوا الأموال وأخذوا يستقلون بعملهم: إما استقلالا تاما أو على مال معين كما فعل الأغالبة في إفريقيا وابن طولون في مصر والولايات، وقد عرف خلال هذه الفترة نوعان من الامارة هما:

1- الإمارات العامة:

وهذه صنفان:

أ- إمارة الاستكفاء والتفويض:

وهي التي كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الاكفياء، فيفوض اليه الإقليم على جميع أهله، ويجعله عام النظر في كل أموره، مثل تدبير الجيوش وتقليد القضاة والحكام، وجباية الخراج، وقبض الصدقات، وحماية الدين، وإقامة حدود الشرع، والإمامة في الصلاة. وإذا كان الإقليم متاخما للعدو وتَرَتّبَ على الأمير أمرٌ آخر هو جهاد ذلك العدو، وقسمة الغنائم في المقاتلة، وكان أكثر ولايات الإسلام على هذه الصورة، وخصوصا ما بعد منها عن مركز الخلافة، كالعراق زمن بني أمية، ومصر والشام زمن بني العباس مثلا.

وكانت إمارة الاستكفاء هذه من جملة الأسباب التي أدت إلى تجزؤ الدولة العربية الإسلامية، لأن الوالي كان يقيم في ولايته كأنه ملك مستقل، إلا فيما يتعلق بإرسال

فضول الخراج إلى الخليفة، والخطبة له، وضرب النقود باسمه. فإذا لمس الوالي من الخليفة ضعفا جمع أهل الإقليم على ولائه واستقل بعمله، إما استقلالاً تاما، وإما على مال معين يبعث به إلى الخليفة في بغداد وعلى هذا النحو استقل الأغالبة في أفريقيا. وبنو طاهر في خراسان وابن طولون في مصر.

ب- إمارة الاستيلاء:

ويراد بها أن يعقد الخليفة لأمير على إقليم اضطرارا، بعد أن يستولى الأمير على ذلك الإقليم بالقوة. فكان الخليفة يثبته في إمارته ويعهد اليه تدبير سياسته. فيكون الأمير بالاستيلاء مستبدا بالسياسة والتدبير. ويكون الخليفة بإذنه منفذا لأحكام الدين. ولأمير الاستيلاء أن يستخدم الوزراء وغيرهم. ومن هذه الإمارات ما انتهت اليه الدولة العباسية من التشعيب وظهور الدول الصغرى فيها، كالدولة الحمدانية، والبويهية، والإخشيدية وغيرها وكلها كانت إمارات مستقلة تدعو للخليفة على المنابر، وتضرب السكة باسمه، وترسل إليه مالا معينا في السنة يتم الاتفاق عليه، وهو الذي يثبت أمراءَها ويكون الحكم وراثيا باسمهم.

2- الإمارة الخاصة:

وهي التي تكون سلطة الوالي فيها عسكرية وإدارية فقط، وليس له أن يتعرض للقضاء أو الاحكام أو لجباية الخراج أو الصدقات في شيء حتى الإمامة في الصلاة، فربما كان القاضي أولي بها منه. وكان الخليفة يعين لهذة الإمارة قضاة وجباة من عنده فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي، وهم يؤدون أعطيات الجند وغيرهم مما يجمعونه. والإمارات الخاصة كانت قليلة في إبان الدولة العباسية بينما كثرت زمن الأمويين.

عزيزي الدارس، كان الخليفة إذا ولّى أميرا على جهة ما، كتب له بذلك كتابا يسمى التقليد أو العهد، يحدد له فيه مهمته السياسية التي يلزمها اتباعها. والوالي إذا قلده الوزير ينعزل بعزله أو بموته. أما الوالي الذي قلده الخليفة فلا يعزل بموته. ولكن الخلفاء الجدد يميلون إجمالا إلى تولية أصحابهم وأنسبائهم الذين يثقون بهم. وكان العزل يتم أحيانا بالكتابة إلى الأمير وإبلاغه صرفه عن الخلافة، أو نقله إلى مكان آخر، وربما رافق العزل مصادرة أموال الأمير وعماله.

وكان أكثر عمال النبي (عليه السلام) عمالا على الصدقات ولهم نصيب مما

يجمعـون. وقد خصص النبي (عليه السلام) لواليه على مكة (عتـاب بن أسيد) (ت- 13هـ) درهما كل يوم. فكان ذلك أول راتب وضع للولاة. أمـا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه خصص لواليه على الكوفة (عمار بن ياسر) (ت- 37هـ) ستماية درهم في الشهر ونصف شـاه كل يوم. وجعل لمعاوية ألفا. وكان يصادر نصف أمـوال العمال إذا ربحوا كثيرا. أما بنو أمية فقد نال عمـال الأقاليم في أيامهم امتيازات كثيرة منحهم إياها معاوية ترغيـبا لهم في البقاء على ولاته، وجرى العباسـيون على نحو ذلك. فلما ولي المأمون (198-218 هـ) الفـضل بن سـهل على الشـرق جـعل له ثلاثة آلاف درهم في الشهر.

د- الحسبة:

الحسبة أو الاحتساب من وجـهة نظر المؤرخين اسم منصب في الدولة الإسلامية، كان صاحبه بمنزلة مراقب للتجار وأرباب الحرف، يمنعهم من الغش في تجارتهم وعملهم ومصنوعاتهم، ويأخذهم باستعمـال المكاييل والموازين. وربما سعر عليهم بضائعهم. أما من وجهة نظر الفقهاء فإن الحسبة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

كان الرسول (عليه السلام) أول محتسب، لأنه نهي عن الغش، وقال: «من غشنا فليس منا». ويشار إلى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطو في الأسواق وسوطه بيده فمتى رأى غشاشا ضربه به.

عرفت الحـسبة (بمعنى موظف مـخصص لها) في زمن المنصـور، حيث ولي أبو زكريا، يحيى بن عبد الله، حسبة بغداد والأسواق عام 157هـ. (انظر الطبري، تاريخ، ج4، ص 61)

عزيزي الدارس، كانت الحسـبة منصبا دينيا، وكثيرا ما كـانت تجمع إلى القضاء. يقول ابن خلدون: "إن الحسبـة: خادمة لمنصب القضاء، وقد كـانت في كثير من الدول الإسلاميـة مثل العبيـديين بمصر والمغرب والأمويين في الأندلس داخلـه في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره" (ابن خلدون، المقدمة، ص 282). وكانت أحيانا تجمع إلى الشرطة وإلى غيـرها. وذلك تنزيها للقضاء وتخفـيفا من عبء الأعمال الكثـيرة، حيث أفرد لها مـوظف خاص بها أولوه عليه اسم المحتـسب، وأعمال المحتسب كثـيرة تشمل نواحي أدبية ودينية وعمرانية وأخلاقية منها:

1- مراقبة التجار وأرباب الحرف:

حيث كان يراقب كل صاحب مهنة يكسب بهـا، مهما يكن نوع هذه المهنة وكان للمحتسبين أساليب بارعة جدا، وفي معـرفة طرق الغش التي يلجأ اليها أصحاب التجار والصناعات وفي الكشف عنـها، حتى أنه كان يراقب الأطبـاء ويأخذ عليهم عـهد «أبو قراط» الذي أخذه على سائر الأطباء ويحلـفهم على أن لا يعطوا أحدا دواء مضرا، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة . . . الـخ ويجبر الطبيب على دفع دية المريض إذا مات بسبب سوء تصرفه. وكانت الشروط التي توضع على الخبازين لا تجد لها مثيلا في الوقت الحاضر.

2- مراقبة الأسعار والموازين:

يجبر المحتسب الباعة على وضع تسعيرة بعض المواد مثل اللحم والخبز.

3- مراقبة الأخلاق العامة:

وهذه الوظيفة لا ضـابط لها، فهي تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنـة ونفسيات المحتسبين، فربما أنكروا قديما أشيـاء لا نكاد نكترث بها اليوم، بل ربما استحسنّاها، ومن الأشياء الـتي كان بعض المحتسـبين يأخذون الناس بها تطييـر الحمام، والتعـرض للنساء ومنع الرجال من لبس الحرير، ومنع اللاعبين بالشطرنج . . . الخ.

4- مراقبة العبادات:

يأخذ المحتسب المسلمـين بصلاة الجماعة والجمعة والأعـياد، ويمنعهم من الإفطار في رمضان، ويـراقب المسلمين في صلواتهم فاذا وجد رجلا يخـالف هيئاتهـا المشروعة أنكر عليه فعله وأدبه، كما كان يعنى بنظافة الجامع وهيئته.

5- مراقبة الأبنية والدور:

حيث كان يأمر بهدم الأبنية التي يبرز بها أصحابها إلى الطرق، ويمنع فتح النوافذ في الأبنية التي تشرف على غيرها، كما قام بهدم البيوت المتداعية ورفع أنقاضها.

6- أعمال مختلفة:

يقوم المحتسب إلى جانب أعماله التي ذكرناها بأمور كثيرة لا تدخل تحت حصر، وأكثـرها يدخل في باب الدعـوة إلى عمل الخـيرات والمبرّات والـرفق بالضعـفاء، ومن ذلك: أخذ السادة بأن يعاملوا عبيدهم وإماءهم مـعاملة حسنة، وإجبار أصحاب البهائم على عدم استعمالها فيما لا تطيق، والسهر على الأطفال اللقطاء والتكفل بهم.

وبعد، فقد كان للمحتسب دار خاصة به تسمى الحسبة، يقيم فيها، ويصرف منها جميع أعماله. فهو إما أن يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم فيعايرها. أو يرسل نوابه في الشوارع لتفقد الأحوال فيها. وكان أحيانا أخرى يخرج ويطوف بنفسه في الأسواق ويراقب نظامها ويعاقب المخالفين.

أما عقوبات المحتسب فكانت إتلاف البضائع الفاسدة، ومنع التاجر الغشاش من العمل وإعلان اسمه ليتجنبه الناس. وإما الضرب والحبس والتعنيف فكانت أمورا مألوفة. كذلك كان يستعمل عقوبة (التجريس) ببعض الصناع الذي يسيئون الائتمان، ويغشون وذلك بأن يركب المذنب على جمل أو حمار من الخلف ويطاف به في الأسواق ويجلل بلباس خاص يحوي الكثير مما يلفت أنظار الناس. كالأجراس والودع.

هـ- الشرطة:

عزيزي الدارس، كان يطلق لقب الشرطة على فئة مختارة من الجند، ثم استعمل في معنى أعوان الأمراء الذين يحفظون الأمن، ويسهرون على النظام. ويقال في اشتقاق الكلمة قولان:

1- أنها مشتقة من الشرط (بفتح الشين والراء)، وهي العلامة، ذلك أنهم يجعلون لأنفسهم علامات يعرفون بها.

2- من الشرط (بالفتح أيضا)، وهو رذال المال، لأنهم يتحدثون في أراذل الناس وسفلتهم ممن لا مال له من اللصوص ونحوهم. ذكر السيوطي (ت- 911هـ): أن "أول من شرط الشرط في الإسلام هو عمرو بن العاص لما ولي إمارة مصر لتوسع القرى" (انظر السيوطي، ص 811). ويميل أكثر المؤرخين إلى القول بأن معاوية هو أول من استعمل الشرطة.

وإذا اعتبرنا العسس نواة الشرطة، فإن تأسيس الشرطة يرجع إلى زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إذ يذكر أن عبد الله بن مسعود كان أميرا على العسس في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تولى هو بنفسه العسس وكان يصطحب معه أسلم مولاه: والعسس، عزيزي الدارس، هو الطواف بالليل لتتبع اللصوص، وطلب أهل الفساد ومن يخشى شرهم، ومن الحق أن نعده الخطوة الأولى في طريق تنظيم الشرطة. لأن المؤمنين كانوا يتولون حراسة أنفسهم ومنع المنكر من بينهم في النهار حتى إذا ناموا تولى السهر عنهم رجال العسس، ثم لما تكاثر المفسدون وتظاهروا بالمنكر في وضح النهار أحوج الأمر إلى من يترصدهم نهارا ايضا فأنشئت الشرطة.

والشرطة إذن عسس دائم إذا صح هذا التعبيـر، وقد جعل لكل حي فرقة خاصة يتسلحـون بالعمـد والحراب، وعليهم رئيس يسـمى صاحب الشرطـة، وكانت تدفع له ولرجاله رواتب حسنة، كي يقوموا بأعمالهم بأمانة وإخلاص. وهي (أي الشرطة) تابعة في الأصل للقـضاء، ثم تنزيها للقـضاء، انفـصلت عنه وأصبح لصاحـب الشرطة حق النظر في الجرائم.

كانت الشـرطة في العهد الأموي آلة تنفـيذ فقط، ولم يكن لصـاحب الشرطة أن يوقع حدا إلا بأمر الخليفة أو الأمير، ولا أن يتحرك حركة الا بإذنه ورأيه، أما في العهد العبـاسي فقد ازدادت سلـطة صاحب الشرطة، حـتى أعطي صاحـبها حق القـضاء في الجرائم وايقاع العقوبات، ولذلك كانت وظيفة الشرطة معدودة من المناصب الدينية.

ويذكر ابن خلدون (ت- 808هـ) أن الشـرطة في الأندلس تفـرعت إلى كبـرى وصغرى، تحكم الشرطة الكبرى في الخاصة والزعماء وأهل المراتب السلطانية وأقاربهم، أما الصغرى فتنحصر في الأحكام العامة والرعاع.

عزيزي الدارس، ويقوم رجال الشرطة بالأعمال التالية:

1- حفظ النظـام: وذلك بمنع الفوضى والتـجمعـات في الطرق والأماكن العـامة والسهر على موكب الخليفة أو الأمير ومراقبة الأشرار واللصوص.

2- مراقبة المقاهي والحانات والأماكن التي يكثر فيها الشرب واللعب ومنع ما يقع فيها من مخالفات.

3- تنفيذ أوامر السلطان مهما تكن من تعزير وتكريم إلى قتل ومصادرة وحبس.

4- تنفيذ أوامر القضـاة كلما احتاجوا اليهم. لاستحـضار خصم أو المحافظة على هيئة الحكم، أو تنفيذ الأقضية.

5- مساعدة عمال الخراج بإكراه المكلفين على دفع ما عليهم.

6- إدارة السجـون واتخاذ سجل تذكـر فيها أسـماء المساجين وسـبب سجن كل منهم.

وبعد، عزيزي الدارس، كـان الخليفة يعين صاحب الشرطة في عـاصمة الدولة. أما في الأقـاليم فكان لكل أمير يولي صـاحب شرطته. وكان يتـميز بهذا المنصب كـبار القواد وعظماء الخاصة. وقد ذكر ابن أبي الربيع الصفات التي يجب توافرها في صاحب الشرطة فقال: "ينبغي أن يكون حليما مهـيبا دائم الصمت طويل الفكر بعيد الغور . . .

وأن يكون شديد اليقظة ظاهر النزاهة . . . قليل التبسم غير ملتفت إلى الشفاعات . . . إذا أفرج عن أحد من السجن ثم عاد بجرم فليجعل الحبس قبره . . . وأن تكون عقوبة الخاص والعام واحدة (كما أمرت الشريعة)" . (انظر ابن أبي الربيع، ص 211)

و- البريد:

ولعلك، عزيزي الدارس، تود معرفة أصل كلمة بريد ومعناها، وللإجابة أقول: إن البريد في اللغة مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلا. وفي الاصطلاح هو أن تجعل خيلاً مضمرات في عدة أماكن، فإذا وصل المخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه، ركب غيره، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة.

أما أصل الكلمة فالبعض يقول إنه عربي مشتق من برد أو أبرد، بمعنى أرسل، وذهب آخرون إلى أنها فارسية الأصل (بريدة دم) ومعناها مقصوص الذنب، لأن الفُرس كانوا يقصون أذناب دواب البريد لتمتاز عن غيرها.

عزيزي الدارس، عرف البريد عند الفرس والروم، وأول من اتخذه من المسلمين معاوية اقتداء بمن كان قبله في الشام. ورغم خلو المصادر من وجود البريد قبل معاوية، فإننا نَشُكّ بأنه عرف زمن النبي (عليه السلام)، ودليلنا على ذلك تلك الأخبار التاريخية التي تذكر إرسال الكتب من قبل النبي (عليه السلام) إلى عماله وإلى الملوك الأجانب. كما أن الراشدين كانوا على صلة وثيقة دائمة مع عمالهم وقوادهم. وفي عهد عبد الملك (65-86هـ) أدخلت على البريد تحسينات كثيرة. وقد قال عبد الملك مرة لحاجبه ألا يمنع عنه أربعة: المؤذن وطارق الليل وداعي الطعام وصاحب البريد لأن حبس البريد ساعة، ربما أفسد على القوم سنة.

اهتم العباسيون بالبريد وأنشأوا له ديوانا خاصا واعتمد الخلفاء عليه اعتمادا كبيرا في إدارة شوون دولتهم. أنظر، عزيزي الدارس، إلى قول المنصور:

"ما أحوجني إلى أربعة نفر لا يصلح الملك إلاّ بهم: أحدهم قاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والثاني صاحب الشرطة ينصف الضعيف من القوي. والثالث صاحب خراج يستقيم ولا يظلم الرعية. والرابع (وهنا عض على سبابته) وقال: صاحب بريد يكتب إليّ خبر هؤلاء على الصحة".

وكان البريد واسطة العلاقات بين الولاة والخليفة وبالعكس، وكان أصحاب البريد رقباء أو مفتشين من قبل الدولة يرفعون التقارير عن أحوال الجند أو المال أو غير ذلك من أمور الدولة، أي أنه كان رقيبا وعينا للخليفة، وكان عليه حفظ الطرق وصيانتها.

لقد بلغ من انتظام البريد زمن المنصور أن عمـاله كانوا يوافونه بالأخبار مرتين في اليوم، فـكان يوقف القاضي عند حـده إذا ظلم، ويرجع السعـر إلى حالتـه إذا ارتفع. ولخوف الخلفاء من ضغط الولاة والقواد على صـاحب البريد جعلوا بينهم وبين صاحب البريد علامة يتفقون عليها سرا للتأكد من سلامة الأخبار وصحتها.

وقـد تسأل، عـزيزي الدارس، عن الوسـائل التي كان ينقـل بها البـريد. ولكي أجيبك فأقول: كانت هناك وسائل عدة لذلك منها:

1- النقل البري:

إذ كان للبـريد طرق تتشعب من مـركز الخلافة إلـى أطراف الدولة. وتنقسم كل طريق إلى محطات أو مواقف فيها خيول، فيستبدل عمال البريد لهم خيولا مستريحة في كل موقف التـماسا للسـرعة. وكان الغـالب في العرب أن يتـخذوا الجمـال لبريدهم. وكانت ناقلة البـريد تتألف من دابة فأكثر حـتى تبلغ أربعين أو خمسين دابة. وكثـيرا ما كانوا يستخدمـون خيل البريد لحمل بعض الناس إلى الخليفة أو الأمير. التـماسا لسرعة قدومـهم. وتختلف سـرعة البـريد باختـلاف الطرق ونوع المراكب بين أن تكون إبلا أو خيـلا. كانوا يعلـقون في أعناق الدواب جـلاجل أو سلاسل إذا تحـركت سمعـت لها قرقعة. وكان يعـتمد ايضا على السعاة في نقل البريد وهـم رجـال خفاف تعودوا الجري والصبر على السير.

2- النقل الجوي:

ويعتمـد فيه على الحمام الزاجل، إذ تكتب الرسـالة بصورة مقتضـبة وتشد تحت جناح الطائر أو في ذيله. ويقـال إن استخـدام الحمام الزاجل كـان معروفـا عند اليونان والرومان، ولم يستعمله العرب إلا زمن المعتـصم الخليفة العباسي، وذلك عندما طيرت له أخبار أسـر بابك الخرمي (222هـ - 836م). ثم زاد الاهتمـام به كثيرا وخـاصة في مصر زمن الأيوبيين والمماليك حيث بلغ عدده (1900) طائر.

3- النقل المائي:

حيث كـان يرسل البريد على السفن في الـبحار والأنهار، وكـان الاعتمـاد عليه ضعيفا، إلا إذا كانت الطرق البرية صعبة الإجتياز أو طويلة خطرة.

4- وسائل أخرى لنقل الأخبار:

ومن طرق المراسلة عندهم أن تكتب ورقة وتعلق بقصبـة وتغرس القصبة في باقة

حشيش وتلقى في الماء، فيعوم الحشيش ولا يزال جاريا بمجرى النهر حتى يراه المرسل إليه. ومنها كذلك أن تكتب الأخبار على السهام وترمي إلى المكان المراد إرسال الخبر إليه. ويغلب أن يكون ذلك في أيام الحصار وانقطاع السبيل. ومن طرق المخابرة كذلك: بناء المناظر أو البناء كالأبراج العالية على المرتفعات. ونقل الإشارات عليها بإشعال النار ونحوه فينقل الخبر بها من منظرة إلى منظرة حتى تبلغ المكان المطلوب. واستخدم هذا النوع الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اتخذ المناظر بينه وبين قزوين.

ز- الدواوين:

عزيزي الدارس، ولعلك تسأل عن أصل كلمة ديوان، هل هي عربي أم فارسي؟ وللإجابة أقول أن ثمة اختلافاً في ذلك فهناك من رأى (ومنهم سيبويه) أن أصل الكلمة عربي ومعناه الأصل الذي يرجع إليه. وهناك من قال (ومنهم الأصمعي) أن أصل الكلمة فارسي ومعناه سجل أو دفتر وأطلقت من باب المجاز على المكان الذي تحفظ فيه السجلات الرسمية.

كان أول من أنشأ الديوان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ اتسعت رقعة الدولة في عهده وكثرت ولاراداتها، فاحتاج إلى ضبط أحوالها، فأنشأ ديوان العطاء أو الخراج، كما رأى أنه من الضروري تقدير أعطيات الجند وتسجيل أسمائهم فأنشأ ديوان الجند. ومن أشهر الدواوين التي عرفت زمن الأمويين:

1- ديوان الرسائل:

ويسمى كذلك ديوان الإنشاء، وهو أول ديوان أنشئ في الاسلام، ذلك أن النبي (عليه السلام) استعمل كتابا يكتبون عنه إلى امرائه وإلي الملوك الأجانب يدعوهم إلى الإسلام، كما كتبوا العهود والهدن والأمانات وغيرها فهؤلاء الكتاب وإن لم يطلق على عملهم اسم الديوان، كانوا يقومون بشيء من متعلقات كتاب الرسائل، فلما جاء العهد الأموي أطلق عليهم اسم الديوان، إذ كان كل خليفة يفوض أمر ديوان الرسائل إلى كاتب يختاره.

2- ديوان الخاتم:

وهو الديوان الذي يتولى ختم الرسائل التي تصدر عن الخليفة، حتي لا تبدل أو تغير، وأول من وضع هذا الديوان هو معاوية بن أبي سفيان، وسبب ذلك أنه كتب إلى أحد الأشخاص بمائة ألف درهم، يأخذها من عامله، على العراق، فجعل الرجل المائة

مائتين فلما علم بذلك معاوية حين حاسب عامله، أمر بإنشاء ديوان الخاتم، ومهمته ختم الرسائل الرسمية بالشمع أو الطين الأحمر حتى لا تفتح قبل أن تصل إلى مرجعها.

3- ديوان المستغلات:

وهو ديوان خاص بما يجمع من أجور الأملاك السلطانية، التي نسميها في الوقت الحاضر أملاك الدولة الخاصة.

4- **ويضاف إلى هذه الدواوين الثلاثة:** ديوان: الجند والخراج، وكانت هذه هي أهم الدواوين وليست كلها إذ تفرعت عنها دواوين أخرى.

عزيزي الدارس، كانت لغة الدواوين حتي زمن عبد الملك بن مروان في العراق هي اللغة الفارسية، وفي الشام اللغة الرومية، وفي مصر القبطية واليونانية. فعرّب عبد الملك الدواوين في العراق والشام. أما في مصر فقد ظلت اللغة اليونانية حتى انتقلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك الذي أمر بترجمة الدواوين إلى اللغة العربية.

وفي العهد العباسي تعقدت الأمور الإدارية وتشعبت، فأنشئت دواوين جديدة كان منها:

1- **ديوان العزيز:** وهو مجلس الخليفة يرأسه الوزير.

2- **ديوان الزمام:** وصاحبه يشبه وزير المالية إذ يجمع الواردات والنفقات ويقيم الموازنة بينهما. وكان يشرف على دواوين الأزمّة في الدولة كلها ديوان رئيس في العاصمة يسمى (ديوان الأزمة) تبقى ديوان الحسابات العامة لجميع الولايات.

3- **ديوان الموالي والغلمان:** وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده.

4- **ديوان الجهبذه:** لما يجبى من أموال من أهل الذمة.

ويضاف إلى هذه الدواوين كثير غيرها مثل: ديوان الجند، ديوان الخراج، وديوان الخاتم، وديوان الرسائل، وديوان البريد، وديوان المظالم، وديوان الشرطة.

ح- القضاء والمظالم

- القضاء:

عرّف ابن خلدون القضاء بقوله: "القضاء هو الفصل بين الناس في الخصومات، حسما للتداعي وقطعا للنزاع، بالأحكام الشرعية المستقاة من الكتاب والسنة".

وإذا دققت، عزيزي الدارس، في هذا التعريف وجدته أنه يقتصر على فصل الخصومات القائمة بين الناس، وهذا هو الأصل في القضاء. غير أن القضاء ينظر في غير الخصومات كمسائل الأوقاف والأيتام والحجر وفكّه وغير ذلك. وعليه يمكننا أن نعرّف القضاء بأنه منصب الفصل في الخصومات والإلزام بالأحكام الشرعية، في الأمور التي تعينت لصاحب هذا المنصب في العهد أو في العرف.

وسأحاول، عزيزي الدارس، أن أستعرض معك تاريخ القضاء وتطوره في الإسلام. إذ كان الناس يحلّون خصوماتهم زمن النبي (عليه السلام) في أول الأمر كما كانوا يفعلون قبل الاسلام إذ كان شيخ القبيلة هو قاضيها، يحكم بين أفرادها وفق عُرف القبيلة وتقاليدها وربما احتكموا إلى الرسول (عليه السلام). ولم يكن حكمه ملزما حتي نزل قوله تعالى: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما". وبذلك يعتبر النبي (عليه السلام) أوّلَ قاض في الإسلام، وكان يستمد أحكامه من القرآن كما كان يجتهد ويستشير أصحابه. وكانت طرق الإثباتات عنده البيّنة واليمين وشهادة الشهود. ولما فتحت بعض الأمصار، عيّن النبي (عليه السلام) الولاة، وكانوا يفصلون في القضاء ايضا، ولم يعين رجلا اختص بالقضاء، كما أذن لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس.

وفي عهد الصديق رضي الله عنه كان يباشر القضاء بنفسه، كما فوض إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحيانا النظر في بعض الأمور التي كان يدلي بها الخصوم إليه. ولما جاء عمر رضي الله عنه فصل بين الولاية والقضاء. وكان عمر يستشير الصحابة وخاصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وكذلك فعل علي رضي الله عنه، ومما يؤثر عنه أنه كان يدعو الشهود متفرقين والكاتب يسجل أقوالهم فإذا وجد تناقضا علم بكذبهم.

ولم يختلف القضاء في زمن الأمويين عنه في زمن الراشدين، غير أنه تميز بأربعة أمور هي:

1- كان معاوية أول خليفة امتنع عن القضاء، ودفعه إلى غيره، فكان له قضاة في قاعدة مُلكه فضلا عن قضاته في الأمصار. وانقطع هو عن القضاء لانشغاله في أمور الدولة. وكان عمر رضي الله عنه أول خليفة قضى في موضعه، واستقضى على الامصار. ومعاوية أول خليفة تخلى عن القضاء جملة واحدة ودفعهُ إلى من يقوم به.

2- تقدم فكرة الرأي باعتبارها مصدرا من مصادر التشريع.

3- ظهور أهل الحديث الذين قاوموا أهل الرأي، معتمدين على الكتاب والسنة.

4- البدء بتسجيل الأحكام (أي تدوينها).

وكان الخلفاء يختارون هم أنفسهم القضاة في عاصمة ملكهم ويتركون اختيار القضاة في الأمصار إلى أمرائهم.

وفي عهد العباسيين حصلت تطورات هامة في القضاء إذ اتسعت سلطة القاضي وكانت تضاف إليه أحياناً الشرطة والمظالم والحسبة. كما نشأت المذاهب الأربعة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، ثم تدخلت السياسة في القضاء، ثم أحدث منصب قاضي القضاة. كما نستطيع الحديث عن فساد القضاء في هذه الفترة، إذ أصبح على القاضي أن يقدم مبلغا من المال في كل سنة. وهذا إضافة إلى التزام القضاء كما هو الحال في الخراج.

كان خلفاء بني أميّة يعينون قضُاة الأمصار، فلما جاء الخليفة المنصور العباسي أخذ يولي القضاة من قبله، وجرى الخلفاء العباسيون من بعده علي طريقته، حتى زمن هارون الرشيد الذي اتخذ قاضيا ولقبه بقاضي القضاة، وأعطى هذا حق تولية القضاة من غير أن يُرجَع إلى الخليفة في أمرهم.

وكان يشترط في القاضي شروطا كثيرة منها:

1- الذكورة: فليس للمرأة أن تتولى القضاء. وشذ الطبري (ت- 310هـ) فأجاز لها القضاء في كل شيء، وأجاز أبو حنيفة قضاءها فيما تصح فيه شهادتها.

2- البلوغ: أي ألا يكون صبيا.

3- العقل: فلا يجوز أن يولي القضاء مجنون.

4- الحرية: أي أن لا يكون عبدا.

5- الإسلام.

6- سلامة السمع والبصر والنطق.

7- العدالة.

8- العلم: أي عارفا بأحكام الشريعة

- المظالم:

وقد تسأل، عزيزي الدارس، عن أمر ولاية المظالم. وللإجابة أقول: إنّ المظالم جمع ظلامة ومظلمة، وولاية المظالم تكون للنظر في ظلامات الناس وإزالة أسبابها. ونستطيع أن نقسم الظلم إلى قسمين:

1- ظلم الولاة والجباة والموظفين.

2- ظلم أفراد الرعية.

أما الأول فالأصل فيه أنّ وليّ الأمر يتتبعه بنفسه ويكشف عنه ويزيله ولكن ولي الأمر لا يستطيع أن يحيط بأعمال الموظفين كلها، ولا أن يعرف ما يوقعونه من الظلم والأذى على الناس، لذلك كان الأفراد يشكون إليه ما يصيبهم من عدوان الموظفين عليهم، في أنفسهم وحقوقهم وأموالهم، ليتوقف هذا العدوان ويؤدب عامله، ويعيد إليهم ما أُخذ منهم بغير حق.

وليس الظلم بعد، مقصورا على الولاة. فقد يقع الظلم من أفراد لا ولاية لهم. إذ قد يتسلط أصحاب الجاه على حقوق الضعفاء وأموالهم، فإذا حوكموا أمام القضاء، وأصروا على عدوانهم، وامتنعوا عن تنفيذ حكم القضاة، أجيز للمظلومين الذين لا يقدرون على تنفيذ الأحكام التي حصلوا عليها أن يشكوا أمرهم إلى والي المظالم لينصفهم من خصومهم.

عزيزي الدارس، كان الخلفاء الأولون ينظرون في المظالم متى رفعت إليهم، ولا يجعلون لذلك وقتا مخصوصا ولا أسلوبا معينا. وكان عبد الملك بن مروان (85-86 هـ) هو أول خليفة أفرد للظلامات يوما محددا. هذا وقد عني المهدي (158-169هـ) بالمظالم عناية فائقة، واتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق، تطرح فيه القصص. وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولا بأول، فينظر فيه، لئلا يقدم بعضها على بعض.

وفي أواسط العهد العباسي كان الخلفاء يفوّضون النظر في المظالم إلى أحد أعيان المسلمين المشهور بالنباهة والفضل. وفي زمن السلاطين في مصر والشام، كان مجلس السلطان الذي ينظر في المظالم يسمى (دار العدل)، وكان يقيم فيها نوابا عنه ويحضر فيه القضاة والفقهاء.



نشاط (4)

1- إقرأ عن شروط الخلافة في كتاب الماوردي الأحكام السلطانية وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟

2- اكتب تقريرا في نكبة البرامكة وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟



تدريب (4)

1- أذكر شروط الخلافة عند المسلمين؟

2- عدد أنواع الوزارة؟

3- ما هي الشروط الواجب توافرها في القاضي؟



أسئلة التقويم الذاتي (4)

1- عدد مظاهر الخلافة عند المسلمين؟

2- قارن بين وزارتي التنفيذ والتفويض؟

3- اذكر ولايات الدولة زمن الأمويين؟

ثانياً: النظم الحربية

أ- الأسطول الحربي

عزيزي الدارس، إن لفظ كلمة أسطول لفظ يوناني (Stolos) ويعني مجموعة السفن الحربية، ولم يهتم العرب المسلمون بركوب البحر الا بعد أن احتلوا الشام ومصر، إذ كانت سواحلها عرضة لهجوم سفن البيزنطيين بصورة مستمرة (انظر محمود عواد، الجيش والأسطول، ص 265)، لذلك رأى معاوية ضرورة إنشاء أسطول، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في ذلك فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يطلب اليه أن يصف البحر وراكبه ففعل عمرو وبيّن الأخطار العظيمة التي يتعرض لها راكبه. وعندها كتب عمر إلى معاوية يرفض طلبه "والله لمسلم أحب إلى مما حوت بلاد الروم .." (ابن المبارك؛ الجهاد، ج2، ص 168؛ الجاحظ، البيان، ج2، ص 57؛ البلاذري، فتوح، ص 134؛ الطبري، تاريخ، ج5، ص 51، 52؛ ابن خلدون،

تاريخ، ج2، ص 576). ويشار إلى أن العلاء بن الحضرمي عامل عمر بن الخطاب على البحرين وعمان - غزا في عهد عمر - سواحل فارس، دون أن يستأذنه وقد فشل في حملته فقاصصه عمر، وبذلك كان العلاء أول من غزا في البحر في الإسلام. (انظر محمود عواد، الجيش والأسطول، ص 259/258).

وعندما آلت الخلافة إلى عثمان رضي الله عنه، أعاد معاوية الكرة واستأذنه في غزو قبرص، وألح عليه حتى أذن له على أن يجعل ركوبه اختياريا (انظر محمود عواد، الجيش والأسطول، ص 265). وفي عام 28هـ غزا معاوية قبرص وصالحه أهلها على جزية يؤدونها كل سنة (أنظر البلاذري، فتوح، ص 157-158؛ الطبري، تاريخ، ج5، ص 51-54؛ ابن أعثم الكوفي، الفتوح، م1، ص 349؛ وانظر ايضاً Fahmy, Muslim Sea, p.81). وفي عام 34هـ وقعت معركة ذات الصواري بين الأسطول الشامي والأسطول المصري من جهة وبين الأسطول البيزنطي من جهة أخرى. وفيها انتصر الأسطول الإسلامي على الأسطول البيزنطي وغدا البحر المتوسط بحيرة إسلامية (انظر فتحي عثمان، الحدود، ج2، ص 338؛ Fahmy, Muslim Sea, p.89). وفي عهد معاوية بن أبي سفيان (40-60هـ) نظم حملات بحرية عرفت باسم الصوائف والشواتي وتمكنت من مقاتلة الاسطول البيزنطي وغزو جزر البحر المتوسط (انظر عن هذه الحملات: اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص 240/239؛ الطبري، تاريخ، ج6، ص121؛ فما بعد؛ وانظر ايضاً محمود عواد، الجيش والاسطول، ص 267، 268)

عزيزي الدارس، وفي مصر، اهتم الطولونيون بإنشاء المراكب الحربية، فكانت تصنع في جزيرة الروضة والفسطاط، كما بذل الفاطميون (296-567هـ) عنايتهم نحو الأسطول لما اشتد خطر البيزنطيين، وكانت تبنى سفنهم في القاهرة والإسكندرية ودمياط. وفي عهد صلاح الدين الأيوبي ازداد الاهتمام بأمر الأسطول لصد الصليبيين عن الموانيء العربية. وكان للأغالبة غزوات كثيرة إلى سردينيا واستولوا على صقلية عام 212هـ. وكانت سفنهم تصل حتى جزر الخالدات واستولوا على ميورقة ومنورقة وكورسيكا ومدينة جنوة. أما في الأندلس فقد بدأ الاهتمام بأمر البحر منذ أيام عبد الرحمن الناصر (ت- 350هـ) حيث زاد عدد أسطوله على مائتي سفينة تمكن بواسطته من الاستيلاء على كثير من سواحل الفرنجة وثغورهم.

استعمل العرب المسلمون في حروبهم مراكب كثيرة تتفاوت في حجمها وشكلها وقوتها، ومنها ما هو من أصل عربي ومنها ما هو أجنبي، ومن أشهرها: الشونة،

والبارجة، والطراد، والحراقة، والسميرية، والغراب، أما أسلحتها فهي: الكلاليب، والباسليقات، والتوابيت، واللجام، والنار الإغريقية. (انظر محمود عواد، الجيش والاسطول، ص 250)

كان العرب المسلمون يلقون حول المراكب الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب لدفع أذى النفط، وكانوا في الليل لا يشعلون نارا، أما في النهار فكانوا يسدلون قلوعا زرقاء كي لا تظهر عن بعد. وكان لكل سفينة قائد يدير أمر سلاحه وحربه وجنوده، ورئيس يشرف على الملاحين، ويدير أمر جري السفينة بالريح أو بالمجاديف ويدعى الربان وكان يعين على جميع قطع الأسطول أمير يدعي أمير البحر أو أمير الماء. (محمود عواد؛ الجيش والاسطول، ص 249)

عزيزي الدارس، ولم تنقطع الحروب البحرية منذ عهد معاوية الذي نظم الصوائف والشواتي، إلا أنه كان لبعض المعارك أثر كبير ونتائج خطيرة وكان أهمها: احتلال قبرص عام 28هـ من قبل معاوية، ومعركة ذات الصواري عام 36هـ التي أصبح البحر المتوسط على أثرها بحيرة عربية إسلامية، وغزوة الأندلس التي غزاها طارق بن زياد في عام 92هـ، ثم غزو جزر البحر المتوسط والاستيلاء عليها مثل: جزيرة صقلية، وميورقة، منورقة، وسردينيا، ومالطة، وكورسيكا، وكريت وغيرها.

وبعد، عزيزي الدارس، فقد اقتبس العرب في الملاحة من سكان البلاد التي فتحوها، ومن البيزنطيين، ولكنهم ما لبثوا أن تفوقوا عليهم وصاروا أساتذتهم. وأهم شيء أخذه الأوروبيون عن العرب الإبرة المغناطيسية كما أن (أحمد بن ماجد) من مشاهير الملاحين والمخترعين العرب، قاد الملاح البرتغالي: فاسكو دي جاما في بحار الهند عند اكتشافه رأس الرجاء الصالح، وأطلعه على الكثير من الآلات البحرية العربية التي كان يستعملها كالإسطرلاب، والإبرة المغناطيسية.

ب- الجيش:

تعلم، عزيزي الدارس، أن العرب قبل الإسلام كانوا أهل بداوة لا نظام للجند عندهم، وكانوا قبائل إذا أرادت إحداها الغزو، جردت رجالها، وفيهم الفرسان والمشاة ومعهم الأسلحة كالقوس والرمح والسيف. أما الدول المتمدنة في اليمن وتخوم العراق والشام فقد كانت على دراية بالنظام العسكري.

ومنذ ظهور الاسلام وتشريع القتال، ظهر عند المسلمين التنظيم العسكري والفن

الحربي الـرائع، وكانت النسـاء تشارك المقاتلـة في حروبهم، يخـدمن الجرحي ويهـيئن الطعام، ويقدّمن الماء ويخطن الثياب ويحمـسن الجند. واشتهر من النساء في هذا رفيدة الأسلمية ونسيبة بنت كعب المازنية. (انظر محمود عواد، الجيش والقتال، ص 141)

وفي العهد الراشدي اتسع نطاق الفتـوحات لذا اضطر عمر بن الخطاب إلى انشاء ديوان الجند لتسجـيل أسمائهم، ومقـدار أعطياتهم وإحصاء أعمـالهم ونهاهم عن الزرع وأمر أن ينادى فيهم أن عطاءهم قائم ورزق عيـالهم سائر ومنعهم من الاختلاط بالسكان وأنشأ لهم حصونا ومعسكرات خاصة. (انظر محمود عواد، الجيش والقتال، ص 150)

وسار الأمويون علي مـا كان عليه الراشدون من أمر المؤسسـة العسكري وأحدث عبـد الملك بن مروان نظام التـجنيد الإجـباري، واستـعان بالحجـاج لتحـقيق ذلك في العراق، وكان الجند العربي فئتين مرتزقـة ومتطوعة، ثم أدخل البربر في الجيش بعد فتح شمال إفريقيا واعتناقهم الإسلام. (أنظر محمود عواد، الجيش والأسطول، ص 43)

أما العبـاسيون فقـد اعتمدوا في قـيام دولتهم على الخراسـانيين وبعض الأعاجم لذلك أدخلوهم في الجيش, وسلموا إليهم زمـامه بقيادة أبي مسـلم الخراساني، فكانت فرق الجند في أيام المنصور ثلاثا: اليمانية، والمضرية، والخـراسانية، ثم أضيف اليه فرقة رابعة هي فرقة الحرس الخاص.

ولما أفضت الخلافة إلى المعـتصم بالله عام 218هـ، كانت العناصر الأجنبـية قد تمكنت من الدولة، وزاد الخلفاء خوفا على أنفسهم، فخاف المعتصم من جنده على نفسه لذلك اعتمد على عناصر عربية وأجنبية جديدة، فكان الجند في زمنه: فرقة من المضريين ومنهم بعض أهل المغرب وفرقة من الأتراك الذين اسـتبدوا وأساءوا إلى الناس فبنى لهم المعتصم مدينة سامـراء، فكان إلى سياسة العباسيين الأعجمية والـى اعتمادهم على غير العرب في المحـافظة على كيـانهم يرجع السبب في زوال دولتـهم وضعف شـأن العرب وتقهقر حالهم.

ولعلك، عـزيـزي الدارس، تسـأل عن مـعـسكرات الجـيـش في عـهـد الدولة الإسلامية. وللإجابة أقول: إن الخليـفة عمر بن الخطاب منع الجند من الاختلاط بسكان البلاد المفتوحة، وأمرهم بالسكن في معسكرات خاصة بهم خارج المدن، على ألا يكون بينهم وبين الخليفة نهر أو بحر. وبازدياد عدد الجند صار المعكسر أشبه ببلده فيه الكتاب والفقهاء، والخـاصون والأتباع، وغيرهم، ومن الأمـثلة على هذه المعسكرات، الكوفة، والبصرة، والفسطاط وغيرها. (انظر محمود عواد، الجيش والقتال، ص 150)

وكان للعرب على حدود دولتهم من جهة البر والبحر، وخاصة بينهم وبين البيزنطيين معسكرات دائمة بل ومدن محصنة دعيت بالثغور والعواصم فيها الحاميات والأسلحة أشهرها: طرطوس، بياس، مرعش، ملطية، ومنبج بالشام، ورفح والعريش ودمياط والإسكندرية في مصر.

أما فرق الجيش فكانت ابتداء المشاة والفرسان، ثم وبتقدم الدولة العربية ورقيها تعددت الفرق حسب تنوع الأسلحة وتخصيص الأعمال، وكانت أشهر فرق الجيش التي عرفت زمن ازدهار الدولة العربية الإسلامية هي:

1- الفرسان: وأسلحتهم الرمح والقوس والسهم.

2- المشاة: وسلاحهم الحراب والسيوف والتروس ويلبسون الخوذ والدروع.

3- الطلائع: وهم في العادة سرية من الفرسان يتقدمون الجيش بعدة أميال.

4- الكشافة: للاستطلاع وقيل أن قتيبة استخدمها لاستحضار خرائط البلاد التي يريد غزوها.

5- الحرس الخاص: لحراسة الخليفة أو أمير الجيش.

6- الغلمان الحجرية: وهم كخدام خصوصيين للخليفة يعيشون في ثكنات خاصة.

7- النشابة: وسلاحهم السيوف والتروس والنبال.

8- النفاطون: ويقومون بالرماية بالنفط لإحراق حصون الأعداء.

9- المنجنيقيون: ويسمون بالمنجنيقيين أيضا ويستخدمون المنجنيق في رماية العدو.

10- المعماريون: وهؤلاء يحملون المعاول علاوة على السيوف والتروس.

11- مستشفيات الميدان: وفيها الأطباء والصيادلة والنقالات (محفات تحمل على الإبل).

12- الجواسيس: وقد اعتمد عليهم العرب نساء ورجالا يتنكرون ويدخلون أراضي العدو يتسقطون أخباره.

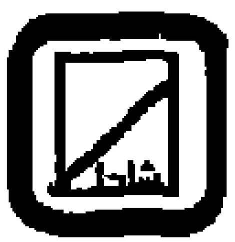
وقد تسأل، عزيزي الدارس، عن أسلحة الجيش المستعملة وللإجابة أقول: إن العرب قبل الإسلام استخدموا أسلحة متنوعة منها: السيف، والرمح، والقوس، والترس، ولبسوا الدروع والخوذة. كما استعملت هذه الأسلحة في الإسلام كذلك، كما

اقتبسوا عن الفرس المجراة وهي آلة لرمي السهام، وامتدت الات الحصار التي عرفوها المنجنيق لرمي الحجار أو النار، وكذلك الدبان وهي آلة من الخشب المغلق بالبدور أو الجلود المنقعة في الخل لدفع النار وتركب على عجلات، والكبش وهو كالدبابة لكن رأسه في مقدمته مثل رأس الكبش ويتحصن الرجال في داخله ويستخدمونه لهدم الأسوار (أنظر محمود عواد، الجيش والقتال، ص 406-410) هذا بالإضافة إلى القوس والسيف والرمح والترس والدرع والنار الإغريقية.

عزيزي الدارس، وكان العرب قبل الإسلام يستخدمون أسلوب الكر والفر في قتالهم؛ ذلك أنهم كانوا إذا هموا بالقتال كروا على عدوهم، فإذا أحسوا بضعف فروا، ثم يعودون فيكرّون وهكذا. وعندما جاء الإسلام صاروا يقاتلون صفوفا عملاً بقوله: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" (سورة الصف: الآية 4) علماً أن الصف = 4م (الصف: 4)، ثم بعد ذلك عمدوا إلى نظام الكراديس، وخاصة في عام 128هـ حيث أبطل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية نظام الصف وصاروا إلى نظام الكراديس. أما إمرة الجيش فكانت إلى النبي (عليه السلام) في عهده، وكان يسند الإمرة إلى غيره أحيانا. وفي زمن الراشدين تعذر على الخلفاء إمرة الجيش فاختاروا أشخاصا عرفوا بالشجاعة والمقدرة، كما وضعوا أمراء من رتب مختلفة كالعريف، والنقيب، وأمير العظمة، وأمير الكردوس، .. الخ. (أنظر محمود عواد، الجيش والقتال، ص 181-200)

وكأني بك، عزيزي الدارس، تود أن تسأل عن رواتب الجند وأكتفي هنا بالإشارة إلى أن المقاتلة كانوا في عهد النبي (عليه السلام) وعهد أبي بكر والصديق رضي الله عنهم يكتفون بما يحصلون عليه من الغنائم. ولما أنشأ عمر رضي الله عنه الديوان فرض الأعطيات حسب أصول اتبعها، إضافة إلى ما كان يدفعه لنساء المقاتلة وذريتهم من أرزاق، واستمر كذلك طيلة العصر الاموي والعباسي مع تفاوت في مقدار ذلك.

نشاط (5)



1- اكتب تقريرا عن موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ركوب البحر وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟

2- اكتب تقريرا عن الأسلحة التي استخدمها المسلمون في قتالهم في البحر؟



تدريب (5)

سم ثلاث فرق للجيش الاسلامي؟



أسئلة التقويم الذاتي (5)

عدد ثلاثة أسلحة استخدمها المسلمون في قتالهم؟

3- النظم الاجتماعية

والآن، تعال بنا، عزيزي الدارس، لننظر إلى تشكيلة المجتمع الإسلامي وعناصره، فقد امتد نفوذ العرب بسرعة كبيرة وفي زمن محدود على ممالك واسعة، تمتد من تركستان وأطراف الهند حتى شبه الجزيرة ايبيريا، وكانت عناصر السكان في هذه البلاد مختلفة متباينة في الأصل ونوع الحياة الاجتماعية، والثقافة الفكرية والاتجاهات الاقتصادية، فضلا عن تباين التاريخ واللغات.

كانت الجزيرة العربية مهد العرب بفرعيهم: القحطانيين والعدنانيين، وفي الشام كان السكان خليطا من بقايا الآراميين في الداخل والفنيقيين في الساحل مع بعض جيوب يونانية. وكان هناك على حافة الصحراء من العقبة حتى الجزيرة العليا عناصر عربية نصف بدوية. وفي العراق تكونت كتلة السكان الأولى من بقايا الأشوريين والكلدانيين والسريان، مع عناصر فارسية بالإضافة إلى العناصر العربية، التي كانت تمتد بين العقبة والجزيرة العليا (الجزيرة الفراتية).

أما في فارس فهناك الفرس، وفي تركيا عناصر تركية مغولية فإذا انتقلنا إلى مصر وجدنا الأقباط مع مجموعة من اليونان. وفي المغرب تظهر العناصر البربرية كما يملأ اسبانيا خليط من العناصر يحكمها القوط.

وفي داخل هذه الدولة الإسلامية الواسعة تتوزع مجموعات يهودية محدودة في الشام واليمن ومصر وإسبانيا. وقد خرج العرب من جزيرتهم في موجة الفتح الأولى ثم في الفتوحات التي تلتها، فتوزعت قبائلهم بين خراسان واسبانيا، وانتقلت من حياة البداوة إلى حياة الحضر المستقرة. ولم تستطع الموجة التركية التي غزت العالم الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري أن تترك أثرا واضحا في غير آسيا الصغرى. وبقيت الصبغة العربية هي الغالبة في معظم المناطق لأسباب عديدة منها:

1- لم يكن العنصر العربي غريبا عن المجموعات العنصرية الموزعة لا سيما في الهلال الخصيب ومصر وشمال إفريقيا.

2- انتشرت اللغة العربية مع انتشار الدين الإسلامي فعربت الناس لغويا.

3- اختلط العرب جنسيا واجتماعيا مع العناصر الأخرى وغلبوها.

4- أعان الحكم العربي العرب على إخضاع العناصر غير العربية لهم حتى أخذت تنتحل النسب العربي.

عزيزي الدارس، لم تكن طبقات المجتمع الإسلامي مغلقة. غير أنها تكونت تبعا لبعض الاعتبارات المنحولة. وكان بعضها ينشأ في عصر ليموت في عصر آخر ويجب أن نتنبه إلى أننا إنما ندرس غالبا المجتمع الحضري. ويبقى دوما هناك في المجتمع الاسلامي مجتمعات بدوية موزعة تتابع حياتها في كل صحراء: من تركستان إلى مراكش. ومن طبقات المجتمع العربي:

أ- طبقات المجتمع الجاهلي:

فقد قسمت البيئة حياة الجاهلية إلى نوعين: النوع الأول: البدو المتنقلون في البوادي الوسطى، والنوع الثاني: حضر وهم المستقرون على الأطراف الجبلية. لقد قام التنظيم الاجتماعي للحضر والبدو على السواء على أساس القبيلة. وقد تألفت القبيلة الجاهلية من مجموعة غير محدودة العدد من الأفراد وهم أفراد متساوون في الحقوق والقيمة، تربط بينهم رابطة الدم. شيخ القبيلة يتزعمها بالرأي أو النسب أو الشجاعة أو الغنى وسلطته الواسعة. ويتبع القبيلة طبقة ممن دخل في القبيلة عن طريق الولاء وهم الموالي، كما يتبع العائلة العبيد الارقاء ولم يكن عددهم كبيرا. وهناك خارج المجتمع القبلي طبقة الصعاليك.

ب- المجتمع الاسلامي في عهد الرسول (عليه السلام):

فقد وضع الإسلام أساسا جديدا للتنظيم الاجتماعي هو الدين. وأقام رابطته مكان رابطة النسب. وصار التفاضل بين المؤمنين على أساسه: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم». على أن المجتمع كله كان أيام الرسول (عليه السلام) من العرب عدا أفراد قلائل. أما غير المؤمنين فكانوا يؤلفون طبقة خاصة تعرف باسم عام هو الكفار. وألغيت بالطبع طبقة الموالي. وإن لم تلغ طبقة الرّق.

ج- المجتمع الإسلامي بعد الفتوح الكبرى وحتى نهاية العصر الأموي:

لقد تغيرت صفـة المجتمع الإسلامي بعد الفتح بدخول كثـير من الأعاجم عليه. وهكذا ظهرت من هؤلاء طبقة من المسلمين أقرت للعرب بالفضل. ودعاها العرب باسم الموالي وأصبح في المجتمع الإسلامي عدد من الطبقات هي:

1- العرب: وهم الحكام وفيهم طبقات آل البيت والصحابة.

2- الموالي: وتطلق على كل من أسلم من غير العرب، وتطلق عليهم أيضا أسماء أخرى كالحمراء والأعاجم، والعلوج، وجلهم من الفرس.

3- الرقيق: وهـم من فقدوا حـريتهم لسـبب من الأسبـاب، كالمصـادرة والشراء والأسر في الحـرب، ويسمون بأسـماء أخرى كـالمماليك للأرقـاء البيض أو العبيد للزنوج. والجواري والإماء للنساء من بيضاوات وسوداوات.

4- أهل الذمة: وهم النصارى والـيهود الذين يعيشـون في بلاد الإسلام وفي ذمة المسلمين لأنهم من أهل الكتاب وقد ألحق بهم المجوس والصافية فيما بعد.

د- المجتمع في العصر العباسي:

توازنت في مطلع العصر العباسي طبقـتا العرب والموالي والفرس غير أن تطورات الأحوال جرّت إلى الدولة طبقة جديدة هي الأتراك الـذين سيطروا بسرعة على الخلافة، وفي غمرة النزاع بين هذه المجريات الثلاث، كان التطور الاقتـصادي يمهد لظهور مجتمع جديد قائم على أساس المال والجاه فظهرت:

1- طبقة الخاصة: وهم طبقة الحكام والقواد ورجال الدولة والقضاء والأشراف وما يتبعهم جميعا من جند وخدم وعبيد.

2- طبقة العامة: وهي بقية المجتمع من تجار وصناع وزراع وباعة وفنانين.

3- طبقة الذميين: والتي شملت آنئذ النصارى واليهود والمجوس والصائبة.

عـزيزي الدارس، لقد حـافظ المجتـمع الاسـلامي في أدوار الانحطاط على هذه الخطوط الكبرى في التنظيم الاجتـماعي، وإن برزت فيه طبقة المـماليك، أصحاب القوة العسكرية فيما بعد.

هـ- المجتمع الأندلسي:

حيث كانت طبقات السكان فيه كما يلي:

1- المسلمون ومنهم العرب وهم الحكام وأعلى طبقات المجتمع، ثم ظهرت بجانبهم طبقة المولدين من الاسبان المسلمين، وكذلك البربر وكانوا أكثر عددا من العرب.

2- اليهود.

3- النصارى الذين كانوا يسمون أيضا بالمستعربين.

4- العلوج: وهم النصارى الذين كانوا يعيشون في اسبانيا ولكن خارج الحكم العربي الإسلامي. وقد كانوا (دار حرب)، إذ لم تهدأ الحرب بينهم وبين المسلمين قط حتى أخرج العرب من اسبانيا عام 1492م.

عزيزي الدارس، لقد عني الإسلام كثيرا بتكوين الأسرة لأنها أساس المجتمع وبمقدار ما تبنى الأسرة على أساس متين تكون سلامة المجتمع وقوته. لقد حض الرسول (عليه السلام) على الزواج واعتبره عبادة تُعادلُ نصف الدين، كما حرم الإسلام الزنا واعتبره فاحشة عظيمة، «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا» (الاسراء: 32)، وجعل الموت عقوبة للزانين المحصنين والمحصنات، لأنه في ذلك مفسدة لحياة الأسرة. ممّا جعل العلاقة بين أفراد الأسرة وثيقة الرباط بين الزوجين وبين الأولاد، ولم تضعف روابط الأسرة إلا عندما كثرت الجواري وازداد الترف وخاصة في العصر العباسي.

لقد اختلفت مكانة المرأة في الجاهلية باختلاف الزمن ونوع الحياة، والنسب، على أنها بصورة عامة كانت تعطى المكان الثاني في المجتمع البدوي، لأن القيم الاجتماعية فيه تقوم على أسس لا تحوزها المرأة كالقوة والقتال والغنى ... الخ وحتى امتازت بشيء مما يميز الرجال ارتفعت مكانتها. وهكذا فقد ظهر في نساء الجاهلية شاعرات وتاجرات ومحاربات، ومنهن خديجة بنت خويلد، وسلمى بنت عمرو، والخنساء.

وقد اشتركت عوامل دينية من جهة، واقتصادية من جهة أخرى، للحط من قيمة المرأة الجاهلية بدليل قوله تعالى: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم» (النحل: 58). وبلغ الأمر بهذا الكره أن وصل العرب إلى الوأد، إلا أن الوأد لم يكن ظاهرة عامة، ولا كان قديما عندهم وإنما حدث قبيل الإسلام، وكان منحصرا في بعض بني تميم بن مرة، كما أنه وجد في بعض سني القحط ولدى الفقراء فقط في بعض القبائل الأخرى، وكانت المرأة في بعض القبائل الأخرى تحرم من الإرث والمهر، وتورث كما يورث المتاع ولا يُسوى بينها وبين الرجل في الدية.

عزيزي الدارس، وأعطى الإسلام للمرأة المساواة مع الرجل. قال تعالى: «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» (البقرة: 228)، ثم قال: «هو الذي خلقكم من نفس واحدة» (الزمر: 6). وحمل الاسلام علي من يحزن لولادة الأنثى وحرم الوأد. قال تعالى: "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم" (الإسراء: 31)، وقسم الشرع للمرأة في الميراث نصيبا مفروضا نصف نصيب الرجل مع عدم مسئوليتها في الإنفاق "وللذكر مثل حظ الأنثيين" (النساء: 11)، وجعل المهر حقا خالصا للمرأة وأمر بحسن معاملتها، وأعطاها حق التصرف بما تملك سواء أكانت أما أم زوجا أم بنتا وجعل لها حق قبول الزوج أو رفضه وحق الطلاق إذا اشترطته. وأما قضية تعدد الزوجات إلى أربع فقد اشترط الاسلام في ذلك العدل بين الزوجات "وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة" (النساء: 3)

وفي صدر الاسلام وبجانب ما أوضح الشرع للمرأة من المكانة فإن الرسول (عليه الصلاة والسلام) قد منحها ذلك، بالمثل الطيب والسنة الملزمة، فقد عرف عنه بين أصحابه أنه كان لين الجانب مع زوجاته حتى كن يراجعنه في كثير من أمره فلا يغضب. وكانت نساء الصحابة يقتدين بنساء النبي (عليه السلام) في ذلك. وقد أثر عن الرسول (عليه السلام) وصايا كثيرة بالمرأة كأم وكزوجة وكبنت. ومن وصاياه بالأمهات: «الجنة تحت أقدام الأمهات»، ومن شهيرات النساء في صدر الإسلام عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين، وأسماء بنت أبي بكر.

وفي العهد الأموي: بدأت المرأة بتبديل طابعها، لأن العفة والغيرة أصابهما آنذاك صدمة قوية، بتكاثر الجواري والغلمان، وانغماس بعض الخلفاء في الترف وانتشار الغناء والمسكرات، فتجرأ الشعراء على التشبيب والتغزل، فأخذ الفساد يفشو بين الناس، وضعفت غيرة الرجال على النساء. ومن شهيرات هذا العهد: سكينة بنت الحسين، ورابعة العدوية وأم البنين زوجة عبد الملك بن مروان.

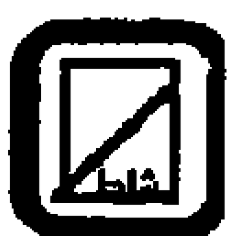
وفي العصر العباسي: الذي أدى تفشي الترف والمفاسد فيه وكثرة اختلاط الأمم، وكثرة الجواري إلى تدني مكانة المرأة باستمرار، حتى أصبح الرجال يتهادون الجواري الرومانيات والتركيات والفارسيات وهن أجمل وجهاً من نساء العرب.

ولم يكن هناك من فرق كبير بين نساء العهد الأموي ونساء مطالع العهود العباسية في المكانة والمجتمع، فكن يذهبن للحرب ويدرسن العلم ويناظرن فيه وينشدن الشعر ثم تغيرت هذه النظرة حتى إذا كان أيام البويهيين والسلاجقة، أضحت نظرة الناس للمرأة

نظرة مهينة حتى نهاية عصور الانحطاط. وكان من لوازم هذه النظرة المنحطة أن عزلت المرأة شيئا فشيئا عن المجتمع. ونشأ بذلك الحجاب، والحجاب يعني ستر الوجه، عادة وجدت لدى الكثير من الأمم كما وجدت لدى الجاهليين الذين كان لديهم النصيف ونصف الوجه والخمار، لكنه كان من علامات الشرف والنبل. وقد نزل الوحي بحجاب نساء النبي، أما باقي النساء فقد أمرت بأن «يضربن بخمُرُهنّ على جيوبهن»، واستمر الأمر على ذلك حتى نهاية العصر الأموي. وفي مطلع العصر العباسي، على أن حجاب الحرائر من النساء كان يزداد بازدياد الجواري تمييزا لهن. ولأنهن أرفع من أن تراهن الأعين وقد تطور هذا الحجاب إلى الذي نراه اليوم.

أما الحجاب بمعنى عزل النساء عن المجتمع ومنعهن من مخالطة الرجال، فلم تعرفه الجاهلية ولا حتى في عهد الرسول (عليه السلام) ولا الراشدين. وأول من عرفه العرب تقليدا للفرس في نهاية العصر الأموي. إذ فصل خالد القسري أمير مكة بين النساء والرجال في الطواف حول الكعبة، ثم ما زال يزداد ويشتد وتساعده تقلبات الحضارة العباسية، وشيوع الأفكار السيئة عن المرأة، وكثرة المفاسد، حتى أضحت سجنا كاملا في عصور الانحطاط وحرمت المرأة من العمل والعلم.

نشاط (6)



اكتب تقريرا عن نظام الموالي في الاسلام وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟

تدريب (6)



ما هي طبقات المجتمع العربي بعد الفتوح الاسلامية؟

أسئلة التقويم الذاتي (6)



اشرح عن التنظيم الطبقي للمجتمع في العصر العباسي؟

4- النظم الاقتصادية والتقنيات

والمقصود بالحياة الاقتصادية دراسة أحوال الزراعة والصناعة والتجارة وتطورها في العصور المختلفة للدول العربية الإسلامية، وقد ازدهرت هذه الأحوال الاقتصادية،

خاصة في عـهد الخلافة العباسية، نظرا لارتقاع رقعة الدولة وتنوع مـواردها، وما ساد الدولة من استقـرار وأمن بعد انتهاء عـهد الفتوحـات. وكان لازدهار هذه الأحوال أثره الكبير فـي نمو ثروات البلاد والتي أثرت أيضا في تطور الحيـاة الإجتماعيـة والعسكرية، ومن مظهر هذه النظم:

1- الزراعة:

انتشرت الزراعـة لدى العرب قبل الإسلام في أطراف الجـزيرة وبعض الواحات. وعندما ظهـر الإسلام لم يهمل المسلمون الزراعـة، فقد كان النبي (عليـه السلام) يقطع الأرض الموات لمن يتعهـدها. ويعد الفتوح دخل الكثيـر من الأراضي الزراعية في الدولة العربية الإسلامية. وحاول الخلـيفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يصرف الناس عن اقتناء الأراضي الزراعية لكي لا يعوقهم ذلك عن الأعمال الحربية ومع ذلك فقد بدأ كثير من العرب بتملك الأراضي، ولما أفضت الخلافة إلى الأمويين، أغفل العرب وصية عمر بن الخطاب، واقتنوا الأراضي والضياع. واهتم الخلفاد بإصـلاح شبكات الري وترميمها التي وجـدوها وفتـحوا غيـرها، إلا أن أحوال الزراعـة لم تزدهر إلا في عـهد الخـلافة العباسية، بسبب استتباب السلم من جهة ولعناية الدولة بشؤون الري وتنظيم أساليبه من جهة أخرى. فحفرت الترع وأقيمت السدود والقناطر خاصة في مصر والعراق وخراسان وبلاد ما وراء النهر.

ومن أساليب استثمار الأرض:

1- الاتجار.

2- الزراعة: وهي أن يبذر الأرض صاحبها ثم تعهد إلى فلاح.

3- المخابرة: وهي أن تبذر ويشرف عيها صاحبها ويحصدها الفلاح.

4- المغارسة: وهي أن يعطي صـاحب الأرض أرضاً إلى فلاح يغرسهـا الأشجار ويفيد منها خلال سنوات كثيـرة وينال نصف الأرض المغروسة عند انتهاء مدة العقد.

5- المسـاقاة: وهي أن يعطي المالك بسـتانا لـلنخيل ليـروي ويصان ويحـمى من الطيور واللصوص مقابل حصة من الثمار.

عزيزي الدارس، اشتهـرت بلاد الدول العربية بكثرة حاصلاتهـا وتنوع منتجاتها، ويرجع ذلك إلى تعدد أقاليـمها واختلاف جوها، ومن أشـهر حاصلات الحبوب فيها:

القمح والشعير والأرز والعدس والفول، ومن الأشجار المثمرة والفواكة: النخيل والكرمة والتين والزيتون والخوخ والكمثرى والمشمش والتفاح والرمان، ومن المزروعات الصناعية: القطن وقصب السكر والكتان، والنباتات التي يستخرج منها الصباغ: كالنيلة والقرمز والعصفر كما يزرع في مصر والشام الورد لاستخراج ماء الورد.

هذا وقد اعتمد العرب على تربية المواشي كثيرا قبل الاسلام وبعده لكثرة فوائدها وأهمها: الإبل وهي أكثر المواشي نفعا لسكان الجزيرة والمغرب وفارس، والخيول العربية وأكثرها ما تربى في سهول العراق والشام ونجد، والبقر التي تكثر في المناطق غزيرة المياه، وافرة الأعشاب، كما في الشام ومصر والعراق، والجاموس الذي جيء به من الهند ويربى في مصر والعراق، كما تربى الطيور الداجنة بكثرة وخاصة في مصر والشام والعراق وكذلك الحمير والبغال.

2- الصناعة:

كانت صناعة العرب قبل الاسلام بسيطة تتناسب مع أحوال معيشتهم. وقد وجدت بعض الصناعات المعدنية والنسيجية في بلاد اليمن حيث نشأت أقدم الحضارات العربية. وتطورت الصناعة واتسعت بعد اختلاط العرب بالأمم التي لها تقاليد صناعية، وخاصة بعد أن انتشر الترف وازدادت الثروة في المجتمع، وقد انحصرت الصناعة بادئ الأمر بأيدي الموالي، ولكن العرب ما لبثوا أن عملوا بالصناعة واتقنوها وتفننوا فيها. وأول نواحي النشاط الصناعي هو:

1- استثمار المعادن:

وقد توفرت المعادن المتنوعة في الدول العربية، وأهم هذه المعادن: الفضة في الولايات الشرقية، والحديد في فارس وصقيلة، والذهب في النوبة والسودان، كما عرف العرب الفحم الحجري في جهات بخارى والنفط المستخرج من العراق، وكانت الأحجار الكريمة موجودة في نواحٍ كثيرة، وخاصة في الخليج العربي، كما اشتهرت الأندلس بالذهب والفضة والحديد والزئبق والأحجار الكريمة.

2- الصناعات النسيجية:

الحريزية والصوفية والقطنية والكتانية. وقد أصبح العرب زعماء تجارة الحرير في العالم خلال القرون الوسطى، وقد نسبت بعض المنسوجات إلى المدن التي تصنع فيها. الفسطان للفسطاط، والداماسك لدمشق، والموصلين للموصل، والكوفيات للكوفة.

وعرفت مصر بالأنسجة الكتانية وخراسان والعراق بالأقمشة القطنية، أما النسيج الصوفي فكان يصنع في كل مكان ويعتمد عليه في بلاد فارس لصنع السجاد ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز (حرير ووبر الأرانب)، والديباج (حرير موشى بالقصب)، والبز (القطن).

3- الصناعات المعدنية:

برع سكان الامبراطورية بالصياغة، وعرفت دمشق بصناعة الأسلحة من الحديد والصلب، كما اشتهرت به اليمن أيضا، وامتازت الموصل بصنع الأدوات النحاسية التي تختص بالمائدة.

4- الصناعات الغذائية:

أشهرها صناعة السكر في فارس ومصر وامتازت الشام بزيتها كما كان يصنع فيها وفي فارس ماء الورد وأغلى العطور، كما كانت أنواع الشراب من الفواكة تصنع في كل مكان. يضاف إلى ذلك مختلف أصناف منتوجات الألبان.

5- الصناعات المختلفة:

ومنها الورق في مصر والشام، صناعة الزجاج والصابون في البصرة والشام، والفخار والخزف في فارس والشام ومصر والجلود في الشام وفارس والمغرب والعراق ومصر، صناعة الأحذية والسروج وجلود الكتب المزخرفة وغيرها.

5- النظم المالية:

لم يكن للعرب، عزيزي الدارس، قبل عهد عمر رضي الله عنه بيت للمال، وفي عهده أنشئ ديوانا الجند والخراج، وكان يحفظ في ديوان الخراج، ما يفيض من الأموال لإنفاقها على مصالح الدولة العامة، وقد أصبح بيت المال زمن الأمويين والعباسيين ملكا للخلفاء يتصرفون به كيف يشاءون، وواردات بيت المال هي:

1- الخراج:

وهي ضريبة تستوفى عن الأراضي الزراعية التي أقر عليها أصحابها من غير المسلمين بعد الفتح، ولا تسقط بإسلام صاحبها.

2- الجزية:

هي ضريبة سنوية على الأعناق تؤخذ من أهل الكتاب -أهل الذمة- مقابل تعهد

المسلمين لهم بحمايتهم والكف عنهم. وتؤخذ على كل رجل حر عاقل، ولا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ والعميان والمقعدين ورجال الدين والفقراء ومقدارها (48) درهما على الأغنياء، و (24) درهما على متوسطي الحال، و (12) درهما على الفقراء.

3- الزكاة أو الصدقة:

وهي أول ضريبة فرضت في الاسلام وهي أحد أركان الإسلام الخمسة. ولم تكن لها في مكة قواعد مقررة، لا في تقديرها ولا في جبايتها. فلما انتقل النبي (عليه السلام) إلى المدينة وأسس فيها حكومة، أقام نظام الزكاة على أسلوب محكم. وأنواع الزكاة خمسة هي: زكاة المواشي، زكاة النقد، زكاة المعادن، زكاة الزروع والثمار. وتصرف الزكاة حسب قوله تعالى: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم". (سورة التوبة: آية 60).

4- العشر:

وهي ضريبة على الأراضي مقدارها عشر غلتها مالا أو عينا. وتؤخذ على الأراضي التي أسلم أهلها، والأراضي التي ملكها المسلمون عنوة، ووزعها الخليفة عليهم.

5- الغنيمة:

وهي ما يغنمه الجيش المسلم من عدوه المشرك من أموال منقولة وغير منقولة، والأسرى من الرجال والنساء والأطفال وتقسم حسب آية الغنيمة: "واعلموا ان ما غنتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامي والمساكين وابن السبيل" (سورة الانفال: آية 41)، وبذلك فإن الخمس يخرج لمن سمتهم الاية، وتوزع الأربعة أخماس الباقية بين المقاتلة.

6- الفيء:

وهو كل ما وصل من المشركين للمسلمين عفوا من غير قتال ويصرف خمسه حسب الآية الكريمة «ما أفاءَ اللهُ على رسولِه من أهلِ القُرى فلله وللرّسولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابنِ السّبيلِ كَي لا يكونَ دولة بين الأغنياء منكم» (سورة الحشر/ آية 6).

7- الواردات الأخرى:

مثل المكوس، أعشار السفن، أخماس المعادن، غلة المستغلات وهي ما يجبى من أسواق ومنازل ابتناها الناس في أرض السلطان غلة دار الضرب وهي بنسبة 1٪ على ما يخرج من نقود الشعب. والأموال التي ليس لهـا مستحق كمن من يموت ولا وارث له، وكذلك ما يخرج من البحر ويؤخذ منه الخمس.

نفقات الدولة:

عزيزي الدارس، نص القران الكريم على أوجه صرف بعض واردات بيت المال كالغنيمة، والفيء، والزكاة، وذكرها في حينها، أما بقية الواردات فكانت تصرف كنفقات للخليفة، ورواتب الموظفين، وأعطيات للجند، وتأمين المعدات الحربية، وفتح القنوات، وإقامة الجسور والمستشفيات . . الخ.

أما طرق الجباية فكانت على ثلاثة أنواع هي:

1- الطريقة المباشرة:

وذلك أن الخليفة كان يعين إلى جانب الوالي صاحب الخراج لجمع الخراج والعشر والجزية.

2- طريقة التضمين أو التلزيم:

وذلك بأن يلتزمها أحد الأشخاص بمال معين يقع عليه بالمزايدة. وقد أتبعت هذه الطريقة في العهود الإسلامية المتأخرة.

3- النقد:

عرف عبد الملك بن مروان النقود، وكانت من قبله إما درهما فارسيا أو دينارا بيزنطيا وتجدر الإشارة إلى أن العرب قبل هذا سكّوا نقودا، كما فعل خالد بن الوليد عام (15 هـ)، وعمر بن الخطاب عام (18 هـ)، وعبد الله بن الزبير، إلا أنها كانت مشابهة للنقود الرومانية أو الفارسية، غير أنه كتب عليها اسم الله واسم نبيه (عليه السلام) على أحد وجهها، واسم الخليفة والتاريخ على الوجه الآخر.

نشاط (7)



1- اكتب تقريرا عن نظرة العرب للصناعة وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟

2- اكتب تقريرا عن الأسلحة التي استخدمها المسلمون في قتالهم في البحر؟



تدريب (7)

1- عدد أساليب استثمار الأرض عند المسلمين؟

2- كيف كانت تَتِمّ جباية الأموال في الدولة الإسلامية؟



أسئلة التقويم الذاتي (7)

1- إشرح عن الصناعات النسيجية في دول العالم الإسلامي في العصور الوسطي؟

2- عدد واردات بيت المال عند المسلمين؟

5. آثار الحضارة العربية الإسلامية في الغرب ويقظة الوعي الذاتي الأوروبي

تعلم، عزيزي الدارس، أنه في الوقت الذي كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية مزدهرة في ربوع العالم الإسلامي، كانت أوروبا في العصور الوسطى في فترة ركود ذهني وعلمي، دعت الكثير من الكتاب إلى وصفها بالعصور المظلمة لأن العلم في أوروبا احتكره رجال الدين، ولأن المعرفة حددت بأطر دينية، منعت الناس من التفكير فيما وراء ذلك.

نسي الناس انئذ حضارة الإغريق والسريان، ولم يدروا بحضارات شعوب اسيا، وحجب بينهم وبين العقل المتفتح، لكن دروبا ضيقة أخذت تنتشر منها أنوار الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس وصقلية وجنوبي ايطاليا، وكانت الحروب الصليبية ما لبثت أن فتحت أبوابها على مصراعيها فأضاءت العقل الأوروبي وكانت أحد عوامل النهضة الحديثة ....

ولم يقتصر دور المسلمين على نقل الآثار الفكرية الإغريقية والفارسية والهندية والسريانية وغيرها إلى العربية حيث حفظوها من الضياع، فانتقلت إلى أوروبا سالمة

واعتمدت عليها في يقظتها، بل إن المسلمين درسوا هذه الآثار الفكرية ونقدوها وأتموا نواقصها، وصححوا أخطاءها، وأضافوا إليها الكثير من الحقائق التي وصلوا إليها بتجاربهم، فكان فضل العرب والمسلمين على أوروبا مضاعفا: حفظ تراث الأقدمين، وتقديم تراث ناضج ومدروس يعتمد على العقل، وعلى التجربة في وقت واحد. فترجم الأوروبيون كتب العرب والمسلمين الطبية والفلسفية، وقلدوهم في الصناعة، واقتبسوا منهم أنظمة إدارية واجتماعية، وقلدوهم في فن البناء والزخرفة واتبعوا منهجهم في كل مناحي الفكر، فكان دور الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الأوروبية في كل فنون الحياة وعلومها.

وسأعرض لك عزيزي الدارس أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا في المجالات المختلفة:

1- في المجال العلمي:

بدأ اطلاع أوروبا على الانتاج العلمي للعرب والمسلمين بالترميمات اللاتينية التي اعتمدت عليها الجامعات الناشئة خلال عدة قرون فترجمت موسوعات الطب العربي الإسلامي، وأصبحت مصدرا للطب الأوروبي حتى مطلع العصور الحديثة. وأهمها كتاب القانون لابن سينا، والحاوي للرازي. وقد ورد في وثائق جامعة لوفان في بلجيكا أن هذين الكتابين كانا المرجع الرئيس لأساتذة هذه الجامعة الطبية حتى أوائل القرن السابع عشر. كما ترجم كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) لأبي القاسم الزهراوي (ت- 427هـ) إلى اللاتينية في القرن الخامس عشر.

واقترنت بحوث العرب والمسلمين في الطب ببحوثهم في الكيمياء، فأفاد الأوروبيون منهم كثيرا في هذا العلم المستحدث. وربما كانت فائدتهم من دروس العرب والمسلمين في الكيمياء أعظم مما أفادوهم من دروسهم الطبية، فالقلويات معروفة في مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربي، وماء الحوامض وهو من أهم الحوامض المستخدمة في التجارب الكيمياوية لم يظهر وصفه في كتاب قبل جابر بن حيان. وهو صاحب الفضل فيما عرفه الأوروبيون عن بلح التشاور وماء الذهب والبوتاس وزيت الزاج، وبعض السموم. وقد ترجم له كتاب "السبعين" وكتاب "تركيب الكيمياء" إلى اللغة اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر، وظلت كتبه متداولة في هذا العلم بين الأوروبيين إلى أواخر القرن السابع عشر.

وكـما نُـقلت كتـب الرازي كذلك نـقلت كتب جـابر بن حـيـان. ومنهـا تلقى الأوروبيون تقسـيم المواد الكيماوية إلى نباتـية وحيوانية ومـعدنية، وكان تقـسيم العرب للمواد المعدنية أدق تقسيم عُـرِف في العصور الوسطى. ولعل التاريخ الأوروبي لم يتأثر بشيء من كشوف العرب والمسلمين في المعدنيات كما تأثر بكشف البارود واستخدامه في قذائف الحصـار وأسلحة القتال. وتـقديرا وإكراماً للرازي فقـد أطلقت جامعة بـرنستون الأمريكية اسمه على إحدى أجنحتها.

ولم يكن العـرب والمسلمون في مـجال الفـيـزياء وعلم البصـريات بأقل أثراً في الحضارة الأوروبية الحديثة، فقد قـلب ابن الهيثم الأوضاع القديمة ووضع علم البصريات على أسس حديثة فهو يُعَدّ المؤسس الاول لعلم الضوء الحديث.

وفي الطبيعيات أخرج العرب والمسلمون الثقل النوعي لكثير من العناصر والجواهر النفـيسـة، ونقلوا رأي الإغريق في الجـاذبية وتـعليل الثقل النوعي. وقـد مهـدت هذه الأبحاث سـبيل نيـوتن إلى كشف قـانون الجاذبيـة وتعليل الثقل على الأسـاس العلمي الحديث، وعن العرب أخذ الغـرب أيضا طريقة تحضير الأدوية فغمـر البلاد الغربية دفق من العقاقيـر العربية عن طريق البندقية وصقليـة، وتدفقت معها كذلك كـتب كثيرة في علم الأدوية وصلت حتى بلاد الراين فقلدها المقلدون وأفادوا منها.

ومن الخطأ الظن أن علم الجـغرافيـا علم يوناني في أصوله ومـبتكراته لاشتـهاره باسم مؤلف من كلمتين يونانيتين لأن بطليموس نفسه قد اقتبس كثيرا عن العرب القدماء في مصـر وفي كنعان. والواقـع الذي تتفق عليـه آراء المؤرخين أن أوروبا لم تطلع على جغرافـية بطليموس قبل انتقـالها إليها عن طريق الثقـافة العربية فريدة ومنقـحة من قبل الجغرافيين المسلمين ولا سيما الإدريسي (ت- 560هـ) الذي يعد كتابه في الجغرافيا وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى، وقد كان للخرائط والرسوم الجغرافية وخيرة العرب والمسلمين في البحر أثر كبير في الكشوف الجغرافية التي تمت في عصر النهضة.

عزيزي الدارس، لقـد قدم العرب والمسلمـون بجامعـاتهم التي بدأت تزدهر منذ القرن التاسع الميلادي، والتي جذبت لها منذ عهد البابا سلفستر الثاني عدداً من الغربيين من جانبي جبال البرانس، ظل يتزايد حتى صـار تياراً فكرياً دائماً قدم العرب والمسلمون بها للـغرب نموذجا حـيا لأعداد المـتعلمين لمهن الحيـاة والبحث العلمي، وقـدمت تلك الجامعات بدرجاتها العلمية وتقسيمـها إلى كليات واهتمامها بطرق التدريس أروع الأمثال للغرب لأنها لم تقـدم المظهر فحسب، بل قدمت أيضـا مناهج الدراسة. على أن فضل

العرب والمسلمين لم يزد في مجال العلوم التجريبية فحسب، وانما تعداها إلى العلوم الانسانية من فلسفة وأدب وفن.

2- في مجال العلوم الإنسانية:

لقد تعدت أبحاث العرب والمسلمين مجال العلوم العلمية إلى البحث في أهمية الكون وفي تحليل النفس والعلاقات الاجتماعية واستنباط قوانين الطبيعة ونقلوا إلى أوروبا خلاصة الفكر الإنساني، كما أمدوه بدفق من معين الفكر العربي الإسلامي، الأمر الذي جعل الحضارة العربية الإسلامية مركز الصدارة في العالم فقد كان وجودهم نعمة للبشرية جمعاء ولولاهم لتأخرت حضارة أوروبا عدة قرون.

أما الفارابي ت- 350هـ الذي أخرج للناس من المؤلفات والرسائل ما يزيد على المائة، أتى فيها على الفلسفة بعلومها، وعلى النجوم والمناظر والمنطق والهندسة والموسيقى. والتي ضاع أكثرها أثناء الاضطرابات والفتن، ولم يسلم منها إلا القليل، ومن هذا القليل ترجم الأوروبيون ما وقع في أيديهم. ومنهم من نقل محتويات بعض رسائله وادعاها لنفسه، وكان لهذا الفيلسوف أكبر الأثر في التفكير الأوروبي ولا يزال رجال الفلسفة والعلم في أوروبا وأمريكا مهتمين به إلى اليوم. وقد لقب بالمعلم الثاني (وتسميته بالمعلم الثاني بعد أرسطو المعلم الأول قد جعل هذين الفيلسوفين على قدم واحدة من المساواة). وقد بحث الفارابي في تأليفه مثل كتابه: "آراء أهل المدينة الغامضة" عن بعض روابط الاجتماع. كما عد كتابه "إحصاء العلوم" موسوعة علمية تركت أثرا في تصنيف العلوم في العصور الوسطى.

لم يكن تأثير ابن سينا في الغرب بطبه فقط، بل تأثرت الفلسفة المسيحية بفلسفته، وعُدّ بمقام أرسطو وممن تأثر به من فلاسفة أوروبا البرت الكبير، وتوما الاكويني اللذان قلداه في التأليف وتبنيا بعض نظرياته وآرائه، حتى قال عنه سارتون: "إن فكر ابن سينا يمثل المثل الأعلى للفلسفة في العصور الوسطى".

ومن فلاسفة العرب والمسلمين: أبو حامد الغزالي (ت- 505هـ) الذي انصرف إلى دراسة الفقه والكلام محاولا التوفيق بين الدين والدنيا، ويعد صاحب النظرية الأولى في الشك الذي سبق بها ديكارت، ومن مؤلفاته: "إحياء علوم الدين" و "المنقذ من الضلال".

عزيزي الدارس، وفي الوقت الذي كان فيه الفكر الأوروبي مقيدا بتعاليم

الكنيسة، كان الفلاسفة والمسلمون مُنكبّين على دراسة الفلسفة اليونانية وشرحها وتنقيحها. وقد برز في هذا المجال عدد من الاسماء اللامعة الذين أخذ عنهم الغرب أسس تفكيرهم الحاضر، وكان من أشهر هؤلاء الفيلسوف: ابن رشد ت 595هـ المعروف بالغرب باسم "Arerroes". وقد كان هذا أعظم حكماء القرون الوسطى على رأي الكثيرين، ومن أكبر فلاسفة العرب والمسلمين. درس ابن رشد مؤلفات أرسطو دراسة عميقة وشرحها، وبذلك أورث الإنسانية علم أرسطو كاملا بريئا من الشوائب. وقد اعترف كثير من كتاب الغرب أن ابن رشد أشهر مفكري الإسلام، وأنه أبعدهم نفوذا، وأعظمهم أثرا في الفكر الأدبي كما اطلع "بيكون" على مؤلفات ابن رشد ودرسها دراسة عميقة وأفادَ منها فوائد جليلة كان لها أثر في نتجه تفكيره واتجاهاته وكان معجبا بابن رشد إعجابا دفعه إلى الاعتراف بان ابن رشد فيلسوف متين متعمق صحح كثيرا من أنماط الفكر وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لا يستغنى عنها بسواها وأدرك كثيرا مما لم يكن قبله معلومات لأحد، وأزال الغموض من الكتب التي يتناولها بحثه.

لقد اقتبس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها، وكان من حسناتها أن حلت عقد الفكر الأوروبي وفتحت أمامه أبواب البحث والمنافسة على مصراعيها، وهكذا نشأ مذهب الرشدية للأخذ بالعقل عند البحث، وعدم الاعتماد على الروايات الغيبية، كماأن ابن رشد سبق "كانت" في بحوث الزمان والمكان فلم يكن للفيلسوف الالماني فضل الابتكار بل كان له فضل التوسع لا غير.

3- في مجال الآداب والفنون والحياة المعيشية

تمعن، عزيزي الدارس، فيما قاله أحد العلماء الأوروبيين: حيث قال: "إن أوروبا مدينة للبلاد العربية بنزعتها الرومانسية، وأنها مدينة لبطحاء العرب وسويته بمعظم القوى الحيوية الواقعة أو بجميع تلك القوى التي جعلت القرون الوسطى مخالفة للروح والخيال للعالم الذي كانت تحكمه روما".

لقد اقترنت بموضوعات الأدب العربي أسماء طائفة من عباقرة الشعر في أوروبا بأسرها خلال القرن الرابع عشر فما بعد، وثبتت الصلة بينهم وبين الثقافة العربية. ومن هؤلاء: بوكاشيو، دوانتي، وبترارك الايطاليين، وشوسر الإنجليزي، وسرفانتس الاسباني، وإليهم يرجع الأمر البارز في تجديد الآداب القديمة في تلك البلاد، ففي عام 1349م كتب بوكاشيو حكايته التي سماها: "الأيام العشرة"، وحذا فيها حذو "الليالي العربية" أو "ألف ليلة وليلة"، حيث ضمنها بوكاشيو مائة حكاية من طرائف حكايات

ألف ليلة وليلة، وأسندها إلى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال، اعتزلوا المدينة في بعض الضواحي فرارا من الطاعون وفرضوا على كل منهم حكاية يقصها على أصحابه في كل صباح تمضيه للفراغ، وقد ملأت هذه الحكايات أقطار أوروبا منها واقتبس منها شكسبير موضوع بمسرحية "العبرة بالخواتيم".

وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزية أكبر المقتبسين في زمانه حين نظم قصصه المشهورة باسم قصص "كانتربري". ومنها قصة السيد التي اقتبس فيها إحدى قصص ألف ليلة وليلة واستهلّها بالكلام عن بلاط خان من خانات التتر أو المغول، وربما كانت صلة دانتي بالثقافة العربية أوضح من صلة بوكاشيو وشوسر، فقد لاحظ أكثر من واحد من المستشرفين أن الشبه قريب جدا بين أوصاف الجنة في كلام يحيى الدين بن العربي (ت- 638هـ)، وأوصاف دانتي في الكوميديا الإلهية. وقد كان دانتي يعرف شيئا غير قليل من سيرة الرسول (عليه السلام)، فاطلع على الارجح من هذا الكتاب على قصة المعراج، ووصف الاسراء، ومراتب السماء، ولعله اطلع على رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (ت- 449هـ)، واقتبس من هذه المراجع كلها رحلته إلى العالم الآخر.

أما سرفنتس، فقد عاش في الجزائر بضع سنوات وألف كتابه: "دون كيشوت" بأسلوب لا يشك من يقرؤه في اطلاع كاتبه على العبارات العربية، والأمثال التي لا تزال شائعة بين العرب حتى هذه الأيام، وقد جزم بريسكوت صاحب الاطلاع الواسع على تاريخ الاسبان بأن فكاهة "دون كيشوت" كلها أندلسية في اللباب، إلا أن الأثر الذي يفوق هذه المقتبسات الفردية جميعا هو شيوع التعليم بالعربية الذي سبب إهمالا للغة اللاتينية والإغريقية، بعد أن كان كل أدب وكل علم لا يكتب إلا بهما ويقتصر على رجال الدين، فكان هذا الشيوع خطوة لا بد منها لإحياء اللغات الشعبية، وتداول الشعر والبلاغة والعلم عن غير طريق رجال الدين. ويروي لنا دونري في كتابه: "الإسلام في الأندلس" رسالة ذلك الكاتب الاسباني - الفارو - الذي كان يأسى أشد الأسى لإهمال لغة اللاتين والإغريق والإقبال على لغة العرب فيقول: "إن أسباب الفطنة والتذوق قد سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها".

عزيزي الدارس، إن الصلة بين الأدب العربي والآداب الاوروبية الحديثة لم تنقطع منذ القرن السابع عشر وحتى اليوم، ويكفي لإجمال الأثر الذي أبقاه الأدب العربي في

آداب الأوروبين أننا لا نجد أديبا واحدا من نوابغ الأدباء عندهم خلا شعره أو نثره من بطل عربي، أو نادرة عربية، ومنهم شكسبير وأديسون وبايرون وشيلي من الإنجليز، وغوتة وليسينغ وهاينة من الالمان، وفولتير ومونشيكو وروسو من الفرنسيين، وقد صرح لافونتين باقتدائه في أساطيره على لسان الحيوانات بكتاب كليلة ودمنة الذي عرفه الأوروبيون عن طريق العرب.

وقد تأثرت القصة الأوروبية في نشأتها بما كان عند العرب والمسلمين من فنون القصص في القرون الوسطى. وهي المقامات وأخبار الفروسية ومغامرات الفرسان في سبيل المجد والحب، وترى طائفة من النقاد الأوروبيين أن رحلات جلفر الذي ألفها سويفت، ورحلة روبنسون كروزو التي ألفها ديفو Defo مدينة لألف ليلة وليلة، ورسالة حي بن يقظان التي ألفها الفيلسوف ابن طفيل، وكان الاتجاه إلى الشرق حركة مألوفة في معالم الأدب كما كانت مألوفة في حالة السياسة والتوسع. أما في مجال المفردات، فقد بلغت المفردات العربية التي أضافها الإسبان وأهل البرتغال إلى لغاتهم ما يملأ معجما غير صغير.

وعلى الرغم من أن الرسم والنحت وصنع التماثيل لم يكن لها دور كبير في الحضارة العربية الإسلامية إلا أن ذلك لم يمنع الغربيين من اقتباس فن البناء العربي ما وسعهم ذلك متفرقا في القصور والقلاع، فقد شاع في انجلترا في عهد الملكة اليزابيث وما بعده النقوش البارزة التي أطلقوا عليها اسم النقوش العربية (أرابسك)، وبنوا قلاعهم بعد الحروب الصليبية على طراز يقارب الطراز العربي في مضاعفة الجدران وإقامة البروج بينها وتخطيط الحصون، وإقامة الأبواب ذات الزوايا القائمة التي تحول دون استخدام الباب عند الوصول إليه لتصويب القذائف إلى الأقنية الداخلية، وقد أخذوا من الكنائس الشرقية التي تأثرت بالطراز العربي أنماطا من الزوايا والبروج المستديرة، لم يكن لبناء الكنائس في أوروبا عهد بها قبل الحروب الصليبية.

ولمصنوعات العرب والمسلمين أثر كبير أيضا بين الأوروبيين بحيث كانوا يقلدونها دون أن يفهموا معناها. ومنها ما كان حروفا مكتوبة ينقلها الصياغ. وهم لا يدركون قراءتها لأنهم حرصوا على محاكاة الزخارف والمزركشات العربية كما رأوها على الأقمشة والمعادن والأخشاب المرصعة أو المنقوشة.

وجملة القول، عزيزي الدارس، أن دور العرب والمسلمين الغني كان قدوة للأوروبيين في مجال الفن الذي يعم القصور والبيوت والمصانع والأسواق ولا ينحصر

في نوادي الفن ومراسم الرسامين. وعلى الرغم من اختلاف نشوء فن الموسيقى لدى العرب والاوروبين فلا خلاف لدى المؤرخين في تداول العلماء الأوروبين لبحوث العرب والمسلمين في الموسيقي النظرية. فإنهم على قلة ما ترجموه من ثلث البحوث فقد كان منهم مئات يطلبون العلوم بمدارس قرطبة وغيرها ومنها الموسيقى النظرية.

وليس بين الموسيقى العربية والأوروبية فرق أصيل في السلم المعتمد عند العرب وعند الاوروبيين الا أن الموسيقي العربي يعتز بما يسميه ربع المقام ويحسبه فرقا جوهريا بين أنغام الشرقيين وأنغام الغربيين، وقد اعتمد بعض الموسيقيين الغربيين أمثال هانس بارت ورمس كورساكوف في بعض أعمالهم على دراسة: "ربع المقام" هذا عدا الموسيقيين الذين أدخلوا الأنغام العربية في تقسيماتهم المسرحية وغير المسرحية، وإذا أضفنا إلى كل ذلك تدفق البضائع وبعض الصناعات من الشرق إلى الغرب كصناعة الورق والصناعات العطرية والحريرية التي تركت أسماءها في الحضارة الأوروبية حتى اليوم. أدركنا مكانة العرب والمسلمين الحضارية، وما لهم من فضل ليس فقط على الحضارة الأوروبية بل على الحضارة العالمية.

4- دور العرب في تكوين المعارف العلمية في أوروبا:

تعلم، عزيزي الدارس، أن العرب هم الذين صنعوا الصابون لأول مرة، وكانوا يعملون منه صنفين، صنفا من الصودا، وصنفا آخر أبيض اللون من البوتاس، وقبل العرب كان المصريون واليونان القدماء والرومان يستعملون رماد النباتات بعد ترشيحه من أجل غسل الملابس.

والعرب هم الذين أدخلوا السكر المصنوع من القصب في أوروبا، وكان الهنود هم أول من زرع قصب السكر واستنبطوا منه السكر . . . وقد توسع العرب في زراعته في جميع المناطق المعتدلة المناخ في أنحاء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

أما الورق فقد اكتشفه الصينيون، ولم يدخل الغرب. ولم تعرفه أوروبا إلا عن طريق العرب، وازدهرت صناعته خصوصا في خراسان في عهد هارون الرشيد (-198 170هـ) الذي أمر بكتابة المصاحف على هذا الورق بدلا من الرق. وانتشرت صناعة الورق انتشارا هائلا في البلاد الإسلامية كلها منذ القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد وعن طريق العرب دخل الورق إلى أوروبا.

كذلك برع العرب في كثير من الصناعات القائمة على الكيمياء فاستخرجوا

الذهب بطريق الغسل، وقطروا الزئبق من الزنجبيل، واستخلصوا العطور بتقطير الورد، ووضعوا أنواع الحبر المختلفة: الحبر العادي، والحبر السري، والحبر الذهبي، وانتجوا مختلف الألوان والأصباغ، ومهر العرب أيضا في صناعة الأحجار الكريمة المزيفة واللآلئ الصناعية.

عزيزي الدارس، وفي مجال الزراعة ترى أبحاثا عظيمة للعرب خصوصا في الأندلس ويتناول هذا الميدان: الفلاحة ثم النباتات الطبية... ومن هنا نجد في اللغة الاسبانية عددا ضخما من الألفاظ العربية المتعلقة بالنباتات وخصوصا الفواكه والأزهار والاعشاب مثل: الدقلي والسوسن والريحان والحبقة والباذنجان واللوبيا والزيتون والمشمش والخروب والترمس.

لقد انتقل تأثير الفن العربي إلى ايطاليا. فمنذ القرن الثاني عشر نرى في إيطاليا صحائف النحاس المشغولة في الموصل، وصناديق العاج العربية، والسجاجيد العجمية والتركستانية، والأقمشة المخططة والمصنعة في الشام، والمخطوطات المزينة بالمصورات، والنحاس الدمشقي والزجاج والأواني الدمشقية... بل إن توابيت الموتى كانت تزين برسوم إسلامية.

وكان العرب هم الذين أدخلوا في أوروبا كثيرا من الألعاب المشهورة، وأولها: الشطرنج وأصله من الهند ثم عرفته فارس وكذلك لعبة البولو التي كانت الأصل في لعبة كرة القدم، وألعاب العيد، وقد مهر فيها العرب خاصة في العيد.

5- دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي

كان أبرز دور للعرب في تكوين الفكر العربي هو في العلم بمختلف فروعه: الطب، الطبيعة، الكيمياء والفلك، والتاريخ العربي والفلاحة.

أما في الرياضيات فقد كان للعرب الفضل الأكبر لأنهم هم الذين أدخلوا النظام العشري في العدد، إذ كان العرب يستعملون في العدد الحروف الأبجدية في العد من 1-999 ثم يستعملون الشرطة والشولة والنقطة للعد بعد ذلك حتى آلف الآلاف، وكان الرومان يستعملون سبعة أحرف من الأبجدية هي I, V, X, L, C, D, M وتدل على التوالي 1, 5, 10, 50, 100, 500, 1000 ثم يضعون فوقها شرطة أفقية على أن العدد مضروب في ألف. وجاء الهنود فاخترعوا النظام العشري، وفيه تتوقف قيمة العدد على موضعه فالعدد 5 على يمين الواحد غيره على شماله. وهكذا، واستعملوا الصف للدلالة على الخلو من الوحدة، وجاء العرب فاخترعوا طريقة لكتابة الأعداد، وهي التي

انتشرت في المغرب، ومنه انتقلت إلى أوروبا، ولا تزال تستعمل اليوم فيها فيما نسميها نحن الأرقام الأفرنجية.

وقد أثر العرب في الأرصاد الفلكية إذ طبقوا حساب المثلثات عليها، واخترعوا وصنعوا آلات جديدة للرد مما أدى بهم إلى كثير من الاكتشافات، وإلى تعديل شامل لفلك بطليموس. فالبتاني (ت- 317هـ) اكتشف تغير أوج الشمس، وحسب السنة بمقدار 365 يوما وخمس ساعات و 46 دقيقة و 24 ثانية. كما تنبأ الفلكيون العرب بكسوف الشمس وخسوف القمر بدرجة من الدقة المتناهية أذهلت الناس، وأولوا القمر اهتماما خاصا لأن السنة العربية سنة قمرية.

ويتضمن كتاب المناظر لابن الهيثم (ت- 430هـ) نظريات جديدة في المرايا المستوية والاسطوانية والكروية والبيضاوية في الانحراف والانكسار والابصار، والغرفة المظلمة. وكان ابن الهيثم أول من استخدم الغرفة المظلمة لرصد الخسوف.

وبقيت دراسة الطب في أوروبا عَيالاً على العرب لأكثر من أربعة قرون. فبخلاف ما نقلوه عن اليونان اكتشفوا اكتشافات بالغة الأهمية منها الجرب الذي اكتشف جرثومته الطفيلية ابن زهر (ت-557هـ). وكانت مدارس الطب التي أنشئت في أوروبا تستخدم الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية كمدارس: نابولي، بولونيا، بادو، اورليان، اكسفورد، وكمبردج.

6. نصوص مختارة من:

1.6 الكندي (185-256هـ)

وقبل أن أسوق لك، عزيزي الدارس، نصوصا مختارة من عالمنا الكندي تعال بنا نتعرف عليه أولا. إنه يعقوب بن اسحاق الكندي، كان أبوه أميرا على الكوفة في عهد المهدي والرشيد، وكان جده من أصحاب الرسول (عليه السلام) وقبلها كان ملكا على جميع كنده.

ولد يعقوب بن اسحاق الكندي في الكوفة عام 185 هـ (انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة الكندي،)، ثم رحل إلى بغداد فدرس فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية وأحكم وأتقن سائر العلوم وصنف فيها. جاوزت مصنفاته المائتين وثمانين

مصنفا ورسالة. وقد جمع في مؤلفاته بين أصول الشرع وأصول المعقولات. ذكره ابن النديم (ت- 438هـ) في كتابه الفهرست فقال: "فاضل دهره، وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها، ويسمى فيلسوف العرب". (ابن النديم، ص 215)

اشتغل الكندي بالترجمة، قال عنه ابن جلجل: "وترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها المشكل، ولخص المستصعب، وبسط العويص" (ابن جلجل، ص 73-74)، وإلى جانب ذلك كان الكندي شاعرا، ومن شعره قوله:

فإن الغنى في قلوب الرجال ... وإن التعزز بالأنفس

وكأين ترى من أخي عسرة ... غني، وذي ثروة مفلس

ومن قائم شخصه ميت ... على أنه بعد لم يرمس

فان تطعم النفس ما تشتهي ... تقيك جميع الذي تحتسي

(انظر بن أبي أصيبعة، ص 289/288)

وكتب الكندي إلى أحد اخوانه يهنئه بانقضاء شهر رمضان وإقبال شهر شوال يقول:

هناك أبا الحسين خروج شهر ... يفرق صومه اللذات جدا

فلا زالت كؤوسك معملات ... تشكي منك أتعابا وكدا

تغني كلما يلقاك كأسا ... ألا يا دير حنظلة المفدى

تخطاك الحوادث نائبات ... وتلقى من طوال العيش كدا

(المرزباني، ص 501/500)

وكان الكندي عظيم المنزلة عند المأمون، وكانت دولة المعتصم تتجمل به وبمؤلفاته، ومن بليغ أقواله: "العاقل يظن أن فوق علمه علما، فهو أبدا يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظن أنه قد تناهى، فتمقته النفوس لذلك"، (ابن ابي أصيبعة، ص 288). وقال أيضا: "اعتزل الشر، فان الشر للشرير خلق". وقال: "من لم ينبسط بحديثك، فادفع عنه مؤونة الاستماع منك". وقال: "اعص الهوى، واطلع من شئت، ولا تغتر بالمال، وان كثر، ولا تطلب حاجة إلى كذوب، فانه يبعدها وهي قريبة، ولا إلى جاهل فانه يجعل حاجتك وقاية إلى حاجته". وقال: "لو أفسد أحد أخس أعضائه كان مذموما، وأشرف الأعضاء: الدماغ ومنه الحس، والحركة، وسائر الأفعال الشريفة،

ومستعملو السكر يدخلون الفساد على أدمغتهم، ومتى توالي السكر على بدن مرض دماغه واشتد ضعفه، وبعد عن القوة الممتدة للافعال الارادية والنفسانية". (البيهقي، ص 41)

ومن نوادره وكلامه في البخل قوله: "من شرف البخل أنك تقول للسائل لا، ورأسك إلى فوق، ومن ذل العطاء أنك تقول نعم، ورأسك إلى أسفل". وتجسد وصيته لولده أبي العباس أطرف أنواع البخل الممزوج بالحكمة يقول فيها: "يا بني، كن مع الناس كلاعب الشطرنج، تحفظ شيئك وتأخذ من شيئهم، فان مالك اذا خرج عن يديك لم يعد إليك، واعلم ان الدينار محموم، فاذا صرفته مات، واعلم أنه ليس شيء أسرع فناء من الدينار اذا كسر، والقرطاس اذا نشر، ومثل الدراهم كمثل الطير الذي هو لك ما دام في يديك فاذا طار عنك صار لغيرك".

عزيزي الدارس، توفي الكندي رحمه الله عام 256هـ تاركا مكتبة ضخمة قيمة سميت بالكندية، فيها من مصنفاته ما يزيد على المائتين وثمانين مصفنا في شتى فنون المعرفة. ولا تستغرب - عزيزي - من ذلك، فيجب أن لا نغفل أن معظم الكتب المنسوبة للفلاسفة هي رسائل قصار، ومقالات وفصول من الكتب.

2.6 جابر بن حيان (ت-200 هـ)

جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي فيلسوف كيميائي، كان يعرف بالصوفي من أهل الكوفة وأصله من خراسان. هو عالم بغداد المبرز، الذي قال بملاءمة التنظير بالتطبيق وقد اخترت لك - عزيزي - نصوصا مما قاله في هذا المجال. إذ كان أول من قال بوجوب ملاءمة الفكر النظري بالممارسة العملية، فهو يقول في كتابه الميزان: "إن كل نظرية تحتمل التصديق والتكذيب لا يصح الأخذ بها إلا مع الدليل القاطع". (مختار رسائل جابر بن حيان، ص 83)

ويقول جابر في كتابه (الخواص الكبير) بهذا المعنى: "اننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط، دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن احتجناه وجربناه فما صح أوردناه، وما بطل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضا قايسناه على أحوال هؤلاء القوم". (مختار رسائل جابر بن حيان، ص 232)

كان جابر يعرف جيدا العلاقة العضوية بين "العلم" و "العمل" في العملية الكيميائية والفعالية العلمية و "الصناعة" فهو لا يوصي بالعمل للعمل، أو التجريب

للتجريب، بل يلاحم بينهما بذكاء ووعي فكل صناعة في رأيه كما يقول: "لا بد لها من سبق العلم في طلبها للعمل، لأن العمل إنما هو إبراز ما في العلم من قوة الصانع إلى المادة المصنوعة لا غير". (مصطفى لبيب، ص 88)

كان جابر لا يتلهى بالتجربة والعمل، بل هو يقوم بذلك، ضرورة، وتطبيقا لأفكار ونظريات سابقة، فالنظر أولا، والعمل ثانيا، ويقول في هذا: "العلم سابق، وكل من لم يسبق إلى العلم لم يمكنه إتيان العمل، وذلك لأن العلل انما تبرز في الصورة في المادة على قدر ما تقدم من العلم والا فما حال العمل يا ليت شعري". (مصطفى لبيب، ص 76)

لقد كان جابر ضد العشوائية والاهواء، فالتطبيق هو اختبار لفروض ونظريات، ولكنه أيضا، ضد احتقار العمل اليدوي، والاستنكاف عن الممارسة، ومن هنا تنطلق نصيحة جابر إلى الكيميائي بقوله: "اتعب أولا تعباً واحدا، وانظر واعلم ثم اعمل - فإنك لا تصل أولا - ثم تصل إلى ما تريد" (مختار رسائل جابر بن حيان، ص 4/3). فالعالم في العلوم الطبيعية ينبغي له أن يقيم في المختبر، وبذلك يكون التطبيق لفروضه ونظرياته، يقول في ذلك: "من كان دَرِباً كان عالما حقا ومن لم يكن دربا لم يكن عالما، وحسبك بالدرجة في جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل". (مختار رسائل جابر ص464)

إن مؤدى ما يقوله جابر بن حيان: أن النظرية بلا تطبيق، والفكر بلا ممارسة، أمر عقيم مثلما يكون التطبيق أو التجربة دون نظرية أمرا عقيما، وإهدارا هو الآخر. إن النظريين من ارستقراطيي الفكر على الطريقة اليونانية، ممن يستنكفون عن الممارسة والعمل اليدوي والاختبار، يظلون قاصرين محبطين، ويكون انتفاع المجتمع بهم معدوما أو كذلك، يقول جابر، ملخصا بعض معطيات الحياة العلمية وجدليتها: "كم من دارس إذا بلغ إلى العمل وقف، فيكون في ذلك الأمر أَنْفَذَ من العالم الفائق" (مصطفى لبيب، ص 308). كما يقول على صعيد آخر متمما مقولته هذه: "ما افتخرت الحكماء بكثرة العقاقير، وانما افتخرت بجودة التدبير، فعليك بالرفق والتأني وترك العجلة" ويصف جابر منهجه العملي فيقول: "وقد علمته بيدي وعقلي من قبل وبحثت عنه حتى صح وامتحنته فما كذب". (جابر بن حيان، ص 58)

ذاك، عزيزي الدارس، هو دستور جابر / نظر وعمل، فصل بين الاثنين، ولا تغليب لأحدهما على الآخر، إنها جدلية العلم والعمل الذي أتت بها مدرسة بغداد في

الفكر والثقافة والبحث العلمي، وكانت رائدة فيها، سابقة لكافة المدارس الأوروبية اللاحقة.

3.6 ابن سينا (ت- 370هـ-427م)

هو: أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا ويعرف بلقب الشيخ والرئيس. أبو عبد الله من بلخ وأمه ستارة من أشنة الغربية من بخارى. بدت على ابن سينا ملامح الذكاء مبكرا فتعلم قراءة القرآن في العاشرة، وأكمل دراسة الفلسفة والطب في السادسة عشرة، وقال في ذلك: إن الطب صناعة سهلة. وَزَرَ ابن سينا للبويهيين وحصلت له صحبة مع الأمير نوح بن منصور أمير بخارى ودخل مكتبته العامرة بالمخطوطات النادرة.

كان ابن سينا أسطع نجم في الطب العربي بعد الرازي، ويقدمه البعض عليه. والحق أن العصر الذي جاء فيه ابن سينا لا بد أن يكون متقدما في معطياته العلمية والطبية عن عصر الرازي إضافة إلى خصوصيات شخصية وإبداع ابن سينا الفذ. كان ابن سينا موسوعي المعرفة وله فيها ما يزيد على المائة كتاب وَضَعها باللغة العربية باستثناء رسالة في النبض كتبها بالفارسية. وأشهر مؤلفاته كتاب: القانون في الطب، وهو أساس شهرته ويتضمن خمسة أقسام أولها في كليات الطب، والثاني في الأدوية المفردة، والثالث في أمراض الجسم، والرابع في الجراحة والأورام، والخامس في الأدوية المركبة. ترجم إلى اللغات اللاتينية واللغات الأوروبية عدة مرات وبالنظر لأهميته العلمية كان (كتاب القانون) الكتاب المدرس في الطب في جامعتي مونبليه ولوفان في أواسط القرن السابع عشر.

ابتدأ ابن سينا كتابه: القانون بالتشريح، فعلم وظائف الأعضاء، فعلم طبائع الأمراض، فعلم العلاج. شرح كثير من الأطباء العرب قسم (الكليات) من كتاب القانون، كما علق آخرون على جملة الكتاب، ومن هؤلاء ابن النفيس الذي اختصره بكتاب اسمه (الموجز)، كما شرح قسم التشريح باسم شرح تشريح القانون، ولابن سينا كتاب آخر هو: (الأدوية القلبية)، كما له عدد من الأراجيز الطبية أولها (الأرجوزة في الطب) وتضم ألف بيت من الشعر.

كان ابن سينا، عزيزي الدارس، دقيق الملاحظة، وذا مقدرة على الابتكار ومن مآثره دقته في تشخيص ووصف التهاب السحايا واكتشافه الدودة المستديرة - الانكلستوما

قبل أن تعرف أوروبا ذلك بتسعمائة عام. ومن مآثره كذلك اكتشافه ووصفه عضلات العين الداخلية، والأرامن التي تنقلها مياه الشرب، واستخدامه العلاج النفسي في التطبيب، كما أنه فرق بين شلل الوجه المسبب عن علة في الدماغ وصنوه المسبب عن طارئ خارجي، وبين ذات الجنب، وألم ما بين أضلاع الصدر، وبين ذات الجنب وذات الرئة، وبين حصاة الكلية وحصاة المثانة. وهو أول من استطب أكياس الثلج على الرأس في بعض الحالات المرضية.

عزيزي الدارس، حاول ابن سينا أن يضع الطب سهلا مبسطا بين يدي طلاب العلم والمهتمين في هذا الحقل من العلوم، وهو يعلم جيدا أن الشعر سلس التعبير كثير الحفظ وأكثر تركيزا وأبلغ معنى في ما يريد وصفه أو يبغيه، فنظم أرجوزة في الحميات والأورام وأعراضها وطرق تشخيصها في الأعمار التي تصيبها والفصول التي تحدث فيها والمستوى المعاشي للفرد المصاب بها، كما تطرق ابن سينا إلى العلاج غير متناس أن ينبه الطبيب إلى أوجه التشابه والتداخل بين أنواع الحمى. كما أظهر ابن سينا في أرجوزته هذه مدى اهتمام العرب والمسلمين بالطب وفق الأسلوب الشعري، حيث اعتبره المنطق والمنظور العلمي الذي ينشده مربي اليوم لطلابهم وتحاول الأمم الحفاظ علي تراثه ومستواه.

وسأسوق لك، عزيزي الدارس، مقطوعات من هذه الأرجوزة (انظرها في مجلة المورد، ص 246-266)، هاجسي في ذلك أن أضع بين يديك بعضا من منجزات عالمنا الجليل. تبتدئ الأرجوزة بحمد الله العلي القدير، والصلاة والسلام على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) فيقول:

الحمد لله العلي القادر	الدائم الفرد الحكيم الفاطر
ذو العز والقدرة والسلطان	والطول والفضل والامتنان
صلاة الله ذي المواهب	على النبي الناسخ المذاهب

وينتقل بعد ذلك إلى ذكر أنواع الحميات والتي تضر بأعضاء الجسم والأفعال الصادرة من الأعضاء وكذلك الأعمال الصالحة، يقول:

وحد هذه الحميات الهائجة	دارت عن الطباع خارجة
تضر بالأعضاء والأفعال	مخلة بصالح الأعمال

أجـناسـهـا ثـلاثـة عـددتـهـا | لا غـير فاحفظـهـا كما بينتهـا
منـهـن مـا نـنـسبـهـا الـيـوم | تـحـدث عـن حـركـة أو صـوم
وحميات الـدق جـنس ثـانِ | فلا تكـن عـن علمـهـا بوانـي
وحميات العفـن جنس ثالـث | والـجـد عـن أسبابهـن باحـث
فحميـات اليـوم فـي الأرواح | عـما قريـب بـرؤهـا يا صـاح
وحمـيات الـدق فـي الأعضـاء | الـمـتـشـابـهـات فـي الأجـزاء
وحميـات العفن فـي الأخـلاط | إني حفظت ذلـك عـن بقـراط

4.6 الماوردي (ت- 450هـ - 1058م)

هو علي بن محمـد بن حبيب، أبو الحسن الماوردي (نسبته إلى بيع ماء الورد)، من العلماء الباحثين، ولد في البصرة، وانتقل إلى بغداد، ولي القضاء في بلدان كثيرة، ثم جـعل أقضى القـضـاة في أيام القائم بـأمر الله العـبـاسي، وكان يميل إلى مـذهب الاعتزال، له تصانيف كثيرة منها: أدب الدنيا والدين، والأحكام السلطانيـة، ونصيحة الملوك، وأدب الوزير، وسياسة الملك وغير ذلك. (انظر الزركلي، ج4، ص 327)

تعال مـعي، عزيزي الدارس، نطوف معـا في مكتبة الماوردي، نخـتار منها كـتابا ننتقي منه نصوصا نطلع فـيها على فكر عالمنا الجليل. فهذا كتـاب «نصيحة الملوك» ولعل أهمية كتابه هذا تأتي من كون مؤلفه أقضى قضاة عصره، ورجل دولة، وسياسة، ورسول ملوك. لذلك فنصيحته صادقة، وموعظته بليغة، وهي حصيلة تجاربه الشخصية، ومكانته العلمية وهي نموذج للقيادة والحكم والسلوك، ومعين يغـترف منه الراعي والرعية بقدر ما تسمح به الظروف ومتـغيرات العصر. ويبدو أن الغـاية التي حملت الماوردي على تأليف هذا الكتاب هي طلب الأجر بنشر العلم والنصح لكل مسلم.

قسم الماوردي كـتابه إلى عـشرة أبواب، جـعل الأول منها في الحث على قـبول النصائح وبيّن أن الملوك أحق بالمواعظ، يقـول في هذا: "فالملوك أولى الناس بأن تهدى اليهم النصائح وأحقهم بأن يخولوا بالمواعظ، إذ كـان في صلاحهم صلاح الرعية، وفي فسادهم فساد البرية... ففي نصيحة السلطان نصيحة الكافة، وفي نصيحة الكافة هداية إلى مصلحـة العالم بأسـره، ونظام أمور الكل بجملتـه .. فكتب هذا نصيـحة للملوك واظهار لمحبتهم واشفاقا لهم على أنفـسهم ورعاياهم... ورجونا أن من وقع اليه كتابنا

هذا بما فيــه من صادق النصيحــة، وبليغ الموعظة، وأعطاه من عنايته حظه بالنظر فـيه، والتدبر له، والاصغاء اليه، علم أنا من أعظم أوليائه له نصيحة، وأبلغ خدمة وأعوانه له معونة، لأنها نصـيحة من قبلها وعمل بها من الملوك والـساسة وصل الله ملكه الأمدي بالأيدي، في دار القرار ومحل الأبـرار . . ثم كفاه كثيـرا من الجنود والأعوان، والقواد والفـرسان، ووقاه كـثيـرا من معـرات الأعداء، ومكايد أهـل البغضـاء، وكثـر له من الأولياء" . (انظر: الماوردي، ص 43)

أما الباب الثاني فجعله في فضائل الملوك وعلو مراتبهم ويدعو الملك إلى تجنب ما يخل بجلالة المكانة ورفعة المنزلة، وأن يعمل على تغليب العقل على الطبع ويقول: "إن من المتقرر في العقول، والمتـمكن في النفوس، أن لا ينال المعالي إلا بتجرع المكاره، ولا يدرك أطراف الفضائل إلا بتـحمل المشاق" (الماوردي، ص 89). وفي كلامه عن عمل الخيـر واتيانه، والابتعـاد عن الشر ودفعه يقـول: "فيجب على من أحب الخـير، أن لا يفعل الا الخير، ومن كره الشر، أن يتجنب الشر مع أن من ارتكب المخازي من الامراء، والمذام من الملوك، كـان في ملكه كالمزوق المفـتعل، وكـالمستـعار الممـوه، وحق للملك الفاضل أن يترفع عن هذه الدنيئة، ويتنكب هذه الرذيلة . . ". (الماوردي ص 97)

وفي الباب الثـالث أبان الماوردي عن الأسباب التي من جهـتها يعـرف الاختلال والفســاد في الممالك وفي أصـول الملوك فيـقول: "إن أحوال الأمم المعـروفة أخـبارها، والممالك المشهورة آثارها، والملوك المنقولة الينا أوائل أيامها، متقاربة، متشابهة . . ثم لم تكن مملكة الا كـان أسـسهـا ديانة من الديانات، وأصلهـا ملة من الملل، علـيهـا بنيت شرائطها وفروضها، وجرت أحكامها وحدودها، حتى اذا خرج الآتي بشريعتها والواضع لأركان ملتها وقع الاختلاف فيمـا بين أمته، والنزاع في أهل ملته فربما كان ذلك منافسة في الرياسة، وربما كان ذلك مخالفة في الدين . . . " (الماوردي، ص 111-112)

ويجعل الباب الرابع في المواعظ، التي تبصر غرور الدنيا، وتذكر بالآخرة، وتنفع من نظر فيها واسـتمع لها، وتهديه إلى العدل في ملكه يقول: " . . . فـالوعظ والتذكير فريضتان واجبتان، وسُنّتان ماضـيتان على أهلهما بكتاب الله عز وجل وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وقد أمر الله الموعوظين بالاستماع لها، والإصغاء إليها، فليس لأحـد وإن جلّ خطـره، وعظم قـدره، أن يتـرفع عـن اسـتـمـاع الموعظـة، وقـبـول النصيحة . . . ". (الماوردي، ص 147)

وفي الباب الخامس، يتكلم عن سياسة النفس ورياضتها ويستبعد الكلام فيه عن مراسم الجلوس واللباس والركوب والعطاء والأزياء فيقول: "ومما يجب أن يقدم في هذا الباب، أنا لم نقصد في كتابنا هذا، ما يعدّه كثير منهم أدبا في الجلسة واللبسة والركبة والطعمة .. ولكنا أردنا أن نجعل كتابنا هذا، كتابا دينيا نريهم فيه مصالح معادهم ومعاشهم، ونظام ممالكهم وأحوالهم... ". (أنظر الماوردي، ص 197)

وفي الباب السادس يتكلم عن سياسة الخاصة فيوصي الملك بالعناية في أمر خاصته وتربيتهم على الطاعة، يقول: "إن مما يجب على الملك الفاضل أن تكون عنايته بأمر خاصته أقدم وأكثر وأعم وأوفر، حتى يروضهم رياضة لا يكون في أهل مملكته، وضمن ولايته من هو أسرع إلى طاعته، وأبعد من عصيته، وأقوى عزما في نصرته، وأحسن أدبا في خدمته .. الخ". (الماوردي، ص 289)

أما الباب السابع فيتكلم فيه عن سياسة العامة ويقول: "ولذلك مثل الناس الرعية بالبدن، والراعي بالرأس، وقالوا: إن الرعية إذا هلكت هلك الراعي، وإذا فسدت، فسدت حال الراعي، وكلما دخلها نقص في أموالهم ودمائهم، رجع ذلك النقص عليه. وقال بعض الملوك المتقدمين: ويبعد الوالي من القدرة على استصلاح نفسه مع استنفاد الرعية، كبعد الرأس من البقاء، بعد هلاك الأركان، غير أن الوالي أجدر بإصلاح الرعية الفاسدة، وإفساد الرعية الصالحة من الرعية، بإصلاحهم الوالي وإفساده، لفضل قوته عليها ورهق قوتها عليه". (الماوردي، ص 356-357)

أما الباب الثامن فقد خصصه لتدبير الأموال وفيه يحث على عدم الطمع في أموال الرعية، ويذم التبذير والتقتير ومن قوله في ذلك: ".. ولم تزل الملوك والفضلاء والأئمة الحكماء يترفعون عن ظلم الرعية، والطمع في أموالها، إلا ما وظفت عليهم سنتهم، وأباحته لهم ملتهم وشريعتهم من أخذ فضول أموالهم ثم رده عليهم في عوام مصالحهم، من تحصين دمائهم وتثمير أموالهم، وتأمين سبلهم، ودفع معرة أعدائهم، وقمع ذعارهم... ". (الماوردي، ص 413)

وخصص الماوردي الباب التاسع لتدبير الأعداء وأهل الجنايات، ومن ذلك قوله أنه يجب على الملك أن: "يتعهد أمر عسكره في الحل والترحال والإنهاض والإنزال ومن محكم التدبير في ذلك، أن لا ينزل عسكره إلا في أحصن المواضع وأوثقها وأخفها لمؤنهم، وأرفقها بهم، في نقل العلوفة والماد والسقي والاستقاء، وأنزهها بقعة وأوسعها رفعة، فإن لكل شيء من هذه المعاني نفعا بينا، وعونا ظاهرا". (الماوردي، ص 485)

والباب العاشر يعقده في تقديم النيات، وطلب التأويلات لكثير مما يجري في أيدي الملوك والأمراء، مما اختلف فيه كثير من العلماء وكره كثير من الفقهاء ومن ذلك قوله: "إن الله جل وعز، خلق ما في هذا العالم لخلقه لا لنفسه، فلم يحظر عليهم شيئا منها بخلا به عليهم، ولا استئثارا به دونهم .. ثم حظر عليهم أشياء نظرا منه لهم ورحمة بهم وإبقاء عليهم، وتعويضا لما هو أنفع لهم وأبقي، وأزين وأبهى وأعم لصلاحهم وأولى، فوقع الحظر والتحريم في كل ما وقعا فيه لجهات من العلل معلومة، وأغراض للخلق عند العلماء مفهومة .. ". (أنظر الماوردي، ص 523)

ثم يختتم الماوردي كتابه بخصال مأثورة، وخلال مذكورة، عن الملوك الأولين والخلفاء الراشدين، والحكماء المتقدمين، وذوي التجارب والحجى، والأحلام والنهى، هي أعمدة السلطان، وأركان الدول، وأساس السياسة ومجال الملك والخلافة.

5.6 البيروني (ت- 440هـ-1048م)

هو محمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني الخوارزمي، فيلسوف رياضي، مؤرخ، من أهل خوارزم، أقام في الهند بضع سنين، ومات في بلده، اطلع على فلسفة اليونان والهند، وعلت شهرته وارتفت منزلته عند ملوك عصره، له من التصانيف كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية، وكتاب الاستيعاب في صفة الاسطرلاب، والجماهر في معرفة الجواهر، وتاريخ الأمم الشرقية، وتاريخ الهند وتحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، وكتاب استخراج الأوتار في الدائرة وغيرها. (أنظر الزركلي، ج5، ص 314)

عزيزي الدارس، وفي مقدمة كتابه: الآثار الباقية عن القرون الخالية، يرى البيروني أن التعصب عند الكتاب هو الذي يحول دون تقريرهم الحق، يقول في ذلك: "... وبعد، فقد سألني أحد الأدباء عن التواريخ التي تستعملها الأمم، والاختلاف الواقع في الأصول التي هي مبادئها، والفروع التي هي شهورها، والأسباب الداعيه لأهلها إلى ذلك وعن الأعياد المشهورة والأيام المذكورة للأوقات والأعمال" ويتابع فيقول: "إن أقرب الأسباب إلى ما سئلت، هو معرفة أخبار الأمم السالفة وأبناء القرون الماضية لأن أكثرها أحوال عنهم، ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم، ولا سبيل إلى التوسل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الاراء والنحل المستعملين لذلك، وتعبير ما

هم فيه أساس يبنى عليه بعده، ثم قياس أقاويلهم وارائهم في إثبات ذلك بعضها ببعض، بعد تنزيه النفس عن العوارض المردئة لأكثر الخلق والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق، وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتظاهر واتباع الرسول والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك . . . ". (أنظر قدري طوقان، ص 184-185)

ومن ناحية أخري انتقد البيروني منهج الهنود العلمي، فلم يبعد علمهم عن الأوهام. واستطاع بأسلوبه أن يبين أحسن بيان وجود التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية والأفلاطونية والحكمة الهندية والكثير من مبادئ الصوفية. ويقول البيروني: "إن العلم اليقيني لا يحصل إلا من إحساسات يؤلف بينها العقل على نمط منطقي". (أنظر قدري طوقان، ص 185-186)

ويقول البيروني عن الترقيم في الهند: "إن صور الحروف وأرقام الحساب تختلف باختلاف الأماكن، وإن العرب أخذوا ما عندهم - أي عند الهنود - فقد كان عند الهنود أشكال عديدة للأرقام، فهذب العرب بعضها، وكونوا من الهندية وهي التي تستعملها بلادنا سلسلتين عرفت إحداها بالأرقام الهندية، وهي التي تستعملها بلادنا وأكثر الأقطار العربية والإسلامية، وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية، وقد انتشر استعمالها في بلاد المغرب والأندلس، وعن طريق هذه دخلت الأرقام الغبارية إلى أوروبا وعرفت عندهم باسم الأرقام العربية". (قدري طوقان، ص 186)

وبهذا عزيزي الدارس يمكن القول أن البيروني كان يؤمن بإنسانية المعلم وبالوحدة الشاملة التي يؤدي اليها العلم. فيوحد بين العقول ويزيل التنافر بينها، ويقرب بعضها من بعض، ويدعو إلى التفاهم على أساس المنطق والحقيقة.

6.6 ابن خلدون (ت- 808هـ-1406م)

هو عبد الرحمن بن محمد بن مهر بن خلدون، فيلسوف مؤرخ، عالم اجتماعي بخاصة. أصله من اشتيله ومولده ومنشأه بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة، وتلمسان والأندلس وتولى أعمالا واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق، وولي فيها قضاء المالكية، ثم عزل وأعيد، وتوفي في القاهرة. ومن مؤلفاته كتاب: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر المعروف بتاريخ ابن خلدون. ويقع في عدة مجلدات أولها المقدمة التي تعد من أصول علم الاجتماع. وختم كتابه هذا بفصل بعنوان "التعريف بابن خلدون ذكر فيه

نسبه وسيرته وما يتصل به من أحداث زمنه. ومن كتبه: شر البردة، وكتاب في الحساب ورسالة في المنطق ورسالة في شفاء السائل لتهذيب السائل، وغيرها". (أنظر الزركلي، ج3، ص 330)

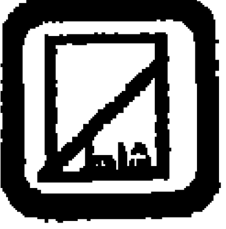
عزيزي الدارس، وقد اخترت لك نصا من مقدمة ابن خلدون، تلك المقدمة التي قال عنها: "سألت فيها شآبيب الكلام والمعاني عن الفكر، حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها، على ذلك النحو الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة". اخترت لك عزيزي الدارس ما وصف به ابن خلدون مقدمته، أي ما قدّمه لمقدمته حيث قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه معرفا علم التاريخ،: «أما بعد فإن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة والإغفال، وتنافس يه الملوك والأقيال (القيل هو الملك) وتتساوى في فهمهم العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على اختبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال وتطرق بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق...». (أنظر ابن خلدون: المقدمة، ص 7)

ويذكر ابن خلدون سبب تأليفه في التاريخ فيقول:

"ولما طالعت كتب القوم، وسبرت غور الأمس واليوم، نبهت عين القرية من سنة الغفلة والنوم، وسمت التصنيف من نفسي وأنا المفلس أحسن السوم فأنشأت في التاريخ كتابا، دفعت عن أحوال الناشئة من الأجيال مجابا: وفصله في الأخبار والاعتبار بابا بابا ... ورتبته على مقدمة وثلاثة كتب: المقدمة: في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بمغالظ المؤرخين. والكتاب الأول في العمران .. والكتاب الثاني في أخبار العرب ... والكتاب الثالث في أخبار البربر ..." (المقدمة، ص 9-10). ويتابع ابن خلدون مبينا أن كتابه هذا ولأنه يحوي أخبار العرب والبربر أسماه: "كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". (المقدمة، ص 10)

وبيّن ابن خلدون في مقدمته أنه أهدى مؤلفه هذا إلى أحد سلاطين بني مرين. "الموقَفَة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس". (أنظر المقدمة، ص 11-12)

نشاط (8)



1- ارجع إلى أرجوزة ابن سينا الطبية. اقرأها وناقشها مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

2- ارجع إلى مقدمة ابن خلدون واكتب عنها تقريرا ناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

تدريب (8)



مؤلف كتاب الحاوي هو .... ومؤلف كتاب القانون هو ....

ومؤلف كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف هو ....
ومؤلف كتاب السبعين هو .... ومؤلف كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق هو .... ومؤلف كتاب احصاء العلوم هو .... ومؤلف كتاب المنقذ من الضلال هو .... ومؤلف حكاية الأيام العشرة هو ....
ومؤلف مسرحية العبرة بالخواتيم هو .... ومؤلف قصص كانتربري هو .... ومؤلف الكوميديا الالهية هو ....
ومؤلف رسالة الغفران هو .... ومؤلف كتاب دون كيشوت هو .... ومؤلف كتاب الاسلام في الاندلس ....

أسئلة التقويم الذاتي (8)



اشرح دور العرب في تكريس المعارف العلمية في اوروبا.

7. الخلاصة

عزيزي الدارس، وكما لاحظت فقد قامت الحضارة الاسلامية على أصل جوهري هو الاسلام، غير أنها تأثرت بروافد شتى من الحضارات الانسانية كالثقافة العربية، والهندية، والفارسية، واليونانية. فجمعت بين هذا المزيج وأطلق عليها الحضارة العربية الاسلامية.

ولم يكن للعرب في جاهليتهم علوم بالمعنى المعروف على الرغم من وجود معارف كثيرة اقتبسوها من جيرانهم، ولما جاء الاسلام نقلهم من حالهم البدائية إلى حال جديدة فتحت لهم آفاقا واسعة من العلم والمعرفة. وكوّن لهم تجليات فكرية خالدة، وأقام عندهم مؤسسات ونظم وتقنيات. أثرت بشكل مباشر في يقظة الوعي الذاتي لدى الغرب الأوروبي في شتى مجالات المعرفة.

8. لمحة مسبقة عن الوحدة الدراسية التالية

تبحث الوحدة الدراسية التالية في الأرضية السياسية - الاجتماعية في اوروبا، إبان عصر النهضة Renaissance في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وتعرض لحركة الاصلاح الديني ولأشهر المفكرين السياسيين في العلم الحديث ونهضة العلم.

9. إجابات التدريبات

تدريب (1)

الثقافة العربية، الثقافة الهندية، الثقافة الفارسية، الثقافة اليونانية.

تدريب (2)

1- جمع القران الكريم وما رافق ذلك.

2- هم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث.

3- كتاب: المسائل في الطب للمتعلمين وكتاب: علاج العين، وكتاب: أوجاع المعدة وعلاجها.

تدريب (3)

يبدو أن هناك عددا من المدارس قد أنشيء قبل عهد نظام الملك مثل المدرسة البيهقية، والمدرسة السعدية. إلا أن ما اشتهر به عهد نظام الملك من كثرة المدارس التي دام كثير منها لفترة طويلة، وكذلك الخدمة الكبيرة التي أدتها هذه المدارس إلى الدولة. هو ما جعل نسبة تأسيس المدارس إلى نظام الملك.

تدريب (4)

1- الحرية، الذكورة، البلوغ، سلامة العقل، النسب القرشي (عند غير الخوارج).

2- وزارة التنفيذ، وزارة التقليد.

3- البلوغ، الذكورة، العقل، الحرية، الاسلام، سلامة السمع والبصر والنطق، العدالة، العلم.

تدريب (5)

الفرسان، المشاة، الطلائع.

تدريب (6)

العرب، الموالي، الرقيق، أهل الذمة.

تدريب (7)

1- المزارعة، المخابرة، المغارسة، المساقاة.

2- كانت طرق الجباية على ثلاثة أنواع هي

1- الطريقة المباشرة: وهي أن الخليفة يعين إلى جانب الوالي صاحب الخراج لجمع الخراج، والعشر، والجباية.

2- طريقة التضمين أو التلزيم: وذلك بأن يلتزمها أحد الأشخاص بمال معين يقع عليه بالمزايدة.

3- النقد.

تدريب (8)

الرازي، ابن سينا، الزهراوي، جابر بن حيان، الادريسي، الفارابي، الغزالي، بوكاشيو، شكسبير، شوسر، دانتي، أبو العلاء المعري، سرفنتس، دوزي.

10. مسرد المصطلحات

- الاراتيون Aratians: هم علماء القياس في التشريع. سموا بهذا الاسم لبحثهم في دقائق الأمور وما وقع منها وما لم يقع.
- التضمين أو التلزيم Granting a Concession: إحدى الطرق التي اتبعها المسلمون في جباية الأموال، وذلك بأن يلتزم أحد الاشخاص بمال معين يقع عليه بالمزايدة.
- الجزية Capitation (Toll): ضريبة سنوية على الرأس تؤخذ من أهل الذمة، مقابل حماية المسلمين لهم والكف عنهم، وتؤخذ على كل رجل حر عاقل.
- الحجاب Veil: ستر الوجه، عادة وجدت لدى الكثير من الأمم، كما وجدت لدى

الجاهليين الذين كان لديهم النصيف الوجه والخمار لكنه كان من علامات الشرف والنبل.

- الخراج Tribute: ضريبة سنوية تستوفي على الأرض الزراعية التي أقر عليها أصحابها من غير المسلمين بعد فتحها، ولا تسقط بإسلام أصحابها.

- العشر Tithe: ضريبة على الأراضي مقدارها عشر غلتها مالا أو عينا، وتؤخذ على الأراضي التي أسلم أهلها، والأراضي التي ملكها المسلمون عنوة، ووزعها الخليفة عليهم.

- العلوم العقلية (الحكيمة) Intellectual Sciences: وهي العلوم التي أخذها العرب من غيرهم من الأمم.

- العلوم النقلية (الشرعية) Traditional Sciences: وهي العلوم التي تتصل بالقران الكريم والسنة.

- الغنيمة Spoils: هي ما يأخذ الجيش المسلم من عدوه المشرك المقهور من أموال منقولة وغير منقولة، أو أسرى وسباء.

- الفيء Booty: هو كل ما وصل من المشركين للمسلمين عفوا من غير قتال.

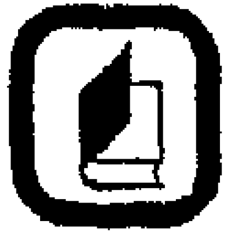
- القيافة Tracking: تتبع أثر الانسان والحيوان، والاستدلال بها على أصحابها.

- المزارعة Share-cropping: وهي أن يبذر الأرض صاحبها ثم تعهد إلى فلاح.

- المخابرة Product Pereentage: من وسائل استثمار الأرض والمقصود بها أن يبذر صاحب الأرض أرضه وأن يتعهدها بنفسه، وعند الحصاد يقوم شخص آخر بذلك مقابل نصيب يتفقون عليه.

- المساقاة Share-Tenancy: من وسائل استثمار الأرض والمقصود بها أن يعطي صاحب البستان بستانه ليُروى ويُصان ويُحمى إلى شخص اخر مقابل حصة من الثمار.

- المغارسة Reclamation: من وسائل استثمار الأرض والمقصود بها أن يعطي صاحب الأرض أرضه إلى شخص آخر ليغرسها بالأشجار ويفيد منها خلال سنوات كثيرة، وينال نصف الأرض المغروسة عند انتهاء مدة العقد.



11. المراجع

أ- المراجع العربية:

1- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم (0-668هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، 1965م.

2- ابن أبي الربيع، شهاب الدين احمد بن محمد (من القرن 7هـ)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تراث عويدات، ط1، بيروت، باريس، 1978م.

3- ابن أعثم، أحمد بن أعثم الكوفي، (-314هـ)، الفتوح، تح: محامد علي العباسي، دائرة المعارف العثمانية، ٨ج، حيدر أباد، الدكن، 1968-1975م.

4- ابن جلجل، أبو داوود سليمان بن حسان الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء، مصر، 1955م.

5- ابن حجر، أحمد بن علي (-152هـ) الاصابة في تمييز الصحابة، دار الفكر، 2ج، بيروت، 1398هـ - 1978م.

6- ابن خلدون، عبد الرخمن بن محمد (-808هـ)، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، 8ج، بيروت، لبنان، 1408هـ - 1988م.

7- ابن خلكان، احمد بن محمد بن أبي بكر (-681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، 6ج، بيروت، د.ت.

8- ابن سعد، محمد (-230هـ) الطبقات الكبرى، دار بيروت، 9ج، بيروت، لبنان، 1400هـ - 1980م.

9- ابن عبد ربه، أحمد (-328هـ)، العقد الفريد، تح: محمد سعيد العريان، دار الفكر، 8ج، بيروت، د.ت.

10- ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، (-597هـ)، صفة الصفوة، تح: محمود فاخوري، دار المعرفة، ط2، 4ج، بيروت، 1399هـ - 1979م، ط1، مصر، دائرة المعارف، حيدر أباد، 1356هـ.

11- ابن المبارك، عبد الله (-181هـ)، كتاب الجهاد، تح: نزيه حماد، دار النور، 2ج، بيروت، لبنان، 1391هـ - 1971م.

12- ابن قيم الجوزية، شمس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (-751هـ)، زاد المعاد في هدى خير العباد، 3ج، المطبعة المصرية، 1347هـ - 1938م.

13- ابن نياته، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، القاهرة، 1278هـ.

14- ابن النديم، محمد ابن اسحاق (-380هـ)، الفهرست، مط الاستقاء، القاهرة.

15- ابن هشام، ابو محمد عبد الملك بن هشام (-213هـ)، سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم)، دار الجيل، 4ج، بيروت، لبنان، د.ت.

16- أبو عبيد، القاسم بن سلام (-224هـ)، الأموال، تح: محمد خليل الهراس، نشر مكتبة الكليات الازهرية، ط1، 1388هـ - 1968م.

17- أحمد أمين، ضحى الاسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1974م.

18- الأصفهاني، أحمد بن عبد الله (-430هـ)، دلائل النبوة، مط دائرة المعارف العثمانية، ط 2، ج2، حيدر أباد، 1369هـ - 1950م.

19- البخاري، محمد بن اسماعيل (-256هـ) صحيح البخاري، دار احياء التراث العربي، 12ج، ط2، بيروت، لبنان، 1401هـ - 1981م.

20- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (-279 هـ) فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1398هـ - 1978م.

21- البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، دمشق، 1365هـ/ 1946م.

22- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي(-279هـ)، سنن الترمذي، تح: عبد الهادي عبد اللطيف، دار الفكر، ط3، 5ج، بيروت، 1398هـ - 1978م.

23- الجاحظ، عمرو بن بحر (-255هـ)، البيان والتبيين: تح: فوزي عطوي، 3ج، بيروت، 1968م.

24- الجهشياري، محمد بن عبدو (-331هـ) الوزراء والكتاب، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1938م.

25- الحكيم راجي عباس التكريتي، الاسناد الطبي في الجيوش العربية الاسلامية، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، 1984م.

26- الزبيدي، أبو الطيف محمد بن محمد يعقوب عبد الرازق مرتضى الزبيري (-1205 هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية بمصر، 10ج، ط1، القاهرة، مصر، 1306هـ - 1307هـ.

27- الزركلي خير الدين، الاعلام، 8ج، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980م.

28- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (-911هـ)، تاريخ الخلفاء، تح: صلاح الدين المنجد، مطبعة مصر، 3ج، القاهرة، 1958-1960م.

29- الطبري، محمد بن جرير (-310هـ) تاريخ الرسل والملوك، دار احياء التراث العربي، 13ج، بيروت، لبنان، د.ت.

30- الكلاعي: أبو الربيع سليمان بن موسى، (-634هـ)؛ حروب الردة، تح: أحمد غنيم، دار الاتحاد العربي للطباعة، ط2، 1340هـ - 1981م.

31- المزرباني، معجم الشعراء، مصر، 1354هـ.

32- المسعودي، علي بن الحسين (-346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط1، 4ج، بيروت، 1965م.

33- الواقدي، محمد بن عمر (-207هـ)، مغازي رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، تح: مارسون جدق، 3ج، ط8، بيروت، 1404هـ - 1984م.

34- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، (-294هـ) تاريخ اليعقوبي، دار صادر، 2ج، بيروت، لبنان، د.ت.

35- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. عبد الله النجار، القاهرة، 1959م.

36- جابر بن حيان، مختار رسائل جابر بن حيان، عني بتصحيحها ونشرها بول كراوس، مكتبة الخافجي، القاهرة، مصر، 1354هـ.

37- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، 10ج، ط1، بيروت، 1970-1968م.

38- حسين مؤنس، عالم الاسلام، دار المعارف بمصر، 1975م.

39- دائرة المعارف الإسلامية ترية (ثابت الفندي، واحمد الشنتاوي وابراهيم رش خورشيد) طبع منها "مجلد، مصر، 1933-1957.

40- سلامة صالح النعيمات، الحضارة العربية الاسلامية، منشورات جامعة القدس المفتوحة، ط1، 1998م.

41- عبد الرحمن البدوي، التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية، دراسات استشراقية قديمة، القاهرة، 1940م.

42- ف. بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية، ترجمة حمزة طاهر، القاهرة، دار المعارف، 1943م.

43- فتحي عثمان، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتلا الحربي، والاتصال الحضاري، 2ج، القاهرة، 1967م.

44- قدري حافظ طوقان، العلوم عند العرب والمسلمين، مكتبة الاستقلال، عمان، 1961م.

45- مجلة المورد، مجلد 12، عدد 4، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، الجمهورية العراقية، 1406هـ - 1985م.

46- مجهول، فتوح الشام، دار الجيل، 2ج، بيروت، د.ت.

47- مجهول، السبق والرمي وأسلحة المجاهدي، تح: عيد ضيف العبادي، مجلة المورد، مجلد 12، عدد 4، بغداد، 1404هـ - 1983م.

48- مسلم، أبو الحجاج مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري (-261هـ) صحيح مسلم، دار المعرفة، 8ج، بيروت، لبنان، د.ت..

49- محمود عواد، الجيش والقتال في صدر الاسلام، مكتبة المنار، ط1، الزرقاء، الاردن، 1407هـ - 1987م.

50- محمود عواد، الجيش والاسطول الاسلامي في العصر الاموي، الأدبية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الخليل، 1415هـ - 1994م.

51- مصطفى لبيب، الكيمياء عند العرب، دار الكتب العربي، القاهرة، 1967م.

52- مونتغري واط، أثر الحضارة العربية الاسلامية على أوروبا، ترجمة جابر أبي جابر، دمشق، 1981م.

ب- المراجع الأجنبية:

1- Fahmy, Aly Mohamed, Muslim Sea-power in The Eastern Mediterranean From The Seventh to The Tenth Century A.D. First Edition, Cairo,1966.

6

الوحدة السادسة

عصر النهضة 1350 - 1650م

محتويات الوحدة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

مرحباً بك عزيزي الدارس، في الوحدة السادسة من مقرر «الحضارة البشرية ومنجزاتها» وعنوانها: «عصر النهضة 1350-1650م». آمل أن تكون قد استمتعت بدراسة الوحدة الخامسة من هذا المقرر، كما ارجو لك الاستمتاع في دراسة هذه الوحدة إن شاء الله تعالى.

تناولت هذه الوحدة سبع نقاط رئيسة، فقد عرضت النقطة الأولى إلى حركة الاصلاح الديني ونشوء البروتستانتية وتناولت النقطة الثانية الحديث عن الفكر المسيحي الافلاطوني في حين اهتمت النقطة الثالثة بدراسة ميكافيلي «الأمير». أما النقطة الرابعة فعرضت إلى الفكر النقدي، فكر بطرس راموس، ومونتيني، وبوبنوناتزي، وكرادانو.

أما الحديث عن نهضة الفلك والفيزياء، ونظريات كوبرنيكس وكبلر وجاليلو أي ما يسمى ببواكير العلم الحديث فقد عرضت اليه النقطة الخامسة من هذه الوحدة. وتحدثت النقطة التي تليها عن الفلسفات الانسانية مبرزة فلسفة ايراسموس، وجوردانو برونو وجاكوب بوهيمي وكمبانيلا. واختتمت الوحدة بايراد نصوص مختارة من ميكافيلي، وجاليلو، وكمبانيلا.

2.1 أهداف الوحدة

ينتظر منك، عزيزي الدارس، وبعد دراسة هذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:-

1- تتعرف على حركة الاصلاح الديني في اوروبا.

2- تتبصر طابع الانفصال والتميز لفلسفة عصر النهضة عند فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، وأن تستشرف مستقبلاً ذا طابعٍ انساني عملي لهذا العصر.

3- تتعرف على بواكير العلم الحديث والنهضة العلمية والأسس التي توجهها.

4- تتزود بالملامح الرئيسة للفكر المسيحي الافلاطوني والفكر السياسي والفكر النقدي لهذا العصر.

3.1 أقسام الوحدة

تنقسم هذه الوحدة إلى سبعة أقسام رئيسة ترتبط بمجملها بقائمة الأهداف السابقة. وهذه الأقسام هي:

القسم الأول: حركة الاصلاح الديني ونشوء البروتستانتية: لوثر وكالفن.

القسم الثاني: الفكر المسيحي، الافلاطوني: نيقولادي كوزا، ومرسيليو فتشينو، وبراسلوس.

القسم الثالث: الفكر السياسي: مكيافيلي «الأمير».

القسم الرابع: الفكر النقدي: بطرس راموس.

القسم الخامس: بواكير العلم الحديث: نهضة الفلك والفيزياء، نظريات كوبرنيكس، وكبلر، وجاليليو.

القسم السادس: الفلسفات الانسانية: ارازموس، جوردانو برونو، كمبانيلا.

القسم السابع: نصوص مختارة من: مكيافيلي، جاليلو، كمبانيلا.

4.1 القراءات المساعدة

عزيزي الدارس، ولمزيد من المعرفة في مواضيع الوحدة، أنصحك بالرجوع إلى المراجع التالية:

1- سعيد عبدالفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1986م.

2- لويس عوض، ثورة الفكر في عصر النهضة الاوروبية، مركز الاهرام للترجمة والنشر، ط1، القاهرة، 1407هـ - 1987م.

3- موسوعة تاريخ الحضارات العام، باشراف موريس كروزية، ج7، منشورات عويدات، ط3، بيروت، باريس، 1413هـ - 1993م.

4- ول ديورانيت، قصة الحضارة، ترجمة: د. عبدالحميد يونس، ج43، دار الجيل للطبع والنشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت، تونس، د.ت.

5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة

والآن هيئ لنفسك، عزيزي الدارس، جواً هادئاً ومريحاً وحاول أن تجيب عن أسئلة التقويم الذاتي، والتدريبات التي ترد في ثنايا الوحدة، وأن تقوم بالأنشطة المقترحة كذلك. ولا تتردد في الاستفسار عن أي سؤال يعترضك. اتصل بمشرفك الأكاديمي الذي سيساعدك في ذلك. أتمنى لك الاستمتاع فيما تقرأ.

2. حركة الإصلاح الديني ونشوء البروتستانتية

عزيزي الدارس، نتيجة حركات الاصلاح الديني فتح باب الاجتهاد في الدين على أساس احلال العقل محل النقل، والغاء احتكار الفقهاء والكهنة كمفسرين للوحي، وإلغاء دور الأولياء كوسطاء بين الناس والله. والآن تعال بنا نتعرف على اثنين من زعماء حركة الاصلاح الديني في اوروبا في القرن السادس عشر أسهما بوضوح في نشوء البروتستانتية.

1.2 مارتن لوثر

ولد لوثر في عام 1483م في المانيا، وعاش حياة خشنة في ظل والديه علق عليهما فيما بعد بقوله: «إن الحياة الخشنة القاسية التي عشتها معهما «يقصد والديه» هي التي دفعتني إلى أن ألجأ فيما بعد إلى الدين وأصبح راهباً». (انظر ول ديورانت، ج24، ص10) ويبدو أن تكوين شبابه وعقيدته الدينية قد بنيتا على حد صارم من التربية الحاثة على الدين والآداب سواء في البيت أم في المدرسة.

وفي الجامعة درس لوثر اللاهوت والفلسفة، وهناك تأثر برأي «اوكهام» الذي يرى أن البابوات والمجالس الدينية يمكن أن تخطيء. وبعد حصوله على الماجستير في الآداب عام 1505م. قرر أن يصبح راهباً فكان ذلك في دير الرهبان الاوغسطينيين (انظر ول ديورانت، ج24، ص11-12). وعين استناداً للاهوت في الجامعة عام 1508 م، وتجدر الاشارة إلى زيارته لروما، وزار هناك عشرين كنيسة وظفر بكثير من صكوك الغفران. وخلال السنوات (1512-1517)م تحولت آراؤه الدينية ببطء عن المذاهب الرسمية للكنيسة. ووجه اللوم إلى المبشرين بصكوك الغفران لاستغلالهم سذاجة الفقراء. وكتب

عن تسعين رسالة بهذا المعنى عُلقتْ في كنيسة فينبرغ. وصارت هذه الرسائل حديث الطبقة المتعلمة في المانيا. وكان كثيرون ينتظرون مثل هذه الرسائل الاحتجاجية على رجال الدين، وقلّ الاقبال على شراء صكوك الغفران على الرغم من كتابة «تيتزل» مائة وست رسائل يَرُدُّ بها عليه. مما حداه إلى كتابة «عظة حول صكوك الغفران والرحمة» ختمها بقوله في تحد لا نظير له: «إذا كنت هرطقيا في نظر من تعاني أكياس نقودهم من الحقائق التي أذكرها، فاني لا أبالي كثيراً بصياحهم لأنه لا يقول هذا إلا من رانت على عقولهم غشاوة فلم يعرفوا قط الانجيل» (ول ديورانت، ج24، ص17). واستمر الجدل بين تلك الآراء المتناقضة. وانتهى الأمر بأن مثل لوثر أمام الكردينال «كاجتيان» في «أو جسبوزح» بطلبٍ من البابا ليو العاشر في روما حيث كان الكردينال ضليعاً في اللاهوت. حيث طالبه أن يسحب أقواله وأن يتعهد بأن لا يعكر صفو الكنيسة إلا أنه رفض ذلك. وعاد إلى فينبرنج، وكتب بيانا شائعاً عن المقابلات نشر في أرجاء المانيا، وكتب رسالة الدون قال فيها: «يجب القيام باصلاح ديني عام للطبقات الروحية والزمنية» (انظر ول ديورانت، ج24، ص20).

عزيزي الدارس، يبدو أن اعتدال البابا آنذاك كان سببا في انتصار الاصلاح الديني. حيث تدخل البابا مرة أخرى وأصدر نشرة بابوية في التاسع من نوفمبر «تشرين ثاني» عام 1518م أنكر فيها كثيراً من المزاعم المتطرفة التي نسبت إلى صكوك الغفران، فهذه لا تمحو الآثام أو الذنوب ولكنها تعفي فحسب من العقوبات الدنيوية التي رفضتها الكنيسة - لا الحكام الزمنيون - أما بالنسبة لاطلاق سراح الأرواح من المطهر فان سلطة البابا محدودة بصلواته التي يبتهل فيها إلى الله أن يمنح روح ميت البركة الزائدة للمسيح والقديسين. (انظر: ول ديورانت، ج24، ص 21).

وصار أنصار مارتن في ألمانيا بازدياد ولم ينجح البابا في اعادة لوثر إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، غير أن لوثر أمام اصرار البابا قدم تنازلات منها: أن يلزم السكوت إذا التزم خصومه بذلك وأن يكتب رسالة يطلب فيها خضوعه للبابا وأن يقر علنا بصحة الصلوات للقديسين ،بحقيقة المطهر وبفائدة صكوك الغفران في الاعفاء من العقوبات الكنسية وأن ينصح الناس بالولاء المسالم للكنيسة، وفي غضون ذلك يجب أن تعرض تفاصيل الخلاف على أسقف الماني يقبله الطرفان للفصل فيها. ورفض لوثر المثول أمام البابا ليو العاشر في روما وآثر البقاء في المانيا بين أنصاره ومؤيديه الذي كان على رأسهم مفكر حركة الاصلاح الديني: «ميلانكتون». وكذلك «كارلشتارت» الذى سبق لوثر بنشر

152 مقالاً ضد صكوك الغفران «انظر: ول ديورانت، ج24، ص23». واستمر ثلاثتهم مع أنصارهم ومؤيديهم في الدفاع والمناظرة أمام أعدائهم في الفكر.

عزيزي الدارس، ساد شعور قومي في إبان هذا الصراع لدى الألمان بالرغبة في الاستقلال عن روما والتخلص من سيطرتها، وكان زعيم هذا التوجه «هوتن» عام 1520م. واستمر لوثر في تحركاته العنيفة فقد أصدر في العام ذاته (1520م) موجزاً به ملاحظات عنيفة يقول فيها: «إذا كانت روما تؤمن وتعلم بمعرفة البابوات والكرادلة فاني أعلن بحرية في هذه الكتابات بأن المناهض للمسيحية الحقيقي يجلس في معبد الرب ويحكم في روما وأن مجلس تلك العشيرة الرومانية هو هيكل الشيطان ... وإذا استمر هياج أنصار روما على هذا النحو فلن يكون أمامنا من علاج سوى أن يتولى الأباطرة والملوك والامراء تحيط بهم القوة والأسلحة، مهاجمة هذه الأوبئة في العالم وحسم الأمر بالسيف لا بالكلمات... وإذا كنا نقضي على اللصوص بالمشانق ونضرب أعناق الناهبين بالسيوف ونلقي بالهراطقة بالنار فلماذا لا نهاجم أيضاً بالأسلحة أساتذة الدمار. هؤلاء، أعني هؤلاء الكرادلة وهؤلاء البابوات وكل هذه البالوعة من سدوم الرومانية التي أفسدت كنيسة الرب بلا حدود، ونغسل أيدينا في دمائهم» (انظر ول ديورانت، ج24، ص26).

وفي العام ذاته أصدر «كارلشتارت» كتيبا جعل فيه الكتاب المقدس يعلو على البابوات والمجالس الدينية وفي العام ذاته كتب لوثر وبتأييد مناصريه يقول: «لقد ألقيت النرد، وأنا أحتقر الآن غضب الرومان بقدر ما أحتقر رضاهم، ولن أهادنهم إلى الأبد.. فليدينوا ويحرقوا كل ما يمت لي بصلة، وأنا في مقابل هذا سوف أفعل لهم الكثير... إني لم أعد اليوم أخشى أحداً وسوف أنشر كتابا باللغة الألمانية عن الاصلاح المسيحي وهو موجه ضد البابا بلهجة عنيفة كما لو كنت أوجهها إلى مناهض للمسيحية» (انظر ول ديورانت، ج24، ص27).

وكردة فعل من البابا أصدر في عام 1520م نشرة أدان فيها واحدا وأربعين بيانا للوثر، وأمر بأن تحرق علنا مؤلفاته التي ظهرت فيها، وأنذر لوثر بأن يتراجع عن أخطائه وأن يعود إلى حظيرة الدين، وإذا رفض أن يأتي إلى روما في خلال ستين يوماً ويسحب أقواله علنا فإنه سوف يبتر من عضوية العالم المسيحي بحرماته من غفران الكنيسة، وسوف يعرض عنه كل المؤمنين باعتباره هرطيقا، وسوف تتوقف العبادة في جميع الأماكن التي يقيم فيها، وعلى جميع السلطات الزمنية أن تطرده من أملاكها أو تسلمه إلى روما.

وأعلن لوثر بالمقابل انتهاء عهد التسامح بنشر أول كتاب من الكتيبات الثلاثة التي كونت برنامج الثورة الدينية. ووجه كتاباته إلى أشراف الأمة الألمانية المسيحيين بشأن إصلاح طبقة رجال الدين، وشمل نداؤه استغاثة بالامبراطور شارل الخامس. وهاجم لوثر «الجدران الثلاثة» التي شيدتها البابوية حول نفسها وهي: «التمييز بين رجال الأكليروس والعلمانيين، وحق البابا في أن يفسر الكتاب المقدس على هواه، وحقه المطلق في دعوة مجلس عام للكنيسة» حيث رأى أن كل مسيحي يُنصبُ قساً بالتعميد، ومن ثم فإن على الحكام الزمنيين أن يمارسوا سلطاتهم دون عائق أو اعتراض بغض النظر عما إذا كانوا يسيئون إلى البابا أو الأسقف أو القس... وثانيا وبما أن كل مسيحي يعد قسا فان له الحق في أن يفسر الكتب المقدسة طبقا لما يراه. وثالثاً: يجب أن يكون الكتاب المقدس المرجع الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر، فالكتاب المقدس لا يقدم أية بينة على حق البابا المطلق أو دعوة أي مجلس. وانتقد بحدة الأموال التي تدفعها الكنيسة الألمانية إلى البابا في روما بقوله: «لقد قرر البعض أن أكثر من 300.000 جولدن تجد طريقها كل عام إلى ايطاليا... كيف يتأتى أن يكون لزاما علينا نحن الألمان أن نتسامح في مثل هذه السرقة ومثل هذا السلب لاملاكنا على يدي البابا؟» (ول ديورانت، ج24، ص29). ودعا إلى أن ينشيء رجال الدين الألمان كنيسة قومية. وكذلك دعا إلى أن يسمح للقساوسة بالزواج ويجب أن لا تؤخذ عهود الرهبنة قبل سن الثلاثين، وأن تلغى التحاريم والحج وشعائر القداس على أرواح الموتى... والعطلاتَ (ما عدا أيام الآحاد)، وعلى الكنيسة الالمانية مصالحة الهسيين في بوهيميا، ويجب التغلب على الهراطقة بالكتب لا بالحرق ويجب أن ينبذ كل قانون كنسي وألا يكون هناك إلا قانون واحد مطبق على رجال الدين والعلمانيين على السواء.. وأعلن أنه لا يمكن لانسان الخلاص ما لم يتبرأ من حكم البابوية (انظر ول ديورانت، ج24، ص29، 30، 34).

عزيزي الدارس، وفي عام 1519م نُصِبَ شارل الخامس امبراطورا على ألمانيا وزعيماً لكل وسط اوروبا وغربها عدا انجلترا وفرنسا والبرتغال والولايات البابوية. وعلى الرغم من أنه قُدم له التماسٌ للقبض على لوثر، إلا أنه رفض ذلك حتى تتم محاكمة لوثر محاكمة عادلة في المانيا. وفي الوقت ذاته كان الامبراطور شارل محتاجا إلى تأييد البابا في روما لمواجهة المصاعب السياسية للامبراطورية. وبالفعل شكّل مجلسا نيابياً امبراطوريا وعقد اجتماعاً له في عام 1521م لمناقشة موضوع لوثر الذي تم استدعاؤه إلى هناك حيث استقر على رأيه. وعاد إلى بلده «فينبرنج» وتنكّر في قلعة فيها. وأخذ يذكي الثورة لكنه خشي إذا انتشرت هذه الثورة بسرعة أن تصبح ثورة اجتماعية فتنفر منها طبقة

النبلاء وتقضي على نفسها. واستمرت الثورة سلمية إلى حد ما والجدير بالاشارة إلى كثرة الكتب التي طبعت في الفترة بين 1518-1524م والتي تؤيد الاصلاح الديني وكان أكثرها رواجا كتب مارتن لورثر. وكتب ارازموس عام 1521م يقول في هذا الشأن: «إن كتب لوثر في كل مكان وبكل لغة ولن يصدق أحد مدى تأثيره في الناس» (ول ديورانت، ج24، ص53).

كان أعظم عمل قام به لوثر هو ترجمة الانجيل إلى الألمانية ومع أنه قبل بعض الروايات المأثورة التي لا تقوم على ما جاء في الكتاب المقدس مثل تعميد الطفل، والراحة يوم الأحد، فإنه رفض أن يسلم بحق الكنيسة في أن تضيف إلى المسيحية عناصر لا تعتمد على ما جاء في الكتاب المقدس، وانما تعتمد على عرفها وسلطتها مثل المطهر وصكوك الغفران وعبادة مريم والقديسين. ورأى لوثر أن العقل يتعارض مع الايمان فقال: «أنت لا تستطيع أن تقبل كلا من الانجيل والعقل فاحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر». وأضاف: «إن كل آيات عقيدتنا المسيحية التي كشف لنا الله عنها في كلمته أمام العقل مستحيلة تماماً ومنافية للمعقول وزائفة. فاذن كيف يعتقد ذلك الأحمق الصغير الماكر أن هناك شيئا يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستعماله من أن المسيح يعطينا جسده لنأكله ودمه لنشربه في العشاء الأخير؟... إن العقل هو أكبر عدو للايمان...». وأدان لوثر الفلاسفة الكلاميين لانهم سلموا للعقل بكثير من الأمور، ولأنهم حاولوا أن يثبتوا العقائد المسيحية بالخضوع لمقتضى العقل ولأنهم حاولوا أن يوفقوا بين المسيحية وبين فلسفة أرسطو...» (انظر ول ديورانت، ج24، ص56).

ومع كل ذلك فقد جعل لوثر الموعظة وليس الاحتفال مركز شعيرته الدينية، وأعلن في الأيام الأولى لثورته بحق كل فرد في تفسير آيات الكتاب المقدس لنفسه. واستن قانونه الخاص بصحة أسفار الكتاب المقدس: إلى أي مدى تتفق مع تعاليم المسيح؟ (انظر ول ديورانت، ج24، ص56-57). وبذلك استثنى بعض الأسفار مثل سفر عزرا الثالث. وما خلا ذلك فقد دافع عن الكتاب المقدس باعتباره صحيحاً بحذافيره وحرفيته.

لقد كانت ثورة لوثر موجهة ضد النظام الكاثوليكي وطقوسه أكثر منها ضد العقيدة الكاثوليكية فهو قد رفض البابوية والمجالس الدينية والمراتب الكهنوتية والاهتداء بأي شيء آخر للعقيدة غير الكتاب المقدس، ووصف البابا بأنه مناهض للمسيحية، ووجد أن الحماية تكون في رحاب الدولة.

كان مفهوم «الله» عند لوثر مفهوما يهودياً، ولقد آمن بان الله أغرق كل البشر تقريبا في الطوفان وأنه أحرق سدوم، وأهلك الأراضي والناس والامبراطوريات بنفثة من غضبه وإشارة من يده. وأن قضية الدور الذي كانت تقوم به مريم في الشفاعة في تلك القصة مختفية تماما. وأخذ بقضية الجنة والجحيم كقضية مسلم بها، وآمن بنهاية مبكرة للعالم. وتحدث عن الملائكة وقال انها أرواح كريمة لا أجساد لها. وسلم تسليما كاملا بالمفهوم السائد في القرون الوسطى عن الشياطين التي تهيم في الأرض وتوسوس للناس وتغريهم بالاثم وتعرضهم للنحس وتمهد للانسان طريقه إلى جهنم. وقبل السحر والعرافة على أنهما من الحقائق المسلم بها (انظر ول ديورانت، ج24، ص60-61).

اقتنع لوثر بأن الانسان بطبعه شرير ومائل للاثم، وقد انتزعت الصورة الالهية من قلبه عقابا لعصيان آدم وحواء ولم يبق فيه الا الميول الطبيعية. ولم يشك لوثر في مدى الحاجة إلى الاحسان والحب لتوفير حياة صحية اجتماعية، ولكنه أحس بأنه حتى لو كانت هناك حياة مباركة بمثل هذه الفضائل فانها لا تستطيع أن تفوز بسعادة أزلية ويقول: «إن الانجيل لا يبشر بشيء من الجزاء عن الأعمال، وإن من يقول إن الانجيل نص على أن الأعمال هي وسيلة الخلاص أقول له بصراحة تامة أنه كاذب». ولا يمكن لقدر من الأعمال الصالحة أن تكفر عن الذنوب التي أقترفها خير الناس، ولا يمكن أن تكفر عن خطايا البشر الا تضحية المسيح المفتدية، ولا يمكن أن ينجينا من عذاب جهنم إلا الايمان بهذا التفكير الالهي. ويبدو أن لوثر قد وافق على فائدة الأعمال الصالحات، غير أن ما أنكره هو فاعليتها في سبيل الخلاص. ويتضح هذا من قوله: «ان الأعمال الصالحة تخلق رجلاً صالحاً ولكن الرجل الصالح يقوم بأعمال صالحات» (انظر ول ديورانت، ج24، ص62-64).

عزيزي الدارس: وهكذا نجد أن لوثر في غمرة ردة فعل القرون الوسطى ضد الكنيسة في عصر النهضة التي ارتدت إلى عصر الوثنية لم يعد إلى العقيدة الاوغسطية فحسب، ولكنه عاد إلى الايمان بما لا يصدق، وبدا له أن من الفضيلة أن يؤمن بالقدَر لأنه كان بالنسبة للعقل أمراً لا يصدق، ومع ذلك فقد رأى بالمنطق العسير أنه انما رفع إلى هذا الاعتقاد بعدم قابلية الأمر للتصديق.

لقد رفض لوثر التسليم بالتعريف الكهنوتي للكنيسة بأنها هي الأسقفية، وعرّفها بأنها جماعة المؤمنين بالله وبآلام المسيح تكفيراً عن ذنوب البشرية ولكنه ردّدَ العقيدة البابوية عندما كتب يقول: «إن كل الناس الذين ينشدون الوصول إلى الله ويعملون من

أجل هذا الوصول بأية وسيلة أخرى غير التوسل بالمسيح يسيرون في ظلام دامس سادرين في الخطأ ولا بد من أن يموتوا آخر الأمر ويضيعوا في آثامهم» (ول ديورانت، ج24، ص66).

إن أعظم مادة ثورية في لاهوت لوثر هي تجريد القسيس من منصبه، واباحته للقساوسة الحصول على راتب بصفتهم خدم اختارتهم كل أبرشية للوفاء بحاجاتها الروحية، ولسوف يبدو هؤلاء القساوسة بزواجهم وتنشئتهم لأسرة هالة القداسة التي جعلت نظام القسوسة قوياً رهيباً، فهم سيكونون أولا بين أنداد، ولكن أي انسان في وسعه عند الحاجة أن يقوم بوظائفهم بل يحل تائباً من ذنبه، وعلى الرهبان أن يتخلوا عن عزلتهم الانانية وحياة الدعة التي يعيشونها في الغالب وأن يتزوجوا ويكدحوا مع الآخرين، فالرجل الذي يجر المحراث والمرأة التي تشتغل في المطبخ ويعبدان الله خيرٌ مما يفعل الراهب وهو يتمتم بصلوات غير مفهومة في تكرار يجلب النعاس. ولا بد أن تكون الصلاة هي الصلة الروحية المباشرة بين العبد وربه ولا تكون ابتهالات بقديسين شبه اسطوريين، ومن رأي لوثر أن عبادة القديسين لم تكن معايشة ودية مواسية بين عزلة الحي وقداسة الموتى، بل كانت ردة إلى عبادة الأصنام البدائية المشتركة.

وكان لوثر ينظر إلى القرابين المقدسة على أنها حفلات يقيمها القساوسة للحصول على الغفران من الرب وهي لا تنطوي على قوى معجزة وفعاليتها تتوقف لاعلى أشكالها وصيغها ولكن على ايمان من يتلقاها. أما تثبيت العماد والزواج والرسالة الأسقفية للقساوسة والمسح المغالى فيه للمحتضر فهي ليست الا طقوسا لم يرتبط بها أي وعد بعفو الله في الكتاب المقدس ويمكن للدين الجديد أن يستغني عنها. أما العماد فهناك بينة عليه في مثال يوحنا المعمدان، ويمكن استبقاء الاعتراض السمعي باعتباره من المقدسات على الرغم مما يحيط من شكوك بالأساس الذي يستند اليه في الكتاب المقدس. ورأى لوثر أن القربان المقدس ما هو الا معجزة الهية دائمة. ومما لا شك فيه أن عقيدة لوثر في القربان المقدس واحلاله عشاء الرب محل القداس ونظريته عن الخلاص بالايمان لا بالأعمال الصالحات قد قوضت دعائم سلطة رجال الكهنوت في شمال المانيا. (انظر ول ديورانت، ج24، ص67)

عزيزي الدارس، لقد انتقد لوثر الدولة انتقاده للكنيسة حيث آلمه تحريم بيع عهده الجديد أو حيازته في المناطق التي تخضع لحكام من المحافظين فكتب في خريف عام 1522م رسالة عنوانها «عن السلطة الزمنية: إلى أي حد يجب أن تطاع». وبدأها

بأسلوب رديء للغاية فأقر عقيدة القديس بولس عن الخضوع المدني والأصل الالهي للدولة ومن الواضح أن هذا كان يتناقض مع تعاليمه الخاصة التي تقول بالحرية الكاملة للمسيحي. وأوضح لوثر أنه على الرغم من أن المسيحيين المخلصين ليسوا في حاجة إلى قانون فانهم يجب أن يطيعوه وأن يكونوا قدوة لغالبية الناس لأن نظرة الانسان التي تجنح للاثم في غيبة القانون سوف تمزق المجتمع اربا. ومع ذلك فان سلطة الدولة يجب أن تنتهي حيث يبدأ ملكوت الروح «فمن هم هؤلاء الأمراء الذين يأخذون على عواتقهم أن يفرضوا على الناس ما يقرأونه أو ما يعتقدونه» (ول ديورانت، ج24، ص69). ويقول: لا بد أن تعرفوا أن الأمير الحكيم يندر وجوده حقا منذ بداية الخليقة مثله في ذلك مثل الأمير الورع. فالأمراء في العادة أكبر الحمقى أو أسوأ الأنانيين على ظهر الأرض. وانهم السجانون الجلادون الذين يسلطهم الله على عباده، وهم أدوات الله التي تحقق غضبه تعالى بعقاب الأشرار وللمحافظة على السلام بين الناس . . . ومهما يكن من أمر فاني بكل اخلاص أنصح هؤلاء الناس الذي طمس الله على أبصارهم أن ينتبهوا إلى القول الموجز في المزمور 107 (27). «إن الله تعالى ينزل سخطه على الأمراء» واني أقسم لكم بالله أن هذه العبارة الموجزة لو أصبحت سيفا مصلتا على أعناقكم بسبب خطئكم فلا تلوموا إلا أنفسكم، وذلك على الرغم من أن كل واحد منكم متين البنان «كالتركي» ولن يجديكم فتيلا أن تستشيطوا غضبا وتحمسكم للكلام فقد تحقق.فعلا جانب كبير منه، لأن . . . الرجل العادي يتعلم كيف يفكر . . . ثم إن الجماهير وعامة الناس تستجمع نقمتها على الأمراء، وعلى الناس بعد هذا ألا يعانوا من طغيانهم وغرورهم، فهذا ما لا يستطيعونه ولن يسمحوا به، فَيا أيها الأمراء والسادة الأعزاء تمسكوا بأهداب الحكمة واهتدوا بهديها. إن الله لن يتسامح معكم بعد هذا ولم يعد العالم ذلك الذي كنتم فيه تطاردون الناس وتسوقونهم كالأنعام» (ول ديورانت، ج24، ص69).

وقد تسأل عزيزي الدارس عن ردة فعل هذه الرسالة عند مسؤولي الدولة. وللاجابة عن ذلك أقول: لقد اتهمه - اثر ذلك - رئيس وزراء بافاري بأن هذه دعوة لثورة تتسم بالخيانة، وندد بهذه الرسالة الدوق جورج ووصفها بأنها إفك، وحث الأمير المختار فردريك على أن يصادرها. غير أنه لم يفعل وسمح بتوزيعها لما عهد فيه من اتزان: والسؤال الآن: ترى ماذا كان يقول الأمراء لو أنهم قرأوا رسالة لوثر إلى فنتسل لينك Wenzel Link في 19 مارس (اذار) 1522م والتي يقول فيها: «إننا ننتصر على الطغيان البابوي الذي طالما سحق ملوكا وأمراء فكيف لا يسهل علينا إذن أن نتغلب على

الأمراء أنفسهم ونطأهم بنعالنا». أو ماذا هم قائلون إذا اطلعوا على تعريفه للكنيسة؟ حيث يقول: «أعتقد أنه لا توجد على ظهر الأرض الا كنيسة مسيحية عامة، حكيمة كالعالم ولكنها كنيسة مقدسة وهي ليست الا جماعة القديسيين... وأعتقد أن كل الأشياء على المشاع في هذه الجماعة أو هذا العالم المسيحي، وكل ما يملكه الانسان من متاع ملك للآخر، ولا يوجد شيء ملك لأحد فحسب» (انظر ول ديورانت، ج24، ص69-70).

وتجدر الاشارة، عزيزي الدارس، وعلى الرغم من كل هذا أن مارتن لوثر كان محافظا بل ورجعياً في السياسة وأدين بمعنى أنه كان يريد أن يعود بالناس إلى المعتقدات والرسائل الأولى في القرون الوسطى. وكان يُعد نفسه ممن يردون الأشياء إلى أصولها وأنه ليس مبتدعاً واتفق في الرأي مع الكنيسة في القرون الوسطى في إدانة الربا إلا أنه أضاف بطريقته المرحة أن الربا بدعة من عمل الشيطان وأسف لنمو التجارة الخارجية ووصف التجارة بأنها «مهنة مرذولة» واحتقر هؤلاء الذين يكسبون معاشهم بشراء السلعة بثمن رخيص وبيعها بثمن غال. ونده بالمحتكرين الذين كانوا يتآمرون لرفع الأسعار لأنهم «لصوص ظاهرون للعيان»، وانتهى إلى رأي ينذر بالويل في رسالة عاصفة عنوانها: «عن التجارة والربا».

لقد أخذ لوثر، عزيزي الدارس، يروج لهذا النهج كله، فرفض الاعتراف بالمحاكم الأسقفية والقانون الكنسي وأصبحت المحاكم المدنية في أوروبا اللوثرية هي المحاكم الوحيدة كما أصبحت السلطة الزمنية هي السلطة الشرعية الوحيدة. وعين الحكام الزمنيون موظفي الكنيسة وانتزعوا أملاكها وبدأوا في الاشراف على مدارسها ومبرات الأديرة. وظلت الكنيسة والدولة مستقلتين إحداهما عن الأخرى من الناحية النظرية، وإن أصبحت الكنيسة بالفعل خاضعة للدولة وهكذا قدر للحركة اللوثرية التي كان يعتقد أنها الحياة بأسرها للاهوت أن تقدم، بلا قصد ورغم أنفها، ذلك التحول الشامل نحو الدنيوية الذي أصبح الموضوع الأساس في الحياة العصرية.

2.2 جون كالفن 1509 - 1564م

ولد في نويون بفرنسا يوم 10 يوليو «تموز» عام 1509م تلك المدينة التي كانت مثالا من حكومة يسيطر عليها رجال الدين وكان أبوه يعمل سكرتيراً للأسقف، ووكيل أعمال في إدارة الكاتدرائية ووكيلا للمقاطعة يشرف على الأعمال المالية.

أرسل جون كالفن إلى كلية دي مارتن في جامعة باريس، وهناك حذق كتابة اللاتينية ونقل بعد ذلك إلى كلية دي مونينجو حيث بقي حتى عام 1528م حيث حول إلى دراسة القانون وحصل في عام 1531م على درجة البكالوريوس، وعاد إلى باريس وعكف على دراسة الأدب الكلامي حيث نشر في عام 1532م مقالا باللاتينية «لسينكا». ويبدو أن كالفن قد غادر باريس عام 1534م إلى «أنجوليم» ولعله بدأ هناك في كتابة مؤلفة Institutes ثم عاد سرا إلى باريس حيث التقى زعماء البروتستانت، ثم فر منها إلى بازل عام 1536م حيث نشر هناك كتابه وباللغة اللاتينية باسم «مبادىء الدين المسيحي». والذي أعيد نشره بعد أن ترجمه كالفن إلى الفرنسية في عام 1541م حيث حرّم برلمان باريس تداوله وأُحرقت نسخ منه علنا هناك. ومن الجدير ذكره أن كالفن استمر طوال حياته يعمل على إضافة فصول إلى هذا الكتاب وإعادة نشره وبلغت عدد صفحاته 1118 في شكله النهائي.

استهل كالفن الطبعة الأولى من الكتاب بـ «مقدمة إلى أعظم ملك مسيحي لفرنسا» وتكشف بداية ونهاية هذه المقدمة روعة أفكاره وجزالة أسلوبه. ويبدو أن كالفن كان يأمل في أن يوطد المأرب السياسي على دعائمه من الجدل اللاهوتي، وأن يعاون في استمالة الملك إلى القضية البروتستانتية. وقد وصف المصلحين الدينيين الفرنسيين بأنهم وطنيون مخلصون للملك كارهون لكل اضطراب اقتصادي أو سياسي.

عزيزي الدارس، ويبدو من دراسة لاهوت كالفن تشابه بعض أفكاره بأفكار لوثر خاصة فيما يتعلق بالقدر لبني البشر، فلا سبيل لخلاص الناس بأعمالهم الحميدة ولكن إرادة الله التي يتغمد فيها برحمته من يشاء ويعفو عمن يشاء. ويسلم كالفن بأن حتمية القدر تتنافى مع العقل. وأن الله سبحانه قد عرف مصير الانسان النهائي في المستقبل، قبل أن يخلقه لأنه شاء هذا وقرره. وليس هناك مطهر في لاهوت كالفن، وليس هناك منزل في منتصف الطريق، يستطيع الانسان بعد أن يقضي فيه وقتاً وهو يتعذب بالنار أن يمحو بها سيئاته، وعلى هذا يرى كالفن أن لا محل للصلوات من أجل الموتى، ومع ذلك فهو يدعو إلى الصلاة بتواضع وايمان لأن الصلاة وتقبلها قد سبقا في حكمه أيضاً. ولم يكن كالفن يدعو إلى نبذ القداس لأن المسيح موجود فيه بروحه لا بجسده. واعتبر الاعتقاد بأن المسيح يوجد فيه بجسده نوع من الوثنية. كما رأى أن استخدام الصور المنقوشة «للرب» تشجيع على عبادة الأوثان، ويجب إزالة كل الصور والتماثيل الدينية بل والصليب من الكنائس. «انظر ول ديورانت، ج24، ص212-214).

ويرى كالفن أن الدولة والكنيسة مقدستان، وقد خلقهما الله لكي يعملا في انسجام كالروح والجسد، لمجتمع مسيحي واحد، وعلى الكنيسة أن تضع القواعد التي تنتظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبادة والاخلاق، وعلى الدولة أن تدعم هذه القواعد، باعتبارها ذراع الكنيسة الطبيعي. والحكومة المثالية هي حكومة رجال الدين، ويرى أنه يجب الاعتراف بالكنيسة التي تؤمن بالاصلاح الديني.

ومما يلفت النظر، عزيزي الدارس، مدى ما تبقى من تقاليد الرومان الكاثوليك وآرائهم في لاهوت كالفن، فهو مدين بعض الشيء لفلسفة الرواقيين وبخاصة «سينيكا»، وبشيء لدراساته في القانون، ولكنه اعتمد بصفة خاصة على القديس «اوغسطين».

وتكمن عبقرية كالفن في تطوير آراء من سبقوه إلى نتائج منطقية، والتعبير عن هذه النتائج ببلاغة وبصياغة تضميناتها العملية بمنهج يقوم على التشريع الكهنوتي. وأخذ عن لوثر عقيدة التبرير أو الاختيار بالايمان، ومن «زونجلي» أخذ التفسير الروحي للقربان المقدس، ومن «بوسر»: الآراء المناقضة لمشيئة الله، باعتبارها سبباً لكل ما يحدث، والحاجة إلى ورع قوي وعمل، باعتباره امتحاناً وشاهداً على الاختيار، ووصلت معظم تلك العقائد في صيغة أخف إلى التراث الكاثوليكي، وأضفى عليها كالفن أهمية شديدة، ولم يعبأ بالعناصر المعوضة المخففة في عقيدة القرون الوسطى.

كان كالفن أقرب إلى القرون الوسطى من أي مفكر بين اوغسطين ودانتي. ورفض رفضاً باتاً قبول انشغال علماء الانسانيات بأفضلية الدنيا، وحول أفكار الناس من جديد إلى العالم الآخر، بصورة كئيبة أكثر من قبل، وأنكر الاصلاح الديني في مذهب كالفن من جديد. «انظر ول ديورانت، ج24، ص216).

كان سلوك «كالفن» في السنوات الأولى من دعوته يتسم بالاعتدال والتواضع فكسب إلى صفه الجميع الا أقلية ضئيلة، وعين ثمانية من مساعدي القسس للعمل تحت رئاسته لتقويم الخدمة الدينية في كنيسة القديس بطرس وغيرها من كنائس المدينة، فكان يعمل واعظا ومديرا واستاذاً للاهوت، ومشرفاً على الكنائس والمدارس، ومستشاراً للمجالس البلدية، وضابطا للأخلاق العامة، ومنظما للطقوس الدينية في الكنيسة، وعكف في غضون ذلك على إضافة فصول لكتابه «القوانين»، وكتب تعليقات على الكتاب المقدس.

وكان أول عمل قـام به «كالفن» هو إعادة تنظيم الكنيسـة، التي تناولها الاصلاح وبذلك أتيح لرجـال الدين أن يمارسوا سلطات أتاحت لهم أن يـنظموا العبـادات، فكان التغيب مع الإصرار عن حـضور الصلوات البروتستانتيـة، أو الاستمرار في رفض تناول القربان المقدس، من الجـرائم التي يعاقب عليها القانون، وكان المهـرطقون يحكم عليهم بالاعدام، وكذلك مزاولة السحر.

كان السلوك الأخلاقي كالعقيدة يجب أن يلتزم به بعناية، ذلك لأن حسن السلوك هو الهدف من العـقيـدة الصحيـحة. ولتنظيم سلوك الجـماهير أقـيم نظام يعتـمد على الزيارات المنزلية، ويتلخص ذلك في أن أحـد شيوخ الكنيسة أو غـيره، كان يزور سنوياً كل بيت عين له في الحي، ويسأل السكان عن مراحل حيـاتهم كلها. وامتد التنظيم إلى التعليم والمجـتمع والحياة الاقتـصادية. ورأى «كالفن» أن التقـسيم الطبقي أمر طـبيعي، وكان على كل شخص أن يتـقبل وضعه في المجتمع، وأن يؤدي واجـباته دون حسد لمن هم خيـر منه. والتزم مذهب كـالفن بالعمل الشاق والرصـانة والاجتهاد والاعـتدال في النفقة، وأصبح اقتصاده قانوناً دينياً ينبغي التعامل جيداً معه.

عزيزي الدارس، لقد كان تأثير كالفن أعظم من تأثير لوثر، ولكنه سار في طريق كان لوثر قد مهده، غـير أن كالفن أضفى على البروتستانتية في كثـير من البلاد تعظيماً وثقة واعتزازاً بالنفس مكنتها من أن تعيش وتصمد أمام المحن.

نشاط (1)



أ- ابحث في السبب الذي ابتدأ فيه لوثر حركته الإصلاحية؟

ب- إقرأ في مقدمة كـتاب كالفن «تجد ذلك في ج24 من قصة الحضارة لـ ول ديورانت»، وناقش مـا انطوت عليـه مـن أفكار مع زمـلائك ومـشـرفك الأكاديمي.

تدريب (1)



أ- اذكر أهم التنازلات الـتي قدمهـا لوثر إزاء تصميم البـابا إلى إعادته للكنيـسة الكاثوليكية؟

ب- ما هي أعظم مؤلفات كالفن؟

أسئلة التقويم الذاتي (1)

؟

ما هي «الجدران الثلاثة» في رأي لوثر التي شيدتهـا البابوية حول نفسها؟ وما هي وجهة نظره في ذلك؟

3. الفكر المسيحي الإفلاطوني

1.3 نيكولا دي كوزا «نيكولاس الكوزادي» ((1401-1460م

ولد في «كـولس» قرب تريير في ألمانيا عـام 1401م، وجمع بين التـضلع في القانون والتخصص في الدين في مدرسة «إخوان الحياة المشتركة في ديفنتر» تأثر بمذهب اوكهـام الاسمي فـي بادو كما تـأثر بمذهب الشك عند ابن رشد لبـعض الوقت. كـما تشرب التراث الأرثوذكسي، وكـانت فيه كل العناصر التي تجعل منه أكـمل مسيحي في عصره فأظهر أفضل وجه للمسيحية المنظمة.

لم يتخل «نيكولاس» عن نزعـته الصوفـية وكتب مؤلفـاً كلاسيكياً في التـصوف عنوانه: «رؤيـة الله» ورفض المذهب العـقلي الكلامي الذي يـبـحث في اثبـات علم اللاهوت بالعقل، وذهب إلى أن كل المعارف الانسـانية نسبية وغيـر ثابتة، وأعرض عن التنجيم. وحـافظ على الفكرة العلمـية وحث على القيـام بمزيد من التجـربة ومزيد من المقاييس الدقيقة، وأشار إلى زمن سقـوط الأجسام المختلفة من شتى الارتفاعات ودرس أن الأرض «لا يمكن أن تكون ثابتـة ولكنها تتـحرك مثل غـيرها من النجـوم، فكل نجم يتحرك مهما بدا لنا ثابتاً، وكل مـدار فلكي دائري، والأرض ليست مركز العالم إلا كما تعد أي نقطة مركزاً لعالم لا نهائي» (انظر ول ديورانت، ج23، ص156).

وفي عام 1433م ذهب نيكولاس إلى بازل ليـقدم للمجلس الكنسي هناك عـملا هو ثمرة لخطة مشهورة في تاريخ الفلسفة أطلق عليه اسم «الائتلاف الكاثوليكي»، وكان الهدف العام الذي يرمي اليه هو أن يتوصـل إلى اتفاق بين المجالس وبين البابوات. وقد صور الكنيسة وحـدة عضوية لا تستطيع أن تؤدي وظيفتها بنجـاح إلا من خلال التعاون الوثيق بين أجزائها وذلك في قياس محكم وتركيب متفق. ورأى أن مجلسا عاما فحسب هو الذي يمكن أن يمثل ويعبر ويوجد عناصر الكنيسة. وقال:

«كل قانون يعتمد على قانون طبيعي، وإذا تناقض معه فانه لا يمكن أن يكون قانوناً صحيحاً . . . وبما أن الناس قد خلقوا احراراً فان أية حكومة توجد فقط بموافقة رعاياها ورضاهم فحسب، والقوة الملزمة لأي قانون يتضمنها هذا الاتفاق وهذا الرضا صراحة أو ضمناً، فالشعب صاحب السيادة يفوض في سلطانه بعض الجماعات الصغيرة المزودة بالتعليم أو الخبرة لسن القوانين أو تطبيقها، غير أن هذه الجماعات تستمد سلطاتها العادلة من رضا المحكومين، وعندما تفوض الجماعة المسيحية في سلطاتها مجلساً عاماً للكنيسة فان هذا المجلس وليس البابا هو الذي يمثل السلطة العليا في الدين. وفضلا عن هذا فان البابا لا يستطيع أن يستند فيما يدعيه من حق شرعي مطلق، إلى هبة قسطنطين المفترضة لأن هذه الهبة اختلاق واسطورة. إن للبابا الحق في عقد مجلس عام ولكن مثل هذا المجلس يمكن أن يخلعه إذا رآه غير لائق بمنصبه. ونفس المباديء يمكن أن تطبق على الامراء الزمنيين. وربما تكون الملكية الانتخابية خير حكومة تتاح للناس في حالتها الفاسدة الحالية، ولكن يجب على الحاكم الدنيوي، كما يجب على البابا أن يعقد بانتظام مجلساً نيابياً ويجب أن يخضع للقوانين التي يصدرها هذا المجلس». (انظر ول ديورانت، ج23، ص157).

عزيزي الدارس، لقد كان نيكولاس - كما قدمنا - خير مثال تقدمه المسيحية في عصره، وكان مثالاً يحتذى للبطارقة في أخريات أيامه فعندما رسم كاردينالا عام 1448م. أصبح شخصية كاثوليكية مصلحة. فقام بجولة مجهدة في هولندا وألمانيا وعقد خلالها مجتمعات مقدسة اقليمية وأحيا النظام الكنسي وأصلح أديرة الرهبان والراهبات وهاجم تَسري «بذخ» القسس وارتقى بتعليم رجال الاكليروس ورفع على الأقل ولو لفترة مِنَ المستوى الخلقي لرجال الدين والشعب. وإنه لحق أن يقال: «لو قد ظهر كثيرون من أمثال نيكولاس لما قُدر لمثل لوثر أن يوجد» (ول ديورانت، ج23، ص158).

2.3 مرسيليو فتشينو «مرسيليوس البادوي» (ت - 1343م)

عزيزي الدارس، كان مرسيليو فيلسوفاً ينادي بالفزدية. درس الطب في الجامعة ولعله تأثر بابن رشد. وعندما انتقل إلى باريس أصبح مديراً للجامعة وفي عام 1324م. ألف مع «جون الجنداوني» أعظم رسالة أثرت على السياسة في العصور الوسطى وهي «المدافع عن السلام». وقد برهن هذا الكتاب على أن السلام في اوروبا آنذاك يقوضه النزاع بين الدولة والكنيسة، وأنه يمكن استعادة السلام والحفاظ عليه بوضع الكنيسة بكل

ممتلكاتها والعاملين بها تحت نفس السلطة الامبراطورية أو الملكية. ومن الخطأ أن تقتني الكنيسة ممتلكات، إذ ليس في الكتاب المقدس ما يبرر هذا الاقتناء (انظر ول ديورانت، ج23، ص151).

وجاء في الكتاب كذلك أن على الجماعة المسيحية أن تفوض في سلطاتها ممثليها من رجال الاكليروس وإن كان لا يجب أن تسلم لهم قيادها. ويجب أن يكون هؤلاء مسؤولين أمام الشعب الذي يمثلونه، وأن ادعاء البابا أنه يستمد سلطته من بطرس الرسول خطأ تاريخي «في نظر مرسيليوس» إذ لم يكن بطرس أقوى سلطة من باقي الرسل ولم يكن لأسقافة روما في أوائل عهدهم في القرون الثلاثة الأولى سلطة تزيد عن سلطة الاساقفة في كثير من العواصم القديمة الأخرى. وكان يرأس المجالس العامة الأولى الامبراطور أو نوابه وليس البابا. وأي مجلس عام ينتخبه شعب العالم المسيحي يجب أن يفسر الكتب المقدسة ويعرف العقيدة الكاثوليكية ويختار الكرادلة وهؤلاء يجب عليهم أن يختاروا البابا. ويجب على رجال الاكليروس بما فيهم البابا أن يخضعوا للقضاء المدني والقانون في جميع الأمور الدنيوية. ويجب أن تعين الدولة رجال الاكليروس وتمنحهم مرتبات وتحدد عدد الكنائس والقسس وتستغني عن القسس كلما رأت أنهم غير جديرين بمناصبهم، وتراقب الهبات الكنسيّة والمدارس التابعة للكنيسة ودخلها وترفه عن الفقراء من فائض دخول الكنيسة (انظر ول ديورانت، ج23، ص151).

وكما ترى، عزيزي الدارس، فقد كان «مرسيليوس» يدعو إلى أن يستبدل بسلطة الكنيسة سلطة الشعب. غير أنه وبسبب النظام الاجتماعي ومن أجل سلامته الشخصية استبدل بسلطة الشعب سلطة الدولة. غير أنه لم يرفع من شأن الملوك إلى درجة يجعلهم فيها كل شيء وإن كان يتطلع من وراء انتصار الدولة أن يرى ذلك اليوم الذي يمارس فيه الشعب سيادته الفعلية.

والملاحظة الأخرى على كتاب مرسيليوس أنه دافع فيه عن الديمقراطية في مجال الاصلاح بين رجال الكنيسة؛ فعلى كل طائفة مسيحية أن تختار ممثلا لها في مجالس الكنيسة وعلى كل أبرشية أن تختار قساوستها وتراقبهم وتطردهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك. ويجب أن لا يحرم عضو في الابرشية من عضويته دون موافقتها.

طبق مرسيليوس مبادئ مماثلة على الحكومة المدنية وإن كان قد أدخل عليها بعض التعديل غير أن مرسيليوس لم يكن بوسعه أن يدافع عن المساواة في التصويت بين جميع البالغين في اوروبا حيث كان من العسير أن تجد واحداً يستطيع القراءة بين كل عشرة،

وحيث كانت المؤهلات صعبة والانقسامات الطبيعية راسخة لا تتزعزع بمرور الزمن. (انظر ول ديورانت، ج23، ص152-153)

لقد رفض مرسيليوس الديمقراطية بشكلها الكامل حيث تتحدد فيها السياسة والتشريع بعدد الانوف «مجموعة من الناس المعوزين». ولتصحيح هذا الفساد كان يريد من الافراد أن تكون لهم سلطة سياسية مناسبة لمكانتهم في المجتمع، وان لم يقل كيف ومن يحكم على هذا. وأفسح مكاناً للملكية، ولكنه أضاف أن «الحاكم الذي ينتخب هو أفضل بكثير من الحكام الذين يصلون إلى مناصبهم بالوراثة» فالملك يجب أن يكون نائباً وخادماً للجمهور وإذا أساء السلوك فان من حق الجمهور أن يخلعه. (ول ديورانت، ج23، ص153).

عزيزي الدارس، يبدو أن مرسيليوس مات عام 1343م وهو منبوذ من الكنيسة التي حاربها، ومن الدولة التي عمل على رفع شأنها. ولعل نجاحه المؤقت ما كان ليتحقق لو لم تخول مهنة القانون الناهضة للدولة سلطة تنافس سلطة الكنيسة؛ فقد رفع المحامون «القانون الوضعي» للدولة جانباً، وغالباً ضد القانون الكنسي، وعلى أطلال القانون الاقطاعي والشيوعي، وانتشر هذا القانون الملكي أو الدنيوي مع الأيام وتغلغل في أمور الناس.

3.3 براسلوس (1493-1541م)

عزيزي الدارس، ولد براسلوس في عام 1493م في ألمانيا. ولما بلغ الرابعة عشرة قصد «هايدلبرج» للدراسة. وكان يَتَنَقَّل من جامعة إلى أخرى. فمن فرايبورج إلى انجولشتات إلى كولونيا إلى توبنجن إلى فينا، إلى وارنورت وأخيراً إلى فيرارا. وفي عام 1515م التحق حلاقا صحياً في جيش شارل الأول ملك اسبانيا، دون أن يحصل على درجة جامعية. ويزعم أنه مارس الطب في غرناطة ولشبونة، وانجلترا، والدنمرك، وبروسيا، وبولندا، ولتوانيا، والمجر، وغيرها من الأقطار. وكان في سالزبورج إبان حرب الفلاحين عام 1525م، وعالج جروحهم وتعاطف مع أهدافهم. (انظر ول ديورانت، ج27، ص162).

عوض براسلوس عن افتقاره إلى الدرجة الجامعية باتخاذ ألقاب مثل: «أمير الفلسفة والطب» و «دكتور في فرعي الطلب»: «أي طبيب وجراح»، و«ناشر الفلسفة». وداوي جراح غروره بالثقة في دعاواه. كتب يقول: «سيتبعني الجميع، وستكون مملكة

الطب مملكتي. . . كل الجامعات وكل الكتاب القدامى مجتمعين أقل مواهب مني» (ول ديورانت، ج17، ص168).

ولع براسلوس بالاشتراكية فكان يندد بالمال، وبالفائدة، وبالتجار، ويدعو للشيوعية في الأرض والتجارة، وللمساواة بين الناس في الاجور. وفي كتابه الأول «الحكمة العظمى» رفض اللاهوت وامتدح التجربة العلمية، وفي عام 1557م كان براسلوس في ستراسبورج يمارس الجراحة ويحاضر في الحلاقين الصحيين، وكان تعليمه لهم مزيجاً مهوشاً من المعقول وغير المعقول، ومن السحر والطب، وقد رفض التنجيم ابتداء ثم سلم به «انظر ول ديورانت، ج27، ص163).

بحث براسلوس بشوق عن حجر الفلاسفة أي عن صيغة عامة تفسر الكون. وكتب في سذاجة المصدق عن الأقزام الخرافية، وسلامندر الاسبستوس، والارشادات، وهي علاج الأعضاء المريضة بعقاقير شبيهة بها لونا وشكلاً، وكان يستخدم التعاويذ والتمائم السحرية علاجاً.

عزيزي الدارس، ولعلك تسأل عن هذا الرجل «برسلوس» الذي كان ينصح بالأوهام السائدة في عصره، ماذا قدم للنهضة الاوروبية. وللاجابة أقول لك:

أدخل «براسلوس» تحسينات جريئة على استخدام الكيمياء في الطب، وكان يقول: «إن الانسان مشتق من المادة، والمادة هي الكون كله، والانسان بالنسبة للكون كالعالم الصغير بالنسبة للعالم الكبير، وكلاهما من نفس العناصر، وأساسها الأملاح، والكبريت، والزئبق والمعادن والأملاح المعدنية التي تبدو عديمة الحياة وهي في الواقع مفعمة بالحياة. والعلاج الكيماوي هو استخدام العالم الكبير لشفاء العالم الصغير. والانسان من حيث بدنه مركب كيميائي، والمرض تنافر، لا في «الأمزجة» كما زعم جالينوس، بل في مكونات البدن الكيميائية» وهذه أول نظرية حديثة «للأيض» أو التمثيل الغذائي. وكان العلاج في أول العهد يعتمد في عقاقيره إلى حد كبير على عالم النبات والحيوان، أما باراسلوس الفارق في كيميائه القديمة، فقد أكد ما للمواد غير العضوية من قدرات علاجية، وأشاع استعمال الصبغات والخلاصات الكيميائية. وكان أول من صنع صبغة الافيون. وقد شجع استعمال الحمامات المعدنية، وشرح خواصها وآثارها المتنوعة.

وقد أشار براسلوس إلى استخدام جرعات باطنية من الزئبق دون الاستعمالات الظاهرة له وذلك لعلاج الزهري الذي أصبح ساحة احتدمت فيها المعركة بين العلاج النباتي والعلاج الكيميائي (ول ديورانت، ج27، ص170).

ومن الكتب التي ألفها في الطب: «العمل العجيب جداً»، و«معارضة الطبيعة» و«الجراحة الكبرى». وفي عام 1543م انتكس مرة أخرى إلى السحر في كتابه بعنوان (Philosophia Saqax) وهو خلاصة وافية عن السحر (انظر ول ديورانت، ج27، ص170).

ولاحظ براسلوس العوامل المهنية والجغرافية المؤثرة في المرض، ودرس السل الرئوي المتليف في المعدة، وأدخل تحسينات على فهم الصرع، وعزا الشلل واضطرابات النطق إلى اصابات الرأس. ورأى بامكانه شفاء النقرس والتهاب المفاصل وذلك إذا كان التشخيص على أنهما نتيجة لأحماض تكونها بقايا الطعام التي استقرت طويلاً في القولون. فقال: «كل الأمراض يمكن ردها إلى تخثر المادة غير المهضومة في الأمعاء» (انظر ول ديورانت، ج27، ص164). وأطلق على الأحماض الناشئة عن التعفن المعوي اسم «الطرطير» لأن رواسبها في المفاصل، والعضلات، والكلى، والمثانة «تحرق كالجحيم». ويستطرد بقوله: «إن الأطباء يفاخرون بمعرفتهم بالتشريح ولكنهم عاجزون عن رؤية «الطرطير» اللاصق بأسنانهم» (ول ديورانت، ج27، ص165). واقترح وقف تكون هذه الرواسب في الجسم بالغذاء الصحي، والمقويّات، وتحسين الاخراج، وحاول تليين الرواسب باستعمال زيت الغار، ومركبات الراتنج. أما الحالات الشديدة فقد دعا فيها إلى الجراحة حتى يسمح للرواسب الملتصقة بالهروب أو تتاح إزالتها.

وبعد أن فصل البروتستانت وكانوا الأغلبية في مجلس مدينة بال - الدكتور «فونيكر» طبيب المدينة - على أثر تفوهه بكلمات ضد الاصلاح البروتستانتي، عيّنوا «براسلوس» مكانه. إلا أن الجامعة لم تقبل به مدرساً فيها واقترحت عقد امتحان له في التشريح ولم يعقد ذلك الامتحان. وصار «براسلوس» يمارس الطب بالمدينة ويحاضر في قاعة خاصة دون موافقة الجامعة. وجمع اليه الطلبة وكان من ضمن آرائه في محاضراته «أنه يجب أن لا يؤدي الصيدلي عمله متواطئاً مع أي طبيب» وقذف بالنار احدى النصوص الطبية القديمة وقال: «لقد ألقيت في نار القديس يوحنا بخلاصة الكتب حتى تصعد جميع المحن والبلايا في الهواء مع الدخان، وهكذا طهرت مملكة الطب من

أدواتها» (ول ديورانت، ج27، ص167). ولعلك تقارن عزيزي الدارس بين هذه الحركة من براسلوس وبين احراق لوثر لمرسوم أصدره البابا.

وكان براسلوس قد فاه في شبابه ببعض الهرطقات الدينية كقوله إن دلالة العماد رمزية لا أكثر، وان تناول الاسرار المقدسة نافع للأطفال والمغفلين، عديم الفائدة للأذكياء، وان الصلوات للقديسين مضيعة للوقت.

وفي أواخر سني حياته، راح يتنقل بين ربوع المانيا مهدودا من الفقر والهزيمة، وبعد أن اختار التحول الديني صام ووهب متاعه الباقي للفقراء، وكتب المقالات التعبدية، وفي عام 1540م قدم له أسقف سالزبورج الملجأ فقبل ذلك وكتب وصيته وترك نقوده القليلة لأقاربه وأدواته لحلاقي المدينة الصحبيين، ثم انتقل إلى رحمة الله عام 1541م.

كان براسلوس رجلاً قهرته عبقريته، غنياً في الخبرة المنوعة والأحاسيس الذكية، ناقصاً في تعليمه المدرسي نقصاً أعجزه عن فصل العلم عن السحر، مفتقراً إلى ضبط النفس اللازم للسيطرة على حماسته المتأججة. حادّ الخصومة بحيث لم يستطع التأثير في جيله.



نشاط (2)

ارجع إلى كتاب ول ديورانت، قصة الحضارة، ج2، وانظر فيه نصا من كتاب مرسيليوس البادوي، وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟



تدريب (2)

أ- ما هو الهدف من عمل نيكولاس المعنون بـ (الائتلاف الكاثوليكي)؟

ب- اذكر ثلاثة مؤلفات لـ براسلوس؟



أسئلة التقويم الذاتي (2)

1- لخص فكرة مرسيليوس البادوي في كتابه: «المدافع عن السلام»؟

2- اشرح التعديلات التي أدخلها براسلوس في الكيمياء؟

4. الفكر السياسي: ميكافيلي (الأمير) (1469-1527م)

علك عـزيزي الـدارس، يدور في ذهنك، وأنت تقـرأ هذا العـنوان كـثـيـرٌ من الأسئلة، كأن تقول: ولماذا ميكافـيلي. ومن هو؟ ولماذا كلمه «الأمير». ولكي أجيب عن ذلك أقول: كان ميكافيلي: من أهم فلاسفة السياسة الذين وضعوا أساس الدولة القومية الحديثـة؛ ذلك أن ظهور الدولة القوميـة وحلولها محل الدولة الدينيـة «في أوروبا» كان بداية البدايات لنشور الحضـارة الأوروبية الحديثة. ووضح أشهر كتبـه في السياسة بعنوان الأمير.

ولد ميكـافيلي في فلورنسـا عام 1469م ولعله درس التـراث اللاتيني ولا سيـما التاريخ، كمـا أنه كان مفتوناً بدانتي وبـترارك وبوكاشيو. قضـى الشطر الأول من حياته (1498-1512م) دبلوماسيا توفده بلاده في سـفارات متعددة إلى بلاط الملوك والأمراء، أما الشطر الثاني من حياته فقد قضاه محدد الإقامة في بيته. لقد مكنه عمله من التعرف على أقوى رجالات عصره المشتغلين بالحكم والسياسة، الأمر الذي مكنه أن يبلور أفكاره في فن الحكم وعلم السيـاسة وكتب في هذا كتابه: «الأمـير» عام 1513م. (انظر لويس عوض ص74).

ابتداء - اعرف عزيزي الدارس - أن سلوك الملوك والأمراء في السياسة الدولية قد علّم ميكافيلي الواقعية التي نلمسهـا في كتاباته. فقد رأى أن الدول في عصره لا تتحرك إلا بدافعع المصلحة، ولا تحتـرم اتفاقاتها إلا حين تعود عليهـا بالنفع، وكما وجد الدول كذلك وجـد الأفراد، ففي زمنه اضمـحلت فلورنسا وأخذت تعتـمد في حمايتـها على الجيوش الفرنسية فدعا إلى إنشاء جيش وطني من أبناء فلورنسا للدفاع عن دولتهم، وبعد أن طرد الجيش الفرنسي من إيطاليا عام 1512م بقيت فلورنسا بغير حماية لوقوعها تحت رحمة الإسبان، فسقطت الجمهـورية في فلورنسا وعاد إلى حكمها الامراء المستبدون من «آل مـديتشي». وهكذا عـزل مكيافـيلي من كافـة المناصب التي كـان يشغلهـا في ظل الجمهـورية ونفي من مدينة فلورنسا وهو في سن الثـالثة والاربعين. فعاش في بـيته في الريف وهناك كتب كتابه «الأمـير». وكذلك كتابه «أحاديث لتيتـوس ليفيوس» وهي أهم أعماله في علم السياسة.

من الواضح أن أعماله «كـتاباته» في السياسـة وضعها لترشـد الأمير «لورنزو دي مديتشي الثاني» ليكون أميراً قوياً ناجـحاً. الأمر الذي مكنه من العودة إلى الخدمة العامة

في ظل آل مديتشي عام 1526م. غير أنه سرعان مـا انهارت الامارة المطلقة في فلورنسا وعادت اليـها الجمهـورية وطرد آل مديتشي من الحكم وفـقد مكيافيلي عـمله من جديد وبعدها مات في العام الثاني 1527م.

ومن آثار مكيافييلي كذلك كوميديا اسمـها «ماندرا جولا» وأخرى اسمها «كليزيا» ورواية اسمها: «بيلفاجور» وأخرى اسمها «سيـرة كاسترو تشيو كاستر أكاني» وكتاب في «تاريخ فلورنسا» وآخـر عن «إصلاح حكومة فلورنسا»، و«رسـائل شخصيـة منشورة»، بالاضافة إلى كتابه «الأمير».

عزيزي الدارس، سنركز حديـثنا هنا عن كتاب مكيافيلي: «الأميـر». الذي يعتبر بداية الطريق في الفكر السياسي الحديث بسبب واقعيته في الوصف والتحليل. وقد اتخذ في هذا الكتاب سيـزار بورجيا (1475-1507م) مثلا أعلى للأميـر. يرى مكيافيلي في كتابه أن على عالم السياسة أن يضع نفسه مع الطبقات الشعبية ليفهم طبيعة الحكام، ومع الطبقة الحـاكمة ليفهم طبـيعة الشعب. ومعنى هذا أن الحـكام عاجزون عن الحكم على أنفســهم وأن الشعب أيضـاً عاجـز عن الحكم على نفسـه. والمقصود بهـذا كله أن علم السياسة أو علم الدولة لا يكون موضوعـياً إلا إذا أسس على رأي الشعوب في حكامها وعلى رأي الحكام في شعوبهم (انظر لويس عوض، ص76).

وفي الفصل الثاني من «الأمير» يحدثنا مكيافيلي عن مشكلة الانقلابات والثورات التي يسمـيها «الامارات الجديدة». وعنده أن أول عـقبة تواجهـها أية إمارة جديدة عـقبة طبيعية مؤداها أن الناس يتحمســون إلى تغيير أميرهم أملا في تحسين أحوالهم، إلا أنهم يكتشـفون أن أحوالهم بعـد ذلك تسوء لعدم قـدرة الجديد على أرضائـهم بالدرجة التي كانوا يأملون فـيها. ففي زمنه «زمن مكـيافيلي» كان في ايطاليـا دول المدن. وكان هناك صراع بين المدن الايطالـية، فهـذه فلورنسا كانت في صـراع مع مدينة بيـزا. وكان هناك صراع داخل المدينة الواحدة للوصول إلى دفة الحكم. وكانت فلورنسا متفوقة على غيرها بحكم استعانتهـا بالجيوش الفرنسية، فلما هزم الاسبان الـفرنسيين صارت فلورنسا تحت رحمة الاسبان (لويس عوض، ص77). كما كانت ايطاليا زمن مكيافيلي - كبقية اوروبا تخـرج من العـصور الوسطى وتدخـل عصـر النهـضة، وكـان هناك صـراع بين الدولة والكنيسة الذي أفضى إلى فصل الدين عن الدولة.

وفي الفصل الثـالث من كتابه الأميـر يحدثنا مكيافـيلي عن التوسع الاستعـماري وعن حروب التحـرير فيضرب لنا مثلاً: اسـتيلاء «لويس الثاني عشـر» ملك فرنسا على

مدينة «ميلانو» وضمها إلى أملاكه بجهد ضئيل أو بمجرد استعراض العضلات، لأن أهالي ميلانو الساخطين على أميرهم فتحوا لهذا الأمير الجديد أبواب مدينتهم، ولكن حين تبين لهم أن أحوالهم لم تتحسن أفاقوا من وهمهم وتخلصوا من الحكم الفرنسي. ولما أعاد لويس الثاني عشر الاستيلاء على ميلانو استدعى طرده تضحيات جسام. لأنه اتخذ للاحتلال حيطته وأباد كل جيوش المقاومة ودعم قواته في كل مكان، فاحتاج الأمر إلى حرب تحرير ضروس دمرت جيوشه تماماً وإلى تأليب العالم عليه في كل مكان حتى جلا عن ايطاليا تماماً.

- وهنا يضع مكيافيلي بعض القوانين السياسية التي يراها لازمة لنجاح الفتوحات وحركات التوسع القومي بأسلوب أفضل من التوسع الفرنسي في ايطاليا. أي أنه وضع مباديء علم الاستعمار حيث كانت اوروبا منذ فجر عصر النهضة تدخل تجربتها الكبرى في استعمار العالم منذ نشأة القوميات الحديثة فيها (انظر لويس عوض، ص80).

عزيزي الدارس، ومن جهة أخرى نستطيع القول أن مكيافيلي ربما وضع هذه القوانين ليقنن بها حركات الوحدة القومية التي كانت تجتاح مختلف دول اوروبا ذاتها لتنشيء في كل أمة دولة مركزية واحدة، أو إمارة واحة بلغة مكيافيلي، على أنقاض إمارات الاقطاع المتعددة التي كانت تتكون منها كل قومية. ومن جهة ثالثة ربما وصفها لكي يفسر بها نجاح أو فشل غزو الدول الاوروبية بعضها للبعض الآخر، ونجاحها أو فشلها في استمرار هيمنتها. (انظر لويس عوض، ص80).

قانون آخر يضعه مكيافيلي مؤداه أن الضعفاء ينضمون أبدا إلى الفاتح القوي. وعلى هذا الفاتح إن أراد أن يديم سيطرته أن يحابي هؤلاء الضعفاء ولكن على الأمير أن يحذر من أن يشتد عود هؤلاء. كما أن على الأمير ألا يتخذ شركاء أو حلفاء أقوياء ليثبت قدمه أو يوسع ملكه.

كل هذه المحاذير أفشلت خطط لويس الثاني عشر ملك فرنسا حين غزا إيطاليا.. فطمع أهل البندقية في الاستيلاء على مقاطعة «لومبارديا» جعلتهم يهيئون له دخول ايطاليا، وحين استولى لويس الثاني عشر بفضل ثورته على لومبارديا، استسلمت له جنوة وأهل فلورنسا ودوق فيرارا وماركيز متانتوا وسادة بيزا، وسيسينا وريميني وغيرهم... وهكذا لكي يكسب أهل البندقية مدينتين في لومبارديا جعلوا هذا الملك الأجنبي سيداً على ثلث ايطاليا. ولكن لويس الثاني عشر ما لبث أن فقد كل هذا السلطان بسبب أن سياسته كسرت قواعد السلطة، فما أن دخل ميلانو حتى ساعد البابا

اسكندر السادس على الاستيلاء على «روماجينا»، دون أن يدرك أنه بذلك قد أضعف نفسه بالتخلي عن أصدقائه واللائذين به وبتقوية الكنيسة باضافة السلطة الزمنية «الدنيوية» إلى سلطتها الروحية الرهيبة. ولأنه أراد أن يستولي على نابولي تحالف مع ملك اسبانيا الأقوى منه الذي نازعه سلطانه في ايطاليا. وهكذا فقد لويس الثاني عشر كل شيء في ايطاليا لأنه تخلى عن أصدقائه الضعفاء وتحالف مع منافسيه الأقوياء. يقول في ذلك: «وقد تحدثت في هذا الأمر مع كاردينال «دوان» في مدينة «نانت» بفرنسا عندما استولى فالنتينو على «روماجينا»... وحين قال لي كاردينال دوان: إن الايطاليين لا يفهمون في الحرب، أجبته بأن الفرنسيين لا يفهمون في السياسة أي في الدولة. فلو أنهم فهموا ما الدولة لما سمحوا للكنيسة أن تتعاظم إلى هذا الحد. وقد دلت التجربة على أن فرنسا هي سبب قوة الكنيسة في إيطاليا واسبانيا، وأن سبب خراب ملك فرنسا هما ايطاليا وفرنسا». (انظر لويس عوض، ص 81).

وكأني بك، عزيزي الدرس، تود الاستفسار عن عبارة مكيافيلي «الغاية تبرر الوسيلة» وللاجابة عن ذلك أقول. جاء في الفصلين السابع والثامن من كتاب الأمير، حديث مكيافيلي عن ثلاثة نماذج من الأمراء الذين يصلون إلى امارة دولهم بطرق مختلفة فاما بقوة الغير أو بطريق الحظ أو بطريق الاجراء والغدر. وهذه النماذج الثلاثة ذات صفة خاصة لأنها لا ترث السلطة فاذا وصل فرد من أبناء الشعب إلى السلطة تبدأ متاعبه منذ ذلك الحين. ومن الامراء من يشتري الرئاسة بماله أو بالرشوة أو ليكون صنيعة من يهبها له. ومثل هؤلاء الحكام كمثل الامراء الذين عينهم «دارا» ملك الفرس عندما غزا اليونان فولاهم على زيونيا وعلى جزر بحر إيجه. ومثل هؤلاء أيضاً مثل الامراء الذين اشتروا جنودهم بالرشاوي ليضعوهم على رأس الدولة.

إن من كان مصدر سيادته من غيره عاش قلقاً في سدة الحكم. ومثله لا يعرف كيف يحكم، لأنه عاطل من الكفاية الذاتية الفذة والقوة الشخصية المسيطرة، ولأنه عاش كأحد الناس فهو عاجز عن القيادة ثم إنه لا يملك القوات التي تدين له بالولاء. وكل ما جاء على عجل انقضى على عجل، إلا إذا ساندته القوة والموهبة الذاتية العظمى فهو عندئذ يستطيع أن يضرب جذوره في التربة بعد أن يستولي على الحكم.

ويضرب مكيافيلي مثلين على ذلك هما: فرانسيسكو سفورزا (1401-1466م). وسيزاربورجيا (1475-1507م). أما الأول فقد ارتفع بين الناس بجهده الفذ وباتباع الأساليب اللازمة حتى غدا دوق ميلانو، وما اكتسب بمشقة حافظ عليه بجهد يسير. أما

الثاني فقد ارتفع بمساعدة والده اسكندر بورجيا «البابا اسكندر السادس» حتى أصبح دوق «روماجينا». ولأن الدوقية جاءته من غيره فقد ضاعت منه، رغم أنه بذل جهداً جباراً وأبدى موهبة فذة لتأسيس امارة له في روماجينا. فما جاءه بجيوش الغير وبنفوذ الغير لم يمكنه الاحتفاظ به. (لويس عوض، ص82-83).

وساق لنا ميكافيلي كيف أمكن لهذا الأمير الحفاظ على امارته. فنظر إليه على أنه نموذج للأمير الذي توصل إلى سدة الحكم بقوة غيره أو بالحظ فحافظ على ذلك فقال: «فمن وجد أن من اللازم أن يؤمن نفسه ضد أعدائه في امارته الجديدة، وأن يكسب الأصدقاء، وأن يفتح البلاد بالقوة أو الخداع. وأن يجعل الشعب يحبه ويرهبه، ويجعل جنوده يتبعونه ويحترمونه، وأن يبيد كل القادرين على ايذائه أو من يحتمل أن يؤذوه، وأن يقيم القوانين الجديدة مكان العادات القديمة، وأن يجمع بين الصداقة واللطف، وبين الرفعة والسخاء، وأن يمحق جنده العصاة ويجند محلهم جنوداً جدداً، وأن يتواصل مع الملوك والأمراء بحيث يعملون على استرضائه أو يترددون في ايذائه، مثل هذا الأمير لن يجد أمثلة أوضح من انجازات هذا الرجل» (لويس عوض، ص85).

ويتهم ميكافيلي، عزيزي الدارس، بأنه فصل السياسة عن الأخلاق، وهذا اتهام بعضه صادق وبعضه مبالغ فيه. فهو واضع نظرية أن «الغاية تبرر الوسيلة». ومع ذلك فنماذج الامارة الأخرى التي يقدمها تلقي بصيصا من النور على عقليته ومنطقه المتجرد البارد في النظر إلى الأمور. فهو يعطينا مثلاً على «أجانوكليس الصقلي» الذي وصل إلى سدة الحكم في صقليا لا بفضل مساعدة الغير أو بتدخل الحظ مثل سيزار بورجيا ولكن بمحض قوته الذاتية ومواهبه الشخصية، ثم استطاع أن يحرر وطنه من القرطاجيين. فهذا نموذج آخر لأمير اغتصب الحكم بجهده وجهاده وهو يستحق الثناء لأنه حرر وطنه، غير أنه وكما يقول ميكافيلي يوصف بالفضيلة: «ولكننا مع ذلك لا نصف بالفضيلة من يقتل اخوته في الوطن ويعيش بلا اخلاص ولا رحمة ولا دين». وعلى الرغم من أن كل بطولات أجانوكليس تزكيه - حسب رأي ميكافيلي - لأن يعد بين القادة العظام: «ومع ذلك فان قسوته وافتقاره إلى الانسانية والعدد الذي لا يحصى من أعماله الشريرة تحول دون اشتهاره باعتباره واحداً من أفضل الرجال» (لويس عوص، ص80-87).

ويتابع ميكافيلي في الاتجاه نفسه على مثال آخر هو «ليفروتو» الذي أصبح أمير «فيرمو» بالوحشية والخديعة. غير أن أمد الحكم لم يدم له أكثر من عام على الرغم من

أنه جاء بنفس الطريقة التي جاء بها «أجانوكليس» الصقلي. ويفسر السبب في ذلك بقوله:

«أعتقد أن هذا ناشيء من سوء استعمال أعمال القسوة أو حسن استعمالها، إذا جاز لنا أن نتحدث عن الحسن في سيّئ الأشياء. فأعمال القسوة التي تستعمل بطريقة عاجلة كضرورة لتأمين النفس ثم لا يستمر الأمير فيها بل يحولها ما أمكن إلى أعظم المنافع لشعبه، هذه يمكن أن نصفها بحسن استعمال القسوة، أما أعمال القسوة التي قد تبدأ قليلة ولكنها تزداد مع الأيام ولا تتضاءل فهي اساءة لاستعمال القسوة. فالحكام الذين يتبعون الطريق الأول يمكن أن يجدوا مع الله ومع الناس صلاحاً لحالهم. على غرار ما فعل أجانوكليس، أما الآخرون فيستحيل عليهم أن يحافظوا على كيانهم» . لويس عوض، ص88).

والملاحظ، عزيزي الدارس، من هذا أن ميكافيلي قد وضع مقياساً موضوعياً للتمييز بين أمير مغتصب وآخر من نفس النوع. فالأمير المغتصب الذي ينجز كل ما يحتاج إليه من جرائم في أجل قصير وبطريقة ناجحة يمكن أن يجعل رعيته تعيش في أمن بعد ذلك، هذا الأمير يمكن أن يكتب له البقاء. وأن يتحول شره إلى خير. أما الأمير الذي يُبتَلى في تردد بسبب خوفه أو لسوء المشورة، فهو يحمل دائماً السكين في يده وهو يجدد دائماً جرائمه فلا يعرف طعم الأمان، وهو معرض للاطاحة به في أي وقت.

إن فصل السياسة عن الأخلاق في تشريع ميكافيلي شيء مألوف في كل العصور يعرفه بالفطرة كل طامع في الملك أو في الرئاسة دون حاجة إلى تقنين أو تلقين، ولا سيما إذا كان الساعي إلى السلطة من عامة الناس لم يرث منها شيئا يقربه منها غير مواهبه واستعداداته الشخصية. انظر، عزيزي الدارس، إلى قول توركويمارا (1420-1498م)، رئيس محاكم التفتيش في اسبانيا، يبرر احراق مئات الزنادقة والسحرة على الخازوق «وتعريف الزنادقة والسحرة كان كل منشق عن الكنيسة الكاثوليكية أو رافض لها في العقيدة أو السلوك أو المصالح»: يقول: «نحن نحرقك في الدنيا رحمة بك نتقذك من النار الأبدية في الآخرة» (انظر لويس عوض، ص 89).

وفي نطاق الأمن الداخلي، عزيزي الدارس، يرى ميكافيلي في الفصل الرابع عشر من كتابه الأمير أن الناس تخاف من الأقوياء وتزدري الضعفاء، وهذا أمر مناقض للتعاليم المسيحية تماماً. وهذا - في اوروبا كان يمثل قمة الفصل بين السياسة والأخلاق،

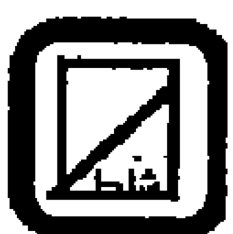
لا بل بين الدين والدولة. وهذه النظرة قد اججت لدى الأوروبيين حب الحرية والاستقلال وروح الوطنية والقومية وحب السيادة على النفس والدنيا بدلاً من التركيز على طلب الآخرة بالأخلاق الدينية. كما أججت هذه الفلسفة الدنيوية الشوق إلى حقوق الانسان بدلاً من طلب الفناء في حقوق الله. وقد جسد الاوروبيون هذه الروح الجديدة بالروح «الفاوستية» التي بدأت في وجهها البنّاء بتحرير الانسان وانتهت في وجهها المدمر بتأليه الانسان (لويس عوض، ص91).

لقد وضع ميكافيلي في الفصل السابع عشر من كتابه الأمير خياراً أخلاقياً صعباً بسؤاله: أيهما أفضل للانسان بصفة عامة وللأمير بصفة خاصة، أن يكون محبوباً أو أن يكون مرهوباً. ويجيب بنفسه عن هذا السؤال بأن المرء يحب أن يكون مرهوباً ومحبوباً. ولكن هذين الأمرين لا يجتمعان في قلوب الناس. ومن الواجب أن يعمل الأمير على أن يكون مرهوباً لا أن يكون مكروهاً إن لم يكن محبوباً. (انظر لويس عوض، ص92-93).

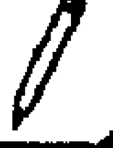
وفي الفصل الثامن عشر يحدثنا ميكافيلي عن صفة الصدق أو الاخلاص أو الوفاء في «الأمير» وينفي أنها لازمة لزوما مطلقاً. فليس المهم - في نظر ميكافيلي - أن يكون الأمير على هذه الصفات، ولكن المهم أن يبدو كذلك أمام الناظرين. ويدلل على رأيه هذا بأن البابا اسكندر السادس كان أعظم استاذ في الكذب وأعظم فاسق عرفه التاريخ، ومع ذلك فقد كان يوهم الناس بأنه ينبوع الفضيلة (انظر لويس عوض، ص94).

عزيزي الدارس، وفي الفصل السادس والعشرين من كتابه الأمير يجيب ميكافيلي عن السبب في واقعيته التي انتهجها في كتابه، بأنه كان يحلم بتحرير وطنه وتوحيده بقوة أمير جديد قوي يغتصب السلطة في البلاد بقوة الأسد ودهاء الثعلب، ويطرد الأعداء الأجانب من ايطاليا، والوسيلة هي الحرب والسبيل هو بناء جيش وطني من أبناء البلاد، والايطاليون في نظره شجعان أكفياء ولكن تنقصهم القيادة الفذة. وهذا هو الأمير المنتظر.

نشاط (3)



اقرأ في كتاب ميكافيلي، الأمير، واكتب تقريراً عن نظريته القائلة: «الغاية تبرر الوسيلة» وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (3)

ما هي أهم أعمال ميكافيلي في السياسة؟



أسئلة التقويم الذاتي (3)

وضح لماذا وضع ميكافيلي في كتابه الأمير قوانين الفتوحات وحركات التوسع؟

5. الفكر النقدي بطرس راموس (1516-1572م)

ولد قرب مدينة كالفن في إقليم بيكاردي في فرنسا عام 1516م التحق 1528م في كلية نافار للآداب بباريس، وأمضى حياته في نقد فلسفة أرسطو، واتخذ ذلك موضوعاً لرسالته لدرجة الاستاذية ليثبت أمام كل من تحدوه أن «كل ما قاله أرسطو باطل» (انظر ول ديورانت، ج27، ص176). وبالفعل منح راموس درجة الاستاذية على رسالته تلك.

اشتغل راموس بالتدريس، ومزج في محاضراته الفلسفة وأدب اليونان والرومان. وفي عام 1543م أصدر راموس كتابين أحدهما بعنوان (Aristotlicae Animadres-siones) وفيه شن هجوماً مباشراً على فكر أرسطو، أما الكتاب الآخر فكان عن أقسام المنطق حيث قدم فيه نسقا جديداً حل محل القديم، فأعاد تعريف المنطق باعتباره فن حديث، وجمع بين المنطق والأدب والخطابة في طريقة اقناع فنية واحدة. وما أن نشر الكتابان حتى عقدت محاكمة لراموس بتهمة عدائه للدين. وصدر الحكم ضده بأمر ملكي حيث منع من المحاضرة أو النشر أو المزيد من مهاجمة أرسطو (انظر ول ديورانت، ج27، ص178).

عاد راموس بعد فترة إلى المحاضرة في كلية آتي ماريا، ولكنه اقتصر في محاضراته على البلاغة والرياضيات. وفي عام 1545م أصبح راموس المدير المساعد لكلية بريل. ولما تولى هنري الثاني العرش بعد فرانسوا الأول الغى الحكم الصادر على راموس وتركه «حر اللسان والقلم». وبعد عام عينه في كرسي بالكلية حيث أعفى من اشراف الجامعة (انظر ول ديورانت، ج27، ص179).

خصص راموس الكثير من وقته وجهده لاصلاح الطرق التربوية مستعيناً بالبلاغة «الأدب آنذاك» ولعله أراد بذلك تنشيط الفلسفة بالشعر وبث انسانية نابضة بالحياة في المناهج التربوية. واستطاع راموس أن يطبق المنطق على اللغة، وفي نطق الحروف الهجائية استطاع أن يدخل في الأبجدية الفرنسية حرفي v, j ليحلا محل الحرفين الساكنين u, I . ثم شجع تقرير المنح الدراسية لفقراء الطلبة، وندد بالرسوم الباهظة التي تتقاضاها الجامعات عن التخرج، وناضل في الوقت نفسه لرفع رواتب المدرسين (انظر ول ديورانت، ج27، ص179).

عزيزي الدارس، وفي عام 1555م نشر راموس كتابه Dialectique، وهو أول كتاب في المنطق بالفرنسية. وفيه أن الاقناع يكون بالجدل والمنطق، وكذلك فيه الدفاع عن العقل. كان راموس عدوا للنزعة التقليدية. وقد رأى في العقل المرجع الوحيد الذي يحتكم اليه، وأن العقل سيبلغ بالعلوم جميعها مرتبة تقرب من الكمال في قرن واحد لو أطلق له العنان. فقد كتب يقول: «كان شغلي الشاغل أن أزيح من طريق الآداب الحرة... كل العقبات والمعوقات الفكرية، وأن أعيد هذا الطريق وأقومه، لا تيسيراً للتفكير فحسب، بل لممارسة الآداب الحرة واستخدامها» (انظر ول ديورانت، ج27، ص179).

وعلى الرغم من إعلان راموس اتباع المذهب البروتستانتي في عام 1561م. وإقدام بعض تلامذته لتمزيق الصور الدينية المعلقة في كنيسة كلية بريل عام 1562م وصدور قانون حكومي يقضي بمنع من لم يكن كاثوليكياً من التدريس في الجامعات أو الكليات الملكية، إلا أن الملكة كاترين واصلت دفع راتبه وضاعفته، فأصبح حراً في أن يتفرغ للدرس والتأليف. وفي عام 1572م اقتحم رجلان مسلحان كلية بريل وصعدوا إلى الطابق الخامس حيث مكتب راموس فقتلاه. وبهذا فاز أعداؤه عليه، وعادت الفلسفة الكلامية «فلسفة ارسطو» التي حاربها ونكست الفلسفة الفرنسية رأسها حتى جاء ديكارت.

نشاط (4)



حاول أن تبحث عن مفكرين نقديين آخرين في عصر النهضة واكتب تقريراً حول فكرهم تناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟



تدريب (4)

وضح السبب في اتهام راموس بعداء الدين؟



أسئلة التقويم الذاتي (4)

وضح الدور الذي قام به راموس لاصلاح الطرق التربوية؟

6. بواكير العلم الحديث: نهضة الفلك والفيزياء: نظريات كوبرنيكوس وكبلر وجاليليو

أسهم ثلاثة علماء، عزيزي الدارس، في نهضة الفلك إذ أنهم وضعوا أساس علم الفلك الحديث وانقذوا الانسانية من خرافات القدماء حول تكوين الكون الغريب فيما يسمى بالمجموعة الشمسية. أول هؤلاء العلماء بولنديا يدعى كوبرنيكوس (1473-1543م) وهو الذي اكتشف الحركة المزدوجة للكواكب حول نفسها وحول الشمس. وكان ثانيهم المانيا يدعى كبلر (1571-1630م) وهو الذي اكتشف أن مدارات الكواكب حول الشمس بيضاوية ووضع بدايات قانون الجاذبية الذي بنى نيوتن عليه أهم نظرياته. أما أوسعهم صيتاً وأكثرهم شهرة فهو العالم الايطالي «جاليليو» (1564-1642م) الذي اكتشف قانون تذبذب الاجسام وقانون الأجسام الساقطة ووضع أسس قانون القصور الذاتي واكتشف البقع الشمسية وقوانين المد والجزر واكتشف بعض التوابع غير المعروفة للقدماء، واخترع التليسكوب والميكروسكوب وقضى حياته يدافع عن نظرية «كوبرنيكوس» في دوران الأرض حول الشمس ولقي في ذلك عنتا شديداً أمام محاكم التفتيش.

ولد جاليليو في «بيزا» عام 1564م، وكان ينتمي إلى عائلة مرموقة، فكان منهم الوزير في القرن الرابع عشر، وكان منهم الطبيب الشهير في القرن الخامس عشر. كان أبوه موسيقياً بارعاً في العزف على العود ضليعاً في نظريات الموسيقى وفي الرياضيات وفي الآداب اليونانية واللاتينية. (انظر لويس عوض، ص273-274).

انتقلت عائلة والده بما هو فيهم من بيزا إلى فلورنسا عام 1574م ودخل جاليليو في صباه ديرا حيث تعلم مبادئ المنطق ولكنه لم يستمر، بل التحق في عام 1581م

بجامعة بيزا بقسم الفنون الحرة بوصفه طالب طب بتوجيه من والده، غير أنه لم يبد أي اهتمام بدراسة الطب، وعاد إلى فلورنسا عام 1585م دون أن يتم دراسته في أي حقل من الحقول.

بدأ جاليليو يدرس مبادئ الرياضيات سراً دون علم أبيه عام 1583م. وسطعت موهبة جاليليو في الرياضيات إلى درجة أذهلت معلمه. كما درس الفيزياء على يد أستاذ آخر (انظر لويس عوض، ص274).

وفي عام 1583م اكتشف جاليليو نظرية تساوي الزمن في ذبذبات البندول. وطبق جاليليو نظرية التساوي الزمني في الذبذبات الصغيرة على ضربات النبض وعلى ضربات القلب. وفي عام 1586م اخترع جاليليو الميزان الهيدروستانيكي لتحديد الوزن النوعي للأجسام وكتب في ذلك بحثا اسمه «الميزان» نشر بعد موته. وفي عام 1586-1587م كتب جاليليو كتاباً عن مركز الثقل في الأجسام ولم ينشره الا في عام 1638م.

قضى جاليليو في جامعة بيزا ثلاث سنوات استاذاً للرياضيات كان خلالها يعلم هندسة اقليديس وفلك بطليموس القائمين على أن الأرض هي مركز الكون. ويبدو أن فترة جامعة بيزا هذه كانت بداية قبول جاليليو لثورة كوبرنيكوس في علم الفلك وبداية الديناميكا الجديدة التي وضع جاليليو أساسها. ولما انتقل إلى جامعة «بادو» شاع عنه أنه كان يعلم فلك بطليموس علنا ويدافع سراً عن فلك كوبرنيكوس.

وفي عام 1591م مات أبوه، فكان عليه أن يعيل اسرته الكبيرة، وانتهى عقده مع جامعة بيزا، فتعاقد مع جامعة بادو لشغل كرسي الرياضيات لمدة أربع سنوات قابلة للمد سنتين أخريين بموافقة دوق البندقية.

بدأ إعراض جاليليو عن نظرية أرسطو في الحركة؛ وهي أن الحركة نتيجة لتأثير الغلاف الذي تتحرك فيه الأشياء كقوة الماء والهواء، منذ فترة تدريس جاليليو في جامعة بيزا. كذلك أعرض جاليليو عن نظرية «الدافع» التي كانت شائعة في جامعة باريس، وأعرض عن الرياضيات الفيتاغورية والرياضيات الافلاطونية الحديثة، التي كانت تقرأ في الأرقام خصائص ميتافيزنطية معينة وتربط ربطاً سحرياً بين الأرقام وبين بعض ظواهر الطبيعة. وظهر اتجاه جاليليو إلى ربط الرياضيات بالتطبيقات العملية. وتجلت في كتاباته وحدة الثقافة العلمية والثقافة الأدبية، فكان يكتب عن الشاعر الايطالي الملحمي «تاسو»، وعن الشاعر الايطالي الملحمي «اريوسطو» كما كتب عن جحيم دانتي. وعلى العموم فقد وجد جاليليو نفسه في جامعة بادو حيث الجو العلمي وحرية البحث. ثم ان

جاليليو دخل بلاط الغراندوق، «كوسيمو الثاني دي مديتشي» أمير توسكانيا، حيث ترك لجاليليو مطلق الحرية في البحث والتفكير.

لم يؤلف جاليليو في فترة وجوده في جامعة بادو كتبا ذات بال، غير أنه اكتشف بعض قوانين الميكانيكا الهامة مثل قوانين تزايد سرعة الأجسام الساقطة تزايداً طبيعياً. ومن الغريب، عزيزي الدارس، أن جاليليو وضع كتابه المسمى «رسالة عن الكرة الأرضية أو عن خريطة الكون» وليس فيه اشارة واحدة عن كوبرنيكوس أو اعتراض واحد على تصور بطليموس أن الأرض هي مركز الكون. ومع ذلك ففي السنة نفسها كان جاليليو يعلن ولأول مرة دفاعه عن فلك كوبرنيكوس في خطاب أرسله بتاريخ 30 مايو/ايار 1597م إلى استاذ للفلسفة بجامعة بيزا يدعى «ماتزوني». وفي خطاب آخر بتاريخ 4 أغسطس آب عام 1597م إلى العلامة «كبلر»، الذي كان استاذاً للفلك والرياضيات بجامعة توبنجن بألمانيا، حيث أوضح له في رسالته أنه اعتنق نظرية كوبرنيكوس في الفلك لسنوات مضت وبها استطاع تفسير عديد من ظواهر الطبيعة. (انظر لويس عوض، ص277-278).

لقد طلب كبلر من جاليليو نشر الأدلة التي توصل اليها لاثبات صحة نظرية كوبرنيكوس، غير أن جاليليو لم يستجب، ويبدو أن ذلك كان بسبب تكتمه العلمي خاصة وأنه كان يتابع بصمت وأولاً بأول ما حل بـ «جوردانو برونو» أمام محكمة التفتيش في البندقية ثم في روما حتى اعدامه على المحرقة بتهمة الزندقة، وذلك بسبب دعوته لثورة كوبرنيكوس في الفلك ورفضه نظرية أرسطو وبطليموس في أن الأرض هي مركز الكون وأنها ثابتة تدور حول الشمس والكواكب السيارة السبعة فيما يسمى السموات السبع (انظر لويس عوص، 278).

كانت أول إشارة معلنة من جاليليو إلى نظرية كوبرنيكوس في الفلك عام 1604م حيث أبلغه راهب يدعى «التوبليلر» أنه رأى نجماً جديداً في السماء، وقد أيده في هذه الرؤياء عالم في ميلان يدعى «كابرا»، الذي أبلغ جاليليو أن هذا النجم استمر في السماء لمدة 18 شهراً وأن حجمه تضاءل تدريجياً خلال هذه الفترة. وألقى جاليليو ثلاث محاضرات في هذا الموضوع، حضرها جمهور كبير، وكان رأي جاليليو أن ظهور هذا النجم يثبت بوضوح صحة نظرية كوبرنيكوس في الفلك (انظر لويس عوض، ص278-279).

أنشأ جاليليو في منزله ورشة يصنع فيها الموازين والمقاييس والعدسات والتلسكوبات ويجمع الأدوات المغناطيسية واخترع مسطرة حاسبة كان يسميها «البرجل الهندسي الحربي»، وقد شاع استعمالها في حساب اللوغريتمات. واخترع مقياساً للحرارة يتأثر بالحرارة وبالضغط الجوي. وفي عام 1609م صنع نموذجاً لتليسكوبه المشهور (انظر لويس عوض، ص279).

كتب جاليليو في عام 1604م خطاباً إلى راهب يدعى «باولو ساربي» يشرح فيه نظريته حول قانون الأجسام الساقطة، ملاحظاً زيادة سرعة الأجسام الساقطة بنسبة ابتعادها عن نقطة السقوط. وكانت هذه بداية البحث في الجاذبية، ثم نقح نظريته أخيراً بقوله إن زيادة سرعة الأجسام الساقطة مطردة مع بعدها عن لحظة السقوط وليس عن بعدها عن نقطة السقوط (لويس عوض، ص279).

وجه جاليليو جل اهتمامه لدراسة قوانين الميكانيكا وتدريسها بين عام 1602م و 1609م. وكان منذ عام 1598م يخصص محاضراته لشرح الظواهر الميكانيكية بدءا بميكانيكا أرسطو التي كانت فرعاً من فروع الفيزياء، ولكنه لم ينشر شيئاً في هذا الموضوع في تلك الفترة. والراجح أن تجاربه وملاحظاته ودراساته في تلك الفترة كانت الخامة التي بنى عليها كتابه العظيم الذي صدر في عام 1638م وهو: «حوار حول العلوم الحديثة»، وربما أيضاً نص كتابه: «رسالة في الميكانيكا».

كان أرسطو، عزيزي الدارس، يرى أن الحركة الطبيعية تنقسم إلى نوعين: حركة هابطة، وهي حركة الأرض والماء، وحركة صاعدة وهي حركة الهواء والنار. في حين كان جاليليو يرى أن الحركة الطبيعية هي حركة واحدة هابطة. بمعنى أن كل جسم عند جاليليو له وزن، وبناء عليه فهو يتجه طبيعياً بحكم وزنه إلى مركز الأرض (انظر لويس عوض، ص280). فإذا كان ثمة أجسام ذات حركة صاعدة فذلك لأنها تندفع في مجال ذي وزن نوعي أكبر من وزنها، وهذا يدفعها إلى أعلى. وكان هناك اجماع بين مؤرخي العلم على أن جاليليو كان أول من اهتدى إلى قانون القصور الذاتي.

عزيزي الدارس، وفي مجال الاختراعات، كانت التليسكوب أهم آلة اخترعها جاليليو. وقد سبقه إلى ذلك آخرون. وهنا يتبادر إلى ذهنك سؤالان: الأول: لماذا يُعد جاليليو، والحالة هذه مخترعاً للتليسكوب. والثاني: من هم هؤلاء الذين سبقوه إلى ذلك. وللاجابة عن هذه التساؤلات أقول: كان جاليليو يعد أول من اخترع التليسكوب بالشكل الذي هو فيه لوظيفته التي صنعها من أجلها، أما الآخرين فكانت دراستهم

تنصب على العدسات. فقد كان كبلر وجيوفاني باتيستا قد توصلا في 1589م، و 1593م و 1604م، وكانا من المختصين في البصريات، إلى دراسة طبيعة العدسات، غير أن دراستهما وقفت عند الحد النظري (لويس عوض، ص 280-281). كذلك اخترع «اسطى» - نظاراتي هولندي - المنظار المقرب وعرضه على بعض الامراء للأغراض الحديثة ولكن لم يحفل به كثيرون وفشل تجارياً. وكان هذا النظاراتي الهولندي لا يعرف شيئاً عن نظرية البصريات والعدسات، فتجاهله كبلر وديللا بورتا تماماً، وفي الطرف المقابل اهتدى كبلر نظرياً في 1611م إلى نظرية التليسكوب، ولكنه لم يصنع منظاراً ولا نظارات.

صنع جاليليو التليسكوب ونسب اختراعه لنفسه وقدمه لجمهورية البندقية في 25 أغسطس/آب عام 1609م فأثار فيها حماسة عظيمة، وخاض معارك مع كبلر وديللا بورتا بسبب ادعائه هذا الاختراع، ولم يسلم من تهجم عشرات من «نظاراتيه» اوروبا الذين كانت حرفتهم صناعة العدسات، ومع ذلك فمن المؤكد أن جاليليو كان أول من صنع تليسكوباً متقناً، وكان أول من استخدم التليسكوب في رصد الكواكب ونجوم السماء.

كان من بعض النتائج التي أعلنها جاليليو نتيجة دراسته النجوم في منظاره عام 1610م أن سطح القمر شبيه بسطح الأرض وفيه جبال أعلى بكثير من جبال الأرض. كذلك اكتشف أن نهر المجرة يبدو: «كمجموعة مكدسة من النجوم الصغيرة»، كما اكتشف أن كوكب «جوبيتر» و«المشتري» له ثلاثة أقمار تابعة له، ثم اكتشف أن عدد هذه الأقمار أربعة وليس ثلاثة، وقد أطلق جاليليو عليها اسم «أقمار مديتشي» أو «كوكبة مديتشي». وفي آخر يناير/كانون ثاني عام 1610م طبع جاليليو نتائج أبحاثه في كتيب صغير باللاتينية في البندقية، أردفه في 12 مارس/آذار عام 1610م بكتابه اللاتيني الشهير «رسول النجوم». (انظر لويس عوض، ص 281).

ومن اكتشافات جاليليو كذلك بعض البقع الشمسية التي تحدّث عنها شاعر الرومان الأعظم «فرجيل» في ديوانه «أغاني الفلاحين». كما اكتشف أن الكوكب سارتون/زحل مُكَوَّنَ من ثلاثة نجوم، كما اكتشف أن منازل كوكب الزهرة تشبه تماماً منازل القمر (لويس عوض، ص282).

وسأحدثك، عزيزي الدارس، فيما يلي عن ردود الفعل في اوروبا على هذه المكتشفات: لقد تباينت ردود الفعل بين الإيجابية والسلبية. فهذا أحد العلماء «سيمون

ـمـير» ادعى أنه اكـتشف توابع جـوبيتـر قبـل جاليليـو بأيام. وهذا عالم آخـر «سيـزار كريمـونيني» يدعى أن تليسكوب جـاليليـو أداة لا تؤدي إلى كشـوف صحـيحـة، وكان أرسطاطاليـسياً مـتمسكاً بالـنظرية التقليدية الـتي مؤداها أن الكواكب السبـعة السـيارة: «القمـر، الزهرة، عطارد، المريخ، المشتري، زحل والشـمس» تدور حول الأرض، وأن الأرض هي مركـز الكون. وهذا عالم آخر «انطـونيو ماجـيني»، أستاذ الرياضـيات في جامعة بولونيـا يزعم أن عدسة منظار جاليليو تجعل الرؤية مزدوجة، غـير أنه عاد واقتنع بصحة مشاهدات جاليليو واعتذر عن زعـمه. وهذا ما حدث للأب «كلافيوس» - استاذ الرياضيات بجامـعة روما - الذي ظن أن عدسة منظار جاليلـيو تؤدي إلى الخداع الحسّي غير أنه عاد واقتنع بمنظار جاليليو (انظر لويس عوض، 282).

وبالمثل كان كبلر أولاً من المعترضين، غير أنه تحـول إلى الاشادة باكتشاف جاليليو في خطابه اليه المؤرخ في 19 ابريل/ نيسان عام 1610م. ومع ذلك فقد لام جاليليو لأنه أغفل ذكر من سبقوه في صناعة المنظار أو في الاهتداء إلى نظريته، من أمثال ديللا بورتا وكبلر نفسه. وعكف كبلر على دراسة السماء بمنظار جاليليو وأعلن عن تأكده من بعض اكتشافات جاليليو في بحث نشره عام 1611م في فرانكفورت قال فيه: «لقد انتصرت يا جاليليو».

كان على جـاليليو أن يقنع علمـاء روما باكـتشافـاته، فسافـر إلى هناك في أول ابريل/ نيسـان من عام 1611م، حيث استـقبله العـديد من الكرادلة بحفـاوة بالغة، ثم استقـبله البابا بولس الخامس. وأدخلَ جاليليو عـضواً في أكاديمية «لينفشي». واسـتقبل الآباء الجزويت في الفاتيكان «وكانوا من أوسع رجال الدين مـعرفة بالعلوم والرياضيات» جاليليو بحفاوة بالغة - ابتداء - وأيدوا بعض اكتشافـاته وكانوا متحفظين على غالبيتها. وكان هـؤلاء من أشد الطوائف مـحافظة على العـقيـدة الكاثوليكية التـقليدية، وكـانوا يخشون أن يزعزع العلم الحديث عقـيدتهم. وكان زعيمهم الكاردينال «بللارمين» رئيس محكمة التفتيش (انظر لويس عوض، ص283-284).

وفي عام 1611م كانت هناك مناظرة ودية حول قانونَ الأجسام الطافية شارك فيها عدد من العلماء والفلاسفة المدعوين، ودافع جاليليو عن نظرية «ارشميدس». وانحاز له الكاردينال «بربريني» الذي غدا فيما بعـد البابا «اوريان الثامن». وفي الطرف الآخر كان هناك عـالم ارسطاطاليـسي من فـلورنسـا يدعى «ويللا كـو لومـبـيه» يـؤيد الكاردينال «جونزاجا» واتباع أرسطو المعادين لنظرية كوبرنيكوس. كان أرسطو ينسب طفو الأجسام

على الماء إلى أن الأجسام الطافية يتخللها الهواء لأن الهواء نازع للصعود. أما «أرشميدس» فـفسر طفو الأجسام بقلة وزنها النوعي عن وزن الماء النوعي. وانحاز جاليليو لرأي أرشميدس.

أما بالنسبة للبقع الشمسية فقد ثار جدل فظيع بين «جاليليو» وفلكي يدعى «شانير». وكان جاليليو قد أعلن عن وجود هذه البقع في مناقشاته وأحاديثه الخاصة دون أن ينشر ذلك. فإذا بشانير ينسب هذا الاكتشاف إلى نفسه. وكان تفسير شانير لهذه البقع أنها نتيجة لتكدس النجوم أو السدم حول الشمس كطرود النحل وقرر أنها منفصلة عنها. أما جاليليو فقال إنها أشبه بالسحب والأبخرة منها بالسدم أو النجوم وأنها من مادة حمم سائلة غير منفصلة عن الشمس وأنها موجودة على سطحها، وفسر ما يبدو من دوران البقع حول الشمس بأنه دليل على أن الشمس نفسها تدور حول محورها. ووجد في هذا تأييداً جديداً لنظرية كوبرنيكوس القائلة بأن هناك علاقة بين دوران الشمس حول نفسها ودوران المجموعة الشمسية حول الشمس.

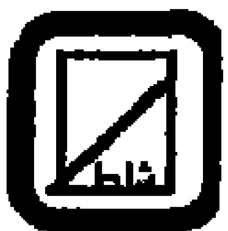
قضى جاليليو عشرين عاماً يدعو لنظرية كوبرنيكوس عرف فيها مرارة الهزيمة عام 1622م، ومثل أمام محكمة التفتيش في السجن في عام 1623م. وكان جاليليو يعرف النتائج الخطيرة المترتبة على نظرية كوبرنيكوس في الفلك حيث يؤدي ذلك إلى زعزعة العقيدة الدينية. ولكنه في الوقت ذاته كان يدرك خطورة الكنيسة لو وقفت حائلا في طريق العلم الحديث. لذلك قامت دعوته على أن نظرية كوبرنيكوس لا تتعارض مع العقيدة الدينية، وكان مهتما بإقناع كبار رجال الدين بالكوبرنيكية لكي يحصل على تأييد الكنيسة. (لويس عوض، ص285).

كان جاليليو يقول أن أقوال الكتاب المقدس في الفلك صحيحة وكذلك أقوال كوبرنيكوس. وأن التناقض بين العلم والدين تناقض ظاهري ناتج عن مشكلة التغير اللغوي. وحاول جاليليو أن يشرك معه في دعوة التنوير العلمي غيره من العلماء غير أنهم أحجموا عن ذلك. وكان كبلر يرى أن العلماء لا ينبغي أن يخاطبوا العامة وإنما يخاطبون أمثالهم، وأن نظرية كوبرنيكوس في دوران الأرض والكواكب حول الشمس لا يصح تدارسها بين عامة الناس، وحمل جاليليو مسؤولية مصادرة الكنيسة لكتاب كوبرنيكوس وتحريم قراءته على المؤمنين، بعد أن ظلت قراءته مباحة مدة ثمانين سنة، لأن جاليليو علم الناس أن الأرض ليست مركز الكون وأنها تدور حول محورها وحول الشمس لا أن الشمس تدور حول الأرض.

كان أول عنت يـلقاه جاليليـو عندما ألقى راهـب من الدومنيكان يدعى «نيكولو لوريني» في أول ديسـمبر/ كـانون أول عام 1612م موعظة في كنيـسة «ديرسان مـاتيو» بفلورنسا هاجم فيها جاليليـو وعلم الفلك الجديد الذي وضع كوبرنيكوس أساسه. وفي عام 1614م هاجم راهب دومنيكاني آخر يدعى «كـاتشيني» في خطبة الأحد فـي كنيسة «سانتا ماريا نوفـيللا» بفلورنسا واتهم جاليليو بالزندقة لأنه كان يتـفحص السماء بمنظاره في حين أن انجـيل لوقا اسـتنكر في أهل الجليل الشـخـوص إلى السمـاء وقت صعـود المسيح. ثم عاد الراهب لوريني إلى مهاجمة جـاليليو مرة أخرى واتهمه باسم كل رهبان «دير سان مارك» بالمروق عن الدين ونـسب اليه قوله: «إن الأرض تتحرك بينمـا السماء ثابتة» وقوله: «ان بعض آيات الكـتاب المقدس لا تطابق الحقائق العلمـية»، وقوله: «انه في مناقشة الظواهر الطبـيعية لا ينبغي الرجوع إلى الكتـاب المقدس الا في آخر الأمر». وبناء على ما سـبق قرر الفتيكان اجراء تحـقيق في سرية تامة، وكلف كـبير أساقـفة بيزا ورئيس لجنة التفـتيش بها بالحصول على أصـل رسالة جاليليو إلى الراهب «كـاستيللي» بخط جاليليو نفـسه غير أن التحـقيق لم يسفر عن اتهام جـاليليو. (انظر لويس عوض، ص 286-287).

وفي عام 1615م سافـر جاليليـو إلى روما ليشـرح قضـيته بنفـسه أمـام كرادلة الفاتيكان وأمام البابا. غير أن مراكز القوى المحافظة داخل الفاتيكان أدت إلى اصدار قرار تحريم نظرية كـوبرنيكوس. ولم يرد في القرار ذكر لأعـمال جاليليـو غير أنها أصـبحت ضمنا محرمة. وفي 25 فبراير/ شباط عام 1616م. كلف البابا بول الخامس الكادرينال «بيللارمين» باستدعـاء جاليليو واخطاره التخلي عن النظريات الـتي أدانها الفاتيكان وان يمتنع عن تعلم أو تعليم هذه النظريات. فـفعل ذلك ووافق جاليليو على هذا. واسـتمر الصراع بين جاليليو والكنيسة معتدلا حينا وصاخباً حينا آخر وكان يرافق ذلك اختراعات واكتشـافات علمية مـن قبل جاليليو، إلى أن أصـدر جاليليو كتـابه «حوار بين النظامين العظيمـين». «البطلمي، والكوبرنيكي» في 21 فـبراير/ شـباط عـام 1632م. وفي هذا الحوار تشترك ثلاث شـخصيات منها اثنان حقـيقيان هما نبيل من فلورنسـا يدعى فيلليو سالفياتي (1583-1614) كان جاليليو قد أهدى اليه كتـابه «رسائل شمسية». ونبيل من البندقية يـدعى ساجريدو (1571-1620). أما الشـخصيـة الثالثة فهي وهـمية اسمـها سمبليـتشيو بمعنى «السـاذج» وهو نموذج للفكر الارسطوطاليسي المتحـجر ويدور الحوار بينهم أربعة أيام في قصر ساجريدو. (انظر لويس عوض، ص 290-293).

وعلى أثر نشر الكتـاب استدعي جاليليـو إلى روما في 20 يناير/كانون ثاني عام 1633م بحجة سؤاله عنه وكـأن الأمر ينطوي كذلك على مؤامرة حيكت عليـه استغلالا لمحضـر 25 فبـراير/شبـاط عام 1616م. واتهام جـاليليـو بخرق نصـوصه. وفي 22 يونيو/حزيران عام 1633م وفي القاعـة الكبرى في دير الدومنيكان في سانتا مـاريا قرأ على جاليليـو الحكم: وهو يتضـمن مصادرة كـتاب «حوار النظامين العـظيمين» والحكم بالسجن على مـؤلفه رهن رغبة البـابا، كما حكم عليه أن يقـرأ مرة كل أسبوع مـزامير التوبة السبـعة لمدة ثلاثة شهور، واحتـفظ البابا لنفسه بحق تخـفيف الحكم أو تعديله أو الغائه عليه». وبمجـرد صدور هذا الحكم خفف على الفور إلى تحديد إقامـته في حديقة «ترينيتيه دي مون». وفي 30 يونيو/حزيران وافق البابا على أن تحدد اقامته في توسكانيا قريبـاً من أبنتيه الراهبتين. وقـضى جاليليو السنوات التـسع الأخيرة من حيـاته في عزلة نسبية عاكفاً على بحوثه العلمـية النظرية بعد أن تخلى تماماً عن كل محاولة لتنوير الناس وزيادة وعيهم بالفلك الجديد، حيث توفي في 8 يناير/كانون ثاني عام 1642م بعد أن أصيب بالعمى في أواخر عمره. ولم يرتفع غضب الكنيسة عن جاليليو حتى بعد وفاته، فرفضت أن تقام له مقبـرة تذكارية في فلورنسا، فلم تقم هذه المقبرة الا عام 1737م أي بعد وفاته بمائة عام. أمـا غضب الكنيسة على أفكاره فقد استـمر حتى عام 1757م وهو تاريخ سحب قرار تحريم الأعـمال التي تعلم الناس نظرية دوران الأرض حول الشمس. (انظر لويس عوض، ص 298-300).



نشاط (5)

اكتب تقريراً تبين فـيه أهم نظريات جاليليو ومختـرعاته وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟



تدريب (5)

قارن بين نَظرية أرسطو وجاليليو للحركة الطبيعية؟



أسئلة التقويم الذاتي (5)

وضح لماذا يعتبر جاليليو بحق هو مخترع التليسكوب؟

1.7 أرازموس ERASMUS (1469-1536م)

هولندي الأصل والنشأة، ولد بمدينة «روتردام»، واشتهر بمكان ولادته حتى كان يعرف باسمه ارازموس الروتردامي، بدأ تعليمه في سن الخامسة إلى أن وصل سن السادسة عشرة فدخل كتاب الكنيسة في بلدة «ديفنتر». وعندما شب أرازموس دخل مدرسة دينية ثم التحق بعد عامين بدير ايمارس ببلدة «شتاين» وعُيّن في عام 1492م قسيساً وهو في الثالثة والعشرين من عمره (لويس عوض، ص 230-231).

التحق أرازموس بجامعة باريس عام 1495م وحصل على درجة البكالوريوس في اللاهوت عام 1498م. وفي باريس كتب اولى «محاوراته» ثم انتقل إلى جامعة «لوفان» ببلجيكا حيث كتب كتاب «دليل الجندي المسيحي» عام 1503م.

وفي عام 1499م زار انجلترا وكرر زيارته لها خمس مرات وتعرف على السيد «توماس مور» الذي كان يدرس العلوم الانسانية ويزاول المحاماة في لندن. كما تعرف على الأمير الغلام البرنس هنري ابن الملك هنري السابع الذي ارتقى العرش باسم هنري الثامن (1491-1527)م، وفي اكسفورد تعرف على العلامة «جون كوليت» الذي كان أشهر محقق للتراث اليوناني واللاتيني ولا سيما وسائل القديس بولس. ثم تعرف على «جون فشر» أسقف «روشستر» ورئيس جامعة كمبريدج، وكذلك على «وليم وارهام» كبير أساقفة كانتربري. (لويس عوض، ص231).

حصل أرازموس في عام 1506م على درجة الدكتوراه في اللاهوت من جامعة تورينو في ايطاليا. ويشار إلى أنه تعلم كذلك في جامعة بولونيا، ونشر هناك «في ايطاليا» كتابه: «الأمثال» وفي عام 1509م عاد إلى انجلترا حيث درس اللغة اليونانية وآدابها في جامعة كمبردج، وكذلك شغل كرسي اللاهوت في الجامعة نفسها. وفي تلك الفترة ألف كتابه: «دفاع عن الحماقة». وأتم دراسته للنص اليوناني للانجيل.

وبعد أن غادر ارازموس انجلترا في عام 1514م، استقر أكثر حياته الباقية في حوض نهر الراين حيث ولد وترعرع، رغم أنه لم يكف عن التنقل في اوروبا. فتراه استاذاً بجامعة لوفان ببلجيكا التي أقام فيها أربع سنوات (1517-1521)م. وكان أكثر

إقامته في مدينة بازل بسيويسرا وهناك نشر دراسته: «النص اليوناني للانجيل» عام 1516 (انظر لويس عوض، ص 232).

كان ارازمـوس، عزيزي الدارس، قطباً مـن كتاب عـصر النهضـة، وكان مُعـبراً صادقاً عن أكثر مقومـاتها. وكان متفقاً مع أكثر كتاب عصـره في تمجيد الانسان والحياة الانسانية، والتهكم على الرهبانية، والزهد ورفض الحيـاة التي كانت تدعو اليها الكنيسة الكاثوليكية، إضافـة إلى تفرده برفض مبدأ تشقق العـالم المسيحي إلى قوميات مـتحاربة وكنائس قوميـة متحاربة في ظل كنيـسة رسولية جامـعة هي الكنيسة الكاثوليكيـة التابعة للبابا في روما. ومن أقـواله: «إن نهر الراين لا ينبغي أن يفصل المسيـحي عن المسيحي» (انظر لويس عوض، ص229).

كان أرازمـوس يحاول التـوفيق بين قـيم العصـور الوسطى وقيم عـصر النهـضة الاوروبية. وكان من واضـحي أساس ما يسمى في تاريخ الفكر الاوروبي: «بالهـيومانزم المسيحي» أي وحدة العالم المسيحي. وكان أرازموس يلقب عند الكثيرين بأمير الانسانيين بسبب قوة دعوته للاخاء الانساني في زمن مـزقت فيه الخلافات والحروب الدينية اوروبا بأسرها.

وقد تسأل، عزيزي الدارس، عن الدور الذي لعبه أرازموس إبان حركة الاصلاح الديني والمذاهب المسيحية المنشقـة عن الكنيسة الكاثوليكية. وللاجابة أقول: لم يكن هَمٌّ أرازموس - ابتداء - إلا أن يثـبت للمثقفين أن روح المسيحـية لا تقل عن روح الوثنيات اليونانية والرومانيـة تمجيداً للحياة الدنيا واعتـرافاً بقيمة الانسان وحقـه في المعرفة والقوة والسعادة على الأرض وأنـها ليست مجرد اعـداد للحياة الأخرى. غـير أنه وعندما رأى الصراع والتشـتت داخل الكنيسة الكاثوليكية دخل هذا الصـراع أملا في أن يكون رسول سلام بين المتحاربين وكان موقفه فريداً بين مفكري عصره: فقد كان مقتنعاً بصواب دعاة الاصلاح الديني وموضوعـية ثورتهم على مفاسد الكنيسة الكاثوليكيـة وتجاوزات رجالها وجمود مفسريها بمثل ما كان مقتنعـاً بضرورة الحفاظ على وحدة الكنيسة الجامعة. وكان موقفه هذا قد أدى به إلى أن يكون موضع سخط بين الكاثوليك والـبروتستانت جميعاً، وكاد أن يدفع حيـاته ثمناً لاعتداله، كتب الفنان الشهيـر «دورو» في مفكرته يقول: «أي أرازموس الروتردامي: ترى أين يكون مكانك يا فـارس المسيح!» أذاهب أنت لتلبس تاج الشهداء!» (انظر لويس عوض، ص 233).

كان «أرازموس» يحض أبناء العالم المسيحي على إحياء التراث الوثني القديم عند اليونان والرومان في الفنون والآداب والفلسفة والعلوم الانسانية بعامة، وكان يرى أن البحث عن الحقيقة كان غاية الحضارات والثقافات الوثنية بمثل ما كان غاية الحضارة والثقافة المسيحية، ولذا نرى ارازموس - عزيزي الدارس - قد قضى طوال سنين حياته في تحقيق التراث اليوناني والروماني ونشره وتدريسه والتعليق عليه جنباً إلى جنب مع ما كان يحققه وينشره من نصوص آباء الكنيسة في اليونانية واللاتينية.

كان «ارازموس» يرى أن الطرق إلى بلوغ الحكمة متعددة، وأن عصره يمكن أن ينتفع من حكمة القدماء لو استطاع أن يهتدي إلى جوهر الفكر المسيحي وجوهر الفكر الوثني على السواء. فكلاهما يدعوان إلى تمجيد الانسان وشرف الحياة الدنيا وكرامة الانسان على الأرض وحقه في الحرية والسعادة وزينة الحياة. فليس من داع لأن يتخلى المسيحي عن مسيحيته حتى يصيب هذه الحكمة. وليس من الضروري أن نتخلى عن الدين لنكون متعلمين.

أما أهم أعماله فهو: «دليل الجندي المسيحي»، وكتاب «دفاع عن الحماقة»، و«محاورات مألوفة» وكتاب «الأمثال» وكذلك ترك نحو 3000 خطاب وكل أعماله مكتوبة باللاتينية، ولعله بهذا أراد رفض الفكرة القومية. وسأركز، عزيزي الدارس، فيما يلي الحديث عن كتابه: «الدفاع عن الحماقة».

أهدى أرازموس كتاب: «الدفاع عن الحماقة» أو على الأصح: «في مدح الحماقة» إلى صديقه السير «توماس مور» بنوع من الدعابة قائلا إن اسم «مور» باللاتينية يذكره بالحماقة «موريا» فكأنه في الواقع يكتب كتاباً في مدح توماس مور لا في مدح الحماقة. والمغزى من هذا. أن ارازموس اراد القول أن نهجه هو إصلاح أخطاء البشر وحماقاتهم بالتهكم والسخرية، فان ضحك الناس من أخطائهم كان بداية الاصلاح: يقول: «فهناك مثلا المسرفون في التدين إلى درجة تدعو إلى السخرية: هؤلاء نجدهم على استعداد لاحتمال أي تعريض مهما كان قاسياً بالمسيح نفسه على ألا تمس شعرة من رأس البابا أو الأمير. ولا سيما اذا كان هذا النقد ينتقص من مكاسبهم. فمن انتقد حياة الناس على هذا النحو دون أن يخصص بالاسم أحداً، فهل يقال عنه أنه يجرح ويهدم أم يقال عنه أنه يُعلم ويعظ؟ وبناء عليه فلو قال أحد إنه المقصود بهذا النقد فهو المريب الذي يفضح زلله بنفسه ويقول: خذوني.

والحماقـة تدافع عن نفسها بأنهـا رغم سوء سمعـتها الوحيدة التي يضـحك منها الآلهة والبشر، فمـا أن تقف لتتحدث في أي مجمع حتى تنفرج أسـارير الناس ابتهاجاً وكأنهم مجمع الآلهـة في هوميروس وقد انتعشت بقطر الندى، بـعد أن كانوا يجلسون عابـسين وكأنهم لتـوهم عائدون من استـخـارة ولي يقرأ الغـيب. ومواعظ العـالم كله وخطب البلغاء المملّة لا تـهدي العقل المضطرب بقدر مـا تهدئه رؤية الحمـاقة ولو لحظة واحدة. المهم ألا يسـتمع الناس لكلام الحـماقة بنفس الآذان التي يسـتمعـون بها لكلام القـسيس في الكنيـسة، ولـكن بالآذان التي يستـمعـون بهـا إلى المهرجين والبـهلوانات والحواة.

و«الحماقة» تقول عن نفسها إنهـا ربة كربات اليونان، وهي ليست كغيرها، ليست كآلهة «هوميروس» و«هسيـود»، بنت «جوبيتر» أبو الآلهة والناس، بل بنت «بلوتو» رب المال والثراء. ومسكنـه ليس في السماء ولكن تحت الأرض، وهو لم يخلقهـا كما خلق «جوبيتر» الربة «أتينا» من رأسه، ولكن «بلوتو» خلقها من معاشرة الحورية التي يسمونها «هيبا ربة الشباب» زينة الحور.

وما دمنا نـتحدث عن البنين والبـنات وعن الانجاب، فهل هنـاك اله أو انسان لا يحتاج إلى «الحماقة» لكي ينجب! الناس إذاً تلتمس النصح عند ربة «الحماقة» فتنصحهم بالزواج فهو رغم حماقته ممتع ولذيذ، ويبعث خشونة الرجال بحماقة النساء. وافلاطون نفسه لم يكن يعرف كيف يصنف المرأة: أيضعها في فصيلة الانسان أو في فصيلة الحيوان وكانت اليونان تقول: «القرد هو القرد ولو لبس أحمر في أحمر». كذلك المرأة هي المرأة وتحت أي قناع تلبس.

والمرأة يجب أن تعترف بفضل الحـماقة عليها، فهناك أولا جمـالها الذي يجعلها تطغى على أعتى الطغاة. أما الرجال فيدركهم مرض الحكمة فيتغضن جبينهم ويخشوشن جلدهم وتطول لحاهم ويظهر عليـهم الهرم. أما النساء فخدودهن دائمـاً ممتلئة وناعمة، وأصواتهن دائماً ناعـمة عليهن الشباب الدائم. ثم انه لا عمل لهـن في الحياة الا ارضاء الرجال، والا ما معنى التفنن في الـثياب والاستحمام المستمر وتـصفيف الشعر والعطور وتزجيج الحـواجب وتطرية الجلد، كل هذا في النهاية طلبا للذة، وهذه الحـماقة نفسـها مصـدر سعادة الرجل. فمن لم تهـتم بزينتها اهتـمت بالطبخ وهذا أيضاً مصدر سـعادة الرجل.

تقول «الحماقة» دفاعاً عن نفسها أنا أجعل الرجل يُقبّل عنق عشيقته رغم أنه مكسو بالنمش، أو يُقَبّلُ الكيس الدهني النامي على أنفها، وأجعل الوالد يقسم ان ابنه الأحول هو أجمل مخلوق في الدنيا وأجعل عين الرضا عن كل عيب كليله، ومع ذلك فهذه الحماقة هي التي تقيم الود وتبعثه بين الناس وبغيرها ما امتدت صداقات ولا دامت زواجات.

وكم من طلاق - بل هو ما أفظع -- كان يمكن أن يحدث يومياً لولا أن حديث الزوجين قائم على الملق والرقة والجهل واخفاء الحقائق. ولو دقق كل زوج في الاعيب زوجته الجميلة المحتشمة قبل الزواج لما تم الزواج، ولولا جهل الأزواج أو غفلتهم عن كثير من تصرفات الزوجات بعد الزواج لما أبقى الطلاق على زواج. والناس تسخر من الرجل الذي يلعق دموع زوجته، ومع ذلك فالزوج المخدوع أسعد من الزوج الذي تنهشه الغيرة. كل هذه السعادة لا تبقى بغير الحماقة والغفلة.

ومن المتفق عليه أن كل شهواتنا نابعة من الحماقة، ومن كان بغير شهوات أو مسيطرا تماماً على شهواته فهو أعقل العقلاء وهو الحكيم الأكمل الذي حدثنا عنه الحكيم الروائي «سنيكا»، ومثل هذا الرجل لو وجد لكان من طينة الآلهة لا من طينة البشر، ولما وجد بين الناس من يشابهه أو يشاركه صفاته أو يفهمه، بل لخاف الناس وفروا من هذا الرجل الفريد الذي لا يشترك مع أحد في مشاعره ولكان مكانه الأوحد هو على رأس جمهورية أفلاطون أو مدينته الفاضلة ... هذا الانسان الكامل لا مكان له بين البشر. مثل هذا الانسان الكامل لو رشح نفسه للانتخاب فأية مدينة تختاره حاكماً عليها وأي جيش يَتَقَبّلُهُ قائداً له وأية زوجة ترضى به بعلا لها.

مثل هذا الانسان الكامل ذي العقل البارد، لو وجد، سوف يعيش معزولاً في برج عاجي، بلا أصحاب ولا أتباع، الأمر إذاً بحاجة إلى درجة من درجات الحماقة ليعيش المرء سعيداً مع زوجة تشاطره حماقته وأصدقاء يتحامقون معه ورؤساء ومرؤوسون يذوقون معه طعم الحاقة، فلو كنا جميعاً حكماء لكنا من طينة غير هذه الطينة ولكن الفخار الذي صنعنا منه خيراً من هذا الفخار.

أما هبتي الخاصة لهؤلاء الشيوخ الحكماء فهي أني أبلغ بهم في شيخوختهم الطاعنة مبلغا يردهم إلى طفولتهم السعيدة، فيصبحون سعداء رغم مشيبهم، وصلعهم، وتأتأتهم، وفأفأتهم لأنهم غدوا بلا أسنان، وخرفهم، لأنهم أرتدوا إلى الطفولة الثانية، وضمور أجسادهم حتى أصبحوا جلدا على عظم، لا ينقصهم الا الحلمة ليرضعوا منها،

كما وصفهم أرسطو فانيس، ومع ذلك فَهُم سعداء بالحياة حريصون على أن يبدوا شباباً في عيون الآخـرين . . . فتراهم يصبغـون شعرهم إن بقي لهم شعـر، أما من أصابهم الصلع فهم يلبسون الباروكة، ومن فقد أسنانه نراه يلبس طقم أسنان ليخفي لثته، وترى الواحد منهم يهيم صـبابة ببنت شابة ولا يخجل أن يطاردها أكـثر مما يطاردها شاب في سن أحفاده».

2.7 جوردانو برونو Giordano Bruno (1548-1600م)

ولد جوردانو برونو عام 1548م في بلدة «نولا» بالقرب من «نابولي» على سفح جبل فيزوف حـيث البركان الثائر الشهيـر. . وقد دخل دير الدومنيكان عام 1563م وهو في سن الخـامسة عـشرة. وبعـد أن أقام به ثلاث عـشرة سنة، واجـه المتاعب لاتهـامه بالزندقة عام 1576م، فهـرب من الدير وخلع مسوح الرهـبان، وراح يطوف في بلدان اوروبا. فقصد أولاً إلى جنيف ثم إلى تولوز بفرنسا وهناك حاضر سنتين في علم الفلك التقليدي القائم على الأبراج السماوية. ثم انتقل إلى باريس في أواخر عام 1581م ألقى فيها مـحاضرات عديدة كان أهمهـا محاضراته الثلاثين عن صفـات الله الثلاثين. ونشر كتابين هما: «ظلال المثل» أو «ظلال الأفكار» وكـتاب «أغنية كيركية» أو نشـيد الساحرة كيركيه. أما الكتاب الأول فهو في فن الذاكـرة، وهو امتداد لتلك التقاليد والقواعد التي تركهـا «شيـشرون» الخطيب «وكونتـليان» من علم البلاغـة المعروف لتـعليم فن الخطابة بتدريب الخطيب على تذكر ما ينبغي أن يقوله بحفظ سلسلة من الأسماء والألفاظ تذكره بالأفكار التي ينبغي أن يتناولها في خطابه. (انظر لويس عوض، ص 243).

إن عنوان الكتاب الأول وموضعـه يدلان على أن المقصود ليس فن الذاكرة ولكن علم الذكريات، وهي هنا الذكريات الافلاطونية والتي ملخصها - عزيزي الدارس - أنها عملية استحضار عـقل الانسان لذكرياته الموغلة في القدم. . وذكرياته عن وجوده الأول قبل مـولده حين كان عقل الانسان أو روحـه جزءا من عقل الله أو روحه لا في كـماله النوراني الأول، أي قـبل أن يخـامره الـنسيـان بسـقوطـه في ظلال المادة. (انظر لويس عوض، ص 243).

وأسلوب «جوردانو» في هذا الكتـاب يقوم على التهكم الموجع بالنحـاة وبأساتذة الخطابة والبلاغة. والمعنى الباطني في كلامه يقول إننا لا نقترب من ذكر الله بالصوم كما يقول الأطباء ولا نحيي ذكريات الكمـال الأول فينا بأكل الزيت أو مقاومة هذا النوع من

الطعـام أو ذاك. ولكننا نفعل ذلك بالمـعرفة ودراسـة الكون وحـركة الأفـلاك لا سيـما الشمس.

وبالفعل عندما انتقل «جوردانو» إلى انجلترا كتب كثيراً عن نظريات «كوبرنيكوس» التي طرحـهـا في كـتابـه: «في دوران الأفلاك السـمـاوية» والتي لا تخـرج عن قـول كوبـرنيكوس فيـها أن الشـمس لا تدور حول الأرض وأن الأرض هي التي تـدور حول الشمس، وأن الأرض ليـست ثابتة ولكنهـا تدور حول مـحورها. وأن ما يـصدق على الأرض يصدق على بقية الكواكب السـيارة، وأن الأرض ليست في مركز الكون بل في ركن مهمل من أركانه.

غير أن «جوردانو برونو» خلط دعوته للنظريات العلمـية في الفلك بتعاليم السحر التي أخذها عن ديانة الهرامزة وفلسفتهم، وذهب يدعـو لهما باعتبار أن كل ما في عالم الظلال أو العالم السـماوي هو مجـرد صورة باهتة لعـالم المثل الكامل في الكون أو في السماء. وأن عملية المعرفة ليست إلا عملية تذكر لهذه المثل، وما على الانسان لكي يبلغ الحكمة إلا أن يـستوعب صـورة الكون الأعلى في عقله باسـتيـعاب الأبراج السـماوية ومنازل القمر، وكل مـا كان في النجوم والكواكب متحكماً في حـياة الانسان، وهذا ما أدخل جوردانو برونو في عالم السحر.

أما الكتاب الثاني، عزيزي الدارس، «نشيد الساحرة كيركيه» فلعلك تسأل من هي هذه الساحرة؟ وللاجابة أقول: بأن كيركيه هو اسم الحورية الساحرة في أوديا هوميروس التي أعطت لبحارة «أولـيس» شراباً سحرياً جعلهم يتـحولون إلى خنازير. (انظر لويس عوض، ص243). والكتـاب المذكور عـبارة عـن نشيـد تغنيـه هذه الحورية كـتعـويذة للشمس، ثم تعقبها أغانٍ أخرى كالتعاويذ موجهة إلى الكواكب السيارة: القمر، زحل، المشتري، المريخ، الزهرة، وعطـارد. والقصد من هذه الأناشيد اقـتراب «المثل» من عقل الانسان حتى يدركها أو يتذكرها ويعيش فيها.

ويبدو أن «جوردانو برونـو» كان يعرض بكتابه «نشيـد كيركيـه» عرضاً موسيـقياً راقصاً رآه عام 1581م في البلاط الفرنسي أو سمع به أو قرأ نصّهُ المنشور عام 1582م، وهو يدور حول تعاويذ الساحرة كيركيه التي حولت بالسحر الأسود البشر إلى قطيع من الخنازير فقاموا بالمذابح الدينية وبحـرب الأديان التي نشبت بين الكاثوليك والبروتستانت حتى وضع هنري الثـالـث - ملك فرنسا - حـداً لها بقوة السحـر الأبيض. وبالمثل فان أناشيد كيركيه في جوردانو بـرونو كانت «أسراراً بربرية» أطلقت الشر من عقاله وجعلت

مخلوقات الضياء تفر أمام مخلوقات الظلام. ولكن لا تلبث كيركيه أن تتوجه بنشيدها إلى الشمس وهي تحرق البخور ذا الرائحة الزكية وتتأوه في صلاتها على اختفاء «استريا». رمز العدالة في العصر الذهبي. وهنا تتجلى قوة السحر الأبيض المتمثل في ضياء الشمس وتنجلي الظلمة ويغني ديك الصباح. ومن الجدير بالذكر أنه فهم يومئذ أن الشمس هو ملك فرنسا فكافأه بأن عينه أستاذاً في الجامعة. (انظر لويس عوض، ص 248).

والمفهوم، عزيزي الدارس، في رمزية جوردانو برونو أن إشراق الصباح يمثل إشراق الإصلاح الديني وانقشاع ظلام عصور التعصب والجمود. ويبدو أن جوردانو برونو كان يلتمس الاصلاح الديني من خارج إطار العقيدة المسيحية السائدة في اوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت، ولعله كان يدعو لاحياء ديانة مصر القديمة (لويس عوض، ص248).

عزيزي الدارس، وغادر جوردانو برونو فرنسا متجها إلى انجلترا. ويبدو أنه تمتع فيها بنوع من الحصانة جاءته من ملك فرنسا. وبدأ جوردانو هناك بنشر دعوته الفكرية فأصدر كتاباً باللاتينية عام 1583م ويشتمل على ثلاثة أجزاء: جزء هو من «فن الذاكرة» السابق وجزء اسمه «تفسير الأختام الثلاثين»، وثالث اسمه «خاتم الأختام» (انظر لويس عوض، ص 249). ومن الجدير ذكره أن جوردانو برونو لم يكن منسجماً مع أساتذة اكسفورد وكذلك هم. وفي عام 1584م أصدر جوردانو برونو محاولاته الايطالية المُسماه «الكون اللانهائي»، وأخرى المسماه «طرد الوحش المنتصر». وفي هذا الكتاب دعا لاحياء ديانة قدماء المصريين في مرحلتها الهرمزية القائمة على وحدة الوجود وعلى نظرية الحلول. وفي عام 1585م أصدر كتابه «الجنون البطولي» وهو عبارة عن مجموعة قصائد في الحب الصوفي. وكتاب «سحر براق الشعر».

وبعد عودة جوردانو برونو إلى باريس عام 1585م طبع له كتاب: «تصوير الفيزيقا لأرسطو»، ومحاورتان عن «فابريتزيو موردانتي، و«الأبله منتصرا» و«تفسير الأحلام». وله من الكتب كذلك «مائة وعشرون وصية للرد على المشائين». (انظر لويس عوض، ص 251)

وفي عام 1586م انتقل برونو إلى المانيا، حيث أقام سنتين بين 1586-1588م استاذاً في جامعة ويتنبرج. ويبدو من غزارة انتاجه في هذه الفترة أنه كان مستقراً وعلى علاقات طيبة مع بيئته الجديدة. والواضح كذلك أن أكثر مؤلفات هذه الفترة كان من

مذكرات محاضراته. ومن هذه المؤلفات كتاب عن: «فلسفة ديموند لولي»، وكتاب عن «تقدم المنطق»، وكتاب عن «كتاب الفيزيقا لارسطو» وكتاب عن «صناعة الخطابة»، وكتاب عن «اللامعدود واللامحدود»، وكتاب «في السحر» وكتاب «حلقات السلسة». وكتاب «التماثيل الثلاثون».

وبعد أن سيطر الأساتذة من أتباع كالفن على جامعة ويتنبرج، غادر برونو إلى براغ عام 1588م حيث أقام نحو ستة شهور، وهناك وضع مؤلفه «الرد على الرياضيين»، ثم انتقل إلى جامعة هيملشتاد. وفي عام 1590م انتقل إلى فرانكفورت حيث طبع بعض الأشعار اللاتينية، ثم ذهب إلى سويسرا حيث قضى شهوراً قليلة ألف فيها كتابه: «في تركيب الخيال والاشارات والأكفار». ثم عاد إلى ايطاليا عام 1591م ليواجه سنوات مديدة من السجن في البندقية ثم محكمة التفتيش والاعدام حرقاً في روما عام 1600م.

3.7 كامبانيللا CAMPANELLA (1568-1639)م

ولد جيوفاني دومنيكو كامبانيللا في عام 1568م في بلدة «متيلو» من أعمال كالابريا في جنوب إيطاليا. وكان غلاماً معجزة، ففي سن الثالثة عشرة كان قد قرأ أكثر أعمال التراث اللاتيني في عصره الكلاسيكي باللاتينية. وفي عام 1582م دخل وهو في سن الرابعة عشرة دير «بلاكانيكا» والتحق بسلك الرهبان الدومنيكان بعد عام وسمى نفسه الفرير «الأخ» توماسو كامبانيللا تيمنا باسم الفقيه الديني الشهير توماس الاكويني (لويس عوض، ص302).

درس كامبانيللا العلوم والفلسفة في مدرسة الفقيه «تيليسيو» في مورجنتيا، كما درس اللاهوت في كوزنتزا بعد أن ترك ديره عام 1588م؛ أي وهو في سن العشرين. هاجم كامبانيللا أرسطو واتباعه من رجال الدين والدنيا، وعندما أنذر بسوء المصير غادر الدير وانتقل إلى حلقات عالم روحاني في نابولي يدعى «جان ياتيسيا ديللابورتا». وفي عام 1591م أصدر كامبانيللا كتابه «شرح فلسفة الحواس». وفي هذا الكتاب هاجم أرسطو الذي أقام تصوره للعالم ولكل شيء على ازدواجية المادة والصورة وانحاز لافلاطون الذي أقام الالم وكل شيء على ثلاثية الجسم والعقل والروح. (لوس عوض، ص302). وحتى هذه المرحلة من حياة كامبانيللا بقي داخل حظيرة الايمان المسيحي، غير أنه كان يفصل العلم عن الدين ويقول أن العلوم الطبيعية لا تدخل في نطاق العقيدة ولا شأن للكنيسة بها.

عزيزي الدارس: تعـددت المرات التي قبض فيـها على كامبـانيللا بتهمـة الزندقة وغيرها، وتعددت المرات التي بريء فيها كذلك. والثابت أن كامبانيللا كان يدعو لتنظيم للمجتـمع تحت قيادة بابوية جديدة كما جـاء في كتابيه: «ملكية المسـيحيين» و«في نظام الكنيسـة». وكان هذا بدايات حلمـه بالمدينة الفاضلة «مدينة الـشمس» للانسانيـة كلها، وباصلاح الكنيسة وبعودة البشر إلى حالة البذرة الاولى (انظر لويس عوض، ص304). وكذلك كان كامبانيللا معادياً للحكم الاسباني، غير أنه كان يحتقر الفلاحين والطبقات الشعبيـة ويعتبرها في عداد البهائم أو في حكم الوحـوش. وكان البديل عنده هو حكم «الفيلسوف الملك» عـلى نهج أفلاطون في «الجمهورية» أو «البـابا ملكاً» الذي يجمع في يديه حكم العالم روحياً وزمنياً.

كان كامبانيللا منذ شبابه قد اتخذ لنفسه شعاراً هو: «لن أصمت أبداً، وكان يقول عن نفسه «انما ولدت لأقاتل ثلاثة شرور، هي: «الطغيان والسفسطة والنفاق». وقد كتب خلال حياته 88 كتاباً أشهرها أربعـة هي: «مدينة الشمس»، وهي المدينة الفاضلة و«في الملكية الاسبانية»، وهو كتاب يهاجم الاستـبداد السياسي. وكتاب «الحس بالأشياء» وفيه يدافع عن علم الفسيولـوجيا أي وظائف الأعضاء وكتاب «دفـاع عن جاليليو» وهو دفاع مجيد عن العلم رغم أنه يخرج عن الاطار الافلاطوني ويقـوم على قبول حياة الرهبانية (لويس عوض، ص 306).

كان كامبانيللا يصف فلسفة أرسطو وأرسطاطاليـسية العصور الوسطى بأنها مجرد معارك كلامية. وقد حاول بناء الميتافيـزيقيا أو علم ما وراء الطبيعة على العلوم الطبيعية، وكان معـبد العلم عنده متحـفاً ضخماً للتاريخ الطبيعي يشتمل عـلى صور لكل ما في السماء ومـا في الأرض، وكان أطفال مدينته الفاضلـة يتعلمون مبادئ الجغـرافيا والفلك والبيولوجيا وعلم التشريح بالاطلاع على هذه الصـور. أما الدراسات اللغوية فقد كانت عنده مجرد تحصيل يعتمد على الذاكرة. وكذلك فقد أهدر كامبانيللا الدراسات الانسانية التي كان يدعو اليها دعاة المذهب الانسانـي، كما أهدر إحياء التراث الفكري الذي تركه القدماء وكان يرى أن أساس الـفلسفة هو العلوم وليس الآداب (انظر لويس عوض، ص 306).

ان أهم أعمـال كامـبانيللا هي «مـدينة الشمس» التي أتمهـا في عام 1602م أثناء سجنه في كالابريا باللغة الايطالية ثم ترجمها إلى اللاتينية وصدرت طبعتها باللاتينية في فرانكفورت عام 1623 وهو لا يزال مسجوناً، ثم في باريس عام 1637م اثناء اقامته فيها

وقبل وفاته بعامين ثم في اوتريخت عام 1643م بعد وفاته باربعة أعوام. وأهم ما تمثله «مدينة الشمس» لكامبانيللا أمران: أولهما أنها تعد أكبر قاعدة في علم المعرفة لفلسفة العلوم التي قامت عليها الحضارة الأوروبية الحديثة ولاسيما العلوم الطبيعية والأمر الآخر ان «مدينة الشمس» كانت بمثابة صدمة فكرية لمعاصري كامبانيللا وكانت دعوة كامبانيللا لالغاء الملكية الفردية ولالغاء نظام الأسرة. (انظر لويس عوض، ص308)

لقد بنى كامبانيللا، عزيزي الدارس، المدينة الفاضلة «مدينة الشمس» على بعض أسس جمهورية أفلاطون، وهي تمثل عودة للحلم الافلاطوني معدلا بأن يحكم الجمهورية الفاضلة «الملك الفيلسوف أو الفيلسوف الملك»، وذلك لا يكون إلا إذا اجتمعت القوة والفكر أو العلم في شخص واحد. وهذا وجه التناقض في الفكر الافلاطوني: الغزل الدائم بين الفكر والسيف، إن أصحاب «مدينة الشمس» وجدوا أن أعلم الناس أقدرهم على الحكم، وهم يرون أن نظامهم أفضل من نظامنا، لأننا نضع في السلطة الجهال ونرمي بهم لمجرد أنهم من أبناء البيوتات أو من محاسيب القوى السياسية والاقتصادية.

و«هوه» رئيس مدينة الشمس هو الوحيد الذي تأتيه حكمته من الحياة ومن الطبيعة، أما بقية حكماء المدينة، فكل حكمتهم تأتيهم من بطون الكتب شأن قراءة أرسطو وغيره، وهم لا يعرفون شيئا عن الحياة، فكل علومهم نقلية من الذاكرة.

إن المؤثرات الاسبرطية واضحة في مدينة الشمس كما هي واضحة في جمهورية افلاطون، وأهمها الشغف بالرياضة البدنية وعيادة الصحة والتقشف الدائم والاستعداد الدائم للحرب. والقسوة على الضعفاء إلى حد تعريضهم عرايا لثلوج الشتاء وعواصفه حتى لا ينجو من الأطفال إلا من يصلح حقاً للحياة. كذلك من المؤثرات الاسبرطية نظرية تحسين النسل بالانجاب الصناعي أي بتزويج أصح الفتيان لأجمل الفتيات، وكأننا في مزرعة خيول أصيلة.

إن ظاهر الأمر يوحي بأن كامبانيللا كان مطلعاً على قصة السندباد البحري وربما قصة «حي بن يقظان» لابن طفيل وربما «قصة الإسراء والمعراج» لابن عباس. غير أن أهم ما في مدينة الشمس هو أنها كانت متحفاً عظيماً للعلوم ولمعارف الانسان فهي بمثابة البداية الحقيقية لحضارة العلم الحديث.



نشاط (6)

اكتب تقريراً عن الدور الذي لعبه أرازموس ابان حركة الاصلاح الديني وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟



تدريب (6)

أ- اذكر أشهر كتب أرازموس.

ب- اذكر أشهر كتب جوردانو برونو.



أسئلة التقويم الذاتي (6)

أ- اذكر أبرز مقومات عصر النهضة الاوروبية؟

ب- وضح باختصار فلسفة جوردانو برونو في الفلك؟

ج- وضح ماذا أراد كمبانيللا من مدينته الفاضلة: مدينة الشمس؟

8. نصوص مختارة من

1.8 مكيافيلي

يتحدث مكيافيلي في الفصل الثاني من كتاب الأمير عن مشكلة الانقلابات والثورات فيذكر أن أول عقبة تواجهها أية إمارة جديدة هي عقبة طبيعية فيقول:

«فالناس يتحمسون لتغيير أميرهم عندما يأملون في تحسين أحوالهم، وحين يتسلط عليهم هذا الاعتقاد يجعلهم يحملون السلاح ضده وهم بهذا يخدعون أنفسهم، لأنهم فيما بعد يكتشفون بالتجربة أن أحوالهم قد ساءت. وهذا الوضع ناجم عن حتمية أخرى طبيعية ونمطية ألا وهي أن الانسان لا بد وأن ينزل الأذى دائماً بأولئك الذين يصبح أميرهم الجديد، ببطش الجنود وبالأضرار الأخرى التي لا حصر لها والتي تغضب الفاتح الجديد. وبهذا تكتسب كأعداء لك كل من أنزلت بهم الضرر باستيلائك على تلك الامارة. كما أنك لا تستطيع الاعتماد على من وضعوك في دست الامارة كأصدقاء

لك. لأنك لن تستطيع إرضاءهم بالدرجة التي كانوا يأملون فيها. ولأنك لن تستطيع أن تردعهم بناجع الدواء باعتبارك مدينا لهم. فالمرء مهما بلغت قوة جيشه، بحاجة دائماً إلى إرضاء الأهالي حين يفتح منطقة من المناطق». (لويس عوض، ص76).

ومن هذا الكلام ومن سياقه التاريخي نفهم أن مكيافيلي لا يفرق بين الانقلابات والثورات الداخلية التي تطيح بأمير أو بأسرة أو جماعة حاكمة لتضع مكانها أميراً جديداً وأسرة أو جماعة حاكمة جديدة. وبين الفرد الخارجي الذي ينقل السيادة على البلاد إلى يد جديدة. ولأن مكيافيلي رأى أن الشعوب تثور لاستبدال حاكم بآخر، وطنياً كان أو أجنبياً إذا توهمت أن حالها سوف تتحسن في ظل الأمير الجديد، غير أنها تكتشف خطأها في ذلك فتثور على هذا الحاكم الجديد. وبسبب هذا كله وضع مكيافيلي بعض القوانين السياسية التي رآها لازمة لنجاح الفتوحات وحركات التوسع القومي فقال:

«أقول إذاً أن تلك الدولة عند فتحها لو وجدت مع دولة سبق وأن امتلكتها الدولة الفاتحة، فهي إما أن تكون من نفس الاقليم وتتكلم نفس اللغة أو لا تكون، فان كانت من نفس الاقليم واللغة كان الاحتفاظ بها أمراً يسيراً جداً، ولا سيما إذا كانت لم تتعود على الحياة الحرة. وهنا يكفي لتأمين الاحتفاظ بها تدمير نسل الأمير الذي كان يحكمهما، ذلك لأن أهلها، فيما يخرج عن البيت المالك، يعيشون في هدوء طالما أبقى الأمير الجديد على أسلوب حياتهم القديم، وطالما لم يكن هناك عدم تجانس في العادات. ومثال ذلك ما نراه من أحوال بورغونيا وبريتانيا وجاسكونيا ونورمانديا التي بقيت متحدة مع فرنسا منذ مدة طويلة جداً، ورغم وجود عدم تجانس في اللغة الا أن العادات متشابهة بحيث تستطيع هذه الامارات أن تعيش في يسر بعضها مع البعض الآخر. ومن يستولي على هذه الامارات عليه أن يراعي الحيطة في أمرين: الأول هو إبادة نسل الأمير السابق، والآخر هو عدم إجراء تعديل في القوانين أو في الضرائب المفروضة على الأهالي، وبهذا يندمجون خلال فترة وجيزة جداً في جسم دولة الأمير الفاتح.

أما إذا جرى فتح الدول في منطقة غير متجانسة مع الدولة الفاتحة في اللغة أو في العادات أو في القوانين فهنا تنشأ الصعوبات، وهنا يحتاج الأمير إلى الكثير من حسن الحظ ومن الحكمة ليحتفظ بالدول المفتوحة ومن أهم سُبُلِ العلاج الجوهري لهذه الحالة أن ينتقل الأمير الفاتح إلى الامارة المفتوحة ليقيم فيها، وهذا كفيل بأن يجعل امتلاكه لها أكثر أمناً وأكثر دواماً، وهذا ما فعله الترك في اليونان، فقد كان يستحيل عليهم

الاحتفاظ بها، رغم كل ما مارسوه من وسائل أخرى، لولا أنهم انتقلوا اليها ليقيموا فيها. ذلك لأنه بالحضور المباشر يمكن اكتشاف القلاقل بمجرد نشأتها ويمكن علاجها على وجه السرعة، أما بغير الحضور المباشر فهي لا تكتشف الا حين تستفحل وتمتنع على العلاج. وبالاضافة إلى هذا فالحضور المباشر يمنع موظفي الأمير من نهب البلاد الخاضعة له، والشرعية تغتبط بقدرتها على مخاطبة الأمير مباشرة ودون وساطة.. وبهذا الحضور يزداد حبهم له إن كان في نيتهم حسن السلوك ويزداد خوفهم منه ان كانوا يضمرون شراً. ثم إن القوى الأجنبية تتردد كثيراً قبل أن تغزو الدولة المفتوحة إذا كان الأمير مقيماً فيها. وبوجه عام فان إقامة الأمير في الدولة المفتوحة تجعل ضياعها أمراً عسيراً.

كذلك من وسائل الاحتفاظ بالدولة المفتوحة ارسال مستوطنين في بقعة أو بقعتين منها لكي تكون بمثابة أملاك تقيد بها تلك الدولة. هذا أمر لازم فبغيره لا مناص من احتلالها بقوات كبيرة من الفرسان والمشاة. أما المستعمرات فهي لا تكلف كثيراً، ويمكن للأمير ارسالها لتستوطن هناك دون أن يتكبد شيئاً من جيبه الخاص أو قد لا يتكبد الا قليلاً... وهو بهذا الاستعمار الاستيطاني لا يضر أناساً إلا من يستولي على حقولهم وعلى دورهم ليعطيها لسكانها الجدد، وهم أقلية ضئيلة في الدولة المفتوحة، أما من ينزل بهم الضرر، فلأنهم يبقون مشتتين وفقراء، فهم عاجزون عن ايذاء الأمير. ومن جهة أخرى فان سائر الباقين الذين لا يمسهم الضرر في حياتهم فمن الأرجح أن يعيشوا في هدوء. وخلاصة القول هي أن هذه المستعمرات غير مكلفة وهي أشد ولاء وأقل إيذاء للأهالي من جنود الحامية. أما الغاضبون من الأهالي فلا يملكون ضراً لأنهم مشتتون وفقراء كما سبق ان قلت.

وفي هذا الصدد يجب أن نلاحظ أن الناس - ينبغي إما تذليلهم أو سحقهم - فهم يثأرون لما ينزل بهم من أضرار تافهة، أما الأضرار الجسيمة فهم عاجزون عن الانتقام لها. ولهذا فالتنكيل بانسان يجب أن يكون من نوع لا يخشي معه من الانتقام. فإذا احتفظ الأمير بقوات مسلحة في الدولة التي يحتلها بدلاً من إقامة المستعمرات فيها، إزدادت نفقاته زيادة عظيمة لأنه سيستنزف كل موارد الدولة المفتوحة على حراستها، وبهذا يتحول غنمه إلى غرم، كما أنه سيثير غضباً أشد لأنه سيؤذي كل من في الدولة المفتوحة بنقل جيشه وأركانه إليها، وسوف يتأذى من كل ذلك كل الناس ويتحول الكل إلى أعداء له، أعداء قادرين على إيذائه، لأنهم رغم اخضاعهم باقون في بلادهم. فمن جميع الوجوه نجد إذاً أن قوات الاحتلال لا جدوى منها في حين أن المستعمرات مجدية». (لويس عوض، ص 78-80).

2.8 جاليليو

عزيزي الدارس، وكما مر معك في ثنايا هذه الوحدة عن العالم الجليل «جاليليو» وصراعه مع الكنيسة في محاولة منه إلى تنوير أفكار الناس في العلم، وازالة التحجر الذي كان يسود فكر الكنيسة الكاثوليكية. تعرض إلى أشد أنواع التعسف والظلم وقدم إلى المحاكمة أكثر من مرة وانتزع منه اعترافاً لم يكن كما يبدو مقتنعاً به، ولكن في محاولة منه للابقاء على نفسه. وسأسوق لك عزيزي الدارس، مقتطفات بسيطة من أقواله أمام محاكميه في المقر البابوي في 30 ابريل/نيسان من عام 1633م بعد أن اعترف في كتابه «حوار النظامين العظيمين» اتجاهات كوبرنيكية ونسب إلى نفسه غرور العلماء وحبهم للظهور ولو على حساب الحقيقة. وفي 10 مايو/ايار من نفس العام استدعى من جديد للمقر البابوي ليقدم دفاعاً مكتوباً ففعل وأضاف لما كتب في الجلسة المنعقدة يقول: «وكل ما بقي لي أن أقوله هو أني أترك نفسي في كل شيء لعدالة المحكمة واضع نفسي تحت رحمتها المعروفة للجميع» (لويس عوض، ص 298).

وعندما قرئ عليه قرار الحكم في 22 يونيو/حزيران عام 1633م وكما كانت تقاليد ذلك الزمان، جثا جاليليو على ركبتيه وأعلن قائلاً: «أنا جاليليو بن فنتشنتزيو جاليلي من فلورنسا، البالغ من العمر سبعين عاماً، الحاضر أمامكم، والجاثي امام حضراتكم، يا نيافة الكرادلة، وقضاة التفتيش العاملين باسم كل العالم المسيحي ضد كل انحرافات الزندقة، وأمام عيني الانجيل المقدس الذي أمسكه بكلتا يدي، أقسم بأني كنت دائماً أؤمن، وبأني الآن اؤمن، وبمعونة الله سوف اؤمن دائماً بكل ما تقبله الكنيسة الكاثوليكية الرسولية المقدسة وبكل ما تعظ به، وبكل ما تُعلمه. وهذا الجمع البابوي نفسه سبق ان وجه إلى رسمياً وقانونياً أموراً بالتخلي تماماً عن الرأي الزائف القائل بأن الشمس هي مركز العالم وأنها لا تنتقل من مكانها. وحظر عَلَيّ تصديق هذا المذهب الزائف أو الدفاع عنه أو تعليمه بأية صورة من الصور، شفاها أو كتابة. ورغبة مني في أن أقتلع من أذهان نيافتكم ومن أذهان كل المسيحيين المؤمنين هذه الريبة القوية في عقيدتي، وهي ريبة في موضعها، فاني بقلب صادق ونِيَّة خالصة تماماً، أستنكر هذه الأخطاء والزندقات المذكورة وبوجه عام كل الأخطاء والزندقات والمعتقدات المتعارضة مع الكنيسة المقدسة».

عزيزي الدارس، ويقال أن جاليليو ما أن فرغ من تلاوة هذا الاستنكار حتى نهض واقفاً وضرب الأرض بقدميه صائحا: «أيبورس مودي» «ومع ذلك فهي تدور». (انظر لويس عوض، ص 300).

3.8 كامبانيللا

والنص الذي سنتحدث عنه، عزيزي الدارس، من مدينة الشمس لكمبانيللا. تلك المدينة التي نلمح فيها تأثيرات من جمهورية أفلاطون، والنص فيها قائم على حوار بين رجلين، هما قائد من قواد «فرنسا القديس يوحنا» وقبطان من ميناء جنوا كان ينزل ضيفا عليه. ويطلب القائد من القبطان أن يروى عليه ما جرى له خلال ترحاله. فيقول القبطان: إنه طاف بالعالم كله، وفي أسفاره وصل إلى مكان اسمه «تايروبان»، واضطر أن يرسو هناك، ولكنه اختبأ في غابة خوفاً من السكان الأصليين. وحين خرج من الغابة وجد نفسه على سهل تحت خط الاستواء مباشرة ووجد نفسه بين عدد كبير من الرجال وبين نسوة يحملن السلاح وأكثرهم كان لا يفهم لغة وطنه. وعلى الفور قادوه إلى مدينة الشمس وهي فردوسهم الأرضي... ووجد المدينة مبنية في هيئة دوائر قطرها ميلان ومحيطها سبعة أميال.. وهي مقامة على تل مرتفع يحيط به سهل متسع.

كانت المدينة مقسمة إلى سبعة دوائر واسعة، الدائرة ضمن الأخرى، سميت على أسماء الكواكب السيارة، وكأنها صورة مصغرة من النظام الفلكي كما كانوا يتصورونه في العصور الوسطى، وهذه الدوائر متصلة فيما بينها بأربع بوابات مصفوفة على الجهات الأربع الأصلية. وقد صممت المدينة بطريقة تجعل غزوها غاية في الصعوبة، فإذا غزوت الدائرة الأولى وسقطت احتاج الغزاة إلى ضعف عددهم من الرجال والعتاد والجهد لاقتحام الدائرة الثانية، وهكذا فلابد من مضاعفة الهجوم كلما اقترب الغزاة من مركز الدائرة أو مركز مدينة الشمس حيث المعبد قائم في مأمن من كل يد عادية. قال القبطان: «وفي رأيي أن مناعة أسوار الدائرة الأولى ذاتها تجعل اقتحام نطاقها الأول أمراً مستحيلاً».

واستطرد القبطان قائلاً: «وأخذوني لاجتياز البوابة الشمالية، فرأيت مسافة مستوية عرضها سبعون خطوة ما بين السورين الأول والثاني: ومن هناك أبصرت قصوراً فسيحة كلها متلاصقة، ظهرها مستند إلى دائرة السور الثاني بطول الدائرة، حتى لقد حسبت أنها قصر واحد. وفي واجهتها بواكي ترتفع إلى منتصف القصر بطول الدائرة. وعلى هذه البواكي طرق للنزهة ترتكز على أعمدة ضخمة جميلة متسقة فكأنما البواكي أقباء دير جميل.

وبين كل سور دائري وسور دائري آخر هناك سهل خصيب. وفي مركز هذه الدوائر السبع سهل عظيم في أعلى التل، يتوسطه معبد عظيم يصل اليه القاصد بدرج

خفيف التدرج لا مشقة في ارتقائه حتى بلوغ هذا المعبد المركزي في قمة التل، وهذا الدرج يمتد من السور الخارجي حتى آخر السور في الداخل.

أما المعبد فهو دائري الشكل في بنائه ولا تحيط به أسوار وانما يقوم على أعمدة غلاظ شامخة منسقة في بهاء، وفي أعلى المعبد قبة ترتفع من قبة، وهي فوق المذبح مباشرة، ومن حول المذبح أعمدة، والمعبد نفسه على رقعة طولها 350 خطوة، ومُحاطٌ بالبواكي القائمة على أعمدة ترتفع فوقها حلقة أخرى من الأعمدة وكل هذه البواكي تحتها ممرات أو طرقات وصفها آيةٍ في الجمال، وفيها أرائك ثابتة بين الأعمدة. وهناك كراسي تنقل باليد وهي تخف عظيمة البهاء. وليس على المذبح إلا كرةٌ جسيمة نقشت عليها نجوم السماء، وكرة أخرى تمثل الأرض، وعلى النجوم أسماؤها ووصف لتأثيرها على كائنات الأرض. ورصيف المعبد لامع ومطعّم بالاحجار الكريمة وفيه سبعة مصابيح ذهبية دائمة الاشتعال، وهي مسماة على أسماء الكواكب السيارة.

وهناك في أعلي المعبد عدد من الصوامع الجميلة التي تحيط بالقبة الصغرى، كما أن هناك صنوفاً من الصوامع تحت الأقباء أو البواكي في الداخل والخارج، وهي في أحجام مختلفة وفيها يقيم كهنة المعبد وعددهم تسعة وأربعون كاهناً، وعلى القبة الصغرى يرفرف علم يلف في تجاه الريح ويبين للكهنة مسار الريح، ومنه يعرفون الطقس وأنواع السنوات في البر والبحر وتحت القبة كتاب منقوش بحروف من ذهب

ويسأل القائد القبطان عن نوع الحكومة القائمة في هذه المدينة الفاضلة، فيجيب القبطان قائلاً: (يحكم مدينة الشمس كاهن اسمه «هوة»، ولكن يجب علينا أن نسميه ميتافيزيقيا «ومعنى هذا أن كامبانيللا يقول لنا إن رئيس هذه المدينة هو أعلم حبر في أمور الالهيات أو في أمور الغيب). ويعاون «هوة» في ممارسة سلطاته ثلاثة أمراء: أحدهم يدعى «بون» وهو أمير القوة والثاني يدعى «سن» وهو أمير الحكمة، والثالث يدعى «مور» وهو أمير الحب.

وتتبع أمير القوة شئون الحرب والسلم، وهو يتحكم في الجيش، وفي القادة العسكريين، وتتبعه الذخيرة والتحصينات والأسلحة والعتاد والحدادون وصناع السلاح. أما أمير الحكمة انما يدخل تحت ولايته العلماء والفقهاء. ومن العلماء التابعين له عالم اسمه «الفلكي»، وآخر اسمه «عالم الفضاء»، وثالث اسمه «عالم الرياضيات»، ورابع اسمه «المهندس»، وخامس اسمه «المؤرخ»، وسادس اسمه «الشاعر»، وسابع اسمه «المنطيق»، وثامن اسمه «عالم البلاغة»، وتاسع اسمه «النحوي»، وعاشر اسمه

«الطبيب»، وحادي عشر اسمه «الفسيولوجي»، وثاني عشر اسمه «الأخلاق»، ولهؤلاء العلماء كتاب واحد يسمونه: «كتاب الحكمة». وقد سطرت فيه كافة العلوم بدقة متناهية وباسلوب متدفق، وهم يقرؤون هذا الكتاب على الناس على طريقة الفيثاغوريين. وهذه الحكمة هي التي تزين أسوار «مدينة الشمس» العليا والسفلى، من الداخل ومن الخارج بالصور الرائعة، وهي التي ترسم في هذه الصور توضيحات كل العلوم وعلى جدران المعبد وعلى القبة رسمت صور النجوم بحسب جرم كل منها وما فيه من حركة وما له من تأثير.

فعلى السور الدائري الأول من الداخل رسمت مبادئ الرياضيات كل الأرقام والمعادلات الرياضية ومعها تفسيراتها وحلولها مبلورة في قصائد صغيرة جميلة. أما من الخارج فقد رسمت الأرض كلها وكل قطر من أقطارها «أي مبادئ علم الجغرافيا»، مع توضيح عاداتها العامة والخاصة وقوانينها ومنشأ سكانها؛ «أي مبادئ علم الاجتماع»، كل الشعوب موضحة فوق أبجدية «مدينة الشمس»...

وعلى السور الدائري الثاني من الداخل هناك صور لكل الأحجار الكريمة وغير الكريمة والمعادن وخصائص كل حجر ومعدن ملخصة في بيتين من الشعر «فهي تصور مباديء الجيولوجيا». أما من الخارج فقد صور كافة البحار والبحيرات والأنهار وكل ما في الأرض من سوائل، كما كانت هناك رسوم للرعد والبرق والثلج والعواصف «وهذا استكمال للجغرافيا والارصاد الجوية».

وعلى السور الدائري الثالث من الداخل رسمت «مباديء علم النبات»: كل أنواع الأشجار والنباتات مع بيان طبيعة كل منها، أما من الخارج فقد رسمت كل أنواع الأسماك والمخلوقات البرية، مع بيان خصائصها، وبذلك وضعت أساس علم «الأحياء المائية».

وعلى الدائرة الرابعة من الداخل رسمت كل أنواع الطيور مع بيان طبائعها وخصائصها وعاداتها، وسكان «مدينة الشمس» وحدهم يملكون العنقاء الوحيدة في العالم. أما من الخارج فقد رسمت كل أنواع الزواحف والحشرات، ... الخ.

وعلى الدائرة الخامسة من الداخل رسمت حيوانات الأرض الجسيمة، وهي ألف مرة أكثر مما نعرف، ومن الداخل رسمت فصائل هذه الحيوانات، فكانت من الحصان وحده مائة فصيلة.

وفي الدائرة السادسة رسمت كل الفنون الميكانيكية مع أدواتها وبيان طرق استعمالها ومخترعيها. أما من الخارج فقد رسمت صور كل المخترعين والمكتشفين في العلوم وفي فن الحرب وصور المشرعين. أما المشرعون عند كامبانيللا فقد كانوا: اوزيس، وجوبتير، وهرميز وليكورجوس وفيثاغورس وصولون من عصور الوثنية. وموسى والمسيح ومحمد من عصور التوحيد. أما عظماء التاريخ فقد رأى القبطان منهم صور الاسكندر، ويوليوس قيصر، وبيروس وهانيبال.

وقيل للقبطان أن أهل «مدينة الشمس» يعرفون كل لغات العالم ويوفدون المكتشفين والسفراء إلى كل البلاد، ومن هنا معرفتهم بتاريخ كل بلد وبعادات كل شعب، ومنهم عرف القبطان أن أهل الصين عرفوا المدفع والمطبعة قبل أن تعرفها أوروبا. والأطفال في مدينة الشمس يتعلمون كل شيء من الصور دون عناء. قال القبطان: «في مدينة الشمس نجد الرجال والنساء متحابين ولذا فهم ينسلون أحسن النسل. وهم يعجبون منا لأننا نهتم بسلالات الخيل والكلاب بينما نهمل سلالات البشر. ولذا فإن تعليم الأطفال عندهم من اختصاص «أمير الحب».

وحين استفسر قائد فرسان القديس يوحنا عن نظام الحكم في «مدينة الشمس» أجاب القبطان: «ان أهل مدينة الشمس جاءوا أصلاً من الهند فراراً من سيوف المجوس ومن الطغاة النهابين، وقرروا أن يعيشوا معاً في إخاء الحكماء والفلاسفة فجعلوا كل شيء مشاعاً بينهم: المعرفة والمجد والذات والمال. كل شيء عندهم على المشاع، حتى الزوجات. وهم يقولون ان الملكية الفردية انما تكتسب وتنمى بسبب نظام الاسرة، وهذا يؤدي إلى حب الذات. فإذا ألغي نظام الاسرة لم يبق الا حب الدولة.

صاح قائد فرسان القديس يوحنا: هذا ما يقوله افلاطون في الجمهورية. وقد رد عليه أرسطو بقوله: إن هذا سيغري الناس بالتواكل والانصراف عن العمل ليعيشوا على ثمار عمل الغير. فأجاب القبطان قائلاً: إنه لاحظ أن أهل مدينة الشمس من أكثر الشعوب تفانياً في حب وطنهم، ومن يمت دفاعاً عن الوطن لا يقيم وزناً للمال، ولو أن الرهبان أظهروا زهداً مثل زهدهم في المال لجعلوا الدنيا مكاناً لحياة أرقى.

قال القائد: إذن فالصداقة بينهم لا معنى لها عندهم لأنهم لا يتبادلون الهدايا والعطايا. فأجاب القبطان بأن العطايا عندهم ممنوعة، فكل منهم يحصل فقط على ما يأتيه من الجماعة. والحكام يحظرون أن يأخذ أي منهم أكثر مما يستحق أو يحتاج اليه، ولكنهم يضمنون الضروريات للجميع. أما الصداقة عندهم فتتجلى عند المرض وفي

الحرب ويتبادل التعليم، وأبناء كل جيل يسمون بعضهم بعضاً «الأخ» فلان، وليست بينهم سرقة ولا قتل عمد ولا تدنيس الحرام ولا انحلال خلقي كالذي نجده فيما بيننا، والقضاة يسهرون على ذلك.

وكل شيء في الحياة مشترك: في قاعات الطعام أو في عنابر النوم، والرجال يقومون بالأعمال الشاقة، والنساء يقمن بالصناعات المنزلية وبحلب اللبن وصناعة الجبن وبالغزل والنسيج والخياطة والحلاقة وقص الشعر، وهن يتعلمن الموسيقى من دون الطبلة والنفير. والشباب دون الأربعين يخدمون الشيوخ فوق الأربعين. والطهاة بنات وصبيان دون العشرين، والرجال يجلسون للطعام في صف والنساء في الصف المواجه، والطعام يجري في صمت كما هو الحال في الأديرة. وأثناء الطعام يقرأ شاب كتاباً بصوت مرتل.

وبعد الفطام ترعى النساء الأطفال الاناث، ويرعى الرجال الأطفال الذكور ... وبعد سن السادسة يتعلم الأطفال صنعة من الصنائع، كل بحسب ميوله واستعداده. أما ضعاف العقول فيرسلون إلى الحقول حتى يتم تدريبهم ثم يصبحون مواطنين. والعمل اليدوي شرف في مدينة الشمس، وهم يسخرون منا لأننا نحتقر العمل اليدوي ونسمي من لا يتقنون عملاً من الأعمال ويعيشون في بطالة بالوراثة «النبلاء».

وليس بين أبناء «مدينة الشمس» أحقاد ولا تحاسد على المناصب لأنهم لا يطمعون في حياة الترف. فكل شيء عندهم يدار لصالح الأمة وليس لصالح الأفراد، فهم يخالفوننا في نظرتنا إلى الأسرة والأطفال. نحن نرى أن النظام الطبيعي هو أن يعترف الانسان بنسله ويتكفل بتربيتهم، وينظر إلى زوجته وداره على أنهما ملك له. أما هم فيرفضون ذلك ويقولون إن الأطفال يأتون لحفظ النوع لا لمتعتنا الخاصة.

ولما كان أكثر الناس ينجبون النسل بالخطأ ويربون الأبناء تربية خاصة، وهذا تخريب للدولة، فأهل مدينة الشمس يعتقدون أن في امكانهم إزالة هذا التخريب لأنهم يعهدون بتربية أولادهم إلى قضاة المدينة لأن الأولاد هم عماد الجمهورية، ذلك من باب حماية الجمهورية وهم لهذا ينتقون أفضل الشباب والشابات ليضمنوا انجاب أفضل نسل ممكن بحسب مبادىء الفلاسفة. ويرى افلاطون أن هذا الاختيار يجب أن يتم في الظاهر بالقرعة حتى لا تثور المحرومات من النساء غير الجميلات على قرارات القضاة. فلا مناص عند افلاطون من الخداع بحيث تعطى أجمل النساء لأصح الرجال. أما الرجال المختلون فيوزع القضاة عليهم ما يستحقون مع ايهامهم أنهم نالوا نصيبهم.

أما في مدينة الشمس فهذا الايهام لا لزوم له لأن أهل المدينة يعتقدون أن الجمال هو الصحة والصحة هي الجمال، فإذا صنعت المرأة وجهها لتبدو جميلة، أو أطالت كعبيها لتبدو طويلة أو أطالت ثوبها لتخفي حذاءها العالي حكم عليها بالاعدام.

وليس في مدينة الشمس أرقاء لأن كل الناس تعمل أربع ساعات يومياً. وبعد ساعات العمل الأربع يقضي أهل مدينة الشمس بقية يومهم في الاطلاع والمناظرات والكتابة والرياضة. والعاب الزهر عندهم محظورة، وكذلك الشطرنج، والألعاب الوحيدة المصرح بها عندهم هي الألعاب الرياضية الاسبرطية.

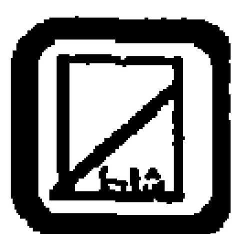
وعند أهل مدينة الشمس أن الفقر الشديد يجعل الناس عديمي القدرة، ماكرين أفظاظاً متجهمين، لصوصاً، صعاليك، كذابين، يشهدون بالزور. أما الغنى الفاحش فهو يجعل الناس وقحين متغطرسين، جهالاً أدعياء، خونة غشاشين، فشارين، يخربون سمعة الناس دون ضمير، ناقصين في المودة، الخ. وقضاة المدينة فيهم الرجال والنساء، وهم يلبسون نفس الزي، إلا أن عباءة النساء أطول من عباءة الرجال، فهي تحت الركبة.

والرئيس: (هوه) منتخب مدى الحياة، وهو عندهم أعلم الناس وأحكمهم وأعلمهم بالأمور الالهية، وهو لا ينفرد بالسلطة أبداً بل يعمل في انسجام مستمر مع «أمير القوة» ومع «أمير الحكمة» و«أمير الحب» وحكمته تعصمه من الاستبداد.

والنساء في «مدينة الشمس» يشتركن في القتال مع الرجال، وأهل المدينة لا يهابون الموت لأنهم يؤمنون بخلود الروح، وهم يتبعون لحد ما البراهما وفيثاغورس ولكنهم لا يؤمنون بتناسخ الأرواح، وهم شديدو الاهتمام بفن الحرب ويتدربون على القتال يومياً خشية أن تصبهم الطراوة فيعجزون عن رد العدو إذا نزلت نازلة مفاجئة. وليس في المدينة إلا سجن واحد يضعون فيه أعداء الجمهورية والثائرين عليها.

أما عن ديانة «مدينة الشمس» فأهلها يعبدون الله، وهم يمجدون الشمس والنجوم ولكنهم لا يعبدونها: هم يعبدون الله ويعظمون الشمس. والثالوث عندهم هو: القوة العليا والحكمة العليا والحب الأعلى. وثلاثتها صفات لله الواحد، وليس لها أسماء مستقلة أو وجود مستقل.

نشاط (7)



اكتب تقريراً عن كتاب جاليليو: «حوار النظامين العظيمين: نظام بطليموس ونظام كوبرنيكوس» وناقشه مع زملائك ومشرفك الأكاديمي؟



تدريب (7)

اذكر رأي مكيافيلي في المستعمرات التي تقام في البلاد المفتوحة؟



أسئلة التقويم الذاتي (7)

من هم المشرعون في نظر كمبانيللا؟

9. الخلاصة

عزيزي الدارس، لـم يكن عصر النـهضة الاوروبيـة مجـرّد انفجار ثقـافي فكري وعملي غيّر معالم الحياة في اوروبا ومقاييسها وقيمها في جبل واحد، أو قرن واحد، بل كان مجموعة من الحركات الثقافية والفكرية والعملية التي استغرقت نحو ثلاثة قرون بين 1350-1650 على مساحة أوروبا كلها. وقد شهدت هذه القرون الثلاثة تغيرات جوهرية في الحياة الأوروبية غاية في الخطورة كان من أهمها:

- تبلور اللغات والآداب القومية الحديثة في اوروبا.
- تبلور حركات الاستقلال القومي والوحدة القومية فيها.
- تبلور الكنائس القومـية وانسلاخها من الكـنيسة الجامعـة «الكاثوليكية» وتقلص سلطة الخلافة الرسولية المعروفـة بالبابوية، وما يتبع ذلك من سيادة الدولة على الدين بدلاً من سيادة الدين على الدولة.
- تبلور فكرة الحق الطبـيعي وحلولهـا محل فكرة الحق الالهي، ومـا ترتب على ذلك من حلول القانون الوضعي وحقوق الانسان محل القانون السماوي.
- انهيار النظام الاقطاعي نتيجة لحركات الوحـدة القومية وظهور الملكية المطلقة ثم الملكية المقيدة ثم الديمقراطيات الحديثة.
- الايمان بأن للانسان قـيمة في ذاته وأن الانسان سيـد مصيره وأن لحـياة الانسان وعلومه وفنونه وآدابه وفلـسفاته ومسـاعيه قـيمة في ذاتهـا لا تغني عنها علوم الدين ولا نسك الرهبان ولا اعتبار الحياة الدنيا مجرد معبر للآخرة واضمحلال الأديرة وتحولها إلى جامعات.

- إحيـاء التراث الوثني السابق علـى المسيحـية وهو التراث «اليـوناني والروماني» بوصـفه جـزءا لا يتجـزأ من تراث الانسانيـة وازدهار الابداع الأدبي والفكري نتيجة لذلك.
- حلول الطباعة محل النسخ الأدبي منذ أن اختـرع جوتنبرج (1394-1468م). المطبعة وطبع أول كتاب في تاريخ النشر وهو الكتاب المقدس في عام 1450م، بعد أن نقل الاوروبيون عن الصين والعرب صناعة الورق.
- اكتـشاف أمـريكا عام 1492م وغيـرها من بقاع العـالم المجهول وبداية عـصر الاستعمار الاستيطاني.
- حركات الاصلاح الديني.

10. لمحة مسبقة عن الوحدة الدراسية التالية

عزيزي الـدارس، وبعد أن فرغت مـن دراسة هذه الوحـدة، وقمت بالتـدريبات المطلوبة، وأجبت عن أسئلة التقويم الذاتي، تعال بنا نتعـرف مسبقاً إلى الوحدة الدراسية التالية وعنوانها: الحضارة الحديثة:

تدرس في هذه الوحـدة التطورات الحضـارية الكبرى التي ظهـرت على السـاحة البشرية من تقدم علمي وتكنولوجي كان لها دور بارز في توجيه دفة التاريخ نحو مستقبل جديد. والوحدة تعـرض للأهداف الحديثة للعلم ولتقدم المنهج التجـريبي والتقنيات وأثر ذلك على الروح الانسانية ومستقبل بني البشر.

11. إجابات التدريبات

تدريب (1)

أ- 1- ان يلزم السكوت إذا التزم خصومه بذلك.

2- ان يكتب رسالة يعلن فيها خضوعه للبابا.

3- ان يقر علنا بصحة الصلوات للقديسين وبحقيقة المطهر وبفائدة صكوك الغفران في الإعفاء من العقوبات الكنسية.

4- ان ينصح الناس بالولاء المسالم للكنيسة.

5- في غضون ذلك أن تعرض تفاصيل الخلاف على أسقف ألماني يقبله الطرفان للفصل فيها.

ب- كتابه: الإصلاح الديني.

تدريب (2)

أ- كان الهدف العام الذي يرمي إليه هو أن يتوصل إلى اتفاق بين المجالس وبين البابوات.

ب- 1- العمل العجيب جداً.

2- الجراحة الكبرى.

3- معارضة الطبيعة.

تدريب (3)

أ- الأمير

ب- أحاديث لتيتوس ليفيوس.

تدريب (4)

كان ذلك عندما أصدر كتابين في عام 1543م أحدهما شن فيه هجوماً مباشراً على منطق أرسطو. أما الآخر فكان عن أقسام المنطق فأعاد تعريفه باعتباره فن الحديث،

وجمع بين المنطق والأدب والخطابة في طريقة اقناع فنية واحدة. إضافة إلى هذا فقد أثار قضايا أخرى مثل قوله: «إن عدم التصديق بداية المعرفة» وكذلك عرف اللاهوت بأن أحال الدين إلى أخلاق. إضافة إلى طرق راموس المثيرة للغيظ، وكبرياؤه ومشاكسته، وأسلوبه الجدلي الطبيعي، وترفعه القاطع عن القطع بالعقيدة.

تدريب (5)

كان أرسطو يرى أن الحركة الطبيعية تنقسم إلى حركة هابطة كحركة الأرض والماء. وحركة صاعدة كحركة الهواء والنار. أما جاليليو فكان يرى أن الحركة الطبيعية تكون واحدة هابطة فقط بمعنى أن كل جسم عند جاليليو له وزن، وبناء عليه فهو يتجه طبيعياً بحكم وزنه إلى مركز الأرض.

تدريب (6)

(أ) أ- كتاب: دفاع عن الحماقة.

ب- كتاب: الأمثال

ج- كتاب: دليل الجندي المسيحي.

د- كتاب: محاورات مألوفة

(ب) أ- ظلال المثل أو ظلال الأفكار.

ب- أغنية كيركية.

ج- تفسير الأختام الثلاثين.

د- خاتم الأختام

هـ- في العلة والمبدأ والواحد.

و- الكون اللانهائي.

ز- طرد الوحش المنتصر.

ح- الجنون البطولي.

ط- سحر براق الشعر

ي- تصوير الفيزيقا لأرسطو.

ك- محاورات: «فابريتزيو موردانتي»، و«الأبله متنصرا» و«تفسير الأحلام».

ل- عشاء أربعاء الرماد.

م- مائة وعشرون وصية للرد على المشائين.

ن- فلسفة ريموند لولي، تقدم المنطق، الفيزقا لارسطو، صناعة الخطابة، اللامعدود واللامحدود، في السحر، حلقات السلسلة، التماثيل الثلاثون. وكتاب: «الرد على الرياضيين، وكتاب: «في تركيب الخيال والاشارات والأفكار».

تدريب (7)

يرى أن اقامة المستعمرات في البلاد المفتوحة من دعائم تثبيت الدولة الفاتحة. وهي لا تؤدي الا إلى الحاق الضرر بمن تصادر أملاكهم أو دورهم في رأيه وهم قلة قليلة من المقهورين. أما إقامة القوات المسلحة بدلاً من المستعمرات فهو أمر يؤدي إلى استنزاف كل موارد الدولة المفتوحة، وسيثير غضباً أشد لأنه سيؤذي كل من في الدولة المفتوحة. فمن وجهة نظره أن قوات الاحتلال لا جدوى منها في حين أن المستعمرات مجدية.

- **دير** Cloister: المبنى المعد لسكن الراهبات أو الرهبان الذين كرسوا حياتهم لخدمة الدين.

- **ديناميكا** Dynamics: أحد فروع علم الفيزياء، يبحث في تأثير القوى على الأجسام المتحركة والقوانين التي تحدد العلاقة بينهما.

- **الذكريات الافلاطونية** Platonism: عملية استحضار عقل الانسان لذكرياته الموغلة في القدم. . وذكرياته عن وجوده الأول قبل ميلاده حين كان عقل الانسان أو روحه جزءا من عقل الله أو روحه لا في كماله النوراني الأول؛ أي قبل أن يخامره النسيان بسقوطه في خلال المادة.

- **قانون القصور الذاتي** The law of inertia: ينص على أن كل جسم ساكن يبقى ساكناً ما لم تؤثر عليه قوة تغير من حالة سكونه تلك، وأن أي جسم متحرك يبقى متحركاً ما لم تؤثر عليه قوة تغير من حالة حركته تلك.

- **قربان** Sacrifice: تعبدا في الدين، يقتضي بالتقرب إلى الله بالتضحية بشيء ما تكفيراً عن معصية أو تقصيراً في شعيرة ما أو اظهاراً لبهجة أو مغونة لمحتاج.

- **كاردينال** Cardinal: عضو أعلى هيئة في الكنيسة الكاثوليكية، ويلي في المرتبة البابا مباشرة. ويساعد الكرادلة البابا في ادارة الكنيسة وهم بمثابة مجلس استشاري له وهم الذين يختارون البابا.

- **المشاؤون** Peripatetic: تلامذة أرسطو، سموا بذلك لأن أرسطو كان يُعلم وهو يمشي.

- **ميتافيزيقا** Metaphysics: فرع من الفلسفة، يبحث عن الحقيقية الأولية للوجود، سماها أرسطو: الفلسفة الأولى، وسميت ما بعد الطبيعة.

- **الوزن النوعي** Specific Weight: عدد يمثل النسبة بين كتلة أو وزن حجم معين من المادة، ووزن نفس الحجم من الماء.



13. المراجع

أ- المراجع العربية:

1- عبدالله العمر، ظاهرة العلم الحديث، الكويت، 1983م.

2- كرين برنيتون، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، الكويت، 1984م.

3- الموسوعة العربية الميسرة، باشراف محمد شفيق غربال، ج2، دار احياء التراث العربي، القاهرة، 1965م.

4- لويس عوض، ثورة الفكر في عصر النهضة الاوروبية، ط1، القاهرة، 1407هـ/ 1987م.

5- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة د. عبدالحميد يونس، ج42 ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت.

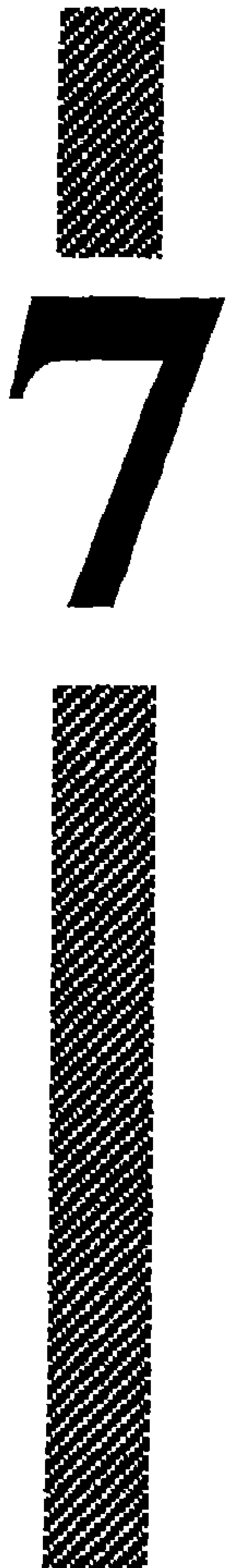
ب- المراجع الأجنبية:

1- Baron, H., The Crisis of the Early Renaissance 2vol., Princeton, 1955. Erasmus-Luther, Discourse on free will, Trans, New York, 1961.

2- E. Cassirer, et al. (eds), The Renaissance Philosophy of Man, Chicago, 1956.

3- Erasmus-Luther, Discourse on free will, Traus, New York, 1961.

4- Heller, Agnes, Renaissance Man, London, 1987.



الوحدة السابعة

الحضـــارة الحديثـــة

محتويات الوحدة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

أهلاً بك، عزيزي الدارس، في الوحـدة السابعة والأخيرة مـن تاريخ الحضارات البشرية ومنجزاتها. تدرس في هذه الوحـدة التطورات الكبرى التي ظهرت على الساحة البشرية بما أحرز الغرب من تقـدم علمي وتكنولوجي هائل وجه به التاريخ الانساني منذ القرن السابع عشر في دروب جديدة ونحو مستقبل فريد، وهي تعرض للأهداف الحديثة للعلم ولتـقدم المنهج التجـريبي والتقنيـات ولآثار ذلك كله على الروح الانسـانية وعلى مستقبل الانسان. آمل أن تكون قد استـوعبت ما مرّ بك في الوحدات السابقة وأتمنى أن تستوعب ما في هذه الوحدة من أفكار.

2.1 أهداف الوحدة

ينتظر منك، عزيزي الدارس، وبعـد دراسة هذه الوحدة وتتابع مادتهـا وتدريباتها وأنشطتها أن تكون قادراً على أن:

1- تطلع على التطورات العلمية الكبرى التي وجـهت العالم الغربي الحديث منذ نهاية عصر النهـضة وتتبيّن الدرب الجديدة التي سار فيهـا العقل البشري من أجل بناء عالم جديد، تتّحد أهدافه في طموحـات العالم التجريبي وتطبيقاته التكنولوجية.

2- أن يكون لـديك نظر تحليـلي واع للآثار المتـرتّبـة على مـسـارات الـعلم والتكنولوجـيا الجـديدة في حيـاة الانسان المادية والروحـية، وفي مسـتـقبل الانسان.

3- أن تحصل عـلى وعي مقـارن بالأوضاع الراهنة للعـالم العربي ولعـالم العلم والتكنولوجـيـا المتـقدم، وأن تكون قـادراً على إثارة أفكار إبداعـيـة تفي - بالغرض- لأن توجه مشاريع المستقبل العربي وتستشرف آفاقه الممكنة.

3.1 أقسام الوحدة

تدور هذه الوحدة على الأقسام التالية:

1- المفهوم الجديد للعلم: فرنسيس بيكون، ديكارت.

2- تقدم الفكر التجريبي: جون لوك، ديفيد هيوم، نيوتن.

3- الاهتمامات الجديدة للروح الانسانية وعصر التنوير، الحركة العقلية الدينية، مفاهيم التقدم والحرية والمساواة، والطبيعة الانسانية، والتاريخ.

4- الثورة الفرنسية وفلاسفتها.

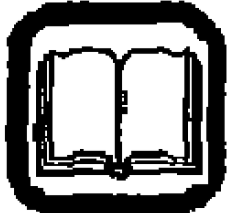
5- عصر الايديولوجيا: هيجل، ماركس، اوغست كونت.

6- فلسفات الحضارة المعاصرة: توينبي، شبنغلر، البرت شفايتزر، ارنست كاسيرر، بردیانیف، ماركوز.

7- مستقبل الحضارة.

8- نصوص مختارة من: ديكارت، روسو، كانت، شبنغلر، توينبي، هبرماس.

4.1 القراءات المساعدة



عزيزي الدارس، حاول الانتفاع ما أمكن بالقراءات التالية نظراً لاتصالها القوي المباشر بموضوع هذه الوحدة، ولا شك أن انتفاعك بها سيعمق فهمك واستيعابك للموضوع، ويوسّع مداركك فيه:

1- البرت شفايتزر، فلسفة الحضارة، ترجمة عبدالرحمن بدوي، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

2- جون هارمان راندال، تكون العقل الحديث، ج2، ترجمة: جون طعمة، بيروت، دار الثقافة، 1966م.

3- شبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني، ج3، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1964م.

4- Karl Jaspers, Man in the Modern - Ages.

5- J. Ferkiss, The Future of Technologyical Civilization.

5.1 ما تحتاج إليه في دراسة الوحدة

عزيزي الدارس، هيئ لنفسك جواً هادئاً ومريحاً. اقرأ قراءة الناقد المتبصّر بما يقرأ. وعليك أن تقرأ التدريبات والأنشطة وأسئلة التقويم الذاتي بعناية، وأن تحلّ مسائلها.

أتمنى لك أن تستمتع بما تقرأ. وفقك الله.

2. المفهوم الجديد للعلم

عزيزي الدارس، كان العلماء والمفكرون الغربيون في العصور الوسطى، يقيّدون أنفسهم بمبادئ وآراء ارسطوطاليس، ويتّبعون طرقاً في البحث والدرس عتيقة بالية تكبّل التفكير الحر وتقضي على كل محاولة في الابتكار والاختراع.

وحينما سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين 1453م هاجر فريق من العلماء البيزنطيين إلى ايطاليا وإلى ما جاورها من البلاد الاوروبية وأخذوا ينشرون علوم اليونان والرومان وأدبهم الرفيع وطرق تفكيرهم ومبادئ ثقافتهم، فتزلزلت العقيدة في صحة ما كان قد نقل إلى الغربيين من علماء اليونان والرومان وأدبائهم وفلاسفتهم. وتضاعف ذلك الشك حيث اخترعت الطباعة وتمكن العلماء من قراءة الكتب القديمة بلغاتها الأصلية، إذ لاحظوا أن كثيراً من المبادئ والآراء - التي كانت شائعة بينهم كحقائق ثابتة قالها حكماء اليونان وعلماؤهم قد شُوّهَتْ حين تَمّ نقلها إلى اللاتينية وفقدت الشيء الكثير من جمالها وصحتها.

لذلك كله رأى العلماء وسائر المفكرين أن يعيدوا النظر في التراث الثقافي القديم كله، على أن يتّبعوا في تلك الإعادة طريقة الدرس والتمحيص، تعزّزها الاختبارات والتجارب العلمية.

وفي فجر القرن السادس عشر ظهر في بولندا الكاهن كوبرنيكس وهو الذي قرّر بأن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، كما كان يدّعي العالم اليوناني بطليموس. ومنذ ذلك التاريخ تَمسّكَ العلماء وأشتدّ أزرهم بنظريتهم القائلة بوجوب الالتجاء إلى التجربة والاختبار حين الدرس والبحث العلمي.

تعلم عـزيزي الدارس، أنه قـد ازدهر من العلوم: الرياضـيـات، والطبـيـعيـات والفلك، وبرع في ذلك علمـاء عالميـون منهـم، ديكارت وبسكال الفرنسـيان وجالـيليو وتوريشبللي الايطاليـان، وكبلر وليبتر الالمانيان وبيـكون ونيوتن الانكليزيان وهويجنس الهولندي وهؤلاء كلهم ظهروا وبرزوا خلال القرن السابع عشر.

1.2 فرنسيس بيكون 1561-1621م

ظهر بيكون أيام جيمس الأول 1603-1614م ملك بريطانيا وتقلد مناصب عدة في الدولة آنذاك: فقـد عُيّنَ عام 1607م مساعـدا للنائب العام. وفي عام 1613م نائباً عامـاً، وفي عام 1616م عـضوا في مـجلس شورى الملك، وفي عـام 1617م حامـلا للاختام. وفي عام 1618م قاضـياً للقضاة. وخلعت علـيه ألقاب كريمة جـديدة لتزيين مواهبه وقدراته. وعندما غادر جيمـس انجلترا إلى اسكتلندا تركه يحكم البلاد، واستقبل بيكون السفراء. (انظر ول ديورانت، ج28، ص256)

أحب بيكون الفلسفة، وكـان يصبو إلى أن يحدث تنظيماً وفكراً جـديداً في حياة الانسان. فقـد كتب إلى كازويون: (عالم لاهـوتي وكاتب فرنسي معـاصر له): «إن ما أهدف اليـه هو أن أحدث تنظيـماً أفـضل لحيـاة الانسـان... بفضل التـأمل الصحـيح الصادق». وقد وضع خطـة لتجديد العلم والفلسفـة في اللغة اللاتينية في كتـاب وجّهه إلى كل اوروبا أسماه (التجديد الكبير). وكانت صـحيفة العنوان نفسها تحدياً: ذلك أنه قد رسم عليها قارب يعبر بأقصى سرعة أعمدة هرقل إلى الأطلسي، ووضع بين الأعمدة أحد شـعارات العصـور الوسطى: «لا تذهب إلى أبعد من ذلك»، وكـتب بيكون: «إن كثيـرين سوف يمرون عبره، ولسوف تزداد المعـرفة والعلم». وأضاف في مقدمـته قائلاً: «إن فرانسيس نيـرولام (بيكون)، قد تدبر هذا بينه وبين نفسه، وحكـم بأنه من مصلحة الأجيال الحـاضرة والمستقبلية أن تتـعرّف على أفكاره». (انظر ول ديورانت، ج28، ص 258)

عزيزي الدارس، ولما وجـد بيكون أن ما يجري في مـجال العلم الآن، ليس الا مجرد دوران حوله، وحركة دائبة تنتهي إلى حيث تبدأ، خلص إلى القول، أنه:

«ليس ثمة الا سبيل واحد أمامنا ... وهو أن تحاول الأمر من جديد، وفق خطة أفضل، وأن نشرع في أن نقـيم من جديد، إقامة تامة، صـرح العلوم والفنون العلمية، وكل المعرفة الانسانية، على أسـاس سليم، ... وفضلا عن ذلك فإنه لما لم يكن يعلم

كم من الزمن قد ينقضي قبل أن تسير هذه الأفكار لأحد غيره . . . فإنه عقد العزم على أن ينشر على الفور كل ما يستطيع إنجازه، حتى يبقى في حال وفاته، موجزاً أو خطة لما كان قد فكر به، إن كل المطامح بدت لناظريه هزيلة ضئيلة إذا قورنت بالعمل الذي هو بصدده. (انظر ول ديورانت، ج28، 259)

وجعل بيكون إهداء هذا المشروع إلى «جيمس الأول» ولعله أراد من هذا الاهداء الحصول على الدعم لهذا المشروع والملاحظ، عزيزي الدارس، أن بيكون، وفي مقدمة أخرى، طلب من القاريء أن يلقي نظرة على العلم السائد المليء بالاخطاء وذلك لأن:

«العباقرة العظام، على تعاقب العصور، كانوا يرغمون على الانحراف عن طريقهم، إن الرجال ذوي القدرة والفكر، فوق مستوى السوقة، كان يسرهم، من أجل الشهرة أن ينحنوا أمام حكم الزمن والجماهير، وهكذا فإن أي تفكير من مستوى رفيع ظهر في أي مكان، كانت تعصف به رياح الأفكار السوقية». (انظر ول ديورانت، ج28، ص259/260)

ومن أجل أن يُهدئ بيكون من روع رجال الدين حذر قُرّاءَه من أن: «يقصروا معنى ما يضطلع به في حدود الواجب، فيما يتعلق بالمسائل الالهية أو الدينية وتنصّل من أي قصد له في التعرض للعقائد أو الشؤون الدينية وقال: «إن المهمة التي بين يديّ ليست رأياً يجب اعتناقه، بل هي عمل يجب القيام به».

ولعلك، عزيزي الدارس، تود السؤال عن خطة مشروع بيكون، وإرضاءً لك أبيّنها فيما يلي:

أولاً: يحاول فيها تصنيفاً جديداً للعلوم القائمة أو المرغوب فيها، ويقرر لها مسائلها ومجالات البحث فيها وهذا هو ما أنجزه في «النهوض بالمعرفة» الذي ترجمه ووسع فيه، في كتاب (التوسع في العلوم، 1623م) حتى يصل إلى القراءة.

ثانياً: يمكن أن تتلَخّص مواطن الضعف في المنطق المعاصر والسّعيِ إلى «استغلالٍ أدق وأكمل للعقل البشري، مما صاغه أرسطو في رسائله المنطقية، المعروفة في جملتها باسم Organon، وهذا ما فعله بيكون في كتاب Novum Organum عام 1620م.

ثالثاً: يمكن أن يشرع في «تاريخ طبيعي» لظواهر الكون»: الفلك، الفيزياء، البيولوجيا.

رابعاً: يمكن أن يعرض في «سلم الفكر» نماذج من التحقيق العلمي، طبقاً لطريقته الجديدة.

خامساً: يمكن أن يصف مثل هذه الأشياء بوصفها بشائر: «كما كشفتها أنا بنفسي».

سادساً: يمكن أن يشرع في تفسير تلك الفلسفة التي تعرضها في مختلف العلوم، على هذا النحو، ومن ثَم يجب إيقافها وإثبات صحتها.

وتستطيع، عزيزي الدارس، أن تدرك مدى اتساع مجال العقل ووحدة الذهن عند بيكون، إذا تتبّعته في كتابه: «النهوض بالمعرفة» إذ أنه يعرض أفكاره في تواضع غير مألوف، ويدعو إلى مضاعفة عدد الكليات والمكتبات والمعامل وحدائق الأحياء والمتاحف العلمية والصناعية، وتدعيمها جميعاً، كما يدعو إلى تحسين رواتب المعلمين والباحثين، وتخصيص اعتمادات أكبر لتمويل التجارب العلمية، وإلى اتصال متبادل وتعاون أوثق وخطة أفضل لتوزيع العمل بين جامعات أوروبا. انه، في تقديسه أو عبادته للعلم، لم يفتقد رؤيته الصحيحة للأشياء أو وجهة النظر السليمة؛ فهو يدعو إلى تعليم عام متحرك، يشمل الأدب والفلسفة، لأنه يهيء الوصول إلى الحكم السليم على الغايات التي تقترن بتحسين الرسائل على أساس علمي. وهو يحاول أن يصنف العلوم في ترتيب منطقي - ويحدد مجالاتها وحدودها، ويوجه كلاً منها إلى امهات المسائل التي تنتظر الفحص والحلّ وتحقق كثيراً من مطالبه عن طريق العلوم - تسجيل أفضل لتطورات المرض عند المريض، وإطالة الحياة باستعمال الأدوية الواقية، الفحص الدقيق للظواهر الفلسفية» والنهوض بعلم النفس الاجتماعي».

أما القسم الثاني والأكثر جُرأةً من (التجديد الكبير) فكان محاولة لصياغة منهج للعلم. فقد أحسّ بيكون أن (المنهج القديم Organon) قد أبقى العلم راكداً، بتوكيده على الفكر النظري، أكثر منه على الملاحظة الواقعية. أما (المنهج الجديد) فقد عرض فيه بيكون نظاماً وأسلوباً جديدين للفكر والدراسة الاستقرائية للطبيعة ذاتها، عن طريق الخبرة والتجربة، وهذا الكتاب أيضاً، ولو أن بيكون تركه دون أن يكمله، وعلى الرغم من كل عيوبه، هو أروع انتاج في الفلسفة الانجليزية، وأول دعوة صريحة واضحة إلى

عصر العقل، ولقد كُتب باللاتينية، ولكن في عبارات مشرقة بليغة. فالسطور الأولى منه جمعت أطراف فلسفة . . . تعلن الثورة الاستقرائية، وتنذر بالثورة الصناعية، وتضع مفاتيح التجربة في يد «هوبزلوك» و«مل» و«سبنسر».

إن الانسان بوصفه خادم الطبيعة، ومفسرها، يمكن أن يعمل ويفهم الكثير، والكثير حقاً من مجرى الطبيعة، ما دام قد لاحظ الطبيعة واقعياً. أو بفكره . . . أما ما وراء هذا فهو لا يستطيع أن يدرك شيئا أو يعمل شيئا. ان المعرفة الانسانية. والقدرة البشرية تلتقيان في الانسان الواحد، وحيثما لا يعرف مجرى الطبيعة، لا يمكن انتاج الأثر المطلوب. ولكي تسيطر على الطبيعة ينبغي أن تمتثل لها». (انظر ول ديورانت، ج28، ص262)

عزيزي الدارس، لقد طلب بيكون تنقية الفكر كخطوة أولى في التجديد، ذلك: «أن المعرفة الانسانية ما هي الا خليط مكوّن من كثير من السذاجة وسرعة التصديق، وكثير من المصادفات والأعراض غير الجوهرية. ولذا فمن الجديد أن تخلو الأذواق، منذ البداية، من أية انشغالات سابقة وتحيّزات وافتراضات، ويصف بيكون العلم الحديث بقوله:

إن المنهج الصحيح للاختبار، يشعل النور أولاً «بالافتراض»، ثم بوساطة هذا الضوء ينير الطريق، بادئا بالاختبار بالترتيب ترتيباً سليماً، ومنه يستنتج بدهيّات «الثمار الاولى»، ومن البَدَهيات الراسخة تبدأ ثانية تجارب جديدة . . . إن التجربة منها هي التي ستقرر وتحكم». (انظر ول ديورانت، ج28، ص263)

عزيزي الدارس، لقد كان بيكون على حذر من الفرضيات، حيث كانت في أغلب الأحيان توحي بها التقاليد أو التحيّز أو الرغبة. فكان يرتاب في أي نهج تقليدي تُصطفى الفرضية فيه. سواء عن قصد أو عن غير قصد. وتجنّباً للوقوع في هذا الشرك، اقترح بيكون استقراء شاقاً، بتجميع كل الحقائق الوثيقة الصلة بالمسألة، وتحليل هذه الحقائق ومقارنتها وتصنيفها، وربطها بعضها ببعض، ثم بعملية صحيحة من الاستبعاد والنبذ، أي التخلّص من فرضية بعد أخرى، على التعاقب، حتى يمكن الكشف عن الصيغة أو القانون الأساس الضمني وجوهر الظاهرة. إن معرفة الصيغة، سوف يهيء حكما متزايداً في الحدث، فيعيد العلم بالتدريج صنع البيئة، بل من المحتمل صنع الانسان نفسه.

لقد أحَسّ بيكون بأن منهج العلم سوف يطبق على التحليل البالغ الدقة للشخصية الانسانية، والتصميم على إعادة تشكيلها، ويحث بيكون على دراسة الغرائز والعواطف، وهذه وتلك وثيقة الصلة بالذهن. ولكن هنا وبصفة خاصة لا يكون الخطأ في مجرد التماس المعرفة، بل في نقلها، ويمكن إعادة صنع الانسان عن طريق التعليم المستنير ويمكن القول - عزيزي الدارس - أن بيكون كان يستنكر الملخصات، ويحبذ التمثيل في الكليات، ويدعو إلى مزيد من العلم في البرامج ويقول: «إني أراهن بكل شيء في سبيل نصرة الفن على الطبيعة في سباقهما». (انظر ول ديورانت، ج28، ص264)

2.2 رينيه ديكارت 1596-1650م

ولد في فرنسا عام 1596م وكان عليلا في طفولته. ولعله سمي بـ رينيه «وهي لفظة مشتقة من أصل لاتيني بمعنى ولد من جديد». التحق ديكارت في سن الثامنة بكلية (لافيش) اليسوعية. وفي سن السابعة عشرة قصد إلى باريس. ثم التحق بجامعة «بواتييه» حيث حصل منها على درجات علمية في القانون المدني والقانون الكنسي. ثم انخرط في جيش الأمير «موريس ناسو» عام 1618م. ولما نشبت حرب الثلاثين عاماً انضم إلى قوات أمير بافاريا. وأثناء ذلك صاغ ديكارت الهندسة التحليلية، وتصور فكرة تطبيق المنهج الرياضي في الفلسفة. (انظر ول ديورانت، ج3، ص 322/321)

وفي عام 1622م رجع ديكارت إلى فرنسا، ثم استأنف جولاته فقضى قرابة سنة في ايطاليا. ثم غادر إلى هولندا حيث قضى بقية أيام حياته. ويبدو أنه ترك فرنسا لأنه خشي أن يتهم بالهرطقة بعدما أفصح عما لديه من أسباب للشك في أشياء كثيرة.

لقد بذل ديكارت جهداً جباراً لتحقيق هدفه، فقد الزم نفسه بدراسة الرياضيات والفيزياء والفلك والتشريح والفسيولوجيا، وعلم النفس، والميتافيزيقيا، ونظرية المعرفة، والأخلاق، واللاهوت. ومن ثم، طمع في العزلة والاحتجاب عن الأنظار، وأجرى التجارب والمعادلات والرسوم البيانية، وحاول أن يهيء لفلسفته منهجاً رياضياً ولحياته منهجاً فلسفياً.

والآن تعال بنا عزيزي الدارس لترى المفهوم الجديد للعلم عند ديكارت.

لقد أعلن ديكارت في كتابه «مقال في المنهج» عن أول مبدأ، كان يمكن في حد ذاته أن يقيم عليه الدنيا ويقعدها ويثير عليه غضب اولي الأمر. فقد قال: انه كان سعيداً ينبذ كل النظريات والمباديء والتعاليم، ويطرح كل جهد ومرجع، وبوجه خاص

الفيلسوف أرسطو، وسيبدأ بصفحة جديدة خالية من أي شيء، ويشك في كل شيء... ولقد تسأل - عزيزي الدارس - وكيف تأتّى لديكارت أن يمضي في فلسفته وهو يشك في كل شي؟ غير أنه ولما كان مولعا بالرياضيات، وفوق كل شيء بالهندسة التي دأبت عبقريته على تحويلها، فقد تاقت نفسه، بعد ابتدائه بالشك الشامل إلى العثور على حقيقة يمكن التسليم بها على الفور بصفة عامة، مثل بَدَهيّات إقليدس - فهو يقول: «إن ارشميدس، لكي يتيسّر له أن يزحزح الكرة الأرضية عن مكانها وينقلها إلى مكان آخر، تطلب أن تكون هناك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك، وأنا بالمثل سيكون لي الحق في أن استبشر خيراً كثيراً إذا أسعدني الحظ، فأضع يدي على شيء واحد مؤكد لا نزاع فيه».

لقد أكد ديكارت على هذه النقطة بقوله:

«أنا أفكر، إذن أنا موجود» وهذه أشهر عبارة في الفلسفة ولعلّه لم يقصد بها، أن تكون قياساً منطقياً، بل خبرة مباشرة لا سبيل لإنكارها، وهي أوضح وأجلى فكرةٍ يمكن أن نحصل عليها، وتكون سائر الأفكار صحيحة على قدر اقترابها من حيث الجلاء والوضوح. (انظر ول ديورانت، ج30، ص324)

عزيزي الدارس، كان منهج ديكارت الجديد في الفلسفة هو أن يحلّل الأفكار المركبة إلى مكوناتها، حتى تصبح العناصر غير القابلة للاختزال أفكاراً بسيطة واضحة جلية. ويبيّن أن مثل هذه الأفكار كلها يمكن أن تشتق من أو تعتمد على الشعور الأول لكائنٍ يفكر. إننا على العكس، يجدر بنا أن نحاول أن نستنتج من هذا الإدراك الحسي الأول كل المبادئ الأساسية في الفلسفة.

لقد كانت ثورة في الفلسفة، حين اتخذ ديكارت نقطة البداية. لقد اكتشفت فلسفة النهضة: «الفرد»، ولكن ديكارت جعل منه همزة الوصل في فلسفته. يقول: «إني لأرى بوضوح أنه ليس ثمة شيء أيسر عليّ أن أعرفه من عقلي أنا» (انظر ول ديورانت، ج30، ص325). ويقول: «وإذا بدأنا بالمادة، وسرنا قدما عبر مستويات الحياة العضوية إلى الإنسان، فإن الاتصال أو الترابط المنطقي قد يغرينا بتفسير العقل بأنه مادي، ولكننا لا ندرك المادة إلا عن طريق العقل وحده، والعقل فقط هو الذي يمكن معرفته أو إدراكه مباشرة «دون واسطة». وهنا تبدأ المثالية، لا بمعناها الأخلاقي. بل على أنها فلسفة تبدأ بالحقيقة المباشرة للأفكار، أكثر مما تبدأ بالأشياء والتي تعرف عن طريق الأفكار. وليس ثمة تحقيق يمكن اقتراحه أجدى من تحقيقٍ يحاول تحديد طبيعة المعرفة الانسانية ومداها.

لقد وجد ديكارت أنه من العسير الانتقال من العقل إلى الأشياء، فكيف يتسنّى للعقل أن يدرك أن الأحاسيس التي يبدو أنها تدلل على عالم خارجي ليست شيئا أكثر من حالاته هو «أي العقل»، وكيف يصدّق الحواس التي غالباً ما تخدعنا وتضللنا، أو الصور العقلية التي تكون مشرقة عندما تكون «زائفة» في النوم، قدر إشراقها عندما تكون «حقيقة» في اليقظة؟

وهرباً من سجن النفس «الأنانية» لجأ ديكارت إلى «الله سبحانه» الذي لا يمكن بالقطع أن يجعل من كل حواسنا مجرد خدعة. ولكن متى يدخل «الله سبحانه» في هذا المنهج الذي بدأ في جرأة بالشك في المعتقدات والمبادئ التي تلقاها الإنسان؟

إن ديكارت لم يستطع إثبات «وجود الله سبحانه» من شواهد بديع صنعه في العالم الخارجي، ولأنه لم يوضح بعد وجود هذا العالم الخارجي. ولذلك أخرج ديكارت «الله سبحانه» من «النفس المدركة». وهو يقول: «إن لديّ تصوراً لكائن كامل مثالي قدير عليم، ضروري، خالد، ولكن هذا الذي يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذي لم يوجد، وعلى ذلك فإن الكائن الكامل المثالي يجب أن يكون الوجود من بين صفاته. ومَن الذي يستطيع أن يبث بي هذه الفكرة، الا الله سبحانه وتعالى؟ «ومن المستحيل أن أحمل في نفسي فكرة (الله) سبحانه، إذا لم يكن (الله) سبحانه موجوداً حقاً. وإذا كان (الله) سبحانه يريد أن يخدعنا فلن يكون كاملاً.

ومَن ثم فإنه لا يضلّلنا عندما تكون لدينا أفكار واضحة جليلة، ولا حين يُتيح لحواسنا أن تكشف لنا عن عالم خارجي. «لست أدري كيف يمكن الدفاع عنه سبحانه وتعالى أو تبرئته من تهمة الخداع والتضليل إذا كانت هذه الأفكار ناتجة عن أسباب غير متعلقة بأشياء جسدية مادية. ومن ثم يجب أن نقرّ بأن الأشياء الجسدية المادية موجودة. ومن ثم تفسر بشكل رائع الهوة بين العقل والمادة، بين الذات والموضوع ويصبح ديكارت بعون من (الله)، واقعياً، والعلم نفسه يصبح أمراً ممكناً، لا لشيء إلا لأن (الله) سبحانه موجود وحاشا لله أن يكذب. (انظر ول ديورانت، ج30، ص326)

وإنا إذ نتتبع عزيزي الدارس، ديكارت لنشهد «عصر العقل» في طفولته يتراجع فزعاً من مغامرات الفكر، محاولاً الولوج ثانية إلى حظيرة الايمان الدافئة، ورغبة في بث الطمأنينة من جديد أطلق على «التأملات»: تأملات رينيه ديكارت في فلسفة اولى، أبرز فيها وجود (الله) سبحانه وخلود النفس، وأهدى الكتاب إلى «الحكيم الألمعي عميد كلية اللاهوت المقدسة في باريس، أي «السوربون»، وتقبل العميد الهدية، ولكن في

عام 1662م أدرج الكتاب في قائمة الكتب المحظورة، حتى يتم تصحيحه». وبدأ الكتاب على نفس النسق الجريء الذي بدأت به «المقالات» اليوم... ويقول... وقد هيأت لنفسي انقطاعاً أكيداً لرياضة روحية هادفة، فلسوف أنكبُّ أخيراً، انكباباً منقطعاً جاداً على استعراضٍ عام لكل آرائي السابقة».

لقد ألقى ديكارت بها جميعا من النافذة، ثم أجاز لها الدخول من الباب، ولم يكن من بين هذه الآراء، ايمانه بإلهٍ عادل قريب فحسب، بل كذلك ايمانه بارادة انسانية حرة وسط آلية «ميكانيكية» كونيّة، ونفسٍ بانية غير فانية على الرغم من اعتمادها الواضح على جسدٍ فإن. ومهما سلّمنا بمنطق العلاقة الوثيقة التي لا تنفصم عراها بين السبب والنتيجة في عالم المادة والجسد، فإن حرية ارادتنا فكرة من إحدى الأفكار الفطرية المتأصّلة الواضحة الجليّة، الحية المباشرة إلى حد أنه لا يمكن أن يشك فيها أحد قط، مهما حاول كثيراً أن يتلاعب بها «أي الأفكار» في النظرة المجردة.

إن فكرة (الله) سبحانه، وفكرة النفس، وفكرة المكان والزمان، وفكرة الحركة، والبدهيات الرياضية كلها أفكار فطرية متأصلة بمعنى أن النفس لا تستمدها من الإحساس والخبرة، بل من جوهرها وعقلانيتها. وقد تظل هذه الأفكار لا واعية حتى تخرجها الخبرة في صورة واعية، والنفس حينئذ لا تكون نتاجاً للخبرة، بل شريكها النشيط المبدع في انتاج الفكر.

إن هذه النفس العقلانية والقدرة على التعقل، من الواضح أنها ليست مادية، وليس لأفكارها طول ولا عرض، ولا موقع ولا وزن، ولا أية خاصية أخرى من خواص المادة. ويقول: «إني أنا، أي النفس التي أنابها كما أنا عليه الآن، هي أساساً متميزة عن الجسد، بل حتى من الأيسر أن تعرفها ما تعرفه». وعلى هذا فان هذا العقل أو النفس غير المادية يمكن أن تبقى بعد الجسد، ولا بد أنها تبقى.

والآن عزيزي الدارس: هل كانت تلك النتائج التي انتهى اليها ديكارت صادقة مخلصة، أو أنه أضفى عليها لوناً وقائياً؟ هل كان ديكارت توّاقاً إلى متابعة دراسته العليا في هدوء وسلام بعيداً عن الاضطهاد والتعذيب إلى حد أنه كان ينفث الميتافيزيقا مثل غشاوة مربكة تحول دون انقضاض الطيور الجارحة عليه؟. لسنا نملك الجزم بشيء في هذا الصدد، وقد يتسنّى لامريءٍ أن يكون عالماً فاضلاً على الأقل في الفيزياء، والكيمياء، والفلك، إن لم يكن في البيولوجيا، وفي نفس الوقت يتقبّل التعاليم الأساسيه في المسيحية. وفي إحدى مقالاته، أكد ديكارت أن العقل لا يحول دون تصديق أشياء نزل بها الوحي الإلهي، على أنها أكثر يقينية من أرسخ معرفتنا وأجدرها بالثقة.

تفرغ ديكارت في العقد الأخير من حياته للعلم، وحوّل داره إلى معمل، وأجرى تجارب في الفيزياء ووظائف الأعضاء. وكـان في بعض الأحيان يتحدث مثل بيكون عن الفوائد العلمية الهائلة التي يجنيهـا الجنس البشري، حين يستطيع العلم أن يجعل الناس سادة الطبيعة والمسيطرين عليها. وكثـيراً ما أدى توكيده الذاتي على الاستنباط وثقته به، إلى نتائج غامضة، غير أنه اشتغل شـغلاً خلاقاً بعدة علوم، وألحّ على أن يستبدل العلم بالأفكار التجريدية النوعيـة الغامضة التي سادت علم الفيزياء في العـصور الوسطى كما أنه طوّر الهندسـة التحليلية وأشـار إلى حسـاب التفاضل والتكامل اللانـهائي (انظر ول ديورانت، ج30، ص 328). وحل مشاكل تضعيف المكعب وتثليث الزاوية وابتدع فكرة استخدام الحروف الأخيـرة لتمثيل الكميات المجهولة. ويبدو أنه اكـتشفت قانون انكسار الضوء، كمـا حالفه التوفيق في دراسة القـوى العظمى التي تحدثها وسائل صغـيرة مثل البكَرة، والاسفين، والرافعة، والملزمة، والعجلة، وصاغ قوانين القصور الذاتي والتصادم وكمية التحرك، وأشار إلى أن كل جسم محيط بدوامات من جسيمات دقيقة تدور حوله - في طبقات كروية - وهي فكرة تشبه نظريـة المجال المغناطيسي الحالية. وحسب زاوية الانكسار في الضوء حسابا دقيقاً، وحلّل التغيرات التي يتعرض لها الضوء بفعل العدسة البلورية العين، وحل مشكلة تصـحيح الرابع الكسري في التلسكوب، وصـمّم عدساتٍ ذات نقوش بيضاوية الشكل أو زائدي المقطع، خالية من هذا الزيغ.

وشرّح جنيناً، ووصفه من الوجهة التشـريحية، ويقول بأنه شرح رؤوس حيوانات مختلفـة، ليتحقق في أيها تكون الذاكـرة والتصور وغيرها، وأجـرى تجارب على الفعل اللاارادي أو المنعكس، وشـرح الطريقة (الميكانيكيـة) التي تطرف بها العين عند اقـتراب الضربة أو اللطمة، ووضع نظرية الانفعال شبيـهة بتلك التي وصفها وليم جيمس وكارل لانج: ؟ إن السبب الخارجي للانفعال «قبل وقـوع نظرنا على حيوان خطير» يولد ذاتياً أو آنياً فعلا مستجيباً «الهرب» والاحساس المرتبط به «الخوف». فالانفعال هو إنجاز الفعل لا سببـه. والانفعـالات متأصلة في الفـسيولوجيـا، ويجب دراستهـا وتفسيـرها على أنها عمليات مـيكانيكة، وليست في حد ذاتهـا سيئة لأنها الريح في أشـرعتنا، ولكن إذا لم يلطّف منها العقل ويحد منها، فانها قد تستبعد الانسان وتدمره». (انظر ول ديورانـت، ج30، ص 329)

عرض «ديكارت» فكرة أن الـكون يمكن اعتبـاره كله ميكانيكيـا فيمـا عدا (الله) سبحانه والنفس العقلانية ويقول: "إذا افترضنا أن الله خلق المادة ووهبها الحركة فيمكننا

أن نتصـور أن العالم يـتطور بعد ذلك وفق قـوانين الميكانيكا، دون تدخل. إن الحـركة الطبيعية للجسيمات المادية في كون ليس فيه فراغ، تأخذ شكلا دائريا يؤدي إلى دوامات مختلفة من الحركة. ويمكن أن تكون الشمس والكواكب والنجوم قد تكوّنت بفعل تجمّع هذه الجسيـمات في مركز هذه الدوّامـات، وكما أن كل جسم مُـحاطٌ بدوامة من ذرات دقيقة - وهذا يفسر التماسك والتجاذب - فان كل كوكب كذلك محصور في دوامة من الجسيـمات تحتفظ بتوابعه فـي مداره، والشمس مركز دوامة هائلـة تندفع الكواكب إليها حول الشمس في دوائر. (انظر ول ديورانت، ج 30، ص 330)

ويرى ديكارت أنه لو كـانت معـرفتنا كـاملة ثابتـة لكان بمقدورنا أن نحّـول كل عمليـات الحياة إلى ميكانيكيـة. والسؤال المطروح هو: إذا كان جسم الانسـان آلة مادية فكيف يتسنى للعقل غير المادي أن يعمل فيه، أو يحكمه بقوة غير ميكانيكية مثل الارادة الحرة؟ وهنا يفقد ديكارت ثقـته، فيجيب أن (الله) سبحـانه يرتب تعامل الجسم والعقل بطرق خفية لا يصل اليها إدراكنا المحدود. (انظر ول ديورانت، ج 3، ص 330)

وقد تـسأل، عزيزي الـدارس، عن آراء العلماء المفكرين الآخـرين بآراء ديكارت ونظرياته. وللإجـابة أقول: لقـد دحض "جاسندي" آراء ديكارت، ولم يقـتنع بحـجة ديكارت الوجودية عن وجود (الله) سبحانه). أما "هوبز" فاعترض على أن ديكارت لم يثبت استقلال العقل عن المادة والمخ. وكان (هوبز) يميل إلى القول بأن ديكارت لو قصر نفسـه على الهندسة تماما لأصبـح أعظم علماء الهندسة في العـالم، وأنه لم ينسجم مع الفلاسفة. واتفق هيجنز مع هوبز، وذهبا إلـى أن ديكارت نسج قصة خيالية من عناكب الميتافيزيقيا. (انظر ول ديورانت، ج 30، ص 331)

جاء الهجوم على آراء ديكارت من رجال اللاهوت الـكلفينين في جامعة اوترخت وليدن. حيث اعتبروا دفـاع ديكارت عن الإرادة الحرة هرطقة خطيرة تُسيء إلى (القضاء والقدر)، كـما رأوا في "ميكانيكية الكـون، فكرة تنزلق به إلى حافة الإلحاد، فـاذا كان الكون يستطيع أن يسير لمجرد قوة دافعة يبدأ بها (الله) سبحانه، فما هي الا مسألة وقت حتى ينجز (الله) سبـحانه دفعته الاستهـلاكية هذه. وفي عام 1641م. عندما تبنّى أحد اساتذة اوترخت فلسفة ديـكارت، أعرب رئيس الجامعة، "جسبـرت فوشيوس"، لوُلاةِ الأمور فـي المدينة بإدانة الفلسفـة الجديدة وتحـريمها. فـما كـان من ديكارت الا أن شن هجوما على "فوشيوس"، الذي ردّ عليه ردا عنيفا وعاود ديكارت الكرة، وقارعه الحجة بالحجة، وفي عام 1643م دعا القضاه الفيلسوف للـمثول أمامهم، ولكنه رفض، وصدر

الحكم عليه، فتدخّل اصدقاؤه في لاهاي، فقنع أولو الأمر في المدينة بإصدار قرارٍ يحظر أية مناقشة علنية تأييدا أو تفنيدا لآراء ديكارت.

عزيزي الدارس، كان ديكارت يتردد كثيرا على فرنسا، ثم ذهب إلى السويد بناءً على طلب ملكتها آنذاك ليلقّنها الفلسفة، وفي السويد وافته المنية عام 1650م.

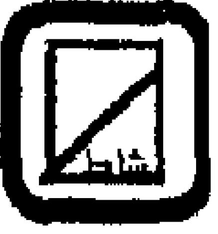
وبعد،

فقد نبذت الجامعات فلسفة ديكارت، واشتم رجال الدين فيها رائحة الهرطقة، غير أن رجال العلم أطروا رياضياته وفيزيائه.

لقد كان اعتماد ديكارت على العقل، مدعاة لايقاظ ذهن اوروبا. فهذا "فونتنل" يقول: "إن ديكارت . . . هو الذي أمدنا بطريقة جديدة للتفكير، تدعو إلى الاعجاب أكثر مما تدعو فلسفته ذاتها، تلك التي يعتريها قدر كبير من الزيف والشك، وفقا للقواعد التي علّمنا إياها هو نفسه". إن شك ديكارت أدى لفرنسا - أو للقارة بصفة عامة، ما أداه بيكون لانجلترا: إنه حرر الفلسفة مِن انحلال الزمن وأطلقها لتبحر في جرأة وشجاعة في بحر مكشوف، حتى ولو أنها ما لبثت أن عادت، عند ديكارت نفسه إلى شاطيء الأمان المألوف، ولسنا نقول بأنه كان ثمة انتصار عاجل أو فوري للعقل، فإن التقاليد والأسفار المقدسة كانت أكثر ثباتا وقوة في أزهى عصور فرنسا، وهو القرن العظيم أي عصر لويس الرابع عشر. (انظر ول ديورانت، ج 30، ص 334)

كان لأعمال ديكارت بعض الأثر على الأدب والفن في فرنسا. إن اسلوبه كان ابتداعا منعشا، وربما عانى الشعر الفرنسي بعض الشيء من ديكارت، فان مزاجه وآلياته (ميكانيكية) لم يتركا للخيال أو الأحاسيس سوى مجالٍ ضيق. لقد أسهم ديكارت في ابتداع طراز جديد في الحياة الفرنسية.

لقد كان أثر "ديكارت" في الفلسفة أعظم من أثر أي مفكر آخر قبل "كانت". لقد أكد ديكارت على الفكر بوضعه الحقيقة المعروفة بطريق مباشر. لقد ألقى ديكارت بشكه العام الشامل على عصر العقل عبئا جديدا، وتشكلت الأخلاق والعادات والسلوك تبعا لتقلّبات العقيدة، وتأثّر الأدب نفسه بالصراع، وكان لآراء الفلاسفة صداها في الشعر آنذاك. وسرعان ما تتضاءل أهمية الثورات والحروب بين الدول المتنافسة إذا قورنت بالصراع السائد المتزايد بين الايمان والعقل الذي أهاج ذهن أوروبا وحوّله، بل وربما ذهن العالم بأسره. (انظر ول ديورانت، ج 30، ص 338)



نشاط (1)

ناقش فكرة الكون الميكانيكي عند ديكارت مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (1)

اشرح نظرية ديكارت في الانفعال.



أسئلة التقويم الذاتي (1)

اشرح خطة بيكون في تجديد العلم والفلسفة؟

3. تقدم الفكر التجريبي

1.3 جون لوك 1632-1704م

وُلِدَ ونشأ وترعرع في انجلترا. وفي اكسفورد درس الفلسفة وعلوما أخرى، وحصل على درجة الماجستير في عام 1658م. عمل لمدة عامين 1673-1675م سكرتيرا لمجلس التجارة والزراعة (المستعمرات). ولما اعتلى "جيمس الثاني" عرش انجلترا لجأ لوك إلى هولندة وذلك عام 1683م. وهناك كتب (بحث في العقل الانساني)، والمسودات الأولي لأبحاثه في التعليم والتسامح الديني. وعندما أعتلى "وليم الثالث" عرش انجلترا عاد لوك اليها، وتقلّد هناك عدة مناصب رسمية.

كان لوك، عزيزي الدارس، قد بلغ السادسة والخمسين من العمر حين عاد من منفاه، ولم يكن قد نشر سوى بعض مقالات قليلة الشأن وخلاصة بالفرنسية "للمقال". ولم يكن يعمل عن اشتغاله بالفلسفة الا نفر قليل من أصدقائه. وما هي الا سنة واحدة حتى رفع إلى المطبعة ثلاثة كتب سمت به إلى مصاف الشّخصيات البارزة الكبرى في عالم الفكر في اوروبا. وظهرت (رسالة عن التسامح) في مارس عام 1689. في هولندة، ترجمت إلى الانجليزية. وأعقبها في عام 1690م (برسالة ثانية عن التسامح). وفي العام ذاته 1690. أصدر مقاليه عن (الحكم المدني)، وهما حجر الزاوية في النظرية الحديثة للديمقراطية في انجلترا وأمريكا. وبعد شهر واحد أخرج كتابه (بحث

في العقل الانساني) وهي أعظم المؤلفات أثرا في علم النفس الحديث، وعلى الرغم من إتمامه هذا الكتاب الأخير قبل مغادرته هولندة، فانه قام بطبع مقالي (الحكم المدني) قبله، لأنه كان تواقا إلى تزويد (ثورة جليليو 1688)م بأساس فلسفي. وفي التماس لوك للنقد الفلسفي لسلطة وليم الثالث، أثنى بدفاعٍ مؤثر عن سيادة الشعب، وفي سبيل دفاعه عن الملك الحاكم، بسط نظرية الحكومة النيابية، وفي سبيل عرضه الأساسي المنطقي لحركة الأحرار(الهويجز) والمدافعين عن حق التملّك، صاغ انجيل الحرية السياسية، وأنهى هيمنة هوبز على الفلسفة السياسية الانجليزية.

لقد افترض " لوك" أن الأفراد في الحالة الطبيعية كانوا أحرارا متساوين، ولعله استخدم هذه اللفظة ليعني بها، أن ليس لأحدٍ بالطبيعة "حقوق" أكثر مما لسواه. وهو يبيح للإنسان في "الحالة الطبيعية" غرائز معينةً بمثابة إعداد سيكلوجي للمجتمع، ويأتي لوك أحيانا بافتراضات لطيفة "من حيث أن كل انسان حرّ بالطبيعة، فليس في امكان اي شيء أن يخضعه لأية سلطة دنيوية إلا برضاه وموافقته". وذهب لوك إلى أنه وبمقتضى العقل توصّل الناس إلى اتفاق "عقد اجتماعي"، الواحد منهم مع الآخر تنازلوا فيه عن حقوقهم الفردية في القضاء والعقاب، لا للملك، بل للجماعة ككل. وعلى هذا تكون الجماعة هي السيد أو الحاكم الحقيقي، وهي تختار بأغلبية الأصوات رئيسا أعلى ينفذ مشيئتها. ويمكن أن يسمى ملكاً، ولكنه، مثل أي مواطن آخر، ملتزم الطاعة بالقوانين التي تسنها الجماعة، فاذا سعى إلى خرقها أو المراوغة في تطبيقها، كان للجماعة الحق في سحب السلطة التي منحتها اياه. (انظر ول ديورانت، ج 34، ص 49)

والحق، عزيزي الدارس، أن لوك لم يكن يدافع عن وليم الثالث عند جيمس الثاني، بل عند البرلمان ضد أي ملك. إن أعلى سلطة في الدولة ينبغي أن تكون السلطة التشريعية، التي يجب أن تختارها الأصوات الحرة غير المشتراة، ويجدر أن توقع القوانين أشد العقوبة على كل محاولة لشراء أصوات المواطنين أو المشرّعين، وينبغي أن تكون السلطة التشريعية مستقلة تمام الاستقلال عن السلطة التنفيذية، وأن يكون كل من جهاز الحكومة هذين رقيبا على الآخر.

ويقول لوك: "ليس للحكومة من هدف الا صيانة الملكية (حق التملك)، لقد كانت هناك شيوعية بدائية، حين نما الطعام دون زراعة، واستطاع الانسان أن يعيش دون كدّ ولا كدح، ولكن عندما بدأ العمل، انتهت الشيوعية، لأن الإنسان أخذ لنفسه، ملكا خاصا به، أي شيئاً ذا قيمة أضفاها عليه جهده هو. فالعمل هو مصدر 99% من كل

القيم المادية. إن المدنية تـنمو عن طريق العمل، ومن ثم عن طريق نظم الملكية بوصـفها تاج العمل، ومن الناحـية النظرية ليس لإنسـان أن يمتلك أكثر مما يسـتطيع استخـدامه. ولكن اختـراع النقود مكّنه من بيع فائض نتـاج عمله، مما لم يستطع الانتـفاع به، وعن هذا الطريق ساد التفاوت الكبيـر أو عدم المساواة في الملكية بين الناس، وربما كنا نتوقع، عند هذه النقطة، من لوك أن ينتقـد تركيز الثروة، ولـكنه بدلا من ذلك نظر إلى الملكية مهمـا كان سوء توزيعهـا، على أنها أمر طبـيعي مقدس، فاسـتمرار النظام الاجـتماعي والمدنية يسـتلزم أن تكون حماية الملكيـة أساس عزّ للدولة: "وليس في مـقدور السلطة العليـا أن تستـولي على أي جزء من أمـلاك الانسان الا بموافـقته ورضـاه". (انظر ول ديورانت، ج 34، ص 50)

وعلى هذا الأساس لم يقـر لوك أية ثورة تنطوي على التجـريد من الملكية. ومع هذا لم يستطع لوك أن ينكر الحق في قلب الحكومة، فالشعب على حدّ قوله في حِلّ من الطاعة إذا كان ثمة مـحاولات غير مشروعة للاعتـداء على حريته وممتلكاته، لأن هدف الحكومة هو الصالح العام للبشر.

ظل تأثير لوك على الفكر الـسياسي مسيطرا حتى ظهور كارل مـاركس. وكانت فلسفتـه عن الدولة ملائمة كل الملاءَمة لحكم الأحرار (الهـويجز) وللخلق الانجليزي إلى حد تجاهل أخطاءَها طيلة قرن من الزمن، باعتبارها هنات. ففي عهد (مجناكارتا) جليلة الشأن للبرجـوازية. إنها لم تضف هالة على عام 1689م فحسب بل مع سـبق مشهود، كذلك عامي 1776م و 1789م. ويسخر النقاد اليوم من لوك اشتقاقه للحكومة من رضا الأفراد والأحرار وموافقتهم في الطور الطبيعي، إن "الحقوق الطبيعية" مشبوهة ونظرية، والحق الطبيعي الوحيد في مجتمع ليس فيه قانون هو القوة المتفوقة، كما هو حادث الان بين الدول. أمـا في المدنية فـالحق هو الحـرية التي يرغب فـيهـا الفرد ولا تكون ضـارة بالجمـاعة "وقد وجد حكم الأغلبـية في الجمـاعات الصغيـرة في الأمور غير الحـيوية" وتمارس الحكم عادةً أقليـةٌ منظمة. والحكومات الآن تضطلع بالتـزامات أكبر من مـجرد حماية الملكية.

ومع ذلك فان تحقـيق هذه الرسالة الثانيـة يظل إنجازا عظيما. إنه أوسع من قـيمة انتصار البرلمان و "الاحرار على المحافظين"، حتى صاغ من هذا الانتصار نظرية الحكومة النيابية المسئولة. تلك النظرية التي ألهبت مشـاعر الشعوب، الواحد منها بعد الآخر في تسنُّمهـا مراقي الحريـة. ونبذت انجلترا فكرة السلطات الـتي جاء بها لوك، وأخـضعت

الحكومة بأسرها للسلطة التشريعيـة، ولكن نظريته كانت تهدف إلى الحدّ من قوة السلطة التنفيـذية. وقد تحقق هذا الهدف تحـقيقـا كاملا. إن كثـيرا من ثقته في حـصانة الناس ولباقتهم، واعتداله في تطبيق النظرية علـى الممارسة أو العلم على العمل، أصبح منهجا قياسيا ذا قيمة معترف بها في السياسة الانجليزية، جعل الثورة أمرا تدريجيا دقيقا لا يكاد يدرك، بينما هي حقيقة واقعة.

عزيزي الدارس، انتـقلت آراء لوك من انجلترا إلى فرنسـا مع "فولتيـر" في عام 1729م، واعتنقها "مونتسكيو" عند زيارته لانجلترا عام 1729م وعام 1731م، وكان لها صدى عند "روسو" وغيـره قبل الثورة الفرنسية وفي أثنائها. وبرزت في أجلى مـعانيها في "اعلان حقـوق الانسان" الذي أصدرته الجمعـية التأسيسـية عام 1789م. ويبدو أن مستعـمري امريكا قد اقتـبسوا آراء لوك، حين ثاروا في وجه جورج الثالث واسـتعملوا صيغة في اعلان الاستـقلال. كما أن الحقوق التي أثبتها لوك أصبـحت "وثيقة الحقوق" في التنقيحات العـشرة الأولى للدستور الأمريكي. أما نظريتـه في فصل السلطات، كما وضعهـا «مونتسكيو» تشـمل السلطة القضائية، فقـد أصبحت عنصرا أسـاسيا في شكل الحكومة الامريكيـة، كما أخذت عنايته البـالغة بالملكية طريقها إلى التـشريع الأمريكي، وأثرت مقـالاته عن التسـامح في الآباء المؤسسين في فـصل الكنيسـة عن الدولة واقرار الحرية الدينية ويندر أن نجد في تاريخ الفلسفة السياسية رجلا بمفرده كان له مثل هذا الأثر الخالد الباقي. (انظر ول ديورانت، ج 34، ص 52)

لقد كان تـأثير لوك شاملا وعمـيقا في علم النفس، قـدر تأثيره في نظرية الحكم المدني. ومن أبرز ما كتب في هذا المجال مقالته عن "العقل الانساني" حيث بيّن أن كل المعرفة بما في ذلك أفكارنا عن (الله) سبحانه وعن الصـواب والخطأ مستمدة من الخبرة، وليست جـزءا من التركيب الـفطري للعقل، وعرف أنه في مـحاولته للـبرهنة على هذه النظرية التجـريبية قد يسيء إلى كـثير من مـعاصريه الذين أحسـوا بأن الأخلاق تتطلّب مسـاندة الدين لها، وأن الأخلاق والدين كلـيهما ينـهار ويضعف، إذا نبـعت أفكارهما الأماسيـة من منبع أقل شرفا من (الله) سبحـانه وتعالى. (انظر ول ديورانت، ج 34، ص 53)

لقد استطاع لوك أن يحدد مصطلحـاته، وهو يعترض على الغموض المتكلّف عند بعض الفلاسفة. وينبغي التسليم بأن مذهب لوك في هذه النقطة، يفضّل ممارسته له فهو يعرّف "العقل" بأنه: قوة الادراك الحسي" غير أنه يستخدم الادراك الحسي ليشمل:

1- إدراك الأفكار في عقولنا.

2- وإدراك معاني الألفاظ.

3- وإدراك التوافق أو التنافر بين الأفكار.

ويستخدم لوك اصطلاح "الفكرة" ليعني:

1- تأثير الأشياء الخارجية على حواسنا (وهو ما يجب أن نسميه الاحساس).

2- أو الوعي الداخلي بهذا التأثير (هو ما يجب أن نسميه الادراك الحسي).

3- أو صورة الفكرة أو الذكرى المتصلة بها (وهو ما يجب أن نسميه الفكرة).

4- أو الحركة التي تجمع صورا منفردة كثيرة لتكون مفهوما عاما أو مجردا أو شاملا لمجموعة من الأشياء المتشابهة.

ويوضح لوك أن النزاعات الفطرية التي سميت فيما بعد (الانتماء) النزعة إلى الحركة، استجابة لمنبّه ما، أو الأفعال المنعكسة اللاارادية أو الغرائز، بأن هذه هي عادات سيكولوجية. وليست أفكارا. وأن توارد الخواطر نوع من الطرق السيكولوجية. وعليا أن نبني إيماننا بالله على الايات البينات الدالة على حكمته وقدرته فيما خلق وأبدع، أعني على الخبرة وليس على الفطرة. وبالمثل فليس هناك مبادىء عملية فطرية، ليس هناك مفاهيم نظرية عما هو صواب وعما هو خطأ، فالتاريخ يوضح لنا مجموعة متباينة، عظيمة أحيانا متناقضة أحيانا أخرى، والأحكام الخلقية، مما لا يمكن معه اعتبارها جزءا من التراث الطبيعي للانسان، بل هي تراث اجتماعي يختلف من مكانٍ إلى مكان ومن زمان إلى زمان. (انظر ول ديورانت، ج 34، ص 55)

ويعتقد لوك بأن من الخبرة يتم تزويد العقل منذ الولادة، وعلى ذلك تُبنى كل المعرفة، ومنها تستمد في النهاية، فكل الأفكار مستمدة إما من الإحساس والانعكاس على نتاج إحساسنا، والأحاسيس كلها مادية، ونتائجها العقلية علي الادراك الحسي، وهو (اولى مواهب العقل). (انظر ول ديورانت، ج 34، ص 55)

لم يجد لوك سببا للارتياب في إمكان حصولنا على معرفة حقيقية صحيحة عن العالم الخارجي، ولكنه قَبِلَ الرأي الذي استقر منذ أمد طويل، ألا وهو التمييز بين الصفات الأولية والصفات الثانوية للأشياء المدركة. أما الصفات الأولية: وهي التي لا يمكن فصلها عن الجسم إطلاقا في أية حالة مهما كانت مثل: الصلابة، الامتداد،

الشكل، العدد، الحركة، السكون. أما الصفات الثانوية: "فليست شيئا في هذه الأشياء نفسها، بل مجرد قوى تحدث فينا إحساسات متعددة بصفاتها الأولية، فالألوان والأصوات والطعوم والروائح صفات ثانوية تحدث فينا بكتلة هذه الأشياء وشكلها ونسيجها أو حركتها. أما الأشياء نفسها فليس لها لون، ولا وزن، ولا طعم ولا رائحة ولا صوت ولا حرارة.

لقد أدى، عزيزي الدارس، تحليل الشيء أو الجسم، إلى صفات على هذا النحو إلى سؤال مفاده: ما هو الجوهر الذي يبدو أن الصفات الأولية تلازمه باعتبارها جزءا منه؟ ولقد اعترف لوك بأننا لا نعرف من هذا الجوهر الخفيّ الغامض شيئا الا صفاته، فاذا نزعت هذه الصفات فان الجوهر - اي الأساس الضمني أو المفهوم ضمنا لهذه الصفات - يفقد كل معنى له، وظاهرا ايضا أنه يفقد وجوده، وعندئذ يصبح لوك بطل التجريبية - فالخبرة هي مصدر كل المعرفة -.

إن مقال (العقل الانساني) للوك حول الفلسفة البريطانية عن الميتافيزيقيا إلى المعرفة. لقد بسط لوك العقل الانساني في كتاب لا يضم الا حقائق، وبات المقال (العقل الانساني) الانجيل السيكولوجي لعصر التنوير في فرنسا.

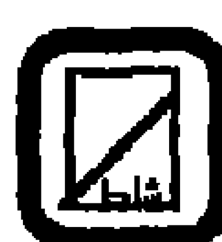
لقد ألح لوك على أن تتمتع بالحرية الكاملة في انجلترا كل المذاهب المسيحية فيما خلا الكثلكة، وكان قد كتب مقالا عن التسامح في عام 1666م. و عندما ارتحل إلى هولندة عام 1683م وجد هناك من حرية العبادة أكثر مما كان في انجلترا. ولا بد أنه قرأ أثناء إقامته في هولندة دفاع "بيل" القوي عن التسامح الديني عام 1686م. وحركت مشاعره هجرة "الهيجونوت" واضطهادهم عام 1685م. فكتب إلى صديقه "لمبورغ" رسالة استحث نشرها. فطبعت باللاتينية عام 1689م تحت عنوان "رسالة في التسامح" وظهرت ترجمتها إلى الانجليزية قبل نهاية العام. واستنكرها احد أساتذة اكسفورد، فدافع عنها لوك، وكان آنذاك في انجلترا، في رسالة ثانية وثالثة عن التسامح في عامي 1692/1690م، ولم يحقق قانون التسامح الذي صدر في 1689م من مقترحات لوك الا قليلا جدا؛ ذلك أن القانون استبعد الكاثوليك والتوحيديين واليهود والوثنيين، وحظر تولي الشوون العامة على المخالفين. إن لوك ايضا قد أتى باستثناءات فلم يكن ليتسامح مع الملحدين حيث رأى أنهم غير أهلٍ للثقة ما داموا لا يخشون إلهاً ولا ديانة توقع عذابا ماديا، بالتضحية بالانسان مثلا، ولم يتسامح مع مذهب يتطلب الولاء لسلطة أجنبية، ودعا صراحة إلى التسامح مع المسيحيين والمستغلين، وأنصار تجديد العماد، والأرمنيين

والكويكرز، ولم يتجاسر على القول بالتسامح مع التوحيديين. (انظر ول ديورانت، ج 34، ص 62)

قال لوك بأن القانون ينبغي أن يهتم فقط بالمحافظة على النظام الاجتماعي، فإن القانون له الحق في القضاء على كل ما من شأنه العمل على التخريب في الدولة، ولكن ليس له ولاية ولا سلطان على نفوس الناس، وليس لأية كنيسة سلطة لإرغام الناس على مشايعتها. ولاحظ لوك أن معظم الديانات تنادي بالتسامح في أيام ضعفها، ولكنها تأباه في أيام قوتها، ورأى أن الاضطهاد مصدره شهوة السلطان والسيطرة، والحقد المقنع في ثياب الغيرة الدينية، والاضطهاد يصنع المنافقين، أما التسامح فانه يشجع المعرفة والحق.

لقد واصل لوك حملته من أجل التسامح حتى مات، حيث كان منهمكا في كتابه رسالة رابعة في هذا الموضوع حين وافته المنية.

نشاط (2)



1- ارجع إلى كتاب ول ديورانت وابحث فيه عن تأثير لوك في الحكم المدني.

2- إن مقال (العقل الانساني) للوك حول الفلسفة البريطانية عن الميتافيزيقيا إلى المعرفة. ناقش هذا القول

تدريب (2)



قدم لوك للاشتراكية الحديثة أحد ميادينها الأساسية. وضح هذا القول؟

أسئلة التقويم الذاتي (2)



وضح كيف نظر لوك إلى الملكية؟

2.3 ديفيد هيوم (1711-1776م)

وُلِدَ بأدنبرة في 26 ابريل/ نيسان عام 1711م. ورحل إلى فرنسا، وفي ظل اليسوعيين ألف كتابه "رسالة في الطبيعة البشرية" حيث درس هذه الطبيعة من حيث

الفهم والانفعالات والأخلاق والسياسة وحلل فيه الانطباع (الاحساس)، والادراك الحسي، والذاكرة، والخيال، والفكر، والعقل، والاعتقاد.

بدأ هيوم بقبوله تجريبية لوك نقطة انطلاق، فكلّ الأفكار مستقاة في النهاية من التجربة بطريقة الانطباعات. وهذه إما احاسيس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والذوق. واما داخلية كالخدر والجوع واللذة والألم. والادراك الحسي احساس مقسر؛ "فالضوضاء" إحساس، ولكن (نقرة على الباب) ادراك حسي. والمولود أعمى أو أصم ليس لديه فكرة عن الضوء أو الصوت، لأنه لم يكن لديه احساس بأحدهما. وفكرتا المكان والزمان نابعتان من التجربة. فالأولى: "فكرة نقاط مرئية أو محسوسة موزعة بنظام معين"، والثانية إدراك التعاقب في انطباعاتنا. ولا تختلف الأفكار عن الانطباعات الا في ضعف "القوة والحيوية التي تقع بهما على الذهن". والاعتقاد "ليس الا منها أكثر حيوية وحدة لأي فكرة . . . إنه شيء يشعر به الذهن، يميز أفكار الحكم عن خرافات الخيال". (انظر ول ديورانت، ج 5، ص 204)

ويبدو أن هيوم، عزيزي الدارس، في تعريفاته هذه يرى في الذهن كيانا أو أداة حقيقية تمارس الانطباعات أو الأفكار، أو تمتلكها أو تتذكرها، أو تحكم عليها. غير أنه حين يمضي في البحث ينكر وجود أي ذهن ملحق بالحالات النفسية - الإحساس - أو الادراك الحسي، أو الفكرة، أو الشعور، أو الرغبة التي تشغل الوعي في لحظة بعينها.

وكما تلاحظ، عزيزي الدارس، فقد أسقط هيوم ثلاث فلسفات هي: الفلسفة المادية لأننا لا ندرك "المادة" أبدا، ولا نعرف غير عالمنا العقلي عالم الأفكار والمشاعر. والفلسفة الروحية لأننا لا ندرك أبدا "روحا" ملحقة بمشاعرنا وأفكارنا الخاصة، وفلسفة الخلود لأنه ليس هناك "ذهن" يبقى حيّاً بعد الحالات الذهنية العابرة. (انظر ول ديورانت، ج 35، ص 206)

ويتنكر هيوم كذلك للجدل العقلي باعتباره هاديا للحياة، ويمضي إلى تحليلٍ دقيق للعواطف، وبيّن أن كل العواطف تقوم على اللذة والألم، وتمييزاتها الأخلاقية تنبع في النهاية من هذا المنبع الخفي ذاته: " اننا نميل إلى اطلاق اسم الفضيلة على أي متعة في الآخرين، تعطينا اللذة لأنها تعين على نفعنا، والى إطلاق اسم الرذيلة على أي صفة بشرية تعطينا الألم. وحتى مفاهيم الجمال والقبح مشتقة من اللذة والألم.

وفي عام 1739م عاد هيوم، عزيزي الدارس، إلى أدنبرة وهناك أعدّ المجلد الثالث في رسالته في الطبيعة البشرية والتي تحتوي على الكتاب الثالث (في الأخلاق)،

وقد اساء تحليله للفضيلة العقلانيين بقدر ما أساء اللاهوتيين. فهو يزعم أن قواعد الفضيلة ليست إلهامات خارقة ولكنها أيضا ليست استنتاجات خلص اليها العقل، "لأن العقل ليس له تأثير على عواطفنا أو أفعالنا". فالمجتمع عند هيوم قديم قدم الانسان، وإذا كان الناس أعضاء في جماعة، فإنهم سرعان ما يتعلمون أن يمتدحوا التصرفات النافعة للجماعة، ويذمّوا الضارة بها، ثم إن مبدأ التعاطف جعلهم يميلون إلى تقبل أو محاكاة الآراء التي سمعوها من حولهم؛ وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللوم، وطبقوا هذه الأحكام بوعي أو بلا وعي على سلوكهم، وهذا في رأي هيوم أصل الضمير. ويضيف هيوم أن قانون التعاطف هذا، قانون التجاذب الجماعي، هو عام ومنير في العالم الأخلاقي، شأن قانون الجاذبية في الكون المادي. ثم يختتم بهذه العبارة: "وهكذا يحدوني في الجملة الأمل بأنه لا ينقصنا شيء للبرهان الصحيح على هذا النسق من الأخلاق". (انظر ول ديورانت، ج 35، ص 210)

لقد حاول، عزيزي الدارس، هيوم في عام 1744م الوصول إلى كرسي الاستاذية بجامعة أدنبرة غير انه فشل في ذلك، وقبل بوظيفة معلم خاص لمركيز انانديل، ثم عمل في 1747/1746م سكرتيرا للجنرال "جيمس سانت كلير". ثم عاد عام 1748م إلى لندن وتفرغ للفلسفة حيث نشر "تحقيقا عن الفهم البشري"، وفي عام 1749م نشر (تحقيقا عن مبادئ الأخلاق).

وبعد أن أعاد هيوم تحليله الشكلي للعقل، قدم القسم العاشر من التحقيق الأول، وهو مقالة: "في المعجزات". وفي عام 1749م عاد هيوم إلى اسكتلندة وأرسل إلى المطبعة: "التحقيق في مباديء الأخلاق" وأكد فيه من جديد على أن الحس الأخلاقي مشتق من التعاطف أو المشاعر الاجتماعية. وعرّف الفضيلة بأنها: "كل صفة في العقل نافعة أو لذيذة للشخص نفسه أو لغيره". (انظر ول ديورانت، ج 35، ص 214)

وفي عام 1751م ألف ديفيد هيوم "حوارات في الدين الطبيعي". ويعتبر الكتاب أشد ما أخرج مزاجه الشيطاني تخريبا وعدوانا على المقدسات. وفي عام 1757م نشر "أربع مقالات" تناولت إحداها "تاريخا طبيعيا للدين". ويجمع المقال بين اهتمام هيوم القديم بالدين، واهتمامه الجديد بالتاريخ. وبهذا فقد تجاوز هيوم رحلة الهجوم على المعتقدت القديمة إلى مرحلة التساؤل عن كيفية توصل الانسان إلى اعتناقها. وفي ذلك غمزٌ واضح على الدين والمقدسات. (انظر ول ديورانت، ج 35، ص 219/214)

لقد اتجه هيوم، عزيزي الدارس، في أخريات عمره أكثر فأكثر إلى السياسة والتاريخ، بعد أن أعياه الجدل حول مسائل يقررها الوجدان - في رأيه - أكثر مما يقررها العقل. ففي عام 1752م نشر "أحاديث سياسية". وكان فيها يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات إلى مساواة شيوعية. غير أن هيوم كان يحس بأن الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التي تسودها المساواة هي ضرب من المحال. (انظر ول ديورانت، ج 35، ص 220/219)

وبعد، فقد أضاف هيوم إضافات قيمة للفكر الاقتصادي في كتابيه: "أحاديث سياسية" و "مقالات ورسائل في موضوعات مختلفة"، فقال بأن جميع الضرائب تقع في النهاية على العمل، لأن كل شيء في العالم يُشترى بالعمل. وتنبأ - وقبل الثورة الصناعية - بأن العمال سيرفعون أجورهم بالتكتل، وندّد بتمويل المصروفات والمشروعات الحكومية بالضرائب المرتفعة والاصدارات المتكررة للسندات، وتنبأ بأنّ مثل هذه الاجراءات الضريبية ستجر "الحكومات الحرة" إلى حالة العبودية التي ترزح تحتها جميع الأمم المحيطة بنا. والنقود ليست هي الثروة، وأن سَكّ مقادير تزيد على متطلبات التجارة منها، انما يرفع الأسعار ويعرقل التجارة الخارجية. ويبدو أن هذه الأفكار الاقتصادية قد أثرت على صديقه "آدم سميث" ولعبت دورا في تطوير سياسة بريطانية تقول بحرية التجارة. (انظر ول ديورانت، ج 35، ص 223/222)

عزيزي الدارس، وفي عام 1752 انتخب هيوم أمينا لمكتبة كلية المحامين بأدنبرة، وهي مكتبة كانت تضم حوالي ثلاثين ألف مجلد. وفي هذه المكتبة ألّف هيوم كتابه "تاريخ انجلترة". وكان هيوم يسمى التاريخ: "الخليلة العظمى للحكمة" وكان يؤمل أن يجد فيه أسباب نهوض الأمم وسقوطها.

لقد كان من أهم مظاهر القرن الثامن عشر أنه أنجب في جيل واحد ثلاثةً من أعظم مؤرخي العالم هم: فولتير، وهيوم وجيبون. وكلهم مؤسس في الفلسفة، يحاول أن يعيد تفسير التاريخ بلغة غير لغة اللاهوت. وكان جيبون يثني على هيوم ويقر بفضل تأثيره وكان يقدر إطراء هيوم للمجلد الأول من "اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها" فوق كل إطراء آخر.

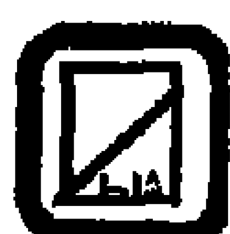
لقد تأثر هيوم في كتابه (تاريخ انجلترة) بكتاب فولتير: "عصر لويس الرابع عشر"، وحتى بكتاب "مقال في العرف".

وخلاصة القول أن هؤلاء المؤرخين: هيوم، فولتير، وجيبون قد أجمعوا على فضح الخرافة، ورفض التفسيرات الخارقة.

وفي عام 1755م. بدأت حركة يقودها بعض رجال الدين الاسكتلنديين لاتهام هيوم أمام مجمع الكنيسة العام بتهمة الزندقة. وعلى أثر ذلك فرّ هيوم إلى فرنسا، حيث عمل في السفارة البريطانية هناك. غير أنه ترك عمله وعاد إلى أدنبرة في عام 1765م. وفي عام 1767م قبل بوظيفة وكيل في وزارة الخارجية في لندن غير أنه عاد إلى أدنبرة نهائيا عام 1769م. وأصبح بيته صالونا يجتمع فيه مشاهير الاسكتلنديين أمثال ادم سميث ووليم روبرتسن وغيرهما.

لقد كان ديفيد هيوم هو وحده من أرّخَ لعصر التنوير في الجزر البريطانية. لقد أنهى هناك مذهب الربوبية بتحدّيه قدرة العقل على الدفاع عن أبْسط مقوّمات الايمان الديني. وحمل الحرب لا إلى أسوار العقيدة فحسب، بل إلى قلعته الحصينة. وكان جيبون سليل هيوم في الفلسفة، وتلميذه الذي بَزّه في التاريخ. وفي ألمانيا أيقظ كتابه "تحقيق في الفهم البشري "كانت" من سباته بما بدأ من تقويضه لكل العلم والميتافيزيقيا واللاهوت عن طريق تشككه في موضوعية العلة.

وفي عام 1775م، أصيب ديفيد هيوم بمرض، لم يمهله طويلا إذ أنه توفي في 27 أغسطس/آب عام 1776م.



نشاط (3)

ارجع إلى كتاب ول ديورانت، قصة الحضارة. وابحث فيه عن رأي ديفيد هيوم في الدين؟



تدريب (3)

كيف فسر هيوم الفضيلة والرذيلة؟



أسئلة التقويم الذاتي (3)

اشرح إضافات هيوم في الفكر الاقتصادي؟

3.3 اسحق نيوتن 1642-1727م

ولد في مزرعة صغـيرة في مقاطعة لنكولن (في الولايات المتـحدة الامريكية) في ديسمبـر/ كانون أول 1642 أي في نفس العام الذي مات يه جـاليليو. وفي المدرسة لم يكن نيوتن تـلميذا نابهـا، بل على العكس من ذلك وجاء في التـقارير التي كـتبت عنه انذاك أنه خامل وغير مُلفت للنظر، وأنه يهمل الدراسات المقررة ويقبل على الموضوعات التي تستهويه، ويقـضي الوقت الكثير على المخترعات الميكانـيكية كالمزاول، والسواقي، والساعات البيتـية الصنع. ثم أخرج نيوتن من المدرسة ليساعـد أمه في المزرعة، غير أنه هناك أهمل عمله كذلك وعـاد ليقرأ الكتب ويحل المسائل الرياضية فـأعيد الى المدرسة. ثم تخرّج من كامبردج بعد حصوله على الدرجـة الجامعية الأولى، وبعدها انتُخب زميلا في الكلية، وخص باهتمامه الرياضيات، والبصريات، والفلك، والتنجيم.

وفي عام 1669م وبعد استقالة استاذه في الرياضـيات، عين نيوتن خلفا له، غير أنه لم يكن استاذا ناجحا، لقد قام نيوتن آنذاك بكثيـر من التجارب لا سيما في الكيمياء وكان هدفه تحويل المعادن، ولكنه اهتم كذلك بـ أكسيـر الحياة وحجر الفلاسفة، وواصل دراساته الكيميائية من عام 1661م إلى عام 1692م، وحتى وهو يكتب كتابه (المبادىء) ترك مخطوطات عن الكيـمياء دون نشر، ولعله في بحـثه عن تحويل المعـادن كان هدفه البحث عن قانون أو عملـية يمكن أن تفسر بها العناصر على أنهـا أشكال مغايرة، قابلة للتحويل لمادة أساسية واحدة. (انظر ول ديورانت، ج 33، ص 231)

لقد وضع، عـزيزي الدارس، نيوتن قواعـد للطريقة والبـحث العلميين، ورفض القواعد التي وضعها ديكارت في (مقالة) كمباديء قَبْلية تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال. وحين قـال نيوتن: "أنا لا أخترع فروضـا" كان يعني أنه لا يقدم نظريات حول أي شيء يـتجاوز مـلاحظة الظواهر، فـهو إذاً لا يغـامر بأي تخـمين عن طبيـعة الجاذبيـة، بل يكتفي بوصف مـسلكها وصيـاغة قـوانينها، ولم يزعم نيوتـن أنه يتجنب الفروض باعتـبارها مفاتيح للتـجارب، كذلك لم يرفض الاستـدلال، انما أصرّ على أنه يحب أن ينطلق من الوقـائع ويُفضي إلى المبـاديء. وكانت طريقـته أن يتـصور الحلول الممكنة للمشكلة، ويستنبط متضمناتها الرياضـية، ويختبر هذه بالحساب والتجربة. (انظر ول ديورانت، ج 33، ص 232)

كان السـبب، عزيزي الدارس، في شـهرة اسـحق نيوتن أمـرين هما: حـساب التفاضل، والجاذبية، بدأ عمـله في حساب التفاضل عام 1665م. بايجاد مماس ونصف

قطر الانحناء عند أي نقطة على منحنى. ولم يسم طريقته حساب التفاضل بل حساب الفروق المستمرة.

وفي الفيزياء عكف نيوتن ابتداء على استكشاف سر الضوء فبدأ تجاربه في ذلك عام 1666م. وتوصل إلى أن الضوء الأبيض أو ضوء الشمس ليس بسيطا أو متجانسا، بل هو مركب من الأحمر، والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والبني والبنفسجي. هذا، وقد جمع نيوتن مناقشاته حول الضوء في كتاب (البصريات في عام 1704م). (أنظر ول ديورانت ج 33، ص 237)

ولعلك - عزيزي الدارس - تود السؤال عن قصة التفاحة التي اكتشف منها نيوتن قانون الجاذبية. ويبدو أن القصة نوع من الاسطورة. والأرجح منها قصة أخرى رواها فولتير، وهي أن غريبا سأل نيوتن: كيف اكتشف قوانين الجاذبية؟ فأجاب: "بإدمان التفكير فيها". إذ لم تكن فكرة الجاذبية بين النجوم جديدة قط على نيوتن؛ فقد ذهب بعض فلكيي القرن الخامس عشر، إلى أن السموات تؤثر في الأرض بقوة تشبه تأثير المغنطيس في الحديد، وما دامت الأرض تنجذب بالتساوي من جميع الاتجاهات فإنها تبقى معلقة في مجموع هذه القوة. إلى غير ذلك من النظريات عن الجاذبية التي عرفها كثير من العلماء قبل نيوتن. إلا أن نيوتن وبفضل تقدم العلماء في الرياضيات توصل إلى قانون الجاذبية، الذي مفاده أن الأجسام تنجذب نحو بعضها بعضاً بقوة تتناسب طرديا مع (حاصل ضرب كتلتيهما وعكسيا مع مربع المسافة بينهما). (أنظر ول ديورانت ج 33، ص 237-238)

لقد صاغ نيوتن، عزيزي الدارس، ثلاثة قوانين للحركة في كتابه المباديء (برنسيبيا) هي:

1- كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة في خط مستقيم ما لم تؤثر عليه قوة تؤثر من حالته تلك.

2- تغيير الحركة يتناسب مع القوة المحركة الواقعة، ويتم في اتجاه الخط المستقيم الذي تقع فيه تلك القوة.

3- كل فعل يقابله دائما رد فعل مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه.

لقد جوبهت نظرية نيوتن بنقد شديد من قبل العلماء، إضافة إلى الاعتراضات الدينية عليها في انجلتره. وعلى ذلك حاول نيوتن أن يهديء من ثائرة نقاده فأكد أنه لا

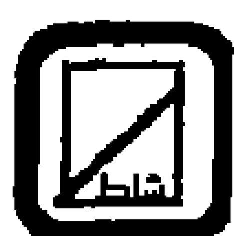
يفترض قوةً تعمل عن بعد خلال الفضـاء الفارغ، وأنه يعتقد بوجود ناقل متخلل، رغم أنه لم يحاول وصفه. وقصر تفسيراته الميكانيكية على العالم المادي ورأى في ذلك العالم أدلة على وجود الله سبحانه، لأن كل آله تتطلب مصدرا أول لحركتها. ولا بد أن يكون هذا المصدر هو (الله) سبحانه. ثم ان في النظام الشمسي شذوذات في المسلك يصححها الله تعالى دوريا، كلما ظهرت. ولكي يفسح المجـال لهذه التدخلات الخارقة، نزل عن مبدأ عدم فناء الطاقة وافترض أن آلة العالم تفقـد بعض طاقتها بمضي الوقت، وستفقدها كلها إن لم يتدخل الله سبحانه ليردّ لها قوتها.

وهنا قـد تسأل - عـزيزي الدارس - عن مدى ايمان نيـوتن الديني؟ لقـد تطلّبت استاذيته في كمبردج الولاء للكنيسة الرسمية، وكان يختلف بانتظام إلى الخدمات الكنسية الانجليكانية. ولقد درس الكتاب المقدس بنـفس الغيرة التي درس بها الكون. وقد خلّف كتـابات لاهوتية يفوق حجـمها كل مـؤلفاته العلميـة. وقادته دراساته إلى نتائج أشـبه بالأديسوية، ومجـمل هذه التتائج أن المسيح (وان كان ابن الله) الا أنه لـيس مساويا لله الأب في الزمن أو القوة. وفيـما عدا ذلك كان نيوتن مـستقيم العقيـدة تماما. ويبدو أن امن في كل كلمة من كلمات الكتاب المقدس على أنه كلمة الله، وأنه قبل سِفْري دانيال ورؤيا يوحنا على أنهما الحقيقة بحذافيرها. (أنظر ول ديورانت ج 33، ص 245)

عزيزي الدارس، لقد كان نيوتن رجلا مستغرقا بشكل واضح في النظرية الرياضية والصوفـية، ذهنه مزيج جمع بين مـيكانيكا جاليليو وقـوانين كبلر وبين لاهوت بومي. وهو مع هذا كله كان ذا مقـدرة عملية وفطرة سليمة. وقد اكـتشف في عام 1700م آله السدس، ويبدو أنه شرف المناصب الخطيرة التي بادرت الدولة بتعيينه فيها. وقد عين عام 1699م مديرا لدار سك النقود، حيث بقي في هذا المنصب 28 عاما وشغل هذا المنصب على نحو من الرضاء العام.

لقد كرمت الدولة اسحق نيوتن بوصفه أعظم العلماء الأحياء، وقد انتخب رئيسا للجمعيـة الملكية عام 1703م وظل ينتخب سنويا بعد ذلك حـتى وفاته. هذا وقد مات اسحق نيوتن عام 1727م عن عمر يناهز الخامسة والثمانين ودفن في كنيسة وستمنستر.

نشاط (4)



ابحث في النظريات التي عرفت عن الجاذبية قبل نيوتن؟

تدريب (4) 

ما أهم اكتشافين عرفهما نيوتن؟

أسئلة التقويم الذاتي (4) 

لخص طريقة نيوتن في البحث العلمي؟

4. الإهتمامات الجديدة بالروح الإنسانية وعصر التنوير

1.4 الحركة العقلية الدينية

إن المقصود، عزيزي الدارس، بالحركة العقلية، حركة الفلاسفة الذين يسعون إلى نظرة عقلانية إلى أصل الكون وطبيعته ومغزاه ودلالته ومصيره، والحياة أو الانسان. ومن الجدير بنا أن لا نفهم أن الفلسفة ضد الدين أو أنها تتعارض معه، كما ينبغي أن نفسح في النظرة الواسعة للحياة البشرية مجالا للدين، ولما كان كثير من فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر معادين للمسيحية كما عرفوها، فإن لفظة الفيلسوف اتخذت مفهوما معاديا للمسيحية وتجدر الاشارة إلى أن «روسو» زودنا بحجة عقلانية عن الوجدان والايمان. كما ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن الفيلسوف قد يعارض الديانات القائمة حوله مثل "فولتير" ومع ذلك فقد تمسك إلى النهاية بالايمان بالله. (أنظر ول ديورانت ج 38، ص 2)

إن الجدل الذي هاج مشاعر الطبقات المفكرة في نصف القرن الذي سبق الثورة الفرنسية، لم يكن مجرد صراع بين الدين والفلسفة. بل كان بالدرجة الأولي صراعا بين الفلاسفة والمذهب الكاثوليكي المسيحي، كما وجد في فرنسا انذاك، ولعل السبب في ذلك وقوف تلك الديانة على ذلك المذهب في وجه التقدم والمعرفة، والاضطهادات والمذابح.

لقد كان الفلاسفة الفرنسيون نتاجا جديدا، أدباء عرفوا كيف تتألق الأفكار والاراء في الألفاظ، وقد ولوا ظهورهم نحو الميتافيزيقيا باعتبارها ضالة ميئوسا منها، ونحو طرائق الفلسفة باعتبارها غرورا كاذبا عريضا. ولم يكتبوا أبحاثا مطولة معقدة، جهدوا

فيها في استنباط العالم عن فكرة واحدة، ولكنهم كتبوا موضوعات قصيرة نسبيا وكانت كتاباتهم هذه متناظمة مع رجال الصالونات وسيداتها. ومن ثم أصبحت الفلسفة قوة اجتماعية انتقلت من المدارس إلى المجتمع والحكومة، وأسهمت في الصراع بين الدول. ولما كانت كل اوروبا المتعلمة تتطلع إلى فرنسا لمعرفة اخر النظريات والآراء، فان مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين وصلت إلى انجلترا وايطاليا واسبانيا والبرتغال والمانيا والسويد وروسيا. وكان "لجوتنبرج" أثره البارز، إذ عملت الطباعة على نشر العلوم والتاريخ ونقد الأسفار المقدسة وروائع القدماء. وأصبح الفلاسفة الان أقدر على التحدث إلى جماهير أكبر عددا وأكثر استعدادا من ذي قبل. وبذلك عملوا على تبسيط المعرفة، وكانوا على ثقة من أن نشر الحقيقة قد يعمل على تحسين سلوك البشر وتوفير المزيد من السعادة لهم. وقد اعتبر "دالمبير" أن "فن تعليم الانسان وتنويره أنبل مهمة وهبة في متناول البشر"، وأصبح التجاسر على المعرفة شعاره الاستنارة الذي حققه عصر العقل وفاز به؛ ذلك أن الايمان بالعقل الذي آذن بانبلاج فجره "فرنسيس بيكون" قبل ذلك بقرن من الزمان أصبح أساس الفكر المتحرر وأداته، أعني أن الفكر تجرّد بهذا من أساطير الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة، وبرز العقل متألقا في عَظَمَةِ وحي جديد. وطالب بالسيادة والسيطرة في كل مجال وميدان، وعرض إصلاح التعليم والدين والأخلاق والأدب والاقتصاد، والحكومة بمفهومه المشرق. (أنظر ول ديورانت ج 38، ص 3)

لقد أقر، عزيزي الدارس، الفلاسفة في هذه المرحلة بضعف العقل، وأدركوا تماما أن من الميسور تضليله بأي منطق فاسد أو تفسير خاطيء للخبرة. فهذا "شوبنهور" يُنْبِئُ بأن العقل عادة خادم للرغبة وأداة للارادة. وكان "هيوم" الذي هيمن على عصر العقل في بريطانيا أقوى ناقد واجهة العقل، واعترف "فولتير" من آن لآخر بحدود العقل. واتفق "ديدرو مع "روسو" في أن الوجدان أساسي أكثر من العقل. واعترف كل فلاسفة القرن الثامن عشر تقريبا بأن غالبية الناس حتى في أعظم الأمم حضارة ومدنيةٍ، مرهقون بالحاجيات الاقتصادية والكدّ في سبيل العيش إلى درجة لا يجدون معها فسحة من الوقت لتنمية العقل، وأن جماهير البشر تتحرك وتتأثر بالأهواء والعواطف والحزازات أكثر من تأثرها بالعقل، ومع هذا ظل الأمل معقودا على انتشار العقل وإمكان تحريره من الأنانية الضيقة والتعاليم المغرضة.

وبما أن باريس كانت في القرن الثامن عشر عاصمة الفكر في اوروبا، فإن حركة التنوير أصبحت حركة واسعة النطاق من حركة النهضة الأوروبية وحركة الاصلاح

الديني. والحق أن حركة التنوير هذه بدت وكأنها ذروة الحركات السابقة. وكانت النهضة قد ذهبت إلى ما وراء المسيحية لتكتشف الذهن الوثني، كما أن الاصلاح الديني كان قد كسر قيود السيادة المذهبية، وعلى الرغم منه تقريبا أطلق العنان لعمل العقل، وباتت مقدمتا العصر الحديث هاتان تكمل الواحدة الأخرى، وأصبح في مقدور الانسان في نهاية المطاف أن يحرر نفسه من معتقدات العصور الوسطى ومن أساطير الشرق، كما أصبح في مقدوره أن يهز كتفيه استخفافا باللاهوت المربك المرعب، وأن يقف على قدميه حراً طليقاً؛ حراً في أن يشك، وفي أن يحقق ويدقق، حرا في أن يفكر ويجمع ألوان المعرفة وينشرها.

والسؤال المطروح: لماذا انقلب كل هؤلاء الفلاسفة وبخاصة في فرنسا على المسيحية؟ وللإجابة أقول:

إن الثورة التي قام بها الربوبيون في انجلترا استطاعت أن تعبّر عن نفسها مع تسامح نسبي، حتي من جانب الكنيسة الرسمية، وربما كان هذا هو السبب في خمود لهيبها، وفضلا عن هذا كانت الكنيسة الإنجليزية خاضعة للدولة فلم، تعد تزعم زعما فعالا أنها أي - الكنيسة - سلطة منافسة مستقلة، أما الكنيسة في فرنسا فكانت هيئة قوية تمتلك نصيبا كبيرا من الثروة الوطنية وأرض الوطن، وهي مع ذلك مرتبطة بولاء أسمى مكانة بسلطة أجنبية، ويبدو أنها كانت تستنزف مزيدا من الثروة من أيدي العلمانيين إلى أيدي رجال الكنيسة، عن طريق الوصية والتوريث، كما رفضت أن تدفع ضرائب أكثر من (المنح أو الهبات الاختيارية) واحتفظت بآلاف الفلاحين في أراضيها في استرقاق فعلي. واحتفظت بالرهبان فيما بدا بأنه خمول عقيم. وكما أفادت الكنيسة من الوثائق الزائفة والمعجزات الكاذبة، وسيطرت على كل المدارس والجامعات تقريبا. وعن طريقها أشربت أذهان الشباب بالسخافات المخدرة المنافية للعقل، واستنكرت، على أنه هرطقة كل تعليم يتعارض مع تعليمها واستغلّت الدولة في فرض رقابتها على حرية الكلام والصحافة. وبذلت الكنيسة غاية الجهد في خنق التنمية الفكرية في فرنسا. وحرضت لويس الرابع عشر على اضطهاد الهيجونوت غير الانساني. والتخريب الخالي من السلطة «البورت رويال». وارتكبت الكنيسة إثما في الحملات الوحشية التي شنتها ضد "الإلبيجنسيين" وإقرار المذابح الوحشية مثل مذبحة "سانت برثلميو"، وأشعلت نار الحروب الدينية التي دمرت فرنسا تقريبا.

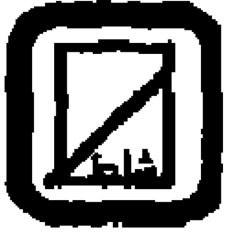
وفي وسط كل هذه الجرائم ضد الروح الإنسانية ادّعت الكنيسة وحملت الملايين

من ذوي العقول الســاذجة على الاعتقاد بأنهــا فوق العقل وفوق الريبــة والمساءلة. وأنها ورثت وحيــا إلهيا، وأنها تمثل الله في الأرض المــلهم المعصوم من الخطأ، وأن جرائمــها كانت، بإرادة الله مثل حسناتها. لقد أثارت هذه الاتهامات المتزايدة حفيظة الاف الناس ودفعتهم إلى الاحتجاج، وأخــيرا إلى العداوة المريرة. وتضاعف عدد المتشككين إلى حد أنهم لم يعــودوا يخشــون رجال الدين وأحــرجوهم علنا بالأســئلة العويصــة. إن الفكر الفرنسي المتحرر تخطى الإصلاح الديني، وقفز طفــرة واحدة من عصر النهضة الأوروبية إلى عصر الاســتنارة، وكان ما حدث في انجلتــرا مثالا حافزا ملهــما مشجعــا للمفكرين الأحرار في فرنسا، وقد رأى المتشككون الفرنــسيون أن صرح الدين ينهار أمام القول بأنّ كل الأفكار مستمــدة من الإحساس، وإذا كان الإحساس نتاج قوى خــارجية فإن الذهن نتــاج الخبــرة، وليس هبــة خــالدة من لدن إله لا يراه أحــد، وإذا كانت الخــبــرة تخلق الشخصــية، فإن الشخصــية يمكن تغييرها بتــغيير طرق التعلــيم ومادته، وإصلاح النظم الاجتماعية، ومن هاتين القضيتين خلص رجال مثل «ديدرو وهلفشيوس» و«دي هولباخ» إلى نتائج ثورية. وتــساءل فولتيــر مستــحضرا لوك في ذهنه: "هــل يمكن أن يكون ثمة شيء أعظم من أن تثير العالم بأسره سياسيا واجتماعيا ببضع حجج ومناظرات". (أنظر ول ديورانت، ج 38، ص 7)

وكانت ثمــة تأثيرات فكرية أخرى، عــزيزي الدارس، أضعفت عــقيدة العــصور الوسطى الدينية، وانضــم الفلاسفة إلى أصحاب المذهب المحافظ (الأرثوذكسي) في رفض "سبــينوزا" الملحد الذي كانــت اللاهوتية السيــاسية تثــير نقد الأســفار المقدســة. وكان الماسونيون (البناؤون الأحرار) يؤسسون لهم مراكــز في فرنسا، حيث كانوا يمارسون سرا هرطقاتهم الربوبية. وكانت الكشوف الجغــرافية والتاريخ والدراسة المقارنة للأديان تؤجج وقود اختبار المسيحية، وكان كل علم في نموه وتقدمه يزيد من درجة احترام العقل.

لقد عملت القوى الاجتماعية على انحلال العقيدة وكان الازدياد في الثروة يعجل في التسابق عــلى اللذة والمتعة، ويقلل من القيــود على الأخلاق المسيحــية. وكانت كل طبقة، عدا الفلاحين، تضم أقلية متشككة، واستاءت البيروقراطية الحكومية من استقلال الكنيسة وإعــفائها من الضرائب، وبدا الرباط الوثيق بين الكنيســة والدولة ينفصم عراه، وأبدى أفراد الطبقة الوسطى والعليا رضاهم وارتياحهم عن المفكرين الذين كانوا يحاربون رجل الدين. لأن هذه الطبقة لم تغفر للكنيــسة استنكار الربا وإيثارها ملاك الأرض على رجال المال. وكان المحامون منذ زمن غير قصير يحقدون على رجال الدين ويحسدونهم،

وعجّت مقاهي باريس بالإلحاد، وانتشرت المطبوعات المعادية لرجال الدين انتشارا واسعا حتى في الأقاليم، ويبدو أن الشك الديني قد انتشر بين رجال الدين أنفسهم أمثال «جان سليبيه» (1678-1733م) و«جوليان أجوفروي دي لامتري» وغيرهم. (انظر ول ديورانت، ج 38، ص 10)



نشاط (5)

ابحث في أثر الطباعة على التقدم العلمي.



تدريب (5)

سم ثلاثة من فلاسفة الحركة العقلية الدينية الفرنسية في القرن الثامن عشر.



أسئلة التقويم الذاتي (5)

اشرح وضع المجتمع الفرنسي تجاه الكنيسة في القرن الثامن عشر.

2.4 مفاهيم التقدم والحرية والمساواة والتاريخ

عزيزي الدارس، لقد أخذت فكرة التقدم تسيطر على الفكر الاوروبي بصورة واضحة خلال القرن الثامن عشر (عصر التنوير)، ذلك القرن الذي بدا الناس متفائلين بمستقبل الانسان، وهناك درجة معقولة من الاتفاق بين أهل الفكر، على أن الانسانية تتقدم في ميدان واحد على الاقل، وهو ميدان العلوم الطبيعية والرياضيات من فيزياء وكيمياء وهندسة وحساب وما إلى ذلك. ثم في ميدان التطبيق العملي لقواعد العلم المكتشفة. وقبل نهاية ذلك القرن، كان هناك اقتناع عام بحتمية التقدم في ميدان الاقتصاد والحضارة والتنظيم الاجتماعي والفن والأدب، بل في الطبيعة الانسانية والشكل البيولوجي. ولكن القرن الثامن عشر انتهى بانفجار الثورة الفرنسية التي مهد لها الفلاسفة وخاض معاركها الخطباء وجنى ثمارها البورجوازيون، حيث بدا عند انتهائها عصرهم الذهبي الذي تمّ على يد «كارل ماركس» و«انجلز» و«لاسال» و«لينين» و«لوكسمبرج» و«ستالين» و«مارقس توانج».

لقد كانت الغالبية العظمى، عزيزي الدارس، من فلاسفة التقدم من أبناء الطبقة الوسطى الذين نادوا بالحرية والمساواة، غير أن نداءهم هذا لم يكن يخلو من تحامل على النبلاء وكبار رجال الكنيسة والدين جملة. ولم تتسع المساواة عندهم لطبقة الدنيا في السلم الاجتاعي، حيث كانت هذه هي الثغرة التي دخل منها رجال الفكر الاشتراكي. وعندما نتأمل كتابات الفلاسفة في عصر التنوير نلاحظ أنها في كلامها عن التاريخ تنصرف بوضوح عن التاريخ السياسي والكنسي وتتجه نحو التاريخ الحضاري. فتركز الاهتمام على الانسان العادي وتبحث عن أحواله ومعاشه ومستواه. وكان أهل الفكر ينظرون إلى ما كان يكتب من تواريخ تقليدية بأنها لا قيمة لها لخلوها من الناحية الحضارية.

وقبل أن يصل الفكر الاوروبي إلى الاستقرار عند فكرة التقدم، مرّت فترة تحدّث المؤرخون فيها، عما سموه بالمراحل أو الحالات التاريخية، ويُراد بها أن التاريخ لا يمكن أن يقف ثابتا عند وضع واحد، ولا بُدّ له من أن يتحرك، وفي حركته ينتقل من مرحلة إلى أخرى أو من حالة إلى حالة وانتقاله هذا لا يكون كما صوره ابن خلدون أعني ميلاداً ونمواً ونضوجاً ثم انحداراً. بل المراد بذلك أن الجماعة أو الحضارة قد تولد وتتوقف، ثم تعود فتولد من جديد ثم تنمو وتقوى. وقد ترتد إلى الوراء مرة أخرى، ثم تعود إلى الوقوف على قدميها ومتابعة المسير. وهذا التصور ينطبق بصورة خاصة على الحضارات طويلة العمر كالحضارتين المصرية القديمة والصينية؛ فقد مرت كل من هاتين الحضارتين بحالات أو مراحل مختلفة، فولدت ونمت ثم سقطت ثم عادت إلى السير من جديد حتى بلغت النضج، ثم ارتدت إلى الوراء من جديد. هذا وقد تحدّث في أمر المراحل هذه كثيرون (مثل جيامباتيستا ڤيكو (1668-1744م)) الذي رأى أن كل أمة أو حضارة تمر في تاريخها بحالات أو مراحل مختلفة من السير والعودة إلى المسير ثانية وذلك في كتابه المسمى (بالعلم الجديد)، ومن آراء فيكو كذلك، قوله إن من الممكن أن نعد العُدة لكتابة تاريخ دقيق علمي، يقوم على قواعد اجتماعية للتطور، تضمن حدوث طراز واحد من التطور في تاريخ كل أمة وأن ذلك التطور يتم على صورة دائرة كبيرة تشمل الأمم جميعاً لا أمة واحدة.

ومن الذين تحدثوا عن مراحل الحضارات «مونتسكيو» (1689-1755م) الذين كان يؤمن بأن هناك قوانين طبيعية، تربط بين النظام الاجتماعي والسلوك التاريخي لأمة من الأمم. ويدور كتابه (عن روح القوانين) حول فكرة الارتباط بين التشريعات التي يصنعها الانسان والقوانين الحتمية التي تحكم حركة الطبيعة. وهذا الربط بين القوانين التي تحكم

مسيرة الحضارة والتاريخ هو المسمى بالنسبية التـاريخية ويعني بذلك أن الحكم على كل شيء في التاريخ والحضارة نسبي أو ينبغي أن يكون كذلك؛ أي أننا لا ندرس الحادثة التاريخية أو الظاهـرة الحضارية منفصلة عن الظروف التي وقعت أو ظهرت فيها. وكان ممن تحدث عن النسبية التاريخية كذلك "جوستوسِ فون موزر" (ت-1794م) حيث أكد عقم رواية الحوادث دون البحث عن أسبابها وتفصيل الظروف التي وقعت فيها، فنحن لا نستطيع مثلا أن نفهم كيف انتصرت قلة فقيرة نسبيا من المسلمين، على كثرة غنية من المكيّين في موقعة بدر الا اذا عرفنا جو الحماس للعقيدة والرغبة في نُصْرَة دين الله سبحانه وروح التآخي والاخلاص والصدق التي سادت القوة الاسلامية الصغيرة مع القيادة الحكيمة لمحمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم). وذهب "موزر" أبعد من هذا فقال: أن المؤرخ لا بد له من أن يعيش الأشياء التي يؤرخ لها ويحسها في نفسه إحساسا قويا، دون الأكتفاء بالدراسة والتحليل. (انظر حسين مؤنس، الحضارة، ص 284).

عزيزي الدارس، إن مفكري النصف الثاني من القرن السابع عشر كانوا أكثر إحساساً بالتحسن المطرد في أحوال البلاد والعباد فهذا «برنارد بوفييه دي فونتينل» (1657-1757)م وشارل بيرو (1628-1703)م يتفقان في القول، باننا لو درسنا تطور تاريخ البشر، للاحظنا تحسناً مطرداً في الأحوال المادية للجماعات البشرية، بل إن هناك تحسّناً ملموساً في المستوى الاخلاقي والمعنوي، رغم كل ما امتلأت به هذه الفترة من الحروب والويلات، ومن هنا بدأ مصطلح التقدّم يدخل قاموس التاريخ والحضارة وصرنا نجد مقالات الكتّاب مثل «روبير جاك تورجو» (1727-1781)م تشير إلى أن التاريخ يسير في خط متصل لا تنقطع حلقاته، وأن التقدم ينتج عن تراكم ثمرات التجارب العملية الصغيرة، وأن التقدم تزداد سرعته، كلما نمت الحضارة وتعقّدت صورها واقتربت من النضج. وصرنا نجد كذلك كتّاباً آخرين مثل المركيز «كوندرسيه» (1743-1794)م يتحدث عن التقدم كحقيقة ثابتة.

هذا وقد قام الموسوعيون «مجموعة من العلماء الفرنسيين» ومنذ العقد الرابع للقرن الثامن عشر بإنشاء موسوعة فرنسية «دائرة معارف فرنسية» وكان هذا حدثاً هاماً في التاريخ؛ ذلك أن الذين قاموا بتحقيق مشروعها كانوا من أبناء الجيل الجديد من المثقفين الفرنسيين الذين آمنوا بالفكر والحرية والتقدم من أمثال: روسو، وفولتير، وفول بونيه، وتورجو، ودوكلو، ودي بروس، وسان لامبير، وموريلليه، ونكر، وكنيه وغيرهم.

لقد أحدثت هذه الموسوعة تغييراً في المفاهيم المتوارثة في أكثر من ميدان من ميادين المعرفة. لأن المشرفين على تحريرها، وكل الذين كتبوا موادها كانوا من المتفائلين الذين نفضوا أيديهم من الماضي واشتركوا معا في صنع رؤية جديدة، لمستقبل الانسان قائمة على العقل والحرية والعلم. ولهذا وقفت الدولة والكنيسة منها موقف العدو، وصودر الكثير من أجزائها قبل صدوره، وفرضت الحكومة الملكية الفرنسية رقابة شديدة على كل من كتب فيها. لقد كانت الاقلام التي كتبت موادها، هي نفسها الاقلام التي مهدت للثورة الفرنسية. هذا وقد صدرت بعض موادها عن فكر ملحد، ولكن البعض الآخر صدر عن عقل مؤمن بالله سبحانه وتعالي، ولكن ذلك الايمان لم يكن نابعا عندهم من الكتاب المقدس، بل ارتكز على ما تبنوه من كمال الكون وإحكام صنعة الله فيه. وهذا تغير واضح في الفكر له قدره وأهميته.

كانت نهضة الفكر العلمي هي القوة التي حرّكت التاريخ والحضارة ودفعتهما إلى السير في طريق مستقيم يتجه إلى الأمام، ولما لم يكن من سبيلٍ إلى القيام بتجارب على حياة البشر، عكف الفلاسفة على التاريخ يدرسونه ويستخرجون الأحكام. والنظريات من تجارب الأمم، ولم تكن لديهم معرفة كافية فيما يتصل بتاريخ اليونان والرومان. وكان تاريخ مصر القديم وتاريخ السومريين، والأشوريين والبابليين والفرس انذاك، أشبه بأنفاق مظلمة، أما تاريخ المسلمين فكان كتابا مغلقا حتى نشطت حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر. صحيح أن حركة الاستشراق بدأت قبل هذا الوقت. غير أنها في أيدي رجال الدين الذين درسوا القرآن مثلا بهدف محاربة الاسلام. ولم يكن أحد يفكر في أن للهند والصين وغيرهما من الأمم، تاريخا وحضارة جديرين بالدراسة. ولهذا كان تفكير الموسوعيين الحضاري قائما على ميدان واحد من ميادين التاريخ هو ميدان التاريخ الاوروبي القديم والوسيط، وكانت معرفتهم بذلك الميدان محدودة كذلك. وعلى الرغم من هذا كله، فقد استطاع فلاسفة عصر التنوير إنشاء فكر جديد واسع المدى على هذه الأسس الضعيفة نسبياً.

لقد نجح المفكرون في عصر التنوير في إطلاق حركة التاريخ والحضارة، فأخذ الناس ينظرون إلى المستقبل، غير أن الثورة الفرنسية التي قامت على أساسٍ من تفكير أولئك المثاليين خيّب آمال الكثيرين، ذلك أن الثورة التي طلبت الحرية والمساواة والعدالة لجميع الناس، تحولت إلى جحيمٍ من الظلم والمذابح والفوضى. حيث أن هذه الثورة لم تلبث أن صبّت في محيط البرجوازيين الذين قطفوا ثمارها ونسوا الذين اكتووا بنارها. فعاد الغرب الاوروبي كله إلى حكم الملوك والامراء. غير أن حركة التاريخ ظلت

مستمرة فعلى الرغم مما فعله نابليون، الا أنه قدم كثيرا للحضارة الغربية. فقد أنشأ المؤسسات العلمية التي أصبحت منذ ذلك الحين أداة عظيمة القدرة على تجديد الحضارة. وأصلح التعليم الثانوي، ووضع قوانينه المشهورة، واهتم اهتماما كبيرا بالفن والأدب والصناعة والتجارة. وهكذا وعلى الرغم من عودة الملكية إلى فرنسا بعد القضاء على نابليون، الا أن عجلة العصر الحديث كانت قد تحركت، ولم يعد في الوسع ايقافها أو الوقوف في وجهها. (انظر حسين مؤنس، الحضارة، ص 316)

عزيزي الدارس، قطعت الحضارة المادية الغربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر شوطا جعل أهله يشعرون أنهم بلغوا قمة التقدم، وأنهم شيدوا حضارة فاقت كل ما عرفه هذا الكوكب من قبل. فساد أهل الغرب الأوروبي الدنيا بالسلاح والتكنولوجية وبالعلم والفن، وأغرقت صناعاتهم الدنيا، وقطعت سفنهم المحيطات، وصبت خيرات الدنيا في بلادهم وصنعت وأعيدت إلى البلاد النامية (مكان انتاجها) لتباع بأثمان عالية جدا فمن موانيء الهند وحدها كانت تخرج كل سنة عشرة الاف سفينة معظمها انجليزية محملة بمحاصيل الهند، تُشترى منهم بأبخس الأثمان، لتُصنع في انجلترا وتعاد لتباع بأعلى الأثمان، عملية استنزاف حقيقية حيث تحولت آسيا وافريقيا إلى مزارع ومجالات للاستغلال لأهل الغرب، واستولت امريكا على ما تريده من أراضي المكسيك واحتكرت كل نشاط أهل امريكا الوسطى والجنوبية.

وهكذا - عزيزي الدارس - صارت فكرة التقدم في أواخر القرن التاسع عشر فكرة أساسية للمؤرخ، فلم يعد يقول بالحركة الرجوعية السفلية للتاريخ، أو بالحركة الدائرية له، وإنّما بالخطّ المستقيم الصاعد نحو القمة. غير أنه لم يخل الأمر من بعض المفكرين الذين ظلوا يتمسكون بفكر الحركة الدائرية للتاريخ مثل "أوزوالد شبنغلر" الذي طبق نظرية أعمار الأمم والحضارات وشيخوختها ثم موتها في كتابه المعروف: «تدهور الغرب أو غروب شمسه» الذي قال فيه إن حضارة الغرب قد تجاوزت مرحلة الشباب والقوة ودخلت في مرحلة التدهور والشيخوخة.

ثم لاحظ العلماء أن "التقدم" كمصطلح لا يمكن أن يطلق على مسيرة دولة من الدول بصورة عامة، ذلك أن حياة الأمم تتكوّن من تيارات شتّى: بشري، واجتماعي، وأخلاقي، واقتصادي .. ألخ. وقد يكون هناك تقدم في ناحية وتَعَثرٌ في أخرى. غير أن ناحية من نواحي البشر - وهي الناحية الاجتماعية ثبت أنها تسير في تقدم مضطرد، فالمجتمع المعاصر أحسن نظاما وأوفر عدالة من مجتمع القرن الماضي، وهكذا. ومن هنا

فقد رأي بعض المؤرخين أن هنا موضعا مأمونا يمكن أن تطبق عليه نظرية داروين في التطور، ونشأ ما يسمى بالداروينية الاجتماعية. ومن الذين قالوا في هذا: لودفيج جومبلوفتش (838-1909)م، ووليام جراهام سمنر، والبرت جالوي كبلر. حيث اعتقد هؤلاء جميعا ان الانسانية قد وصلت إلى درجة من الرقي، يجعلها بمنأى عن النكسات المخربة، وأن البشر قد تعلّموا من دروس الماضي وويلاته، أن الحرب لا فائدة منها، وأن العداوات بين الشعوب عبث مدمر وسخافة كبرى. وكانوا يرون أن التقدم العلمي سيحل كل مشاكل الانسانية. وظهر مفكرون مسرفون في التفاؤل كتبوا قصصا عالميا يصور هذا التفاؤل مثل جون فرن (1828-1905)م. و«أدوارد بيلامي» (1850-1898)م هـ.جـ ولز (1866-1946)م. ولم يكن يدور في خلد هؤلاء جميعاً أن الانسانية لا يزال أمامها شوط بعيد حتى تصل إلى مستوى المدينة الفاضلة Utopia.

نشاط (6)



ارجع إلى مقدمة ابن خلدون. واذكر كيف نظر إلى نمو المجتمع. وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي ومقارنة هذا بنظرة فلاسفة عصر التنوير إلى مراحل التاريخ؟

تدريب (6)



وضح أين تركزت كتابات الفلاسفة في عصر التنوير؟

أسئلة التقويم الذاتي (6)



وضح المقصود بالنسبية التاريخية؟

5. الثورة الفرنسية وفلاسفتها

اعلم، عزيزي الدارس، أن جميع الفلاسفة المرموقين الذين شكلوا علامات كبيرة في أحداث الثورة الفرنسية مثل فولتير، ديدرو، جريم روسو، هلفنيوس، دولباخ مارمونتيل، وموريلليه، مابلي، طورجو، كانوا يعارضون الثورة على حكومات اوروبا القائمة آنذاك، غير أنهم وفروا الإعداد الايديولوجي لتلك الثورات التي كانت أسبابها

اقتصادية أو سياسية وعباراتها فلسفية، وقد تيسر للأسباب الأساسية للثورة أن تفعل فعلها، بفضل عمل الهدم الذي قام به الفلاسفة لإزالة العقبات القائمة في طريق التغيير، مثل الايمان بالامتيازات الاقطاعية والسلطة الكنسية، وحق الملوك الالهي. فلقد كانت كل دول أوروبا وحتى عام 1789م تعتمد على معونة الدين في غرس قدسية الحكومات في النفوس، وحكمة التقاليد وعادات الطاعة، ومبادئ الاخلاق. انظر إلى "شامفور" يقول والثورة تدور رحاها: "إن الكهانة كانت أول معقل للسلطة المطلقة" وذهب "توكفيل" عام 1856م إلى أن "سوء السمعة العام الذي انحدر إليه الايمان الديني كله في نهاية القرن الثامن عشر، كان له ولا ريب، أعظم الأثر في سير الثورة برمته". (انظر ول ديورانت، ج 41، ص 389)

لقد ندد الفلاسفة بالفقر كما نددوا بالتعصب والخرافة، وكافحوا ليقلصوا سلطان امراء الاقطاع على طبقة الفلاحين، واعترف بعض النبلاء بقوة الانتقادات اللاذعة التي وجهت اليهم، وفقد الكثير منهم الثقة في تفوقهم الطبيعي وحقوقهم المتوارثة فهذا الكونت «لوي - فيليب د سيجور» يقول: "كنا نقادا شديدي الاحتقار للعادات القديمة، ولكبرياء آبائنا الاقطاعية ومراسمهم المتزمتة . . وشعرنا بالميل إلى أن نتبع في تحمس العقائد الفلسفية التي جهر بها الكتاب الأذكياء الجسورون، واجتذب فولتير انتباهنا، ومس روسو قلوبنا . . . ولذنا خفية أن نراهم يهاجمون النظام القديم . . . فاستمتعنا في وقت واحد بمزايا طبقة النبلاء ومتع الفلاسفة الشعبية". (انظر ول ديورانت، ج 41، ص 389)

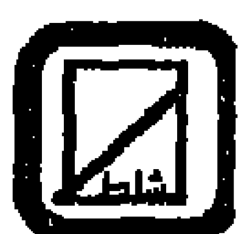
هذا وقد قادت الأقلية اللبرالية التي حفزتها غارات الفلاحين على الملكية الاقطاعية امراء الاقطاع في الجمعية التأسيسية على التخلي عن معظم حقوقهم الاقطاعية لقاء تعويضات، لا بل أن الأسرة المالكة تأثرت بالأفكار شبه الجمهورية التي أعان الفلاسفة على نشرها.

مرت الثورة الفرنسية بثلاث مراحل؛ ففي الاولى حاول النبلاء عن طريق البرلمانات أن يستردوا من الملكية ذلك السلطان الذي انتزعه منهم لويس الرابع عشر، وهؤلاء النبلاء لم يستلهموا جماعة الفلاسفة. وفي المرحلة الثانية ظفرت الطبقات الوسطى بالتحكم في الثورة، وكانت عميقة التشرب بأفكار الفلاسفة، ولكن المعنى الذي فهمته من "المساواة" كان مساواة البرجوازي بالأرستقراطي. وفي المرحلة الثالثة انتزع الرياسة زعماء غوغاء المدينة. وظلت جماهير الشعب متمسكة بالدين، ولكن زعماءهم

كانوا قد فقدوا احترامهم للقساوسة والملوك، وأحبت الجماهير لويس السادس عشر إلى النهاية، ولكن زعماءهم ضربوا عنقه، وبعد 6 أكتوبر/تشرين أول عام 1789م سيطر اليعاقبة على باريس، وكان روسو إلههم. وفي 10 نوفمبر/تشرين الثاني عام 1793 م احتفل المتطرفون الظافرون بعيد العقل في كتدرائية نوتردام. وفي «تور» أحل الثوار تماثيل جديدة لـ مابليه، وروسو، وفولتير محل تماثيل القديسين. وفي «شارتر» عام 1795م، في الكتدرائية الشهيرة، افتتح عيد العقل بدراما أظهر فيها فولتير وروسو متحدين في حملة على التعصب. (انظر ول ديورانت، ج 41، ص 391)

وخلاصة الأمر، عزيزي الدارس، أن الفلاسفة أثروا تأثيرا عميقا في أيديولوجية الثورة ودراماتها السياسية. وانهم لم يقصدوا إلى العنف، أو التقتيل، ولو أنهم قد شهدوا هذه المناظر الدموية لاقشعروا رعبا، ولربما قالوا بحق أنه قد اسيء فهمهم على نحو قاس، ولكنهم كانوا مسئولين بقدر ما لأنهم استخفوا بأثر الدين والتقاليد في ضبط الغرائز الحيوانية للبشر، وكانت الثورة الحقيقية أثناء ذلك ماضية في طريقها في ظل تلك الاراء الأخاذة والأحداث المرئية، إذ انتزعت الطبقات الوسطى من الارستقراطية والملك المتسلط على الاقتصاد والدولة، متذرعة بالفلسفة أداة من مئة أداة أخرى في بلوغ غايتها تلك.

نشاط (7)



ارجع إلى كتاب ول ديورانت، قصة الحضارة وانظر فيه نموذجا لما دلل عليه الاقطاعيون إزاء الفلاسفة في القرن الثامن عشر؟

تدريب (7)



وضح المراحل التي مرت فيها الثورة الفرنسية؟

أسئلة التقويم الذاتي (7)



اشرح وضع المجتمع الفرنسي تجاه الكنيسة في القرن الثامن عشر؟

1.6 هيجل: جورج فلهلم فردرك 1770-1831م

أحد أكبر الفلاسفة الألمان الذي بسط مذهبه في مؤلفات كان من أهمها: علم المنطق، وموسوعة العلوم الفلسفية، كما أنه كتب في الأخلاق والتاريخ والدين: كانت فلسفة هيجل فلسفة مثالية مطلقة، مؤداها أن للكون روحا تبتدئ مراحل تطورية يعينها المنطق الجدلي، ومحصلة ذلك أن فكرةً ما تولّد نقيضها، ومن تفاعل النقيضين تنتج فكرة جديدة تؤلف بينهما، ثم تأخذ الفكرة الجديدة نفس المراحل الثلاث المذكورة وهكذا. ففكرة الوجود تولّد فكرة العدم، ومن تألفهما تنتج الصيرورة (الموسوعة العربية، ج2، ص 1924). أي الموجود الذي لا يوجد على التمام وهذه هي صميم الوجود وسر التطور، إذ أن الوجود من حيث هو كذلك ثابت عقيم وكذلك اللاوجود، على حين أن الصيرورة وجود لا وجود وبهذا يضع هيجل التناقض مبدأ أول في العقل وفي الوجود (انظر يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 276). ودراسة الطبيعة والعقل تبين كيف أن المطلق يكشف عن نفسه في الوجود وفي مراحل التاريخ، فالعالم يسير متطورا من الجماد إلى النبات فالحيوان والمجتمع يسير نحو الملكية، وهذه تستنتج القوانين. ومن علاقة الفرد بالقوانين تنشأ مبادىء الأخلاق؛ حيث تتفاعل حرية الأفراد مع التزامهم. فتنشأ فكرة الدولة التي تسمو على الأفراد. والتي يتجسد فيها المطلق. (انظر الموسوعة العربية الميسرة، ص 2، ص 1924؛ وانظر ايضاً يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 279/278). ويقول: لقد سار الفن في ثلاث مراحل: الشرقي ثم اليوناني ثم الرومانسي، وكذلك تطور الدين من عبادة الطبيعة إلى المسيحية التي تمثل اتحاد الله بالانسان في شخص المسيح. أي تمثل اتحاد الروح بالمادة (انظر الموسوعة العربية، ج 2، ص 1924؛ وانظر ايضاً يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديث، ص 286/285). هذا وكان لفلسفة هيجل أثرها فيما بعدها، فعلى أساسها قامت الفلسفة السياسية الألمانية بعدئذ، وعلى أساس منطقها الجدلي قام مذهب المادية الجدلية عند ماركس، واهتم بها الكثيرون في انجلترا وامريكا. (انظر الموسوعة العربية الميسرة، ج 2، ص 1924)

ترك هيجل، عزيزي الدارس، وراءه سبعة كتب هي: "فينومنولوجيا الذهن" وفيه وصف للظواهر الذهنية وآثارها في حياة الانسان، ووصف لتطور الفرد وتطور

النوع، أي علم النفس وتاريخ المدنية متداخلين حتى ليصعب أحيانا كثيرة التمييز بينه وباختصار فإن كتابه هذا يمثل مدخلا لمذهبه.

والكتاب الثاني بعنوان: "المنطق" وهو في ثلاثة مجلدات وفيه عرض للمع الأساسية الميتافيزيقية والمنطقية، ويمثّل الكتاب حجر الزاوية في بناء المذهب.

أما كتبه الباقية فتعالج أقسام المذهب وهي: "موسوعة العلوم الفلسفية". "مبادىء فلسفة الفقه"، و"دروس في فلسفة الدين"، و "تاريخ الفلسفة" و "فلد الجمال". (انظر يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 274)

2.6 ماركس، كارل (1818-1883)م

هو فيلسوف الشيوعية المعاصرة النافخ في نارها حتى أشعلها ثورة عالمية. الم من أصل يهودي، درس القانون في جامعة "يينا" بألمانيا، ثم انصرف إلى الاقتد والفلسفة الاجتماعية ولما درس الفلسفة اعجب بجدل هيجل ولكنه أنكر إسرافه التصورية فاعتنق المادية وعلم الفلسفة بجامعة بونا (انظر يوسف كرم، تاريخ الفلد الحديثة، ص 401) حاول ماركس أن ينظم الحزب الاشتراكي في ألمانيا، غير انه اضط في المانيا بسبب نشاطه الثوري، فانتقل منها إلى باريس حيث التقى "بفردريك انجلز وتعاونا معا على إصدار الوثيقة الشيوعية الأولي المعروفة باسم "البيان الشيوعي" وذا في عام 1848م).

كان ماركس على صلة بالثورات التي اجتاحت ممالك اوروبا الغربية والوسطى د 1848م وما بعدها. وعلى أثر فشل هذه الثورات هاجر إلى انجلترا، حيث أقام بها ح وفاته. وفي إنجلترا دوّن كتبه الكبرى وهي: "نقد الاقتصاد السياسي" "نداء إلى الطبقات العاملة في اوروبا"، وكتابه الأشهر: "رأس المال" حيث أص الجزء الأول عام 1867م. وأخرج انجلز الجزأين الثاني والثالث بعد وفاته.

عزيزي الدارس، يعتبر كتاب ماركس (رأس المال) انجيل الشيوعية المعاصرة ويمكـ تلخيصه في أربع قضايا:

القضية الأولى: هي أن القيمة الحقة لكل سلعة تعادل كمية العمل المبذول فيه بحيث يعتبر العامل المصدر الوحيد لهذه القيمة ومن ثمة المالل

الوحيد للسلعة. وتقدر هذه القيمة بالزمن الحقيقي للإنتاج، مع مراعاة المتوسط تفاديا للاختلاف بين عامل وآخر.

القضيـة الثانية: أن النظام الرأسمالي يحرم العامل جزءا من قيمة عمله، وهذا الجزء هو الزيادة في قيمة السلعة وهو ربح صاحب المال. وهذا الربح يتكدس فيكون رأس المال: سرقة متصلة وافتئات على العمل". وهو أداة سيطرة صاحب العمل على العامل: فصاحب العمل والحالة هذه لا يدفع للعامل قيمة عمله، وإنما يدفع إليه ما يسد رمقه، بل أقل من ذلك إذا رضي العامل تبعا لقانون العرض والطلب.

والقضيـة الثالثة: إن من شأن صناعة الآلة متى استخدمها الطمع المطلق من كل قيد أن تزيد التعارض عنفا بين رأس المال والعمل، فكبار الماليين يتغلّبون على الضعاف من منافسيهم ويؤلفون شركات قوية تستغل المال إلى أبعد حد، وينتهي الماليون المتواضعون وأهل الطبقة الوسطى إلى الانضمام إلى صفوف المعوزين، فتقف الطبقات وجها لوجه ولكن المعوزين يحسون تضامنهم في جميع البلدان. فيدركون شيئا فشيئا مصلحتهم وحقهم وقوتهم.

والقضية الرابعة: وهي أن الطبقة العاملة، وهي الحاصلة على الحق والعدد والقوة ستفوز حتما على الماليين فتنزع الملكيات بتعويض أصحابها وتجعل من الثروات والمرافق ملكية مشاعة بين الجميع، فيتناول كل عامل قيمة عمله كاملة ويجد فيها ما يكفي لارضاء جميع حاجاته ويزيد. ولا يعالج ماركس طريقة تنظيم الشيوعية، ويقتصر على القول في الختام بأن التقدم الصناعي يجعل من المستحيل العودة إلى الملكية الصغيرة، وأن من شأن هذه الاستحالة أن يتحقق المجتمع الشيوعي حتما في مستقبل قريب أو بعيد على أنقاض المجتمع الرأسمالي. ومهمة الحزب الشيوعي تكوين (عقلية الطبقة) عند العمال وتأليفهم حزبا سياسيا كفيلا بانتزاع السلطة وإقامة الدكتاتورية العمالية. (انظر يوسف كرم، تاريخ الحضارة الحديثة، ص 403)

إن الملاحظ في هذا الجدل التاريخي، عزيـزي الدارس، بطلانه من جميع الوجوه فهو باطل في أساســه المادي، وفي محاولته استخراج الموجودات على اخـتلاف أنواعها من المادة البحتة. وإذا كان للظروف المادية والاقتصادية أثرها في حياة الانسان، فان ذلك لا يعدو تكييف هذه الحيـاة وتوجيه بعض أفعال الانسان، وبذلك تبـقى القوى الانسانية ويبقى الوجدان.

إن هذا الجدل باطل في اعتمـاده على الإلحاد. انظر إلى قول ماركس: "ان الدين أفيون الشعوب يجب منعه عنه لكي ينفض التسليم والخنوع وينهض للمطالبة بحقه" غير أن ماركس لم يفطن إلى ما ينتج عن الالحاد من الهبـوط بالانسان إلى درك البهيمة، بل إلى أدنى من ذلك؛ فالانســان حينها يجـري مع غرائزه مطلقـا من القيد الطبـيعي الذي نشاهده في البهيمة، والذي يوقفها عند حد الاعتدال، فلا يعرف رادعا سوى الخوف من بطش الأفراد والجماعة، وإذا كان الشيوعيون يشـبعون الجسم كما يعتقدون، ويأملون أن يستغني الانسان الشبعـان عن الدين، فالملاحظ أن الحاجة إلى الدين أصيلة في النفس لا يمكن أغفالها أو إهمالها.

وتجدر الاشارة إلى أن الجدل التاريخي باطل كذلك في تعريفه لقيمة السلعة، وفي إنكاره لحق الملكية. فليس صحـيحا أن قيمة السلعـة تقاس بكمية العمل المبـذول فيها، فالقيمة أيضا تابعة لمقدار الحاجة إلى السلعة. أو لما يتجلى فيها من ذوق ودقة صنع. فقد يبذل عمل كثـير في مصنوعات غير قـابلة للاستهلاك، كالمصنوعات الفنيـة: فهل نقتل الذوق في النفوس ونحرم الفنون؟ والأصل في رأس المال أنه عمل مـدخر؛ فالملكية حق طبيـعي متى استحـدث اصلها من العمل نفـسه، وإنصاف العامل ممكن دون ظلم غـيره وقلب المجتمع رأسا علـى عقب، وإذا كان للملكية مساويء فإن باسـتطاعة الحكومة بل ومن واجبها أن تصحح الخلل بتشريع معقول.

والملاحظ كذلك أن تحقيق مذهب الشيوعية يستلزم اخضاع الفرد للدولة في جميع الشؤون وخنق كل حـرية فكرية، ومن غير المعـقول أن باستطاعة أية حكومـة كانت أن تعني بجميع الأفراد وإدارة جميع المرافق.

كان ماركس يواصل دعوته الثورية متخـذا هذه الكلمة شعارا: "أيها المعوزون في جميع البلدان اتحدوا" فأسس في سنة 1866م: "الدولة الاولى التي ظلت قائمة إلى عام 1870م، ولكن الحرب بين ألمانيا وفرنسا. وهبوط الفتنة الشيـوعية بباريس أضعفا نفوذها إلى حد كـبيـر، ثم قضت عليـها الخلافـات بين أعضـائها. وفي المؤتمر الدولي المنعـقد

بباريس عام 1889م، أنشأ تلاميذ ماركس "الدولة الثانية" وجعلوا مقرها في لندن في حين يدير السوفييت في موسكو منذ عام 1917 "الدولة الثالثة الاشتراكية".

تعتبر الماركسية أكمل تعبير عن المذهب الاشتراكي، ولها الان النفوذ الأكبر في الحركات العمالية. وقد أراد ماركس أن يكون كتابه "رأس المال" عرضا لعلم الاقتصاد، ويبدو أن هذه الخاصية كانت سببا في رواج الكتاب، غير أن فيه مذهبا فلسفيا يتألف من المادية التاريخية والجدلية على طريقة هيجل ومن الشيوعية الإلحادية التي هي نتيجتها. (انظر يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 402/401)

وقد تسأل، عزيزي الدارس، عن المادية التاريخية الجدلية. وللإجابة أقول: أن مبدأ ذلك هي كل الموجود. وأن مظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوى المادية، غير أن ماركس قليل العناية بدراسة المراتب العليا، وهو يوجه همه إلى دراسة التاريخ الانساني. ومن هنا جاءَ وصف مذهبه بالمادية التاريخية. فعنده أن نمو الحياة الانسانية، فردية واجتماعية، يتوقف كله على الظروف المادية والاقتصادية، وأن درجة الحضارة تقاس بدرجة الثروة الزراعية والصناعية وأن نوع الانتاج في الحياة المادية شرط لتطوّر الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية على العموم فليس وجدان الناس هو الذي يعين وجودهم، وإنما هو وجودهم الاجتماعي الذي يعين وجدانهم. والحياة الاقتصادية تحقق قانون الصيرورة بأرقسامه الثلاثة والتي هي القضية ونقيضها والمركب منهما: وهذه هي المادية الجدلية، ومظهرها الاجتماعي الراهن "تنازع الطبقات"، ويعرف ماركس الدليل على هذه النظرية بدراسة الحياة الاقتصادية على ما كانت في أيامه. (انظر: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة ص 387-402)

وأسس كارل ماركس عام 1864م المؤتمر الاشتراكي العالمي. وكان على علم بالفلسفة الألمانية، وبخاصة فلسفة هيجل، ويحيط بالنظريات الاقتصادية المعاصرة، وقد تمكن من المزج بين الجانبين لإخراج نظرية في تطور النظم الاجتماعية وهي أساس ما يعرف بالاشتراكية العلمية.

كان ماركس وأفكاره ولا يزالان، موضع خلاف كبير؛ فهناك من يرى أنه أتى بنظرية فريدة تلقي ضوءا قويا على تطور النظم الاجتماعية، وخصوصا الرأسمالية، وهناك من يرى أنه لم يكن خالصا لوجه العلم والحقيقة، وانما ألبس نزعاته وميوله وثورته الجياشة ثياب التحليل العلمي، وما هي كذلك، وأيا كان الرأي فيه، فانه ولا ريب أثر تأثيرا بعيد المدى في تاريخ الانسانية. (انظر الموسوعة العربية الميسرة، ج 2، ص 6، 16)

3.6 أوغست كونت (1798-1857)م

فيلسـوف فرنسي، أسس ما يسمى بالفلسـفة الوضعيـة التي ترفض الميتافيـزيقا، وتعتـمد على نتـائج العلوم الطبيـعية الحـديثة، كـان هدف كونت الأسـمى هو إصلاح المجتمع ليعيش الناس في توافق وانسجام. بسط مـذهبه في كتابه الموسوم: "محاضرات في الفلسفة الوضعية" حيث بين فيه المراحل الثلاث التي اجتازها الفكر في تطوره وهي: "المرحلة اللاهوتية والتي تعلل الاشياء بقوى خارقة حيث دأب العقل في هذه المرحلـة البحث عن كنـه الكائنات ومصيـرها، محاولا ارجـاع كل طائفة من الظواهر إلى مـبدأ مشترك. ويدرج في ذلك درجات ثلاث هي: الدرجة الأولى: (الفيـتشية) وفيها يضيف إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الانسان. والدرجة الثانية: (تعدد الآلهة) وهي أكثر الدرجات الثلاث تمييزا للحالة اللاهوتية وفيها يسلب عن الكائنات الطبيعية ما كان خلع عـليها من حـياة، ويضـيف افعالهـا إلى موجـودات غير منظورة تـؤلف عالما علويا. والدرجة الثالثة: (التوحيد) أي جـمع كثرة الالهة في إله واحد. وفي هذه الحالة تتسع الشـقة ويزداد التـضاد بين الأشيـاء وبين المبدأ الذي تفـسر به: وقد بـلغت الحالة اللاهوتية أوجها في الكثلكة التي تؤلف تأليفا عجيبـا التفسيرات الفائقة للطبيعة في فكرة اله واحد مدير للكل بارادته. فَنَصّ الحالة اللاهوتية هي أن موضوعها مطلق، وتفسيراتها فائقة للطبـيعة، ومنهجـها خيالي. هذا من الوجهـة النظرية. ومن الوجهة العمليـة فقد كانت المعاني اللاهوتيـة أساسا متينا مـشتركا للحياة الخـلقية والاجتماعـية، وكانت هذه المرحلة الأولي مرحلة السلطة، سلطة الكهنة وسلطة الملوك. والمرحلة الميتـافيزيقية والتي تعلل الأشيـاء بمباديء مجـردة وفيهـا يرمي العقل إلى استكناه صـميم الاشيـاء وأصلها ومصيرها، ولكن يستبدل بالعلل المفارقة عللا ذاتية يتوهمها في باطن الأشياء وما هي الا معان مـجردة جسّمـها له الخيال فـقال: العلة أو القوة الفاعلة والجـوهر والماهية والنفس والحرية والغـاية وما اليها. والميل الذي سـاقه في الحالة السابقـة من الفيتشيـة إلى تعدد الالهة فإلى التـوحيد، يسوقـه هنا أولا إلى الاعتقاد بقوى بعـدد طوائف الظواهر، مثل القوة الكيـميائيـة والقوة الحيـوية، ثم إلى ارجاع مـختلف القوى إلى قـوى أولية هي: (الطبيـعيـة)، لذا تبلغ هذه الحالة أوجـها في مـذهب وحدة الوجود، الذي يـجمع في الطبيعة جـميع القوى الميتافيـزيقية. وكل الفرق بينها وبين الحالة السـابقة أن المجرد يحل محل المشـخص، ويحل الاستدلال مـحل الخيال. أما الملاحظة فـثانوية فيـها جميـعا، والحالة الميتـافيزيقيـة فترة انتقال وأداة انحـلال: هي فترة نقد عقـيم ولكنه ضروري، إذ

يتناول الاستدلال المعاني اللاهوتية فيبين التناقض فيها. وإذا كان العقل في هذه الحالة يضع معاني أو قوى موضع الارادات المتقلبة، فانه يضعف من سلطان القوى المفارقة. هذا من الوجهة النظرية. أما من الوجهة العملية فيبدو الانحلال في انتشار الشك والأنانية. فينفصم الفرد الرباط الذي يربطه بالمجتمع. ويثقف العقل على حساب العاطفة، ويتصور الاجتماع ناشئا من تعاقد الأفراد، وتقام الدولة على مبدأ سلطة الشعب، ويحكمها القانونيون. والمرحلة الوضعية (الواقعية) والتي تعلل الأشياء بالمشاهدة والتجارب، تأييدا للفروض وفيها يدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة. فيقصر همه على تعرّف الظواهر واستكشاف قوانينها وتركيب القوانين من الخاص إلى العام. فتحلّ هنا الملاحظة محل الخيال والاستدلال، ويستعاض عن العلل والقوانين أي العلاقات المضطردة بين الظواهر. فيكون موضوع العلم الاجابة عن سؤال (كيف) لا عن سؤال (لِم). وتكون الحالة الواقعية مختلفة عن الحالتين الاخريين في العناصر الثلاثة جميعا التي هي الموضوع والتفسير والمنهج. هذه الطريقة هي التي أفلحت في تكوين العلم ويجب أن يحلّ العلم الذي تولّد عنها محل الفلسفة: فكلما أمكن معالجة مسألة بالملاحظة والاختبار؛ انتقلت هذه المسألة من الفلسفة إلى العلم واعتبر حلها نهائيا. أما المسائل التي لا تقع تحت الملاحظة فهي خارجة عن دائرة العلم. ويدلّ تاريخها على أنها لم تتقدم خطوة واحدة منذ أن وضعت، فهو ينطق بأنها غير قابلة للحل، كما أن نجاح العلم الواقعي يقضي بإمكانه وبأنه المجال الحقيقي للعقل. هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فتمتاز الحالة الواقعية بقيام علم الاجتماع.

عزيزي الدارس، والملاحظ أن هذه الحالات الثلاث متنافرة، ونحن نجدها تتعاقب في كل إنسان؛ ففي الحداثة نقنع بسهولة بالتفسيرات اللاهوتية، وفي الشباب نقتضي عللا ذاتية، وفي سن النضوج نعوّل في الأكثر على الوقائع. غير أن هذا التنافر لا يمنع من المقارنة فالشخص الواحد قد يقبل تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية في بعض الموضوعات، مع قبوله العلم الواقعي في موضوعات أخرى هي على العموم أقل تعقيدا؛ وأهل العصر الواحد بنوع خاص نرى بعضهم على حالة وبعضا على حالة أخرى. وكذلك شعوب الأرض ليسوا كلهم على درجة واحدة من رقي العقل، على أن القانون الكلي يبقى صادقا إذا اعتبرنا الحالة الغالبة في شعب معين وعصر معين؛ فإننا حينئذ نرى اللاهوت ينجم أولا، ثم نرى الميتافيزيقيا تعارضه، وأخيرا يولد العلم الواقعي الذي هو وحده قادر على البقاء، لأن الحالتين السابقتين لما كانتا قائمتين على الخيال كانتا دائما مبعث ظنون جديدة ومناقشات جديدة، على حين أن العلم يستند إلى الواقع

فيجمع العقول على وحدة الرأي ويحل محلهما، لا يتكلف في ذلك محاربتهما بل يتركهما تسقطان من تلقاء ذاتهما. (انظر يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 319)

ويرى كونت، عزيزي الدارس، أن العلوم تتفاوت في البساطة والتريب ويذكر ستة علوم أساسية مرتبة هكذا: الرياضيات، علم الفلك، علم الطبيعة، علم الكيمياء، علم الحياة، علم الاجتماع. وهذه العلوم مكتسبة بالاستقراء، حتى الرياضيات فإنها إنما تعتبر علما عظيما بحتا لأن موضوعها من البساطة بحيث نغفل عادة أصله الاستقرائي، ولكن ليس هناك علم عقلي بحث. وقد تسأل عزيزي الدارس عن أساس هذا التصنيف وللإجابة أقول أن مبدأ هذا التصنيف عند "كونت" يتجلى في تزايد التركيب وتناقص الكلية، أي النسبة العكسية بين المفهوم واللاصدق، فكلما كان المفهوم بسيطا كان اللاصدق واسعا، والعكس بالعكس. وهذا التصنيف كذلك تصنيف تعقل متناقض وتجربة متزايدة، أي كلما نزلنا درجة قل مجال العقل البحث وازداد شأن التجربة. فالرياضيات في رأس الجدول لا تتبع علما آخر ويتبعها باقي العلوم لأن موضوعاتها وقوانينها أكثر بساطة وكلية، وعلم الاجتماع في آخر الجدول يتبع سائر العلوم ولا يسيطر على علم لأن موضوعاته وقوانينه أكثر تعقدا وتخصصا. وبالنزول من الرياضيات إلى علم الاجتماع نرى التركيب يتزايد والكلية تتناقص، وذلك لأن الرياضيات لا تنظر لغير الكم المجرد، وهو أبسط الأشياء وأقلها تعيينا؛ فيضيف إليه الفلك معنى القوة فيدرس الأجسام الحاصلة على قوة جاذبية وهي الأجرام السماوية؛ وعلم الطبيعة يضيف الكيف إلى القوة فيدرس القوى المتمايزة بالكيف كالحرارة والضوء، وتضيف الكيمياء الخصائص اللازمة لكل نوع كيميائي من الأجسام ويضيف علم الحياة إلى المادة اللاعضوية التركيب العضوي والظواهر الخاصة به ويضيف علم الاجتماع ما ينشأ بين الأحياء من روابط مستقلة عن تركيبها. ولئن كانت جميع العلوم محصلة بمنهج واحد كما سبق القول، إن هذا المنهج يتعدل في كل علم تبعا لموضوع هذا العلم: فالرياضيات أو بالأحرى الحساب لأنه أكثر بساطة وكلية من الهندسة والميكانيكا، يتضمن شروط العلم بالإطلاق أي جميع أنواع التحليل والاستدلال بحيث تعود العلاقات الرياضية فتظهر في العلاقات المعقدة، وهذا وجه التجانس بين العلوم، وعلم الفلك يعلمنا فن الملاحظة، فإنه يراجع بالاستقراء فصولا يضعها بالقياس ويعلمنا علم الطبيعة فن التجربة، وتعلمنا الكيمياء فن التصنيف، ويعلمنا علم الحياة الطريقة المقارنة، ويعلمنا علم الاجتماع الطريقة التاريخية، وكلما كان موضوع العلم بسيطا كليا كانت الطريقة

القياسية متقدمة فيه على الطريقة الاستقرائية. وأخيرا إن هذا الترتيب المنطقي مطابق لتدرج ظهور العلوم أو بعبارة أدق لتكونها تكونا واقعيا. فإن الحالات الثلاث تبدو في تاريخ كل علم، فكلما كان موضوع العلم أكثر تعقيداً استغرق وقتا أطول في اجتياز هذه المراحل. لذا كانت العلوم المجردة هي التي تبلغ أولا المرحلة النهائية، ولا تبلغ إليها العلوم المشخصة إلا فيما بعد.

والملاحظ في هذا التصنيف أيضا أنه يبدأ بِالكَمّ، وهناك معان أكثر منه بساطة وكلية هي المعاني المعروضة في المنطق والميتافيزقيا، غير أن (كونت) لا يرى أن للعقل موضوعا خاصا ولا مظهرا إلا في موضوع ويذهب في هذا السبيل إلى حد إنكار استخدام الاشارات في الرياضيات بدل الكميات وإنكار حساب الاحتمالات لأنه عبارة عن إنكار فكرة القانون، وإنكار كل تفسير يجاوز المشاهد مثل تفسير انتشار الضوء بالتموج أو غيره، وتفسير أصل الأنواع الحية بالتطور، وكل وجود لا يقع تحت الحس، مثل وجود الأثير، أو الذرات، ويدعو كل هذا ميتافيزيقيا.

والملاحظة الثانية أن "كونت" يجعل من الفلك علما أساسيا ويضعه في المحل الثاني، والواقع أن علم الفلك يتقوم بالميكانيكا وعلم الطبيعة والكيمياء، فهو إذن علم تطبيقي تابع لهذه العلوم، ويجب أن ينزل عن مكانه لعلم الميكانيكا الذي يتخذ الحركة موضوعاً له، وهي ظاهرة لا يمكن ردها إلى سواها، وهي بادية في جميع الظواهر الطبيعية.

والملاحظة الثالثة: أنه لا يجعل مكانا خاصا لعلم النفس، بل يقسم دراسة الانسان بين علم الحياة وعلم الاجتماع حيث يدرس الانسان في آثاره الخارجية، والواقع أن علم النفس يجيء بينها متصلا بالأول موصلا للثاني، وينكر (كونت) إمكان ملاحظة النفس فيقول: إننا نلاحظ جميع الظواهر بالعقل، فبأي شيء يلاحظ العقل نفسه؟ لا يمكن قسمة العقل إلى قسمين أحدهما يفكر والآخر يلاحظ التفكير. أما الانفعالات النفسية فتكمن ملاحظتها لأن لها عضوا غير عضو العقل. ومعنى هذا أن المادة لا تنعكس على نفسها. ولما كان العقل عند "كونت" وظيفة عضوية، فهو لا ينعكس على نفسه ولا يعلم أفعاله، ولكن هذا الانعكاس وهذا العلم واقعان، وعلم النفس قائم؛ فالمنطق يقضي بأن ننكر عضوية العقل. وقديما استدلّ ارسطو على روحانية النفس بانعكاسها على ذاتها.

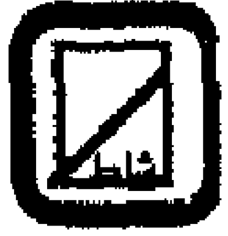
والملاحظة الرابعة: أن "كونت" ينكر بذلك أصالة الظواهر النفسية، وأن جدوله إذ يحتم تبعية العلم الأدنى للعلم الأعلى، يحتم تبعية الظواهر النفسية والظواهر الاجتماعية للرياضيات، وهولم يبيّن هذه التبعية، ولم يبين الفرق بينه وبين الماديين، فما المذهب الحالي في حقيقية الأمر إلا المذهب المادي، مع استدراك متواضع بصدد الروحيات لا يبدو له أي أثر عملي. (انظر يوسف كرم، الفلسفة الحديثة، ص 322)

عزيزي الدارس، إن علم الاجتماع كان من إبداع "أوجست كونت"، حيث خصص له ثلاث مجلدات من كتابه "دروس في الفلسفة الواقعية" وأسماه (Saciolog-ic. وعرف "كونت" هذا العلم بأنه: "العلم الذي يتخذ له موضوعا ملاحظة الظواهر العقلية والأخلاقية التي بها تتكون الجماعات الانسانية وتترقى". وكان كثيرا ما يسميه بالعلم الاجتماعي الطبيعي (Physique Saciale) ليدل على منهجه الاستقرائي وليميز بينه وبين علم السياسة. ويقسم كونت علم الاجتماع إلى قسمين أحدهما الاجتماع الساكن S.statique وهو يفحص عن الشروط الدائمة لوجود المجتمع - أعني الأوضاع الملازمة لذلك. والقسم الآخر للفاعل S.dynamicue وهو يفحص عن قوانين عن المجتمع أي تطور هذه الأوضاع. والقسمان مرتبطان ارتباطا وثيقا. (لمزيد من التفاصيل انظر يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 323-236)

وقد تسأل، عزيزي الدارس، عن نظرة كونت إلي الدين. وفي محاولتي للإجابة عن تساؤلك أقول: أن (كونت) وضع العقل في المحل الأول فهو الذي يستكشف قوانين الوجود، ويؤثر في العاطفة فيحدث أخلاقا ومؤسسات اجتماعية. وهو يرى أن قيمة العقل تنحصر في نتائجه العملية، وأن هذه النتائج تتوقف على الظروف الخارجية، في حين أن العاطة توفر لنا رضا باطنا مباشرا، وبهذا يقدم العاطفة إلى المحل الأول كي تنير العقل فينتهي بذلك إلى الحالة اللاهوتية.

ونستطيع أن نجمل الصورة التي وضعها (كونت) للدين بأنه جعله خاصية النوع الإنسان وعرّفه بأنه المبدأ الأكبر الموحّد لجميع قوى الفرد ولجميع الأفراد فيما بينهم وذلك بنصب غاية واحدة لجميع الأفعال وهو (أي الدين) الذي يكفل وحدة المعرفة إذ تحصل هذه المعرفة بالنظر إلى العالم من حيث علاقاته بالإنسانية التي هي أرفع المعاني من الوجهة الذاتية، فلا يوجد الفرد إلا بفضل الماضي، ولا يستمد أسباب الحياة المادية والعقلية والخلقية إلا من الانسانية، فديانة الإنسانية (عبادة الإنسانية) باعتبارها (الموجود الأعظم)، والذي تشارك فيه الموجودات الماضية والحاضرة والمستقبلية في تقدم بني

الانسان وسعادتهم. والعبادة عند كونت مشتركة وفردية. فالمشتركة تقوم في أعياد تذكارية تكريما للمحسنين إلى الانسانية. وفي الفردية يتخذ الفرد الأشخاص الأعزاء نماذج للمثل الأعلى.



نشاط (8)

ارجع إلى كتاب (رأس المال) لكارل ماركس ولخص فكرة فيه وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.



تدريب (8)

وضح معنى الفكرة ونقيضها عند هيجل؟



أسئلة التقويم الذاتي (8)

صف المراحل التي مرّ بها الفكر في تطوره حسب رأي اوجست كونت؟

7. فلسفات الحضارة المعاصرة

1.7 توينبي، أرنولد 1889-1976م

أنقل إليك، عزيزي الدارس، فيما يلي السيرة الذاتية لتوينبي قبل أن اسرد عليك نظريته التاريخية فأقول بأن توينبي فيلسوف بريطاني، وأكبر مؤرخ عالمي معاصر. ولد في لندن ودرس في جامعة أكسفورد وتخرج منها، ثم التحق بمدرسة علم الآثار البريطانية في أثينا، وكان لهذا أثر واضح في نظرته إلى تَحَدّر الحضارات، وقبل أن يلتحق بقسم الاستخبارات السياسية في وزارة الخارجية البريطانية عام 1915م، عمل مدرسا في أكسفورد ونشر كتابه (القومية والحرب) و (أوروبا الجديدة) وفي أثناء عمله في وزارة الخارجية كتب أكثر من مطالعة داخلية مركزة حول تعارض وعد بفور مع التزامات بريطانيا إزاء العرب، بموجب مراسلات حسين - مكماهون. وقد اتخذ الموقف نفسه عندما كان عضوا في الوفد البريطاني أثناء مؤتمر السلام المنعقد في باريس عام 1919م. (انظر الموسوعة السياسية، ج 1، ص 833)

ترك توينبي خدمته في الحكومة بعد مؤتمر باريس ليصبح استاذا للتاريخ البيزنطي واليوناني المعاصر في جامعة لندن. وقبل العمل مراسلا لجريدة المانشستر غارديان (121-1922م) أثناء الحرب التركية اليونانية، ونشر نتيجة لتجربته تلك، كتاب: "المسألة الغربية في اليونان وتركيا" عام 19221م وفي عام 1925م عين أستاذا للتاريخ الدولي في أشهر كليات جامعة لندن، ومديرا للدراسات في المعهد الملكي للشؤون الدولية وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ((1943-1946م ترأس قسم الدراسات في وزارة الخارجية واحتفظ بأستاذيته في جامعة لندن حتى تقاعده في عام 1956م. (انظر الموسوعة السياسية، ج1، ص 833؛ والموسوعة العربية الميسرة، ج1، ص 561)

وعلى الرغم من تعدّد مجالات دراسات توينبي وغزارة إنتاجه، ونشره للعديد منها مثل: " الفكر التاريخي اليوناني" 1924م، و "العالم بعد مؤتمر السلام" الذي نشره عام 1925م، و "رحلة إلى الصين" 1931م، و "المدنية تحت المحاكمة" 1948م، و " العرب والحضارة" 1951م، و " العالم والعرب" 1953م. فإن أعظم أعمال توينبي وأهمها إطلاقا هو كتاب "دراسة في التاريخ". وذلك العمل التاريخي الجبار الذي نشره ما بين عام1934-1961م ويقع في 12 جزءا. وتعتبر أهم وأعمق محاولة من نوعها لدراسة تاريخ البشرية.

والآن تعال بنا، عزيزي الدارس، نتعرف علي نظرية توينبي في التاريخ: وابتداء أود أن أؤكد لك أن توينبي تأثر كثيرا بالمؤرخ البريطاني "توماس كارل لابل"، الذي ركز على أهمية دور البطل في التاريخ. كما تجدر الملاحظة إلا أن توينبي عارض نظرية "شبنغلر" القائلة بأن المجتمعات هي كالكائنات الحية، ونظرية "ادوارد غيبون" بأن سقوط الإمبراطورية الرومانية كان بفعل الهجمات الخارجية.

يبدأ توينبي في كتابه "دراسة في التاريخ" بتصحيح وحدة الدراسة التاريخية ومنطلقها فهو يرفض المفاهيم التجزيئية كالحتمية التارخية، والدول القومية كوحدات منفصلة. ويعتمد توينبي الحضارة كأساس للوحدة التاريخية. وهو يقسم التاريخ إلى 21 حضارة متطورة وخمس حضارات متوقفة أو جامدة ثم يدرس تطور هذه الحضارات ويقارن فيما بينها. محاولا اكتشاف قوانين النشوء والنمو والانحلال الحضاري.

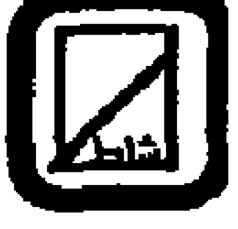
ويرى توينبي أن بداية النمو الحضاري تظهر على شكل استجابة لتحدّي ما في البيئة، وعلى هذا التحدّي أن لا يكون قاسيا ومنيعا لدرجة خنق التطور، ولا أن يكون سهلا لدرجة الليونة فيحول دون توليد الفكر الخلاّق عند الأقلية القائدة المبتكرة الرائدة

للاستجابة. والتي لا تلبث أن تقود الأكثرية غير المبادرة وتحوز على ولائها. ومن المهم أن تلاحظ - عزيزي الدارس - أن توينبي يقلل - إذا ما قيس بغيره من المؤرخين وفلاسفة التاريخ - من أهمية العامل الجغرافي المحض أو العنصر كبدايات مكوّنة للتحدّي والاستجابة. وهو يركز كذلك على العامل الديني والغيبي أحيانا في الهام الأقلية القائدة الخلاّقة لابتكار محركات الاستجابة في المجتمع ويبلور نظرية (الانكفاء والعودة) عند أنبياء اليهودية والمسيحية والإسلام والبوذية. أي الانسحاب من العالم للتأمل وإعمال الفكر، ثم العودة إلى الأقلية النخبوية الخلاقة لإقناعها بالمعتقدات والنظرات الجديدة كي تتولى هذه الأقلية بدورها صنع الحضارات والتاريخ. (انظر موسوعة السياسة، ج 1، ص 834)

وتلي مراحل النشوء والارتقاء مراحل الهبوط والانحلال، ذلك أن الحركات الجديدة تندفع لتحقيق نفسها في دولة كونية تكتمل بواسطة الفتح والقوة، لا من خلال القناعة العامة بقبولها، وتأخذ الجماعات الهامشية والحدودية بالتسلّل والاختراق في وقت تضعف فيه القدرة الإبداعية عند الأقلية الخلاقة والتي تتحول تدريجيا - بفعل فقدانها غيرة الابتكار والتجدد - إلى أقلية مهيمنة فحسب. وفي إبان عملية الهبوط والانحلال يضعف الشعور بالتضامن. وتتسع الانقسامات التي تتحول إلى اقتتال إما بين الدول أو بين الطبقات والفئات الاجتماعية ويرافق الحفاظ على الدولة الكونية الجامعة بالقوة نشوء بروليتاريا خارجية وأخرى داخلية تحتويها الأقلية المهيمنة من خلال استخدام القوة. فتكون ردة فعل البروليتاريا الداخلية بناء ديانة عالمية جديدة وتعمد البروليتاريا الخارجية على إدخال عادات وقيم غريبة عن المجتمع القائم. الأمر الذي يقود إلى مصادر جديدة للحيوية الروحية ويؤدي إلى نشوء حضارة جديدة. (انظر الموسوعة السياسية، ج 1، ص 834)

انتُقِدَ توينبي في أنه حاول تعميم التجربة اليونانية، حيث أنه قد تأثر فيها. وأنه حاول تطويع تحليله لتطور الحضارات الأخرى لتناسب القوالب التي وضعها مسبقا. وانتقده الماركسيون بسبب تركيزه على أهمية العامل الديني كمحرك للتاريخ على أنه ينزع نزعة غيبية لا علمية. مع العلم أن توينبي نفسه كان مترددا في إطلاق النبوءات المستقبلية. واعلم - عزيزي الدارس - أن توينبي قيّم بعض الظواهر السياسية الأساسية في هذا العصر. فقد نُعِتَ الغرب بالمعتدي الأكبر في العصور الحديثة، وأدان ظاهرة الإمبرالية، وناصر القضية الفلسطينية، ووصف الصهيونية بالعدوان على عرب

فلسطين، الأمر الذي عرّضه لهجوم واسع. هذا وقد أيد توينبي فكرة الوحدة العربية، الأمر الذي دعا اتحاد المؤرخين العرب إلى تقديره وتكريمه في الندوة العالمية الخاصة التي عقدت عام 1977م. (انظر الموسوعة السياسية، ج 1، ص 831)



نشاط (9)

* إقرأ في كتاب "دراسة في التاريخ" لآرنولد توينبي الجزأين 11، 12 وبيّن كيف ناقش توينبي الذين انتقدوه في آرائه.

* اشرح فكرة ابن خلدون في الحضارة.



تدريب (9)

عدد ثلاثة أعمال لآرنولد توينبي.



أسئلة التقويم الذاتي (9)

اشرح مبدأ التحدي والاستجابة عند توينبي كبداية للنمو الحضاري.

2.7 شبنغلر، أوزوالد (1880-1936م)

فيلسوف ومؤرخ ألماني، تناول بالدراسة موضوعات كثيرة في الرياضيات والعلوم والفلسفة والتاريخ والفن. ذاع صيته بعد نشر مؤلفه الرئيس (انهيار الغرب) في جزأين بين عام 1918-1922م. وبعد نشر ترجمته عام 1926-1928م (تدهور الحضارة الغربية) في ثلاثة أجزاء حاز شبنغلر على شهرة عالمية واسعة. (انظر الموسوعة السياسية، ج 3، ص 437، والموسوعة العربية الميسرة، ج 1، ص 164؛ وانظر ايضاً مقدمة كتاب تدهور الحضارة الغربية، ص 8 فما بعد).

فما هي نظرة شبنغلر إلى الحضارة؟ لقد ذهب شبنغلر إلى أن للحضارات دورة حياة كاملة (نشوء - ازدهار - احتضار) فكل ثقافة تجتاز مرحلة الشباب فالنضج فالشيخوخة المؤدية إلى الموت. وهنا قد تلمس - عزيزي الدارس - بعض الأثر لفلسفة ابن خلدون في التاريخ عند شبنغلر. وعليه فقد رأى شبنغلر أن الحضارة الغربية قد

جاوزت مـرحلة الازدهار ودخلت في مرحلة الترف الحضاري والانهـيار، وهو انهـيار حتمي لا مـفرّ منه. إذ ستهزم الحضـارة الغربية أمام الجنس الأصفـر هذا ويمجّد شبنغلر الروح البروسية القديمة والنزعة العـسكرية، ويدعو إلي إطاعة الدولة ويؤيد سيطرة ألمانيا على أوروبا. (انظر الموسوعة السياسية، ج 3، ص 428)

لقد رأى شـبنغلر أن بإمكان المؤرخ أن يتنبأ بالأشكال والبنى الروحيـة، وبالإيقاع وبالمدى الزمني وبالمعنى والنتاج بالنسـبة للمراحل القادمة لـلحضارات التي هي في طور الصيرورة. وذهب شبنغلر إلى القول بأن لكل حضارة روحـها المستقلة الخاصة بها والتي لا يمكن تقمّصها أو نقلها إلى حضارة أخرى.

لقد اعتـبرت، عزيزي الدارس، بعض الدوائر الغـربية نظريات شبنغلر مـساهمة رئيسـة في النظرية الاجتماعـية، في حين اعتبـرت بعض المدارس الشيوعـية نظرياته في التاريخ بمثـابة تمهيد للمنظرين النازيـين الألمان وبالفعل لقد حـاول شبنغلر أن يلعب دور المعلّق السياسي غير أن النازيين انتقدوه لرفضه تبنّي نظرية التفوق العنصري، وما لبثوا أن عزلوه.

3.7 شفايتزر، ألبرت (1875-1965م)

فيلســوف فرنسي، درس الطب واللاهوت المسيـحي وكان موسـيقيـا. حاز على جائزة نوبل للسـلام عام 1952م، أقام في الغـابون في أواسط إفريقـيا (وكـانت تابعة لفرنسـا انذاك) يعالج الآهلين بدافع إنساني حـيث قضى هناك سحابة حـياته، فلم تكن رحلاته المتكررة إلى اوروبا إلا بقصد جمع المال للأعمال الخيـرية والتبشيرية في افريقيا. (انظر الموسوعة الميسرة، ج 3، ص 506)

كان شفايتزر موضع تقدير وإعجاب في الدوائر الغـربية بفضل سمعته في افريقيا وبفضل تفـوقه كعازف للارغن وكمـؤرخ وموسيقي. وبسـبب فلسفته التي عـرضها في عمله الرئيس: "فلسفة الحضارة" والتي لخصـها في الجزء الأخير منها وعنوانه: "احترام الحياة".

لقد حاول شفايتزر التـوفيق بين الأنانية (حب الذات) والأخروية (حب الآخرين) من خلال مبدأ احترام الحياة والدعوة لأجل تطوير ممكن لموارد الفرد.

وعلى الرغم من التزام شفايتزر العميق بالدين المسـيحي، فقد رفض فكرة عصمة

المسيح. هذا وتشمل أعماله اللاهوتية "البحث عن يسوع كشخصية تاريخية". كما أنه كتب عام 1932م سيرته الذاتية ونشر العديد من الكتب عن عمله الطبي في افريقيا.

4.7 كاسيرر، آرنست (1874-1945م)

فيلسوف ألماني، درس علاقة العلم بالفلسفة، وكتب في طبيعة الدولة، وفي مبحث الجمال، وفي طبيعة المعنى. عمل استاذا في هامبورغ (1919-1923م) ثم عين محاضرا في جامعة أكسفورد، ثم انتقل بعدها إلى الولايات المتحدة.

من أعمال كاسبرر: (فلسفة الصور الرمزية) و (اللغة والأساطير) و (أسطورة الدولة) و (مقال في الإنسان والاستنارة). (انظر الموسوعة السياسية، ج 2، ص 1427).

5.7 بردياييف، نقولا (1874-1924م)

فيلسوف ومفكر سياسي، ولد في مدينة كييف، طرد من الجامعة بسبب أفكاره (الثورية) فهاجر إلى ألمانيا حيث درس الفلسفة الألمانية، ثم عاد إلى روسيا، حيث انفصل عن الماركسية وعاد إلى الإيمان المسيحي، وعند اندلاع الثورة طردته الحكومة البلشفية فالتجأ إلى فرنسا وتوفي فيها.

يعتبر بردياييف من مؤسسي التيار (الوجود المسيحي) الممزوج بالكثير من الأفكار الصوفية. (انظر الموسوعة السياسية، ج 1، ص 519/518)

6.7 ماركوز، هربرت (1898-1979م)

فيلسوف ومفكر سياسي أمريكي من أصل ألماني، ولد في برلين من عائلة برجوازية يهودية مندمجة في الحياة الألمانية. غادر ماركوز ألمانيا هربا من النازية في عام 1932م حيث ذهب إلى جنيف ثم إلى باريس عام 1933م ثم إلى نيويورك عام 1934م. وَدَرّسَ في جامعات كولومبيا، هارفارد، وبرانديز استاذا للفلسفة والعلوم السياسية، وأخيرا استقر في امريكا عام 1966م. (انظر الموسوعة السياسية، ج 5، ص 651)

انضم ماركوز إلى صفوف الحزب الاشتراكي الديموقراطي بعد الحرب العالمية الأولى وانتصار الثورة الروسية عام 1917م، غير أنه ما لبث أن ترك الحزب متهما إياه

بالرجعية، تتلمذ على هوسرل Husserl وهيدغر Heidegger الذي أشرف على أطروحته. (انطولوجيا هيفل والأسس لنظرية التاريخ).

لم يكن ماركوز معروفا في البداية، إلا من جمهور محدود من الجامعيين ومن بعض الاختصاصيين، إلا أن ارتباط اسمه بالثورات الطلابية وخاصة بانتفاضة أيار/مايو عام 1968م في فرنسا، أدخله عالم الشهرة خاصة في الغرب حيث أصبح يلقب بفيلسوف الاحتجاج.

لم يبدأ ماركوز بنشر أعماله إلا في فترة متأخرة من حياته. حيث نشر كتابه (الجنس والحضارة) وقد بلغ من العمر ثمانية وخمسين عاما، في حين أصدر مؤلفه (الإنسان ذو البعد الواحد) وهو في سن السادسة والستين. (انظر الموسوعة السياسية، ج 5، ص 652)

والملاحظ في فكر ماركوز قيامه خلال فترة الثلاثينيات بمحاولة مصالحة الماركسية والظواهراتية (الفينومينولوجي) وتخلّى في كتاباته اللاحقة عن التفكير الفلسفي المجرد وانكبّ على دراسة المشاكل الاجتماعية والسياسية من خلال مواجهة الفلسفة الهيغلية فيما يخص مسألة العقلانية والتطور التاريخي، وهذا ما عبّر عنه في كتابه (الماركسية السوفييتية) الصادر عام 1958م.

بدأ ماركوز، عزيزي الدارس، بدراسة تطور المجتمعات التي تبنت الاشتراكية، وبشكلٍ خاص المجتمع الروسي، فلاحظ مدى الهوة التي تفصل بين النظرية والواقع، وهذا ما اعتبره نوع من النكوص بالنسبة لواضعي النظرية الماركسية اللينينية.

إن مقولة الكتاب الرئيسة تدور حول انحطاط الفكر الثوري في البلدان الرأسمالية، وتكيف الحركات العمالية والنقابات والأحزاب في المجتمع المفترض محاربته، في وقتٍ فشلت فيه الثورة في روسيا في بناء الاشتراكية، مما حدا بالأحزاب الشيوعية إلى التحول إلى أحزاب اشتراكية ديموقراطية. فهو وإن تبنّى مقولة الارستقراطية العماليّة، يرى أن تفسير لينين كاف وأن الرهان أكبر من ذلك بكثير، فتطور الحركة العمالية يدفع بها للحفاظ على المجتمع أو تهديمه، والأحزاب الشيوعية أصبحت أحزاباً إصلاحية من خلال تخلّيها عن العنف الثوري وديكتاتورية البروليتاريا وقبولها اللعبة البرلمانية والإصلاح الاجتماعي. وهذا ما يبرر في نظره الأخذ بعين الاعتبار القوى السياسية الجديدة. هذه النظرة تبنتها حركة اليسار الجديد، خلال السنوات 1966-1968م في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها من البلدان. (انظر الموسوعة السياسية، ج 5، ص 652)

عزيزي الدارس، بقي ماركوز ماركسيا أكاديميا - ملتزما مدرسة فرانكفورت، دون أن يكون له طلب خاص به إلى أن صدر كتابه "الجنس والحضارة" عام 1954م، ومع صدور هذا الكتاب حصل تغيير كبير في تفكير ماركوز، خاصة بعد قراءاته المعمقة لمؤلفات فرويد وخصوصا لكتابه (عسر في الحضارة) 1929م فهو يتأمل في مصدر القمع الاجتماعي والغريزي ويتساءل عن إمكانية ايجاد حضارة غير قمعية.

يبتعد ماركوز عن التراث التقليدي للتحليل النفسي وعن محاولات " رايخ" لمصالحة الماركسية والفرويدية. وينتقد الفرويدية الجديدة (فروم، هورني، سيليفان) التي حولت التحليل النفسي إلى ايدولوجية تكيّف مع المجتمع. فماركوز لا يضع موضع الشك ضرورة الكبت أو التخلّي عن مبدأ اللذة لصالح مبدأ الواقع، بل يتساءل عن طبيعة مضمون الواقع والقمع في المجتمعات الصناعية. ففي هذه المجتمعات حصلت نقلة لهذين المبدأين. فمبدأ الواقع حلّ محله مبدأ المردود، حيث أن الفرد أصبح مجبرا فقط ليس عن التخلي عن مبدأ اللذة، بل على التضحية بالقسم الأكبر من وقته وحيويته لصالح المردود العبثي عديم الفائدة.

وفي هذه الحال يطلق ماركوز تعبير القمع المفرط على القمع عديم الجدوى واللاعقلاني المعبر عن واقع المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. (انظر موسوعة السياسة، ج 5، ص 652)

أما في كتابه: (الإنسان ذو البعد الواحد) 1966م فإن ماركوز يضع على طرفي النقيض مجتمع الرأسمالية الأميركية وطوباوية مجتمع أكثر حرية وسعادة، فأهمية هذا الكتاب تكمن في الوصف المنهجي لكل ميكانزميات الرقابة في المجتمع الأمريكي. فهو يبرهن أن الجنس واللاوعي والمعارضة السياسية مجبرة على التكيّف ومصالحة النظام مقابل ما يقدمه هذا الأخير من سعادة. فالنظام قادر عى صنع حاجات وأحلام مزيفة. وهذا ما يحول دون وضع أسسه موضع البحث، بشكلٍ جذري، ويسهل في الوقت ذاته استيعاب القمع. (انظر موسوعة السياسة، ج 5، ص 653)

ويرى ماركوز أن الفن والثقافة والأدب والجنس كاللاوعي، تنخرط في هذه العملية، فالثقافة أصبحت ذات بعد واحد، والجنس وإن أصبح أقل عرضة للقمع، فإنه حُرم وَجُرّدَ من مضمونه الثوري وأصبح لا يهدد أحداً بل يقوم دعائم ميكانزمات التكيف والقمع.

والسؤال الوارد إزاء هذا كله: كيف يمكن للثورة أن تعتمد على التنظيمات السياسية التقليدية؟ ولم يفقد ماركوز الأمل، فهو لا يضع آماله في الأحزاب والنقابات بقدر ما يضعها على من هم مبعدون من هذا المجتمع. السود، الفقراء، الأقليات المستغلة، المثقفون الراديكاليون، والشبيبة التي ترفض النظام لأسباب جمالية وأخلاقية، سياسية أو غريزية.

أما كتاباه: "نحو التحرير" 1970م، و"الثورة المضادة والانتفاضة" 1972م فهما امتداد لكتابه الأخير، إذ يحاول أن يكشف عن العوامل التي يقوم عليها النظام بغية ضربه وتدميره.

عزيزي الدارس، إن ما يمكن أن نستخلصه من كتابات ماركوز هي مساهمته الجوهرية في صياغة نظرية نقدية للمجتمع، وإيمانه بالرومانسية والطوباوية في وقت تتحجر فيه الأيدولوجيات وتتخلّى الفلسفات عن بعدها النقدي، فكانت حياة ماركوز صراعا مستجدا للدفاع عن قدرتين يتحلى بهما الانسان: الفكر السلبي والتخلي، وهما قدرتان على طريق الزوال. (انظر موسوعة السياسة، ج 5، ص 653)

8. مستقبل الحضارة

وسأحاول، عزيزي الدارس، في السطور التالية أن أضع خلاصة وتَطلّعاً لمستقبل الحضارة. إذ أن الاستعراضات التي لاحظناها في سير المجتمعات في الحضارة توقظ فينا حسّا تقييميا جديدا نحو ازدهار المجتمعات، وثراء أفرادها، وهي تشير إلى ضرورة التخطيط الاجتماعي لملاقاة الانحراف الذي يمكن أن يحدث من جراء طفرة الثراء في البلاد المنفتحة حديثا على الالة. هي توقظ وتؤكد بإصرار إلى أن علم الانسان حديثا وفن التخطيط الاجتماعي من قِبَل مؤسسة الدولة، لم يعد يسمح بأن يبقى المجتمع مستسلما للصيرورة الغبية التي يقوده اليها التاريخ قسرا، مجاراة للغرائز والنوازع الساذجة في النفس الانسانية. فلم يعد الوعي العلمي الاجتماعي لقضايا السياسة والاجتماع يسمح بأن يموت البعض من التخمة والترهل وكثرة البطالة والبعض الاخر يعيش بالجوع والحقد والصراع مع المستحيل.

إن الثروة حينما تكون هدفا رئيسأ للفرد، تكون قاتلة لدوافع البناء في الانسان. إذ عندئذ تتحكّم بدافع الإبداع ومثل السلوك وتمتلك قواعد الأخلاق، فتكون هي فوق الانسان وقيمه بكميات أشيائها وبكامل أرقامها في المدخول والمصروف. إنها بدلا من أن تكون وسيلة للبناء ومساعدا للسير إلى الامام تصبح رابطا يشد إلى الخمول ويدفع إلى الانحلال.

لقد أصابت الماركسية عندما نشرت حركة تطور المجتمع في التاريخ وفق عوامل الاقتصاد، فالمجتمعات التاريخية حتي الآن لم يدخل في تنظيمها العقل العلمي الجديد الذي يجب أن يرعى بحذرٍ جميع ظواهر التحلّل في المجتمعات. كما أن الثراء الفردي كان فيها جميعا المثل الأعلي لكل الأفراد. كما أنها أصابت كذلك عندما فسّرت دافع الحركة بالحقد والتغلّب في الصراع. لكن مع تخطيط المستقبل لم يبق هناك مجال لاستعمال وسائط التطور هذه في المجتمعات التي بلغ فيها الوعي إلى تلافي الثورات. أو في أخرى التي اجتازت هذه المرحلة بالدماء. فقد كان التاريخ بتجربته مع الدولة مراقبا للأشخاص الذين تَلْتقي مصالحهم فيتعاونون لتكوين دولة ذات سلطة، يتحكمون بها وفق رغباتهم، وبها يحمون أطماعهم بالثراء. أما الآن بعد الوعي الإنساني، فأصبحت الدولة بقدراتها على التخطيط هي التي توحّد وتوجّه رغبات الجماعة التي ترعاها، فتكون بوعي سابق حركة التاريخ، وتضع التنبؤات عن طريق التنظيم الاقتصادي، ليس لما يمكن أن ينتج من ريعٍ لرساميل موظفة أو مشاريع إنشائية تحمل البلاد إلى الازدهار.

لقد بدت في التاريخ فترات بالجوع رضي خلالها الناس الجوع والتشريد، وصنوفا كثيرة من العذاب في سبيل فكرة عليا لا ترافقها الغنائم والمراكز والأسلاب. في هذه الفترة ضحى الإنسان بكل ما يملك لتوكيد معنى إنسانيته وحريته في عقيدته بعيدا عن الأهداف المادية المحدودة. وبذلك دلّ على سمو ذاتي عندما يستيقظ منه، يتخلى عن جزئيات أشياء العالم. والتنظيم الاقتصادي المطالب به للإنسانية المعاصرة هو الذي يفتح المجال للإنسان للتطلّع إلى ما فوق هذه الجزيئات، ما دام لا يزال يملك نزعة التطلّع التي تبرز في ندرة الفترات. يطالب التاريخ بأن يعود الناس إلى رحالهم ويدعو العرب ليعودوا بالشاة والبعير والأموال إلى ذويهم كما قال الرسول (عليه السلام) للأنصار بعد غزوة حنين، وبعد أن وزع الغنائم على غيرهم: "أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد

بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار" قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا. (ابن هشام، ج 1، ص 106)

بهذه الروح يرتفع كل مجتمع ويتعاطف ويتعاون أفراده، فيصعد في الحضارة منذ حضارة الفؤوس وحجارة الصوان حتى عصر غزو الكواكب. وبانعدامها تنعدم حضارة المجتمع مهما كانت مظاهرها من الثراء والرفاه. ومجالات علم الاجتماع المستقبلي المعاصر هو دراسة كيفية تلافي سقوط المجتمع سقوطا سهلا بمثل هذا الانحلال الساذج. فقد أصبح بإمكان الدولة المعاصرة أن تقي الاتجاه العام في المجتمع للتحكم بتوجيهه صوب المتانة والقوة. (انظر يوسف حوراني، ص 171-173)

والسؤال المطروح – عزيزي الدارس – يكمن في: هل تكون الحضارة الحديثة قد استنزفت ذاتها على يد الاوروبيين وبدأ التاريخ يُعِدُّ لحضارة جديدة؟

إن قوة الدفع التي نقلت أوروبا من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، كانت في اتجاه واحد يتمثّل في توكيد معنى الإنسان الفرد. وقد تم ذلك في عدة قرون، استطاع التطور خلالها أن يحمل في مضامينه تقاليد وأعرافاً وسلوكا خاصا متميزا بتحرره، ابتداء من اللباس والأزياء، ومواعيد وجبات الطعام وأيام العمل والراحة، والتعامل مع أجهزة السلطة، حتى حفلات الرقص وحرية التقبل والرفض للأفكار.

وإذا قُدّرَ لهذا الاتجاه الانساني أن يستطرد بالنمو، فيجب أن يلتزم القواعد الرئيسة التي سار عليها تقدمه حتى الآن. وأولى هذه القواعد كان شعور الإنسان بحريته في أن يفكر بما يشاء ويقول ما يريد، وشعوره الأعظم بأنه ملزم بالبحث عن طريق العدالة الأسلم للمجتمع الذي هو منه، والذي له الحق بانتقاد قوانينه وأنظمته، واقتراح الأصلح والأنسب لمواءمة ظروف التطور المستخدمة فيه.

ويبدو أن شعوب أوروبا الغربية، التي قامت بحركة التمرّد على العالم القديم، وبنت بحماسها العالم الحديث، قد بلغت القمة وتجاوزتها إلى المنحدر الآخر، دون أن تدري لترسخ أقدامها فوقها. فالتجربة الفرنسية الثورية في أواخر القرن الثامن عشر، لم تكن مجرد حركة إصلاح، كالحركات التطورية المألوفة في التاريخ، بل شكلت الانفجار الأكبر لما تم تجميعه منذ القرن الثالث عشر، وما كان يطلب من هذا الانفجار العظيم هو أن ينتقل الإنسان الأوروبي إلى عالم اكثر قدرة على الثبات أمام سير الزمن، وأشد قابلية

لمواءمة متطلبات التقدم الآلي العظيم الذي حدث بعد ذلك. ولكن الاصلاحات التي جاءت عنها الأنظمة التي حدّدت وضع الانسان في المجتمع، والأفكار التي فسّرت خلالها وجود الانسان في العالم لم تكن ثورية انقلابية تستحق الدماء التي بذلت في سبيلها والخراب الذي عمّ أوروبا من نتائجها وهكذا عمّ الفشل وانتشر التخاذل والهدم بين اولئلك الذين تحمسوا لها. وقد بدأ البحث بعدها عن غايات أصلح يعبّرو خلالها الانسان عن انسانيته ويحي قيم حريته، ويجسّد في مثلها حنينه.

لقد برزت هذه الغايات التي لم تستطع الثورة الفرنسية تحقيقها متفرقة متباينة بأشكالها، فاتخذ الادباء والفنانون سبل الروماتيكية للتعبير عن الوجدان الانساني. ونزع علماء الاجتماع والمصلحون إلى النظريات الاشتراكية المختلفة لتحقيق انسانية الطبقات المغبونة. واتجه السياسيون إلى إحياء وتنشيط النزعة القومية لملء الفراغ الميتافزيقي الذي حدث بسقوط الايمان الديني الذي كان يلأم المجتمع إلى بعضه ويسوس له أخلاقيته. وعم المتدينين القلائل شعور بالتشفّي، ونظرة استصغار لجميع هذه الحركات التي فشلت، بأن تقوم محل ميتافيزيقية الدين. فنشط بعض المفكرين المؤمنين بالدعوة لإخضاع السياسة من جديد إلى سلطان رجال الدين وأدلى المفكرون العلميون بدلوهم بين هذه الدلاء. وقد راعهم أن لا يستطيع العلم بموضوعيته أن يوجد حلاً لهذه الأزمة، فانبرى «أوغست كونت» لخلق ديانة جديدة باسم آلة العلم.

وعندما نشط التطوريون لنشر «اختيار الأصلح» وتشجيع الصراع الحر، كان اليأس قد بلغ منهم مبلغه من الإصلاح الجماعي القائم على النظريات. وقد انتشرت هذه النزعة العقائدية وتغلغلت بالنفوس إلى حد جعل اختمارها ينفجر بأعنف حركة عنصرية منظمة عرفها التاريخ ذات مناهج وأهدافٍ صريحة، وهي الحركة الفاشية التي تغذت بالايمان بالعلم التطوري والفكر النتشوي المتمرد، وانفجرت بالحرب العالمية الثانية في القرن العشرين.

ومن الجدير ملاحظته أن بذرة الخراب للروح الحضارية كانت تنمو مع نمو الاقتصاد لدول اوروبا التي ازدهرت فيها هذه الروح. فهذه الدول لم يرسخ بناؤها الاقتصادي على أسس ذاتية، رغم أن وجهة الحضارة بأكملها كانت تقوم على وعي الذات واكتشاف الامكانات الشخصية الانسانية للاعتماد عليها. اعتمدت هذه الدول مستعمرات خارجية تجني منها رفاهها، فاستعمرت أغلب البلاد الأخرى المختلفة في آسيا وافريقيا. وقد استعملت أنظمتها واجهزتها الحضارية الآلية والأدبية لجني أكبر فائدة ممكنة

من هذه البلاد، وَقُـدّرَ للروح الحضارية أن تعم بهذه الـطريقة على الشعوب المتـخلفة. فنشطت بينها نزعة وعي الذات، وابتدأ عندها التـقييم لمعنى الانسان وامكاناته يتبع نفس الخط الذي اتبعـته شـعوب اوروبا من قبل، وهكذا راح الوعي يتـقدم مع تقـدم وسائل المستـعمرين لاسـتغلال ثروات الطبـيعة في بلاد المسـتعمـرات. ومع هذا الوعي نشأت المقاومة لمنع الاستغلال وبدأت المطالبة بالحرية والاستقلال.

وقد اختلفت بهـذا المنهج الحضارة الأوروبية عن الحضارات الدينيـة السابقة لها، كالإسـلام والمسيحيـة. إذ بينما كانت الشـعوب المتدينة ترسل المبـشرين وتشعـر بالراحة النفـسيـة عندما ينـجح هؤلاء بكسب الأنصار والأتبـاع للدين، نجـد هذه الشعـوب مع الحضارة المعاصـرة تعاني المرارة من الضرائب الباهظة في سبـيل التلويح للشعوب بالدين الجديد «دين الحـرية»، ومنعها بـقوة السلاح من أخـذه والمباشرة بطقـوسه وما التـجربة الفرنسـية في الهند الصـينية والجـزائر الا نموذج في هذه االمعاناة الإنسـانية التي مـرّ بها الشعب الفرنسي وهو الشعب العريق في الطقوس الإنسانية المعاصرة.

وهكذا فلم تضيع الحـضارة الأوروبية هدفيـتها الميـتافيزيقـية ببلوغها قـمة الوعي العلمي للإنسان فحسب، وإنما اكتملت عدتها لـلانهيار الذاتي وتأهلت للتبعية للآخرين بطريق مقوماتها الاقتصادية.

وعليك أن تنتـبه، عزيـزي الدارس، إلى أن هناك شريحـتين من عالم الحـضارة المعاصرة، شريحـتان لا تزالان في طور النشاط وتبيحان للدارسين والمتـرقبين أن يرسموا تنبؤاتهم فوقها بجرأة وثقة بسير التاريخ بهما. وهما الشريحة الأمريكية والتجربة الروسية الحديثة.

إن العـوامل التي قادت أمـريكا إلى الازدهار هي غـير العـوامل التي تماثلهـا في أوروبا. فالمجتمع في أمريكا ليس مـجتمعاً تاريخياً، يعاني من سيطرة التـقاليد، كما أنه لا يملك المجال الصالـح للعصبية القـومية. وليس فيـه سلطة للغيبيـات فهو بذلك دون سلطان ميـتافيـزيقي تاريخي، وأي تقييم للإنسـان فيه إنما يأتي من خـلال الفرد، ووفق مخطط المنطق الإنساني وقد بلغ انسـجامه مع المنطق الحضري شأوا بعيدا برفـضه التشبه بالاستـعمار الأوروبي، وبانطـلاقة تحرير العـبيد زمن الرئيس ابراهام لنـكولن في القرن الماضي.

لم يكن في أمريكا إقطاعـيون كما لم تتكون ايديولوجـية عائلية تاريخـية، كتلك التي في بلاد المجتـمعات القـديمة. ولذا لم يصطدم المنطق الجديد، الباحث عن هدفـية

ميتافيـزيقية يرتبط بها ليعبر عن ذاته، سوى ماهيـة الإنسان الفرد في المجتمع دون النظر في عنصـره وتاريخـه، ذلك النظر الذي اصطدمت به الحـضـارة في اوروبا. وإذا شـئنا المقارنـة بين النزعة الديموقـراطية الأمريـكية المعاصـرة، وبين النزعات التـي وجدت في أوروبا، لما وجدنا شـبيهاً لها الا في الحـركة الفلسفيـة التي تزعمها مـاركس، والداعية لإزالة الطبقية والقضـاء على الايدولوجيات التاريخية، وتكوين مجتـمع يسهم فيه الفرد اسهـاماً بكامل امكاناته وواجـباته لينال حقـوقه ومسـاواته مع الآخرين هذا مع اسـتثناء تفاوت الثراء الفردي وتفاوت الثراء الاجتماعي العام إذا قورن بالمجتمعات الأخرى.

إن هذه الظاهرة ظاهرة هامة في أساس الحضارة، إذ تكون أمـريكا بها قد سبقت جميع الشعوب في سيرها إلى الفردية العالميـة، التي سيصلها كل انسان عندما يرسخ فيه المنطق العلمي، ويكتمل وعيه النزوعي. وقد توفـرت الظروف لهذه التجربة حتى الآن. وأهم هذه الظروف كان ثراء الـقادة واستطراد الازدهار وحـاجة العالم الخـارجي للانتاج الأمريكي وهذا مـا أبقى على الحماس الفـردي. وقد استـعيض عن القيم الميـتافيزيقـية اللازمة لكل حضـارة، بالحركة الرأسماليـة المتحركة بنشاط في داخل المجـتمع مما يجعل للرقم سلطة إنسانـية عظمى، لها القدرة عـلى الإثارة والدفع، كأية سلطة ميـتافيزيقـية مثالية.

أما التجربة الروسية مع الشيوعية فيبدو أنها أفادت كثيراً من فشل الثورة الفرنسية، فتلافت الاخطاء التنظيـمية لما بعد الثورة واغـتنمت الحماس الجماهيري الثـوري لترسيخ موقف انساني جديد، أكثر استنـاداً إلى منطق العلم مع الاصلاحات الوقتية المرتجلة التي تلت ذلك. وهكذا لم تهـدأ عواطف الشعب، حـتى وجدت أنها ملزمـة بموقف جديد دفعت بـدله دماء وتضحـيات كـثيـرة. ومن الجدير مـلاحظته أن الأخطاء والصـراعات الاجتمـاعية من دينية وقومـية حدثت في أوروبا الغربيـة منذ عصر النهضة حـتى عصر لينين، كـانت عظة لقادة الشـيوعـية، واستطـاعوا أن يتلافـوها بهذه الطـفرة العقـائدية الانقلابية، التـي حولت مجتمـعا تاريخياً عريـقاً بتقاليده ودينه إلى مـجتمع يقفـز قفزة واسعة ليسبق ركب التقدم.

وصارت العـقيدة المادية الماركـسية التي تعـتمد العـقل والمنطق التجـريبي، ملتقى للعناصر الـعقلية التي تبـحث عن هدفيـة بطريق العقل، غيـر أن هذه العقـيدة لا يمكن تصنيفها على أنها النظام الأمثل لعموم الشعوب. والسؤال المطروح والذي صارت إجابته قاب قوسين أو أدنى يتـمثل في: هل سينجح هـذا النظـام فـي مماشـاة الحـريـة الفرديـة

الـذي تكـرس الجهـد الانساني لأجلها منذ عصر النهضة؟ وهل يمكن للفرد أن يبقى على حماسته لحريته وحقوقه في النظام الجماعي المقرر بسلطة حتمية من قبل الدولة؟

ومن الجدير ملاحظته أن كثيراً ممن انضموا لهذه التجربة أرادوا بها منفذا للتخلص من واقع بائس، ومنهم من فـهمهـا كوسيلة للتـعبيـر عن نقمتـه على سلطة الغيبـيات الساذجة. ومنهم من تبنوها عن اقتناع عقلـي دون حقد أو رغبة هروب، وهؤلاء قلائل أرادوها لتجربتـها، وهم غير الشـعب الذي قبلها بالعاطفـة دون العقل والمنطق. وبذلك فإن الأخلاقـية التي يفترض أن توافق كل عقـيدة حضارية، صارت مـضطربة مبلبلة في الشيوعية، ومما يزيدها اضسطرابا أن تعاليمها تشجع بطريقة غير مباشرة على التمرد على المبدأ الاخلاقي الطبـقي الذي يعتمد على الحس الإنسـاني المجرد الذي لم تتم حتى الآن أي تجربة حضارية بدونه.

وقد تـكون الحضارة الـغربية، عـزيزي الدارس، قد اسـتنزفت طاقـة دفعهـا في شـعوبهـا. غيـر أن هذا لا يعني أن المنطق الحـضاري الحـديث قد أفلس وفـشل ويمكن العدول عنه فقد أصبح ملكاً للعالـم أجـمع وما التجارب التي تمكنها أن تحدث من جديد إلا استطرادا عليه واستمراراً لتجاربه في التعبير عن وعي الذات الإنسانية في الفرد. وما قلق التاريخ إلا قلق ترقب وانتـظار لأمة تكون ذات مواءمة نفـسية لِتَسَلّمِ مـشعل الإنارة والانطلاق بوحدة وحزم إلى الأمام.

9. نصوص مختارة من:

1.9 ديكارت 1596-1650م

* غادر ديكـارت فرنسا إلـى هولندا، ولسنا نعلم لماذا تركهـا ويحتـمل أن هذا يرجع إلى أنه قد خشي أن يتـهم بالهرطقة. وهو يصف وجوده في امـسترادام بقوله: «هناك وسط الجموع المكتظة، استطعت أن أعـيش وحيدا منعزلا وكأني في صحراء نائية» (ول ديورانت، ج3، ص323)
* وفي كتابه «مقال في المنهج» الذي كتبه عام 1629م ونشره عام 1639م يقول: «إن السبب الأسـاس في أخطائنا يكمن في أهواء طفولتنا . . . فـالمبادئ التي اعتنقتـها في شبابي سأسـتمر على الأخذ بها دون أن أتحـرى حقيقتـها ومبلغ الصدق فيها».

* ولما كان ديكارت مولعاً بالرياضيات، وفوق كل شيء بالهندسة التي دأبت عبقريته على تحليلها، فقد تاقت نفسه بعد ابتدائه بالشك الشامل إلى العثور على حقيقة يمكن التسليم بها على الفور، بصفة عامة مثل بَدَهيات اقليدس إذ يقول: «إنّ ارشميدس، لكي يتيسر له أن يزحزح الكرة الأرضية من مكانها وينقلها إلى مكان آخر، تطلّب أن يكون هناك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك، وأنا بالمثل، سيكون لي الحق في أن استبشر خيراً كثيراً إذا أسعدني الحظ، فأضع يدي على شيء واحد مؤكد لا نزاع فيه» وأكد على هذه النقطة بقوله: «أنا أفكر فإذاً أنا موجود» (انظر ول ديورانت، ج30، ص324-325).

* لقد اكتشفت فلسفة النهضة «الفرد»، ولكن ديكارت جعل من الفرد همزة الوصل في فلسفته فهو يقول: «إني لأرى بوضوح أنه ليس ثمة شيء أيسر عليّ أن أعرفه، من عقلي أنا» (انظر ول ديورانت، ج30، ص325).

* وهربا من سجن النفس «الأنانية» لجأ ديكارت إلى الله «سبحانه وتعالى» الذي لا يمكن قطعاً أن يجعل من كل حواسنا مجرد خدعة، ولكن متى يدخل الله إلى هذا المنهج الذي بدا في جرأة بالشك في كل المعتقدات والمبادئ التي تلقاها الإنسان؟ ان ديكارت لا يستطيع إثبات وجود الله من شواهد بديع صنعه في العالم الخارجي، ولأنه لم يوضح بعد وجود هذا العالم الخارجي. ولذلك اخرج ديكارت (الله) في النفس المدركة، وهو يقول: «إن لدي تصوراً لكائن كامل مثالي قدير عليم، ضروري، خالد، ولكن هذا الذي يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذي لم يوجد، وعلى ذلك فإن الكائن الكامل المثالي يجب أن يكون الوجود بين صفاته. ومن الذي كان يستطيع أن يَبُثّ في هذه الفكرة الا الله سبحانه وتعالى «ومن المستحيل أن أحمّل نفسي فكرة الله، إذا لم يكن الله موجوداً حقاً. وإذا كان الله يريد أن يخدعنا فلن يكون كاملاً ومن ثم فإنه لا يضلّلنا عندما تكون لدينا أفكار واضحة جَلَيّة، ولا حين يتيح لحواسنا أن تكشف لنا عن عالم خارجي. لست أدري كيف يمكن الدفاع عنه سبحانه أو تبرئته من تهمة الخداع والتضليل إذا، كانت هذه الأفكار ناتجة عن أسباب غير متعلقة بأشياء جسدية مادية ومن ثم يجب أن نقر بأن الأشياء الجسدية المادية موجودة. (انظر ول ديورانت، ج3، ص326).

* لقد بقي في علم ديكارت، إن لم يكن في ميتافيزيقاه، ما يشيع في نفسه الخوف من الاضطهاد والتعذيب. فقد كانت نظريته في ميكانيكية الكون قد

«تركت المعجزات والارادة الحرة في موقف خطير ومأزق حرج، برغم اعترافه بالدين القويم والصراط المستقيم.

عندما سمع ديكارت بإدانة جاليليو «يونية/حزيران 1663م» طرح جانباً مؤلفه الضخم «العالم» الذي كان قد اعتزم أن يضم فيه شتات أبحاثه العلمية والنتائج التي توصّل إليها، وكتب، وقلبه يقطر أسى وحزناً إلى «مرسن»:

«لقد كان لهذا النبأ أعمق الأثر في نفسي، حتى كدت أعقد العزم على ان أحرق كل مخطوطاتي، أو على الأقل أخفيها عن الأنظار . . . وإذا كانت حركة الأرض غير صحيحة. فإن كل ميادين فلسفتي عن «ميكانيكية العالم» خاطئة . . . لأنها كلها مترابطة يؤيد بعضها بعضا . . . ولكني على أية حال لن أنشر شيئا يتضمن كلمة واحدة تغضب الكنيسة» (ول ديورانت، ج30، ص 331، 332).

2.9 روسو (1712-1778)م

* ألف روسو أشهر ترجمة ذاتية في أخريات أيامه، وهي كتابه: «الاعترافات» ليروي فيه سيرته وخلقه. وحين قرأ فقرات من دفاعه هذا على بعض المحافل في باريس حصل خصومه على أمر من الحكومة يحظر أي قراءة علنية أخرى لمخطوطته. فلما فُتّ في عضدة، تركها عند موته مشفوعة برجاء للأجيال التالية قال فيه:

«إليكم هذه اللوحة الإنسانية الوحيدة - المنقولة بالضبط عن الطبيعة بكل صدق - الموجودة الآن أو التي ستوجد إطلاقاً في أغلب الظن. وأيما كنتم يا من نصبكم قدري وثقتي حكَماً على هذا السجل فإني أستحلفكم ما أصابني من خطوب ومحن وبحق ما تشعرون به من أخوة للبشر وباسم الإنسانية جمعاء ألا تدمّروا عملا نافعا فريدا في بابه، قد يصلح بحثاً مقارناً من الدرجة الأولى لدراسة الإنسان وألا تنتزعوا من شرف ذكر هذا الأثر الصادق الوحيد لخلقي الأثر الذي لم ينل من خصومي مسخا وّتشويها» (انظر ول ديورانت، ج39، ص10).

* وفي عام 1756-1757م كتب روسو أشهر رواية في القرن الثامن عشر «جولي، أو هلويز الجديدة» وسأقتطف لك عزيزي الدارس، نصاً من هذه الرواية حيث يقول:

«لقد سكرنا كلانا بخمر الحب، حبها لحبيبها، وحبي لها. وامتزجت تنهداتنا ودموعنا . . . ولم تنس نفسها قيد لحظة واحدة في حمى هذا السكر اللذيذ، وأؤكد تأكيداً قاطعاً أنني إن كنت مرة، وانا منساق بحواسي، قد حاولت حملها على الخيانة، فإنه لم يكن بي رغبة حقيقية في النجاح . . . ذلك أن واجب نكران الذات تسامى بعقلي . . . لقد كان من الممكن أن أقارف الجريمة، وقد قورفت مائة مرة في قلبي، ولكن أنْ ألوثَ شرف حبيبتي «صوفى»! أواه، أممكن هذا؟ كلا! لقد قلت لها مائة مرة انه محال . . . فإن حبي لها أعظم من أن يغريني بتملكها . . . تلك كانت اللذة الوحيدة لرجل أوتي مزاجاً من أكثر الأمزجة تأججاً، ولكنه ربما كان في الوقت ذاته من أجبن من أنجبتهم الطبيعة من البشر» (انظر ول ديورانت، ج39، ص258).

* ومن أشهر كتب روسو كتاب «العقد الاجتماعي»، الذي سأقتطف لك نصاً منه حيث يقول: «إن الحكماء إن حاولوا الكلام بلغتهم إلى القطيع العام بدلاً من لغته لن يستطيعوا ايصال ما يريدون إلى افهامهم . . . ولكي يمكن لشعب ناشيء من ايثار الأصول السليمة للنظرية السياسية . . . يجب أن تصبح النتيجة سبباً: فالروح الاضافية التي ينبغي أن تخلقها هذه المؤسسات يجب أن تسود أساسها نفسه، ويجب أن يكون الناس أمام القانون ما يجب ان يصبحوه بالقانون. إذاً فالمشرّع لعجزه عن الالتجاء إلى القوة أو للفعل يجب ان يلجأ إلى سلطة من نوع مختلف، قادرة على الكبح دون عنف . . . هذا ما وعى آباء الأمم في المع العصور إلى الالتجاء للتدخل الإلهي، ونسبة حكمتهم هم لآلهتهم، حتى تطيع الشعوب بخضوعها لقوانين الدولة كما تخضع القوانين الطبيعية . . . دون عائق. وتحتمل نير الخير العام عن طيب خاطر» (ول ديورانت، ج39، ص287، 288)

* أما كتابه «أميل» فبعضه كان ثمرة مناقشاته مع مدام «رينية» عن تربية ولدها. واتخذ أول شكل له في مثال صغير كتب - ليس أماً طيبة قادرة على أن تفكر - وهي مدام «دشنونو» ابنة مدام دويان. وقد قصد به روسو أن يكون تذييلا لقصة «هلويز الجديدة» فالكائنات إذن خلاصة لفكره التربوي، فقد استهله برفضه الطرق القائمة على التلقين، وكان يؤثر أن يكون هنالك نظام تعليم عام تقوم عليه الدولة، ولأن التعليم العام كان آنذاك في يد الكنيسة، ارتأى بتعليم

خاص يطلع به لمعلم خاص أعزب، وعلى هـذا المعلم أن يبعد الطفل ما أمكن عن أبويه وأقاربه، مخـافة ان تصل إليه العدوى من رذائل الحضارة المـتراكمة.
وإليك عزيزي الدارس، نصا اخترته لك من كتابه هذا يقول فيه:

«أتريدون أن تردوا الناس جميعـاً إلى واجباتهم الفطرية؟ ابدأوا بالأم إذاً. وسوف تدهشكم النتـائج. فكل الشرور تأتي في أعـقاب هذه الخطيـئة الاولى . . . والأم التي يغيب أطفالها عـن بصرها، لا تكتسب الاحترام الكثير فليـس هنا حياة أسرية، وروابط الطبـقة لا تتـقوّى بروابط العـادة، وليس هناك وجـود يعد للآباء والامـهات والأخـوة والأخوات. فـهم أغراب تقريبـاً، فكيف يحب بعضـهم بعضاً؟ إن كـلا منهم يفكر في نفسه.

أمـا إذا تنازلت الأمهـات بإرضاع أطفـالهن، فـسيكون هناك إصـلاح في الخلق سينعش الشعور الفطري في كل قلب، ولـن تشكو الدولة فقراً في عدد المواطنين. وهذه الخطوة الأولى وحدها ستعـيد المحبة المتبادلة. عندها يغدو لعب الأطفال الـصاخب متعة بعد أن كنا نحتسبه شديد الإرهاق لنا، ويزداد إعـزاز الأم والأب بعضهما لبعض ويقوى رباط الزواج . . . وهكذا يأتي الشفـاء من هذا الشر الواحد بإصلاح شـامل. فتستـعيد الطبيـعة حقوقـها. وإذا أصبـحت النساء أمهـات صالحات أصبح الرجـال أزواجاً وآباء صالحين» (ول ديورانت، ج39، ص295)

3.9 كانت، عمانؤيل 1724-1804م

فيلسوف ومفكر سياسي الماني مثالي (انظر ترجـمته في الموسوعة السياسة، ج5، ص73؛ يوسف كرم، تاريخ الفلسفـة الحديثة، ص208 فما بعد). من مـؤلفاته: (نقد العقل الخـالص النظري) و(نحو سلام دائم، محـاولة فلسفية) ورسـالة بعنوان (الأساس الممكن الوحـيد للبـرهنة على وجـود الله) و(دراسة في وضـوح مبـادئ العلم الإلهـي النظـري والأخـلاق) و(أحلام واهم مـعبرة بأحلام الميتـافيزيقا) ورسـالة باللاتينية بعنوان (صورة ومبادئ العالم المحسوس والعالم المعقول) وغير ذلك.

لا يوجد بالنسـبة إليه معرفـة مطلقة للحقيـقة بذاتها. كمـا أن العلم ليس سوى مجال من مجالات المعرفة، والعقل هو ميدان من مبادئ الأخلاق. ويرى أن فكرة العقد الاجتماعي (لروسـو) ليست فرضية تاريخيـة بل هي: «فكرة صادرة عن العقل» وتشكل أساس شرعيـة السلطة. كما أن نظرية الارادة العامة والمساواة الطبيـعية لا تشكل عناصر

لعقيدة ديموقراطية لأنه كان جمهورياً وليس ديموقراطياً. وهي عنده ليست سوى مسلمات صادرة عن الحق الأخلاقي لمنع الحاكم من فرض إرادته بدون مشاركة بقية الذوات الأخلاقية. (موسوعة السياسة، ج5، ص73) ويعطي «كانت» الأولوية للممارسة على النظرية مؤكداً على العمل كعنصر حاسم في تقدم البشرية وأنسنتها. ويدعو كانت مذهبه بالتصورية الذاتية أو التصورية.

ويعلن «كانت» أن فلسفته لا تتمتع بأي امتياز عن غيرها إلا من حيث كونها تساعد البشر على نيل حقوقهم السياسية. ولهذا فإنه ينطلق في فلسفته السياسية من كونية القانون الأخلاقي الذي يجعل البشر كذوات أخلاقية متساوين فحبهم للحرية يجعلهم أصحاب كرامة. عقلانيين يستحقون التمتع بالحرية السياسية وبما أن عالم الأخلاق «عالم الحقائق السياسية والاجتماعية» محكوم بالغايات، ينتج عن ذلك، أن هذا العالم لا يمكن أن يحكم الا بدولة الحق والحاق السياسة بالأخلاق التي تتميز عن غيرها بالاطلاقية والحزم. ويعرّف «كانت» الحق على أنه: «مجموعة الشروط التي تمكن حرية الفرد من التوافق مع حرية الآخرين في إطار قانون حرية عام» (انظر الموسوعة السياسة، ج5، ص34).

إن هذا التعريف يتأتى من فكرة استقلالية الارادة عند «كانت» وسيادة الغايات من جهة ومن مبادئ حقوق الانسان في الحرية والاخاء والمساواة لثورة عام 1789م. فاحترام هذه المبادئ والدفاع عنها هي الأساس الذي يقوم عليه كل نظام شرعي. كما أن الدفاع عن هذه المبادئ هو غاية السياسة وليس العمل على كسب رضا المواطنين. والشكل المناسب مع هذه المبادئ هو الشكل الجمهوري «المناقض للشكل الاستبدادي» ولهذا أيد «كانت» الملكية الدستورية ونظام الاقتراع القائم على حرية حق التصويت.

كان «كانت» يعتقد بأن الطبيعة تهيئ كونيّتها بقيادة الانسانية نحو أهدافها الطبيعية، تعطي للسياسة غاياتها بصورة عفوية وتقود الجنس البشري نحو التوسع على الأرض ونحو انتشار الثقافة كشرطين أساسيين لقيام حكومة شرعية، جمهورية أو كونيّة تحقق السلام الدائم. فالنظام الجمهوري الذي ينزع بشكل طبيعي إلى أن يصبح نظاماً عالمياً وأن يلغي الحروب والتناقضات هو بهذا المعنى «تحضير» لاقامة مملكة الله على الأرض. غير أن النظام الجمهوري لا يقيم الحرية بشكل مطلق لأن الطبيعة والسياسة تقودان إلى تحقيق سيادة القانون وليس إلى الأخلاقية. إلا أن دولة الحق تبقى في الإطار العام لفلسفة التاريخ، أملا يرتجى من أجل سيطرةٍ مطلقة للقانون الأخلاقي (انظر موسوعة السياسة، ج5، ص74)

هذا ولا يعتبر «كانت» العقل العملي عقلا انتهازياً «أي العقل المطبق في عالم العقل». ذلك لأن توجيهات العقل العملي تفرض نفسها كمطلق وأي اختراق لها يبقى غير مقبول. فالتوجيهات الأخلاقية المتضمنة في الغايات لا يمكن لها أن تكون في أي حال من الأحوال نابعة من الوسائل. ولم يكن «كانت» يؤمن بالثورة كوسيلة للتغيير، بل كان يؤمن بالإصلاح وكان يعتبر أن سبب الثورة هو غياب الإصلاح. حتى أنه عارض بشدة الدعوة إلى مقاومة إرادة الحاكم لأن ذلك يتناقض مع فكرة السيادة ويعيد المجتمع إلى ما قبل الحالة البديلة وربما أتهم لهذا بأنه معاد للتغير ومغرق في الرجعية.

4.9 شبنغلر 1880-1936م

الماني الجنسية، وصاحب كتاب «تدهور الحضارة العربية». هذا الكتاب قد بلغ تقديره في الغرب حدا صُنف معه كأعظم مؤلف صدر في النصف الأول من القرن العشرين.

يرى شبنغلر أنه لا يمكن أبدا فهم أية ظاهرة أساسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو علمية أو أدبية أو فلسفية إلا بواسطة فهم كل ما للحضارة من ظواهر، وهو بذلك يقول: «حينئذ رأيت فيضا زاخراً من الروابط التي شعر بها بعض المؤرخين شعوراً واضحاً حينا وغامضا في معظم الأحيان دون أن يصلوا إلى فهمها إطلاقاً، روابط بين صور الفنون التشكيلية والفنون العسكرية أو الادارية، ورأيت تشابهاً عميقاً بين الأشكال السياسية والرياضيات في الحضارة الواحدة، بين النظرات الدينية والصناعية، بين الرياضيات والموسيقى وفنون التشكيل، بين صور الاقتصاد وصور المعرفة وبينت بجلاء ووضوح الارتباط الروحي العميق بين أخذ النظريات الفيزيائية الكيميائية والتصورات الأسطورية الخاصة بالاجداد عند الجرمان، بين أسلوب المأساة، والآلية الديناميكية ... ورأيت وراء هذا كله، في فيضٍ من النور، أن هذه المجموعات القوية المتشابهة في هيئتها والتي تمثل كل واحدة منها، تمثيلاً رمزياً في الصورة العامة للتاريخ العام، نوعاً إنسانياً خاصاً، أقول رأيت أن هذه المجموعات تكون بناءً متجانساً في أجزائه كلّ التجانس، وهذه النظرة هي وحدها التي تستطيع أن تكشف عن سياق التاريخ وأسلوبه الخاص» (شبنغلر، ص14)

واستمع عزيزي الدارس، إلى رأي شبنغلر في الحضارة العربية، والتي يبدو أنه كان معجباً بها كثيراً إلى درجة رأى معها أن كل حضارة كانت في الشرق الاوسط عدا

الحضارة الفرعونية هي حضارة عربية، يقول: «... وهذا وحده كافٍ ليفسّر لنا سر الغيرة الجبارة التي دفعت بالحضارة العربية عندما انطلقت أخيراً من قيودها الفنية وأغلالها الأخرى لتلقي بظلالها على جميع البلدان التي تنتمي اليها باطنياً منذ قرون وقرون سبق انطلاقاتها الأولى. إن هذه الغيرة لدلالة على أن النفس العربية هي في عجلة دائمة من أمرها، فهي تلاحظ أعراض شيخوختها حتى قبل بلوغ شبابها. وأنه والحق لا مثيل هناك في التاريخ لتحرر الجنس المجوسي وانطلاقته، فلقد افتتحت سوريا، لا بل حررت عام 634م، وسقطت دمشق عام 637م، وزيزفون مثلها، وفي عام 641م استعيدت مصر وبلغ العرب الهند، وفي عام 647م عادت قرطاجة، واستعيدت سمرقند عام 676م، وفي عام 710م سقطت اسبانيا، وفي عام 732م أخذ العرب يقرعون أبواب باريس.

لقد ضغطت في هذه السنوات القلائل جميع العواطف العربية المدخرة والآمال المؤجلة والأعمال المحفوظة، هذه التي تكفي لتملأ قروناً وقروناً من التاريخ. فالصليبيون أمام القدس وسلالة «هوهنشتاوفن» في صقلية، و«الهانسا» في البلطيق، والفرسان «التيونيون» في الشرق السلافي، والاسبان في أمريكا، والبرتغاليون في الهند الشرقية، وامبراطورية شارل الخامس التي لا تغرب الشمس عنها، وبداية عصر الاستعمار الانجليزي تحت رعاية «كرومويل»، كل هذه الانطلاقات تعادل في زخمها انطلاقة واحدة حملت العرب إلى اسبانيا وفرنسا وإلى الهند وتركستان» (شبنغلر، ص18، 19)

عزيزي الدارس، مما سبق يتضح الإعجاب الشديد الذي يكنّه شبنغلر للعرب والحضارة العربية التي يفوق زخمها مرات ومرات زخم الحضارة الفاوستية، كما ويبدو من كلام شبنغلر أن العرب لم يسترقوا البلدان التي فتحوها، بل فتحوها بكل بساطة وحرروها من نير الأجانب والأغراب.

5.9 توينبي Toynbee Arnold (1889-1975م)

صاحب الكتاب الشهير «دراسات في التاريخ» يتألف من 12 مجلداً ويتحدث عن 26 حضارة وهو صاحب نظرية «التحدي» الذي ناقش فيه نظرية العلاقة بين البيئة والحضارة. وقال ببطلان هذه النظرية. وسأقتبس لك عزيزي الدارس، نصاً من كلامه في هذا الموضوع، يقول: «ولكن التصوير المفضل عند الاغريق لصحة نظرية البيئة كان يقوم على المقارنة بين تأثير البيئة في القسم الاعلى من وادي النيل «الصعيد» في الهيئة

البدنيـة للسكان وأخلاقهم والنظـم التي تميّز بها المصـريون وبين تأثير البيـئة في أراضي الحشائش الاوراسنية «الأوروبية الآسيوية» على الهـيئة البدنية والاخـلاق والنظم الخاصة بالشيثين» (قوم من الرحل أقبلوا من صحاري وسط آسيا واستقروا شمالي البحر الأسود وظلوا هناك بَدْواً فيـهم غلظة وقسوة وكانوا يهاجـمون الشعوب الآمنة المسـتقرة في بلاد الرافدين وآسيا الصغرى والشام في القرن الثاني عشرة قبل الميلاد وكانوا رمزاً للرعب في العصور القديمة، ونشأت عنهم أجناس كثيرة).

إن القائلين بنظرية الأجناس والقائلين بنظرية البيئة كلتيهما يحاولون أن يثبتوا أنهما أصل الاخـتلاف في السلوك النفـسي «وتشمل الناحـيتين العـقلية والـروحية» وطريـقة التصرف بين أجناس الناس، ويفترضون أن اختـلاف السلوك النفسي يتمشى بصورة ثابتة ومستمرة مع اختلافات ظواهر البيـئة الطبيعية. ونظرية الأجناس ترى أن اختلاف الطبائع يرجع إلى اختـلاف الهيئة البـدنية، ونظرية البيـئة ترد الاختلاف في طبـائع الخلائق إلى الاختلاف في الظروف المناخيـة والجغرافية ولباب كلتـا النظريتين هو التوافق بين طائفتين من الظواهر المتـغيـرة، ففي حـالة نظرية الأجناس يكون التـوافق بين الطبـائع والتكوين البدني، وفي حالة نظرية البيئة يكون التـوافق بين الطبائع والبيئة. ولا بد أن يبرهن على أن ذلك التوافق ثابت ومـستمر، إذا كـان ولا بد من قبول النظريات القائمـة عليه. ولما وضعنا نظرية الجنس موضع الاختيار تبين تهـافتها وبطلانها. والآن نتبين كيف أن نظرية البيئـة – وإن كانت أقل سخفـاً – ليست بأقوى من صاحبـتها. وما علينا الا أن نخـتبر نظرية البيـئة هذه، مستـخدمين نفس المثالين المحبـبين إلى أصحابهمـا، وهما مثال بـيئة الحشـائش الاوراسية وبيئـة وادي النيل. ينبغي أن نجد أقـاليم أخرى على سطح الأرض تشبـه في ظروفها الجـغرافيـة والمناخية هذين الإقليـمين، فإذا ظهـر أن هذين الاقليمين يخرجان طرازين من الناس يشبهان في الطبائع والنظم طبائع الشيثين من ناحية والمصريين من ناحية أخرى، ثبتت نظرية البيئة، وإذا لم يخرجا هذين الطرازين انهارت من أساسها ورفضناها.

ولنأخـذ أولاً بيئـة الحشـائش الاوراسيـة، تلك المنطقة الواسـعة التي لم يـعرف الإغريق منها الا الركن الجنوبـي الغربي «أي منطقة البحر الأسـود» ونستطيع أن نضيف إليها بيئة «أو منطقة» الحشائش الافراسيـة «الإفريقية الآسيوية» التي تشمل الجزيرة العربية والصحراء الافريقيـة. هل نجد التشابه بين منطقتي الحشائش الاوراسيـة والافراسية له ما يقابله من التشابه بين الجـماعات البيئية التي ظهـرت في المنطقتين؟ الجواب: نعم، فكلتا

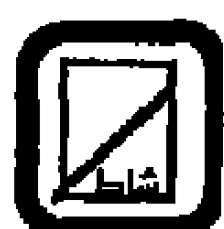
البيئتين أخرجت مجتمعا من البدو وكانت بدايتهما تتشابه في أشياء وتختلف في أشياء، منها ما يمكن أن نتوقعه من اختلاف حيوان المرعى لكل منهما. ولكننا إذا وضعنا الأمر موضع الاختيار مرة أخرى لم نلبث أن تتبين أن تشابه المراعي لا يؤدي بالضرورة إلى تشابه المجتمعات التي تنشأ فيها، لأننا نجد أنه توجد بيئات حشائش أخرى لم تنشأ فيها حياة بداوة، كما نرى في بسائط فنزويلا وسهول البامباس في الأرجنتين وأراضي الأعشاب في استراليا. ففي هذه البيئات لم تنشأ الجماعات التي عاشت فيها حياة بدوية خاصة بها ومن الممكن أن يقال إن سلطان الصحراء لم يظهر على من نزلها من الاوروبيين، لأنهم جميعاً خرجوا من بيئات غريبة. فلم يُنْشِئ رعاة البقر في أمريكا حياة بدوية ولا فعل ذلك «الجاوتشو»، وهم فرسان أراضي المراعي من الأرجنتين، ولا أهل الماشية الاستراليون، فهؤلاء جميعاً لم يتحولوا إلى بدو رغم معيشتهم في أقاليم صحراوية ذات حشائش تكفي للمراعي، بل ذللوا أرض المراعي للزراعة بالمحراث. ولو أن للبيئة كل هذا الأثر لكان من المتوقع أن ينشئ المهاجرون الأوروبيون في مهاجرهم مجتمعات بدو ظواعن ولو لجيل واحد . . . ومن الجدير بالملاحظة بصورة أوضح أن السكان الأصليين الذين وجدهم الأوروبيون في تلك البقاع لم تحولهم بيئتهم إلى بدو ظواعن قط، وكل ما فعلوه هو أنهم حولوا جنة البدو هذه إلى أراض للصيد.

وننتقل إلى بيئة وادي النيل التي تعتبر ظاهرة ممتدة وسط أراضي الحشائش الافرو-أسيوية التي تحيط به. إن مصر تتمتع بنفس الجو الجاف الغالب على الأراضي المحيطة بها. ولكن لها ميزة غير عادية، وهي أنها تحصل على فيض من الماء والطمي لا ينقطع يأتيها به النهر العظيم الذي ينبع من نواحٍ وافرة الأمطار خارج حدود منطقة الاستتب. وقد تمكن الذين أنشأوا الحضارة المصرية من استخدام هذه الميزة ليقيموا مجتمعاً يختلف كل الاختلاف عن مجتمعات البدو من حولهم. ونسأل: هل البيئة الخاصة التي وفرها النيل في مصر هي العامل الأساس الذي يرجع اليه قيام الحضارة المصرية؟ لكي يصدق هذا القول، لا بد أن نثبت أنه في كل منطقة أخرى تتوفر ظروف بيئية مماثلة للبيئة النيلية لا بد أن تظهر حضارة مماثلة لحضارة مصر.

وسنضع هذه النظرية موضع الاختبار في بيئة مجاورة للبيئة النيلية تتوفر فيها نفس الخصائص، ونريد بذلك المجرى الأدنى لوادي الفرات ودجلة. هنا نجد ظروفا طبيعية ومجتمعاً شبيهين بما نجده في وادي النيل، وذلك هو المجتمع السومري. هنا تنطبق النظرية، ولكنها لا تصدق في وادي الأردن الذي لم يكن قط مقراً لحضارة. وربما لا

تصدق كذلك على وادي السند. وذلك إذا صدق ما نفترضه من أن حضارة بلاد السند قد أتى بها المهاجرون السومريون إلى هناك. ونستطيع أن تستبعد من ذلك الاختبار الحوض الأدنى لنهر الجانج، لأن بيئته استوائية شديدة الرطوبة، وكذلك نستبعد الحوض الأدنى لنهر «اليانج تسي» والحوض الأدنى «للميسيسيبي» بسبب الرطوبة الشديدة وميل شديد في الجو إلى الدفء، ولكن أشد الناس تشدداً لا يمكنه أن ينكر أن الظروف البيئية السائدة في وادي النيل وبلاد الرافدين توجد في وادي نهري الريوجراندي والكولورادو في الولايات المتحدة. وبجهد المهاجر الأوروبي الذي أقبل إلى هناك مزوداً بأدوات حضارية أتى بها معه من الجانب الآخر للمحيط الأطلسي، تمكن من أن ينشئ الأعمال الحضارية المعجزة، ولكن بيئة الريوجراندي والكولورادو وحدها ما كانت لتحقق ذلك العمل لولا أن أصحابه أتوا بأصوله من نواح أخرى»

(Arnold Toynbee, A Study of History; (Abridgement, 1.78)

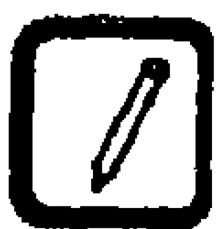


نشاط (10)

أ- قارن بين فكر جاليلو وفكر ديكارت، وناقش ذلك مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

ب- ارجع إلى كتاب الاعترافات لروسو. اقرأ فيه وناقش ما تقرأ مع زملائك ومشرفك الأكاديمي.

ج- اقرأ النص الذي اقتبسناه لك من أرنولد توينبي وقارن ذلك في الموضوع عند ابن خلدون.



تدريب (10)

اذكر محاور كتاب روسو، الاعترافات.



أسئلة التقويم الذاتي (10)

كيف تفسر اتهام «كانت» بأنه معاد للتغيير ومغرق في الرجعية؟

10. الخلاصة

عزيزي الدارس، كان لانتشار «الرشدية» في أوروبا في القرن الثالث عشر، أثر كبير في بعث النشاط العقلي الذي ارتكز اليه الموقف الإنساني في الحضارة الحديثة. وقد أدى ذلك إلى الانتباه لفلسفة أرسطو ودراستها وبذلك انطلق الإنسان إلى تجربته الجديدة بخبراته وإمكاناته على كسب المعرفة.

ابتدأت الحضارة الحديثة بيقظة للبحث عن هدفية جديدة للإنسان إلى غير العالم الآخر. وقد تركزت هذه الهدفية بعد صراع حاد في التحرر الذاتي من المفهوم التقليدي للإنسان وعلاقته بالكون. ومما لا شك فيه أن ما من أحد من أولئك الذين يدعون للتحرر والتمرد على رجال الدين لم يكن ليشك بأنه إنما يدعو إلى خير المثل الإنسانية وخير الطرق للخلاص البشري.

لقد بدأت الحضارة الحديثة مع تواجد المجال التاريخي لتوكيد معنى الإنسان وأهمية خبراته ووعيه للعالم وقد بلغت غايتها عند اندماج الإنسان ذاته في الطبيعة، وإدراكه لجميع ما حوله من خلال حسّه وموقفه بعد أن تمت اكتشافات الفيزياء الجديدة ونظرية النسبية والكم على أيدي انشتاين وبلانك وأمثالهم في عالم الذرة.

11. إجابات التدريبات

تدريب (1)

وضع ديكارت نظرية للانفعال مؤداها: أن السبب الخارجي للانفعال (مثل وقوع نظرنا على حيوان خطير) يُولِدْ ذاتياً أو آنيا فعلا مستجيبا «الهرب» والإحساس المرتبط به «الخوف». فالانفعال هو إنجاز الفعل لا سببه والانفعالات متأصلة في الفسيولوجيا، ويجب دراستها وتفسيرها على أنها عمليات ميكانيكية، وليست في حد ذاتها سيئة لأنها الريح في أشرعتنا. ولكن إذا لم يلطف منها العقل ويحد منها فإنها قد تستعبد الإنسان وتدمره.

تدريب (2)

رأى «لوك» أنّ الشيوعيـة البدائية كانت حينما كـان الطعام دون زراعة، واستطاع الإنسان أن يعـيش دون كد ولا كدح. ولكن عنـدما بدا العمل انتـهت الشيوعـية، لأن الإنسان أخذ لنفسـه ملكاً خاصاً به، أي شيء ذا قيمة أضفاها على جـهده هو. فالعمل إذن هو مصدر 99% من كل القيم المادية.

تدريب (3)

فـسـر هيـوم ذلك على أسـاس أن العـواطف تقـوم على اللذة والألم وتميـزاتنا الأخلاقية تنبع في النهاية من هذا المنبع الخفي ذاته. فنحن نميل إلى إطلاق اسم الفضيلة على أي صفة في الآخرين تعطيـنا اللذة لأنها تعين على نفعنا. وإلى إطلاق اسم الرذيلة على أي صفة بشرية تعطينا الألم.

تدريب (4)

حساب التفاضل، والجاذبية.

تدريب (5)

لامتري، فولتير، ديدرو.

تدريب (6)

ركزت على التاريخ الحضاري من حيث الاهتمام بالإنسان العادي واحواله ومعاشه ومستوى ذلك.

تدريب (7)

المرحلة الأولى: حاول النبلاء فيهـا، وعن طريق البرلمانات أن يستردوا من الملكية ذلك السلطان الذي انتزعه منهم لويس الرابع عشر.

المرحلة الثانية: ظفرت فيه الطبقة الوسطى بالتحكم في الثورة.

المرحلة الثالثة: انتزع الرياسـة فيها زعماء غوغاء المدينة. وظلت جـماهير الشعب متمسكة بالدين.

تدريب (8)

المقصود بذلك عند هيجل أن الفكرة تولد نقيضها، ومن ذلك تنتج فكرة جديدة تؤلف بينهما. ثم تأخذ الفكرة الجديدة نفس المراحل الأولى فـفكرة الوجود تنتج فكرة العدم. ومنها تنتج الصيرورة.

تدريب (9)

1- الفكر التاريخي اليوناني. منشور عام 1924م.

2- العالم بعد مؤتمر السلام. منشور عام 1925م

3- رحلة إلى الصين. منشور عام 1931م

4- المدنية تحت المحاكمة. منشور عام 1948م.

5- الحرب والحضارة. منشور عام 1951م

6- العالم والغرب. منشور عام 1953م

7- دراسة في التاريخ منشور عام 934-1961م ويقع في 12 جزءا.

تدريب (10)

يقع الكتاب في جزأين. الجزء الأول في جملته جـو من الصراحة يشيع الطمأنينة في نفس القارئ.

اما الجزء الثاني فتشوهه الـشكاوى المملّة من الاضطهاد والتآمر. وأيا كان الكتاب فهو من أعظم الدراسات السيكولوجية كشفا عن النفس. وهو قصة روح حساسة شاعرة خاضت صراعا أليما مع قرن واقعي قاسٍ.

- حرب الثلاثين عاماً (1618–1648)م The Thirty-Year-War: حرب أوروبية عامة، كانت ألمانيا مسرحها الرئيس وقد نشبت تلك الحرب لأسباب عديدة، وتخللتها محالفات متغيرة ومعاهدات صلح إقليمية. واستمر القتال حتى أبرم صلح «وستفاليا» عام 1648م. بل استمر في حالة فرنسا واسبانيا حتى عقد صلح البرانس عام 1659م. وقد خربت الحرب ألمانيا ودمرت مدنها. وخرجت منها فرنسا دولة اوروبا العظمى.

- زندقة Irreligion: معرب عن الفارسية، أطلقه الفرس قديماً على الخارج على دين الدولة ببدع معينة، أهمها القول بأزلية العالم. استعمله المسلمون أولا في الدلالة على القائلين بالأصلين: النور والظلمة على مذهب المانوية وغيرهم من الثنوية. ثم اتسع معناه فشمل الدهريين والملحدين وسائر أصحاب المعتقدات الضالة بل أطلق على المتشككين، وكل متحرر من أحكام الدين فكرا وعملا.

- عصر النهضة Renaissance Age: مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة (القرون 14–16) ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية 1453م حيث نزح العلماء إلى ايطاليا ومعهم تراث اليونان والرومان.

- عصور وسطى The Middle Ages: عصر من عصور التاريخ الأوروبي، تلا الأزمنة القديمة وسبق العصور الحديثة. بدايتها سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية عام 476م ونهايتها اكتشاف كولومبوس لأمريكا عام 1492م.

- موسوعة Encyclopedia: يقصد بكلمة موسوعة أو دائرة معارف كل مؤلف يجمع بين دفتيه من الحقائق جميع ما يدخل في دائرة العلم الإنساني، وهي إما ان تكون معلومات عامة مختصرة في جميع ميادين المعرفة، او تشتمل على فرع من فروع المعرفة.

- ميتافيزيقيا Metaphysics: فرع من الفلسفة، يبحث عن الحقيقة الأولية الموجودة.

سماها أرسطو: الفلسفة الأولى، وسميت: ما بعد الطبيعة. والوجود موضوع الميتافيزيقيا.

- هندسة تحليلية Analytic Geometry: هندسة تجري دراسة العلاقات الهندسية بين المنحنيات المختلفة. عن طريق علاقات جدية بين معادلات تمثل تلك المنحنيات منسوبة إلى إحداثيات معينة.

- هيجونوت Hegonote: بروتستانت فرنسا المعتنقون مذهب كلفن وبعد الحروب الدينية (1562-1598)م التي نشبت في فرنسا، أصدر هنري الرابع مرسوم «نانت» الذي منح الهيجونوت تسامحاً دينياً تاماً. غير أنهم اضطهدوا بشكل كبير في عهد لويس الرابع عشرة حيث ألغى مرسوم نانت. فما كان من الهيجونوت إلا أن فروا إلى إنجلترا وهولندا وألمانيا وسويسرا، حيث قدموا خدمات جليلة في ميادين الحياة المدنية والصناعية.



13. المراجع

أ- المراجع العربية:

1- ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافري (213هـ)، السيرة النبوية، ج4، دار الجيل، بيروت، د.ت.

2- الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال، ج2، دار إحياء التراث العربي، صورة طبق الأصل عن طبعة 1965م.

3- حسين مؤنس، الحضارة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م/ 1398هـ.

4- شبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيتاني، ج3، منشورات در مكتبة الحياة، بيروت، 1964م.

5- عبدالوهاب الكيالي، الموسوعة السياسة، ج7، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1979م.

6- ول ديورانت، قصة الحضارة، ج42، دار الجيل، بيروت - تونس، 1408هـ/ 1988هـ.

7- يوسف الحوراني، الإنسان والحضارة «مدخل دراسة»، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

8- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت.

ب- المراجع الأجنبية:

1- Arnold Toynbee, A study of History, Oxford University press, London, New york, Tornto, 1963.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين